الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مختصر الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

الجزء الثاني

المنتخب: أحمد علي بابائي

دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعهٔ:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۲

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ناصر مکارم شیرازی
مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام، ۱۴۲۸
مشخصات ظاهری : ج
وضعیت فهرست نویسی : در انتظار فهرستنویسی
شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۴۸۳۹۳

۶. سورة الأنعام

حرب علی الشرک والوثنیة: قیل أنّ سورة الأنعام مکیة، وهی السورة التاسعة والستون فی تسلسل نزول السور القرآنیة. هدف هذه السورة الرئیسی- مثل أهداف السور المکیة- توکید الاصول الثلاثة: «التوحید» و «النبوة» و «المعاد» ولکنها تؤکد أکثر ما تؤکد قضیة عبادة اللَّه الواحد ومحاربة الشرک والوثنیة، بحیث إنّ معظم آیات هذه السورة یخاطب المشرکین وعبدة الأصنام، وبهذا یتناول البحث فی أکثر المواضع، أعمال المشرکین وبدعهم.

ولعلّ هذا أیضاً هو السبب لما نقرؤه من روایات عن فضل هذه السورة، وإنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملک، وأنّ من یقرأها وترتوی روحه من ینبوع التوحید یستغفر له کل اولئک الملائکة.

إنّ التمعّن فی آیات هذه السورة یقضی علی روح النفاق والتشتت بین المسلمین، ویجعل الآذان سمیعة، والأعین بصیرة، والقلوب عارفة.

ولکن العجیب أن نری بعضهم یکتفی من هذه السورة بقراءة ألفاظها فقط، ویعقد الجلسات لتلاوة آیاتها من أجل حلّ المشاکل الشخصیة، فلو اهتمّت هذه الجلسات بمحتوی السورة، فلا تنحل المشاکل الخاصّة وحدها، بل تنحل جمیع مشاکل المسلمین العامة أیضاً، ومن المؤسف جداً أنّ جمعاً من الناس یعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶

التی لها خواص غامضة ومجهولة فیقرأونها بغیر تمعّن فی مضامینها، مع أنّ القرآن کله مدرسة ودروس ومنهج ویقظة، ورسالة ووعی.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ (۱) هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ طِینٍ ثُمَّ قَضی أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّی عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲) تبدأ السورة بالحمد للَّهوالثناء علیه، ثم تشرع بتوعیة الناس علی مبدأ التوحید، عن طریق خلق العالم الکبیر (السماوات والأرض) أوّلًا؛ ثم عن طریق خلق العالم الصغیر (الإنسان) ثانیاً: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ». اللَّه الذی هو مبدأ الظلمة والنور، بخلاف ما یعتقده الثنویون، وهو وحده خالق کل شیء: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ».

غیر أنّ الکافرین والمشرکین، بدلًا من أن یتعلّموا من هذا النظام الواحد درس التوحید، یصطنعون للَّهالشریک والشبیه: «ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبّهِمْ یَعْدِلُونَ».

نلاحظ أنّ القرآن یذکر عقیدة المشرکین بعد حرف العطف «ثم» الذی یدل فی اللغة العربیة علی الترتیب والتراخی، وهذا یدل علی أنّ التوحید کان فی أوّل الأمر مبدأً فطریاً وعقیدة عامة للبشر، بعد ذلک حصل الشرک کانحراف عن الأصل الفطری.

وروی فی تفسیر نور الثقلین عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام فی تفسیر هذه الآیة قوله: «وکان فی هذه الآیة ردّ علی ثلاثة أصناف منهم لمّا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ». فکان ردّاً علی الدهریة الذین قالوا: إنّ الأشیاء لا بدء لها وهی دائمة، ثم قال:

«وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» فكان ردّاً على الثنوية الذين قالوا: إنّ النور والظلمة هما المدبران، ثم قال: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» فكان ردّاً على مشركى العرب الذين قالوا: إنّ أوثاننا آلهة».

والآية التالية تلفت نظر الإنسان إلى العالم الصغير (الإنسان) فتشير إلى أعجب أمر وهو خلقه من الطين فتقول: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ».

صحيح أنّنا ولدنا من أبوينا، لا من الطين، ولكن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل كان من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷

الطين، فيصح أن نخاطب نحن أيضاً على أنّنا مخلوقين من الطين.

وتستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إنّ اللَّه بعد ذلك عيّن مدّة يقضيها الإنسان على هذه الأرض للنمو والتكامل: «ثُمَّ قَضَى أَجَلًا».

ثم لإستكمال البحث تقول: «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ».

بعد ذلك تخاطب الآية المشركين وتقول لهم: «ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ». أى تشكّون فى قدرة الخالق الذى خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) واجتاز به هذه المراحل المدهشة، وتعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

إنّ كلمة «أجل» وحدها تعنى غير الحتمى من العمر والوقت والمدّة و «الأجل المسمى» بمعنى الحتمى منها وبعبارة اخرى «الأجل المسمى» هو الموت الطبيعى؛ و «الأجل» هو الموت غير الطبيعى، ولكن أنّ الأجلين يعيّنهما اللَّه.

وَ هُوَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ فِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (۳) هذه الآية تكمل البحث السابق فى التوحيد ووحدانية اللَّه، وترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعة من الكائنات، أو لكل ظاهرة من الظواهر، فيقولون: إله المطر، وإله الحرب، وإله السلم، وإله السماء، وما إلى ذلك، تقول الآية: «وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّموَاتِ وَفِى الْأَرْضِ».

من الطبيعى أن يكون الحاكم على كل شىء والمدبّر لكل الامور والحاضر فى كل مكان عارفاً بجميع الأسرار والخفايا ولهذا تقول الآية: إنّ ربّاً كهذا «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ».

وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (۴) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۵) قلنا: إنّ معظم الخطاب فى سورة الأنعام موجّه إلى المشركين، والقرآن يستخدم شتّى السبل لإيقاظهم وتوعيتهم، فهذه الآية والآيات الكثيرة التى تليها تواصل هذا الموضوع.

تشير هذه الآية إلى روح العناد واللامبالاة والتكبر عند المشركين تجاه الحق وتجاه آيات اللَّه، فتقول: «وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸

مثل هذه النفسية لا يقتصر وجودها على عهود الجاهلية ومشركى العرب، فاليوم أيضاً نجد من بلغ الستين من عمره ومع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث والتحقيق فى اللَّه والدين، وإن وقع بيده كتاب أو بحث فى هذا الموضوع لم ينظر إليه وإن تحدّث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحياناً أمام الناس بمظهر العالم المتجبّر! ثم تشير الآية إلى نتيجة أعمالهم، وهى: أنّهم عندما رأوا الحقيقة كذّبوها، ولو أنّهم دققوا فى آيات اللَّه جيّداً لرأوا الحقيقة وأدركوها وآمنوا بها: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ».

ولسوف تصلهم نتيجة هذا التكذيب والسخرية: «فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

فى هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد فى الشدّة على التوالى، المرحلة الاولى هى مرحلة الإعراض، ثم مرحلة التكذيب، وأخيراً مرحلة الإستهزاء بآيات اللَّه.

أ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۶) مصير الطغاة: ابتداء من هذه الآية وما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّة تربوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام والمشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أوّلًا بمكافحة عامل (الغرور) وهو من عوامل الطغيان والعصيان والانحراف المهمة، فيذكّرهم بالأمم السالفة ومصائرهم المؤلمة، وبذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، ويقول: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ» «۱».

ولكنهم لما استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهى: «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ».

---

(۱) «المدرار»: فى الأصل من «درّ» اللبن، ثم إنتقل إلى ما يشبهه فى النّزول كالمطر، والكلمة صيغة مبالغة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) منتهى العناد: يشير القرآن هنا إلى الطلب الذى تقدّم به جمع من عبدة الأصنام ويقول:

«وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ». أى إنّ عنادهم قد وصل حدّاً ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحراً لكيلا يستسلموا للحقيقة.

وَ قَالُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (۹) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۱۰) خلق المبررات: من عوامل الكفر والإنكار الاخرى، روح التحجج والبحث عن المبررات. ومن جملة الحجج التى احتج بها المشركون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأشار إليها القرآن فى كثير من آياته- ومنها هذه الآية- هى أنّهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول اللّه صلى الله عليه و آله وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أيمكن لإنسان من جنسنا أن يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ».

يرد القرآن عليهم بجملتين فى كل منهما برهان:

الاولى: «وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَايُنظَرُونَ». أى لو نزل ملك لمعاونة رسول اللّه صلى الله عليه و آله لهلك الكافرون.

الثانية: هى أنّ الرسول الذى يبعثه اللّه لقيادة الناس وتربيتهم وليكون اسوة لهم، لابد أن يكون من جنس الناس أنفسهم وعلى شاكلتهم من حيث الصفات والغرائز البشرية، لذلك فالقرآن فى الجواب الثانى يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكاً حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان وأن يظهر فى هيئة إنسان: «وَلَوْ جَعَلْنهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنهُ رَجُلًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰

ثم يستنتج من ذلك أنّهم- فى هذه الحالة أيضاً- كانوا سيعترضون الإعتراض نفسه، وهو: لماذا أوكل اللّه مهمّة القيادة إلى بشر وأخفى عنّا وجه الحقيقة: «وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ». وفى الختام يهوّن الأمر على رسوله ويقول له: «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

هذه الآية فى الواقع تسلية لرسول اللّه صلى الله عليه و آله يطلب اللّه فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، ويهدد فى الوقت نفسه المخالفين والمعاندين ويطلب منهم أن يتفكّروا فى عاقبة أمرهم المؤلمة.

قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۱) لكى يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك فى هذه الآية

سبيلًا آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة فى أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر اولئك الذين كذّبوا بالحقائق، فلعلّ ذلك يوقظهم من غفلتهم «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

لا شك أنّ لرؤية آثار السابقين والأقوام التى هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيراً أعمق من مجرد قراءة كتب التأريخ، لأنّ هذه الآثار تجسّد الحقيقة ناطقة ملموسة، ولهذا استعمل جملة «انظروا» ولم يقل «تفكروا».

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳) يواصل القرآن مخاطبة المشركين، ففى الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد وعبادة اللّه الأحد وهنا يدور الحديث عن المعاد، وبالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة. يتكوّن الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أوّلًا: يقول: «قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم وروحهم: «قُلْ لِّلَّهِ». فبموجب هذه المقدمة يكون كل عالم الوجود ملكاً للّهوبيده وتدبيره.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱

ثانياً: إنّ اللّه هو وحده مصدر كل رحمة، وهو الذى أوجب على نفسه الرحمة، ويفيض بنعمه على الجميع: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدى الإنسان- الذى عنده إمكانية الخلود- لباس حياة جديدة بعد موته فى عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة فى سيره التكاملى الأبدى، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ لَارِيْبَ فِيهِ».

فى نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين وعاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم فى سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

الآية السابقة تشير إلى أنّ اللّه مالك كل شىء يستوعبه ظرف «المكان» أمّا هذه الآية فتشير إلى ملكية اللّه لما يستوعبه ظرف «الزمان» الوسيع وتقول: «وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وفى نهاية الآية وبعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين فى اللّه فتقول: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». أى أنّ إتساع عالم الوجود، والكائنات فى آفاق الزمان والمكان لا تحول أبداً دون أن يكون اللّه عليماً بأسرارها.

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۴) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۱۶) الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام فالمشركون، وإن اعتقدوا أنّ اللّه هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأً لأنفسهم، ولربّما اتخذوا صنماً لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، وإله للظلام، وإله للحرب والسلم، وإله للرزق، وهذا هو تعدد الأرباب الذى ساد اليونان القديم.

ولكى يزيل القرآن هذا التفكير الخاطىء، يأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲

هذه الآية تقتصر على توكيد إتصاف اللّه باطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان فى حياته المادية هى حاجته إلى «لقمة العيش» كما يقال، وهذه اللقمة هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوة، وقد يصل خضوعهم لُاولئك حد العبودية، ففى هذا يقرر القرآن أنّ رزق الناس بيد اللّه لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام، فأصحاب المال والقوة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، وأنّ اللّه هو وحده الذى يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام.

ثم للردّ على اولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول اللّه إلى الإنضمام إليهم، يؤكد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء

إنطلاقاً من مبدأ نهی الوحی الإلهی عن ذلک، إضافة إلی نهی العقل: «قُلْ إِنّی أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ».

الآیة التالیة فیها توکید أشدّ لهذا النهی الإلهی عن إتّباع المشرکین: «قُلْ إِنّی أَخَافُ إِنْ عَصَیْتُ رَبّی عَذَابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ». أی یأمر اللَّه رسوله أن یقول بأنّه لیس مستثنی من القوانین الإلهیة، وأنّه یخاف- إن رکن إلی المشرکین- عذاب یوم القیامة.

ولکی یتّضح أنّ النبی صلی الله علیه و آله لا یستطیع شیئاً بغیر الاستناد إلی لطف اللَّه ورحمته، فکل شیء بید اللَّه وبأمره، وحتی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله نفسه یترقّب بعین الرجاء رحمة اللَّه الواسعة، ومنه یطلب النجاة والفوز: «مَّن یُصْرَفْ عَنْهُ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِکَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ».

وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا کَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ یَمْسَسْکَ بِخَیْرٍ فَهُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۷) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ (۱۸) قدرة اللَّه القاهرة: قلنا إنّ هدف هذه السورة هو استئصال جذور الشرک وعبادة الأصنام، وهاتان الآیتان تواصلان تحقیق ذلک. فالقرآن یتساءل أوّلًا: لماذا تتوجّهون إلی غیر اللَّه، وتلجأون إلی معبودات تصطنعونها لحلّ مشاکلکم ودفع الضر عن أنفسکم واستجلاب الخیر لها؟ بینما لو أصابک أدنی ضرر فلا یرفعه عنک غیر اللَّه، وإذا أصابک الخیر والبرکة والفوز والسعادة فما ذلک إلّابقدرة اللَّه، لأنّه هو القادر القوی: «وَإِن یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا کَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن یَمْسَسْکَ بِخَیْرٍ فَهُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» «۱».

---

(۱) «الضرر»: هو کل نقیصة یتعرّض لها الانسان إمّا فی الجسم مثل نقص عضو والمرض، وإمّا فی النفس مثل الجهل والسفاهة والجنون، وإمّا فی امور اخری مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳

فی الواقع إنّ سبب الإتجاه إلی غیر اللَّه إمّا لتصوّرهم أنّ ما یتّجهون إلیه مصدر الخیرات، وإمّا لإعتقادهم بقدرته وأنّه یدرأ عنهم المصائب ویحلّ لهم مشاکلهم.

وفی الآیة التی تلیها إکمال للبحث، فیقول: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ».

ولإزالة کل وهم قد یخطر لأحدهم بأنّ اللَّه قد یسیء استعمال قدرته غیر المتناهیة کما هو الحال فی ذوی القدرة من البشر، یقول القرآن: «وَهُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ». أی أنّه صاحب حکمة وکل أعماله محسوبة لأنّه خبیر وعالم ولا یخطیء فی استعمال قدرته أبداً.

قُلْ أَیُّ شَیْءٍ أَکْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِیدٌ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّکُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَی قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَ إِنَّنِی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ (۱۹) الَّذِینَ آتَیْنَاهُمُ الْکِتَابَ یَعْرِفُونَهُ کَمَا یَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا یُؤْمِنُونَ (۲۰) أعظم الشاهدین: یذکر جمع من المفسرین أنّ عدداً من مشرکی مکة جاءوا إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وقالوا: کیف تکون نبیّاً ولا نری أحداً یؤیّدک؟ وحتی الیهود والنصاری الذین سألناهم، لم یشهدوا بصحة أقوالک بحسب ما عندهم فی التوراة والإنجیل، فهات من یشهد لک علی رسالتک، والآیتان المذکورتان تشیران إلی هذه الواقعة. فی مواجهة هؤلاء المخالفین المعاندین الذین یغمضون أعینهم عن رؤیة کل تلک الدلائل علی صدق الرسالة، ویطلبون مزیداً من الشواهد، یؤمر النبی صلی الله علیه و آله أن: «قُلْ أَیُّ شَیْءٍ أَکْبَرُ شَهَادَةً». أهناک شهادة أعظم من شهادة ربّ العالمین: «قُلِ اللَّهُ شَهِیدٌ بَیْنِی وَبَیْنَکُمْ».

وهل هناک دلیل أکبر من هذا القرآن:

«وَأُوحِیَ إِلَیَّ هذَا الْقُرْءَانُ».

هذا القرآن الذی لا یمکن أن یکون ولید فکر بشری، خاصة فی تلک الظروف الزمانیة والمکانیة، هذا القرآن الذی یضمّ مختلف الشواهد علی إعجازه، فألفاظه معجزة، ومعانیه معجزة، ألیس هذا الشاهد الکبیر وحده کاف لأن یکون تصدیقاً إلهیاً للدعوة!

یستفاد من هذه العبارة أیضاً أنّ القرآن أعظم معجزة وأکبر شاهد علی صدق دعوة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله.

ثم يشير إلى هدف نزول القرآن ويقول: «لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ». أى إنّ القرآن قد نزل علىّ لكى أنذركم، وأنذر جميع الذين يصل إليهم- عبر تاريخ البشر، وعلى إمتداد الزمان

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١۴

وفى أرجاء العالم كافة- كلامى، وأحذّرهم من عواقب عصيانهم. ثم أمر اللّه رسوله أن يسألهم: «أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى ويأمره أن:

«قُلْ لَاأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

أمّا الذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشهدوا لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فإنّ الآية التى بعدها تردّ عليهم وتقول: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ». أى إنّ معرفتهم به لا تقتصر على مبدأ ظهوره ودعوته فحسب، بل إنّهم يعرفون حتى التفاصيل والخصائص وعلاماته الدقيقة أيضاً.

والآية تعلن فى آخر مقاطعها النتيجة النهائية: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

أى إنّ الذين لا يؤمنون بالنبى- مع كل ما تحيطه من دلائل وعلامات واضحة- هم فقط اولئك الذين خسروا كل شىء فى تجارة الحياة.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢۴) أشدّ الظلم: تواصل هذه الآيات المنهج القرآنى فى مقارعة الشرك وعبادة الأصنام بشكل شامل. تقول الآية الاولى بصراحة وبصورة استفهام إستنكارى: «وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

الجملة الاولى إشارة إلى إنكار التوحيد والثانية إشارة إلى إنكار النبوة حقّاً لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جماد لا قيمة لها، أو إنساناً ضعيفاً مثله شريكاً لربّ لا تحدّه حدود وله الحكم على كل عالم الوجود.

فلا شك إذن فى أنّ أىّ ظالم- وعلى الأخص اولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة- لا يمكن أن يرى السعادة والفلاح: «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

الآية التالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنّهم باعتمادهم على مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة فى هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلك فى الحياة

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١۵

الآخرة، فتقول الآية: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ». أين هم؛ لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذكم؟ لماذا لا يظهرون أىّ حول ولا يبدون أيّة قوة؟

فيستولى على هؤلاء الرعب والخوف ويبهتون ولا يحيرون جواباً، سوى أن يقسموا باللّه إنّهم لم يكونوا مشركين، ظنّاً منهم أنّهم هناك أيضاً قادرون على إخفاء الحقائق: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ».

الآية الثالثة ومن أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: «انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ».

وتنهار المساند التى إختاروا الاستناد عليها وجعلوها شريكة للّه، وخابوا فى مسعاهم «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢۵) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٢۶) فى هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسى لبعض المشركين، فهم لا يبدون أيّة مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك، يناصبونها العداء، ويقذفونها بالتهم، فيبعدون أنفسهم وغيرهم عنها عن هؤلاء. تقول الآية: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ

أَكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا» «١».

إنّ نسبة هذه الامور إلى اللَّه، إنّما هى إشارة إلى قانون «العلة والمعلول» وخاصية «العمل»، أى إنّ أثر الاستمرار فى الانحراف والإصرار على المعانـدة والتشاؤم يظهر فى إتصاف نفس الإنسان بهـذه المؤثرات، لقـد أثبتت التجربة أنّ المنحرفين والمذنبين يحسّون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، ولكنهم يعتادون ذلك بالتدريج، وقد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحة لازمة وضرورية.

---

(١) «أكنة»: جمع «كنان» و هو كل ستار أو حاجز؛ و «الوقر»: بمعنى ثقل السمع.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٦

وهؤلاء وصلوا حـدّاً تصـفه الآية فتقول: «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّايُؤْمِنُوا بِهَا» بل الأكثر من ذلك أنّهم عندما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمـام ما تقول، ولا يأتون- على الأقل- بهيئـة الباحث عن الحق الـذى يسـعى للعثور على الحقيقـة والتفكير فيها، بل يأتون بروح وفكر سلبيين، ولا هدف لهم سوى الجدل والإعتراض: «حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ». أنّهم عند سـماعهم كلامك الذى يسـتقى من ينابيع الوحى ويجرى على لسانك الناطق بالحق، يبادرون إلى إتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها اناس غابرون:

«يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

الآية التالية تذكر أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضـلالهم يسـعون جاهدين للحيلولة دون سـلوك الباحثين عن الحقيقة بما يشيعونه ويروّجونه من مختلف الأكاذيب، ويمنعونهم أن يقتربوا من رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» ويبتعـدون عنه بأنفسـهم: «وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ» «١».

دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحق يكن صريعه، وأخيراً، وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحق من وراء السحب، وينتصر بما له من قوة، ويتلاشـى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافى على سطح الماء، وعليه فإنّ مساعيهم سوف تتحطم على صخرة الإخفاق والخيبة وما يهلكون غير أنفسهم، ولكنهم لا يدركون الحقيقة: «وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

وَ لَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) فى هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشـركين وفيهما يتجسد مشـهد من مشاهـد نتائـج أعمـالهم لكى يـدركوا المصـير المشؤوم الـذى ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم- على الأقل- عبرة لغيرهم، فتقول الآية: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ» لتبيّن لك مصيرهم السيىء المؤلم.

إنّهم فى تلك الحال على درجـة من الهلع بحيث إنّهم يصـرخون: ليتنا نرجع إلى الـدنيا لنعوّض عن أعمالنا القبيحـة، ونعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم، ونصدّق آيات ربنا،

---

(١) «ينأون»: من «نأى بمعنى إبتعد.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٧

ونقف إلى جاب المؤمنين: «فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

الآيـة التاليـة تؤكد أنّ ذلك ليس أكثر من تمنّ كاذب، وإنّما تمنّوه لأنّهم رأوا فى ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه- من عقائد ونيات وأعمال سيئة- مكشوفاً أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: «بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ».

غير أنّ هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنّها قد حصلت لظروف طارئة، ولذلك فحتى لو افترضنا المستحيل وعادوا إلى هذه الدنيا مرّة اخرى لفعلوا مـا كـانوا يفعلونه من قبـل ومـا نهوا عنه: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» لـذلك فهم ليسوا صادقين فى تمنّياتهم ومزاعمهم «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۲۹) وَ لَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَ لَيْسَ هـذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۰) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۳۲) هذه الآية إستئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلّبين الذين يتمنون- عندما يشاهدون أهوال يوم القيامة- أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، ولكن القرآن يقول إنّهم إذا رجعوا لا يتّجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، وأكثر من ذلك فإنّهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة «وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

الآية التالية تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدى اللَّه: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هـذَا بِالْحَقِّ». فيكون جوابهم أنّهم يقسمون بأنّه الحقّ: «قَالُوا بَلَى وَرَبّنَا».

عندئذ: «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ». لا شك أنّ «الوقوف بين يدى اللَّه» لا يعنى إنّ للَّهمكاناً، بل يعنى الوقوف فى ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسرين، أو أنّه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصلاة أنّه يقف بين يدى اللَّه وفى حضرته.

الآية التى بعدها، فيها إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸

كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ». إنّ المقصود بلقاء اللَّه هو- كما قلنا من قبل- اللقاء المعنوى والإيمان الشهودى (الشهود الباطنى)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة والحساب والجزاء.

ثم تبين الآية أنّ هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهده الرهيبة، ويشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصّروا فى حق هذا اليوم: «حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا». «الساعة»: هى يوم القيامة؛ و «بغتة»: تعنى فجأة وعلى حين غرّه، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى اللَّه تعالى.

ثم يقول القرآن الكريم: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ».

«الأوزار»: جمع «وزر» وهو الحمل الثقيل، وتعنى الأوزار هنا الذنوب، ويمكن أن تتخذ هذه الآية دليلًا على تجسّد الأعمال، لأنّها تقول إنّهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم.

وفى آخر الآية يقول اللَّه تعالى: «أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ».

ثم لبيان نسبة الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول اللَّه تعالى: «وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ». فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياة، ولا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كله فى اللعب واللهو غافلين عن كل شيء.

إنّ تشبيه الحياة الدنيا باللهو واللعب يستند إلى كون اللهو واللعب من الممارسات الفارغة السطحية التى لا ترتبط بأصل الحياة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

ثم تقارن الآية حياة العالم الآخر بهذه الدنيا، فتقول: «وَلَلدَّارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فتلك حياة خالدة لا تفنى فى عالم أوسع وعلى مستوىً أرفع، عالم يتعامل مع الحقيقة لا المجاز ومع الواقع لا الخيال.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (۳۴) المصلحون يواجهون الصعاب دائماً: لا شك أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى نقاشاته المنطقية ومحاوراته الفكرية مع المشركين المعاندين المتصلّبين، كان يواجه منهم المعاندة واللجاجة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩

والتصلّب والتعنّت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، ولذلك كله كان النبى صلى الله عليه و آله يشعر بالغم والحزن، واللَّه تعالى فى مواضع كثيرة من القرآن يواسى النبى صلى الله عليه و آله ويصبّره على ذلك، لكى يواصل مسيرته بقلب أقوى وجأش أربط، كما جاء فى هذه الآية: «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ». فاعلم أنّهم لا ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات اللَّه، ولا يكذّبونك بل يكذّبون اللَّه: «فَإِنَّهُمْ لَايُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

ومثل هذا القول شائع بيننا، فقد يرى «رئيس» أنّ «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضباً، فيقول له: «هوّن عليك، فإنّ ما قالوه لك إنّما كان موجّهاً إليّ، وإذا حصلت مشكلة فأنا المقصود بها، لا أنت» وبهذا يسعى إلى مواساة صاحبه والتهوين عليه.

الآية الثانية تستأنف مواساة الرسول صلى الله عليه و آله وتبيّن له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكد له أنّ هذا ليس مقتصراً عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضاً: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ».

ولكنهم صبروا وتحمّلوا حتى انتصروا بعون اللَّه: «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَهُمْ نَصْرُنَا» وهذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: «وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ».

وعليه، فلا تجزع ولا تبتئس إذا ما كذّبك قومك وآذوك، بل اصبر على معاندة الأعداء وتحمّل أذاهم، واعلم أنّ الإمدادات والألطاف الإلهية ستنزل بساحتك بموجب هذه السنّة، فتنتصر فى النهاية عليهم جميعاً، وإنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد والمصاعب وعن ثباتهم وصبرهم وإنتصارهم فى النهاية، لهو شهادة بيّنة لك:

«وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِى الْمُرْسَلِينَ».

تشير هذه الآية إلى مبدأ عام هو أنّ قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادىء وتعاليم بنّاءة، وبمحاربة الأفكار المنحطّة والخرافات السائدة والقوانين المغلوطة فى المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الإنتهازيين الذين يرون فى انتشار تلك التعاليم والمبادىء البنّاءة خطراً يهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلّا استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، وبكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة اولئك المصلحين.

إلّا أنّ الحقيقة، بما فيها من قوة الجاذبية والعمق، وبموجب السنّة الإلهية، تعمل عملها إلّا أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر والمقاومة والثبات.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠

وَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣۵) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣۶) الأموات المتحركون:

هاتان الآيتان استمرار لمواساة النبى صلى الله عليه و آله التى بدأت فى الآيات السابقة لقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنّه استطاع أن يهديهم جميعاً إلى طريق الإيمان بأيّة وسيلة كانت. فيقول اللَّه تعالى: «وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بَايَةٍ». أى إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب ويثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلّماً يوصلك إلى السماء للبحث عن آية- إن استطعت- ولكن اعلم أنّهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

فى هذه الآية يخبر اللَّه نبيّه بأن ليس فى تعليماتك ودعوتك وسعيك أى نقص، بل النقص فيهم لأنّهم هم الذين رفضوا قبول الحق، لذلك فإنّ أىّ مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

ولكن لكيلا يظن أحد أنّ اللَّه غير قادر على حملهم على التسليم يقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى . أى لو أراد حملهم على الإستسلام والرضوخ لدعوتك والإيمان باللَّه لكان على ذلك قديراً.

غير أنّ الإيمان الإجبارى لا طائل تحته، إنّ خلق البشر للتكامل مبنى على أساس حرية الاختيار والإرادة، ففى حالة حرية الاختيار وحدها يمكن تمييز «المؤمن» من «الكافر» و «الصالح» من «غير الصالح» و «الصادق» من «الكاذب».

ثم يقول سبحانه لنبيّه: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ». أى لقد قلت هذا لئلا تكون من الجاهلين، أى لا تفقد صبرك ولا تجزع، ولا يأخذك القلق بسبب كفرهم وشركهم.

وما من شك أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يعلم هذه الحقائق ولكن اللّه ذكرها له من باب التطمين وتهدئة الروع.

فى الآية التى تليها استكمال لما سبق ومزيد من المواساة للرسول الكريم صلى الله عليه و آله فتقول الآية: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱

أمّا الذين هم فى الواقع أشبه بالأموات فإنّهم لا يؤمنون حتى يبعثهم اللّه يوم القيامة:

«وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ».

يومئذٍ، وبعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلّاأنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئاً.

وَقَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۳۷) تشير هذه الآية إلى واحد من الأعذار التى يتذرّع بها المشركون، فقد جاء فى بعض الروايات أنّه عندما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: كل هذا الذى تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقاً فيما تقول، فأتنا بمعجزات كعصا موسى وناقة صالح، يقول القرآن بهذا الشأن: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ».

من الواضح أنّ اولئك لم يكونوا جادّين فى بحثهم عن الحقيقة، لأنّ الرّسول صلى الله عليه و آله كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفى، لذلك يأمر اللّه رسوله أن: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً». إلّاأنّ فى ذلك أمراً أنتم عنه غافلون، وهو أنّه إذا حقق اللّه مطاليبكم التى يدفعكم إليها عنادكم، ثم بقيتم على عنادكم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعاجز، فسوف يقع عقاب اللّه عليكم جميعاً، وتفنون عن آخركم، لأنّ ذلك سيكون منتهى الإستهتار بمقام الالوهيّة المقدس وبمبعوثه وآياته ومعجزاته، ولهذا تنتهى الآية بالقول: «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (۳۸) هذه الآية تستأنف ما جاء فى الآيات السابقة من الكلام مع المشركين وتحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة، فتتحدّث عن «الحشر» وبعث عام يشمل جميع الكائنات الحيّة والحيوانات، فتقول أوّلًا: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم».

يتّضح من هذا أنّ فصائل الحيوان والطيور امم مثل البشر.

أى إنّ للحيوان والطير - أيضاً- إدراكه ومشاعره فى عالمه الخاص، ويعرف اللّه ويسبّح له ويقدّسه بحسب طاقته، وإن تكن قوّة إدراكه أدنى ممّا فى الإنسان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲

«الدّابة»: من «دبّ» والدبيب المشى الخفيف، ويستعمل ذلك فى الحيوان والحشرات أكثر. «الطائر» كل ذى جناح يسبح فى الهواء وقد يوصف بها بعض الامور المعنوية التى تتقدّم بسرعة واندفاع، والآية تقصد الطائر الذى يطير بجناحيه. «امم»: جمع امّة، وهى كل جماعة يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد. «يحشرون»: من «حشر» بمعنى «الجمع» والمعنى الوارد فى القرآن يقصد به يوم القيامة، ولا سيما أنّه يقول: «إِلَى رَبِّهِم».

ثم تقول الآية: «مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ». لعل المقصود «بالكتاب» هو القرآن الذى يضم كل شىء، أو المقصود بالكتاب هو «عالم الوجود» إذ أنّ عالم الخليقة مثل الكتاب الضخم، يضمّ كل شىء ولا ينسى شيئاً.

وتختم الآية بالقول: «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ». من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم:

إنّ اللّه الذى خلق جميع الحيوانات ووفّر لها ما تحتاجه، ورعى كل أفعالها، وجعل لها حشراً ونشوراً، قد أوجد لكم دون شك بعثاً وقيامة وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنّه ليس ثمّة شيء سوى الحياة الدنيا والممات.

هل هناك بعث للحيوانات؟ ما من شك أنّ الشّرط الأوّل للمحاسبة والجزاء هو «العقل والإدراك» ويستتبعهما «التكليف والمسؤولية».

يقول أصحاب هذا الرأى: إنّ حياة كثير من الحيوانات تجرى وفق نظام دقيق ومثير للعجب، ويدلّ على إرتفاع مستوى إدراكها وفهمها، فمن ذا الذى لم يسمع بالنمل والنحل وتمدّنها العجيب ونظامها المحيّر فى بناء بيوتها وخلاياها، ولا شك أنّ هذه امور ليس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة، إذ إنّ الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التى تقع فى ظروف خاصة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة. فالشاة التى لم يسبق لها أن رأت ذئباً فى حياتها تفزع منه أول ما تراه وتدرك خطره عليها وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.

فضلًا عن ذلك كله، فإنّ هناك بعض الآيات التى تدل- بوضوح- على أنّ للحيوانات فهماً وإدراكاً، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.

ثمّة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات، من ذلك ما روى فى تفسير مجمع البيان عن أبى ذر قال: بينا أنا عند رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذ انتطحت عنزان، فقال النبى صلى الله عليه و آله:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣

«أتدرون فيما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندرى. قال: «ولكن اللّه يدرى وسيقضى بينهما».

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) مرّة اخرى يعود القرآن ليتطرّق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ». فهم لا يملكون آذاناً صاغية لكى يستمعوا إلى الحقائق، ولا ألسناً ناطقةً بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق.

وبعد ذلك يقول القرآن الكريم: «مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

إنّ الهداية والضلالة اللتين تنسبان فى هذه الحالات إلى مشيئة اللّه إنّما هما ثواب اللّه وعقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة.

وبعبارة اخرى: قد يرتكب الإنسان أحياناً إثماً كبيراً يؤدّى به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحق، وتفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحق، ويفقد لسانه القدرة على قول الحق.

وقد يكون الأمر على عكس ذلك، أى قد يعمل الإنسان أعمالًا صالحة كثيرة بحيث إنّ عالماً من النور والضوء يشع فى روحه، فيتسع بصره وبصيرته، وتزداد أفكاره إشعاعا، ويكون لسانه ابلغ فى إعلان الحق، ذلكم هو مفهوم الهداية والضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة اللّه ومشيئته.

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) التوحيد الفطرى: يعود الكلام مرّة اخرى إلى المشركين، ويدور الاستدلال حول وحدانية اللّه وعبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجة والمؤلمة التى تمرّ بهم فى الحياة، ويستشهد بضمائرهم، فهم فى مثل تلك المواقف ينسون كل شىء، ولا يجدون غير اللّه ملجأ لهم. يأمر اللّه سبحانه نبيّه أن: «قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

الحالة النفسية التى تصوّرها هذه الآية لا تنحصر فى المشركين، بل فى كل إنسان حين يتعرّض إلى الشدّة وحوادث الخطر وقد لا يلجأ الإنسان فى الحوادث الصغيرة والمألوفة إلى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤

اللَّه، إلّاأنّه فى الحوادث الرهيبة والمخيفة ينسى كل شىء وإن ظلّ فى أعماقه يحس بأمل فى النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوّة غامضة خفيّة، وهذا هو التوجه إلى اللَّه وحقيقة التوحيد.

حتى المشركون وعبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها فى مثل هذه الظروف تماماً، فتقول الآية: «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونُ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۴۵) مصير الذين لا يعتبرون: تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين والمشركين، ويتخذ القرآن فيها طريقاً آخر لإيقاظهم وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الامم الضّالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف اتيح لها جميع عوامل التربية والتهذيب والوعى، غير أنّ جمعاً منهم لم يلقوا بالًا إلى أىّ من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و (ضراء) «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ» «١».

أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟! «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا» ولكنّهم لم يستيقظوا، ولذلك سببان:

الأوّل: إنّهم لكثرة آثامهم وعنادهم فى الشرك زايلت الرحمة قلوبهم والليونة أرواحهم:

«وَلكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ».

والثانى: إنّ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزيّن فى نظرهم أعمالهم، فكل قبيح إرتكبوه أظهره لهم جميلًا، ولكل خطأ فعلوه جعله فى عيونهم صواباً: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطنُ مَا

(١) «البأساء»: الشدّة والمكروه، وتطلق على الحرب أيضاً، وكذلك القحط والجفاف والفقر. أمّا «الضّرّاء»: فأكثر ما تعنى العذاب الروحى كالهم والغم والإكتئاب والجهل أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٥

كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم تذكر الآية التالية أنّه لمّا لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم اللَّه تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون ويلتفتون إلى خالقهم الذى وهب لهم كل تلك النعم، ويشخّصوا الطريق السوى: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَيْءٍ».

إلّا أنّ هذه النعم كانت فى الواقع ذات طابع مزدوج، فهى مظهر من مظاهر المحبة التى تستهدف إيقاظ النائمين، وهى كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرّت الغفلة، ولهذا يقول إنّنا أعطيناهم الكثير من النعم: «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ» «١».

وهكذا استؤصلت جذور اولئك الظلمة وانقطع نسلهم: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا».

ولمّا كان اللَّه قد وفّر لهؤلاء كل وسائل التربية ولم يبخل عليهم بأىّ شىء منها، لذلك فإنّ الحمد يختص باللَّه الذى يربّى أهل الدنيا كافة: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

وإختتام الآية بقول: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ» دليل على أنّ استئصال جذور الظلم والفساد والقضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهمية بحيث يستوجب الحمد للَّه.

فى الكافى عن فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... من أحبّ بقاء الظالمين، فقد أحبّ أن يعصى اللَّه، إنّ اللَّه تعالى حمد نفسه على هلاك الظالمين فقال: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»».

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (۴۷) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹)

---

(۱) «الإبلاس»: الحزن المعترض من شدّة التألم بسبب كثرة المنغّصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة «إبليس» وهى هنا تدل على شدّة الغم والهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذٍ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶

اعرفوا واهب النعم: الخطاب ما يزال موجّهاً إلى المشركين. فى هذه الآيات حثّ استدلالى على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنّه إذا سلب منكم اللَّه النعم الثمينة التى وهبها لكم، مثل السمع والبصر، وأغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن والسيىء، والحق والباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النعم؟ «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ».

فى الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق والرازق هو اللَّه، وكانوا يعبدون الأصنام للإستشفاع بها عند اللَّه.

ثم تقول الآية: انظر إلى هؤلاء الذين نشرح لهم الآيات والدلائل بمختلف الوسائل، ولكنهم مع ذلك يعرضون عنها: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ».

«نصرف»: من «التصريف» بمعنى «التغيير» والكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات فى صور متنوعة. و «يصدفون»: من «صدف» بمعنى «الجانب» و «الناحية» أى إنّ المعرض عن شيء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية اخرى.

تشير الآية الثانية- بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين والأذن والإدراك» التى هى منبع جميع نعم الدنيا والآخرة- إلى إمكان سلب هذه النعم كلّها دفعة واحدة، فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ».

«بغتة»: بمعنى «فجأة» و «جهرة» بمعنى «الظاهر» والعلانية.

والقصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، وسلب مختلف النعم هو اللَّه وحده، وإنّ الأصنام لا دور لها فى هذا أبداً، لذلك ليس ثمّة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن اللَّه لحكمته ورحمته لا يعاقب إلّاالظالمين.

الآية الثالثة تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمة الروح هى وحدها العاجزة عن القيام بأىّ أمر، فإنّ الأنبياء العظام والقادة الإلهيين أيضاً لا- عمل لهم سوى إبلاغ الرسالة والإنذار والتبشير، فكلّ ما هنالك من نعم إنّما هى من اللَّه وبأمره، وأنّهم إن أرادوا شيئاً طلبوه من اللَّه: «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ».

ثم تقول: إنّ طريق النجاة ينحصر فى أمرين، فالذين يؤمنون ويصلحون أنفسهم «وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» فلا خوف عليهم من العقاب الإلهى، ولا حزن على أعمالهم السابقة.

«فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷

أمّا اولئك الذين لا يصدّقون بآياتنا، بل يكذّبون بها فإنّ عقابهم على فسقهم وعصيانهم عذاب من اللَّه: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

من الجدير بالإنتباه أنّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات اللَّه بعبارة «يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ» فكأنّ هذا العقاب يطاردهم فى كل مكان

حتى يشملهم بأشدّ ما يكون من العذاب.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) معرفة الغيب: هذه الآية استمرار للردّ على إعتراضات الكفار والمشركين المختلفة، والرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الإعتراضات فى جمل قصيرة:

الأوّل: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله القيام بمعجزات عجيبة وغريبة، وكان كل واحد يتقدّم باقتراح حسب رغبته، بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فمرّة كانوا يطلبون بيوتاً من ذهب، ومرّة يريدون هبوط الملائكة، ومرّة يريدون أن تتحوّل أرض مكة القاحلة المحرقة إلى بستان مليء بالمياه والفواكه. ولعلهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يكون للنبى مقام الألوهية وإمتلاك الأرض والسماء، فللردّ على هؤلاء يأتى الأمر من اللَّه: «قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ».

يتّضح أنّ «خزائن اللَّه» تشمل مصدر ومنبع جميع الأشياء، وهى تستقى من ذات اللَّه اللامتناهية منبع جميع الكمالات والقدرات.

ثم تردّ الآية على الذين كانوا يريدون من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل ويطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكى يدفعوا الضرر ويستجلبوا النفع، فتقول: «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

فى الجملة الثالثة ردّ على الذين كانوا يتصوّرون النبى صلى الله عليه و آله ملكاً، أو أن يصاحبه ملك، وأن لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام والسير فى الطرقات، وغير ذلك، فقال:

«وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ».

وفى الختام يؤمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم ويغلقون عقولهم عن التفكير أن يكونوا على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيداً

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٨

ويتفهمونها؟ «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ».

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) فى ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفى هذه الآية يأمر نبيّه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة: «وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبّهِمْ».

أى إنّ هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب وجزاء، وفى ضوء هذا الاحتمال والخوف من المسؤولية تتولّد فيهم القابلية على التلقّى والقبول.

ثم يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير اللَّه ملجأ ولا شفيع: «لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ».

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس وادعهم إلى اللَّه، إذ أنّ الأمل فى هدايتهم موجود: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أ هؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)

سبب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور (وتفسير المنار أيضاً): مرّ الملأ من قريش على النبى صلى الله عليه و آله وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منّ اللَّه عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء: اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل اللَّه فيهم القرآن: «وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبّهِمْ» إلى قوله «أَلَيْسَ

اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ».

فی تفسیر المنار عن عمر بن الخطاب قال: لو فعلت یا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حتی ننظر ما یریدون بقولهم، وما یصبرون إلیه من أمرهم فأنزل اللَّه تعالی الآیتان فی رفض إقتراحه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹

التّفسیر

مکافحة التفکیر الطبقی: فی هذه الآیة إشارة إلی واحد من إحتجاجات المشرکین، وهو أنّهم کانوا یریدون من النّبی صلی الله علیه و آله أن یقرّ ببعض الإمتیازات لطبقة الأغنیاء ویفضّلهم علی طبقة الفقراء، إذ کانوا یرون فی جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله منقصة لهم أیّ منقصة! مع أنّ الإسلام کان قد جاء للقضاء علی مثل هذه الإمتیازات الزائفة الجوفاء، کانوا یصرّون علی هذا الطلب فی طرد اولئک عنه، غیر أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستنداً إلی أدلة حیّة، فیقول: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِینَ یَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِیّ یُرِیدُونَ وَجْهَهُ» «۱».

فی الحقیقة کان هؤلاء یستندون فی طلبهم ذاک إلی سنّة قدیمة خاطئة تقیّم المرء علی أساس ثروته، وکانوا یعتقدون أنّ المعاییر الطبقیة القائمة علی أساس الثروة یجب أن تبقی محفوظة، ویرفضون کل دعوة تستهدف إلغاء هذه القیم والمعاییر.

ثم تقول الآیة: إنّه لیس ثمّة ما یدعو إلی إبعاد هؤلاء المؤمنین عنک، لأنّ حسابهم لیس علیک، ولا حسابک علیهم: «مَا عَلَیْکَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِّن شَیْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِکَ عَلَیْهِم مِّن شَیْءٍ». ولکنّک مع ذلک إذا فعلت تکون ظالماً: «فَتَطْرُدَهُمْ فَتَکُونَ مِنَ الظَّالِمِینَ».

والمقصود من «الحساب» هنا هو حساب الأعمال. إنّ المشرکین کانوا یتهمون أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله الفقراء بالإبتعاد عن اللَّه بسبب فقرهم، زاعمین أنّهم لو کانت أعمالهم مقبولة عند اللَّه لزمه الترفیه والتوسعة علیهم فی معیشتهم.

فیرد القرآن علی ذلک مبیّناً أنّنا حتی لو فرضنا أنّهم کذلک، فإنّ حسابهم علی اللَّه، مادام هؤلاء قد آمنوا وأصبحوا فی صفوف المسلمین، فلا یجوز طردهم بأیّ ثمن، وبهذا یقف فی وجه إحتجاج أشراف قریش.

إمتیاز کبیر للإسلام: إنّنا نعلم أنّ دائرة صلاحیات رجال الدین المسیحیین المعاصرین قد اتسعت إتساعاً مضحکاً بحیث إنّهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب، فبإمکانهم طرد الأشخاص وتکفیرهم أو قبولهم لأتفه الامور. إلّاأنّ القرآن، فی هذه الآیة وفی آیات اخری ینفی صراحة أن یکون لأحد الحق، بل ولا لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله نفسه فی أن یطرد أحداً أظهر إیمانه ولم یفعل ما یوجب إخراجه من الإسلام، وأنّ غفران الذنوب والحساب بید اللَّه وحده، ولا یحق لأحد التدخل فی هذا أبداً.

(۱) معنی «الوجه» فی اللغة معروف، ولکنّ الکلمة قد تعنی «الذات» کما فی هذه الآیة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰

الآیة الثانیة یحذّر فیها القرآن أصحاب المال والثروة من أنّ هذه الامور اختبار لهم، فإذا لم یجتازوا الامتحان فعلیهم أن یتحمّلوا العواقب المؤلمة، فاللَّه یمتحن بعضهم ببعض: «وَکَذلِکَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ». «الفتنة» تعنی هنا الامتحان.

ثم تضیف الآیة: أنّ الأمر یصل بهؤلاء إلی أنّهم ینظرون إلی المؤمنین الصادقین نظرة احتقار «لِّیَقُولُوا أَهؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَیْهِم مِّن بَیْنِنَا».

ثم تجیب الآیة علی المعترضین مؤکّدة أنّ هؤلاء الأشخاص اناس شکروا نعمة التشخیص الصحیح بالعمل، کما أنّهم شکروا نعمة دعوة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بقبولها، فأیّ نعمة أکبر وأیّ شکر أرفع، ولذلک رسّخ اللَّه الإیمان فی قلوبهم: «أَلَیْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاکِرِینَ».

وَ إِذَا جَاءَکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِآیَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَیْکُمْ کَتَبَ رَبُّکُمْ عَلَی نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْکُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵۴) وَ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیَاتِ وَ لِتَسْتَبِینَ سَبِیلُ الْمُجْرِمِینَ (۵۵) هذه الآیة تبدأ أوّلًا بالطلب من رسول اللَّه صلی

الله عليه و آله أن لا يطرد المذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم ويتقبلهم: «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بَايَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ».

يحتمل أن يكون هذا السلام من اللَّه بوساطة رسوله أو أنّه من الرسول صلى الله عليه و آله مباشرة، وهو- على كلا الاحتمالين- دليل على القبول والترحيب والتفاهم والمحبة.

ثم تقول الآية: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

«كتب»: تأتى فى كثير من الأحيان كناية عن الإلزام والتعهد، إذ إنّ من نتائج الكتابة توكيد الأمر وثبوته.

وفى الجزء الأخير من الآية- وهو توضيح وتفسير لرحمة اللَّه- يتحدّث بلهجة عاطفية:

«أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

إنّ «الجهالة» فى مثل هذه المواضع تعنى طغيان الشهوة وسيطرتها.

الآية التالية ومن أجل توكيد هذا الموضوع تشير إلى أنّ اللَّه سبحانه يوضّح آياته وأوامره توضيحاً بيّناً لكى يتبيّن طريق الباحثين عنه والمطيعين له، كما يتبيّن طريق الآثمين

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣١

المعاندين من أعداء اللَّه: «وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» «١».

إنّ «المجرم» هنا هو اولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق. أى بعد هذه الدعوة العامّة إلى اللَّه، التى تشمل حتّى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق المعاندين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) الإصرار العقيم: ما يزال الخطاب فى هذه الآيات موجّهاً إلى المشركين وعبدة الأصنام المعاندين- كدأب معظم آيات هذه السورة- يبدو من سياق هذه الآيات أنّهم دعوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى إعتناق دينهم، الأمر الذى يستدعى نزول الآية: «قُلْ إِنّى نُهِيتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

ثم بجملة «قُل لَّاأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ» يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، نظراً لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة العقلية.

وفى ختام الآية يؤكد القرآن مرّة اخرى على أنّه إذا فعل ذلك «قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

الآية التالية تتضمّن جواباً آخر وهو: «قُلْ إِنّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبّى وَكَذَّبْتُم بِهِ».

«البيّنة»: أصلًا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثم أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق والباطل.

---

(١) جملة «ولتستبين» معطوفة على جملة محذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين ولتستبين سبيل المجرمين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٢

إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يؤمر فى هذه الآية أن يقول: إنّ دليلى فى قضية عبادة اللَّه ومحاربة الأصنام واضح وبيّن، وإنّ تكذيبكم وإنكاركم لا يقللان من صدق الدليل. ثم يشير إلى حجة واهية اخرى من حججهم، وهى أنّهم كانوا يقولون: إن كنت على حق فعلًا فعجّل بالعقاب الذى تتوعدنا به، فيقول لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» لأنّ الأعمال والأوامر كلها بيد اللَّه: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

إنّ معنى «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» واضح، أى إنّ كل أمر فى عالم الخلق والتكوين وفى عالم الأحكام والتشريع بيد اللّه، وكذلك كل منصب- بما فى ذلك القيادة الإلهية والتحكيم والقضاء- إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر اللّه تعالى

وبعد ذلك يقول مؤكّداً: إنّ اللّه هو الذى «يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ».

الآية التالية تأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أنّ ما تطلبونه منّى على عجل كان فى سعتى وقدرتى، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بينى وبينكم شىء: «قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ».

ولكيلا يظنّوا أنّ عقابهم قد طواه النسيان، يقول فى النهاية: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» وسوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

«يقص»: فى اللغة ترد بمعنى القطع، وعلى هذا يكون معنى و «يَقُصُّ الْحَقَّ» إنّ اللّه يقطع الحق عن الباطل ويفصل بينهما.

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) أسرار الغيب: فى هذه الآيات يدور الكلام حول علم اللّه وقدرته وسعة حكمه وأمره،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣

وهى تشرح ما اجملته الآيات السابقة. تشرع الآية فى الكلام على علم اللّه فتقول: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

«مفاتح»: جمع «مفتح» (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح.

ثم لتوكيد ذلك أكثر يقول: «وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

«البرّ»: كل مكان واسع فسيح، وتطلق على اليابسة؛ و «البحر»: كذلك تعنى المحل الواسع الذى يتجمّع فيه الماء، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً. فالقول بأنّ اللّه يعلم ما فى البرّ والبحر، كناية عن إحاطته بكل شىء.

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحيّة، الكبيرة والصغيرة، فى أعماق البحار.

وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه.

وهو عالم بكل الحركات الغامضة فى الإلكترونات فى قلب الذّرة.

وهو عالم بكل الأفكار التى تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا ... نعم إنّه عالم بكل ذلك على حد سواء.

لذلك فإنّه يؤكد ذلك مرّة اخرى فيقول: «وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا». أى إنّه يعلم عدد الأوراق ولحظة إنفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها فى الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلى أمام علم اللّه.

كذلك لا تختفى حبّة بين طيّات التراب إلّاويعلمها اللّه ويعلم كل تفاصيلها: «وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ».

التركيز هنا على نقطتين حسّاستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقى سلّم الكمال فى صنع أجهزته وأدواته المدهشة.

ترى من ذا الذى يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها فى هبوبها على مختلف أصقاع الأرض فى الليل والنهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟

أىّ دماغ الكترونى هذا الذى يستطيع أن يحصى عدد أوراق الشجر التى تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات فى الخريف، وتطلّع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذٍ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهى أنّ علوماً من هذا القبيل لن تكون يوماً فى متناول يد الإنسان.

إنّ سقوط الورقة- فى الحقيقة- هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة فى مكمنها من الأرض

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴

هو لحظة بدء حياتها، وما من أحد غير اللّه يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة.

إنّ لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» وآخر «تربوياً»: أمّا أثره الفلسفى، فينفى رأى الذين يحصرون علم اللّه بالكليات، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً، وفى الآية هنا تأكيد على أنّ اللّه يعلم الكليات والجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوى فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع للّه‌يقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك ونيّاتك، وأفكارك كلها بيّنة أمام اللّه، فإذا آمن الإنسان حقاً بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونيّاته.

وفى ختام الآية يقول تعالى: «وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

فى الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم اللّه بأعمال الإنسان وهو الهدف الأصلى وإلى بيان قدرة اللّه القاهرة، لكى يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ اللّه هو الذى يقبض أرواحكم فى الليل، ويعلم ما تعملون فى النهار: «وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ».

«توفّى»: تعنى استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، وانقطاع تام فى إرتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ وضعف فى هذا الإرتباط، وعليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت.

«جرحتم»: من «جرح» وهى هنا بمعنى الإكتساب، أى أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة اللّه وعلمه ليلًا ونهاراً، وانّ الذى يعلم بإنفلاق الحبّة ونموها فى باطن الأرض، ويعلم بسقوط أوراق الأشجار وموتها فى أىّ مكان وزمان، يعلم بأعمالكم أيضاً.

ثم يقول: إنّ نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون فى الليل «ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى». أى ثم يوقظكم فى النهار .. وتستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

ويبيّن القرآن النتيجه النهائية لهذا المبحث بالشكل التالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفى الآية الثالثة توضيح أكثر لإحاطة علم اللّه بأعمال عباده وحفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵

«حفظة»: جمع «حافظ» وهم هنا الملائكة الموكّلون بحفظ أعمال الناس.

ثم يبين القرآن الكريم أنّ حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار وحلول الموت:

«حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَايُفَرِّطُونَ».

وتبين الآية فى النهاية أنّ هؤلاء الملائكة الذين يحفظون حساب أعمال البشر، فهم فى حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، والآية تركّز على هذا القسم بالذات.

فى الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقِّ». أى عادوا إلى اللّه بعد أنّ طووا مرحلة حياتهم، واختتم ملفُّهم الحاوى على كل شىء.

وفى تلك المحكمة يكون النظر فى القضايا وإصدار الأحكام بيد اللّه: «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ».

وعلى الرغم من كل تلك الأعمال والملفّات المتراكمة عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاخب فإنّ اللّه سريع فى النظر فيها: «وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ».

روى فى تفسير مجمع البيان عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه سُئل كيف يحاسب اللَّه الخلق ولا يرونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يرونه. وروى «أنّه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة». أى إنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴) النور الذى يضىء فى الظلام: مرّة اخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، وهناك فى تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد، فيقول للنبى صلى الله عليه و آله قل لهم: «قُل مَن يُنَجّيكم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرّ وَالْبَحْرِ».

إنّ الظلام يكون حسياً أحياناً ومعنوياً أحياناً اخرى، الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النور إنقطاعاً تاماً، أو يضعف بحيث لا يرى شىء، أو يرى بالجهد الجهيد، والظلام المعنوى هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة.

وإذا حدثت فى هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافراً فى البحر،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶

وتحاصره فى ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، فى مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شىء ولا يعود يتذكّر شيئاً سوى نفسه، والنور الذى يسطع فى أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما يعتوره من بلاء وضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة اللَّه، لذلك يقول فى أمثال هذه الحالات: «تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً». وتعقدون- وأنتم فى تلك الحالة- عهداً وميثاقاً على أنفسكم، وتقولون: «لَّئِنْ أَنْجَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

ثم تأمر الآية النبى صلى الله عليه و آله أن يخبرهم أنّ اللَّه سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار، وقد فعل ذلك من قبل مراراً، ولكنهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر: «قُلِ اللَّهُ يُنَجّيكم مِّنْهَا وَمِن كُلّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ».

«الكرب»: فى الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها، وكذلك تعنى العقدة المحكمة الشد فى حبل الدلو، ثم أطلقت بعد ذلك على الغم والهم والحزن التى تقلب قلب الإنسان وتثقل عليه كالعقدة.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵) ألوان العذاب: فى هذه الآية تركيز على التهديد بعذاب اللَّه وعقابه، من أجل إكمال طرق التربية والتهذيب، أى أنّ اللَّه وهو أرحم الراحمين وملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففى هذه الآية يؤمر الرسول صلى الله عليه و آله بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عذاب من فوق، وعذاب من تحت، وعقاب يتمثل فى اختلاف الكلمة والحرب وإراقة الدماء: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ».

إنّ مسألة اختلاف الكلمة والتفرّق فى المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوى والصواعق والزلازل، وهو كذلك، بل قد يكون الخراب الناشىء من اختلاف الكلمة والتفرّق أحياناً أشدّ وطأة ودماراً من الزلازل والصواعق، كثيراً ما نلاحظ أنّ دولًا عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق والتفرقة، وهذه الكلمة تحذير لجميع مسلمى العالم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷

وفى الختام تقول الآية: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرّفُ الْأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ». أى انظر كيف نوضّح لهم المعالم والدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودوا إلى اللَّه.

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۶۶) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۶۷) تكمل هاتان الآيتان البحث الذى جرى فى الآيات السابقة عن الدعوة إلى اللَّه والمعاد وحقائق الإسلام والخشية من عقاب اللَّه. الآية الاولى: تخبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ قومه- أى قريش وأهل مكة- لم يصدقوا ما يقول مع أنّه صدق وحق وتؤكده الأدلة العقلية المختلفة والفطرية: «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ». ثم يصدر الأمر إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ». أى إنّما أنا رسول ولست أضمن

قبولكم.

إنّ المقصود من «وكيل» هو المسؤول عن الهداية العملية للأفراد والضامن لهم.

وفى الآية التالية القصيرة ذات المعنى العميق تحذير لهم، ودعوة إلى إختيار الطريق الصحيح، «لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ». أى أنّ كل خبر أخبركم به الرّسول صلى الله عليه و آله فى هذه الدنيا أو فى الآخرة موضع ومقر وسوف يتحقق فى موعده المقرر وعندئذ ستعرفون ذلك.

وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لمّا نزلت «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، قال المسلمون: كيف نضع إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل إذاً المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام؟ فأنزل اللَّه سبحانه «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مّن شَيْءٍ»: أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا».

التّفسير

إجتناب مجالس أهل الباطل: بما أنّ المواضيع التى تتطرّق إليها هذه السورة تتناول حال المشركين وعبدة الأصنام، فهاتان الآيتان تبحثان عن موضوع آخر من المواضيع التى

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٨

تتعلق بهم، ففى البداية تقول للرسول صلى الله عليه و آله: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» «١». ثم تخاطب الآية رسول اللَّه مؤكّدة أهمية الموضوع: «وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». أى إذا أنساك الشيطان هذا الأمر وجلست مع هؤلاء القوم سهواً، فعليك- حالما تنتبه- أن تنهض فوراً وتترك مجالسة الظالمين.

سؤال: هل يمكن للشيطان أن يتسلط على النبى صلى الله عليه و آله ويسبب له النسيان؟

فى الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأنّ الخطاب فى الآية وإن يكن موجّهاً إلى النبى صلى الله عليه و آله فهو يتحدّث فى الواقع مع أتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا فى اجتماعات المشركين الآثمة، فهؤلاء عليهم حال إنتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، أنّ مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث فى حياتنا اليومية وموجود فى مختلف آداب العالم، فأنت قد توجّه الخطاب إلى أحدهم ولكن هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إيّاك أعنى واسمعى يا جارة.

الآية التالية فيها إستثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين فى جلسات هؤلاء المشركين لكى ينهوهم عن المنكر على أمل أن يؤدّى ذلك إلى انصراف اولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، وأنّ آثام اولئك لا تسجل على هؤلاء، لأنّ قصدهم هو الخدمة والقيام بالواجب:

«وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مّن شَيْءٍ وَلكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

وينبغى أن نعلم- فى الوقت نفسه- إنّ الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآية، فيكونون متميزين بالتقوى، وبعدم التأثّر بهم، وبالقدرة على التأثير فيهم.

وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

(۱) «الخوض»: کما یقول الراغب الأصفهانی فی «مفرداته» هو الدخول فی الماء والمرور فیه، ثم استعیر للورود فی امور اخری، وأکثر ما ترد فی القرآن بشأن الدخول فی موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹

هذه الآیة تواصل ما بحثته الآیة السابقة، وتأمر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أن یدع اولئک الذین یستهینون بأمر دینهم، ویتخذون ممّا یلهون ویلعبون به مذهباً لهم ویغترون بالدنیا وبمتاعها المادی: «وَذَرِ الَّذِینَ اتَّخَذُوا دِینَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَیَوةُ الدُّنْیَا».

وتشیر هذه الآیة إلی أنّ سلوکهم الحیاتی من حیث المحتوی أجوف وواه.

إنّ «دینهم» یعنی «دین الشرک وعبادة الأصنام» الذی کانوا یدینون به. فالآیة لا تخصّ الکفار وحدهم، بل هی تشمل جمیع الذین یتخذون من الأحکام الإلهیة ومن المقدسات وسائل للتلهی وملء الفراغ وبلوغ الأهداف المادیة الشخصیة، اولئک الذین یجعلون الدین آلة الدنیا، والأحکام الإلهیة ألعوبة أغراضهم الخاصة.

ثم یؤمر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أن ینبّههم إلی أعمالهم هذه وإلی أنّ هناک یوماً لابدّ لهم أن یستسلموا فیه لنتائج أعمالهم ولن یجدوا من ذلک مفرّاً: «وَذَکِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا کَسَبَتْ» (۱).

یوم لا شفیع ینفع ولا ولی سوی اللَّه: «لَیْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِیٌّ وَلَا شَفِیعٌ».

إنّهم یومئذ فی حال صعبة مؤلمة یرزحون فی قیود أعمالهم بحیث إنّهم یرتضون أن یدفعوا أیّة غرامة (إن کان عندهم ما یدفعونه) ولکنّها لن تقبل منهم: «وَإِن تَعْدِلْ کُلَّ عَدْلٍ لَّایُؤْخَذْ مِنْهَا» (۲).

ذلک لأنّهم یکونون بین مخالب أعمالهم، ولا فدیة تنجیهم، ولا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: «أُولئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمَا کَسَبُوا».

ثم یشار إلی جانب ممّا سیصیبهم من العذاب الألیم بسبب إعراضهم عن الحق والحقیقة:

«لَهُمْ شَرَابٌ مِن حَمِیمٍ وَعَذَابٌ أَلِیمٌ بِمَا کَانُوا یَکْفُرُونَ».

إنّهم یتعذّبون بالماء الحریق من الداخل، ویکتوون بنار الجحیم.

إنّ جملة «أُولئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمَا کَسَبُوا» هی بمثابة السبب الذی یمنع من قبول الغرامة ومن قبول أیّ شفیع وولی، أی إنّ عقابهم لیس لعلّة خارجیة بحیث یمکن دفعها بشکل من

---

(۱) «البسل»: هو حفظ الشیء ومنعه بالقوّة والقهر، والإبسال حمل المرء علی التسلیم، کما تطلق الکلمة علی الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، والجیش الباسل بمعنی القاهر الذی یحمل العدو علی التسلیم، والمعنی فی الآیة هو تسلیم المرء وخضوعه لأعماله السیئة.

(۲) «العدل»: بمعنی «المعادل» وهو ما یدفع جزاءاً وغرامة لقاء التحرر، وهو أشبه فی الواقع بما یفتدی به.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰

الأشکال، بل ینبع من داخل الذات وسلوکها وأعمالها، إنّهم أسری أعمالهم القبیحة، لذلک لا مفرّ لهم، لأنّ فرار المرء من أعماله وآثارها إنّما هو فرار من ذاته، وهو غیر ممکن.

قُلْ أَ نَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا یَنْفَعُنَا وَ لَا یَضُرُّنَا وَ نُرَدُّ عَلَی أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ کَالَّذِی اسْتَهْوَتْهُ الشَّیَاطِینُ فِی الْأَرْضِ حَیْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ یَدْعُونَهُ إِلَی الْهُدَی ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَی اللَّهِ هُوَ الْهُدَی وَ أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِینَ (۷۱) وَ أَنْ أَقِیمُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۷۲) کان المشرکون یصرّون علی دعوة المسلمین إلی العودة إلی الکفر وعبادة الأصنام، فنزلت هذه الآیة تأمر النبی صلی الله علیه و آله بالردّ علیهم ردّاً یدحض رأیهم ویفند دعوتهم فی جواب بصیغة الاستفهام الإستنکاری: أتریدون منّا أن نشرک مع اللَّه ما لا یملک لنا نفعاً فنعبده لذلک، ولا یملک لنا ضرراً فنخافه: «قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَایَنفَعُنَا وَلَا یَضُرُّنَا».

هذه الآیة تشیر إلی أنّ أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعین، فهی إمّا أن تهدف إلی استجلاب منفعة وإمّا إلی دفع ضرر (مادیاً کان أم

معنوياً).

ثم يأتى باستدلال آخر على بطلان سلوك المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقرى، وهذا يناقض قانون التكامل الذى هو قانون حياتى عام: «وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَينَا اللَّهُ» «١».

ثم يضرب مثلًا لتوضيح الأمر، فيقول: إنّ الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذى أغوته الشياطين (أو غيلان البوادى التى كان عرب الجاهلية يعتقدون أنّها تكمن فى منعطفات الطرق وتغوى السابلة وتضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده وظل حيراناً فى الباديّة: «كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ» «٢». بينما له رفاق يرشدونه إلى

---

(١) «أعقاب»: جمع «عقب» وهو مؤخر الرجل، ورجع على عقبه بمعنى انثنى راجعاً، وهو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم «الرجعية».

(٢) «إستهوته»: من «الهوى وهو ميل النفس إلى الشهوة، واستهوته بمعنى حملته على إتباع الهوى و «الحيرة»: هى التردد فى الأمر، وفى الأصل: الجيئة والذهاب، فالآية تشير إلى الذين يذهبون من الإيمان إلى الشرك مستلهمين تحركاتهم من الشيطان.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤١

الصراط السوى المستقيم وينادونه: هلم إلينا، ولكنه من الحيرة والتيه بحيث لا يسمع النداء، أو إنّه غير قادر على اتخاذ القرار: «لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا».

وفى الختام يؤمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول: إنّ الهداية من اللَّه وليس لنا إلّاأن نسلم لأمر اللَّه ربّ العالمين: «قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلّالخالق الكون ومالكه وربّ عالم الوجود، لا الأصنام التى لا دور لها فى إيجاد هذا العالم وإدارته.

الآية التالية، تواصل شرح الدعوة الإلهية قائلة: إنّنا فضلًا عن التوحيد، فقد أمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى اللَّه: «وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَاتَّقُوهُ».

وفى الختام يشار إلى المعاد وإلى أنّ الناس إلى اللَّه يرجعون: «وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) هذه الآية دليل على ما جاء فى الآية السابقة، وعلى ضرورة التسليم للَّهوإتّباع رسوله، لذلك تقول: «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعبادة، وهو وحده الذى يجب الخضوع والتسليم له، لأنّه خلق الأشياء لمقاصد حقّة.

ثم يقول: إنّه فضلًا عن كونه مبدع عالم الوجود، فإنّ يوم القيامة أيضاً يقوم بأمره، وإذا ما أصدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنّه يتحقق فوراً: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ».

ثم يضيف: أنّ ما يقوله اللَّه هو الحق، أى إنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف ونتائج ومصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: «قَوْلُهُ الْحَقُّ».

وفى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور ويبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم والملك للَّه: «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ».

حكومة اللَّه على عالم الوجود ومالكيته له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته وفى يوم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٢

القيامة، ولا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثّر فى مسار هذهالدنيا وتقدّمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود اللَّه وراء هذه الأسباب والعوامل، أمّا فى ذلك اليوم الذى تتعطل فيه جميع الأسباب والعوامل، فإنّ

حکومة اللَّه ومالکیته تکونان أجلی وأوضح من أیّ وقت سابق.

وفی ختام الآیة إشارة إلی ثلاث من صفات اللَّه تعالی، فهو: «عَالِمُ الْغَیْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ». أی إنّه بمقتضی صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضی قدرته وحکمته یجازی کلًّا بما یستحقه.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِیمُ لِأَبِیهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّی أَرَاکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ (۷۴) لمّا کانت هذه السورة تحارب الشرک وعبادة الأصنام تستخدم هنا حکایة إبراهیم.

یقول: إنّ إبراهیم وبّخ أباه (عمّه) قائلًا: أتختار هذه الأصنام الحقیرة التی لا حیاة فیها آلهة للعبادة: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِیمُ لِأَبِیهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنّی أَرَیکَ وَقَوْمَکَ فِی ضَللٍ مُّبِینٍ».

وأیّ ضلال أشدّ وأوضح من أن یجعل الإنسان ما یخلقه بیده إلهاً یعبده، ویتخذ من کائن جامد لا روح فیه ولا إحساس ملجأ یفزع إلیه ویبحث عن حلّ مشاکله عنده.

هل کان آزر أبا إبراهیم؟ تطلق کلمة «الأب» فی العربیة علی الوالد غالباً، ولکنها قد تطلق أیضاً علی الجد من جهة الام وعلی العم، وکذلک علی المربی والمعلم والذین یساهمون بشکل ما فی تربیة الإنسان.

وقد وردت فی القرآن کلمة «أب» بمعنی العم، کما فی الآیة (۱۳۳) من سورة البقرة:

«قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَکَ وَإِلَهَ ءَابَائِکَ إِبْرهِیمَ وَإِسْمعِیلَ وَإِسْحقَ إِلَهًا وَاحِدًا».

والضمیر فی «قالوا» یعود علی أبناء یعقوب وکان إسماعیل عم یعقوب لا أباه.

الطبری ینقل فی تفسیره جامع البیان عن مجاهد قال: لیس آزر أبا إبراهیم.

وفی تفسیر روح المعانی: أنّ آزر اسم عم إبراهیم، والعم والجد یسمیان أبا مجازاً.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۳

وَ کَذلِکَ نُرِی إِبْرَاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَیْهِ اللَّیْلُ رَأَی کَوْکَباً قَالَ هذَا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِینَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَی الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هذَا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ یَهْدِنِی رَبِّی لَأَکُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّینَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَی الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذَا رَبِّی هذَا أَکْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ یَا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ (۷۸) إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِیفاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۷۹) أدلة التوحید فی السماوات: علی أثر الکره الذی کان یحمله إبراهیم للأوثان وطلبه من آزر أن یترک عبادة الأصنام، تشیر هذه الآیات إلی نضال إبراهیم المنطقی مع مختلف عبدة الأصنام، وتبین کیفیة توصله إلی أصل التوحید عن طریق الاستدلال العقلی الواضح. تبین أوّلًا أنّ اللَّه کما عرّف إبراهیم علی أضرار عبادة الأصنام عرّفه علی مالکیة اللَّه وسلطته المطلقة علی السماوات والأرض: «وَکَذلِکَ نُرِی إِبْرهِیمَ مَلَکُوتَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«الملکوت»: من «ملک» بمعنی المالکیة والحکم، فالمقصود من الکلمة هنا حکومة اللَّه المطلقة علی عالم الوجود برمّته.

وکما أنّه فی الختام یقول: إنّ الهدف من ذلک هو أن یصبح إبراهیم من أهل الیقین «وَلِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ».

لا شک أنّ إبراهیم کان موقناً یقیناً استدلالیاً وفطریاً بواحدانیة اللَّه، ولکنه بدراسة أسرار الخلق بلغ یقینه حدّ الکمال.

الآیات التالیة تشرح هذا المعنی، وتبین استدلال إبراهیم من افول الکواکب والشمس علی عدم الوهیتها، فعندما غطّی ستار اللیل المظلم العالم کله، ظهر أمام بصره کوکب لامع، فنادی إبراهیم: هذا ربی! ولکنه إذ رآه یغرب، قال: لا أحب الذین یغربون: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَیْهِ الَّیْلُ رَءَا کَوْکَبًا قَالَ هذَا رَبّی فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ الْأَفِلِینَ».

ومرّة اخری رفع عینیه إلی السماء فلاح له قرص القمر الفضّی ذو الإشعاع واللمعان الجذاب علی أدیم السماء، فصاح ثانیة: هذا ربی: ولکن مصیر القمر لم یکن بأفضل من مصیر الکوکب قبله، فقد أخفی وجهه خلف طیّات الافق.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۴

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدني ربي إلى الطريق الموصل إليه فسأكون في عداد التائهين «فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هذَا رَبّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالّينَ». عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقى بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبى تنشره على الجبل والوادى والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربّى فإنّه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنه إذ رآها كذلك تغرب وتختفى فى جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائى قائلًا: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التى تجعلونها شريكة للّه: «فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذَا رَبّى هذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فانّى أتجه إلى الذى خلق السماوات والأرض، وفى إيمانى هذا لن أشرك به أحداً، فإنّى موحد ولست مشركاً: «إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

إنّ تفسير هذه الآية والآيات التالية بشأن ما دفع بإبراهيم الموحد العابد للّهالواحد، أن يشير إلى كوكب فى السماء ويقول: هذا ربّى؟ فإنّه عندما يقول: «هذَا رَبّى» لا يقولها قاطعاً جازماً، بل يقولها من باب الفرض والاحتمال حتى يفكّر فى الأمر. أو أنّه قال «هذَا رَبّى» تعنى: هذا ما تعتقدون أنّه ربى.

وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أ تُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (۸۰) وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۱) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۸۲) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۸۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵

تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم والأقوام المشركة من عبدة الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجة «وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ».

فردّ عليهم إبراهيم عليه السلام قائلًا: لماذا تجادلوننى فى اللّه الواحد الأحد وتخالفوننى فيه، وهو الذى وهبنى من الدلائل المنطقية الساطعة ما هدانى به إلى طريق التوحيد «قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَينِ».

يتّضح فى هذه الآية بجلاء أنّ قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم وبأىّ ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته، قد حذّروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها فى محاولة لإرعابه وإخافته، لأنّنا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم ويؤكد لهم أنّه لا يخشى أصنامهم التى لا حول لها ولا قوة فى إيصال أىّ أذى إليه «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ...» فما من أحد ولا من شىء بقادر على أن يلحق بى ضرراً إلّاإذا شاء اللّه:

«إِلَّا أن يَشَاءَ رَبّى شَيًا».

يظهر من هذه الآية أنّ إبراهيم عليه السلام سعى لإتخاذ إجراء وقائى تجاه حوادث محتملة، فيؤكّد أنّه إذا أصابه فى هذا الصراع شىء- فرضاً- فلن يكون لذلك أىّ علاقة بالأصنام، بل يعود إلى إرادة اللّه.

ويضيف إلى ذلك مبيّناً أنّ ربّه على درجة من سعة العلم بحيث يسع علمه كل شىء:

«وَسِعَ رَبّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا».

ثم يحرّك فيهم روح البحث والتفكير فيخاطبهم قائلًا: «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ».

فى الآية التالية ينهج إبراهيم منطقاً استدلالياً آخر، فيقول لعبدة الأصنام: كيف يمكننى أن أخشى الأصنام ويستولى علىّ الخوف من تهديدكم، مع إنّى لا أرى فى أصنامكم أثراً للعقل والإدراك والشعور والقوة والعلم، أمّا أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود اللّه وإقراركم له بالعلم والقدرة، ومعرفتكم بأنّه لم يأمركم بعبادة هذه الأصنام، فانّكم لا تخافون غضبه:

«وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» «١».

كونوا منصفين إذن وقولوا:

«فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

---

(١) «السلطان»: بمعنى التفوّق والإنتصار، ولمّا كان الدليل والبرهان من أسباب الفوز والإنتصار، فقد يوصفان بالسلطان أيضاً، كما هو الحال هنا، أى لا وجود لأىّدليل على السماح.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۶

يستند منطق إبراهيم عليه السلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنّكم تهددوننى بغضب الأصنام، مع أنّ تأثيرها وهمٌ من الأوهام، ولكنّكم بعدم خشيتكم من اللَّه العظيم الذى نؤمن به جميعاً، ونعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمراً ثابتاً، وتمسكتم بأمر وهمى، ولم يصدر اللَّه تعالى إلينا أمراً بعبادة الأصنام.

فى الآية التالية جواب يدلى به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه فى الآية السابقة (وهذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمى، فقد يسأل المتكلم سؤالًا عن لسان المخاطب ثم يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أنّ الجواب من الوضوح بحيث ينبغى أن يعرفه كل شخص). يقول: إنّ المؤمنين الذين لم يمزجوا إيمانهم بظلم، هم الآمنون وهم المهتدون «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ».

الآية التالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد ومجابهة الشرك كما جاء على لسان إبراهيم، فتقول: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنهَا إِبْرهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ».

ثم تقول الآية: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ». ولكيلا يخامر بعضهم الشك فى أنّ اللَّه يحابى فى إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إنّ اللَّه متصف بالحكمة وبالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجة من لا يستحق ذلك: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٨۴) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨۵) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨۶) وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) فى هذه الآيات إشارة إلى النعم التى اسبغها اللَّه على إبراهيم، وهى تتمثل فى أبناء صالحين وذرية لائقة، وهى من النعم الإلهية العظيمة. يقول سبحانه: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يبيّن أنّ مكانة هذين لم تكن لمجرد كونهما ولدى نبى، بل لإشعاع نور الهداية فى قلبيهما نتيجة التفكير السليم والعمل الصالح: «كُلًّا هَدَيْنَا».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٧

ثم لكيلا يتصور أحد أنّه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، وأنّ التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ».

فالإشارة إلى مكانة نوح، وهو من أجداد إبراهيم، والإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه وقبيلته، إنّما هى توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة والأصل» و «الذرية».

وعلى أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من اسرة إبراهيم: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهرُونَ». ثم يبيّن أنّ منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة وهم لذلك ينالون جزاءهم: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

فى الآية الثانية يرد ذكر زكريّا ويحيى وعيسى والياس على أنّهم جميعاً كانوا من الصالحين. أى إنّ مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هى بسبب أعمالهم الصالحة فى سبيل اللَّه: «وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

الآية الثالثة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء والقادة الإلهيين، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط الذين رفعهم ربهم درجات على أهل زمانهم: «وَإِسْمعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ».

وفى الآية الأخيرة إشارة عامة إلى آباء الأنبياء المذكورين وأبنائهم وإخوانهم ممن لم ترد أسماؤهم بالتفصيل وهم جميعاً من الصالحين الذين هداهم اللّه: «وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم».

ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۸۸) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (۸۹) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (۹۰) ثلاثة إمتيازات مهمة: بعد ذكر مجموعات الأنبياء فى الآيات السابقة، تتناول هذه الآيات الخطوط العامة لحياتهم، وتبدأ القول: «ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

ولكيلا يحسب البعض أنّ هؤلاء قد أجبروا على السير فى هذا الطريق، أو يظن أنّ اللّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸

ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصة وإستثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهى الذى يسرى على غيرهم بغير محاباة.

الآية التالية تشير إلى ثلاثة إمتيازات مهمة هى أساس جميع إمتيازات الأنبياء، وهى قوله: «أُولئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ».

إنّ الحكم أصلًا هو المنع، ومن ذلك العقل الذى يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، والحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهى قد استعملت فى المعانى الثلاثة.

ثم يقول: لئن رفضت هذه الجماعة (أى المشركون وأهل مكة) تلك الحقائق، فإنّ دعوتك لن تبقى بغير إستجابة، إذ إنّنا قد أمرنا جمعاً آخر، لا بقبولها فحسب، بل وبالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبداً، بل يتبعون الحق: «فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ».

جاء فى تفسير المنار وتفسير روح المعانى عن بعض المفسرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس، وقد أسرعوا فى قبول الإسلام وجاهدوا فى سبيل نشره، وظهر فيهم العلماء فى شتى العلوم والفنون الإسلامية وألّفوا الكثير من الكتب.

الآية الأخيرة تجعل من منهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوة رفيعة للهداية تعرض على رسول الخاتم صلى الله عليه و آله فتقول له: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَيهُمُ اقْتَدِهْ».

تؤكد هذه الآية مرّة اخرى على أنّ اصول الدعوة التى قام بها الأنبياء واحدة.

إنّ للهداية معنى واسعاً يشمل التوحيد وسائر الاصول العقائدية، كما يشمل الصبر والثبات وسائر الاصول الأخلاقية والتربوية.

ثم يؤمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول للناس إنّه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجراً لقاء عملية تبليغ الرسالة: «قُل لَّاأَسَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا».

ثم إنّ هذا القرآن وهذه الرسالة والهداية إن هى إلّاإيقاظ وتوعية للناس جميعاً: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ».

إنّ النعم العامة الشاملة مثل نور الشمس والهواء والأمطار هى امور عامة وعالمية، لا تباع ولا تشترى، ولا أجر يعطى لقاءها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹

وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (۹۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ اليهود قالت يا محمّد! أنزل اللّه عليك كتاباً؟

قال: «نعم». قالوا: واللّه ما أنزل اللّه من السماء كتاباً.

التّفسير

يبدو من سبب النزول وسياق الآية انّها بشأن اليهود لا المشركين، لذلك يرى بعضهم أنّ هذه الآية قد نزلت فى المدينة، إلّاأنّها وضعت فى هذه السورة المكية بأمر من رسول اللّه صلى الله عليه و آله ولهذا فى القرآن ما يشابهه. فى البداية تقول الآية: إنّهم لم يعرفوا اللّه معرفة صحيحة وأنكروا نزول كتاب سماوى على أحد: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ».

فيأمر اللّه رسوله أن «قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ».

ذلك الكتاب الذى جعلتموه صحائف متناثرة، تظهرون منه ما ينفعكم وتخفون ما تظنونه يضرّكم: «تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا».

إنّكم تتعلمون من هذا الكتاب السماوى اموراً كثيرة لم تكونوا أنتم ولا ـ أباؤكم تعلمون عنها شيئاً: «وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ».

وفى ختام الآية يؤمر النبى صلى الله عليه و آله أن يذكر اللّه وأن يترك اولئك فى أباطيلهم وعنادهم ولعبهم: «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

وَ هذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (۹۲) تعقيباً على البحث الذى دار فى الآيات السابقة حول كتاب اليهود السماوى، تشير هذه الآية إلى القرآن باعتباره كتاباً سماوياً آخر، والواقع أنّ ذكر التوراة مقدمة لذكر القرآن لإزالة كل عجب وتخوّف من نزول كتاب سماوى على فرد من البشر، فتبدأ بالقول: «وَهذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ». وهو كتاب «مبارك» لأنّه مصدر كل خير وبركة وصلاح وتقدم، ثم إنّه يؤكد

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰

الكتب التى نزلت قبله: «مُّصَدّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ». والمقصود من أنّ القرآن يصدّق الكتب التى بين يديه، هو أنّ جميع الإشارات والإمارات التى وردت فيها تنطبق عليه. وبناءاً على ذلك فصدق القرآن يتجلى فى محتواه من جهة، وفى المستندات التاريخية من جهة اخرى.

ثم يبيّن القرآن هدف نزوله وهو توجيه الإنذار والتحذير لُامّ القرى (مكة) والساكنين حولها وتنبيههم إلى مسؤولياتهم وواجباتهم: «وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا».

وفى الختام تقرر الآية أنّ الذين يعتقدون بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، سيصدّقون بهذا الكتاب، ويؤدّون فريضة الصلاة ولا يفرّطون فيها: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

إنّ اليابسة قد انتشرت من تحت الكعبة وهو ما أطلق عليه اسم «دحو الأرض».

«ومن حولها» أى جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمّتها.

نلاحظ فى هذه الآية أنّها تشير إلى الصلاة من بين جميع الفرائض الدينية، ونعلم أنّ الصلاة هى مظهر الإرتباط باللّه، ولذلك كانت أرفع من جميع العبادات منزلة، ويرى بعضهم أنّه عند نزول هذه الآية كانت العبادة الوحيدة المفروضة حتى ذلك الوقت هى الصلاة.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (۹۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقيل: نزلت فى مسيلمة، حيث ادّعى النبوة إلى قوله «وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» وقوله «سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ» فى عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح، فإنّه كان يكتب الوحى للنبى عليه السلام فكان إذا قال له اكتب عليماً حكيماً، كتب غفوراً رحيماً، وإذا قال له اكتب غفوراً رحيماً كتب عليماً حكيماً، وارتدّ ولحق بمكة، وقال إنّى مثل ما أنزل اللّه.

هذه الآية، مثل سائر آيات القرآن، نزلت فى ظروف خاصة، وهى ذات محتوى عام يشمل كل من إدّعى النبوة وأمثالهم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥١

التّفسير

فى الآيات السابقة مرّت الإشارة إلى مزاعم اليهود الذين أنكروا نزول أى كتاب سماوى على أحد، وفى هذه الآية يدور الكلام على اشخاص آخرين يقفون على الطرف المعاكس تماماً لأولئك، فيزعمون كذباً أنّ الوحى ينزل عليهم.

وتتناول الآية ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففى البداية تقول: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

والجماعة الثانية هم الذين يدّعون النبوّة ونزول الوحى عليهم، فلا هم أنبياء، ولا نزل عليهم وحى: «أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ».

والجماعة الثالثة هم الذين أنكروا نبوّة نبى الخاتم صلى الله عليه و آله أو زعموا ساخرين أنّهم يستطيعون أن يأتوا بمثل آيات القرآن، وهم فى ذلك كاذبون ولا قدرة لهم على ذلك: «وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ».

نعم، هؤلاء كلهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدّعى لنفسه القيادة الإلهية وليست لديه صلاحية مثل هذا المقام.

ثم تبيّن العقاب الأليم الذى ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ» «١». أى لو أنّك- أيّها النبى- رأيت هؤلاء الظالمين وهم يمرون بشدائد الموت والنزع الأخير، وملائكة قبض الأرواح مادّين أيديهم نحوهم ويقولون لهم: هيّا أخرجوا أرواحكم، لأدركت العذاب الذى ينزل بهم.

عندئذٍ تخبرهم ملائكة العذاب بأنّهم سينالون اليوم عذاباً مذلّاً لأمرين: الأوّل: إنّهم كذبوا على اللّه، والآخر، إنّهم لم ينصاعوا لآياته: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ». «أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ» تعنى فى الواقع ضرباً من التحقير تبديه الملائكة نحو هؤلاء الظالمين، وإلّا فإنّ إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائكة.

---

(١) «الغمرات»: جمع غمرة (على وزن ضربة)، و أصل الغمر إزالة أثر الشىء، ثم استعملت للماء الكثير الذى يستر وجه الشىء تماماً، كما تطلق على الشدائد والصعاب التى تغمر المرء.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٢

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَ مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى النضر بن الحرث بن كلدة، حين قال: سوف يشفع لى اللات والعزى.

التّفسير

الضّالون: أشارت الآية السابقة إلى أحوال الظالمين وهم على شفا الموت، وتنطلق هذه الآية لتتحدث عن خطاب اللّه لهم عند الموت أو عند الورود إلى ساحة يوم القيامة، فتبدأ الآية بالقول بأنّهم يأتون يوم القيامة منفردين كما خلقوا منفردين: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

والأموال التى وهبناها لكم وكنتم تستندون إليها فى حياتكم، قد خلّفتموها وراءكم، وجئتم صفر الأيدى: «وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ» «۱».

ولا نرى معكم تلك الأصنام التى قلتم إنّها سوف تشفع لكم وظننتم أنّها شريكة فى تعيين مصائركم «وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكؤُا».

ولكن الواقع أنّ جمعكم قد تبدد، وتقطعت جميع الروابط بينكم: «لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ».

وكل ما ظننتموه وما كنتم تستندون إليه قد تلاشى وضاع: «وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

كان المشركون العرب يستندون فى حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيرة التى كانوا ينتمون إليها، والأموال التى جمعوها لأنفسهم، والأصنام التى اعتبروها شريكة للّهفى تقرير مصير الإنسان وشفيعة لهم عند اللّه، والآية فى كل جملة من جملها الثلاث تشير إلى واحدة من هذه الامور، وإلى أنّها عند الموت تودعه وتتركه وحيداً فريداً.

---

(۱) «خوّلناكم»: من «الخول» وهو إعطاء ما يحتاج إلى التعهد والتدبير والإدارة، وهو النعم التى يسبغها اللّه تعالى على عباده.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳

ففى ذلك اليوم تنفصم العرى وتنفصل عن البشر كل الإنشدادات المادية والمعبودات الخيالية المصطنعة وجميع ما اصطنعوه لأنفسهم فى الحياة الدنيا ليكون سنداً لهم يستعينون به فى يوم بؤسهم حيث لا يبقى سوى الشخص وعمله، ويزول كل ما عدا ذلك، أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن، وهو تعبير جميل يوحى بأنّ الشركاء سيكونون إلى درجة من الصغر والحقارة والضياع بحيث إنّهم لا يُروا بالعين.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۹۵) فَالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۹۶) مرّة اخرى يوجّه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلائل التوحيد فى عبارات جذّابة وفى نماذج حيّة من أسرار الكون ونظام الخلق وعجائبه.

فى الآية الاولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفى الآية الثانية يشير إلى ثلاثة من الظواهر السماوية. يقول القرآن الكريم أوّلًا: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .

«الفلق»: شقّ الشىء وإبانة بعضه عن بعض. و «الحب» و «الحبة»: تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات التى تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً. و «النوى»: من النّواة.

وممّا يلفت الإنتباه أنّ الحبّة والنّواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر والخوخ وأمثالهما، وإلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التى هى فى الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كل جانب، وأنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الإختراق خاصية التسليم والليونة أمام إختراق نطفة النبات، كما منحت النطفة قوة إندفاع تُمكّنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقّاً حادثة عجيبة فى عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثم يقول: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيّتِ مِنَ الْحَيّ».

إنّ موضوع الحياة والموت بالنسبة للكائنات الحيّة من أعقد المسائل التى لم تستطع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها ورفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴

مجهولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة وموادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتتحوّل إلى كائنات حيّة. لذلك نجد القرآن-

وفى معرض إثبات وجود اللَّه- كثيراً ما يكرر هـذا الموضوع، كما يسـتدل أنبياء عظام كإبراهيم وموسـى، على وجود مبـدأ قادر حكيم بمسألة الحياة والموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود وفرعون.

وفى ختام الآيـة توكيـد للموضوع: «ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». أى هـذا هو ربّكم وهـذه هى قـدرته وعلمه اللامتناهى، فكيف بعـد هـذا تنحرفون عن الحق وتميلون إلى الباطل.

فى الآية الثانية يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماوية: فيقول أوّلًا: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ».

كثيراً ما يشير القرآن إلى نعمتى النّور والظلام والليل والنهار، ولكنّه هنا يتناول «طلوع الصبح» كنعمة من نعم اللَّه الكبرى، فنحن نعرف أنّ هـذه الظـاهرة تحـدث لوجود جوّ الأرض، ذلك الغلاف الضـخم من الهواء الـذى يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض- مثل القمر- عديمة الجو، لما كان هناك «طلوعان» ولا «فلق» ولا «إصباح» ولا «غسق» ولا «شفق» غير أنّ الجو الموجود حول الأرض والمؤدّى إلى حصول فترة فاصلة بين ظلام الليل وضياء النهار عند طلوع الشمس وغروبها يهيّىء الإنسان تدريجياً لتقبّل هذين الاختلافين المتضادين والإنتقال من الظلمة إلى النور، ومن النور إلى الظلمة، شيئاً فشيئاً، بحيث إنّه يستطيع أن يتحمّل كل منهما.

ولكيلا يظن أحـد أنّ فلق الصـبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب وأنّه عقاب أو سـلب نعمة، يبادر القرآن إلى القول: «وَجَعَلَ الَّيلَ سَكَنًا».

من الامور المسلم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النور والضياء إلى العمل وبذل الجهد، ويتّجه الدم نحو سطح الجسم وتتهيّأ العضلات للفعاليـة والنشاط، ولـذلك لا يكون النوم فى الضوء مريحاً، بل يكون أعمق وأكثر راحة كلّما كان الظلام أشد، حيث يتّجه الـدم فيه نحو الـداخل، وتـدخل الخلايا عموماً فى نوع من السكون والراحـة، لذلك نجد فى الطبيعة أنّ النوم فى الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام فى الليل أيضاً، وعند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفعاليتها ونشاطها، بعكس الإنسان فى هذا العصر الآلى، فهو يبقى مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل، ثم يظل نائماً حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بـذلك نشاطه وسلامته.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵

ثم يشير اللَّه تعالى إلى الثالثة من نعمه ودلائل عظمته بجعل الشمس والقمر وسيلة للحساب: «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا».

إنّه لموضوع مهم جـدّاً أن تكون الأرض منـذ ملايين السـنين تدور حول الشـمس، والقمر يدور حول الأرض، أنّ حساب هذا الدوران من الدقّة والضبط بحيث إنّه لا يتقدّم ولا يتأخر لحظة واحدة.

وهـذا ما لا يمكن أن يكون إلّافى ظل علم وقـدرة لا نهائيتين يضـعان تخطيطه وينفـذانه بدقـة، لذلك تنتهى الآية بقولها: «ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ».

بعد شـرح نظام دوران الشـمس والقمر فى الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة اخرى من نعم اللَّه على البشـر، فجعل النجوم ليهتدى بها الانسان فى ليالى البر والبحر: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

وتختتم الآية بالقول بأنّ اللَّه قد بيّن آياته لأهل الفكر والفهم والإدراك: «قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

منذ آلاف السـنين والإنسان يعرف النجوم فى السـماء ونظامها، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الإتجاه فى الأسفار البرية والبحرية، وعلى الأخص فى المحيطات الواسعة التى كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الإتجاه قبل إختراع الإسطرلاب.

إنّ النجوم هى التى هدت ملايين البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلى برّ السلامة.

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِى ذلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيـد ومعرفة اللَّه، وللوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان ويسيح به فى آفاق العالم البعيدة وقد يسير به فى داخل ذاته ويبيّن له آثار اللَّه فى جسـمه وروحه، فيتيح له أن يرى اللَّه فى كل مكان. فيبدأ بالقول: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ». أى إنّكم، على اختلاف ملامحكم وأذواقكم وأفكاركم والتباين الكبير فى مختلف جوانب حياتكم، قـد خلقتم من فرد واحد، وهذا دليل على منتهى عظمة الخالق وقدرته التى أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

ثم يقول: إنّ فريقاً من البشر «مستقر» وفريقاً آخر «مستودع» «فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ».

«المستقر»: أصله من «القُر» (بضم القاف) بمعنى البرد، ويقتضى السكون والتوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و «مسـتودع»: من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر، والوديعة هى التى يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضـح من هـذا الكلام أنّ الآيـة تعنى أنّ النـاس بعض «مسـتقر» أى ثـابت، وبعض «مسـتودع» أى غير ثـابت. يحتمـل أن يكون هـذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين فى تركيب نطفـة الإنسان، إنّ النطفة تتركب من جزئين: الأوّل هو «البويضة» من الانثى، والثانى هو «الحيمن» أو «المنى» من الـذكر، فالبويضـة فى رحم الانثى تكاد تكون مسـتقر ولكن حيمن الـذكر حيوان حى يتحرك بسـرعة نحوها، وما أن يصل أوّل حيمن إلى البويضـة حتى يمتزج بها و «يخصـبها» ويصد (الحيامن) الاخرى، ومن هذين الجزئين تتكون بذرة الإنسان الأولى

وفى ختام الآية يعود فيقول: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ».

الآيـة الثانيـة هى آخر آيـة فى هـذه المجموعـة التى تكشف لنـا عن عجائب عالم الخلق وتهـدينا إلى معرفـة اللَّه بمعرفـة مخلوقاته. فى البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نعم اللَّه التى يمكن أن تعتبر النعمة الام وأصل النعم الاخرى، وهى ظهور النباتات ونموها بفضل النعمة التى نزلت من السماء: «وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً».

وإنّما قال (من السـماء) لأنّ سماء كل شىء أعلاه، فكل ما فى الأرض من مياه العيون والآبار والأنهار والقنوات وغيرها منشؤها الأمطار من السماء، وقلّة الأمطار تؤثّر فى كمية المياه فى تلك المصادر كلها، وإذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۷

ثم تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ».

المقصود من «نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ» هو كل أنواع النباتات وأصـنافها التى تسـقى من ماء واحـد، وتنبت فى أرض واحـدة وتتغـذّى من تربة واحدة، وأنّه لمن العجيب أنّ اللَّه تعالى يخرج من أرض واحدة وماء واحد الغذاء الذى يحتاجه كل هؤلاء.

والأعجب من كل هذا أنّ نباتات الصـحراء واليابسة ليست وحدها التى تنمو ببركة ماء المطر، بل إنّ النباتات المائية الصغيرة التى تطفو على سطح البحر وتكون غذاء للأسماك تنمو بأشعة الشمس وقطرات المطر.

ثم تشرح الآيـة ذلـك وتضـرب مثلًا ببعض النباتـات التى تنمو بفضـل المـاء، فتـذكر أنّ اللَّه يخرج بالماء سـيقان النباتات الخضـر من الأرض، ومن تلك الحبّة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطرى اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين: «فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا» «۱».

ومن ذلك الساق الأخضر أخرجناالحبّ متراصفاً منظماً: «نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا» «۲».

وكـذلك بالماء نخرج من النخل طلعاً مغلقاً، ثم يتشـقق فتخرج الاعـذاق بخيوطها الرفيعة الجميلة تحمل حبّات التمر، فتتدلى من ثقلها: «وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ».

«الطلع»: هو عـذق التمر قبل أن ينفتـح غلافه الأخضـر، وإذ ينفتـح الطلع تخرج منه أغصان العـذق الرفيعة، وهى القنوان ومفردها قنو. و «دانية»: أى قريبة، وقد يكون ذلك إشارة إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنّها تميل نحو الأرض لثقلها.

وكذلك بساتين فيها أنواع الأثمار والفواكه: «وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ».

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من روائع الخلق فى هذه الأشجار والأثمار، فتقول:

«مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

إنّ شجرتى الرمان والزيتون متشابهتان من حيث الشكل الخارجى وتكوين الأغصان وهيئة الأوراق تشابهاً كبيراً، مع أنّهما من حيث الثمر وطعمه وفوائده مختلفتان، ففى الزيتون مادة زيتية قوية الأثر، وفى الرمان مادة حامضية أو سكرية، فهما متباينان تماماً، ومع ذلك فقد تزرع الشجرتان فى أرض واحدة، وتشربان من ماء واحد، فهما متشابهتان وغير متشابهتين فى آن واحد.

---

(۱) كلمة «أخضر» تشمل كل أخضر فى النبات، حتّى براعم الأشجار، ولكن بما إنّها متبوعة مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود فى الآية هو زراعة الحبوب.

(۲) «المتراكب»: من الركوب وما ركب بعضه بعضاً، وأكثر الحبوب بهذا الشكل.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۸

ثم تركّز الآية من بين مجموع اجزاء الشجرة، على ثمرة الشجرة وعلى تركيب الثمرة إذا أثمرت، وكذلك على نضج الثمرة إذا نضجت، ففيها دلائل واضحة على قدرة اللّه وحكمته للمؤمنين من الناس: «انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

ما نقرؤه اليوم فى علم النبات عن كيفية طلوع الثمرة ونضجها يكشف لنا عن الأهمية الخاصة التى يوليها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمرة فى عالم النبات أشبه بولادة الأبناء فى عالم الحيوان، فنطفة الذكر فى النبات تخرج من أكياس خاصة بطرق مختلفة (كالرياح أو الحيوانات) وتحط على القسم الانثوى فى النبات، وبعد التلقيح والتركيب تتشكل البيضة الملقحة الاولى، وتحيط بها مواد غذائية مشابهة لتركيبها، وهذه المواد الغذائية تختلف من حيث التركيب وكذلك من حيث الطعم والخواص الغذائية والطبّية. فقد تكون ثمرة (مثل العنب والرمان) فيها مئات من الحبّ، كل حبّة منها تعتبر جنيناً وبذرة لشجرة اخرى، ولها تركيب معقّد عجيب.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ المراحل المتعددة التى تمرّ بها الثمرة منذ تولدها حتى نضجها تثير الإنتباه، لأنّ «المختبرات» الداخلية فى الثمرة لا تنفك عن العمل فى تغيير تركيبها الكيمياوى إلى أن تصل إلى المرحلة النهائية ويثبت تركيبها الكيمياوى النهائى، فكل مرحلة من هذه المراحل دليل على عظمة الخالق وقدرته.

ولكن لابدّ من القول- بحسب تعبير القرآن- إنّ المؤمنين الذين يمعنون النظر فى هذه الامور هم الذين يرون هذه الحقائق، وإلّا فعين العناد والمكابرة والإهمال والتساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقة.

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (۱۰۰) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۰۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۰۲) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (۱۰۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۹

خالق كل شىء: هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمة والخرافات التى يؤمن بها المشركون وأصحاب المذاهب الباطلة، وتردّ عليهم بالمنطق. فأوّلًا: قالوا: إنّ للّهشركاء من الجن «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ».

فينكر الإسلام عليهم ذلك، إذ كيف يمكن ذلك وهو الذى خلق الجن: «وَخَلَقَهُمْ». أى كيف يمكن أن يكون المخلوق شريكاً للخالق، لأنّ الشركة دليل التماثل والتساوى، مع أنّ المخلوق لا يمكن أن يكون فى مصاف خالقه أبداً!

الخرافة الاخرى هى قولهم- جهلًا- إنّ للّهبنين وبنات: «وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

أفضل دليل على أنّ هذه العقائد ليست سوى خرافة، هو أنّها تصدر عنهم «بِغَيْرِ عِلْمٍ».

أى إنّهم لا يملكون أىّ دليل على هذه الأوهام.

من الملاحظ أنّ القرآن استعمل لفظة «خرقوا»: من الخرق، وهو تمزيق الشىء بغير روية ولا حساب، وهى فى النقطة المقابلة تماماً «للخلق» القائم على الحساب، هاتان اللفظتان:

«الخلق والخرق» قد تستعملان فى حالات الكذب والاختلاق، مع اختلاف بينهما، هو أنّ (الخلق والإختلاق) تستعمل فى الأكاذيب المدروسة و (الخرق والإختراق) فيما لا حساب فيه من الكذب. أى إنّهم اختلقوا تلك الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن يعدّوا له ما يلزم من الامور.

أمّا الطوائف التى كانت تنسب للّهالبنين، فإنّ القرآن يذكر فى آيات اخرى اسم طائفتين من هؤلاء:

الاولى: هم المسيحيون الذين قالوا: إنّ عيسى ابن اللَّه.

والاخرى: هم اليهود الذين قالوا: عزير ابن اللَّه.

يستفاد من الآية (۳۰) من سورة التوبة أنّ المسيحيين واليهود ليسوا وحدهم الذين نسبوا إبناً للّه، بل كان هذا موجوداً فى المعتقدات الخرافية القديمة.

أمّا بشأن نسبة بنات للّه، فالقرآن نفسه يوضّح ذلك فى آيات اخرى: «وَجَعَلُوا الْمَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا» (۱).

والقرآن يرفض تماماً فى نهاية الآية كل هذه الخرافات التى لا أساس لها، وبعبارة حاسمة قاطعة: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ».

---

(۱) سورة الزخرف/ ۱۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۰

و الآية التالية تردّ على تلك العقائد الخرافية فتؤكد أنّ اللَّه هو ذلك الذى أبدع خلق السموات والأرض: «بَدِيعُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«البديع»: تعنى موجد الشىء بغير سابق وجود، أى انّ اللَّه أوجد السماوات والأرض بغير أن يسبق ذلك وجود مادة أو خطة سابقة.

ثم كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجة؟! «أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ». وما حاجته إلى زوجة؟ ثم من التى تكون زوجته وهم جميعاً مخلوقاته؟

ومرّة اخرى تؤكد الآية مقامه باعتباره خالقاً لكل شىء، ومحيطاً بكل شىء: «وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلّ شىْءٍ عَلِيمٌ».

الآية الثالثة تؤكد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق، من ذكر خالقية اللَّه لكل شىء، وإبداعه السماوات والأرض وإيجادها، وكونه منزّهاً عن الصفات والعوارض الجسمية وعن الحاجة إلى الزوجة والأبناء وإحاطته العلمية بكل شىء: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ» فلا يستحق العبودية غيره.

ولكى ينقطع كل أمل بغير اللَّه، وتنقلع كل جذور الشرك والإعتماد على غير اللَّه، تختتم الآية بالقول: «وَهُوَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ وَكِيلٌ».

الآية الاخيرة من الآيات مورد البحث، ومن أجل إثبات حاكمية اللَّه وإحاطته بكل شىء وحفاظه على كل شىء، وكذلك لإثبات أنّه يختلف عن كل شىء، تقول: «لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». أى: إنّه الخبير بمصالح عبيده وبحاجاتهم، ويتعامل معهم بمقتضى لطفه.

فى الحقيقة أنّ من يريد أن يكون حافظ كل شىء ومربيه وملجأه لابد أن يتّصف بهذه الصفات.

لا تدركه الأبصار: تثبت الأدلة العقلية أنّ اللَّه لا يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلّاالأجسام، أو على الأصح بعضاً من كيفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشىء جسماً ولا كيفية من كيفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شىء بالعين، فلأنّ لهذا الشىء حيّزاً واتجاهاً وكتلة، فى حين أنّ اللَّه أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو

أسمى من عالم المادة المحدود فى كل شىء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۱

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۱۰۴) وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۰۵) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۶) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۷) ليس من واجبك الإكراه: تعتبر هذه الآيات نتيجة للآيات السابقة، ففى البداية تقول:

«قَدْ جاءَكُم بَصائِرُ مِن رَّبِّكُمْ».

«بصائر»: جمع «بصيرة» من «البصر» بمعنى الرؤية، ولكنها فى الغالب رؤية ذهنية وعقلانية، وهذه الكلمة فى هذه الآيات تعنى الدليل والشاهد، وتشمل جميع الدلائل التى وردت فى الآيات السابقة، بل إنّها تشمل حتى القرآن نفسه.

ثم لكى تبين أنّ هذه الأدلة والبراهين كافية لإظهار الحقيقة لأنّها منطقية، تقول: «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا». أى إنّ إبصارهم يعود بالنفع عليهم وعماهم يسبب الإضرار بهم.

وفى نهاية الآية تقول، على لسان النبى صلى الله عليه و آله: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ».

الآية التالية تؤكد أنّ إتخاذ القرار النهائى فى إختيار طريق الحق أو الباطل إنّما يرجع للناس أنفسهم، وتقول: «وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ» «۱». أى كذلك نبين الأدلة والبراهين بصور وأشكال متنوعة.

لكن جمعاً عارضوا، وقالوا- دونما دليل وبرهان- إنّك تلقيت هذا من الآخرين (أى اليهود والنصارى): «وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ».

إلّا أنّ جمعاً آخر ممن لهم الإستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصيرة وفهم وعلم، يرون وجه الحقيقة ويقبلونها: «وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

إنّ إتهام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأنّه إقتبس تعاليمه من اليهود والنصارى قد تكرر من جانب المشركين، وما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم فى ذلك، مع أنّ حياة الجزيرة العربية لم تكن فيها مدرسة ولا درس ليتعلّم منها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله شيئاً كما أنّ رحلاته إلى خارج

---

(۱) «نصرف»: من «التصرف» وهو بمعنى ردّ الشىء من حالة أو إبداله بغيره، أى إنّ الآيات تنزل فى صوروأشكال متنوعة ولمختلف المستويات العقلية والعقائدية والاجتماعية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۲

الجزيرة كانت قصيرة لا تدع مجالًا لمثل هذا الاحتمال، ثم إنّ معلومات اليهود والمسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجة من التفاهة وتسطير الخرافات بحيث لا يمكن- أصلًا- مقارنتها بما فى القرآن ولا بتعاليم الرّسول صلى الله عليه و آله وسنشرح هذا الموضوع- إن شاء اللَّه- عند تفسير الآية (۱۰۳) من سورة النحل.

ثم تبين الآية واجب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى قبال معاندة المعارضين وحقدهم وإتهاماتهم، فتقول: «اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». ومن واجبك أيضاً الإعراض عمّا يوجّهه إليك المشركون من إفتراءات: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ».

هذا ضرب من التسلية والتقوية المعنوية للنبى صلى الله عليه و آله لكيلا ينتاب عزمه الراسخ الصلب أىّ ضعف فى مواجهة أمثال هؤلاء المعارضين.

فى الآية الأخيرة يكرر القرآن فيها- مرّة اخرى- القول بأنّ اللَّه لا يريد أن يكره المشركين ويجبرهم على الإسلام، إذ لو أراد ذلك لما كان هناك أىّ مشرك: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا».

كما يؤكد القول لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّك لست مسؤولًا عن أعمال هؤلاء، لأنّك لم تبعث لإكراههم على الإيمان: «وَمَا

جَعَلْنَاکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظًا». ولا من واجبک حملهم على عمل الخیر: «وَمَا أَنتَ عَلَیْهِم بِوَکِیلٍ».

«الحفیظ»: هو من یراقب أمراً أو شخصاً لیحفظه من أن یصاب بضرر؛ أمّا «الوکیل»:

فهو من یسعى لإحراز النفع لموکّله. إنّ الفکرة التی تسود هذه الآیات تستلفت النظر، فهی تقول: إنّ الإیمان باللّه وبتعالیم الإسلام لا یکون عن طریق الإکراه والإجبار، بل یکون عن طریق المنطق والاستدلال والنفوذ إلى أفکار الناس وأرواحهم، فالإیمان بالإکراه لا قیمة له، لأنّ المهم هو أن یدرک الناس الحقیقة فیتقبّلوها بإرادتهم واختیارهم.

وَ لَا تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَیَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَیْرِ عِلْمٍ کَذلِکَ زَیَّنَّا لِکُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَی رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَیُنَبِّئُهُمْ بِمَا کَانُوا یَعْمَلُونَ (۱۰۸) تناولت الآیات السابقة موضوع قیام تعالیم الإسلام على أساس المنطق، وقیام دعوته على أساس الاستدلال والإقناع لا الإکراه، وهذه الآیة تواصل نفس التوجیهات فتنهى عن سبّ ما یعبد الآخرون- أی المشرکون- لأنّ هذا سوف یدعوهم إلى أن یعمدوا هم أیضاً- ظلماً وعدواناً وجهلًا- إلى توجیه السب إلى ذات اللّه المقدسة: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِینَ یَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَیَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَیْرِ عِلْمٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۳

یروى أنّ بعض المؤمنین کانوا یتألمون عند رؤیتهم عبادة الأصنام، فیشتمون أحیاناً الأصنام أمام المشرکین، وقد نهى القرآن نهیاً قاطعاً عن ذلک، وأکّد التزام قواعد الأدب واللیاقة حتى فی التعامل مع أکثر المذاهب بطلاناً وخرافة.

إنّ السبب واضح، فالسّب والشّتم لا یمنعان أحداً من المضی فی طریق الخطأ، لأنّ کل امة تتعصّب عادة لعقائدها وأعمالها کما تقول العبارة التالیة من الآیة: «کَذلِکَ زَیَّنَّا لِکُلّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ».

وفی الختام تقول الآیة: «ثُمَّ إِلَى رَبّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَیُنَبّئُهُم بِمَا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آیَةٌ لَیُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآیَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا یُشْعِرُکُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا یُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ کَمَا لَمْ یُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِی طُغْیَانِهِمْ یَعْمَهُونَ (۱۱۰)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قالت قریش یا محمّد! تخبرنا أنّ موسى کانت معه عصا یضرب بها الحجر، فینفجر منه إثنتا عشرة عیناً، وتخبرنا أنّ عیسى کان یحیی الموتى، وتخبرنا أنّ ثمود کانت لهم ناقة، فائتنا بآیة من الآیات کی نصدّقک! فقال رسول اللّه صلى الله علیه و آله: «أیّ شیء تحبّون أن آتیکم به؟» قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا، حتى نسألهم عنک أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائکة یشهدون لک، أو ائتنا باللّه والملائکة قبیلًا! فقال رسول اللّه صلى الله علیه و آله: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أتصدّقوننی؟» قالوا: نعم، واللّه لئن فعلت لنتبعنک أجمعین. وسأل المسلمون رسول اللّه صلى الله علیه و آله أن ینزلها علیهم حتى یؤمنوا، فقام رسول اللّه صلى الله علیه و آله یدعو أن یجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبرئیل علیه السلام فقال له: «إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولکن إن لم یصدّقوا عذّبتهم وإن شئت ترکتهم حتى یتوب تائبهم». فقال رسول اللّه صلى الله علیه و آله: «بل یتوب تائبهم». فأنزل اللّه تعالى هذه الآیة.

التّفسیر

وردت فی الآیات السابقة أدلة کثیرة کافیة على التوحید، وردّ الشرک وعبادة الأصنام، ومع ذلک فإنّ فریقاً من المشرکین المعاندین المتعصبین لم یرضخوا للحق، وراحوا یعترضون وینتقدون. فی الآیة الاولى یقول القرآن: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِیمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ ءَایَةٌ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۴

لَّیُؤْمِنُنَّ بِهَا» «۱». وفی الردّ علیهم یشیر القرآن إلى حقیقتین: یأمر النبی صلى الله علیه و آله أوّلًا أن یقول لهم: «قُلْ إِنَّمَا الْأَیَاتُ عِندَ اللَّهِ».

أی إنّ تحقیق المعجزة لا یکون وفق مشتهیاتهم، بل إنّها بید اللّه وبأمره.

ثم يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثّروا بإيمان المشركين فيقول لهم: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَايُؤْمِنُونَ». مؤكّداً بذلك أنّ هؤلاء المشركين كاذبون فى قسمهم.

كما أنّ مختلف المشاهد التى جرت بينهم وبين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تؤكد حقيقة أنّهم لم يكونوا يبحثون عن الحق، بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس ويبذروا فى نفوسهم الشك والتردد.

الآية التالية تبين سبب عنادهم وتعصبهم، فتقول: «وَنُقَلِّبُ أَفِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ». أى إنّهم بإصرارهم على الانحراف والسير فى طريق ملتو وتعصبهم الناشىء عن الجهل ورفض التسليم للحق، أضاعوا قدرتهم على الرؤية الصحيحة والإدراك السليم، فراحوا يعيشون فى متاهات الضلال والحيرة.

ثم تشير الآية فى الخاتمة إلى أنّ اللَّه، يترك أمثال هؤلاء فى حالتهم تلك لكى يشتد ضلالهم وتزداد حيرتهم: «وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

نسأل اللَّه أن يجنبنا الإبتلاء بمثل هذا الضلال والحيرة الناتجة عن أعمالنا السيئة، وأن يمنحنا النظرة السليمة الكاملة لكى نرى الحقيقة ناصعة لا غبش عليها.

وَ لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) هذه الآية تتبع سابقاتها فى تعقيب الحقيقة نفسها، وهدف هذه الآيات هو بيان كذب اولئك الذين طلبوا تحقيق معجزات عجيبة وغريبة يستحيل تحقق بعضها كما مرّ. فيصرّح القرآن فى الآية المذكورة قائلًا: «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا».

ثم يؤكد ذلك أنّهم لا يمكن أن يؤمنوا إلّافى حالة واحدة وهى أن يجبرهم اللَّه بإرادته

---

(١) «الجهد»: بمعنى السعى وبذل الطاقة، والمقصود هنا الجهد فى توكيد القسم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۶۵

على الإيمان: «إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» إلّاأنّ إيماناً كهذا لا ينفع فى تربيتهم ولا يؤثّر فى تكاملهم وفى النهاية يقول: «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ».

وَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَ لِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) تشير هذه الآية إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بل إنّ الأنبياء السابقين وقف فى وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس والجن: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِىّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنّ». لا عمل لهم سوى الكلام المنمّق الخادع يستغفل به بعضهم بعضاً، يلقونه فى غموض أو يهمس به بعض لبعض: «يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا».

ولكن: لو أراد اللَّه لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك ولحال دون وقوف هؤلاء الشياطين وأمثالهم بوجه الأنبياء: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ».

بيد أنّ اللَّه لم يشأ ذلك، لأنّه أراد أن يكون الناس أحراراً، وليكون هناك مجال لاختبارهم وتكاملهم وتربيتهم.

لذلك يأمر اللَّه نبيّه فى آخر السورة أن لا يلقى بالًا إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية:

«فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيراً سيستمع الذين لا إيمان لهم- أى الذين لا يؤمنون بيوم القيامة- إلى تلك الأقوال وتميل قلوبهم إليها:

«وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفِدَةُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ».

ثم يقول: إنّ نهاية هذا الميل هو الرضا التام بالمناهج الشيطانية «وَلِيَرْضَوْهُ».

وختام كل ذلك كان إرتكاب أنواع الذنوب والأعمال القبيحة: «وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ».

أ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۱۴) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۱۵)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۶

هذه الآية هى نتيجة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة والآيات الواضحة التى تؤكد التوحيد: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا». وهو الذى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم الذى فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، وما يميّز بين الحق والباطل والنور والظلمة، والكفر والإيمان: «وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا».

وليس الرسول والمسلمون وحدهم يعلمون أنّ هذا الكتاب قد نزل من اللّه، بل إنّ أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يعلمون ذلك أيضاً، لأنّ علائم هذا الكتاب السماوى قرؤوها فى كتبهم ويعلمون أنّه نزل من اللّه بالحق: «وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ».

وعلى ذلك لم يبق مجال للشك فيه، وكذلك أنت أيّها النبى لا تشك فيه أبداً، «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

الآية التالية تقول: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«الكلمة»: بمعنى القول وتطلق على كل جملة وكل كلام مطولًا كان أم موجزاً، امّا بالنسبة لاستعمالها فى هذه الآية إنّها تعنى القرآن لأنّ الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن. فيكون معنى الآية إذن: إنّ القرآن ليس موضع شكّ بأىّ شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات ولا عيب فيه، وكل أخباره وما فيه من تواريخ صدق، وكل أحكامه وقوانينه عدل.

ويستند بعض المفسرين إلى هذه الآية لاثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير «لَّامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ» تعنى أنّ أحداً لا يستطيع أن يحدث فى القرآن تبديلًا أو تغييراً، لا-فى لفظه، ولا-فى أخباره، ولا فى أحكامه، وأنّ هذا الكتاب السماوى الذى يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هادياً للناس سيبقى محفوظاً ومصوناً من أغراض الخائنين والمحرّفين.

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۱۱۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۱۷) نعلم أنّ آيات هذه السورة نزلت فى مكّة، يوم كان المسلمون قلّة فى العدد، ولعل قلّتهم هذه وكثرة المشركين وعبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهّم بعضهم أنّه إذا كان دين اولئك

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۷

باطلًا فلم كثر أتباعه؟! وإذا كان دين الإسلام حقاً، فما سبب قلّة معتنقيه؟

ولدفع هذا التوهّم يخاطب اللّه نبيّه بعد ذكر أحقّية القرآن فى الآيات السابقة قائلًا: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

وفى الجملة التالية يبيّن ذلك وهو أنّهم يتبعون الظنون التى تخالطها الأهواء والأكاذيب ويمتزج بها الخداع والتخمين: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

فيكون مفهوم الآية الشريفة أنّ الأكثرية لا يمكن أن تكون وحدها الدليل على طريق الحق، ومن هذا نستنتج أنّه يجب التوجّه إلى اللّه وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون فى هذا الطريق قلّة فى العدد.

والدليل على ذلك يرد فى الآية التالية التى تؤكد على أنّ اللّه عليم بكل شىء ولا مكان للخطأ فى علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين وبالسائرين على طريق الهداية: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (۱۱۸) وَ مَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا

مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعة حقيقة التوحيد وإثبات بطلان الشرك وعبادة الأصنام. ومن نتائج ذلك أنّ على المسلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التى تذبح باسم الأصنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذكر اسم اللّه عليه، لذلك يبدأ القرآن بالقول:

«فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بَايَاتِهِ مُؤْمِنِينَ». أى إنّ الإيمان ليس مجرّد قول وادّعاء وعقيدة ونظرية، بل لابدّ أن يظهر على صعيد العمل أيضاً، فالذى يؤمن باللّه يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهى أنّ حرمة الذبائح التى لم يذكر اسم اللّه عليها، هى خلفية أخلاقية ومعنوية وتستهدف تثبيت قواعد التوحيد وعبودية اللّه الواحد الأحد.

الآية التالية تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايرة مع مزيد من الاستدلال، فتقول: لم لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۸

تأكلون من اللحوم التى ذكر اسم اللّه عليها، فى الوقت الذى بيّن اللّه لكم ما حرم عليكم؟

«وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ». مرّة اخرى نشير إلى أنّ التوبيخ والتوكيد ليسا من أجل ترك أكل اللحم الحلال، بل الهدف هو أنّ هذه هى ما ينبغى أن تأكلوا منها، لا من غيرها، وبعبارة اخرى: التوكيد هنا على النقطة المقابلة لمفهوم العبارة، من هنا استدل على ذلك بالقول: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ».

ثم يستثنى من ذلك حالة واحدة: «إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» سواء كان هذا الاضطرار ناشئاً من وجود الإنسان فى البيداء وتحت ضغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطرة المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثم تشير الآية إلى أنّ كثيراً من الناس يحاولون أن يضلوا الآخرين عن جهل أو عن إتباع الهوى: «وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ».

يلزم القول أنّ الجملة المذكورة ربّما تكون إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين العرب الذين كانوا يسوّغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التى نقتلها بأنفسنا حلالًا، ولحوم الحيوانات التى يقتلها اللّه حراماً؟

بديهى أنّ هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأنّ الحيوان الميت ليس حيواناً ذبحه اللّه ليمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إنّ الحيوان الميت بؤرة الأمراض ولحمه فاسد، ولهذا حرّم اللّه أكله، وأخيراً يقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكّب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثالثة تذكر قانوناً عاماً، فيحتمل أن يرتكب بعضهم هذا الإثم فى الخفاء، وتقول:

«وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ».

يقال إنّهم فى الجاهلية كانوا يعتقدون أنّ الزنا إذا ارتكب فى الخفاء فلا بأس به، أمّا إذا إرتكب علناً فهو الإثم! واليوم- أيضاً- نجد اناساً يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلى فيخشون إرتكاب الإثم علانية، ولكنّهم يرتكبون فى الخفاء ما يشاؤون من الآثام دون رادع من ضمير.

إنّ هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم وتذكيرهم بذلك، تقول الآية:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۹

وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) دار الكلام فى الآيات السابقة حول الجانب الإيجابى من مسألة اللحوم، أى أكل اللحوم الحلال، وفى هذه الآية تأكيد للجانب

السلبى من المسألة: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ». ثم فى جملة واحدة يدين هذا العمل: «وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» وإثم وخروج عن طريق العبودية وإطاعة اللَّه.

ولكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إنّ الشياطين يوسوسون فى الخفاء لأتباعهم لكى يدخلوا معكم فى جدل ونقاش: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ» ولكن كونوا على حذر، ولا تطيعوهم: «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ».

لعل هذا الجدل والوسوسة إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين بشأن أكل الميتة (وذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) وقولهم: إنّنا نأكل الميتة لأنّ اللَّه أماتها، وهى لذلك أفضل ممّا نقتله بأيدينا، معتقدين أنّ عدم أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل اللَّه! غافلين أنّ الحيوان الميت موتاً طبيعياً، إضافة إلى مرضه غالباً، يضمّ بين لحمه دماً قذراً فاسداً يفسد معه اللحم، بسبب عدم إنقطاع أوداجه.

ويستفاد من هذه الآية- ضمنياً- حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنّها- إضافة إلى الجهات الاخرى- لم يتقيّد ذابحها بذكر اسم اللَّه عليها.

أ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَ كَذلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان قيل: إنّها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب، وأبى جهل بن هاشم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۰

وذلك أنّ أبا جهل آذى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأخبر بذلك حمزة، وهو على دين قومه، فغضب وجاء معه قوس، فضرب بها رأس أبى جهل، وآمن.

وقيل: نزلت فى عمار بن ياسر حين آمن، وأبى جهل.

التّفسير

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة من حيث كون الآيات السابقة أشارت إلى طائفتين من الناس: المؤمنين المخلصين، والكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بضلالهم، بل يسعون حثيثاً إلى تضليل الآخرين، هنا أيضاً يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفة من الناس كانوا من الضالين، ثم غيّروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذى يحييه اللَّه بإرادته: «أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَهُ».

الإيمان يغيّر الأفراد ويشمل هذا التغيير كل جوانب الحياة، وتبدو آثاره فى كل الحركات والسكنات. ثم تقول الآية عن أمثال هؤلاء: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ».

على الرغم من وجود الإختلاف فى تفسير هذا «النور» فالظاهر أنّ المقصود ليس القرآن وتعاليم الشرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنح الإيمان باللَّه الإنسان رؤية وإدراكاً جديدين ... يمنحه رؤية واضحة ويوسّع من آفاق نظرته لتتجاوز إطار حياته المادية وجدران عالم المادة الضيّق إلى عالم أرحب وأوسع.

إنّه فى ضوء هذا النور يستطيع أن يميّز مسيرة حياته بين الناس، وأن يصون نفسه ويحافظ عليها ويحصنها ضد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع والجشع والأفكار المادية المحدودة، والوقوف بوجه أهوائه وكبح جماحها.

إنّ ما نقرأه فى الأحاديث الإسلامية من أنّ «المؤمن ينظر بنور اللَّه» إشارة إلى هذه الحقيقة.

ثم تقارن الآية بين هذا الإنسان الحى، الفعال، النيّر، والمؤثر، بالإنسان العديم الإيمان والمعاند، فتقول: «كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ

بِخَارِجٍ مِّنْهَا».

إنّه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح وأدمغة معطلة عن العمل.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۱

وفى الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: «كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ولمّا كان بطل هذه المشاهد فى جانبها السلبى هو «أبو جهل» الذى كان من كبار مشركى قريش ومكة، فالآية الثانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين وقادة الكفر والفساد، فتقول: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا». أى إنّه عاقبة عصيانهم وكثرة ذنوبهم أدّت بهم إلى أن يصبحوا سدّاً على طريق الحق، وعاملًا على جرّ الناس نحو الانحراف والإبتعاد عن طريق الحق.

وفى الختام تقول الآية: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

كما يستفاد من هذه الآية أنّ النكبات والتعاسة التى تصيب المجتمع إنّما تنشأ من رموزه وقادته، إذ يتوسلون بالمكر والحيلة لتغيير معالم الطريق إلى اللّه، ويخفون وجه الحق عن الناس.

وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى الوليد بن المغيرة قال: واللّه لو كانت النبوة حقاً، لكنت أولى بها منك، لأنّى أكبر منك سناً وأكثر عنك مالًا.

التّفسير

تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقة تفكير هؤلاء الأكابر «أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا» وإلى مزاعمهم المضحكة الباطلة، فتقول: «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ».

إنّ القرآن يردّ على هؤلاء بوضوح قائلًا: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

بديهى أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسن ولا بالمال ولا بمراكز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحى، وطهارة الضمير، والسجايا الإنسانية الأصيلة، والفكر السامى،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۲

والرأى السديد ثم التقوى إلى درجة العصمة ... إنّ هذه الصفات، وخصوصاً الإستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها غير اللّه، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط وما كان يدور بخلد اولئك.

كما إنّ من يخلف رسول اللّه صلى الله عليه و آله لابدّ أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحى والتشريع، أى أنّه حامى الشرع والشريعة، والحارس على قوانين الإسلام، والقائد المادى والمعنوى للناس، لذلك لابدّ له أن يكون معصوماً عن الخطأ والإثم، لكى يكون قادراً على أن يوصل الرسالة إلى أهدافها، وأن يكون قائداً مطاعاً وقدوة يُعتمد عليه. وبناءاً على ذلك، يكون اختياره من اللّه أيضاً، فهو وحده الذى يعلم أين يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس ولا للإنتخابات والشورى.

وفى النهاية تشير الآية إلى المصير الذى ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين والزعماء الذين يدّعون الباطل، فتقول: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» «۱».

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائية يريدون أن يحافظوا على مراكزهم، ولكن اللّه سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار والحقارة بحيث إنّهم سيتعذبون بذلك عذاباً روحياً شديداً، مضافاً إلى أنّهم سيلاقون العذاب الشديد فى الآخرة لأنّ سعيهم على طريق الباطل كان شديداً أيضاً.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷) تعقيباً على الآيات السابقة التى دارت حول المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيرة التى تنتظر الفريق الأوّل، والشقاء الذى سيصيب

---

(۱) «الإجرام»: من «جرم» وأصله القطع، والمجرم هو الذى يقطع العهود وإرتباطه باللَّه بعدم إطاعته، ولذلك اطلقت كلمة «الجرم» على الإثم والذنب، فى هذا إشارة لطيفة إلى أنّ هناك فى ذات الإنسان إتّفاق مع الحق والطهارة والعدالة، والإجرام هو قطع هذا الإتفاق الفطرى الإلهى.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۳

الفريق الثانى، فتقرر أنّ اللَّه ينعم بالهداية على من يشاء، وذلك بأن يفتح صدره لتقبّل الإسلام، أمّا الذى لا يريد اللَّه أن يوفّقه لذلك- لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله وكأنّه يريد أن يصعد إلى السماء. «فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْاسْلمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ».

ولتوكيد هذا الأمر تضيف الآية: «كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ».

فيسلبهم التوفيق ويركسهم فى التعاسة والشقاء.

سبق لنا أن قلنا مرّات عديدة أنّ المقصود من لفظى «الهداية» و «الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف والمقدمات المؤدّية إلى الهداية بالنسبة للّذين لهم الاستعداد لذلك، وسلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

الآية التالية تؤكد البحث السابق فتقول: إنّ المدد الإلهى الذى يشمل السالكين فى خط الايمان والعبودية للَّهويُسلب عن الذين يتنكبون عن سبيل اللَّه، إنّما هو سنة إلهية مستقيمة ثابتة لا تتبدل «وَهذَا صِرَاطُ رَبّكَ مُسْتَقِيمًا».

وفى ختام الآية توكيد آخر: «قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ». أى لمن يملكون قلوباً واعية وآذاناً سامعة.

الآية الثالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التى يهبها اللَّه للذين يطلبون الحق، إحداهما:

«لَهُمْ دَارُ السَّلمِ عِندَ رَبّهِمْ». والثانية: «وَهُوَ وَلِيُّهُم». أى ناصرهم وحافظهم، وكل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحة: «بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فأىّ فخر أجل وأرفع من أن يتولى اللَّه امور الإنسان ويتكفل بها فيكون حافظه ووليه، وأيّة نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمن والأمان، حيث لا- حرب ولا- سفك دماء، ولا- نزاع ولا- خصام، ولا- عنف ولا تنافس قاتل ومميت، ولا تضارب مصالح، ولا كذب ولا إفتراء، ولا إتهام ولا حسد ولا حقد، ولا هم ولا غم، بل الهدوء والطمأنينة والهناء؟

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹) تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين والمضلين فتكملان ما بحث فى السابق، فتذكّران بيوم يقفون فيه وجهاً لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۴

فيواجه التابعون والمتبوعون سؤالًا لا جواب لديهم عليه. تذكّر الآية فى البداية بذلك اليوم الذى يجتمع فيه الجن والإنس، ثم يقال يا أيّها المضلون من الجن لقد أضللتم كثيراً من الناس: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الْإِنسِ».

«الجن» هنا هم الشياطين، لأنّ كلمة الجن تشمل كل كائن غير مرئى والآية (۵۰) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس إنّه «كَانَ مِنَ الْجِنِّ». ويبدو أنّ الشياطين المضلين لا- جواب لديهم على هذا السؤال ويطرقون صامتين، غير أنّ أتباعهم من البشر

يقولون: ربّنا، هؤلاء استفادوا منّا كما إنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: «وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا».

أى كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا وكنّا نتبعهم مستسلمين، أمّا نحن فكنّا مستمتعين بمباهج الحياة ولذائذها غير متقيدين بشىء ولا ملتفتين إلى سرعة زوالها، لما كان الشياطين يوسوسون فى آذاننا ويظهرون الدنيا لهم فى صور جميلة جذّابة.

إنّ المقصود من كلمة «أجل» هو نهاية العمر لأنّ «الأجل» كثيراً ما استعمل فى القرآن بهذا المعنى.

غير أنّ اللّه يخاطب التابعين والمتبوعين الفاسدين والمفسدين جميعاً: «قَالَ النَّارُ مَثْوَيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

وفى الختام تقول الآية: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» فعقابه مبنى على حساب دقيق، وكذلك عفوه، لأنّه عالم بمن يستحقهما.

الآية التالية تشير إلى سنّة إلهية ثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص، وتقرر أنّ هؤلاء الطغاة والظالمين سيكون وضعهم فى الآخرة كما كانوا عليه فى الدنيا يجر بعضهم بعضاً نحو التهلكة وسوء المصير والانحراف: «وَكَذلِكَ نُوَلّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وكما ذكرنا فى البحوث الخاصة بالمعاد فإنّ يوم القيامة مشهد ردود الفعل فى صور مكبرة، وما يوجد هناك إنعكاس عن أعمالنا فى هذه الدنيا.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَ لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٧٥

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة فى الآيات السابقة ولكيلا يظن أحد أنّهم فى حالة من الغفلة ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبين هذه الآيات أنّ تحذيرهم قد تمّ بما فيه الكفاية وتمّت عليهم الحجة، لذلك يقال لهم يوم القيامة: «يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا».

«معشر»: من العدد «عشرة»، وبما أنّ العشرة تعتبر عدداً كاملًا، فالمعشر هى الجماعة الكاملة التى تضمّ مختلف الطوائف والأصناف.

ثم تقول الآية: «قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا» لأنّ يوم القيامة ليس يوم الكتمان، بل إنّ دلائل كل شىء تكون بادية للعيان، وما من أحد يستطيع أن يخفى شيئاً، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهى قائلين: إنّنا نشهد ضدّ أنفسنا ونعترف أنّ الرسل قد جاؤونا وأبلغونا رسالاتك ولكنّنا خالفناها.

نعم ... لقد كانت أمامهم آيات ودلائل كثيرة من اللّه، وكان يميّزون الخطأ من الصواب، إلّا أنّ الحياة الدنيا ببريقها ومظاهرها قد خدعتهم وأضلتهم: «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

مرّة اخرى يؤكد القرآن أنّهم شهدوا على أنفسهم بألسنتهم بأنّهم قد ساروا فى طريق الكفر ووقفوا إلى جانب منكرى اللّه: «وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ».

الآية التالية تعيد المضمون السابق بصورة قانون عام وسنّة ثابتة، وهى: أنّ اللّه لا يأخذ الناس فى المدن والمناطق المسكونة بظلمهم إذا كانوا غافلين، إلّابعد أن يرسل إليهم الرسل لينبّهوهم إلى قبيح أعمالهم، ويحذّروهم من مغبّة أفعالهم: «ذلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ».

قد تعنى «بظلم» أنّ اللّه لا يظلم أحداً بأن يعاقبه عمّا فعل وهو غافل، لأنّ معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلماً، واللّه أرفع من أن يظلم أحداً.

وتذكر الآية الثالثة خلاصة ما ينتظر هؤلاء من مصير، وتقرر أنّ لكل من هؤلاء- الأخيار والأشرار، المطيعين والعصاة، طالبى العدالة والظالمين- درجات ومراتب يوم القيامة تبعاً لأعمالهم، وإنّ ربك لا يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعاً، ويجزى كلًا بقدر ما

يستحق: «وَلِكَلّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ».

هذه الآية تؤكد مرّة اخرى الحقيقة القائلة بأنّ جميع «الدرجات» و «الدركات» التى يستحقها الإنسان إنّما هى وليدة أعماله، لا غير.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۷۶

وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۳۲) وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (۱۳۳) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۱۳۴) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۱۳۵) الآية الاولى تستدل على ما سبق فى الآيات التى مرّت بشأن عدم ظلم اللَّه تعالى، وتؤكد أنّ اللَّه لا حاجة له بشيء وهو عطوف ورحيم، وعليه لا دافع له على أن يظلم أحداً أبداً، لأنّ من يظلم لابدّ أن يكون محتاجاً، أو أن يكون قاسى القلب فظاً: «وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» كما أنّه لا حاجة له بطاعة البشر، ولا يخشى من ذنوبهم، بل إنّه قادر على إزالة كل جماعة بشرية ووضع آخرين مكانها كما فعل بمن سبق تلك الجماعة: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مّن ذُرّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ».

بناءاً على ذلك فهو غنى لا حاجة به إلى شيء، ورحيم، وقادر على كل شيء، فلا يمكن إذن أن نتصوّره ظالماً.

وإذا أدركنا قدرته التى لا حدود لها يتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن يوم القيامة والجزاء سوف يتحقق فى موعده بدون أىّ تخلّف: «إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ».

كما أنّكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه ولا أن تهربوا من قبضته العادلة:

«وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» (۱).

ثم يؤمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأن يهددهم: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۱۳۶)

---

(۱) «معجزين»: من «أعجز» أى جعله عاجزاً، فالآية تقول: إنّكم لا- تستطيعون أن تجعلوا اللَّه عاجزاً عن بعث الناس وتحقيق العدالة، وبعبارة اخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة اللَّه.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۷۷

لإقتلاع جذور الشرك وعبادة الأصنام من الاذهان يعود القرآن إلى ذكر العادات والتقاليد والعبادات الخرافية السائدة بين المشركين، ويثبت فى بيان واضح أنّها خرافية ولا أساس لها، فقد كان كفّار مكّة وسائر المشركين يخصصون للَّهسهماً من مزارعهم وأنعامهم، كما كانوا يخصصون سهماً منها لأصنامهم أيضاً، قائلين: هذا القسم يخصّ اللَّه، وهذا القسم يخصّ شركاءنا أى الأصنام: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذَا لِشُرَكَائِنَا».

ثم تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبة وهو الحكم بأنّ ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى اللَّه، ولكن ما خصصوه للَّهيصل إلى شركائهم «فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ».

انّهم إذا أصاب نصيب اللَّه ضرر على أثر حادثة قالوا: هذا لا- أهميّة له لأنّ اللَّه لا حاجة به إليه، ولكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوّضوا عنه من نصيب اللَّه، قائلين: إنّ الأصنام أشدّ حاجة إليه.

وفى الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

فأىّ حكم أقبح وأدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذى لا- قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل

هناك هبوط فكرىّ أحط من هذا؟

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) يشير القرآن فى هذه الآية إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبيحة وجرائمهم الشائنة، ويذكر أنّه كما ظهر لهم أنّ تقسيمهم الحصص بين اللَّه والأصنام عمل حسن بحيث أنّهم اعتبروا هذا العمل القبيح والخرافى، بل والمضحك، عملًا محموداً، كذلك زيّن الشركاء قتل الأبناء فى أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنّهم راحوا يعدّون قتل الأولاد نوعاً من «الفخر» و «العبادة»: «وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٨

«الشّركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحياناً يقدمون أبناءهم قرابين لها، أو كانوا ينذرون أنّهم إذا وهبوا ابناً يذبحونه قرباناً لأصنامهم، كما جاء فى تاريخ عبدة الأصنام القدامى وعليه فإنّ نسبة «التزيين» للأصنام تعود إلى أنّ شدة تعلقهم بأصنامهم وحبّهم لها كان يحدو بهم إلى إرتكاب هذه الجريمة النكراء.

ثم يوضّح القرآن أنّ نتيجة تلك الأفعال القبيحة هى أنّ الأصنام وخدّامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك، وشككوهم فى دين اللَّه، وحرموهم من الوصول إلى الدين الحق: «لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ».

ومع ذلك كله، فإنّ اللَّه قادر على أن يوقفهم عند حدّهم بالإكراه، ولكن الإكراه خلاف سنّة اللَّه، إنّ اللَّه يريد أن يكون عباده أحراراً لكى يمهّد أمامهم طريق التربية والتكامل، وليس فى الإكراه تربية ولا تكامل: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ».

ومادام هؤلاء منغمسين فى أباطيلهم وخرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحياناً إلى اللَّه، إذن فاتركهم وإتهاماتهم والتفت إلى تربية القلوب المستعدة: «فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

وَ قَالُوا هذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَ أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَ قَالُوا مَا فِى بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَ مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الاوثان، والتى تدل على قصر نظرتهم وضيق تفكيرهم، وتكمل ما مرّ فى الآيات السابقة. تذكر فى البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق فى نصيب الأصنام من زرع وأنعام، وتبيّن أنّهم كانوا يرون أنّها محرّمة إلّا على طائفة معينة: «وَقَالُوا هذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَايَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ».

ومرادهم المتولّون امور الأصنام والمعابد، والمشركون كانوا يذهبون إلى أنّ لهؤلاء وحدهم الحق فى نصيب الأصنام.

«الحجر» هو المنع.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٩

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب:

«وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا».

ثم تشير إلى القسم الثالث من الأحكام الباطلة فتقول: «وَأَنْعَامٌ لَّايَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا».

ولعلها إشارة إلى الحيوانات التى كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هى المطايا التى كانوا يحرّمون ركوبها للذهاب إلى الحج.

والأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى اللَّه كل ما يخطر لهم من كذب: «افْتِرَاءً عَلَيْهِ».

وفى ختام الآية، وبعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إنّ اللَّه: «سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى حكم خرافى آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضى بأنّ حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، وهو حرام على الزوجات، أمّا إذا خرج ما فى بطونها ميتاً، فكلّهم شركاء فيه: «وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن

يَكن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ».

و يشجب القرآن هذا الحكم الجاهلى، ويقرر أنّ اللّه سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ».

وختاماً تقول: «إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». فهو عليم بأعمالهم وأقوالهم وإتهاماتهم الكاذبة، كما أنّه يعاقبهم وفق حساب وحكمة.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١۴٠) تعقيباً على الآيات السابقة التى تحدّثت عن بعض الأحكام التافهة والتقاليد القبيحة فى عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قرباناً للأصنام، ووأد البنات خشية العار، وتحريم بعض نعم اللّه الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدّة، فى سبعة تعبيرات وفى جمل قصيرة نافذة توضّح حالهم. ففى البداية تقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَـدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ». وكل صفة من هذه الصفات الثلاث كافية لإظهار قبح أعمالهم، فأىّ علم يجيز

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨٠

للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانوناً اجتماعياً؟ من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلّف الأقوام الجاهليين.

ثم يذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرموا على أنفسهم ما رزقهم اللّه وأحلّه لهم وكذبوا على اللّه ونسبوا هذه الحرمة له سبحانه: «وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ».

فى هذه العبارة إدانة اخرى لأعمالهم، فهم- أوّلًا- حرموا على أنفسهم النعمة التى «رزقهم» إيّاها وأباحها لهم وكانت ضرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون اللّه.

وهم- ثانياً- «افتروا» على اللّه قائلين إنّه هو الذى أمر بذلك.

فى ختام الآية وفى جملتين قصيرتين إدانة اخرى لهم، فهم: «قَدْ ضَلُّوا» ثم إنّهم لم يسلكوا يوماً الطريق المستقيم: «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١۴١) لقد جاءت الإشارة فى هذه الآية إلى عدّة مواضيع، كل واحد منها متفرّعٌ عن الآخر، ونتيجة عنه. فهو تعالى يقول أوّلًا: إنّ اللّه تعالى هو الذى خلق أنواع البساتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشجار والنباتات، فمنها ما يعتمد فى موقفه على الأعمدة والعروش حيث تحمل ما لذّ وطاب من الفواكه والثمار، وتجلب بمنظرها الساحر العيون والالباب، ومنها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقى بظلاله الوارفة على رؤوس الآدميين، ويسدّ بثماره المتنوعة حاجة الإنسان إلى الغذاء: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ».

ثم إنّ الآية تشير إلى نوعين من البساتين والمزارع إذ تقول: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ».

ثم إنّه تعالى يضيف قائلًا: إنّ هذه الأشجار مختلفة ومتنوعة من حيث الثمر والطعم. فمع أنّ جميعها ينبت من أرض واحدة ويسقى بماء واحد فإنّ لكل واحدة منها رائحة خاصة، ونكهة معينة، وخاصية تختص بها، ولا توجد فى غيرها: «مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨١

ثم يشير سبحانه إلى قسمين آخرين من الثمار عظيمى الفائدة، جَيلى النفع فى مجال التغذية البشرية إذ يقول: «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ».

إنّ اختيار هاتين بالذِكر من بين أشجار كثيرة إنّما هو لأجل أنّ هاتين الشجرتين: (شجرة الزيتون وشجرة الرمان) رغم تشابههما من حيث الظاهر والمظهر تختلفان اختلافاً شاسعاً من حيث الثمرة، ومن حيث الخاصية الغذائية، ولهذا عقّب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين:

«مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

وبعد ذكر كل هذه النعم المتنوّعة يقول سبحانه: «كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ».

ثم ينهى فى نهايـة المطاف عن الإسـراف إذ يقول تعالى: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ». «الإسـراف»: تجاوز حدّ الاعتدال فى كل فعل يفعله الإنسان. وهذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى عدم الإسراف فى الأكل، أو عدم الإسراف فى الإنفاق والبذل.

وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) إنّ هـذه الآيات- كما أشرنا إلى ذلك- بصدد إبطال أحكام خرافية جاهلية كان المشركون يدينون بها فى مجال الزراعة والأنعام. ففى الآية المتقدمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات والثمار التى أنشأها اللّه، وفى هـذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحللة اللحم، وما تؤدّيه من خدمات، وما يأتى منها من منافع. يقول أوّلًا: إنّ اللّه هو الذى خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل والنقل، واخرى صغيرة: «وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨٢

«حمولـة»: جمع وليس لهـا مفرد وتعنى الحيوانـات الكبيرة التى تسـتخدم للحمـل والنقل كالإبل والفرس ونظائرها. و «فرش»: هو بنفس المعنى المتعارف، ولكن فُسّر هنا بالغنم وما يشابهه من الحيوانات الصغيرة.

ثم إنّ الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنّه لما كانت جميع هذه الانعام قد خلقها اللّه تعالى وحكمها بيده، فإنّه يأمركم قائلًا: «كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ».

ولتأكيـد هذا الكلام وإبطال أحكام المشـركين الخرافية يقول: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». فهو الذى أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

الآيـة الثانيـة تبيّن قسـماً من الحيوانـات المحلّلـة اللحم، وبعض الأنعـام التى يسـتفاد منهـا فى النقـل، كما يسـتفاد منها فى تغذيـة البشـر وطعامهم أيضاً فيقول: إنّ اللّه خلق لكم ثمانيـة أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم (ذكر وانثى)، وزوجين من المعز: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ».

وبعـد ذكر هـذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيّه فوراً بأن يسألهم بصـراحة: هل أنّ اللّه حرّم الذكور منها أم الاناث: «قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ». أم أنّه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام، أم ما فى بطون الإناث من المعز؟: «أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ».

ثم يضـيف قائلًا: إذا كنتم صادقين فى أنّ اللّه حرّم شـيئاً مما تدعونه، وكان لديكم ما يدل على تحريم أىّ واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك: «نَبُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ثم فى الآيـة اللاحقـة يبين الأزواج الأربعـة الاـخرى من الأنعام التى خلقها اللّه للبشـر، إذ يقول: وخلق من الإبل ذكراً وانثى، ومن البقر ذكراً وانثى، فـأىّ واحـد من هـذه الأزواج حرّم اللّه عليكم: الـذكور منها أم الإناث؟ أم ما فى بطون الإناث من الإبل والبقر: «وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ».

إنّ الحكم بتحليل هـذه الأنعام وتحريمها إنّما هو بيـد اللّه، خالقها وخالق البشـر وخالق العالم كله. ولقـد صـرّح فى الآيـة السابقة بأنّه لم يكن لدى المشركين أىّ دليل علمى أو عقلى على تحريم هذه الأنعام، وحيث إنّهم لم يَدّعوا أيضاً نزول الوحى عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، وهو أن يدّعوا أنّهم حضروا عند أنبياء اللّه ورسله يوم أصدروا هذه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨٣

الأحكام، ولهذا يقول اللّه لهم فى مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء وشهدتم أمر اللّه لهم بتحليل أو تحريم شىء من هذه الأنعام: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذَا».

وحيث إنّ الجواب على هـذا السؤال هو الآـخر بالنفى والسَـلب، يثبت أنّهم ما كانوا يمتلكون فى هـذا المجال إلّاالإفتراء، ولا يستندون

إلّاإلى الكذب.

ولهذا يضيف فى نهاية الآية قائلًا: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

فيستفاد من هذه الآية أنّ الإفتراء على اللّه من أكبر الذنوب والآثام، إنّه ظلم للّه‌تعالى ولمقامه الربوبىّ العظيم، وظلم لعباد اللّه، وظلم للنفس.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴۵) ثم إنّه تعالى- بهدف تمييز المحرمات الإلهية عن البدع التى أحدثها المشركون وأدخلوها فى الدين الحق- أمر نبيّه صلى الله عليه و آله فى هذه الآية بأن يقول لهم بكل صراحة، ومن دون إجمال أو إبهام: «لَّاأَجِدُ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىَّ» من الشريعة أىّ شىء من الأطعمة يكون «مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» من ذكر أو انثى وصغير أو كبير.

اللّهم «إِلَّا» عدّة أشياء، الأوّل: «أَن يَكُونَ مَيْتَةً». «أَوْ» يكون «دَمًا مَّسْفُوحًا» وهو ما خرج من الذبيحة عند التذكية بالقدر المتعارف (لا الدّماء التى تبقى فى جسم الذبيحة فى عروقها الشعرية الدقيقة، بعد خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

«أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ».

لأنّ جميع هذه الأشياء رجس ومنشأ لمختلف الأضرار «فَإِنَّهُ رِجْسٌ».

ثم أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: «أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» «۱». أى التى لم يذكر اسم اللّه

(۱) «اهلّ»: أصله «الإهلال» وهو مأخوذ فى الأصل من الهلال والإهلال يعنى رفع الصَوت عند رؤية الهلال، ثم‌استعمل لكل صوت رفيع، كما أنّه يطلق على بكاء الصبى عند الولادة الإستهلال، وحيث إنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوتٍ عالٍ عند ذبح الأنعام عبرّ عن فعلهم هذا بالإهلال.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۸۴

عليها عند ذبحها، لأنّها- من الناحية الأخلاقية والمعنوية- تدل على الإبتعاد عن اللّه وعن جادة التوحيد ولهذا حرّمت أيضاً. وعلى هذا الأساس أنّ الشروط الإسلامية المقررة فى الذبح على نوعين: بعضها- مثل قطع الأوداج الأربعة، وخروج القدر المتعارف من دم الذبيحة- لها جانب صحّى. وبعضها الآخر- مثل توجيه مقاديم الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، وذكر اسم اللّه عنده، وكون الذابح مسلماً- لها جانب معنوى.

ثم إنّه سبحانه استثنى- فى آخر الآية- من اضطر إلى تناول شىء مما ذكر من اللحوم المحرّمة، كما لو لم يجد أىّ طعام آخر وتوقّفت حياته على تناول شىء من تلك اللحوم، إذ قال:

«فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» «۱». يعنى أنّ من اضطرّ إلى أكل شىء مما ذكرِ من المنهيات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذة، ولا مستحلّاً لما حرّمه اللّه، أو متجاوزاً حدّ الضرورة، ففى هذه الصورة «فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وإنّما اشترط هذان الشرطان لكى لا يتذرّع المضطرون بهذه الإباحة فيتعدّوا حدود ما قرّره اللّه بحجة الاضطرار.

وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۴۷) إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرّم على اليهود ليتبين أنّ أحكام الوثنيين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، ولا على دين اليهود (بل ولا على دين المسيح الذى يتبع فى أكثر أحكامه الدين اليهودى). ولهذا يقول سبحانه فى البداية: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ».

يستفاد من الآية المبحوثة أنّ جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف- دواباً كانت أو طيوراً- كانت محرّمة على اليهود.

(۱) «الباغى»: من «البَغْى» وهو يعنى الطلب؛ و «العادى»: من «العَدْو» وهو يعنى التجاوز.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۵

ثم يقول سبحانه: «وَمِنَ الْبَقرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا».

ثم يستثنى بعد هذا ثلاثة موارد:

أوّلها: الشحوم الموجودة فى موضع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا».

وثانياً: الشحوم الموجودة على جنبيها، أو بين أمعائها: «أوِ الْحَوَايَا» «۱».

وثالثاً: الشحوم التى امتزجت بالعظم والتصقت به «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ».

ولكنه صرّح فى آخر الآية بأنّ هذه الامور لم تكن محرّمة على اليهود ولكنهم بسبب ظلمهم وبغيهم حُرمُوا- بحكم اللَّه وأمره- من هذه اللحوم والشحوم التى كانوا يحبّونها «ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ».

ويضيف- لتأكيد هذه الحقيقة- قوله: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» وإنّ ما نقوله هو عين الحقيقة.

ولمّا كان عناد اليهود المشركين أمراً بيّناً، وكان من المحتمل أن يتصلّبوا ويتمادوا فى تكذيب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمر اللَّه تعالى نبيّه فى الآية الاخرى أن يقول لهم إن كذّبوه: إنّ ربّكم ذو رحمة واسعة فهو لا يسارع إلى عقوبتكم ومجازاتكم، بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه، وترجعون عن معصيتكم، وتندمون من أفعالكم وتعودون إلى اللَّه، «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ».

ولكن إذا أساؤوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهى، واستمروا فى كيل التهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب اللَّه إياهم حتمى لا مناص منه، وسوف يصيبهم غضبه فى المآل: «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».

إنّ هذه الآية تكشف عن عظمة التعاليم القرآنية، فإنّه بعد شرح وبيان كل هذه المخالفات التى ارتكبها اليهود والمشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فوراً، بل يترك طريق الرجعة مفتوحاً، وذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: «ربّكم»، «ذو رحمة»، «واسعة».

حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع والإنابة فى نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفية على العودة إلى الطريق المستقيم.

(۱) «الحوايا»: جمع «حاوية» وهى مجموعة ما يوجد فى بطن الحيوان والتى تكون على هيئة كرة تتضمّن الأمعاء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۶

ولكن حتى لا تبعث سعة الرحمة الإلهية هذه على التمادى فى غيّهم، وتتسبّب فى تزايد جرأتهم وطغيانهم، وحتى يكفّوا عن العناد واللجاج هدّدهم فى آخر جملة من الآية بالعقوبة الحتمية.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱۵۰) عقيب الكلام المتقدم عن المشركين فى الآيات السابقة، أشار فى هذه الآيات إلى طائفة من استدلالاتهم الواهية، مع ذكر الأجوبة عنها. فيقول أوّلًا: إنّ المشركين سيقولون فى معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم فى مجال الإشراك باللَّه، وتحريم الأطعمة الحلال: إنّ اللَّه لو أراد أن لا نكون مشركين، وأن لا يكون آباؤنا وثنيين، وأن لا نحرّم ما حرّمنا، لفعل:

«سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ».

إنّ المشركين- مثل كثير من العصاة- يريدون التملّص من مسؤولية العصيان تحت ستار الجبر.

إنّهم كانوا يدّعون أنّ سكوت اللَّه على عبادتهم للأصنام وتحريمهم لطائفة من الحيوانات دليل على رضاه، لأنّه إذا لم يكن راضياً بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

ولكن القرآن تصدّى لجوابهم وناقشهم بشكل قاطع، فهو يقول أوّلًا: ليس هؤلاء وحدهم يفترون على اللَّه مثل هذه الأكاذيب: «كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» «١». ولكنهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: «حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا».

فهؤلاء كانوا يكذبون فى كلامهم هذا، كما أنّهم يكذّبون الأنبياء، ولو كان سبحانه راضياً

---

(١) «كذّب»: فى اللغة تأتى بمعنيين تكذيب الغير، وكذلك فعل الكذب.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨٧

بهذه الامور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟!

إنّ دعوة الأنبياء أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، واختيار البشر.

ثم يقول سبحانه: قل لهم يا محمّد: هل لكم برهان قاطع ومسلم على ما تدّعونه؟ هاتوه إن كان: «قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّن عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا».

ثم يضيف فى النهاية: إنّ ما تتبعونه ليس سوى أوهام وخيالات فجّة: «إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ».

وفى الآية اللاحقة يذكر دليلًا آخر لإبطال ادعاء المشركين، ويقول: قل إنّ اللَّه أقام براهين جلية ودلائل واضحة وصحيحة على وحدانيته، وهكذا أقام أحكام الحلال والحرام سواء بواسطة أنبيائه أو بواسطة العقل، بحيث لم يبق أىّ عذر لمعتذر: «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ».

وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يدّعى أحدٌ أبداً أنّ اللَّه أمضى- بسكوته- عقائدهم وأعمالهم الباطلة، وكذلك لايسعهم قط أن يدّعوا أنّهم كانوا مجبورين، لأنّهم لو كانوا مجبورين لكان إقامة الدليل والبرهان، وإرسال الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم لغواً، إنّ إقامة الدليل دليل على حرية الإرادة.

ثم يقول فى ختام الآية: ولو شاء اللَّه أن يهديكم جميعاً بالجبر لفعل: «فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيكُمْ أَجْمَعِينَ».

ولكن فى مثل هذه الصورة لم يكن لمثل هذا الإيمان ولا للأعمال التى تصدر فى ضوء هذا الإيمان الجبرى القسرى أيّة قيمة، إنّما فضيلة الإنسان وتكامله فى أن يسلك طريق الهداية والتقوى بقدميه وبإرادته وإختياره.

وفى الآية التالية- ولكى يتضح بطلان أقوالهم، ومراعاة لُاسس القضاء والحكم الصحيح- دعا المشركين ليأتوا بشهدائهم المعتبرين لو كان لهم، لكى يشهدوا لهم بأنّ اللَّه هو الذى حرّم الحيوانات والزروع التى ادعوا تحريمها، لهذا يقول: «قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذَا».

ثم يضيف قائلًا: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهداء المعتبرين (ولا يملكون حتماً) بل يكتفون بشهادتهم وادّعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم ولا تؤيّدهم فى دعاويهم:

«فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ».

هذا مضافاً إلى أنّ جميع القرائن تشهد بأنّ هذه الأحكام ما هى إلّاأحكام مصطنعة

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨٨

مختلقة نابعة عن محض الهوى والتقليد الأعمى، ولا اعتبار لها مطلقاً.

ولذلك قال فى العبارة اللاحقة: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» «١».

يعنى أنّ وثنيتهم، وإنكارهم للقيامة والبعث، والخرافات، وإتباعهم للهوى، شواهد حيّة على أنّ أحكامهم هذه مختلقة أيضاً، وأنّ

إدعاءهم فى مسألة تحريم هذه الموضوعات من جانب اللَّه لا قيمة له، ولا أساس له من الصحة.

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَ أَنَّ هذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) بعد نفى أحكام المشركين المختلقة التى مرّت فى الآيات المتقدمة، أشارت هذه الآيات الثلاثة إلى أصول المحرمات فى الإسلام، وذكرت الذنوب الرئيسية الكبيرة فى عشرة أقسام ببيان مقتضب، عميق وفريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النّبى ويستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرّمات الإلهية الواقعية، ويتركوا المحرمات المختلقة جانباً. يقول: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ».

١- «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيًا».

---

(١) «يعدلون»: مشتق من مادة «عدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإنّ مفهوم جملة «وهم بربّهم يعدلون» هو أنّهم كانوا يعتقدون بشريك وشبيه للّهسبحانه.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨٩

٢- «وَبِالْوَالِدَينِ إِحْسَانًا».

٣- «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَدَكُم مِّنْ إِمْلقٍ». أى بسبب الفقر والحرمان لأنّنا «نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ».

۴- «وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». أى لا تقربوها فضلًا عن أن لا ترتكبوها.

۵- «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ». فلا تسفكوا الدّماء البريئة، ولا تقتلوا النفوس التى حرّم اللَّه قتلها إلّاضمن قوانين العقوبات الإلهية، فيجوز أن تقتلوا من أذن اللَّه لكم بقتله.

ثم إنّه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسة يقول لمزيد من التأكيد: «ذلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» فلا ترتكبوها.

۶- «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ». فلا تقربوا مال اليتيم إلّا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده ويستوى.

٧- «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ». فلا تطففوا ولا تبخسوا.

وحيث إنّ الإنسان- مهما دقق فى الكيل والوزن- قد يزيد أو ينقص بما لا يمكن أن تضبطه الموازين والمكاييل المتعارفة لقلته وخفائه، لهذا عقّب على ما قال بقوله: «لَانُكَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

٨- «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى . فلا تنحرفوا عن جادة الحق عند الشهادة أو القضاء أو أمر آخر حتى ولو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، واقضوا بالعدل.

٩- «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» ولا تنقضوه.

والمراد من العهد الإلهى المذكور فى هذه الآية يشمل جميع العهود الإلهية التكوينية والتشريعية والتكاليف الإلهية وكل عهد ونذر ويمين.

ثم إنّه سبحانه يقول فى ختام هذه الأقسام الأربعة- للتأكيد-: «ذلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

١٠- «وَأَنَّ هذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ». إنّ طريقى هذا هو طريق التوحيد، طريق الحق والعدل، طريق الطهر والتقوى فامشوا فيه، واتّبعوه، واسلكوه ولا تسلكوا الطرق المنحرفة والمتفرقة، فتؤدّى بكم إلى الانحراف عن اللَّه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٩٠

وإلى الاختلاف، والتشرذم، والتفرق، وتزرع فيكم بذور الفرقة والنفاق. ثم يختم جميع هذه الأقسام وللمرة الثالثة- لغرض التأكيد- بقوله: «ذلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

بحثان

۱- أهمية الإحسان إلى الوالدين: إنّ ذكر مسألة الإحسان للوالدين- بعد مكافحة الشرك مباشرة، وقبل ذكر تعاليم مهمة مثل حرمة قتل النفس والأمر بالعدل- يدل على الأهمية القصوى التى يحظى بها حق الوالدين فى التعاليم الإسلامية.

ويتّضح هذا الأمر أكثر عندما نرى أنّ القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذى يلائم سياق هذه الآية فى استعراضها للمحرمات، مسألة الإحسان إليهما، يعنى أنّه ليس إزعاج الوالدين وإيذاؤهما محرّماً فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

والأجمل من هذا كله أنّ كلمة «الإحسان» عُدّيت بحرف «الباء» فقال: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا». وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية تؤكد أنّ موضوع الإحسان إلى الوالدين من الأهمية البالغة بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الاحسان بنفسه إلى الوالدين.

۲- قتل الأولاد من الإملاق والجوع: يستفاد من هذه الآيات أنّ العرب فى العهد الجاهلى لم يقتصروا على قتل البنات ووأدهن بسبب بعض العصبيات الخاطئة فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يُعدّون ثروة كبرى فى المجتمع يومذاك، وذلك بسبب الفقر وخشيتهم من الفاقة.

ولكن هذا العمل الجاهلى- وللأسف البالغ- يتكرّر الآن فى عصرنا فى صورة اخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء وهم أجنّة عن طريق الكورتاج والإجهاض بحجة النقصان الاحتمالى فى المواد الغذائية.

إنّ إسقاط الجنين وإن كان يُبرّر الآن بأدلة وحجج اخرى أيضاً، إلّاأنّ مسألة الفقر ومسألة نقصان المواد الغذائية، هى من أدلتها الأصلية.

هذه المسألة والمسائل المشابهة الاخرى تشير إلى أنّ العهد الجاهلى يتكرر فى شكل آخر، وأنّ «جاهلية القرن العشرين» أكثر وحشية من جاهلية ما قبل الإسلام.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۱

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (۱۵۷) فى الآيات السابقة دار الحديث عن عشرة من أحكام الإسلام الأساسية التى لم تكن مختصّة بالإسلام، بل هى موجودة ومقررة فى جميع الأديان، ثم قال عقيب ذلك فى هذه الآيات: «ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ». فقد أتممنا نعمتنا على المحسنين والذين سلّموا لأمره واتّبعوه.

إنّ عبارة: «الَّذِى أَحْسَنَ» إشارة إلى جميع المحسنين، والذين يستجيبون للحق، ويقبلون بالأوامر الإلهية.

«وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ» فإنّ فيه كل شىء مما يحتاج إليه المجتمع، ومما له أثر فى تكامل الإنسان وترشيده.

«وَهُدًى وَرَحْمَةً». أى أنّ فى هذا الكتاب الذى نزل على موسى مضافاً إلى ما سبق:

هدى ورحمة.

إنّ جميع هذه البرامج ما هى إلّالكى يؤمنوا بيوم القيامة، وبلقاء اللَّه، ولكى يُطهّروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارهم، وأقوالهم، وأعمالهم ويزكّوها: «لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ».

الآية اللاحقة تشير إلى نزول القرآن وتعليماته القيّمة، وبذلك أكملت البحث المطروح فى الآية السابقة، يقول تعالى: «وَهذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ» فهذا الكتاب الذى أنزلناه كتاب عظيم الفائدة، عظيم البركة، وهو المنبع لكل أنواع الخير والبركة.

ولمّا كان الأمر كذلك وَجَبَ اتّباعه بصورة كاملة، ووجب التزوّد بالتقوى، والتجنّب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۲

عن مخالفته، لتشملكم رحمة اللَّه ولطفه «فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وفى الآية الثالثة أبطل سبحانه جميع المعاذير والتحججات وسدّ جميع طرق التملّص والفرار فى وجه المشركين، فقال لهم أوّلًا: لقد أنزلنا هذا الكتاب مع هذه المميزات لكى لا تقولوا: لقد نزلت الكتب السماوية على الطائفتين السابقتين (اليهود والنصارى) وكنّا عن دراستها غافلين، وليس تمرّدنا على أوامر اللَّه إلّالكونها موجودة عند غيرنا من الامم، ولم يبلغنا منها شيء: «أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ». ثم إنّه سبحانه ينقل عنهم- فى الآية اللاحقة- نفس ذلك التحجج ولكن بصورة أوسع، ومقروناً هذه المرّة بنوع أشد من الغرور والصلف وهو: أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدّعوا أنّهم كانوا أكثر استعداداً من أيّة امة اخرى لقبول الأمر الإلهى:

«أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ».

والآية المتقدّمة كانت تعكس هذا التحجج وهو: أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسبب غفلتنا وجهلنا بالكتب السماوية، وهذه الغفلة وهذا الجهل ناشىء عن أنّ هذه الكتب نزلت على الآخرين، ولم تنزل علينا. أمّا هذه الآية فتعكس صفة الإحساس بالتفوّق والإدعاء الفارغ الذى كانوا يدّعونه عن تفوّق العنصر العربى على غيرهم.

فإنّ القرآن يقول فى معرض الرّد على هذه الإدعاءات أنّ اللَّه سبحانه سدّ عليكم كل سُبل التملّص والفرار، وأبطل جميع الذرائع والمعاذير، لأنّ اللَّه آتاكم كل الآيات، وأقام كل الحجج المقرونة بالهداية الإلهية وبالرحمة الربانية لكم: «فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ». ومع ذلك «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا».

«صدف»: من «الصَدْف» ويعنى الإعراض الشديد- من دون تفكير- عن شىء، وهو إشارة إلى أنّهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات اللَّه فحسب، بل كانوا يبتعدون عنها.

وفى خاتمة هذه الآية بيّن اللَّه تعالى العقاب الأليم الذى اعدّ لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق وينكرونها من دون أن يفكّروا فيها ويدرسوها ولو قليلًا، بل ولا- يكتفون برفضها إنّما يعمدون إلى صدّ الآخرين عنها، ويحولون بينهم وبين سماعها واستيعابها، بيّن كل ذلك فى قوله الموجز والبليغ: «سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۳

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۵۸) فى الآيات السابقة تبيّنت هذه الحقيقة وهى: أنّنا أتممنا الحجة على المشركين، وآتيناهم الكتاب السماوى (أى القرآن) لهدايتهم جميعاً، لكى لا يبقى لديهم أىّ عذر يبرّرون به مخالفتهم للرسالة ومعارضتهم للدعوة. وهذه الآية تقول: ولكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا فى لجاجهم وعنادهم حدّاً لا يؤثّر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البيّن، وكأنّهم يتوقعون وينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون اموراً مستحيلة. فيقول أوّلًا:

«هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلِكَةُ» لتقبض أرواحهم.

«أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ» إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

ويراد من هذا الكلام أنّهم ينتظرون اموراً مستحيلة.

ثم يقول: أو أنّكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهية والعلامات الخاصة بيوم القيامة ونهاية العالم يوم تنسدّ كل أبواب التوبة: «أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبّكَ».

ثم يضيف عقيب ذلك قائلًا: «يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَاتِ رَبّكَ لَايَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا»

فأبواب التوبة حينذاك مغلقة فى وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأنّ التوبة ساعتئذ تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، وفاقدة لمعطيات الإيمان الاختيارى وقيمة التوبة النصوح.

ثم إنّه فى المقطع الأخير من الآية يوجّه تهديداً شديداً إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبرة شديدة: «قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ».

إنّ من النقاط الهامة التى نستفيدها من الآية الحاضرة هو أنّ الآية تعتبر طريق النجاة منحصرة فى الإيمان، ذلك الإيمان الذى يكتسب المرء فيه خيراً ويعمل فى ظلّه عملًا صالحاً.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩۴

تعقيباً على التعاليم والأوامر العشر التى مرّت فى الآيات السابقة، والتى امر فى آخرها بإتباع الصراط الإلهى المستقيم، وبمكافحة أى نوع من أنواع النفاق والتفرقة، جاءت هذه الآية تتضمّن تأكيداً على هذه الحقيقة، وتفسيراً وشرحاً لها. فيقول تعالى أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» «١». أى أنّ الذين اختلفوا فى الدين وتفرّقوا فرقاً وطوائف لا يمتّون إليك بصلة أبداً، كما لا يرتبطون بالدين أبداً، لأنّ دينك هو دين التوحيد، ودين الصراط المستقيم، والصراط المستقيم ما هو إلّاواحد لا أكثر.

ثم قال تعالى- مُهدّداً مُوبّخاً اولئك المفرّقين-: «إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». أى أنّ اللَّه هو الذى سيؤاخذهم بأعمالهم وهو عليم بها، لا يغيب شىء منها.

محتوى هذه الآية يمثّل حكماً عامّاً يشمل كل من يفرّق الصفوف، وكل من يبذر بذور النفاق والاختلاف بين عباد اللَّه بابتداع البدع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا فى الامم السابقة أو فى هذه الامة.

هذه الآية تكرّر مرّة اخرى- وبمزيد من التأكيد- هذه الحقيقة وهى أنّ الإسلام دين الوحدة والإتحاد وأنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقة وإلقاء الاختلاف فى صفوف الامة.

فى الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهيّة الواسعة، وإلى الثواب الإلهى الواسع الذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين وقد عقّبت التهديدات المذكورة فى الآية بهذه التشجيعات: «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا».

ثم قال: «وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا».

وللتأكيد يضيف هذه الجملة أيضاً فيقول: «وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» وإنّما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و «الحسنة» و «السيئة» فى الآية الحاضرة يشمل كل عمل صالح وفكر صالح وعقيدة صالحة أو سيئة.

---

(١) «الشِيَع»: من حيث اللغة تعنى الفرق والطوائف المختلفة وأتباع الأشخاص المختلفين، وعلى هذا فإنّ مفردهذه الكلمة يعنى من يتّبع مدرسة أو شخصاً معيّناً، هذا هو المعنى اللغوى لكلمة الشيعة. ولكن للفظة الشيعة معنى آخر فى الإصطلاح، فهو يُطلق على من يتبع أميرالمؤمنين علياً عليه السلام ويشايعه، ولا يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوى والإصطلاحى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٩۵

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) هذه الآية والآيات الاخر التى سنقرؤها فيما بعد والتى ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة فى هذه السورة التى بدأت وانتهت بمكافحة الشرك والوثنية، وتركّزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. ففى البداية أمرت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأن يقول فى مواجهة معتقدات المشركين

والوثنيين ومزاعمهم الجوفاء والعارية عن المنطق السليم: «قُلْ إِنَّنِى هَدَينِى رَبّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». أى طريق التوحيد، ورفض كل أشكال الشرك والوثنية.

ذكر كلمة «قل» فى هذه الآيات وأمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصالة القرآن، وللدلالة على أنّ ما يأتى بعدها هو عين الكلمات التى اوحيت إلى رسول اللّه.

ثم إنّه تعالى يوضّح «الصراط المستقيم» فى هذه الآية والآيتين اللاحقتين. فهو يقول أوّلًا: إنّه الدين المستقيم الذى هو فى نهاية الصحة والاستقامة، وهو الأبدى الخالد القائم المتكفل لُامور الدين والدنيا والجسد والروح: «دِينًا قِيَمًا».

وحيث إنّ العرب كانوا يكنّون لإبراهيم عليه السلام محبة خاصة، بل كانوا يصفون عقيدتهم ودينهم بأنّه دين إبراهيم، فهذا هو الذى أدعو أنا إليه لا ماتزعمونه: «مِّلَّةَ إِبْرٰهِيمَ».

إبراهيم عليه السلام الذى أعرض عن العقائد الخرافية التى كانت سائدة فى عصره وبيئته، وأقبل على التوحيد «حَنِيفًا». و «الحنيف»: يعنى الشخص أو الشيء الذى يميل إلى جهة ما، وأمّا فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة ويولّى وجهه نحو الدين الحق والعقيدة الحقة.

وكأنّ هذا التعبير جواب وردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله مخالفته للعقيدة الوثنية التى كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النبى فى معرض الردّ على مقالتهم هذه، بأنّ نقض السنن الجاهلية والإعراض عن العقائد الخرافية السائدة فى البيئة ليس هو من فعلى فقط، بل كان إبراهيم- الذى نحترمه جميعاً- كذلك أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۶

ثم يضيف للتأكيد قائلًا: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، وحامل الحرب ضد الشرك، الذى لم يفتأ لحظة واحدة عن محاربته وكفاحه. الآية اللاحقة تشير إلى أنّه على النّبى أن يقول: إنّى لست موحّداً من حيث العقيدة فحسب، بل إنّى أعمل كل عمل صالح: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ» فأنا أحيى للّه، وله أموت، وأفدى بكلّ شيء لأجله، وكل هدفى وكل حبّى بل كل وجودى له.

و «النُسُك»: يعنى فى الأصل العبادة، ولذا يقال للعابد: ناسك، ولكن هذه الكلمة تطلق فى الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

ثم فى الآية الثالثة يضيف للتأكيد وإبطالًا لأىّنوع من أنواع الشرك والوثنية قائلًا: «لَا شَرِيكَ لَهُ».

ثم يقول فى ختام الآية: «وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ».

فإنّ كون رسول الإسلام أوّل المسلمين، إمّا من جهة كيفية إسلامه وأهميته، لأنّ درجة إسلامه وتسليمه أعلى وأفضل من الجميع، وإمّا لأنّه كان أوّل فرد من هذه الامة التى قبلت بالإسلام والقرآن.

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبّاً وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴) هذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيه: قل لهم واسألهم: هل من الصحيح أن أطلب رباً غير اللّه الواحد فى حين أنّه هو المالك والمربى، وهو رب كل شيء وبيده أزمة جميع الكائنات، وحكمه جار فى جميع ذرات الوجود بلا استثناء:

«قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلّ شَيْءٍ».

ثم إنّه يردّ على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: اتّبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأً. قائلًا: «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى فلا يعمل أحد إلّالنفسه، ولا يحمل أحد وزر أحد.

«ثُمَّ إِلَى رَبّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» فمآلكم إليه وهو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۷

وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِیَبْلُوَکُمْ فِی مَا آتَاکُمْ إِنَّ رَبَّکَ سَرِیعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۶۵) فی هـذه الآیـة التی هی آخر الآیات من سورة الأنعام إشارة إلی أهمیـة مقام الإنسان ومکانته فی عالم الوجود لتکمیل الأبحاث الماضیة فی مجال تقویة دعائم التوحید، ومکافحة الشرک. لهذا قال تعالی فی مطلع کلامه: «هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلئِفَ الْأَرْضِ».

إنّ الإنسان الـذی هو خلیفـة اللَّه فی أرضه، والـذی سُـخّرت له کل منابع هـذا العالم وصدر الأمر بحکومته علی جمیع الموجودات من جانب اللَّه تعالی، لا یجوز أن یسمح لنفسه بالسقوط إلی درجة السجود للجمادات.

ثم أشار سبحانه إلی اختلاف المواهب والاستعدادات فی المواهب البدنیة والروحیة لدی البشر، والهدف من هذا الاختلاف والتفاوت، فیقول: «وَرَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّیَبْلُوَکُمْ فِی مَا ءَاتَاکُمْ» من المواهب المتنوعة والمتفاوتة ویختبرکم بها.

ثم تشیر فی خاتمـة الآیـة الحاضـرة إلی حریـة الإنسان فی اختیار طریق السعادة وطریق الشقاء نتیجـة هذه الاختبارات والإبتلاءات، إذ یقول: «إِنَّ رَبَّکَ سَرِیعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِیمٌ». فإنّ ربک سریع العقاب مع الـذین یفشـلون فی هـذا الاختبار، وغفور رحیم للـذین ینجحون فیه ویسعون لإصلاح أخطائهم.

بحثان

۱- التفـاوت بین أفراد البشـر ومبـدأ العدالـة: لاـ شـک أنّ بین أفراد البشـر طائفـة من الاختلافـات والفوارق المصـطنعة، التی هی نتیجة المظـالم التی یمارسـها بعض أفراد البشـر ضـد الآـخرین، فهناک مثلًا جماعـة یمتلکون ثروات هائلـة، وجماعات اخری تعانی من الفقر المدقع.

جماعـة یعانون من المرض والعلـة بسـبب سوء التغذیة وندرة الوسائل الصـحیة، فی حین یحظی أفراد معدودون بقدر کبیر من السـلامة والعافیة، بسبب توفّر جمیع الإمکانیات.

إنّ مثـل هـذه الفوارق والاختلافـات: الثروة والفقر، والعلم والجهل، والسـلامة والمرض، هی فی الأغلب ولیـدة الاسـتعمار والاسـتثمار، وهی مظاهر مختلفة للعبودیة والمظالم الظاهرة والخفیة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۸

إنّ من المسـلم أنّه لا یمکن أن تعتبر هذه الامور من فعل المشیئة الإلهیة ولیس من الصحیح مطلقاً الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غیر المبرّرة أساساً. إنّ أفراد البشـر یشکلون من حیث المجموع شجرة کبیرة واحدة یقوم کل فرد برسالة خاصة فی هذا الصرح العظیم، وله بنیان مخصوص یتلاءم مع وظائفه.

ولهـذا یقول القرآن الکریم: إنّ هـذه الفوارق وهـذا التفـاوت وسـیلة لاختبـارکم وامتحـانکم، لأنّ الاختبار والامتحان الإلهی- کما قلنا سابقاً- یعنی «التربیة».

۲- خلافـة الإنسـان فی الأـرض: إنّ النقطـة الاخری الجـدیرة بالاهتمام، هی أنّ القرآن الکریم وصف الإنسان مراراً بأنّه خلیفـة اللَّه فی أرضه، إنّ هـذا الوصف، وهـذا التعبیر ضـمن بیـانه لمکانـة الإنسـان یبیّن هـذه الحقیقـة أیضاً، وهی: أنّ اللَّه تبارک وتعالی هو المالک الأصـلی والحقیقی للأموال والثروات والقابلیات، وجمیع المواهب الإلهیـة الممنوحـة للإنسان، وما الإنسان- فی الحقیقـة- إلّاخلیفة اللَّه ووکیل من جانبه، ومأذون من قبله.

ومن البدیهی أنّ الوکیل- مهما کان- فهو غیر مسـتقل فی تصـرفاته، بل یجب أن تخضع تصـرفاته لإذن صاحبها الأصـلی، وتقع ضـمن إجازته.

ومن هنـا یتضـح أنّ الإسـلام- مثلًـا- یختلف عن النظـام الشـیوعی، وکـذا عن النظام الرأسـمالی فی مسألـة المالکیـة، لأنّ الفریق الأوّل یخصـص الملکیـة بالجماعـة، والفریق الثانی یخصصـها بالفرد، بینما یقول الإسـلام: الملکیـة لا هی للفرد ولا هی للمجتمع، بل هی فی

الحقیقة للّه‌تعالی، والناس وکلاء اللّه، وخلفاؤه.

وبهـذا الـدلیل نفسه یراقب الإسـلام طریقـة تصـرف الأفراد فی الأموال کسـباً وصـرفاً، ویضع لکل ذلک قیوداً وشـروطاً تجعل الاقتصاد الإسلامی نظاماً متمیزاً فی مقابل الأنظمة الاخری.

«نهایة تفسیر سورة الأنعام»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۹

۷. سورة الاعراف

هذه السورة من السور المکیة إلّاقوله تعالی: «وَاسَلْهُم عَنِ الْقَرْیَةِ» إلی «بِمَا کَانُوا یَفْسُقُونَ» الذی نزل فی المدینة.

محتوی السورة: یشیر فی البدء إلی مسألة المبدأ والمعاد.

ثم بهدف إحیاء شخصیة الإنسان شرحت- باهتمام وعنایة کبیرة- قصة خلق آدم.

ثم عدّدت- بعد ذلک- المواثیق التی أخذها اللّه تعالی من أبناء آدم فی مسیر الهدایة والصلاح، واحداً واحداً.

ثم للتدلیل علی هزیمة وخسران الجماعات التی تحید عن سبیل التوحید والعدالة والتقوی، وکذا للتدلیل علی نجاح المؤمنین الصادقین وإنتصـارهم، ذکرت قصـص کثیر من الاـقوام الغـابرة والأنبیـاء السـابقین مثل «نوح» و «لوط» و «شـعیب» وختمت ذلک ببیان قصـة بنی إسرائیل، وجهاد «موسی» ضدّ فرعون، بصورة مفصلة.

وفی آخر السورة عادت مرّة اخری إلی مسألة المبدأ والمعاد، بهذا تتناغم البدایة والخاتمة.

فضـیلة تلاـوة هـذه السورة: فی تفسـیر العیاشـی عن الإمام الصادق علیه السـلام أنّه قال: «من قرأ سورة الأعراف فی کل شـهر کان یوم القیامة من الذین لا خوف علیهم ولا هم یحزنون، فإن قرأها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۰

مختصر الامثل ج۲ ۱۳۹

فی کل جمعـة کان ممّن لا یحاسب یوم القیامـة». ثم قال أبو عبـد اللّه علیه السـلام: «أما إنّ فیها آیاً محکمة فلا تدعوا قراءتها وتلاوتها والقیام بها فإنّها تشهد یوم القیامة لمن قرأها عند ربّه».

المص (۱) کِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَیْکَ فَلَا یَکُنْ فِی صَـدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِکْرَی لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیَاءَ قَلِیلًا مَا تَذَکَّرُونَ (۳) فی مطلع هـذه السورة نواجه مرّة اخری «الحروف المقطعة»، ویمکن أن یکون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب إنتباه المسـتمعین، ودعوتهم إلی السـکوت والإصـغاء، لأنّ وجود هـذه الحروف فی مطلع الکلام موضوع عجیب لم یسبق له مثیل فی نظر العرب، ومن شأنها أن تثیر فی العربی حبّ الاستطلاع، وتدعوه إلی متابعة الکلام إلی نهایته.

ثمّ یقول تعالی فی الآیة اللاحقة: «کِتَابٌ أُنزِلَ إِلَیْکَ فَلَا یَکُن فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِّنْهُ».

«الحرج»: فی اللغة یعنی الشعور بالضیق وأیّ نوع من أنواع المعاناة.

إنّ العبارة الحاضـرة تسلّی النبی صلی الله علیه و آله وتطمئن خاطره بأنّ هذه الآیات نازلة من جانب اللّه تعالی فیجب أن لا یشعر صلی الله علیه و آله بأیّ ضـیق وحرج، لا من ناحیة ثقل الرسالة الملقاة علی عاتقه، ولا من ناحیة ردود فعل المعارضـین والأعداء الألدّاء تجاه دعوته، ولا من ناحیة النتیجة المتوقّعة من تبلیغه ودعوته.

ثم یضـیف تعالی فی الجملـة اللاحقة أنّ الهدف من نزول هذا الکتاب العزیز هو إنذار الناس وتحذیرهم من عواقب نوایاهم وأعمالهم الشریرة، وتذکیر المؤمنین الصادقین، إذ یقول: «لِتُنذِرَ بِهِ وَذِکْرَی لِلْمُؤْمِنِینَ».

ثم إنّه سبحانه یوجّه خطابه إلی عامة الناس ویقول: «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَیْکُم مِّن رَّبِّکُمْ».

وبهذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومهمته ورسالته، وانتهى بوظيفة الناس وواجبهم تجاه الرسالة.

وللتأكيد يضيف سبحانه قائلًا: «وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» فلا تتبعوا غير أوامر اللّه، ولا تختاروا وليّاً غير اللّه.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٠١

وحيث إنّ الخاضعين للحق والمتذكرين قليلون، لذا قال فى ختام الآية: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ومن هـذه الآيـة يسـتفاد أنّ الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إمّا القبول بولايـة اللّه وقيادته، وإمّا الـدخول تحت ولاية الآخرين، فإذا سلـك الطريق الأوّل كان اللّه وليّه، وأمّا إذا دخل تحت ولايـة الآخرين فإنّ عليه- حينئـذ- أن يخضع فى كل يوم لواحـد من الأرباب، وأن يختار ربّاً جديداً.

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (۴) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (۵) هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمة التى تترتب على مخالفة الأوامر التى تمّ بيانها فى الآيات السابقة، كما أنّهما تعدّان فهرستاً إجمالياً عن قصص الأقوام المتعددة أمثال نوح، وقوم فرعون، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط التى ستأتى فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحـذّر وينـذر بشدة فى هذه الآية كل اولئك الذين يتمرّدون على تعاليم الأنبياء ويقومون بزرع الفجور والفساد بدل إصـلاح أنفسـهم وإصـلاح الآخرين، بأن يتـدبروا قليلًا فى حياة الأقوام السالفـة وينظروا كم من قرية عامرة أبادها اللّه، وأهلك سـكّانها الفاسقين: «وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا».

ثم يبيّن كيفيـة هلاـكهم بـأنّ العـذاب الأليم جاءهم فى منتصف الليل وهم يقضون ساعات الراحـة والسـكون، أو فى وسط النهار وهم يمضون لحظات الاستراحة والإسترخاء بعد رحلة من العمل والنشاط اليومى الدّائب: «فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ».

ثم يواصل الحـديث فى الآية اللاحقة هكذا: «فَمَا كَانَ دَعْوَيهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ». فعندما يتورّطون فى البلاء، وتتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم ونخوتهم وينادون معترفين بظلمهم: إنّا كنا ظالمين.

ولكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنّه نوع من الاعتراف الجبرى والاضطرارى الذى يضطرّ إليه حتى أشد الناس غروراً.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقة لهذا العصر وما يليه من العصور، لنا وللُامم والأقوام القادمة، لأنّه لا معنى للتبعيض فى السنّة الإلهية.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٠٢

والإنسـان المسـلح بالتكنولوجيـا المتقدمـة مع كـل مـا اوتى من قوة هو الآـخر عـاجز أمـام الزلازل والعواصف، وأمام السـيول والأمطار الغزيرة، تماماً مثل عجز الامم ما قبل التاريخ وضعفها.

وعلى هذا فليست مثل تلك العواقب السيئة والأليمة التى أصابت ظَلَمة الامم الغابرة وجباريها، وحلّت بالمغرورين والفسقة والمتمردين ليلًا وحطّمتهم، ببعيدة عن الإنسان الحاضر.

فَلَنَسْـأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَـلِينَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ مَـا كُنَّا غَـائِبِينَ (٧) وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِـذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) التحقيق الشامل: إنّ الآية المتقدمـة تحـدّثت عن الجزاء الـدنيوى للظالمين، وهـذه الآيات تبحث فى الجزاء والعقاب الاخروى لهم، وبهـذا يتّضـح الإرتباط بينها.

يقول تعالى أوّلًا وهو يقرر سنّة عامة: «فَلَنَسَـلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ». أى إنّنا سـنسأل فى يوم القيامة كل من أرسـلنا لهدايته رسولًا، حتماً ودون ريب.

بل ونسأل الأنبياء أيضاً، ماذا فعلوا فى مجال تبليغ رسالتهم: «وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ».

وعلى هـذا الأسـاس فالجميع مسؤولون، قادةً وأتباعاً، رسلًا ومرسلًا إليهم، غايـة ما فى الأمر أنّه يختلف السؤال والمسؤوليات من طائفة إلى اخرى.

فى الآيـة اللاحقـة- ولكى لا يتصور أحـد بأنّ سؤال اللّه للانبياء يعنى أنّ الأمر قـد خفى على اللّه وغاب عن علمه- قال تعالى بصـراحة

مزيجة بالقسم، بأنّنا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنّه ما غاب عنا شىء من أفعالهم، وما غابوا هم عنا، فقد كنا معهم فى كل حين ومكان: «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ».

المساءلة لماذا؟ نحن نعلم أنّ اللّه سبحانه يعلم بكل شىء، فهو الحاضر فى كل زمان ومكان، الناظر لكل شىء من نيّة أو عمل، فما الحاجة إلى مساءلة الرسل والامم عامة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۳

وبدون إستثناء؟!

الجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو كان للاستعلام والاستفهام، وبهدف الوقوف على الحقيقة لم يصح أن يقع من العالِم العارف. وأمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجة عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن فى ذلك بأس ولا ضير، إذ يشبه ذلك تماماً ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيرة وقابَلَنا بالإساءة والخيانة، وكان كل ذلك معلوماً معروفاً عندنا، ومع ذلك فإنّنا نسائله ونقول: ألسنا قد أسدينا إليك كذا وكذا من الخدمة؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟

إنّ مثل هذه المساءلة ليست لاكتساب العلم، واكتشاف الحقيقة المجهولة، بل هى لتفهيم الطرف الآخر وإيقافه على الحقيقة.

فى الآية اللاحقة- تكميلًا لمبحث المعاد- يشير تعالى إلى قضية «وزن الأعمال» الذى جاء ذكره فى السور القرآنية الاخرى مثل ما جاء فى سورة «المؤمنون» فى الآية (۱۰۲ و ۱۰۳) وسورة «القارعة» الآية (۶ و ۸).

فيقول أوّلًا: إنّ وزن الأعمال يوم‌القيامة أمر واقع لا ريب فيه: «وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ».

إذن، فالمسلم هو أنّ أعمال الإنسان توزن فى يوم القيامة بأداة خاصة لا بواسطة موازين مثل موازين الدنيا، ويمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء والأئمة والصالحين، وهذا ما يستفاد- أيضاً- من الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

بل إنّ أولياء اللّه فى هذا العالم هم أيضاً مقاييس للوزن والتقييم، ولكن حيث إنّ أكثر الحقائق فى هذا العالم تبقى خلف حجب الإبهام والغموض، تبرز فى يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» «۱». وتنكشف هذه الحقائق وتنجلى للعيان.

ثمّ إنّه تعالى يقول فى المقطع الآخر من الآية: «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بَايَاتِنَا يَظْلِمُونَ».

إنّ من البديهى أنّ المراد من الخفّة والثقل فى الموازين ليس هو خفة وثقل نفس الميزان، بل قيمة ووزن الأشياء التى توزن بواسطة تلك الموازين، وتُقاس بتلك المقاييس.

إنّ جملة «كانوا بآياتنا يظلمون» إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل

---

(۱) سورة إبراهيم/ ۴۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۴

ظلموا- كذلك- البرامج الإلهية الهادية، لأنّ هذه البرامج كان ينبغى أن تكون سبلًا للهداية ووسائل للنجاة، ولو أنّ أحداً تجاهلها، ولم يكترث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالماً لها.

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (۱۰) مكانة الإنسان وعظمته فى عالم الوجود: عقيب الآيات التى أشارت إلى المبدأ والمعاد، يدور البحث فى هذه الآية والآيات اللاحقة حول عظمة الانسان وأهمية مقامه، وكيفية خلق هذا الكائن والمفاخر التى وهبها اللّه له. فهو يقول فى البداية: نحن الذين منحناكم الملكية والحاكمية وسلّطناكم على الأرض: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ».

وأعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ولكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلّاقليلًا «قَلِيلًا مَّا تَشْكَرُونَ».

وَ لَقَدْ خَلَقْنَاکُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاکُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِکَهِٔ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِیسَ لَمْ یَکُنْ مِنَ السَّاجِدِینَ (۱۱) قَالَ مَا مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُکَ قَالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (۱۲) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا یَکُونُ لَکَ أَنْ تَتَکَبَّرَ فِیهَا فَاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصَّاغِرِینَ (۱۳) قَالَ أَنْظِرْنِی إِلَی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۱۴) قَالَ إِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ (۱۵) قَالَ فَبِمَا أَغْوَیْتَنِی لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَکَ الْمُسْتَقِیمَ (۱۶) ثُمَّ لَآتِیَنَّهُمْ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَیْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شَاکِرِینَ (۱۷) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکُمْ أَجْمَعِینَ (۱۸) لقد أشير إلى مسألة خلق الإنسان وكيفية إيجاده فى سبع سور من سُوَر القرآن الكريم، وفى الآية المبحوثة الآن يقول اللّه تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ» جدّكم الأوّل، ومن المأمورين بالسجود إبليس الذى كان موجوداً فى صفوفهم وإن لم يكن منهم، فامتثلوا لهذا الأمر جميعاً وسجدوا لآدم إلّاإبليس: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۵

وكما قلنا فى ذيل الآية (۳۴) من سورة البقرة: إنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، لأن العبادة مخصوصة للّهسبحانه، بل السجدة هنا بمعنى التواضع.

فى الآية اللاحقة يقول تعالى: أنّه أخذ إبليس على عصيانه وطغيانه و «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ». فتذرّع- فى مقام الجواب- بعذر غير وجيه إذ: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ».

وكأنّ إبليس كان يتصور أنّ النار أفضل من التراب، وهذه هى أكبر غلطاته وأخطائه، ولعله لم يقل ذلك عن خطأ والتباس، بل كذب عن وعى وفهم، لأنّنا نعلم أنّ التراب مصدر أنواع البركات، ومنبع جميع المواد الحياتية، وأهم وسيلة لمواصلة الموجودات الحية حياتها، على حين أنّ الأمر بالنسبة إلى النار ليس على هذا الشكل.

على أنّ ميزة الإنسان لم تكن فى كونه من التراب، بل إنّ ميزته الأصلية تكمن فى «الروح الإنسانية» وفى خلافته للّهتعالى.

والظاهر أنّ الشيطان كان يعرف بكلّ هذه الامور، ولكن التكبر، والأنانية هما اللذان منعاه عن امتثال أمر اللّه، وكان ما أتى به من العذر حجة داحضة، ومحض تحجج وتعلل.

بقى هنا سؤال وهو: كيف كان يتحدّث الشيطان مع اللّه، فهل كان ينزل عليه الوحى؟

الجواب هو: أنّ كلام اللّه لا- يكون بالوحى دائماً، فالوحى عبارة عن رسالة النبوة، فلا مانع من أن يكلّم اللّه أحداً لا بعنوان الوحى والرسالة، بل عن طريق الباطنى أو بواسطة بعض الملائكة، سواء كان من يحادثه اللّه من الصالحين الأبرار مثل مريم وام موسى، أو من غير الصالحين مثل الشيطان.

ولنعد الآن إلى تفسير بقية الآيات:

حيث إنّ امتناع الشيطان من السجود لآدم عليه السلام لم يكن امتناعاً بسيطاً وعادياً ولم يكن معصية عادّية، بل كان تمرّداً مقروناً بالاعتراض والإنكار للمقام الربوبى، لهذا فإنّ مخالفته كانت تعنى الكفر وإنكار العلم والحكمة الإلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه ودرجاته، وبالتالى كل ما له من مكانة عند اللّه، ولهذا أخرجه اللّه من ذلك المقام الكريم، وجرّده من تلك المنزلة السامقة التى كان يتمتع بها فى صفوف الملائكة، فقال له: «فَاهْبِطْ مِنْهَا».

ثمّ إنّه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط والتنزل بالعبارة التالية: «فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا».

وأضاف للتأكيد قائلًا: «فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ». يعنى إنّك بعملك وموقفك هذا لم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۶

تصبح كبيراً، بل على العكس من ذلك أصبتَ بالصغار والذلة.

إنّ هـذه الجملـة توضّـح بجلاء أنّ شـقاء الشـيطان كله كان وليـد تكبّره. فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السـلام قال: «اصول الكفر ثلاثـة: الحرص والاسـتكبار والحسـد، فأمّـا الحرص فإنّ آدم عليه السـلام حين نهى عن الشـجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأمّا الاستكبار فإبليس حيث امر بالسجود لآدم فأبى، وأمّا الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه».

ولكن قصة الشيطان لم تنته إلى هذا الحد، فهو عندما عرف بأنّه صار مطروداً من حضرة ذى الجلال زاد من طغيانه ولجاجته، وبدل أن يتوب ويثوب إلى اللّه ويعترف بخطئه فـإنّ الشـىء الوحيـد الـذى طلبه من اللّه تعـالى هو أن يمهله ويؤجّـل موته إلى يوم القيامـة: «قَالَ أَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

ولقد استجاب اللّه لهذا الطلب، ف «قَالَ إِنَّکَ مِنَ الْمُنظَرِينَ».

غير أنّ الشيطان لم يبغ من مطلبه هـذا (أى الإمهال الطويل) الحصول على فرصـة لجبران مافات منه أو ليعمّر طويلًا، إنّما كان هدفه من ذلك هو إغواء بنى البشر «قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَکَ الْمُسْتَقِيمَ». أى لأغوينهم كما غويت، ولُاضلنّهم كما ضللت.

ثمّ إنّ الشـيطان أضاف- تأكيداً لقوله- بأنّه لن يكتفى بالقعود بالمرصاد لهم، بل سـيأتيهم من كل حدب وصوب، ويسدّ عليهم الطريق من كل جانب «ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ».

ولقد نقل- فى المجمع- عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال:

«ثمّ لآتينّهم من بين أيـديهم، معناه: اهوّن عليهم أمر الآخرة؛ ومن خلفهم، آمرهـم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم؛ وعن أيمانهم، افسـد عليهم أمر دينهم بتزيين الضـلالة وتحسـين الشـبهة؛ وعن شـمائلهم، بتحبيب اللـذات إليهم وتغليب الشـهوات على قلوبهم».

وفى آخر آية من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرّة اخرى الأمر بخروج الشيطان من حريم القرب الإلهى والمقام الرفيع، بفارق واحد، هو أنّ الأـمر بطرده هنـا اتّخـذ صورة أكثر ازدراء وتحقيراً، وأشـد عنفـاً ووقعـاً، ولعل هـذا كان لأجل العناد واللجاج الـذى أبـداه الشـيطان بالإلحاح على الوسوسـة للإنسان وإغوائه وإغرائه، يعنى أنّ موقفه الأثيم فى البدايـة كان منحصـراً فى التمرد على أمر اللّه وعدم إمتثاله، ولهـذا صـدر الأمر بخروجه فقط، ولكن عنـدما أضاف معصـية أكبر إلى معصـيته بالعزم على إضـلال الآخرين جاء الأمر المشدد: «قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٠٧

ثم حلف على أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه: «لَّمَن تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ».

سؤال: بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل اللّه طلبه فى الإمهال، وتأخير الأجل؟

إنّ مواصلـة الشـيطان لحياته كقضـية سـلبية يكون وجودها ضرورياً لتقوية نقاط إيجابية، لا يكون غير مضرّ فحسب، بل هو مؤثر ومفيد أيضاً، فإنّه مع غض النظر عن الشـيطان، هناك مجموعـة من الغرائز المختلفة فى داخلنا، وهى بوقوفها فى الطرف الآخر من قوانا العقلية والروحية تشكّلان ساحة صراع وتناقض قويين، وفى مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان وتكامله، وتربيته ورشده.

إنّ النقطـة المهمـة التى يجب الإنتباه إليها هى أنّ اللّه تعالى وإن كان ترك الشـيطان حرّاً فى القيام بوساوسه، ولكنه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرداً من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أوّلًا: وهبه قوة العقل التى يمكن أن توجد سدّاً قوياً منيعاً فى وجه الوساوس الشيطانية خاصة إذا لقيت تربية صالحة.

وثانياً: جعل الفطرة النقيّة وحب التكامل فى باطن الإنسان كعامل فعّال من عوامل السعادة.

وثالثـاً: يبعث الملائكـة التى تلهم الخيرات إلى الـذين يريـدون أن يعيشوا بمنـأى عن الوسـاوس الشـيطانية، كما يصـرّح القرآن الكريم بذلك- فى الآية (٣٠) من سورة فصّـلت- إذ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَکَةُ». إنّها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات والتطمينات لهم.

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (٢٠) وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نادَاهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ١٠٨

وساوس شيطانية فى حُلل خَلّابة: تُبيّن هذه الآيات وتستعرض فصلًا آخر من قصة آدم، فتقول أوّلًا: إنّ اللَّه سبحانه أمر آدم وزوجته حواء بأن يسكنا الجنة: «وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ».

ويستفاد من هذه العبارة أنّ آدم وحواء لم يكونا فى بدء الخلقة فى الجنة. وفى هذه الأثناء صدر أوّل تكليف وأمر ونهى إلى آدم وحواء من جانب اللَّه تعالى، بهذه الصورة: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ». أى إنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنة مباح لكما، إلّاشجرة خاصه لا تقرباها، وإلّا كنتما من الظالمين.

ثم إنّ الشيطان الذى طُرِد من رحمة اللَّه تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، وكان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم وبنيه ما أمكن.

بدأ بنزع لباس الطاعة والعبودية للَّه، عنهما، فأبدى عورتهما التى كانت مخبأة مستورة:

«فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا».

وللوصول إلى هذا الهدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حب الإنسان ورغبته الذاتية فى التكامل والرقى والحياة الخالدة، وليوفّر لهما عذراً يعتذران ويتوسلان به لتبرير مخالفتهما لأمر اللَّه ونهيه، ولهذا قال لآدم وزوجته: «مَا نَهكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ».

وبهذه الطريقة صوّر الأمر الإلهى فى نظرهما بشكل آخر.

ولما سمع آدم هذا الكلام غرق فى التفكير ولكن الشيطان- من أجل أن يحكم قبضته ويعمّق وسوسته فى روح آدم وحواء- توسل بالأيمان المغلّظة للتدليل على أنّه يريد لهما الخير! «وَقَاسَمَهُمَا إِنّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ».

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، ولم يكن قد وقع فى حبائل الشيطان وخدعه بعد ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا، كما أنّه لم يكن فى مقدوره أن يصدّق بأن يأتى بمثل هذه الأيمان المغلّظة كذباً، ولهذا وقع فى حبال الشيطان، وسقط فى ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلهية، كما يعبّر القرآن عن ذلك ويلخّصه فى عبارة موجزة إذ يقول: «فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ» «١».

---

(١) «دلّى»: من مادة التدلية وتعنى إرسال الدلو فى البئر بحبلٍ تدريجاً وهذه كناية لطيفة عن أنّ الشيطان أنزل بحبل مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والإبتعاد عن الرحمة الإلهية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ١٠٩

وبمجرّد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتهما «فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا».

وجُرّدا من لباس الجنة الذى هو لباس الكرامة الإلهية.

ثم يقول: إنّ آدم وحواء لمّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فوراً إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنة: «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ» «١».

وفى هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من اللَّه يقول: ألم احذّركما من الاقتراب والأكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما: إنّ الشيطان

عدوّ لكما؟ فلماذا تناسيتم أمرى ووقعتم فى‌مثل هذه الأزمة: «وَنَادَيهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكَمَا عَن تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكَمَا إِنَّ الشَّيْطنَ لَكَمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

من المقايسة بين تعبير هذه الآية والآية الاولى التى أجاز اللَّه فيها لآدم وحواء أن يسكنا الجنة، يستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصية ابتعدا عن مقام القرب الإلهى.

بحثان

١- ماذا كانت الشجرة الممنوعة؟ جاءت فى المصادر الإسلامية تفسيران لها، أحدهما «مادى» وهو أنّها كانت «الحنطة» كما هو المعروف فى الروايات.

والتفسير الآخر «معنوى» وهو أنّ المقصود من تلك الشجرة- كما فى الرّوايات- هو ما عبّر عنها ب «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقاً لهذه الروايات- بعد ملاحظة مكانته ومقامه- تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام، ولا فوق مكانته مكانة، ولكن اللَّه تعالى أطلعه على مقام ثلّة من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الأكرم وأهل بيته)، فحصل عنده ما يشبه الحسد، وكانت هذه هى الشجرة الممنوعة التى امر آدم بأن لا يقربها.

وفى الحقيقة تناول آدم- طبقاً لهذه الروايات- من شجرتين، كانت إحداهما أقل منه مرتبة وأدنى منه منزلة، وقد قادته إلى العالم المادى، وكانت هى «الحنطة». والاخرى هى الشجرة المعنوية التى كانت تمثل مقام ثلّة من أولياء اللَّه، والذى كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته، وحيث إنّه تعدّى حدّه فى كلا الصعيدين ابتلى بذلك المصير المؤلم.

ولكن يجب أن نعلم أنّ هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام، بل كان مجرد إحساس

---

(١) «يخصفان»: من مادة «الخصف» وتعنى فى الأصل ضمّ شى‌ء إلى شى‌ء آخر، والجمع، ثمّ أطلق على ترفيع النعل أو الثوب المتمزق وخياطته فقيل: خصف النعل أو الثوب، أى جمع الأجزاء المتفرقة وضمّ بعضها إلى الآخر.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١١٠

نفسانى من دون أن تتبعه أيّة خطوة عملية على طبقه. ٢- هل ارتكب آدم معصية؟ إنّ المصادر الإسلامية تقول لنا: إنّ الأنبياء لا‌يرتكبون إثماً وإنّ منصب إمامة الناس وهدايتهم لا‌يُعطى لمن يرتكب ذنباً ويقترف معصية. ونحن نعلم أنّ آدم كان من الأنبياء الإلهيين، وعلى هذا الأساس فإنّ التعابير التى جاءت فى القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعنى «العصيان النسبى» و «ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

وتوضيح ذلك: أنّ المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و «المعصية النسبية»، والمعصية المطلقة هى مخالفة النهى التحريمى، وتجاهل الأمر الإلهى القطعى، وهى تشمل كل نوع من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام.

ولكن المعصية النسبية هى أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه.

فالصلاة التى يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاة ممتازة، ولكنها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء اللَّه.

وهكذا الحال فى سائر أعمالهم، فإنّها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم، ولهذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب اللَّه، والمراد من ترك الأولى هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل ويعمد إلى عمل جيّد أو مستحب أدنى منه فى الفضل.

إنّ نهى آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان ترك أولى، ولكن نظراً إلى مكانة آدم ومقامه ومرتبته عُدّ صدوره أمراً مهمّاً وخطيراً، واستوجب مخالفة هذا النهى (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمؤاخذة من جانب اللَّه تعالى.

قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ

مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (۲۴) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (۲۵) رجوع آدم إلى اللَّه وتوبته: وفى المآل عندما عرف آدم وحواء بكيد إبليس، وخطّته ومكره الشيطانى، ورأيا نتيجة مخالفتهم فكّرا فى تلافى ما فات، وجبران ما صدر منهما،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۱

فكانت أوّل خطوة خطياها هى: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام اللَّه: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

إنّ توبة آدم وحواء الخالصة وإن قُبلت من جانب اللَّه تعالى- كما نقرأ ذلك فى الآية (۳۷) من سورة البقرة: «فَتَابَ اللَّهُ»- ولكنهما لم يستطيعا على كل حال التخلّص من الأثر الوضعى والنتيجة الطبيعية لعملهما، فقد امرا بمغادرة الجنة، وشمل هذا الأمر الشيطان أيضاً:

«قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ».

كما ذكّر الجميع بأنّهم سيتعرضون فى الأرض للموت بعد الحياة، ثم يخرجون من الأرض مرّة اخرى للحساب «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ».

يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۲۶) يَا بَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (۲۷) وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۲۸) إنذار إلى كل أبناء آدم: إنّ اللَّه تعالى بيّن فى الآيات الحاضرة وما بعدها سلسلة من التعاليم والبرامج البنّاءة لجميع أبناء آدم، وهى تعتبر فى الحقيقة استمراراً لبرامج آدم فى الجنة.

ففى البداية يشير إلى مسألة اللباس وستر سَوءات البدن التى كان لها دور مهم فى قصة آدم، إذ يقول: «يَا بَنِى ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ».

ولكن فائدة اللباس الذى أرسلناه لكم لا تقتصر على ستر البدن وإخفاء العيوب والسوءآت، بل للتجمل والزينة أيضاً حيث يجعل أجسامكم أجمل مما هى عليه.

«وَرِيشًا».

«ريش»: فى الأصل هو ما يستر أجسام الطيور، وحيث إنّ ريش الطيور هو اللباس الطبيعى فى أجسامها، لهذا اطلق على نوع من أنواع الألبسة، ولكن حيث إنّ ريش الطير فى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۲

الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمن هذه الكلمة مفهوم الزينة والجمال.

ثم تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التى كانت حول اللباس الظاهرى، عن حد اللباس المعنوى تبعاً لسيرته فى الكثير من الموارد التى تمزج بين الجانبين المادى والمعنوى، الظاهرى والباطنى إذ قال: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ».

وتشبيه التقوى باللباس تشبيه قوى الدلالة، معبّر جداً، لأنّه كما أنّ اللباس يحفظ البدن من الحرّ والقرّ، يقى الجسم عن الكثير من الأخطار، ويستر العيوب الجسمانية، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك زينة للإنسان، ومصدر جمال، كذلك روح التقوى، فإنّها مضافاً إلى ستر عيوب الانسان، ووقايته من الكثير من الأخطار الفردية والاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له ...

زينة ملفتة للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة وسمّواً، وتزيدها جلالًا وبهاء.

والمراد من لباس التقوى هو «روح التقوى» التى تحفظ الإنسان، وتنطوى تحتها معانى «الحياء» و «العمل الصالح» وأمثالهما.

ثمّ إنّ اللَّه تعالى يقول فى ختام الآية: «ذلِكَ مِن ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». أى إنّ هذه الألبسة التى جعلها اللَّه لكم، سواء الألبسة المادية أو المعنوية، اللباس الجسمانى أو لباس التقوى، كلها من آيات اللَّه ليتذكر الناس نعم الرب تعالى.

اللباس فى الماضى والحاضر: لم يزل الإنسان فيما مضى- كما يشهد به التاريخ- يلبس الثياب ولكن الألبسة قد تغيرت وتنوعت تنوعاً بالغاً عبر الزمن. لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسة والثياب فى عصرنا الراهن تطوراً هائلًا، واتسع نطاقها اتساعاً كبيراً، بحيث أصبح لا يقاس بما مضى.

ولكن- للأسف- قد اتسعت الجوانب الفرعية، بل وغير المحمودة والفاضحة للثياب والألبسة وتعددت كثيراً إلى درجة أنّها غطت على الفلسفة الأصلية للباس.

لقد أصبح اللباس- اليوم- وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، والتكبر والإسراف والتبذير، وما شابه ذلك. حتى أنّنا ربّما نشاهد ألبسة يرتديها جماعات من الناس- وبخاصة الشباب المتغرب- يفوق طابُعها الجنونى على الطابع العقلانى، وتكون أشبه بكل شيء إلّاباللباس والثوب.

الآية اللاحقة يحذّر فيها اللَّه سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان ومكره، ويدعو إلى مراقبته، والحذر منه، لأنّ الشيطان أبدى عداءه لأبيهم آدم، فكما أنّه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٣

نزع عنه لباس الجنة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، ولهذا يقول تعالى: «يَا بَنِى ءَادَمَ لَايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا».

ثمّ إنّ اللَّه تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان وأعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء: «إِنَّهُ يَرَيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُمْ». فلابدّ من شدة الحذر من مثل هذا العدو.

وفى خاتمة الآية يأتى سبحانه بجملة هى إجابة على سؤال مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلّط اللَّه العادل الرحيم عدوّاً بهذه القوة على الإنسان ... عدوّاً لا يمكن مقايسة قواه بقوى الإنسان ... عدواً يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنّه- حسبما جاء فى بعض الأحاديث- يجرى من الإنسان مجرى الدم فى عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة اللَّه سبحانه؟!

الآية الشريفة- فى خاتمتها- ترد على هذا السؤال الاحتمالى إذ تقول: «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ». أى إنّ الخطوات الاولى نحو الشيطان إنّما يخطوها الإنسان نفسه، وهو الذى يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكة جسمه. فالشيطان لا يستطيع إجتياز حدود الروح ويعبرها إلّابعد موافقة من الإنسان نفسه.

وفى الآية (٤٢) من سورة الحجر نقرأ: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ».

فى الآية التالية يشير تعالى إلى واحدة من وساوس الشيطان المهمة والتى تجرى على ألسنة بعض الشياطين من الإنس أيضاً، وهى أنّه عندما يُسأل الشخص لدى إرتكابه عملًا قبيحاً، عن دليله يجيب قائلًا: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا».

ثمّ يضيفون إلى هذه الحجة حجة كاذبة اخرى قائلين: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا».

والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يَعبأ بالدليل الأول (يعنى التقليد الأعمى للآباء والأسلاف) ولم يعتن به، وإنّما اكتفى بالردّ على الحجة الثانية، أو بالأحرى (التبرير الثانى) حيث قال: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ».

ثم يختم الآية بهذه العبارة: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

«الفحشاء»: هنا هو كل عمل قبيح منكر، ومسألة «الطواف بالبيت عراة» و «اتباع

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٤

القادة والزعماء الظلمة» تعدّ من المصاديق الواضحة لذلك.

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدَى وَ فَرِيقاً حَقَّ

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) بما أنّ الحديث فى الآية السابقة دار حول الفحشاء التى يشمل مفهوماً كل أنواع الفعل القبيح، وتأكّد أنّ اللّه لا يأمر بالفحشاء اطلاقاً لهذا اشير فى هذه الآية إلى أصول ومبادىء التعاليم الإلهية فى مجال الوظائف والواجبات العملية فى جملة قصيرة، ثم تبعه بيان أصول العقائد الدينية، أى المبدأ والمعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أوّلًا: أيها النبى «قُلْ أَمَرَ رَبّى بِالْقِسْطِ» والعدل.

ونحن نعلم أنّ للعدل مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأنّ حقيقة العدل هى استخدام كل شىء فى مجاله، ووضع كل شىء فى محله.

ثمّ إنّه سبحانه أمر بالتوحيد فى العبادة ومحاربة كل ألوان الشرك وأنواعه، إذ قال:

«وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ». أى وجّهوا قلوبكم نحو اللّه الواحد دون سواه «وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ».

وبعد تحكيم وإرساء قاعدة التوحيد، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد والبعث يوم القيامة، إذ قال: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».

إنّ الآية الحاضرة تعكس إحدى أقصر وأجمل التعابير فى مسألة المعاد الجسمانى، إذ تقول: انظروا إلى بداية الخلق، انظروا إلى جسمكم الذى يتكون من مقدار كبير من الماء، ومقدار أقل من المواد المعدنية وشبه المعدنية المختلفة المتنوعة أين كان فى السابق؟ فالمياه المستخدمة فى جسمكم يحتمل أنّ كل قطرة منها كانت سادرة فى محيط من محيطات الأرض ثم تبخّرت وتبدلت إلى السُّحب، ثم نزلت فى شكل قطرات المطر على الأراضى، والذرات التى استخدمت فى نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامدة كانت ذات يوم فى هيئة حبّة قمح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جُمعت من مختلف نقاط الأرض.

وعلى هذا فلا مكان للتعجب والدهشة إذا سمعنا أنّه بعد تلاشى بدن الإنسان ورجوعه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١١٥

إلى حالته الاولى تجتمع تلك الذرات ثانية، وتتواصل وتترابط ويتشكل الجسم الأول، فلو كان هذا الأمر محالًا فلماذا وقع فى مبدأ الخلقة؟!

إذاً «كما بدأكم» اللّه «تعودون» أى يعيدكم فى الآخرة، وهذا هو الموضوع الذى تضمنته العبارة القصيرة.

فى الآية اللاحقة يصف سبحانه ردود الفعل التى أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلى التوحيد والخير والمعاد) فيقول: «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّللَةُ».

ولأجل أن لا يتصور أحد أنّ اللّه يهدى فريقاً أو يضلّ فريقاً من دون سبب، أضاف فى الجملة ما يلى: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ». أى إنّ الضالين هم الذين إختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولاية اللّه، فضلوا.

والعجب أنّه رغم كل ما أصابهم من ضلال وانحراف يحسبون أنّهم المهتدون الحقيقيون «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ».

إنّ هذه الحالة تختص بالذين غرقوا فى الطغيان والمعصية، وفى هذه الحالة اغلقت فى وجوههم كل أبواب الهداية، وهذا هو ما أوجدوه وجلبوه لأنفسهم.

يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) الحديث فى هاتين الآيتين يتناسب مع قصة آدم فى الجنة، وكذلك يتناول مسألة اللباس وسائر مواهب الحياة، وكيفية الاستفادة الصحيحة منها.

فى البداية يأمر جميع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدى، يشمل جميع الأعصار والقرون، أن يتخذوا زينتهم عندما يذهبون إلى المساجد: «يَا بَنِى ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ».

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى كل «زينة جسمانية» مما يشمل لبس الثياب المرتبة الطاهرة الجميلة، وتمشيط الشعر، واستعمال

الطيب والعطر وما شابه ذلك كما يمكن أيضاً أن تكون إشارة إلى كل «زينة معنوية» يعنى الصفات الإنسانية والملكات الأخلاقية، وصدق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۶

النية وطهارتها وإخلاصها. ثمّ فى العبارة اللاحقة يشير سبحانه إلى مواهب اخرى، يعنى الأطعمة والأشربة الطاهرة الطيبة، ويقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا».

ولكن حيث إنّ الإنسان حريص بحكم طبيعته البشرية، يمكن أن يسيء استخدام هذين التعليمين، وبدل أن يستفيد من نعمة اللباس والغذاء الصحيح بالشكل المعقول والمعتدل، يسلك سبيل الإسراف والتبذير والبذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلًا: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

«الإسراف»: كلمة جامعة جدّاً بحيث تشمل كل إفراط فى الكم والكيف، وكذا الأعمال العابثة والإتلاف وما شابه ذلك.

وفى الآية اللاحقة يعمد إلى الردّ- بلهجة أكثر حدّةً- على من يظن أنّ تحريم أنواع الزينة والتزين والإجتناب من الأطعمة الطيبة الحلال علامة الزهد، وسبباً للتقرب إلى اللّه فيقول:

أيّها النبى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ».

ثمّ أضاف للتأكيد: «قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيمَةِ». أى إنّ هذه النعم والمواهب قد خلقت للمؤمنين فى هذه الحياة، وإن كان الآخرون- أيضاً- يستفيدون منها رغم عدم صلاحيتهم لذلك، ولكن فى يوم القيامة حيث الحياة الأعلى والأفضل، وحيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإنّ هذه المواهب والنعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، ويحرم منها الآخرون حرماناً كلياً.

وفى ختام الآية يقول من باب التأكيد: «كَذلِكَ نُفَصّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

لقد اختار الإسلام- كسائر الموارد- حدّ التوسط والإعتدال فى مجال الإنتفاع والاستفادة من أنواع الزينة.

ولم يكتف الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعة والاستفادة من الألبسة الجميلة والمناسبة واستعمال كل أنواع العطور فحسب بل اوصى بذلك وحثّ عليه أيضاً.

توصية صحية هامة: إنّ عبارة «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا» التى جاءت فى الآية الحاضرة، وإن كانت تبدو للنظر أمراً بسيطاً جدّاً، إلّاأنّه ثبت اليوم أنّه واحد من أهم الأوامر والتعاليم الصحية، وذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منبع الكثير من الأمراض والآلام هو الأطعمة الإضافية الزائدة التى تبقى فى بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافية تشكل من جانب عبئاً ثقيلًا على القلب وغيره من أجهزة الجسم، وهى من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۷

جانب آخر منبع مهيّأ لمختلف أنواع العفونات والأمراض.

إنّ العامل الأصل فى وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، والإفراط فى الأكل والبطنة، والطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلّارعاية الإعتدال فى الأكل.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۳۳) لقد شاهدنا مراراً أنّ القرآن الكريم كلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فوراً عن ما يقابله، من الامور القبيحة والمحرمات، ليكمّل كل واحد منهما الآخر.

وهنا أيضاً تحدّث- عقيب السماح بالتمتع والاستفادة من المواهب الإلهية وإباحة كل ما هو زينة وجمال- عن المحرمات على نحو العموم، ثم أشار بصورة خاصة إلى عدة نقاط مهمة.

ففی البدایة تحدث عن تحریم الفواحش وقال: یا أیّها النبی «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ».

«الفواحش»: جمع «فاحشة» وتعنی الأعمال القبیحة البالغة فی القبح والسوء لا جمیع الذنوب، ولعل التأکید علی هذا المطلب (ماظهر منها وما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهلیین کانوا لا یستقبحون عمل الزنا إذا اتی به سرّاً، ویحرّمونه إذا کان ظاهراً مکشوفاً.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع وأشار إلی جمیع الذنوب وقال: «وَالْإِثْمَ». أی کل إثم.

والإثمّ فی الأصل یعنی کل عمل مضر، وکل ما یوجب انحطاط مقام الإنسان وتردّی منزلته، ویمنعه ویحرمه من نیل الثواب والأجر الحسن. وعلی هذا یدخل کل نوع من أنواع الذنوب فی المفهوم الواسع للإثم.

ومرّة اخری یشیر بصورة خاصة إلی عدد من کبریات المعاصی والآثام، فیقول:

«وَالْبَغْیَ بِغَیْرِ الْحَقِّ». أی کل نوع من أنواع الظلم، والتجاوز علی حقوق الآخرین.

«البغی»: یعنی السعی والمحاولة لتحصیل شیء ولکن یراد منه غالباً الجهود المبذولة لغصب حقوق الآخرین، ولهذا یکون مفهومه- فی الغالب- مساویاً لمفهوم الظلم.

ثمّ أشار تعالی إلی مسألة الشرک وقال: «وَأَن تُشْرِکُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا». فهو أیضاً محرّم علیکم.

وآخر ما یؤکّد علیه من المحرمات هو نسبة شیء للّهلایستند إلی علم: «وَأَن تَقُولُوا عَلَی

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۸

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

وَ لِکُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا یَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا یَسْتَقْدِمُونَ (۳۴) لکل امة أجل: فی هذه الآیة یشیر اللَّه تعالی إلی واحدة من سنن الکون والحیاة، أی فناء الامم وزوالها، ویلقی ضوءاً أکثر علی الأبحاث التی تتعلق بحیاة أبناء البشر علی وجه الأرض ومصیر العصاة، التی سبق الحدیث عنها فی الآیات السابقة. فیقول أوّلًا: «وَلِکُلّ أُمَّةٍ أَجَلٌ».

ثم یشیر إلی أنّ هذا الأجل لا یتقدم ولا یتأخر إن جاء «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَایَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا یَسْتَقْدِمُونَ». أی إنّ الامم والشعوب مثل الأفراد، لها موت وحیاة، وأنّ الامم تندثر وینمحی أثرها من علی وجه الأرض، وتحل مکانها امم اخری، وإنّ سنّة الموت وقانون الفناء لا یختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والامم أیضاً، مع فارق وهو أنّ موت الشعوب والأمم یکون- فی الغالب- علی أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال علی الظلم والجور، والإنغماس فی بحار الشهوات، والغرق فی أمواج الإفراط فی التجمل والرفاهیة.

فعندما تسلک الأمم فی العالم هذه المسالک وتنحرف عن سنن الکون وقوانین الخلقة، تفقد مصادرها الحیویة الواحد تلو الآخر، وتسقط فی النهایة.

ویجب الإلتفات إلی أنّ «الساعة» فی اللغة تعنی أصغر وحدة زمنیة، فربّما تکون بمعنی لحظة، وربّما تکون بمعنی أقل قدر من الزمن.

یَا بَنِی آدَمَ إِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیَاتِی فَمَنِ اتَّقَی وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لَا هُمْ یَحْزَنُونَ (۳۵) وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا وَ اسْتَکْبَرُوا عَنْهَا أُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ (۳۶) تعلیم آخر لأبناء آدم: مرّة اخری یخاطب اللَّه سبحانه أبناء آدم وذریته، إذ یقول: «یَا بَنِی ءَادَمَ إِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مّنکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ ءَایتِی فَمَنِ اتَّقَی وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَلَا هُمْ یَحْزَنُونَ». أی إذا أتتکم رسلی یتلون علیکم آیاتی فاتبعوهم، لأنّ من اتقی منکم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۹

واتبعهم وأصلح نفسه والآخرین کان فی أمن من عذاب اللَّه الألیم، فلا یخاف ولا یحزن.

وفی الآیة اللاحقة یضیف سبحانه وتعالی قائلًا: «وَالَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا وَاسْتَکْبَرُوا عَنْهَا أُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِیهَا خَالِدُونَ».

فتلک عاقبة المؤمنین، وهذه عاقبة المکذبین لهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أولئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) من هذه الآية فما بعد تتضمن الآيات بيان أقسام مختلفة من المصير السيء الذى ينتظر المفترين والمكذبين لآيات اللَّه تعالى، وفى البداية تشير إلى كيفية حالهم عند الموت، إذ تقول: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

ثمّ إنّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: «أُولئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ». أى إنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم وما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفة، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، وانتهوا إلى آجالهم النهائية، حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

وعلى كل حال، فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظة حلول الموت، ففى البداية يواجهون التوبيخ وعتاب الملائكة المكلفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم التى اتخذتموها من دون اللَّه والتى طالما تحدثتم عنها، وكنتم تسوقون إليها ثرواتكم سفهاً. «قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كل شيء، ويرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئة حول آلهتهموذهبت أدراجالرياح، قائلين: لانرى منها أثراً وإنّها لا تملك أن تدافع عنّا، وإنّ جميع ما فعلناه من العبادة لها كان عبثاً وباطلًا: «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا».

وهكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر والضلال: «وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ». أى فى حين أغلق فى وجههم طريق العودة، وهذا هو أوّل سوط جهنمى من سياط العقوبة الإلهية التى تتعرض لها أرواحهم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٢٠

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَ قَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) تنازع القادة والاتباع فى جهنم: فى هذه الآية يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات اللَّه، وقد صوّرت لنا الآيات السابقة وضعهم عند حلول الموت، وسؤال الملائكة القابضة للأرواح لهم، وهنا يرسم لنا ما يجرى بين الجماعات المظلة والغاوية، وبين من تعرضوا للإغواء فى يوم القيامة. ففى يوم القيامة يقول اللَّه لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن والإنس ممن سبقوكم، وذوقوا نفس مصيرهم النار «قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مّنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ».

وعندما يدخل الجميع فى النار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم وأشباههم فى المسلك، وهى مصادمات عجيبة، فكلما دخلت جماعة منهم فى النار لعنت الاخرى واعتبرتها سبباً لشقائها ومسؤولة عن بلائها ومحنتها «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا» «١».

ففى البداية يبدأ المخدوعون المغرّر بهم بعرض شكايتهم، وحيث إنّهم لا يجدون مناصاً ممّا هم فيه يقولون: ربّنا إنّ هؤلاء المغوين هم الذين أضلونا وخدعونا، فضاعف يا ربّ عذابهم، عذاباً لضلالهم وعذاباً لإضلالهم إيّانا، وهذا هو ما يتضمنه قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيهُمْ لِأُولَيهُمْ رَبَّنَا هؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مّنَ النَّارِ».

ولكن العجيب هو أن يقال لهم فى معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكلتا الطائفتين ضعفان من العذاب وليس للمضلين فقط «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِن لَّاتَعْلَمُونَ».

وفى الآية اللاحقة ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضلال والانحراف بأنّه ليس بيننا وبينكم أى تفاوت، فإذا قلنا فقد أيّدتم، وإذا خطونا فقد ساعدتم، وإذا ظلمنا فقد عاونتم،

---

(۱) التعبير بالاخت كناية عن الإرتباط الفكرى والصلة الرّوحية بين هذه الفرق المنحرفة، وحيث إنّ الامّة مؤنث لفظى، لهذا عبّر عنها بالاخت، لا الأخ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۱

وإذن فذوقوا بإزاء أعمالكم عذاب اللّه الأليم «وَقَالَتْ أُولهُمْ لِأُخْرَيهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ (۴۰) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۴۱) مرّة اخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين والمعاندين، يعنى اولئك الذين لا يخضعون لآيات اللّه ولا يستسلمون للحق، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها. وأمّا الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجّين وهو واد بحضرموت يقال له برهوت».

ثمّ أضاف قائلًا: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمّ الْخِيَاطِ».

إنّ هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر، حتى لا يشك أحد فى عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنة مطلقاً.

وفى خاتمة الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد والتوضيح قائلًا: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلمة إذ يقول: «لَهُم مّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» (۱).

ثم يضيف للتأكيد: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ».

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۴۲) وَ نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهذَا وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳)

---

(۱) «المهاد»: جمع مهد وزان عهد أى الفرش؛ و «الغواش»: فى الاصل غواشى جمع غاشية بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۲

ولقد كان البحث فى الآيات السابقة حول المكذبين لآيات اللّه، والمستكبرين والظالمين، وهنا يشرح ويبين المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وقد أتى بين المبتدأ والخبر بجملة معترضة توضّح الكثير من الإبهامات إذ يقول: «لَا نُكَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وهذه الجملة تؤكّد بأنّه لا ينبغى لأحد أن يتصور بأنّ الإيمان باللّه، والإتيان بالعمل الصالح وسلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلّالأفراد معدودين، لأنّ التكاليف الإلهية فى حدود الطاقة البشرية وليست أكثر منها.

إنّ هذه الآية- مثل سائر الآيات القرآنية- تحصر وسيلة النجاة والسعادة الأبدية فى الإيمان والعمل الصالح، وهكذا تفنّد العقيدة النصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح فى مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، ويقولون: إنّه قربان لخطايا الإنسانية.

إنّ إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان والعمل الصالح، فى الآيات المختلفة لتفنيد هذه المقولة وأمثالها.

وفى الآية اللاحقة أشار تعالى إلى واحدة من أهم النعم التى أعطاها اللّه سبحانه لأهل الجنة، والتى تكون سبباً لطمأنينتهم النفسية وسكنتهم الروحية، إذ قال: «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ».

«الغِل»: فى الأصل بمعنى نفوذ الشيء خفيّة وسرّاً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذى يتسلّل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية

(الغل).

وإنّ من أكبر عوامل الشقاء التی یعانی منها الناس فی هذه الحیاة، ومصدر الكثیر من الصراعات الاجتماعیة الواسعة التی تؤدّی- مضافاً إلی الخسائر الفادحة فی المال والنفس- إلی زعزعة الاستقرار الروحی، هو الحسد والحقد.

إنّ أهل الجنة معافون من هذه الشقاوات والمحن بالكلیة، لأنّهم لا یتصفون بهذه الصفات القبیحة، إنّهم یعیشون معاً فی منتهی التواد والتحابب والصفاء والسكینة، ولهذا راضون عن وضعهم الذی هم فیه.

وبعد ذكر هذه النعمة الروحانیة، یشیر القرآن الكریم إلی نعمهم المادیة الجسدیة، فیقول:

«تَجْرِی مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ».

ثم یعكس رضی أهل الجنة الكامل الشامل الذی یعبرون عنه بالحمد والشكر للّهوحده

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۳

علی ما هداهم إلیه من النعم «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی هَدَینَا لِهذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِیَ لَوْلَا أَنْ هَدَینَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ».

وهنا یأتیهم النداء بأنّ ما ورثتموه من النعم إنّما هو بسبب أعمالكم: «وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وَ نَادَی أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ (۴۴) الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ یَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (۴۵) بعد البحث فی الآیات السابقة حول مصیر أهل الجنة وأهل النار، أشار هنا إلی حوار هذین الفریقین فی ذلك العالم، ویستفاد من ذلك أنّ أهل الجنة وأهل النار یتحادثون بینهم وهم فی مواقعهم فی الجنة أو النار، فیقول أوّلًا: «وَنَادَی أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا».

فیجیبهم أهل النار قائلین: نعم وجدنا كل ذلك، عین الحقیقة «قَالُوا نَعَمْ».

ثم یضیف تعالی بأنّه فی هذا الوقت بالذات ینادی مناد بنداء یسمعه الجمیع: أن لعنة اللّه علی الظالمین «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ».

ثم یعرّف الظالمین ویصفهم بقوله: «الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَن سَبِیلِ اللَّهِ وَیَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ» «۱».

جاء فی الأحادیث الإسلامیة المفسرة والموضّحة لهذه الآیة، تفسیر المؤذّن بأمیر المؤمنین علی علیه السلام.

فی تفسیر مجمع البیان: روی الحاكم أبو القاسم الحسكانی بإسناده عن محمّد بن الحنفیة عن علی علیه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذّن».

و بإسناده عن ابن عباس: إنّ لعلیّ علیه السلام فی كتاب اللّه أسماء لا یعرفها الناس، قوله «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ» فهو المؤذن بینهم، یقول: «ألا لعنة اللّه علی الذین كذّبوا بولایتی واستخفّوا بحقی».

---

(۱) «یبغونها عوجاً»: بمعنی یطلبونها عوجاً، أی أنّهم یرغبون ویجتهدون فی أن یضلّوا الناس بإلقاء الشبهات والدعایات المسموعة عن الطریق المستقیم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۴

وَ بَیْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَی الْأَعْرَافِ رِجَالٌ یَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِیمَاهُمْ وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَیْكُمْ لَمْ یَدْخُلُوهَا وَ هُمْ یَطْمَعُونَ (۴۶) وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۴۷) وَ نَادَی أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا یَعْرِفُونَهُمْ بِسِیمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَی عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (۴۸) أَ هؤُلَاءِ الَّذِینَ أَقْسَمْتُمْ لَا یَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَیْكُمْ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۴۹) الأعراف معبر مهم إلی الجنة: عقیب الآیات السابقة التی بیّنت جانباً من قصة أهل الجنة وأهل النار، تحدث فی هذه

الآيات حول «الأعراف» التى هى منطقة فى الحد الفاصل بين الجنة والنار مع خصوصياتها، وفى البداية يشير إلى الحجاب الذى أقيم بين أهل الجنة وأهل النار، إذ يقول: «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ».

ويستفاد من الآيات اللاحقة أنّ الحجاب المذكور هو «الأعراف» وهو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤية كل فريق الفريق الآخر، ولكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر ونداءه، كما مرّ فى الآيات السابقة، على أنّ الذين يقفون على الأعراف، أى على الأقسام المرتفعة من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يقول: «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ». يرون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار ويعرفونهم بملامح وجوههم.

ثم يقول: إنّ هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنة ويسلّمون عليهم، ولكنهم لا يدخلون الجنة وإن كانوا يرغبون فى ذلك «وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

ولكن عندما ينظرون إلى الطرف الآخر ويشاهدون أهل النار يصطلون فيها، يتضرعون إلى اللَّه طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين: «وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يضيف: إنّ أصحاب الأعراف ينادون فريقاً من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم ويلومونهم قائلين: أمّا ترون أنّ جمعكم للأموال والأفراد والتجبّر والتكبر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئاً، فأين تلك الأموال واولئك الأعوان؟ وماذا حصدتم

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۲۵

من تلك المواقف والصفات السيئة؟! «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ».

ومرّة اخرى يقولون موبّخين ومعاتبين، وهم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: «أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ».

وفى المآل تشمل الرحمة الإلهية هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، ويقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

يستفاد من مجموع الآيات والروايات أنّ الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنة والسعادة الأبدية.

ومن الطبيعى أنّ الأقوياء الصالحين والطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أمّا الضعفاء الذى خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعى أيضاً أن تقف قيادات الجموع وسادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسكريين الذين يمشون فى مثل هذه الحالات فى مؤخرة جيوشهم ليعبر الجميع، يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاة ببركة مساعدتهم ومعونتهم ونجدتهم.

وعلى هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان والمتورطون فى الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمة، والأئمة السادة (يعنى الأنبياء والأئمة والصلحاء) الذين يساعدون الضعفاء فى جميع الأحوال.

وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (۵۰) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذَا وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (۵۱) نِعم الجنة حرام على أهل النار: بعد أن استقر كل من أهل الجنة وأهل النار فى أماكنهم ومنازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجتها العقوبة الروحية والمعنوية لأهل النار، وفى البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النار: «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۲۶

الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ». فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشىء من الماء أو من نِعم الجنة.

ولكن أهل الجنة يبادرون إلى رفض هذا المطلب «قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ».

بحثان

١- إنّ عبارة «مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» التى هى عبارة مجملة، وتتسم بالإبهام، تفيد أنّه حتى أهل النار لا يمكنهم أن يعرفوا بشيء من حقيقة النعم الموجودة فى الجنة وأنواعها. وهذا الموضوع يتفق وينسجم مع بعض الأحاديث التى تقول: (إنّ فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

ثمّ إنّ عطف الجملة ب «أو» يشير إلى أنّ النعم الاخروية الاخرى وخاصة الفواكه يمكنها أن تحلّ محل الماء وتطفيء عطش الإنسان.

٢- إنّ عبارة «حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ» إشارة إلى أنّ أهل الجنة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شيء من هذه النعم لأهل النار، لأنّه لا يقلّ منها شيء بسبب الإعطاء، ولا أنّهم يحملون حقداً أو ضغينة على أحد فى صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، ولكن وضع أهل النار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنة.

إنّ هذا الحرمان نوع من «الحرمان التكوينى» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

فى الآية اللاحقة يبيّن سبب حرمانهم، بذكر صفات أهل النار وأنّ أهل هذا المصير الأسود هم الذين أوقعوا أنفسهم فيه فيقول أوّلًا: إنّ هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعباً «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا».

وهذا إلى جانب أنّهم خدعتهم الدنيا واغتروا بها «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

إنّ هذه الامور سببت فى أن يغرقوا فى وحل الشهوات، وينسوا كل شيء حتى الآخرة، وينكروا أقوال الأنبياء، ويكذبوا بالآيات الإلهية، ولهذا أضاف قائلًا: «فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذَا وَمَا كَانُوا بَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

كما أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ أوّل مرحلة من مراحل الإنحراف والضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياه المصيرية بمأخِذ الجدّ، بل يتعامل معها معاملة المتسلّى والهازل، فتؤدّى به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، وإنكار جميع الحقائق.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٧

وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) هذه الآية إشارة إلى أنّ حرمان الكفّار ومصيرهم المشؤوم إنّما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم وإلّا فليس هناك من جانب اللَّه أى تقصير فى هدايتهم وقيادتهم وإبلاغ الآيات إليهم وبيان الدروس التربوية لهم لهذا يقول تعالى: إنّنا لم نألُ جهداً ولم ندخر شيئاً فى مجال الهداية والإرشاد، بل أرسلنا لهم كتاباً شرحنا فيه كل شيء بحكمة ودراية: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَهُ عَلَى عِلْمٍ».

وهو كتاب فيه رحمة وهداية، لا للمعاندين الأنانيين، بل للمؤمنين: «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة فى تفكير العصاة والمنحرفين فى صعيد الهداية الإلهية فيقول: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ». أى كأنّ هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد والوعيد الإلهى بعيونهم (أى يروا أهل الجنّة وهم فيها، وأهل النار وهم فيها) حتى يؤمنوا.

ولكنّه توقّع سخيف، لأنّه عندما تُترجم الوعود الإلهية على صعيد الواقع ينتهى الامر، ولم يعد هناك مجال للرجوع ولا طريق للعودة، وهناك سيعترفون بأنّهم قد تناسوا كتاب اللَّه وتجاهلوا التعاليم الإلهية التى أنزلها على رسله بالحق، وكان قولهم حقّاً أيضاً: «يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقّ».

سيغرقون فى هذا الوقت فى قلق واضطراب، ويفكرون فى مخلّص ينقذهم من هذه المشكلة ويقولون: «فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا».

وإذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إنّنا لا نصلح أساساً للشفاعة، أفلا يمكن أن نرجع إلى الدنيا ونقوم بأعمال غير ما عملناه سابقاً، ونسلّم للحق والحقيقة «أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ».

ولكن هذا التنبيه جاء متأخراً جداً، فلا طريق للعودة ولا صلاحية لهم للشفاعة لأنّهم

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٢٨

قد خسروا كل رؤوس أموالهم وتورطوا فى خسران جميع وجودهم «قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ».

وسوف يثبت لهم أنّ أصنامهم ومعبوداتهم ليس لها أى دور هناك، وفى الحقيقة ضاعت- فى نظرهم- جميعاً «وَضَلَّ عَنْهُم مَّاكَانُوا يَفْتَرُونَ». من هذه الآية يستفاد أوّلًا: أنّ الإنسان حرّ مختار فى أعماله، وإلّا لما طلب العودة والرجوع إلى الدنيا لجبران ما فات، و ثانياً: إنّ العالم الآخر ليس مكان العمل واكتساب الفضائل والنجاة.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۵۴) هذه الآية تصف المعبود الحقيقى مع ذكر صفاته الخاصة حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقة وينشدونها أن يعرفوه بوضوح فى هذا العالم وقبل حلول يوم القيامة، ويبدأ حديثه هذا بقوله: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّام». أى أنّ المعبود لا يمكن أن يكون إلّامن كان خالقاً.

هل خلق العالم فى ستة أيام؟ نظراً إلى المفهوم الواسع للفظة «يوم» وما يعادلها فى مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحاً، لأنّه كثيراً ما يستعمل اليوم بمعنى الدورة. على هذا الأساس أنّ اللَّه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض فى ست دورات متوالية، وإن استغرقت كل دورة من هذه الدورات ملايين أو مليارات السنين، والعلم الحديث لم يبيّن أى أمر يخالف هذا الموضوع.

ثمّ يقول القرآن الكريم: إنّ اللَّه تعالى بعد خلق السماوات والأرض أخذ زمام إدارتها بيده (أى ليس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة والتدبير أيضاً) فقال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».

وهذا جواب لمن يعتقد أنّ الكون محتاج إلى اللَّه تعالى فى الخلق والإيجاد دون البقاء.

«العرش»: فى اللغة هو ما له سقف، وقد يطلق العرش على نفس السقف، وربّما يأتى بمعنى الأسرة الكبيرة المرتفعة، ولكن عندما ينسب إلى اللَّه سبحانه وتعالى ويقال: عرش اللَّه، يراد منه مجموعة عالم الوجود، الذى يعدّ فى الحقيقة سرير حكومة اللَّه تعالى.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٢٩

وعلى هذا تكون عبارة «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» كناية عن الإحاطة الكاملة للَّه‌تعالى وسيطرته على تدبير أمور الكون- سماءاً وأرضاً- بعد خلقها.

ثم يقول بأنّه تعالى هو الذى يلقى بالليل- كغشاء- على النهار، ويستر ضوء النهار بالأستار المظلمة «يُغْشِى الَّيلَ النَّهَارَ».

ثم يضيف بعد ذلك قائلًا: إنّ الليل يطلب النهار طلباً حثيثاً «يَطْلُبُهُ حَثِيثًا».

ثم يضيف تعالى أنّه هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم، خاضعة لأمره بعد خلقها:

«وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ».

ثم بعد ذكر خلق العالم ونظام الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال مؤكّداً:

اعلموا أنّ خلق الكون وتدبير اموره كله بيده سبحانه دون سواه «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ».

إنّ المراد من «الخلق» هو الخلق والإيجاد الأوّل. والمراد من «الأمر» هو السنن والقوانين الحاكمة على عالم الوجود بأسره بأمر اللَّه تعالى، والتى تقود الكون فى مسيره المرسوم له. أى إنّ العالم كما يحتاج فى حدوثه إلى اللَّه، كذلك يحتاج فى تدبيره واستمرار حياته وإدارة شؤونه إلى اللَّه، ولو أنّ اللَّه صرف عنايته ولطفه عن الكون لحظة واحدة لتبدد النظام وانهار وانهدم بصورة كاملة.

ثمّ فى ختام الآية يقول: «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

إنّ هذه الجملة- بعد ذكر خلق وتدبير عالم الوجود- نوع من الثناء على الذات الربوبية المقدسة.

فهو وجود مبارك أزلى أبدى، وهو بالتالى منشأ جميع البركات والخيرات، ومنبع الخير المستمر «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۵۵) وَ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) شـروط اسـتجابة الدعاء: لقد أثبتت الآية السابقة- فى ضوء ما أقيم من برهان واضح- هذه الحقيقة، وهى أنّ الذى يستحق العبادة فقط هو اللَّه، وفى عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۰

الذى هو مخ العبادة وروحها، يقول أوّلًا: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً».

«التضـرع»: فى الأصل من مادة «ضَـرْع» بمعنى الثدى، وعلى هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع، وحيث إنّه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمة الثدى من جهاتها المختلفة استـداراً للحليب، لهذا اسـتعملت هذه الكلمة فى من يظهر حركات خاصة إظهـاراً للخضوع والتواضع. وعلى هـذا فإنّ الآيـة المبحوثـة، وعبارة «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَـرُّعًا» تحثّنا على أن نقبل على اللَّه بمنتهى الخضوع والخشوع والتواضع، بل يجب أن تنعكس روح الدعاء فى أعماق روح الإنسان، وعلى جميع أبعاد وجوده.

وأمره تعالى بأن يدعى اللَّه «خفيةً» وفى السّر، لأنّه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأجل أن يكون الدعاء مقروناً بتمركز الفكر وحضور القلب.

ثمّ قال تعالى فى ختام الآية: «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ». أى إنّ اللَّه لا يحب المعتدين.

ولهـذه العبارة معنى وسـيع يشـمل كل نوع من أنواع العـدوان والتجاوز، سواء الصـراخ ورفع الصوت عالياً جداً حين الدعاء، أو التظاهر وممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير اللَّه حين الدعاء.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو فى الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَحِهَا».

ولهذا فلا تستجاب أدعية المفسدين والعصاة، ولا تنتهى إلى أية نتيجة مرجوّة.

والمراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما.

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّ الأرض كانت فاسدة فأصلحها اللَّه بنبيّه صلى الله عليه و آله».

ومرّة اخرى يعود إلى مسألة الدعاء ويذكر شـرطاً آخر من شرائطه فيقول: «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا». أى لا تكونوا راضين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنّه لا توجـد فى حياتكم أيّـة نقطة سوداء، إذ إنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر والسـقوط، كما لا تكونوا يائسـين إلى درجة أنّكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهى ولإجابة الدعاء، إذ إنّ هذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۱

اليـأس والقنوط هو الآخر سـبب لإنطفاء شـعلة السـعى والإجتهاد، بل لابـدّ أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحى (الخوف) و (الأمل) الخوف من المسؤوليات والعثرات، والأمل برحمته ولطفه.

وفى خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهية: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ».

هذه الآيات قد تضمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء وإجابته، وهى باختصار كالتالى:

۱- أن يكون الدعاء عن تضرع وخفية.

۲- أن لا يتجاوز حد الإعتدال.

۳- أن لا يكون مقروناً بالإفساد والمعصية.

۴- أن يكون مقروناً بالخوف والامل المعتدلين.

۵- أن يكون مقروناً بالبرّ والإحسان، وفعل الخيرات.

وَ هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْـراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَـحَاباً ثِقَالًا سُـقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۵۷) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (۵۸) لابد من المربى والقابلية: فى الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أى التوحيد ومعرفة اللَّه، من

خلال الوقوف على أسرار الكون، وفى هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النعم الإلهية وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» والبعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

وهذه هى سيرة القرآن الكريم ودأبه فى كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و «المعاد»، والملفت للنظر أنّه يستعين لمعرفة اللّه، وكذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معاً بالاستدلال بالأسرار الكامنة فى خلق موجودات هذا العالم، فيقول تعالى أوّلًا: «وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٢

ثمّ يقول: إنّ هذه الرياح التى تهب من المحيطات تحمل معها سحباً ثقيلة مشبّعة بالماء «حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا».

ثم يسوق تلك السحب إلى الأراضى الظامئة اليابسة، ويكلّفها بأن تروى تلك الأراضى العطاشى «سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ».

وبذلك ينهمر ماء الحياة فى كل مكان «فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ».

وبمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعاً متنوعة من الثمار والفواكة «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ثم عقيب ذلك يضيف: «كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ونلبسهم حلّة الوجود والحياة مرّة اخرى.

ولقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم انموذجاً من المعاد فى هذه الدنيا، الذى يتكرر أمام عيونكم كل يوم «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وفى الآية اللاحقة- وحتى لا يظن أحد أنّ نزول المطر على نمط واحد يدل على أنّ جميع الأراضى تصير حيّة على نمط واحداً أيضاً، وحتى يتّضح أنّ القابليات والإستعدادات المتفاوتة تسبّبت فى أن تتفاوت حالات الاستفادة والإنتفاع بالمواهب الإلهية يقول:

«وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ». أى إنّ الأرض الصالحة هى التى تستفيد من المطر، وتثمر خير إثمار بإذن ربّها.

أمّا الأراضى السبخة والخبيثة فلا تثمر إلّابعض الأعشاب غير النافعة «وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» «١».

ثمّ فى ختام الآية يقول تعالى: إنّ هذه الآيات نبيّنها لمن يشكرونها، ويستفيدون من عِبَرها ومداليلها، ويسلكون فى ضوئها سبيل الهداية «كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».

إنّ الآية الحاضرة إشارة إلى مسألة مهمّة وهى أنّ فاعلية الفاعل وحدها لا تكفى للإثمار والإنتاج الصحيح المطلوب، بل لابدّ من «قابلية القابل» فهى شرط للتأثير والإثمار.

---

(١) «النّكد»: هو البخيل الممسك الذى يتعذر أخذ شيء منه بسهولة، ولو أنّه أعطى لأعطى الشيء اليسير الحقير. ولقد شبهت الأراضى المالحة السبخة غير المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٣

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَ لكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤) رسالة نوح أوّل الرسل من أولى العزم: قد وردت قصة نوح فى سور قرآنية متعددة، مثل سورة هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، لكن هنا اكتفى بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هى: يقول أوّلًا: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ».

إنّ أوّل شىء ذكّرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، ونفى أىّ نوع من أنواع الوثنية «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وبعد أن أيقظ نوح ضمائرهم وفطرتهم الغافية، حذّرهم من مغبة الوثنية وعاقبتها المؤلمة إذ قال: «إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

والمراد من «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، كما ويمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهية فى يوم القيامة.

ولكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النبى العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير والنفع لهم، فينضوون تحت راية التوحيد ويكفون عن الظلم والفساد، قال جماعة من الأعيان والأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على مصالحهم بسبب يقظة الناس وانتباههم، ويرون الدين مانعاً من عبثهم ومجونهم وشهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة وقحة: نحن نراك فى ضلال واضح «قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيكَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

ولقد جابه نوح عليه السلام تعنتهم وخشونتهم بلحن هادىء ولهجة متينة تطفح بالمحبّة والرحمة،

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٣٤

فقال فى معرض الردّ عليهم: أنا لست بضال، بل ليست فىّ أية علامة للضلال، ولكنى مرسل من اللّه «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَللَةٌ وَلكِنّى رَسُولٌ مّن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

وهذه إشارة إلى أنّ الأرباب التى تعبدوها كلها لا- أساس لها من الصحة، ورب العالمين ما هو إلّااللّه الواحد الذى خلقها جميعاً وأوجدها من العدم. ثمّ إنّ هدفى إنّما هو إبلاغ ما حمّلت من رسالة «أُبَلّغُكُمْ رِسلتِ رَبّى».

ولن آلو جهداً فى تقديم النصح لكم، وقصد نفعكم، وإيصال الخير إليكم «وَأَنصَحُ لَكُمْ».

ثمّ أضاف تعالى: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

إنّ هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد فى مقابل معارضاتهم ومخالفتهم، وكأنّه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا تعلمون شيئاً عنها، أو تكون إشارة إلى لطف اللّه ورحمته، وتعنى أنّكم إذا أطعتم اللّه، وكففتم عن تعنتكم، فإنّى أعلم مثوبات عظيمة لكم لا تعلمونها ولم تقفوا لحد الآن على سعتها.

وفى الآية اللاحقة نقرأ لنوح كلاماً آخر قاله فى مقابل استغراب قومه من أنّه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملًا لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإلهية، إذ قال: «أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مّن رَّبّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

يعنى: أىّ شىء فى هذه القضية يدعو إلى الإستغراب والتعجب، لأنّ الانسان الصالح هو الذى يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أى كائن آخر.

ولكن بدل أن يقبلوا دعوة مثل هذا القائد المخلص الواعى فقد كذّبه الجميع، فأرسل اللّه عليهم طوفاناً فغرق المكذبون ونجا فى السفينة نوح ومن آمن «فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا».

وفى خاتمة الآية ذكر دليل هذه العقوبة الصعبة، وأنّه عمى القلب الذى منعهم عن رؤية الحق، وأتباعه «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ» «١».

---

(١) «عمين»: جمع عمى، وهو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهرى، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٣٥

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَ لكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکَمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ (۷۱) فَأَنْجَیْنَاهُ وَ الَّذِینَ مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا وَ مَا کَانُوا مُؤْمِنِینَ (۷۲) لمحهٔ عن قصهٔ قوم هود: عقیب ذکر رسالهٔ نوح والدروس الغنیهٔ بالعبر الکامنهٔ فیها، عمد القرآن الکریم إلی إعطاء لمحهٔ سریعهٔ عن قصهٔ نبی آخر من الأنبیاء العظام، وهو النبی هود علیه السلام وذکر ما جری بینه وبین قومه. یقول تعالی أوّلًا: ولقد أرسلنا إلی قوم عاد أخاهم هوداً «وَإِلَی عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا».

وقوم «عاد» کانوا امهٔ تعیش فی أرض «الیمن» وکانت امهٔ قویهٔ من حیث المقدرهٔ البدنیهٔ والثروهٔ الوافرهٔ التی کانت تصل إلیهم عن طریق الزراعهٔ والرعی، ولکنها کانت متخمهٔ بالانحرافات الإعتقادیهٔ وبخاصهٔ الوثنیهٔ والمفاسد الأخلاقیهٔ المتفشیهٔ بینهم.

وقد کُلّف «هود» الذی کان منهم- وکان یرتبط بهم بوشیجهٔ القربی- من جانب اللّه بأن یدعوهم إلی الحق ومکافحهٔ الفساد، ولعل التعبیر ب «أخاهم» إشارهٔ إلی هذه الوشیجهٔ النسبیهٔ بین هود وقوم عاد.

ثمّ إنّه یحتمل أیضاً أن یکون التعبیر ب «الأخ» فی شأن النبی هود، وکذا فی شأن عدّهٔ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۶

أشخاص آخرین من الأنبیاء الإلهیین مثل نوح علیه السلام (سورهٔ الشعراء، الآیهٔ ۱۰۶) وصالح (سورهٔ الشعراء، الآیهٔ ۱۴۲) ولوط (سورهٔ الشعراء، الآیهٔ ۱۶۱) وشعیب (سورهٔ الأعراف، الآیهٔ ۸۵) إنّما هو لأجل أنّهم کانوا یتعاملون مع قومهم فی منتهی الرحمهٔ، والمحبهٔ مثل أخ حمیم، ولا یألون جهداً فی إرشادهم وهدایتهم ودعوتهم إلی الخیر والصلاح.

ثم یذکر تعالی أنّ هود شرع فی دعوته فی مسألهٔ التوحید ومکافحهٔ الشرک والوثنیهٔ:

«قَالَ یَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَکُم مّنْ إِلهٍ غَیْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

ولکن هذه الجماعهٔ الأنانیهٔ المستکبرهٔ، وبخاصهٔ أغنیاؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، والذین یعبّر عنهم القرآن بلفظهٔ «الملأ» باعتبار أنّ ظاهرهم یملأ العیون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح علیه السلام: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَیکَ فِی سَفَاهَهٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّکَ مِنَ الْکَاذِبِینَ».

ولکن هوداً- وهو یتحلی بالوقار والمتانهٔ التی یتحلی بها الأنبیاء والهداهٔ الصادقون الطاهرون- من دون أن ینتابه غضب، أو تعتریه حالهٔ یأس «قَالَ یَا قَوْمِ لَیْسَ بِی سَفَاهَهٌ وَلکِنّی رَسُولٌ مِّن رَّبّ الْعَالَمِینَ».

ثم إنّ هوداً أضاف: إنّ مهمته هی إبلاغ رسالات اللّه إلیهم، وإرشادهم إلی ما فیه سعادتهم وخیرهم، وانقاذهم من ورطهٔ الشرک والفساد، کل ذلک مع کامل الإخلاص والنصح والأمانهٔ والصدق «أُبَلّغُکُمْ رِسلتِ رَبّی وَأَنَا لَکُمْ نَاصِحٌ أَمِینٌ».

ثم إنّ هوداً أشار- فی معرض الردّ علی من تعجب من أن یبعث اللّه بشراً رسولًا- إلی نفس مقولهٔ نوح النبی لقومه: «أَوَعَجِبْتُمْ أن جَاءَکُمْ ذِکْرٌ مّن رَّبّکُمْ عَلَی رَجُلٍ مّنکُمْ لِیُنذِرَکُمْ».

أی هل تعجبون من أن یرسل اللّه رجلًا من البشر نبیاً، لیحذرکم من مغبهٔ أعمالکم، وما ینتظرکم من العقوبات فی مستقبلکم؟

ثم إنّه إستثارهٔ لعواطفهم الغافیهٔ، وإثارهٔ لروح الشکر فی نفوسهم، ذکر قسماً من النعم التی أنعم اللّه تعالی بها علیهم، فقال: «وَاذْکُرُوا إِذ جَعَلَکُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ»، فقد ورثتم الأرض بکل ما فیها من خیرات عظیمهٔ بعد أن هلک قوم نوح بالطوفان بسبب طغیانهم وبادوا.

ولم تکن هذه هی النعمهٔ الوحیدهٔ، بل وهب لکم قوّهٔ جسدیهٔ عظیمهٔ «وَزَادَکُمْ فِی الْخَلْقِ بَصْطَهً».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۷

وفی خاتمهٔ الآیهٔ یذکّر تلک الجماعهٔ الأنانیّهٔ بأن یتذکروا نعم اللّه لتستیقظ فیهم روح الشکر فیخضعوا لأوامره، علّهم یفلحون «فَاذْکُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ».

ولکن فی مقابل جمیع المواعظ والإرشادات المنطقیهٔ، والتذکیر بنعم اللّه ومواهبه، انبرت تلک الثلهٔ من الناس الذین کانوا یرون

مكاسبهم المادية فى خطر، وقبول دعوة النبى تصدّهم عن التمادى فى أهوائهم وشهواتهم، انبرت إلى المعارضة، وقالوا بصراحة: إنّك جئت تدعونا إلى عبادة اللَّه وحده وترك ما كان أسلافنا يعبدون دهراً طويلًا، كلّا، لا يمكن هذا بحال «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا».

وفى النهاية، ولأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماماً، ويقولوا كلمتهم الأخيرة قالوا: إذا كان حقاً وواقعاً ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أى إنّنا لا نخشى تهديداتك أبداً «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

وعندما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، وأطلق اولئك المتعنتون كلمتهم الأخيرة الكاشفة عن رفضهم الكامل لدعوة هود، وأيس هود- هو الآخر- من هدايتهم تماماً، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحلّ عليكم عذاب ربّكم «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ».

يعنى أنّكم قد غرقتم فى دوّامة الانحراف والفساد إلى درجة أنّ روحكم قد دفنت تحت اوزار كثيفة من النجاسات، وبذلك استوجبتم غضب اللَّه، وشملكم سخطه.

ثم لأجل أن لا يبقى منطق عبادة الاوثان من دون ردّ أضاف قائلًا: «أَتُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ». فهذه الاصنام التى صنعتموها انتم وآباؤكم ليس لها من الالوهية الّا اسم فارغ وضعها أسلافكم كذباً وزوراً، ثم وجئتم تجادلوننى فى عبادتها فى حين لم ينزل بذلك أى دليل من جانب اللَّه.

ثم قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعاً، انتظروا أنتم أن تنفعكم أصنامكم ومعبوداتكم وتنصركم، وأنتظر أنا أن يحلّ بكم غضب اللَّه وعذابه الأليم جزاء تعنتكم، وسيكشف المستقبل أى واحد من هذين الإنتظارين هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع «فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ».

وفى نهاية الآية بيّن القرآن مصير هؤلاء القوم المتعنتين فى عبارة قصيرة موجزة:

«فَأَنجَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۸

أجل، لقد أنجى اللَّه هوداً ومن اتبعه من القوم بلطفه ورحمته، وأمّا الذين كذبوا بآيات اللَّه، ورفضوا الإنضواء تحت لواء دعوته، والإنصياع للحق، فقد أبيدوا نهائياً. «دابر»: فى اللغة بمعنى آخر الشيء ومؤخرته، وبناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية:

أنّنا أبدنا هؤلاء القوم إبادة كاملة واستأصلنا شأفتهم.

وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۳) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۷۴) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۷۵) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۷۶) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷۷) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۷۸) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (۷۹) قصة قوم صالح وما فيها من عبر: فى هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النبى الإلهى العظيم فى قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز والشام، وبهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعبر حول قوم نوح وهود، فيقول تعالى فى البداية: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا».

ولقد كانت أوّل خطوة خطاها نبيهم صالح فى سبيل هدايتهم، هى الدعوة إلى التوحيد،

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۹

وعبادة اللَّه الواحد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ثمّ أضاف: إنّه لا يقول شيئاً من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم ببيّنة من ربهم «قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً».

ثمّ إنّه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل فى أرض اللّه ولا تمنعوها «فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ثم يقول فى الآية اللاحقة: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ».

أى: من جانب لا- تنسوا نعم اللّه الكثيرة، ومن جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب اللّه بذنوبهم وهلكوا.

ثم ركّز على بعض النعم الإلهية كالأرض فقال: «تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا». فالأرض قد خُلقت بنحو تكون سهولها المستوية والمزودة بالتربة الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء والظروف الجوية القاسية.

ويبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم فى الصيف والشتاء.

وفى ختام الآية يقول تعالى على لسان نبيّه صالح: «فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

ثم إنّنا نلاحظ أيضاً أنّ جماعة الأغنياء والمترفين ذوى الظاهر الحسن، والباطن القبيح الخبيث، الذين عبر عنهم بالملأ أخذوا بزمام المعارضة لهذا النبى الإلهى العظيم.

فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقيناً أنّ صالحاً مرسل من قبل اللّه «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَبِّهِ».

ولكن سرعان ما واجهوا ردّ تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية وعزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إنّنا مضافاً إلى اعتقادنا بأنّ صالحاً رسول من قبل اللّه، فنحن مؤمنون أيضاً بما جاء به «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ».

ولكن هؤلاء- المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرّة اخرى إلى إضعاف معنوية المؤمنين «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ».

عندما يئس من زعزعة الإيمان فى نفوس الجماهير المؤمنة بصالح عليه السلام ومن جانب آخر

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۰

مختصر الامثل ج۲ ۱۷۹

رأوا أنّ وساوسهم وشائعاتهم لا تجدى نفعاً مع وجود «الناقة» التى كانت تُعَدّ معجزة صالح عليه السلام لهذا قرّروا قتل الناقة، مخالفين بذلك أمر ربهم «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» «۱». ولم يكتفوا بهذا أيضاً، بل أتوا إلى صالح نفسه وبصراحة «قَالُوا يَا صلِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

انّ هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح عليه السلام بهدف إضعاف روحيته وروحية المؤمنين به.

وعندما وصل المعارضون بطغيانهم وتمرّدهم إلى آخر درجة، وأطفأوا فى نفوسهم آخر بارقة أمل فى الإيمان، حلّت بهم العقوبة الإلهية طبقاً لقانون انتخاب الأصلح، وإهلاك ومحو الكائنات الفاسدة والمفسدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

بأىّ شىء اهلك قوم ثمود: وهنا يطرح سؤال وهو: يستفاد من الآية الحاضرة أنّ الشىء الذى أهلك هؤلاء المتمردون كان هو الزلزال، ولكن يظهر من الآية (۱۳) من سورة فصّلت أنّه كان الصاعقة، بينما نقرأ فى الآية (۵) من سورة الحاقّة: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ». يعنى أنّ قوم ثمود اهلكوا بشىء مدمّر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص فى جملة واحدة، وهى‌جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنّه يلازم بعضها بعضاً، فكثيراً ما تحدث الرجّة الأرضية فى منطقة ما بفعل صاعقة عظيمة، أى أنّه تحدث صاعقة أوّلًا، ثمّ تحدث على أثرها رجة أرضية.

«الطاغیة»: فهی بمعنی کائن تجاوز عن حدّه، وهذا ینسجم مع الزلزلة وکذا مع الصاعقة، ولهذا فلا یوجد أی تناقض بین الآیات.
وفی آخر آیة من الآیات المبحوثة یقول: «فَتَوَلَّی عَنْهُمْ وَقَالَ یَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ رِسَالَةَ رَبِّی وَنَصَحْتُ لَکُمْ وَلکِن لَّاتُحِبُّونَ النَّاصِحِینَ».
أی بعد هذه القضیة تولی صالح وهو یقول: لقد أدیت رسالتی إلیکم، ونصحت لکم ولکنکم لا تحبّون من ینصحکم.

---

(۱) «العقر»: هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حرکتها، فإذا قطع سقط الحیوان، وفقد القدرة علی الحرکة والتنقل.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۱

وَ لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَکُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِینَ (۸۰) إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ مَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ یَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَیْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ کَانَتْ مِنَ الْغَابِرِینَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنَا عَلَیْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِینَ (۸۴) مصیر قوم لوط المؤلم: فی هذه الآیات یستعرض القرآن الکریم فصلًا آخر غنیاً بالعبر من قصص الأنبیاء، وبذلک یواصل هدف الآیات السابقة ویکمله، والقصة هذه المرّة هی قصة النبی الإلهی العظیم «لوط». الآیة الاولی تقول فی البدء: اذکروا إذ قال لوط لقومه:
أترتکبون فعلًا قبیحاً لم یفعله قبلکم أحد من الناس! «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَکُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِینَ».
وفی الآیة اللاحقة یشرح المعصیة التی ذکرت فی الآیة السابقة ویقول: «إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ». وأیّ انحراف أسوأ وأقبح من أن یترک الإنسان وسیلة تولید النسل وإنجاب الأولاد، وهو مقاربة الرجل للمرأة، والذی أودعه اللّه فی کیان کل إنسان بصورة غریزیة طبیعیة، ویعمد إلی «الجنس الموافق» ویفعل بالتالی ما یخالف- أساساً الفطرة والترکیب الطبیعی للجسم والروح الإنسانیین والغریزة السویة الصحیحة، ویکون نتیجته عقم الهدف المتوخی من المقاربة الجنسیة.
ثم یقول تعالی فی نهایة الآیة: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ». أی تجاوزتم حدود اللّه، ووقعتم فی متاهة الانحراف والتجاوز عن حدود الفطرة.
وفی الآیة اللاحقة أشار القرآن الکریم إلی الجواب المتعنت وغیر المنطقی لقوم لوط، وقال:
إنّهم لم یکن لدیهم أیّ جواب فی مقابل دعوة هذا النبی الناصح المصلح، إلّاأن قالوا:
أخرجوا لوطاً وأتباعه من مدینتکم. ولکن ما کان ذنبهم؟ إنّ ذنبهم هو أنّهم کانوا جماعة طاهرین لم یلوثوا أنفسهم بأدران المعصیة «وَمَا کَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ یَتَطَهَّرُونَ».
ویحتمل أیضاً فی تفسیر جملة «إِنَّهُمْ أُنَاسٌ یَتَطَهَّرُونَ» أنّ قوم لوط کانوا یریدون بهذه العبارة أن یتهموا ذلک النبی العظیم وأتباعه الأتقیاء بالریاء والتظاهر بالتطهر، مع ملاحظة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۲

کل ما قیل فی الآیات الثلاثة أعلاه، یستطیع کل قاض منصف أن یصدر حکمه بحق مثل هذه الجماعات والأقوام، ولهذا قال اللّه تعالی فی الآیة اللاحقة: «فَأَنجَیْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ کَانَتْ مِنَ الْغَابِرِینَ» «۱». أی لمّا بلغ الأمر إلی هذا الحد أنجینا لوطاً وأتباعه الواقعیین وأهله الطیبین، إلّازوجته التی کانت علی عقیدة قومه المنحرفین فترکناها. یستفاد من الآیة (۱۰) من سورة التحریم إجمالًا أنّ زوجة لوط کانت فی البدایة امرأة صالحة، ولکنها سلکت سبیل الخیانة فیما بعد، وجرأت أعداء لوط علیه.
وفی آخر آیة من الآیات إشارة إلی العقوبة الشدیدة والرهیبة التی حلّت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالی: «وَأَمْطَرْنَا عَلَیْهِم مَّطَرًا». أیّ مطر ... إنّه کان مطراً عجیباً حیث إنهالت علیهم الشهب والنیازک کالمطر وأبادتهم عن آخرهم!
«فَانظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِینَ». إنّ هذا الخطاب وإن کان موجهاً إلی النبی صلی الله علیه و آله ولکنه من الواضح أنّ الهدف هو اعتبار جمیع المؤمنین به.

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَ لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) رسالة شعيب فى مدين: فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلًا خامساً من قصص الأقوام الماضين، ومواجهة الأنبياء العظام معهم، وهذا الفصل يتناول قوم شعيب.

---

(١) يقال «الغابر» لمن ذهب أهله وفنوا وبقى هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأصيبت بما أصيب به العصاة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٣

بعث شعيب عليه السلام الذى ينتهى نسبه- حسب كتب التاريخ- إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين، وهى مدينة من مدن الشام، كان أهلها أهل تجارة وترف قد سادت فيهم الوثنية، وكذا الحيلة، والتطفيف فى المكيال والميزان، والبخس فى المعاملة.

فى البداية يقول سبحانه: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا».

إنّ «مدين» فى الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، وحيث إنّ أبناءه وأحفاده سكنوا فى أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين».

ثم إنّه تعالى أضاف: إنّ شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وقال: إنّ هذا الحكم مضافاً إلى كونه من وحى العقل، ثابت بواسطة الأدلة الواضحة التى جاءتهم من جانب اللَّه أيضاً: «قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ».

ثم إنّه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ فى محاربة المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية السائدة فيهم، وفى البدء منعهم من ممارسة التطفيف، والغش فى المعاملة، يقول: «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» «١».

ثم يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، وهو الإفساد فى الأرض بعد أن اصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، وفى ضوء الإيمان فقال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلحِهَا».

ومن المسلّم أنّه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف فى آخر الآية قائلًا:

«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

وفى الآية اللاحقة يشير إلى رابع نصيحة لشعيب، وهى منعهم عن الجلوس على الطرقات وتهديد الناس، وصدّهم عن سبيل اللَّه، وتضليل الناس بإلقاء الشبهات وتزييف طريق الحق المستقيم فى نظرهم، فقال: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا».

وفى ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التى ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهية

---

(١) «البخس»: يعنى نقص حقوق الأشخاص، والنّزول عن الحد بصورة توجب الظلم والحيف.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٤٤

لتفعيل حسّ الشكر فيهم، فيقول: تذكّروا عندما كنتم أفراداً قلائل فزادكم اللَّه فى الأفراد وضاعف من قوتكم: «وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا

فَكَثَّرَكُمْ». ثم يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين ونهاية أمرهم ومصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم فى السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: «وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

إنّ آخر آية من الآيات المبحوثة هنا بمثابة إجابة على بعض استفهامات المؤمنين والكفار من قومه.

فيقول لهم شعيب: إن كانت طائفة منكم آمنت بما بُعِثت به، وأعرضت اخرى فلا ينبغى أن يكون ذلك سبباً لغرور الكفار، ويأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم.

فالمستقبل سوف يكشف عمن يكون على حق، ومن يكون على باطل «وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (۸۸) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (۸۹) هذه الآيات تستعرض ردّ فعل قوم شعيب مقابل كلمات هذا النبى العظيم المنطقية، وحيث إنّ الملا والأثرياء المتكبرين فى عصره كانوا أقوياء فى الظاهر، كان ردّ فعلهم أقوى من ردّ فعل الآخرين.

إنّهم كانوا– مثل كل المتكبرين المغرورين– يهددون شعيباً معتمدين على قوتهم وقدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا».

على أنّ تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات اخرى سنبحثها فى سائر الآيات المرتبطة بشعيب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۵

وقد أجابهم شعيب فى مقابل كل تهديداتهم وخشونتهم تلك بكلمات فى غاية البساطة والرفق والموضوعية، إذ قال لهم: وهل فى إمكانكم أن تعيدونا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين فى ذلك: «قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ».

وفى الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: «قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجنَا اللَّهُ مِنْهَا».

ثم يضيف شعيب قائلًا: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا».

ثم من دون إبطاء يضيف: إنّ اللّه لا يأمر بمثل هذا، لأنّ اللّه يعلم بكل شىء ويحط علماً بجميع الامور «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا».

وعلى هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنّه لا يعود ولا يرجع عن أمر أعطاه إلّامن كان علمه محدوداً، واشتبه ثم ندم على أمره، أمّا الذى يعلم بكل شىء ويحيط بجميع الامور علماً فيستحيل أن يعيد النظر.

ثم لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم، وأنّه ثابت فى موقفه، قال: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وأخيراً لأجل أن يثبت حسن نيّته، ويظهر رغبته فى طلب الحقيقة والسلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب والفوضوية والإخلال بالأمن يقول: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». أى: يا ربّ أنت أحكم بيننا وبين هؤلاء بالحق، وارفع المشاكل التى بيننا وبين هؤلاء، وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (۹۰) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۹۱) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (۹۲) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (۹۳) تتحدث الآية الاولى عند الدعايات التى كان يبثّها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: «وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۴۶

والمقصود من الخسارة– هنا– الخسارات المادية التى تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية،

وعلى هـذا الأسـاس كان يجب أن يخرجوا من بلـدهم وديارهم بالقهر، ويتركوا بيوتهم وأملاكهم. وعنـدما وَصَل أمرهم إلى الإصـرار على ضـلاتهم، وعلى إضـلال غيرهم أيضاً، ولم يبق أىّ أمل فى إيمانهم وهـدايتهم، حلّت بهم العقوبـة إلالهيهٔ بحكم قانون حسم مادهٔ الفسـاد، فأصـابهم زلزال رهيب شديـد بحيث تهاوى الجميع أجساداً ميتـهٔ، فى داخل بيوتهم ومنازلهم «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

فى الآيـهٔ اللاحقـهٔ شـرح القرآن الكريم أبعـاد هـذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعبارهٔ التاليـهٔ: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا». أى إنّ الذين كذبوا شعيباً ابيدوا إبادهٔ عجيبهٔ، وكأنّهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

وفى ختام الآيهٔ يقول: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ».

وكأنّ هاتين الجملتين جواباً لأقوال معارضـى شـعيب، لأنّهم كانوا قـد هدّدوا بأن يخرجوه هو وأتباعه فى حالهٔ عدم انصـرافهم من دين التوحيد إلى الدين السابق، فقال القرآن: إنّهم ابيدوا كاملهٔ، وكأنّهم لم يسـكنوا فى تلك المنازل، فضلًا عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

وفى مقابل قولهم: إنّ أتّباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إنّ نتيجهٔ الأمر أثبتت أنّ مخالفهٔ شعيب هى العامل الأصلى فى الخسران.

وفى آخر آيهٔ- من الآيات المبحوثهٔ- نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلّغت رسالات ربّى، ونصحتكم بالمقدار الكافى، ولم آلُ جهداً فى إرشادكم:

«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسلتِ رَبّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ».

ثم قال: «فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ». أى لست متأسفاً على مصير الكافرين، لأنّنى قد بذلت كل ما فى وسعى لهدايتهم وإرشادهم، ولكنهم لم يخضعوا للحق ولم يسلّموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

وَ مَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩۴) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩۵)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١۴٧

إذ لم تنفع المواعظ: إنّ هـذه الآيات- التى ذكرت بعـد استعراض قصـص مجموعـهٔ من الأنبياء العظام، مثل نوح وهود وصالـح ولوط وشـعيب، وقبل أن يعمـد القرآن الكريم إلى اسـتعراض قصـهٔ موسـى بن عمران- أشار إلى عـدّهٔ أصول وقواعـد عامهٔ تحكم فى جميع القصـص والحوادث، وهى قواعد واصول إذا فكّرنا فيها كشـفت القناع عن حقائق قيمهٔ ترتبط بحياتنا- جميعاً- ارتباطاً وثيقاً. فى البدايهٔ يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مّن نَّبِىّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ». فالصِعاب والمشاق والبلايا التى تصيب الأفراد إنّما يفعلها اللّه بهم عسى أن ينتبهوا، ويتركوا طغيانهم، ويرجعوا إلى اللّه ويتوبوا إليه.

وذلـك لأنّ النـاس ما داموا فى الرخاء والرفاه فهم فى غفلـهٔ وقلما يكون لـديهم اسـتعداد وقابليـهٔ لقبول الحق. أمّا عنـدما يتورّطون فى المحنهٔ والبلاء، يشرق نور فطرتهم وتوحيدهم ويتذكرون اللّه قهراً بلا اختيار، وتستعد قلوبهم لقبول الحق.

ولكن هـذه اليقظهٔ والنهضـهٔ ليست عنـد الجميع على حـدّ سواء، فهى فى كثير من النـاس سـريعهٔ وعابرهٔ وغير ثابتـهٔ، وبمجرّد أن تزول المشـكلات يعودون إلى غفلتهم وغفوتهم، ولكن هـذه المشـكلات تعتبر بالنسـبهٔ إلى جماعهٔ آخرين نقطهٔ تحول فى الحياهٔ، ويعودون إلى الحق إلى الأبد.

ولهـذا قال تعالى فى الآيهٔ اللاحقهٔ: عندما لم تغيّر تلك الجماعات سـلوكها ومسـيرها تحت ضـغط المشـكلات والحوادث، بل بقوا فى الضـلال، رفعنـا عنهم المشـكلات وجعلنا مكانها النعم والرخاء فازدهرت حياتهم وكثر عـددهم وزادت أموالهم «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا».

ثمّ أضاف: أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وهى «النعمة» و «النقمة» بيد اللَّه، وأنّهم راجعون إلى اللَّه، يتذرعون- لخداع أنفسهم- بهذا المنطق، وهو إذا تعرضنا للمصائب والبلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء والسراء، وكانت لهم حالات رخاء وحالات بلاء، فالحياة لها صعود ونزول، والصعاب أمواج غير ثابتة وسريعة الزوال «وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ». فهى إذن قضية طبيعية، ومسألة إعتيادية.

فيقول القرآن الكريم فى الختام: إنّ الأمر عندما بلغ إلى هذا الحد، ولم يستفيدوا من عوامل التربية- أبداً- بل ازدادوا غروراً وعنجهيّة وتكبراً أهلكناهم فجأة ومن غير سابق انذار، لأنّ ذلك أشد إيلاماً ونكالًا لهم، وعبرة لغيرهم: «فَأَخَذْنهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۸

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۹۶) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (۹۷) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (۹۸) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (۹۹) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۱۰۰) التقدم والعمران فى ظل الإيمان والتقوى: فى الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط على نحو الإجمال، وإن كانت تلك الآيات كافية لبيان النتائج المشحونة بالعبر فى هذه القصص، ولكن الآيات الحاضرة تبيّن النتائج بصورة أكثر وضوحاً فتقول: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». أى لو أنّهم سلكوا سبيل الإيمان والتقوى، بدل الطغيان والتمرد وتكذيب آيات اللَّه والظلم والفساد، لم يتخلصوا من غضب اللَّه وعقوبته فحسب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء والأرض.

والمراد من «بركات» الأرض والسماء إنّها المطر والنباتات التى تنبت من الأرض.

ولكن- للأسف- تركوا الصراط المستقيم الذى هو طريق السعادة والرفاه والأمن وكذبوا الأنبياء، وتجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم «وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فى الآيات اللاحقة ولمزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم وأنّ القانون أعلاه ليس خاصاً بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر والمستقبل أيضاً- يقول: هل أنّ المجرمين الذين يعيشون فى نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم فى أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهية، فتنزل بهم صاعقة أو يصبهم زلزال فى الليل وهم نائمون «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ».

وهل هم فى أمان من ذلك العذاب فى النهار وهم غارقون فى أنواع اللهو واللعب «أَوَ أَمِنَ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۹

أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ». يعنى أنّهم فى قبضة القدرة الإلهية فى جميع الأحوال والأوقات، ليلًا ونهاراً، فى اليقظة والنوم، فى ساعات الفرح والترح، وبإشارة واحدة وأمر واحد يقضى عليهم جميعاً، ويطوى صفحة حياتهم نهائياً.

وفى الآية اللاحقة يعود القرآن الكريم إلى ذكر وتأكيد هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول:

أفأمن المجرمون من المكر الإلهى فى حين لا يأمن مكره إلّاالخاسرون «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ».

«المكر»: يعنى فى اللغة العربية كل حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذى يمضى إليه، سواء كان حقاً أو باطلًا. والمراد من المكر الإلهى هو أنّ اللَّه تعالى يصرفهم بخططه القوية التى لا تقهر عن حياة الرفاه واللذة دون اختيارهم ويقطعها عليهم. وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية والمهلكة.

وفى الآية اللاحقة يقول القرآن الكريم بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافية وإلفات نظرهم إلى العبر التى كانت فى حياة الماضيين: ألا يتنبه الذين ورثوا السيادة على الأرض- من الأقوام الماضية- إلى ما فى حياة الماضيين وقصصهم من عبر، فلو أنّنا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفعلنا: «أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضِ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ».

ويمكننا أيضاً أن نتركهم أحياء ونسلب منهم الشعور وحس التشخيص والتمييز بالمرّة بسبب توغّلهم فى الذنوب، بحيث لا يسمعون معها حقيقة، ولا يقبلون نصيحة، ويعيشون بقية حياتهم حيرى «وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ».

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَ مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) فى هاتين الآيتين ركّز القرآن الكريم على العبر المستفادة من بيان قصص الماضين، والخطاب متوجه هنا إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاأنّ الهدف هو الجميع، يقول القرآن الكريم أوّلًا: هذه هى القرى والأقوام التى نقص عليك قصصهم: «تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٥٠

أَنبَائِهَا». ثم يقول: لم يكن إهلاكهم قبل إتمام الحجّة عليهم، بل لقد جاءهم الأنبياء أوّلًا بالبراهين الجلية وبذلوا قصارى جهدهم فى إيقاظهم وإرشادهم «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ». ولكنهم قاوموا الأنبياء وخالفوا دعوتهم، وأصروا ولجّوا فى عنادهم، ولم يكونوا على إستعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البينات: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ».

وفى العبارة اللاحقة يبين تعالى علة هذا التعنت واللجاج: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ». يعنى أنّ الذين يسيرون فى درب خاطىء، ويستمرون فى السير فى ذلك الطريق، ينتقش الانحراف والكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيء، ويتجذر الفساد فى نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (والطبع فى اللغة نقش صورة على شيء كالسكة) وهذا هو أثر العمل وخاصيته.

وقد نسب إلى اللَّه هو تعالى مسبب الأسباب، وهو منشأ تأثير كل مؤثر، فهو يهب الفعل هذه الخاصّية عند تكراره، حيث يجعله «مَلكة» فى نفس الشخص.

ولكن من الواضح والبيّن أنّ مثل الضلال ليس له أى صفة جبرية وقهرية، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان وإن كان التأثير بأمر اللَّه تعالى (فتأمل).

وفى الآية اللاحقة يبيّن تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقى لدى هذه الجماعات، والتى تسببت فى ضلالها وهلاكها. فى البداية يقول: إنّهم كانوا لا يحترمون العهود والمواثيق بل ينقضونها «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مّنْ عَهْدٍ».

وهذا العهد يمكن أن يكون إشارة إلى «العهد الفطرى» الذى أخذه اللَّه على جميع عباده بحكم الجبلة والفطرة.

كما أنّه يمكن أن يكون إشارة إلى العهد الذى كان الأنبياء الإلهيّون يأخذونه من الناس، وكان أكثر الناس يقبلونه، ولكنهم ينقضونه.

أو يكون إشارة إلى جميع المواثيق «الفطرية» و «التشريعية».

وعلى كل حال فإنّ روح نقض الميثاق كان من أسباب معارضة الأنبياء والإصرار على سلوك طريق الكفر والنفاق، والإبتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثم يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: «وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٥١

يعنى أنّ روح التمرد والتجاوز على القانون، والخروج عن نظام الخلقة والقوانين الإلهية، كان عاملًا آخر من عوامل استمرارهم على الكفر، وإصرارهم على مخالفة الدعوة الإلهية.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) المواجهة بين موسى وفرعون: بيّن تعالى فى هذه الآيات والآيات الكثيرة اللاحقة قصة موسى بن عمران، وما جرى بينه وبين

فرعون وملئه وعاقبة أمره. وعلى العموم يمكن حصر وتلخيص حياة هذا النبى الإلهى العظيم فى خمس دورات ومراحل:

١- مرحلة الولادة، وما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه فى بلاط فرعون.

٢- مرحلة فراره من مصر، وحياته فى أرض «مدين» فى كنف النبى شعيب عليه السلام.

٣- مرحلة بعثته، ثم المواجهات الكثيرة بينه وبين فرعون وجهازه.

۴- مرحلة نجاته ونجاة بنى إسرائيل من مخالب فرعون.

۵- مرحلة مشاكله مع بنى إسرائيل.

فى الآيـة الاـولى من الآيـات الحاضـرة يقول تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بَايَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ». أى من بعـد قوم نوح وهود وصالح.

«فرعون»: اسم عام، وهو يطلق على كل ملوك مصر.

ثم يقول تعالى: «فَظَلَمُوا بِهَا».

ثم يقول تعالى فى ختام الآية: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

وهذه العبارة إشارة إجمالية إلى هلاك فرعون وقومه الطغاة المتمردين، الذى سيأتى شرحه فيما بعد.

وهذه الآية تشير إشارة مقتضبة إلى مجموع برنامج رسالة موسى، وما وقع بينه وبين فرعون من المواجهة وعاقبة أمرهم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٥٢

أمّا الآيات اللاحقة فتسلّط الأضواء بصورة أكثر على هذا الموضوع، فيقول أوّلًا:

«وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذه هى أوّل مواجهة بين موسى وبين فرعون، وهى صورة حية وعملية من الصراع بين «الحق» و «الباطل».

وفى الآيـة اللاحقـة نقرأ أنّ موسـى عقيب دعوى الرسالـة من جـانب اللّه قـال: فالآـن إذ أنا رسول ربّ العالمين ينبغى ألا أقول عن اللّه إلّاالحق، لأنّ المرسل من قبل اللّه المنزّه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذباً «حَقِيقٌ عَلَى أن لَّاأَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ».

ثم لأجل توثيق دعواه للنّبوة، أضاف: أنا لا أدعى ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معى أدلـة واضـحة من جانب اللّه «قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ».

فإذا كان الأمر هكذا «فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

وكان هذا قسماً من رسالة موسى بن عمران الذى حرّر بنى إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعونى.

فقال فرعون بمجرّد سماع هذه العبارة- (أى قوله: قد جئتكم ببيّنة)- هات الآية التى معك من جانب اللّه إن كنت صادقاً «قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بَايَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

ومن دون تـأخير أخرج موسـى معجزتيه العظيمتين التى كـانت إحـداهما مظهر «الخوف» والاـخرى مظهر «الأمـل» وكانتا تكملان مقام إنذاره ومقام تبشيره، وألقى فى البداية عصاه:

«فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ».

ثم إنّ الآيـة اللاحقة تشـير إلى المعجزة الثانية للنبى موسـى عليه السلام التى لها طابع الرجاء والبشارة. يقول تعالى: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) بدء المواجهة: فى هذه الآيات جاء الحديث عن أوّل ردّ فعل لفرعون وجهازه فى مقابل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۳

دعوة موسى عليه السلام ومعجزاته. الآية الاولى تذكر عن ملأ فرعون أنّهم بمجرد مشاهدتهم لأعمال موسى الخارقة للعادة اتهموه بالسحر، وقالوا: هذا ساحر عليم ماهر فى سحره: «قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ».

ثم أضافوا: إنّ هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم «يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ». يعنى أنّه لا- يهدف إلّااستعماركم واستثماركم والحكومة على الناس، وغصب أراضى الآخرين، وهذه الأعمال الخارقة للعادة وادعاء النبوة كلها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثم قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

يعنى أنّهم جلسوا يتشاورون فى أمر موسى، ويتبادلون الرأى فيما يجب عليهم اتّخاذه تجاهه، لأنّ مادة «أمر» بمعنى التشاور.

وعلى كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل فى أمر موسى وهارون، وأجلّ قرارك بشأنهما إلى ما بعد، ولكن ابعث من يجمع لك السحرة من جميع أنحاء البلاد «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر فى حرفته عليم فى سحره «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ».

إنّ هذا الإقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنّهم كانوا يريدون افتعال ذريعة سياسية لأيموقف سيتخذونه ضد موسى كما كانوا يفعلون ذلك فى بقية مواقفهم ونشاطاتهم الشخصية، ولهذا اقترحوا أرجاء أمر قتل موسى وأخيه نظراً لمعجزتيه اللتين أورثتا رغبة فى مجموعة كبيرة من الناس نحو دعوته وانحيازهم إليه، ومزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية والشهادة» وأضفت بضم الثّانية إلى الاولى- مسحة من القداسة والجاذبية عليه وعلى دعوته.

ولهذا فكروا فى بداية الأمر فى إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة مماثلة، ويسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثمّ يأمرون بقتله لتنسى قصة موسى وهارون وتمحى عن الأذهان إلى الأبد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۴

وَ جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (۱۱۳) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۱۱۴) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (۱۱۵) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (۱۱۶) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (۱۱۷) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (۱۱۹) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (۱۲۰) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (۱۲۲) كيف انتصر الحق فى النهاية: فى هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النبى موسى عليه السلام وبين السحرة وما آل إليه أمرهم فى هذه المواجهة، وفى البداية تقول الآية: إنّ السحرة بادروا إلى فرعون بدعوته، وكان أوّل ما دار بينهم وبين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدو «وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ».

فوعدهم فرعون وعداً جيداً وقال: إنّكم لن تحصلوا على الأجر السخى فقط، بل ستكونون من المقربين عندى «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

يستفاد من هذه الآية أنّ التقرب إلى فرعون فى ذلك المحيط، وتلك البيئة كان أعلى وأسمى وأهم من المال والثروة، لأنّه كان يعنى منزلة معنوية كان من الممكن أن تصبح منشأ لأموال كثيرة وثروات كبيرة.

وفى المآل حُدّد موعدٌ معين لمواجهة السحرة لموسى، وكما جاء فى سورة «طه» و «الشعراء» دُعى جميع الناس لمشاهدة هذا النزال.

وحلّ اليوم الموعود، وهيّأ السحرة كل مقدمات العمل ... حفنة من العصىّ والحبال التى يبدو أنّها كانت معبئة بمواد كيمياوية خاصة، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنّها تتحول إلى غازات خفيفة تحرّك تلك العصى والحبال المجوفة.

وكانت واقعة عجيبة، فموسى وحده (ليس معه إلّاأخوه) يواجه تلك المجموعة الهائلة من السحرة، وذلك الحشد الهائل من الناس

المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحرة ومؤيديهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۵

فالتفت السحرة فى غرور خاص وكبير إلى موسى عليه السلام وقالوا: إمّا أن تشرع فتلقى عصاك، وإمّا أن نشرع نحن فنلقى عصيّنا؟ «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ».

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقة والإطمئنان: بل اشرعوا أنتم «قَالَ أَلْقُوا».

وعندما ألقى السحرة بحبالهم وعصيّهم فى وسط الميدان سحروا أعين الناس، وأوجدوا بأعمالهم وأقاويلهم المهرجة ومبالغاتهم خوفاً فى قلوب المتفرجين وأظهروا سحراً كبيراً رهيباً: «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ».

«السحر»: تعنى فى الأساس الخداع والشعوذة، وقد يطلق أيضاً على كل عامل غامض، ودافع غير مرئى.

فى هذه اللحظة التى اعترت الناس فيها حالة من النشاط والفرح، وتعالت صيحات الإبتهاج من كل صوب، وعلت وجوه فرعون وملائه ابتسامة الرضى، ولمع فى عيونهم بريق الفرح، أدرك الوحى الإلهى موسى عليه السلام وأمره بإلقاء العصى وفجأة انقلب المشهد وتغير، وبدت الدهشة على الوجوه، وتزعزت مفاصل فرعون وأصحابه كما يقول القرآن الكريم:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ».

«تلقف»: مشتقة من مادة «لَقْف» (على وزن سَقف) بمعنى أخذ شىء بقوة وسرعة، سواء بواسطة الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدى، ولكن تأتى فى بعض الموارد بمعنى البلع والإبتلاع أيضاً، والظاهر أنّها جاءت فى الآية الحاضرة بهذا المعنى.

«يأفكون»: مشتقّة من مادة «إفك» على وزن «مسك» وهى تعنى فى الأصل الإنصراف عن الشىء، وحيث إنّ الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ «الإفك».

وفى هذا الوقت ظهر الحق، وبطلت أعمالهم المزّيفة: «فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». لأنّ عمل موسى كان عملًا واقعياً، وكانت أعمالهم حفنة من الحيل ومن أعمال الشعبذة، ولا شك أنّه لا يستطيع أى باطل أن يقاوم الحق دائماً.

وهذه هى أوّل ضربة توجهت إلى أساس السلطان الفرعونى الجبّار.

ثم يقول تعالى فى الآية اللاحقة: وبهذه الطريقة ظهرت آثار الهزيمة فيهم، وصاروا جميعاً أذلاء: «فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ».

والضربة الأقوى كانت عندما تغير مشهد مواجهة السحرة لموسى عليه السلام تغييراً كلّياً، وذلك عندما وقع السحرة فجأة على الأرض ساجدين لعظمة اللّه «وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۶

ثم نادوا بأعلى صوتهم و «قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهرُونَ».

ولم يكن فرعون والملأ يتوقعون هذا الأمر مطلقاً.

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (۱۲۶) التهديدات الفرعونية الجوفاء: عندما توجهت ضربة جديدة- بانتصار موسى على السحرة وإيمانهم به- إلى أركان السلطة الفرعونية، استوحش فرعون واضطرب بشدة، لهذا عمد فوراً إلى عملين مبتكرين: فى البداية وجه اتهاماً (لعله مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثم هددهم بأشدّ التهديدات، ولكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السحرة مقاومة عجيبة تجاه هذين الموقفين، وبهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعونى، وقد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

فى البداية يقول: إنّ فرعوناً قال للسحرة: هل آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم «قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ».

وهذه هى أعلى درجات الإستعباد والاستحمار، أن يكون شعب من الشعوب أسيراً وعبداً بحيث لا يحق له حتى التفكير والإيمان القلبى بأحد أو بعقيدة.

وهذا هو البرنامج الذى يواصله «الاستعمار الجديد»، يعنى أنّ المستعمرين لا يكتفون بالاستعمار الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، بل يسعون إلى تقوية جذورهم عن طريق الاستعمار الفكرى.

ثم يضيف فرعون قائلًا: «إِنَّ هذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا».

إنّ مراد فرعون هو أنّ هناك مؤامرة مدروسة وتواطؤاً مبيّتاً قد دبرتموه قبل مدة للسيطرة على أوضاع مصر واستلام زمام السلطة.

وهذه التهمة كانت خاوية ومفضوحة، إلى درجة أنّه لم يكن يقتنع بها إلّاالعوام والجهلة من الناس.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٥٧

ثمّ إنّ فرعون هدّدهم بتهديد غامض ولكنّه شديد ومحكم، إذ قال: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وفى الآية اللاحقة بيّن تفاصيل ذلك التهديد الذى هدّد به السحرة فاقسم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبهم، إذ قال: «لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّن خِلفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ».

لقد قاوم السحرة كلتا حربتى فرعون، وأجابوه جواب رجل واحد: إنّنا نرجع إلى ربّنا إذن «قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ». يعنى إذا تحقق تهديدك الثانى (وهو القتل) فمعناه أنّنا سننال الشهادة فى سبيل الدفاع عن الحق، وهذا لا يوجب ضرراً علينا، ولا ينقصنا شيئاً، بل يُعدّ سعادة وفخراً عظيماً لنا.

ثم إنّهم للرد على تهمة فرعون، ولايضاح الحقيقة لجماهير المتفرجين على هذا المشهد، واثبات براءتهم من أى ذنب، قالوا: إنّ الإشكال الوحيد الذى تورده علينا هو أنّنا آمنا بآيات اللّه وقد جاءتنا «وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أن ءَامَنَّا بَايَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا».

ثم إنّهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون وتوجهوا إلى اللّه سبحانه، وطلبوا منه الصبر والإستقامة، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك العقوبات الثقيلة من دون نصره وتأييده وعونه، لهذا قالوا: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ».

وأخيراً- وكما جاء فى الروايات وكتب التاريخ- استقام اولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفّذ فرعون تهديداته، ومثّل بأجسامهم تمثيلًا مروعاً، وصلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل.

أجل، إذا كان الإيمان مقروناً بالوعى الكامل فإنّه ينتهى إلى مثل هذا العشق الملتهب الذى لا يكون هذا التفانى فى سبيله مثار للعجب.

وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٥٨

فى هذه الآيات يبيّن لنا القرآن الكريم مشهداً آخر من الحوار الذى دار بين فرعون وبين ملئه حول وضع موسى عليه السلام. تقول الآية فى البداية: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ». يستفاد من هذا التعبير أنّ فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السلام ترك موسى وبنى إسرائيل أحراراً مدّة من الزمن، ولم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة والتبليغ لصالح دين موسى عليه السلام وأنّ فرعون كانت له معبودات وأصنام.

إنّ فرعون- بسبب تحذيرات أعوانه وحاشيته- صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل، فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم وتحذيرهم: سأقتل أبناءهم وأستخدم نساءهم ونحن متفوقون عليهم على كل حال: «قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ». و الآية اللاحقة بيّنت خطّة موسى التى اقترحها على بنى إسرائيل لمواجهة تهديدات فرعون، وشرح فيها شروط الغلبة على العدو، وذكرهم بأنّهم إذا عملوا بثلاث مبادىء انتصروا على العدو حتماً:

أوّلها: الإتكال على اللَّه فقط «قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ».

والآخر: أن يثبتوا ولا يخافوا من تهديدات العدو: «وَاصْبِرُوا».

وللتأكيد على هذا المطلب، ومن باب ذكر الدليل، ذكّرهم بأنّ الأرض كلها ملك اللَّه وهو الحاكم عليها والمالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء «إِنّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

وآخر هذه المبادىء هو أن يعتمدوا التقوى لأنّ العاقبة لمن اتّقى «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

هذه المبادىء والشروط الثلاثة ليست شرائط إنتصار قوم بنى إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لابدّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة.

وفى آخر آية من الآيات الحاضرة يعكس القرآن الكريم شكايات بنى إسرائيل وعتابهم من المشكلات التى ابتلوا بها بعد قيام موسى عليه السلام فيقول: «قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا». فإذاً متى يحصل الفرج؟!

وكأنّ بنى إسرائيل مثل كثير منّا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الامور بقيام موسى عليه السلام فى ليلة واحدة ....

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۹

ولكن موسى عليه السلام أفهمهم بأنّهم سينتصرون فى المآل، ولكن أمامهم طريقاً طويلًا، وإنّ هذا الإنتصار- طبقاً للسنة الإلهية- يتحقق فى ظل الإستقامة والثبات والسعى والإجتهاد، كما جاء ذلك فى الآية الحاضرة: «قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ».

ثم يقول فى ختام الآية: إنّ اللَّه أعطاكم هذه النعمة، وأعاد إليكم حريتكم المسلوبة كى ينظر كيف تتصرفون أنتم «فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». يعنى ستبدأ- بعد الإنتصار- مرحلة امتحانكم واختباركم.

وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۳۱) العقوبات التنبيهية: لقد كان القانون الإلهى العام فى دعوة الأنبياء- كما قلنا فى تفسير الآية (۹۴) من نفس هذه السورة- هو أنّهم كلّما واجهوا معارضة كان اللَّه تعالى يبتلى الاقوام المعاندين بأنواع المشاكل والبلايا، حتى يحسّوا بالحاجة فى ضمائرهم وأعماق نفوسهم.

وفى أوّل آية من الآيتين الحاضرتين إشارة إلى نفس هذا المطلب فى قصّة فرعون، إذ يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسّنِينَ وَنَقْصٍ مّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ».

ولكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهية، ويستيقظوا من غفلتهم وغفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف والحالة، وفسّروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية ومطابقة لرغبتهم، وكانوا يعيشون فى راحة واستقرار قالوا: إنّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا وصلاحنا «فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذِهِ».

ولكن عندما تنزل بهم النوائب فإنّهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السلام وجماعته فوراً ويقولون هذا من شؤمهم: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ».

ولكن القرآن الكريم قال فى معرض الردّ عليهم: اعلموا أنّ منشأ كل شؤم وبلاء أصابكم إنّما هو من قبل اللَّه، وأنّ اللَّه تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، ولكن أكثرهم لا يعلمون «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۰

مسألة التطيّر والتفاؤل والتشاؤم قد تكون منتشرة فى مختلف المجتمعات البشرية.

إنّ هذين الأمرين وإن لم يكن لهما أى أثر طبيعى إلّاأنّه يمكن أن يكون لهما أثر نفسى لا ينكر، وإنّ التفاؤل غالباً يوجب الأمل والتحرك، والتشاؤم يوجب اليأس والوهن والتراجع. ولعله لأجل هذا لم يُنْه فى الروايات والأحاديث الإسلامية عن التفاؤل، بينما نهى

عن التشاؤم بشدة، ففى حديث مروى عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

وَ قَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجَرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳) النوائب المتنوعة: فى هاتين الآيتين اشير إلى مرحلة اخرى من الدروس المنبهة التى لقّنها اللّه لقوم فرعون، وفى الآية الاولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النّوائب: إنّهم بقوا يلجّون فى إنكار دعوة موسى، وقالوا: مهما تأتنا من آية وتريد أن تسحرنا بها فإنّنا لن نؤمن بك: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ».

ولكن حيث إنّ اللّه سبحانه لا يعاقب امّة أو قوماً من دون أن يتمّ عليهم الحجّة قال فى الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة ومتعددة لعلهم يتنبهون ... فقال أوّلًا: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ».

«الطوفان»: مشتقة من مادة «الطوف» وتعنى الشيء الذى يطوف ويدور، ثم اطلقت هذه اللفظة على الحادثة التى تحيط بالإنسان.

ثم سلط الجراد على زروعهم وأشجارهم «وَالْجَرَادَ».

وكلما كان يُصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام ويسألونه أن يطلب من اللّه أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان والجراد أيضاً، وقبِل موسى عليه السلام، وارتفع عنهم البلاء ولكنهم مع ذلك لم يكفّوا عن لجاجهم وتعنتهم.

وفى المرة الثالثه سلط عليهم القمل «وَالْقُمَّلَ».

والمراد من «القمل» نوع من الآفات الزراعية التى تصيب الغلات وتفسدها وتتلفها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۱

وعندما خفت أمواج هذا البلاء، واستمرّوا فى عنادهم سلط اللّه عليهم فى المرحلة الرابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايداً شديداً حتى أنّه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: «وَالضَّفَادِعَ».

ولكنهم مع ذلك لم يخضعوا للحق ولم يسلّموا.

وفى هذا الوقت بالذات سلّط اللّه عليهم «الدَّمَ».

وقال تعالى فى ختام ذلك: إنّ هذه الآيات والمعاجز الباهرة- رغم أنّها أظهرت لهم حقانية موسى- ولكنهم استكبروا عن قبول الحق وكانوا مجرمين. «ءَايَاتٍ مُّفَصَّلتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَکَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِى إِسْرَائِيلَ (۱۳۴) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (۱۳۶) نقض العهد المتكرر: فى هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين فى مقابل النوائب والبلايا المتبهة الإلهية، وفى الآية الاولى نقرأ: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِندَکَ».

إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى ويطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، وأن يفى اللّه بما وعده له من استجابة دعائه: «عَهِدَ عِندَکَ».

ثم يقولون: إذا دعوت فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لك بأن نؤمن بك، ونرفع طوق العبودية عن بنى إسرائيل: «لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

«الرجز»: استعملت فى معانى كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن والوثنية، وسوسة الشيطان، والثلج أو البَرَد الصلب.

والمراد من عبارة «بِمَا عَهِدَ عِندَکَ» ومن ذلك العهد الإلهى الذى أعطاه سبحانه لموسى هو أن يستجيب دعاءه إذا دعاه.

وفى الآية اللاحقة يشير إلى نقضهم للعهد ويقول: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۲

بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ» «۱». إنّ جملة «إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ» إشارة إلى أنّ موسى حدّد لهم وقتاً وعيّن أمداً، فكان يقول لهم: فى الوقت الفلانى سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتضح لهم أنّ إرتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمراً اتفاقياً وصدفة، بل هو بفضل دعائه وطلبه من اللّه تعالى.

وآخر هذه الآيات تبين- من خلال جملتين قصيرتين- عاقبة كل هذا التعنت، ونقض العهد، فتقول بصورة مجملة: «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ».

ثم تشرح هذا الإنتقام وتذكر تفصيله: «فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ». الإنتقام يعنى العقوبة والمجازاة.

والمقصود من الإنتقام الإلهى هو أنّ الجماعة الفاسدة وغير القابلة للإصلاح لا يحق لها الحياة فى نظام الخلق، ولابدّ أن تمحى من صفحة الوجود.

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (۱۳۷) قوم فرعون والمصير المؤلم: بعد هلاك قوم فرعون، وتحطّم قدرتهم، وزوال شوكتهم، ورث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم فى أغلال الأسر والعبودية أراضى الفراعنة الشاسعة والآية الحاضرة تشير إلى هذا الأمر: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا».

والمقصود من العبارة هو حكومة بنى إسرائيل على كل اراضى الفراعنة وبلادهم.

والتعبير ب «كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ» إشارة إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بنى إسرائيل فى حالة ضعف دائمية: ضعف فكرى وضعف أخلاقى وضعف اقتصادى، ومن جميع الجهات وفى جميع النواحى.

والتعبير ب «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا» إشارة إلى الأراضى الواسعة العريضة التى كانت تحت تصرّف الفرعونيين.

---

(۱) «النكث»: على وزن مَكْث، يعنى فل الحبل المفتول، ثمّ اطلق على نقض الميثاق والعهد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۳

وجملة «بَارَكْنَا فِيهَا» إشارة إلى الخصب العظيم الذى كانت تتمتع به هذه المنطقة- يعنى مصر والشام.

ثم يقول: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ بِمَا صَبَرُوا». أى تحقق الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم وثباتهم.

ثم يضيف فى آخر الآية: نحن الذين دمرنا قصور فرعون وقومه العظيمة، وأبنيتهم الجميلة الشامخة، وكذا بساتينهم ومزارعهم العظيمة «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ».

«صنع»: يعنى الأعمال الجميلة، وقد وردت هذه اللفظة فى الآية الحاضرة بمعنى الهندسة الجميلة الرائعة التى كان يستخدمها الفرعونيين فى أبنيتهم.

«يعرشون»: فى الأصل تعنى الأشجار والبساتين التى تنصب بواسطة العروش والسقف، ولها جمال عظيم وروعة باهرة.

«دمرّنا»: من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك والإبادة.

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۹) قَالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (۱۴۰) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِى ذلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۱۴۱) الاقتراح على موسى بصنع الوثن: فى هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصّة بنى إسرائيل التى بدأت فى أعقاب الإنتصار على الفرعونيين، وذلك هو مسألة توجه بنى إسرائيل إلى الوثنية التى بحثت بداياتها فى هذه الآيات، وجاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصلة فى سورة طه من الآية (۸۶- ۹۷)، وبصورة مختصرة فى الآية (۱۴۸) فما بعد من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۴

فی الآیة الاولی: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِی إِسْرَاءِیلَ الْبَحْرَ». أی النیل العظیم.

ولکن فی مسیرهم مرّوا علی قوم یعبدون الأصنام: «فَأَتَوْا عَلَی قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلَی أَصْنَامٍ لَّهُمْ». «عاکف»: مشتقة من مادة «العکوف» بمعنی التوجه إلی شیء وملازمته المقارنة لإحترامه وتبجیله.

فتأثّر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدة إلی درجة قالوا لموسی من دون إبطاء: یا موسی اتّخذ لنا معبوداً علی غرار معبودات هؤلاء: «قَالُوا یَا مُوسَی اجْعَل لَّنَا إِلهًا کَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ».

فانزعج موسی علیه السلام من هذا الإقتراح الأحمق بشدة، وقال لهم: «قَالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». لأنّ منشأ الوثنیة هو جهل البشر.

وفی الآیة اللاحقة نقرأ أنّ موسی علیه السلام- لتکمیل حدیثه لبنی إسرائیل- قال: إنّ هذه الجماعة الوثنیة التی ترونها سینتهی أمرها إلی الهلاک، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له «إِنَّ هؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِیهِ وَبَاطِلٌ مَّا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

فعمل هذه الجماعة باطل، وجهودهم غیر منتجة، کما أن مصیر مثل هؤلاء القوم وکل قوم وثنیین ومشرکین هو الهلاک والدمار.

ثم تضیف الآیة التوکید: إنّ موسی علیه السلام «قَالَ أَغَیْرَ اللَّهِ أَبْغِیکُمْ إِلهًا وَهُوَ فَضَّلَکُمْ عَلَی الْعَالَمِینَ».

وفی الآیة اللاحقة یذکر القرآن الکریم إحدی النعم الإلهیة الکبری التی وهبها اللَّه سبحانه لبنی إسرائیل، لیبعث بالإلتفات إلی هذه النعمة الکبری حسّ الشکر فیهم، ولیعلموا أنّ اللائق بالخضوع والعبادة هو الذات الإلهیة المقدسة فحسب، یقول فی البدایة: تذکّروا یوم أنجیناکم من مخالب آل فرعون الذین کانوا یعذبونکم دائماً «وَإِذْ أَنجَیْنَکُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

ثمّ تمشیاً مع أسلوب القرآن فی بیان الامور بتفصیل بعد إجمال شرح هذا العذاب المستمر، وهو: قتل الأبناء، واستبقاء النساء للخدمة والإسترقاق «یُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَکُمْ وَیَسْتَحْیُونَ نِسَاءَکُمْ».

وقد کان فی هذا اختبار عظیم من اللَّه لکم «وَفِی ذلِکُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّکُمْ عَظِیمٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۵

وَ وَاعَدْنَا مُوسَی ثَلَاثِینَ لَیْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِیقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِینَ لَیْلَةً وَ قَالَ مُوسَی لِأَخِیهِ هَارُونَ اخْلُفْنِی فِی قَوْمِی وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ (۱۴۲) المیعاد الکبیر: فی هذه الآیة إشارة إلی مشهد من مشاهد حیاة بنی إسرائیل، ومشکلة موسی علیه السلام معهم، وذلک هو قصة ذهاب موسی إلی میقات ربّه، وتلقی أحکام التوراة عن طریق الوحی وکلامه مع اللَّه، والتی ذکرت بعد قصة عبادة بنی إسرائیل للعجل وانحرافهم عن مسیر التوحید، وضجّة السامری العجیبة. یقول تعالی أوّلًا: «وَوَاعَدْنَا مُوسَی ثَلثِینَ لَیْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِیقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِینَ لَیْلَةً».

هذه الأیام الأربعون بدأت من أوّل شهر ذی القعدة وختمت بالیوم العاشر من شهر ذی الحجة (عید الأضحی).

«المیقات»: مشتقة من مادة «الوقت» بمعنی الموعد المضروب للقیام بعمل ما، ویطلق عادة علی الزمان، ولکنه قد یطلق علی المکان الذی یجب أن یتمّ العمل فیه، مثل «میقات الحج» یعنی المکان الذی لا یجوز أن یجتازه أحد إلّامحرماً.

ثم ذکرت الآیة أنّ موسی استخلف هارون وأمره بالإصلاح فی قومه، وأن لا یتبع سبیل المفسدین: «وَقَالَ مُوسَی لِأَخِیهِ هرُونَ اخْلُفْنِی فِی قَوْمِی وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ».

حدیث المنزلة: أشار کثیر من المفسرین الشیعة والسنّة- فی ذیل الآیة مورد البحث- إلی حدیث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أنّ الشیعة اعتبروا هذا الحدیث من الأدلة الحیّة والصریحة علی خلافة علی علیه السلام لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله مباشرة وبلا فصل.

ولکی یتّضح هذا البحث ندرج هنا أوّلًا أسانید ونص هذا الحدیث باختصار، ثم نبحث فی دلالته.

أسانید حدیث المنزلة: روی جمع کبیر من صحابة النبی صلی الله علیه و آله حول غزوة تبوک: أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله

خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفنى فى الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه ليس نبى بعدى».

وهذا النص ورد فى أوثق الكتب الحديثية لدى أهل السنّة، يعنى صحيح البخارى وعن سعد بن أبى وقاص «١».

---

(١) صحيح البخارى ۵/ ١٢٩.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١۶۶

وقد روى هذا الحديث- أيضاً- فى صحيح مسلم الذى يعدّ من المصادر الرئيسية عن أهل السنة: خلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال: يا رسول اللَّه تخلفنى فى النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبى بعدى» «١».

وقد ورد عين هذا الموضوع فى سنن ابن ماجه أيضاً «٢».

وقد أضيف فى سنن الترمذى مطلب آخر، وهو عن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال:

أمر معاوية بن أبى سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلن أسبّه، لئن تكون لى واحدة منهنّ أحبّ إلىّ من حُمْر النَعَم. سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول لعلى وخلفه فى بعض مغازيه؟ فقال له يا رسول اللَّه تخلفنى مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبوّة بعدى». وسمعته يقول يوم خيبر: «لاعطين الراية رجلًا يحب اللَّه ورسوله ويحبه اللَّه ورسوله». قال: فتطاولنا لها. فقال: «ادعوا لى علياً». قال فأتاه وبه رمد فبصق فى عينه فدفع الراية إليه ففتح اللَّه عليه. وأنزلت هذه الآية «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم» الآية دعا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلى» «٣».

وقد أشير إلى هذا الحديث فى (١٣) موارد من مسند أحمد بن حنبل، تارة ذكرت فيه غزوة تبوك، وتارة من دون ذكر غزوة تبوك بل بصورة كلية «۴».

والجدير بالذكر أنّ هذا الحديث لم يروه سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه و آله وحده، بل رواه- أيضاً- مجموعة كبيرة من الصحابة الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصاً منهم:

جابر بن عبداللَّه، وأبو سعيد الخدرى، وأسماء بنت عميس، وابن عباس، وأم سليم، وعبد اللَّه بن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب، والأجدر بالذكر أنّ هذا الحديث رواه عن النبى صلى الله عليه و آله معاوية بن أبى سفيان، وعمر بن الخطاب أيضاً.

---

(١) صحيح مسلم ٧/ ١٢٠.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ۴۵.

(٣) سنن الترمذى ۵/ ٣٠١.

(۴) مسند أحمد بن حنبل ١/ ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧۵ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨۴ و ١٨۵ و ٣٣١؛ و ٣/ ٣٢؛ و ۶/ ٣۶٩ و ۴٣٨.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١۶٧

حديث المنزلة فى سبعة مواضع: النقطة الاخرى، إنّ النبى صلى الله عليه و آله- وخلافاً لما يتصوره البعض- لم يقل هذا البحث فى على عليه السلام فى غزوة تبوك فقط، بل قال هذه العبارة فى عدّة مواضع منها:

١- فى المؤاخاة الاولى: يعنى فى المرّة الاولى التى آخى فيها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بين المهاجرين واختار علياً عليه السلام فى هذه المؤاخاة لنفسه وقال: «أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبىّ بعدى» «١».

۲- فی یوم المؤاخاة الثانیـة: لمّا آخی النبی صـلی الله علیه و آله بین أصـحابه، قال علیّ: لقـد ذهـب روحی وانقطع ظهری حین رأیتک فعلت بأصحابک ما فعلت غیری فإن کان هذا من سخط علی فلک العتبی والکرامة فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «والذی بعثنی بالحق ما أخرتک إلّالنفسی وأنت منی بمنزلة هارون من موسی غیر أنّه لا نبیّ بعدی وأنت أخی ووارثی» قال: وما أرث منک یا رسول اللّه؟ قال: «ما ورثت الأنبیاء من قبلی». قال: وما ورثت الأنبیاء من قبلک؟

قال: «کتاب ربهم وسنة نبیهم وأنت معی فی قصری فی الجنة مع فاطمة بنتی وأنت أخی ورفیقی» «۲».

۳- أم سـلیم- التی کانت علی جانب من الفضل والعقل، وکانت تعـدّ من أهل السوابق، وهی من الدعاة إلی الإسـلام، واستشـهد أبوها وأخوها بین یدی النبی صلی الله علیه و آله وفارقت زوجها لأنّه أبی أن یعتنق الإسلام، وکان رسول اللّه صلی الله علیه و آله یزورها فی بیتها ویسلّیها- تروی أم سلیم هـذه أنّ رسول اللّه صـلی الله علیه و آله قال لها ذات یوم: «إنّ علیّاً لحمه من لحمی ودمه من دمی، وهو منّی بمنزلة هارون من موسی» «۳».

۴- عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: کفّوا عن ذکر علی بن أبی طالب فإنّی سـمعت رسول اللّه صـلی الله علیه و آله یقول: فی علی ثلاث خصـال لئن یکون لی واحـدة منهن أحبّ إلی ممّا طلعت علیه الشـمس، کنت أنا وأبوبکر وأبو عبیـدة ابن الجراح ونفر من أصـحاب رسول اللّه صـلی الله علیه و آله والنبی صـلی الله علیه و آله متکیء علی علی بن أبی طـالب حتی ضـرب بیـده علی منکبه ثم قال: «أنت یا علی أوّل المؤمنین إیماناً، وأوّلهم إسـلاماً». ثم قال: «وأنت منّی بمنزلة هارون من موسـی وکذب علی من زعم أنّه یحبنی ویبغضک» «۴».

---

(۱) کنز العمال ۵/ ۷۲۴.

(۲) کنز العمال ۹/ ۱۶۷/ ۲۵۵۵۴.

(۳) کنز العمال ۱۱/ ۶۰۷.

(۴) کنز العمال ۱۳/ ۱۲۲.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۸

۵- عن هانئ بن هانئ عن علیّ علیه السـلام قال: لما صـدرنا من مکـة إذا ابنة حمزة تنادی: یا عم یا عم، فتناولها علی علیه السـلام عنه وأخـذها فقـال لصـاحبته: دونـک ابنـة عمـک فحملتهـا، فاختصم فیها علی وزیـد وجعفر، فقال علیّ: أنا آخـذها وهی بنت عمی. وقال جعفر: ابنـة عمی وخالتها تحتی. وقال زیـد: ابنة أخی. فقضـی رسول اللّه صـلی الله علیه و آله لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، ثم قال لعلیّ: «أنت منّی بمنزلة هارون وأنا منک» «۱». ۶- عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «یا علی إنّه یحلّ لک فی المسجد ما یحلّ لی وإنّک منّی بمنزلة هارون من موسی إلّاأنّه لا نبیّ بعدی» «۲».

هـذه الموارد السـتّة هی غیر غزوة تبوک، أخـذناها برمتها من المصادر المعروفـة لأهل السـنة، وإلّا فإنّ هناک فی الروایات المرویة عن طریق الشیعة موارد اخری قال فیها رسول اللّه صلی الله علیه و آله هذه العبارة فی شأن علی علیه السلام أیضاً.

من مجموع ذلک یستفاد أنّ حدیث المنزلة لم یکن مختصاً بغزوة تبوک، بل هو أمر عام ودائم فی شأن علی علیه السلام.

ومن هنا یتّضح أیضاً أنّ ما تصوره بعض علماء السنّة مثل «الآمدی» من أنّ هذا الحدیث یتکفل حکماً خاصّاً فی مجال خلافة علی علیه السـلام وأنّه یرتبـط بظرف غزوة تبوک خاصـة، ولا یرتبط بغیره من الظروف والأوقات، تصور باطل أساساً، لأنّ النبی صـلی الله علیه و آله کرّر هذه العبارة فی مناسبات متنوعة ممّا یفید أنّه کان حکماً عاماً.

محتوی حـدیث المنزلـة: لو درسـنا- بموضوعیـة وتجرّد- هـذا الحـدیث، وتجنّبْنـا الأحکام المسبّقة والتحججات الناشـئة من العصبیـة، لاسـتفدنا من هـذا الحـدیث أنّ علیاً علیه السـلام کان له- بموجب هـذا الحدیث- جمیع المنازل التی کانت لهارون فی بنی إسـرائیل-

إلّاالنبوة.

وَ لَمَّا جاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (۱۴۳)

---

(۱) خصائص النسائی/ ۸۸.

(۲) ینابیع المودة ۱/ ۲۶۰.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۹

المطالبة برؤية اللَّه: فی هذه الآیات والآیات اللاحقة یشیر سبحانه إلی مشهد مثیر آخر من مشاهد حیاة بنی إسرائیل، وذلک عندما طلب جماعة من بنی إسرائیل من موسی علیه السلام- بإلحاح وإصرار- أن یَروا اللَّه سبحانه، وأنّهم لن یؤمنوا به إذا لم یشاهدوه، فاختار موسی سبعین رجلًا من قومه واصطحبهم معه إلی میقات ربّه، وهناک رفع طلبهم إلی اللَّه سبحانه، فسمع جواباً أوضح لبنی إسرائیل کل شیء فی هذا الصعید. ففی الآیات الحاضرة یقول أوّلًا:

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ».

ولکن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبی: کلا، لن ترانی أبداً «قَالَ لَن تَرَينِى وَلكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَينِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا» (۱).

فلمّا رأی موسی هذا المشهد الرهیب تملکه الرعب إلی درجة أنّه سقط علی الأرض مغمیً علیه «وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا».

وعندما أفاق قال: ربّاه سبحانک، أنبتُ إلیک، وأنا أوّل من آمن بک «فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ».

هل یمکن رؤیة اللَّه أساساً؟ نقرأ فی الآیة الحاضرة أنّ اللَّه سبحانه قال لموسی: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَينِى» فهل مفهوم هذا الکلام هو أنّ اللَّه قابل للرؤیة أساساً؟

الجواب هو أنّ هذا التعبیر هو کنایة عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة «حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمّ الْخِيَاطِ» وحیث کان من المعلوم أنّ الجبل یستحیل أن یستقر فی مکانه عند تجلّی اللَّه له، لهذا ذکر هذا التعبیر، کما أنّ مفهوم جملة «لَن تَرَينِى» إنّک لا ترانی لا فی هذا العالم ولا فی العالم الآخر.

وعلی هذا الأساس، إذا جاء فی الأحادیث والأخبار الإسلامیة أو الآیات القرآنیة عبارة «لقاء اللَّه» فإنّ المقصود هو المشاهدة بعین القلب والعقل.

---

(۱) «دک»: فی الأصل بمعنی سوّی الأرض، وعلی هذا فالمقصود من عبارة «جعله دکّاً» هو أنّه حطم الجبال وسواها کالأرض وجاء فی بعض الرّوایات أنّ الجبل تناثر أقساماً، سقط کل قسم منه فی جانب أو غار فی الأرض وتلاشی نهائیاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۰

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (۱۴۵) ألواح التوراة: وفی النهایة أنزل اللَّه شرائع وقوانین دینه علی موسی علیه السلام. ففی البدایة:

«قَالَ يَا مُوسَى إِنّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسلتِى وَبِكَلمِى».

فإذا کان الأمر کذلک «فَخُذْ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكُن مّنَ الشَّاكِرِينَ».

إنّ هدف الآیة هو بیان امتیازین کبیرین لموسی علی الناس: أحدهما تلقی رسالات اللَّه وتحمّلها والآخر التکلّم مع اللَّه وکلا هذین

الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمته.

ثم أضاف تعالى واصفاً محتويات الألواح التى أنزلها على موسى عليه السلام بقوله: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلّ شَيْءٍ».

ثم أمره بأن يأخذ هذه التعاليم والأوامر مأخذ الجد، ويحرص عليها بقوة «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ».

وأن يأمر قومه أيضاً بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا».

كما يحذرهم بأنّ مخالفة هذه الأوامر والتعاليم والفرار من المسؤوليات والوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، وأن عاقبتها هى جهنم وسوف يرى الفاسقون مكانهم «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ».

بحوث

۱- يستفاد من الآيات القرآنية المتنوعة أنّ اللَّه تعالى كلّم موسى عليه السلام وكان تكليم اللَّه لموسى عن طريق خلق أمواج صوتية فى الفضاء أو فى الأجسام، وربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتية من خلال «شجرة الوادى الأيمن» وربّما من «جبل طور» وتبلغ مسمع موسى.

۲- يستفاد من عبارة «مِن كُلّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً» أنّه لم تكن جميع المواعظ والمسائل موجودة فى ألواح موسى عليه السلام لأنّ اللَّه يقول: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۱

وهذا لأجل أنّ دين موسى عليه السلام لم يكن آخر دين، ولم يكن موسى عليه السلام خاتم الأنبياء ومن المسلم أنّ الأحكام الإلهية التى نزلت كانت فى حدود ما يحتاجه الناس فى ذلك الزمان، ولكن عندما وصلت البشرية إلى آخر مرحلة حضارية للشرايع السماوية نزل آخر دستور إلهى يشمل جميع حاجات الناس المادية والمعنوية.

وتتّضح من هذا أيضاً علة تفضيل مقام على عليه السلام على مقام موسى عليه السلام فى بعض الروايات، وهى أنّ علياً عليه السلام كان عارفاً بجميع القرآن، الذى فيه تبيان كل شىء «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلّ شَيْءٍ» فى حين أنّ التوراة لم يرد فيها إلّابعض المسائل.

۳- فى مجال قوله: «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» الظاهر أنّ المقصود منها هو جهنم، وهى مستقرّ كل اولئك الذين يخرجون من طاعة اللَّه، ولا يقومون بوظائفهم الإلهية. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (۱۴۶) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۷) مصير المتكبرين: البحث فى هاتين الآيتين هو نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون وملئه والعصاة من بنى إسرائيل، فقد بيّن اللَّه فى هذه الآيات الحقيقة التالية وهى: إذا كان الفراعنة أو متمرّدو بنى إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدة كل تلك المعاجز والبينات، وسماع كل تلكم الحجج والآيات الإلهية، فذلك بسبب أنّنا نصرف المتكبرين والمعاندين للحق- بسبب أعمالهم- عن قبول الحق. ولهذا يقول أوّلًا:

«سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ».

ثم أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» وكيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الاولى قوله تعالى: «وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَايُؤْمِنُوا بِهَا» إنّهم لا يؤمنون حتى ولو رأوا جميع المعاجز والآيات، والثانية: «وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» والثالثه إنّهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۲

على العكس: «وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا». بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها وأسبابها، فقال: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ».

ثم تبين الآية اللاحقة عقوبة مثل هؤلاء الأشخاص وتقول: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ».

«الحبط»: يعنى بطلان العمل وفقدانه للأثر والخاصية، يعنى أنّ مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيراً فإنّ عملهم لن يعود عليهم بنتيجة. وفى ختام الآية أضاف بأنّ هذا المصير ليس من باب الإنتقام منهم، إنّما هو نتيجة أعمالهم هم، بل هو عين أعمالهم ذاتها وقد تجسمت أمامهم «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ هذه الآية نموذج آخر من الآيات القرآنية الدالة على تجسم الأعمال، وحضور أعمال الإنسان خيرها وشرها يوم القيامة.

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَ لَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) اليهود وعبادتهم للعجل: فى هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، وفى نفس الوقت العجيبة التى وقعت فى بنى إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، وهى قصّة عبادتهم للعجل التى تمّت على يد شخص يدعى «السامرى» مستعيناً بحلى بنى إسرائيل وما كان عندهم من آلات الزّينة. وفى الآية الحاضرة يقول القرآن الكريم أوّلًا: إنّ قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى ميقات ربّه صنعوا من حليّهم عجلًا، وكان مجرّد تمثال لا روح فيه، ولكنه كان له صوت كصوت البقر، واختاروه معبوداً لهم:

«وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ».

كيف كان للعجل الذهبى خوار؟ و «الخوار» هو الصوت الخاص الذى يصدر من البقر أو العجل، وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ السامرى بسبب ما كان عنده من معلومات وضع

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٧٣

أنابيب خاصه فى باطن صدر العجل الذهبى، كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبىّ شبيه بصوت البقر.

ثم يقول القرآن الكريم معاتباً وموبّخاً: ألم ير بنو إسرائيل أنّ هذا العجل لا يتكلم معهم ولا يهديهم لشىء، فكيف يعبدونه؟ «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَايُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا». يعنى أنّ المعبود الحقيقى هو من يعرف- على الأقل- الحسن والقبيح، وتكون له القدرة على هداية أتباعه، ويتحدث إلى عبدته ويهديهم سواء السبيل، ويعرّفهم على طريقة العبادة.

إنّهم ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا يقول فى ختام الآية: «اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ».

بيد أنّه برجوع موسى عليه السلام إليهم، واتضاح الأمر عرف بنو إسرائيل خطأهم، وندموا على فعلهم، وطلبوا من اللّه أن يغفر لهم، وقالوا: إذا لم يرحمنا اللّه ولم يغفر لنا فإنّنا لا شك خاسرون «وَلَمَّا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ لِأَخِى وَ أَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل: فى هاتين الآيتين بيّن تعالى بالتفصيل ما جرى بين موسى عليه السلام وبين عبدة العجل عند عودته من ميقاته المشار إليه فى الآية السابقة. فهاتان الآيتان تعكسان ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة التى أدّت إلى يقظة هذه الجماعة. يقول فى البدء: ولما عاد موسى عليه السلام إلى قومه غضبان ممّا صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضيعتم دينى وأسأتم الخلافة «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِن بَعْدِى». والمراد هو أنّكم تعجلتم فى الحكم بالنسبة إلى أمر اللّه تعالى فى قضية تمديد مدّة الميقات من ثلاثين إلى أربعين، فاعتبرتم عدم مجيئى فى المدة المقررة- أوّلًا- دليلًا على موتى، فى حين كان يتعين عليكم أن تتريثوا وتنتظروا قليلًا ريثما تمرّ أيام ثم تتّضح الحقيقة.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٧٤

فهنا لابدّ أن یظهر موسی علیه السلام غضبه الشدید إذ العودة إلی الحق والصواب عسیرة فی غیر هذه الصورة. إنّ القرآن یستعرض ردّة فعل موسی الشدیدة فی قبال ذلک المشهد وفی تلک الأزمة، إذ یقول: إنّ موسی ألقی ألواح التوراة التی کانت بیده، وعمد إلی أخیه هارون وأخذ برأسه ولحیته وجرهما إلی ناحیته ساخطاً غاضباً.

وفی الحقیقة کان هذا الموقف یعکس- من جانب- حالة موسی علیه السلام النفسیة، وانزعاجه الشدید تجاه وثنیة بنی إسرائیل وانحرافهم، ومن جانب آخر کان ذلک وسیلة مؤثرة لهزّ عقول بنی إسرائیل الغافیة، والفاتهم إلی بشاعة عملهم.

ثم إنّ القرآن الکریم ذکر أنّ هارون قال- وهو یحاول استعطاف موسی وإثبات براءته فی هذه المسألة-: یابن ام هذه الجماعة الجاهلة جعلونی ضعیفاً إلی درجة أنّهم کادوا یقتلوننی، فإذن أنا بریء، فلا تفعل بی ما سیکون موجباً لشماتة الأعداء بی ولا تجعلنی فی صف هؤلاء الظالمین «قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَکَادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلَا تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ».

لقد هدأ غضب موسی علیه السلام بعض الشیء، وتوجه إلی اللّه «قَالَ رَبّ اغْفِرْ لِی وَلِأَخِی وَأَدْخِلْنَا فِی رَحْمَتِکَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ».

إنّ طلب موسی علیه السلام العفو والمغفرة من اللّه تعالی لنفسه ولأخیه، لم یکن لذنب اقترفاه، بل کان نوعاً من الخضوع للّه، والعودة إلیه، وإظهار النفرة من أعمال الوثنیین القبیحة، وکذا لإعطاء درس عملی للجمیع حتی یفکروا ویروا إذا کان موسی وأخوه- وهما لم یقترفا إنحرافاً- یطلبان من اللّه العفو والمغفرة هکذا، فالأجدر بالآخرین أن ینتبهوا ویحاسبوا أنفسهم، ویتوجهوا إلی اللّه ویسألوه العفو والمغفرة لذنوبهم. وقد فعل بنو إسرائیل هذا فعلًا- کما تفید الآیتان السابقتان.

إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیا وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ (۱۵۲) وَ الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۵۳) وَ لَمَّا سَکَتَ عَنْ مُوسَی الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَ فِی نُسْخَتِهَا هُدًی وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِینَ هُمْ لِرَبِّهِمْ یَرْهَبُونَ (۱۵۴)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۵

لقد فعلت ردّة فعل موسی علیه السلام الشدیدة فعلتها فی المآل فقد ندم عَبَدة العجل الإسرائیلیون- وهم أکثریة القوم- علی فعلهم، وقد طرح هذا الندم فی عدّة آیات قبل هذه الآیة أیضاً (الآیة ۱۴۹) ومن أجل أن لا یُتصور أنّ مجرّد الندم من مثل هذه المعصیة العظیمة یکفی للتوبة، یضیف القرآن الکریم قائلًا: «إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِی الْحَیَوةِ الدُّنْیا».

وهکذا لأجل أن لا یُتصور أنّ هذا القانون یختص بهم أضاف قائلًا: «وَکَذلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ».

إنّ التعبیر ب «اتّخذوا» إشارة إلی أنّ الوثن لیس له أیّة واقعیة، ولکن انتخاب عبدة الأوثان هو الذی أعطاه تلک الشخصیة والقیمة الوهمیة، ولهذا أتی بکلمة «العجل» وراء هذه الجملة فوراً، یعنی أنّ ذلک العجل هو نفس ذلک العجل حتی بعد انتخابه للعبادة.

وفی الآیة اللاحقة یکمّل القرآن الکریم هذا الموضوع ویقول فی صورة قانون عام:

«والَّذِینَ عَمِلُوا السَّیَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِیمٌ» فالذین یتوبون من بعد السیئة وتتوفر کل شروط التوبة لدیهم یغفر اللّه لهم ویعفو عنهم.

الآیة الأخیرة من الآیات المبحوثة تقول: ولما سکن غضب موسی علیه السلام وحصل علی النتیجة التی کان یتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلک الألواح التی کانت تحتوی- من أوّلها إلی آخرها- علی الرحمة والهدایة، رحمة وهدایة للذین یشعرون بالمسؤولیة، والذین یخافون اللّه، ویَخضعون لأوامره وتعالیمه: «وَلَمَّا سَکَتَ عَن مُّوسَی الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِی نُسْخَتِهَا هُدًی وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِینَ هُمْ لِرَبّهِمْ یَرْهَبُونَ».

وَ اخْتَارَ مُوسَی قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلًا لِمِیقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیَّایَ أَ تُهْلِکُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِیَ إِلَّا فِتْنَتُکَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِی مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِیُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَیْرُ الْغَافِرِینَ (۱۵۵) وَ اکْتُبْ لَنَا فِی هذِهِ

الـدُّنْيا حَسَـنَةً وَ فِى الْآخِرَةِ إِنَّا هُـدْنا إِلَيْكَ قالَ عَـذَابِى أُصِـيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِى وَسِـعَتْ كُلَّ شَـىْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (۱۵۶)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۶

منـدوبو بنى إسـرائيل فى الميقات: فى الآيتين الحاضـرتين يعود القرآن الكريم مرّة اخرى إلى قصة ذهاب موسـى إلى الميقات «الطور» فى صحبة جماعة، ويقص قسماً آخر من تلك الحادثة. فقد قال القرآن الكريم فى الآيتين الحاضرتين أوّلًا: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا».

ولكن بنى إسـرائيل حيث إنّهم سـمعوا كلام اللَّه طلبوا من موسـى عليه السـلام أن يطلب من اللَّه تعالى أن يريهم نفسه- لبنى إسرائيل- جهرة، وفى هـذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظيم وهلك الجماعة، ووقع موسـى عليه السـلام على الأرض مغشـياً عليه، وعندما أفاق قال: ربّاه لو شـئتَ لأهلكتَنا جميعاً، يعنى بماذا أجيبُ قومى لو هلك هؤلاء: «فَلَمَّا أَخَـذَتْهُمُ الرَّجْفَـةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِـئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيىَ».

ثم قال: ربّاه إنّ هذا المطلب التافة إنّما هو فعل جماعة من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم:

«أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا».

ثم إنّ موسـى عليه السلام قال فى عقيب هذا التضرع والطلب من اللَّه: ربّاه إنّى أعلم أنّ هذا كان اختبارك وامتحانك، فأنت تضلّ من تشاء (وكان مستحِقاً لذلك) وتهدى من تشاء (وكان لائقاً لذلك) «إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» وإختبارك.

وفى ختام الآية يقول موسى عليه السلام: ربّاه: «أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ».

من مجموع الآيات والروايات يسـتفاد أنّ الهالكين قـد اسـتعادوا حياتهم فى المآل وعادوا برفقة موسـى عليه السـلام إلى بنى إسـرائيل، وقصُّوا عليهم كل ما سمعوه وشاهدوه، وأخذوا فى إرشاد الغافلين الجاهلين وهدايتهم.

وفى الآيـة اللاحقـة يشير إلى طلب موسـى عليه السـلام من ربّه وتكميـل مسألـة التوبـة التى ذكرت فى الآيات السابقـة، يقول موسـى: «وَاكْتُبْ لَنَا فِى هذِهِ الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِى الْأَخِرَةِ».

«الحسـنة»: تعنى كل خير وجمال، وعلى هذا الأساس تشـمل جميع النعم، وكذا التوفيق للعمل الصالح، والمغفرة، والجنّة، وكل نوع من أنواع السعادة.

ولقـد أجـاب اللَّه- فى النهايـة- دعـاء موسـى عليه السـلام وقَبِل توبته، ولكن لا بصورة مطلقـة، بل جاء ذلك فى ختام الآيـة مشـروطاً بشروط، إذ يقول: «قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ» وكان مستحِقاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۷

ثم يضيف تعالى قائلًا: «وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ».

إنّ هـذه الرحمـة الواسـعة يمكن أن تكون إشارة إلى أنواع الرحمة المادية والمعنوية، لأنّ النعم المعنوية لا تختص بقوم دون قوم، وإن كان لها شرائط تتوفر لدى الجميع.

ولكن حتى لا يظن أحـد أنّ قبول التوبـة، أو سـعة الرحمـة الإلهيـة وشـموليتها، غير مقيـدة وغير مشـروطة، ومن دون حساب أو كتاب، يضيف فى ختام الآية: سرعان ما أكتب رحمتى للذين تتوفر فيهم ثلاثة أمور: اتقوا، وآتوا الزكاة، وآمنوا بآياتى «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَالَّذِينَ هُم بَايَاتِنَا يُؤْمِنُونَ».

«التقوى»: إشارة إلى إجتناب كل معصية وإثم.

«الزكاة»: مرادة هنا بمعناها الواسع، وحسب الحديث المعروف «لكل شىء زكاة» يشمل جميع الأعمال الصالحة والطيبة.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ

الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) اتبعوا هذا النبى: هذه الآية تكمل الآية السابقة التى تحدثت عن صفات الذين تشملهم الرحمة الإلهية الواسعة، أى من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، وأداء الزكاة، والإيمان بآيات اللّه. وفى هذه الآية يذكر صفات اخرى لهم من باب التوضيح، وهى اتباع الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله لأنّ الإيمان باللّه غير قابل للفصل عن الإيمان بالنبى صلى الله عليه و آله وإتباع دينه، ولهذا يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ».

ثم يبين ست صفات لهذا الرسول مضافاً إلى مقام الرسالة:

١- أنّه نبىّ اللّه «النَّبِىَّ».

والنبى يطلق على كل من يبين رسالة اللّه إلى الناس، ويوحى إليه وإن لم يكن مكلّفاً بالدعوة والتبليغ، ولكن الرسول مضافاً إلى كونه نبياً- مكلف بالدعوة إلى دين اللّه، وتبليغه والإستقامة فى هذا السبيل.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٧٨

٢- أنّه نبى امّى لم يتعلم القراءة والكتابة، وقد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكة أم القرى قاعدة التوحيد الأصلية: «الْأُمِّىَّ».

٣- ثم إنّ هذا النبى هو «الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَيةَ وَالْإِنجِيلِ».

۴- ومن سمات هذا النبى أنّ دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقة كاملة، فهو يدعو إلى كل الخيرات وينهى عن كل الشرور والممنوعات العقلية: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ».

۵- كما أنّ محتوى دعوته منسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمة ويحرم ما تنفر منه «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ».

۶- أنّه ليس كأدعياء النبوة والرسالة الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار والاستثمار والاستغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنّه يرفع عنهم إصرهم والأغلال التى تكبّل عقولهم وأفكارهم وتثقل كاهلهم «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ» «١».

وبما إنّ هذه الصفات الست بالاضافة إلى الصفة السابعة وهى مقام الرسالة تشكّل من حيث المجموع علامة واضحة ودليل قاطع على صدق دعواه، فيضيف القرآن الكريم:

«فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

بحثان

١- خمسة أدلة على النبوة فى آية واحدة: الأوّل: أنّه «امّى» لم يدرس، ولكنه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام فى التاريخ البشرى.

الثانى: أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة فى الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علماً لدى المرء بحقانيته ....

الثالث: أنّ محتويات دعوته تنسجم انسجاماً كاملًا مع العقل.

الرابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم والفطرة السويّة.

الخامس: لو لم يكن من جانب اللّه لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصة، وفى هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال والسلاسل عن الناس، بل عليه أن يبقيهم فى حالة الجهل والغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، فى حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل والغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم والمعرفة.

(۱) «الإصر»: يعنى فى الأصل عقد الشيء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۹

أغلال الوثنية والخرافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد.

أغلال التمييز بكل أنواعه، والحياة الطبقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلى الأخوة الدينية والإسلامية، والمساواة أمام القانون.

وهكذا سائر الأغلال الاخرى.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانية دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح وأقوى.

۲- البشارات بظهور النبى فى العهدين: إنّ الشواهد التاريخية القطعية، وكذا محتويات كتب اليهود والنصارى المقدسة (التوراة والإنجيل) تفيد أنّ هذه الكتب ليست هى الكتب السماوية التى نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام وأنّ يد التحريف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس واندثر، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هى إلّاخليط من نسائج الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التى نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام مما بقى فى أيدى تلامذتهم.

ولكن مع هذا فإنّه يلحظ فى ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمن اشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النبى العظيم.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸) دعوة النبى العالمية: فى تفسير الصافى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! أنت الذى تزعم أنّك رسول اللَّه، وأنّك الذى يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبى ساعة ثم قال: «نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول ربّ العالمين». قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فأنزل اللَّه هذه الآية التى صرّحت بأنّ رسالة النبى صلى الله عليه و آله رسالة عالمية.

وفى البداية يأمر اللَّه تعالى رسول اللَّه قائلًا: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۰

مختصر الامثل ج۲ ۱۹۹

إنّ هذه الآية مثل آيات كثيرة اخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

ثم إنّه وصف الإله الذى يدعو إليه النبى صلى الله عليه و آله بثلاث صفات:

۱- «الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» فله الحاكمية المطلقة.

۲- «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ» فلا معبود يليق للعبادة سواه.

۳- «يُحْيِ وَيُمِيتُ» بيده نظام الحياة والموت.

وفى الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان باللَّه وبرسوله الذى لم يتعلّم القرآءة والكتابة والقائم من بين الناس «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيّ الْأُمّيّ».

النبى الذى لا يكتفى بدعوة الآخرين إلى هذه الحقائق فحسب، بل يؤمن هو فى الدرجة الاولى- بما يقول، يعنى الإيمان باللَّه وكلماته «الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ».

إنّه لا يؤمن فقط بالآيات التى نزلت عليه، بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقية للأنبياء السابقين.

إنّ تأريخ النبى صلى الله عليه و آله برمّته يشهد بهذه الحقيقة وهى أنّه صلى الله عليه و آله كان أكثر من غيره التزاماً بالتعاليم التى جاء بها.

أجل، لابدّ لكم من اتّباع مثل هذا النبى حتى تسطع أنوار الهداية على قلوبكم، لتهتدوا إلى طريق السعادة «وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

وهذا إشارة إلى أنّه لا يكفى مجرد الإيمان، وإنما يفيد الإيمان إذا إقترن بالإتباع العملى.

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) جانب من نعم اللّه على بنى إسرائيل: فى الآيات الحاضرة إشارة إلى حقيقة رأينا نظيرها فى القرآن الكريم، وهذه الحقيقة هى تحرى القرآن للحق، واحترامه لمكانة الأقليات

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٨١

الدينية الصالحة، يعنى أنّه لم يكن ليصف جميع بنى إسرائيل بأسرهم بالفساد والإفساد، وبأنّ هذا العرق القومى برمته ضالّ متمرد من دون إستثناء، بل اعترف بأنّ منهم أقلية صالحة غير موافقة على أعمال الأكثرية، وقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصّاً بهؤلاء فيقول: «وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إنّ هذه الآية تشير إلى الأقلية اليهودية الذين كانوا يعيشون فى عصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله والذين اعتنقوا الإسلام تدريجاً وبعد مطالعة دعوة النبى ومحتوى رسالته، وانضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين.

وفى الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نعم اللّه على بنى إسرائيل.

فيقول أوّلًا: «وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَىْ عَشَرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا». وهذا التقطيع والتقسيم إنّما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل، بعيد عن المصادمات الخشنة.

«أسباط»: جمع «سبط» (بفتح السين وبكسرها) تعنى فى الأصل الإنبساط فى سهولة، ثم يطلق السبط والأسباط على الأولاد وبخاصّة الأحفاد لأنّهم امتداد العائلة.

والمراد من الأسباط- هنا- هو قبائل بنى إسرائيل وفروعها، الذين كان كل واحد منها منشعباً ومنحدراً من أحد أولاد يعقوب عليه السلام.

والنعمة الاخرى هى: أنّه عندما كان بنو إسرائيل متوجهين إلى بيت المقدس وأصابهم العطش الشديد الخطير فى الصحراء، وطلبوا من موسى عليه السلام الماء، أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر ... ففعل فنبع الماء فشربوا ونجوا من الهلاك «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا».

وقد كانت الينابيع هذه مقسمة بين أسباط بنى إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذى يشرب منه «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ».

والنعمة الثالثة هى: أنّ اللّه تعالى أرسل لهم- فى تلك الصحارى الملتهبة حيث لا سقف ولا ظلال- سحباً ظلّلتهم «وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ».

والنعمة الرابعة إنزال المنّ والسلوى عليهم كغذائين لذيذين ومقويين: «وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى .

ثم يقول اللّه تعالى: وقلنا «كُلُوا مِن طَيّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ».

ولكنهم أكلوا وكفروا النعمة ولم يشكروها وبذلك ظلموا أنفسهم «وَمَا ظَلَمُونَا وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٨٢

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) فى تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهية لبنى إسرائيل وطغيانهم تجاه تلك النعم، وكفرانهم بها. يقول تعالى: «وَ» اذكروا «إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ».

وقلنا لهم اطلبوا من اللّه حطّ الذنوب عنكم وعفوه عن خطاياكم، وادخلوا من باب بيت المَقدس بخضوع «وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ

سُجَّدًا».

فاذا قمتم بهذه الامور غفرنا لكم خطاياكم، وأعطينا للمحسنين ثواباً أكبر «نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

وبالرغم من أنّ اللَّه فتح أمامهم أبواب الرحمة، ولو أردوا إغتنام الفرصة لاستطاعوا حتماً إصلاح ماضيهم وحاضرهم، ولكن لم يغتنم الظالمون من بنى إسرائيل هذه الفرصة فحسب، بل بدّلوا أمر اللَّه، وقالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ».

وفى المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان والظلم للنفس وللآخرين عذاب من السماء «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ».

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٨٣

قصة فيها عبرة: فى هذه الآيات يستعرض مشهداً آخر من تاريخ بنى إسرائيل الزاخر بالحوادث، وهو مشهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما فى الأمر أنّ الخطاب موجه فيها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فيقول له: «وَسَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ». أى اسأل يهود عصرك عن قضية القرية التى كانت تعيش على ساحل البحر.

ثم تقول: وذكّرهم كيف أنّهم تجاوزوا- فى يوم السبت- القانون الإلهى «إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ» لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم، وكان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، وعن صيد السمك ويشتغلوا بالعبادة، ولكنهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثم يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبارة التالية: «إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا». فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء فى يوم السبت، بينما كانت تختفى فى غيره من الأيام.

«السبت»: فى اللغة تعنى تعطيل العمل للإستراحة، وسمّى «يوم السبت» بهذا الإسم لأنّ الأعمال العادية والمشاغل كانت تتعطل فى هذا اليوم، ثمّ بقى هذا الإسم لهذا اليوم علماً له.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعى عادى أم كان له جانب استثنائى وإلهى، كان وسيلة لامتحان واختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم: وهكذا اختبرناهم بشىء يخالفونه ويعصون الأمر فيه «كَذلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

وجملة «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» إشارة إلى أنّ اختبارهم كان من خلال أدوات موافقة لأهوائهم وما من شأنه أن يدعوهم إلى المعصية والمخالفة، وجميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبيّن مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصى والذنوب.

عندما واجهت هذه الجماعة من بنى إسرائيل هذا الامتحان الكبير الذى كان متداخلًا مع حياتهم تداخلًا كاملًا، انقسموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأوّل» وكانوا يشكّلون الأكثرية، وهم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهى.

«الفريق الثانى» وكانوا على القاعدة يشكلون الأقلية، وهم الذين قاموا- تجاة الفريق الأوّل بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

«الفريق الثالث» وهم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاة، ولا قاموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٨٤

وفى الآية الثانية من الآيات المبحوثة هنا يشرح الحوار الذى دار بين الساكنين، وبين الذين تحركوا للنهى عن ارتكاب هذه المخالفة فيقول: «وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا».

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأنّنا ننهى عن المنكر لأنّنا نؤدّى واجبنا تجاه اللَّه تعالى، وحتى لا نكون مسؤولين

تجاهه، هذا مضافاً إلى أنّنا نأمل أن يؤثر كلامنا فى قلوبهم، ويكفوا عن طغيانهم وتعنتهم «قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكَمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

ويستفاد من الجملة الحاضرة أنّه ربّما يجب بيان الحقائق والوظائف الإلهية حتى مع عدم احتمال التأثير، وذلك عندما يكون عدم بيان الأحكام الإلهية، وعدم إنكار المنكر سبباً لتناسى وتنامى البدع، وحينما يعدّ السكوت دليلًا على الرضا والموافقة. ففى هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهى فى مكان حتى مع عدم تأثيره فى العصاة والمذنبين.

ثم إنّ الآية اللاحقة تقول: وفى المآل غلبت عبادة الدنيا عليهم، وتناسوا الأمر الإلهى، وفى هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهون عن المنكر، وعاقبنا الظالمين بعقاب أليم بسبب فسقهم وعصيانهم «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» «١».

ثم يشرح العقوبات هكذا: «فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» «٢».

وواضح أنّ أمر «كونوا» هنا أمر تكوينى مثل: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» «٣».

يجب الإلتفات إلى أنّ الممسوخين- حسب الروايات- بقوا على هذه الحالة عدة أيّام ثمّ هلكوا ولم يتولد منهم نسل أبداً.

كيف ارتكبوا هذه المعصية؟ إنّهم فى البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، وذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب والصنارات، ثم لما صُغرت هذه المعصية فى نظرهم، جرأهم ذلك على كسر احترام يوم السبت وحرمته، فأخذوا يصيدون السمك فى يوم السبت تدريجاً وعلناً، واكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جداً.

---

(١) «بئيس»: مشتقة من مادة «بأس» يعنى الشديد.

(٢) «عتوا»: من مادة «عتّو» على وزن «غلوّ»، بمعنى الإمتناع عن طاعة أمر.

(٣) سورة يس/ ٢٨.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٨٥

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَ قَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) تفرق اليهود وتشتتهم: هاتان الآيتان تشيران إلى بعض العقوبات الدنيوية التى أصابت جماعة من اليهود خالفت أمر اللَّه تعالى، وسحقت الحق والعدل والصدق. فيقول فى البداية: واذكروا يوم أخبر اللَّه بأنّه سيسلّط على هذه الجماعة العاصية المتمردة فريقاً يجعلها حليفة العذاب والأذى إلى يوم القيامة «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

ويستفاد من هذه الآية أنّ هذه الجماعة المتمردة الطاغية لن ترى وجه الإستقرار والطمأنينة أبداً، وإن أسّست لنفسها حكومة وشيّدت دولة.

وفى ختام الآية يضيف تعالى قائلًا: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فبالنسبة إلى الكفّار سريع العقاب، وبالنسبة للمذنبين التائبين غفور رحيم.

وهذه الجملة تكشف عن أنّ اللَّه قد ترك الباب مفتوحاً أمامهم حتى لا يظن أحد أنّه قد كُتب عليهم المصير المحتوم والشقاء الابدى الذى لا خلاص منه.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى تفرّق اليهود فى العالم فيقول: «وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ» فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، ولهذا عندما سمعوا بنداء الإسلام وعرفوا دعوة النبى محمّد صلى الله عليه و آله آمنوا به، وبعضهم لم يكونوا كذلك بل تركوا الحق وراءهم ظهرياً، ولم يرتدعوا عن معصية فى سبيل ضمان مصالحهم وحياتهم المادية.

ومرّة اخرى تتجلى هـذه الحقيقـة فى هـذه الآية وهى أنّ الإسـلام لا يعادى العنصـر اليهودى، ولا يشـجبهم لكونهم أتباع دين معين، أو منتمين إلى عنصر وعرق معيّن، بل يجعل أعمالهم هى مقياس تقييمهم.

ثمّ يضيف تعالى قائلًا: «وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». أى ربّما

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٦

نكرمهـم ونجعلهـم فى رفـاه ونعمـة حـتى نـثير فيهـم روح الشـكر، ويعـودوا إلى طريـق الحـق. وربّمـا نغرقهم فى الشدائـد والمصـاعب والمصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور والأنانيـة والتكبر، ويقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون ويعودون إلى اللَّه، والهـدف فى كلتا الحالتين هو التربية والهداية والعودة إلى الحق.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) فى الآيـات الماضيـة دار الحـديث حول أسـلاف اليهود، ولكن فى الآيـة الحاضـرة دار الكلاـم حول أبنائهم وأخلافهم. وفى البدايـة يقول تعالى: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هـذَا الْأَدْنَى . إنّهم ورثوا التوراة عن أسـلافهم، وكـان عليهم أن ينتفعوا بهـا ويهتـدوا، ولكنهم رغم ذلـك فُتنوا بمتـاع هـذه الـدنيا وحطامها الرخيص التافه، واستبدلوا الحق والهدى بمنافعهم الماديّة.

ثم يضـيف قائلًا: وعندما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضـغط الوجدان من جهة، والرغبات والمنافع المادية من جهة اخرى عمدوا إلى الأمانى والآمال الكاذبة وقالوا: لنأخذ المنافع الدنيوية فعلًا سواءً من حلال أو حرام، واللَّه سيرحمنا ويغفر لنا «وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا».

إنّ هـذه الجملـة تكشف عن أنّهم كانوا بعـد القيام بمثل هذا العمل يعيشون حالة من الندم العابر والتوبة الظاهرية، ولكن هذه الندامة- كما يقول القرآن الكريم- لم تكن لها أيّة جذور فى أعماق نفوسهم، ولهذا يقول تعالى: «وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ».

«عَرَض»: على وزن «غرض» يعنى الشـىء الذى لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادى اسم العرض، لكونه زائلًا غير ثابت فى الغالب.

إنّ هـذه الجملـة إشارة إلى عمليات الإرتشاء التى كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السـماوية، ونسـيان أحكام اللَّه لمضادتها لمصالحهم ومنافعهم المادية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٧

ولهذا قال تعالى فى عقيب ذلك: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مّيثَاقُ الْكِتَابِ أن لَّايَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ». أى أنّهم اخذ عليهم الميثاق- بواسطة كتابهم السماوى التوراة- أن لا يفتروا على اللَّه كذباً، ولا يحرفوا كلماته، ولا يقولوا إلّاالحق.

ثم يقول: لو كان هؤلاء الـذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهية، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسـهم أعذاراً، ولكن المشكلة هى أنّهم رأوا التوراة مراراً وفهموا محتواها ومع ذلك ضيّعوا أحكامها، ونبذوا أمرها وراء ظهورهم «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ».

وفى ختام الآية يقول: إنّ هؤلاء يخطئون فى تقديرهم للامور، وإنّ هذه الأعمال لن تجديهم نفعاً «وَالدَّارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لّلَّذِينَ يَتَّقُونَ». ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وفى مقابل الفريق المشار إليه سابقاً يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقتراف جريمة تحريف الآيات الإلهية وكتمانها فحسب، بل تمسـكوا بحـذافيرها وطبقوها فى حياتهم حرفاً بحرف، والقرآن يصف هذه الجماعة بأنّهم مصـلحو العالم، ويعترف لهم بأجر جزيل وثواب عظيم، ويقول عنهم: «وَالَّذِينَ يُمَسّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ».

إنّ الآيات الحاضـرة تكشف لنا بوضوح عن أنّ الإصـلاح الواقعى فى الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السـماوية، ومن دون تطبيق الأوامر والتعاليم الإلهيـة، وهـذا التعبير يؤكّـد- مرّة اخرى- هـذه الحقيقـة، وهى أنّ الدين ليس مجرد برنامج يرتبط بعالم ما وراء

الطبيعة، وبدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، ويهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، وإجراء مبادىء العدل والسلام والرفاه والإستقرار، وبالتالي كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) آخر كلام حول اليهود: هذه الآية آخر آية فى هذه السورة تتحدث حول حياة بنى إسرائيل وهى تتضمن تذكير قصة اخرى ليهود عصر النبى صلى الله عليه و آله قصة فيها عبرة، كما أنّها دليل على إعطاء ميثاق وعهد، إذ يقول: واذكروا إذ قلعنا الجبل من مكانه وجعلناه فوق

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٨٨

رؤوسهم كأنّه مظلّة «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» «١». وقد ظنّوا أنّه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد وفزع «وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ».

وفى تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة وجديّة «خُذُوا مَا ءَاتَيْنكُم بِقُوَّةٍ».

واذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، وخافوا من العقاب الإلهى واعملوا بما أخذناه فيه منكم من المواثيق «وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

يعنى أنّ رسالة موسى عليه السلام وسائر الأنبياء وأعمالهم ومواجهاتهم المستمرة والصعبة وما لقوا من صعاب ومتاعب وشدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر اللّه، وتنفيذ مبادىء الحق والعدالة والطهر والتقوى فى المجتمعات البشرية بشكل كامل.

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) العهد الأوّل وعالم الذر: الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطرى» ووجود الإيمان فى أعماق روح الإنسان، ولذلك فإنّ هذه الآيات تُكمّل الأبحاث الواردة فى الآيات المتقدمة من هذه السورة فى شأن «التوحيد الإستدلالى». يقول اللّه سبحانه مخاطباً نبيّه فى هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا».

«الذرية»: معناها فى الأصل الأبناء الصغار اليافعون، إلّاأنّها تطلق فى الغالب على عموم الأبناء.

ثم يشير اللّه سبحانه إلى الهدف النهائى من هذا السؤال والجواب، وأخذ العهد من ذرية آدم فى مسألة التوحيد، فيقول: «أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ».

---

(١) «نتقنا»: من مادة «نتق» تعنى فى الأصل قلع وانتزاع شىء من مكانه، وإلقاءه فى جانب آخر.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٨٩

الآية التالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، وهو أنّ اللّه تعالى إنّما أخذ هذا العهد من ذرية بنى آدم لئلا يعتذروا «أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ».

أجل ... «وَكَذلِكَ نُفَصّلُ الْأَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

إنّ المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الإستعداد «والكفاءات» و «عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الامهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم اللّه الإستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلهى فى ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلى ... كما أودعه فى عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها. فبناءً على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه اللّه من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم: ألست بربّكم؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ

اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧۶) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) فى هذه الآيات إشارة لقصة اخرى من قصص بنى إسرائيل، والآية الاولى من هذه الآيات يخاطب بها النبى صلى الله عليه و آله حيث يقول تعالى: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى ءَاتَيْنَهُ ءَايَتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ». و الآية التالية تكمل هذا الموضوع على النحو التالى «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنهُ بِهَا».

و لكن من المسلم أنّ إكراه الناس وإجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم والسنن الإلهية وحرية الإرادة ولا يكون ذلك دليلًا على عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآية

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٠

تضيف مباشرة إنّنا تركناه وهواه وبدلًا من أن ينتفع من معارفه فإنّه هوى وانحطّ «وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَيهُ». «أخلد»: من «الإخلاد» وهى تعنى السكن الدائم فى مكان واحد مع حرية الإرادة، فجملة (أخلد إلى الأرض) تعنى اللصوق الدائم بالأرض، وهى كناية عن عالم المادة وبهارجها، واللذائذ غير المشروعة للحياة المادية.

ثم تشبّه الآية هذا الفرد بالكلب الذى يُخرج لسانه لاهثاً دائماً كالحيوانات العطاشى فتقول: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث».

فهو لفرط اتّباعه الهوى وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من العطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، وكل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مَرضيّة، فهو كالكلب المسعور الذى يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن إرواؤها وهى حالة العبيد الذين لا يهمهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبداً.

ثم تضيف الآية: إنّ هذا المثال الخاص لا- يتعلق بفرد معين، بل: «ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».

العالِم المنحرف «بلعم بن باعوراء»: يستفاد من أغلب الروايات وأحاديث المفسرين أنّ هذا الشخص يسمّى (بلعم بن باعوراء) الذى عاصر النبى موسى عليه السلام وكان من مشاهير علماء بنى إسرائيل، حتى أنّ موسى عليه السلام كان يعوّل عليه كداعية مقتدر، وبلغ أمره أن دعاءه كان مستجاباً لدى البارى جلّ وعلا، لكنّه مال نحو فرعون وإغراءاته فانحرف عن الصواب، وفقد مناصبه المعنوية تلك حتى صار بعدئذٍ فى جبهة أعداء موسى عليه السلام.

ويجب على المؤمنين معرفة مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم واجتنابهم.

والآيتان التاليتان- كنتيجة عامّة وشاملة لقضية (بلعم) وعلماء الدين الذين أحبّوا الدنيا- فتقول اولاهما: «سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ».

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه وهو يسخّر ملكاته المعنوية وعلومه النافعة التى بإمكانها أن تعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، ويضعها تحت اختيار المستكبرين وأصحاب القدرة الدنيوية ويبيعها بثمن بخس فيؤدّى ذلك إلى سقوطه وسقوط المجتمع و الآية الأخيرة تحذّر الإنسان وتؤكّد له أنّ الخلاص من مثل هذا الانحراف وما يكيده الشياطين لا يمكن إلّا بتوفيق وتسديد من اللَّه عزّ وجلّ: «مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩١

وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) علائم أهل النار: هذه الآيات تقسم الناس إلى مجموعتين ...

وتحكى عن صفاتهما وهما أهل النار، وأهل الجنة. فتتحدث عن المجموعة الاولى- أهل النار- أوّلًا، فتأتى بالقسم والتوكيد فتقول: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ».

«ذرأنا»: مشتقة من «ذرأ»، وتعنى هنا الإيجاد والخلق، غير أنّها فى أصل اللغة تعنى نشر الشىء وتفريقه.

فإنّ اللَّه سبحانه خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين إلّاأنّ قسماً منهم إختاروا بأعمالهم جهنّم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خسراً ... وأنّ قسماً منهم إختاروا بأعمالهم الجنّة وكان عاقبة أمرهم السعادة ....

ثم يلخّص القرآن صفات أهل النار فى ثلاث جمل، إذ تقول الآية: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا».

والصفة الثانية التى ذكرتها الآية لأهل النار «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا».

والصفة الثالثه الواردة فى حقهم «وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالْأَنْعمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ».

لأنّ البهائم والأنعام لا تملك هذه الإستعدادات والإمكانات، إلّاأنّهم بما لديهم من عقل سالم وعين باصرة وأذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب الرقى والتكامل، إلّاأنّهم نتيجة لإتباعهم هواهم ورغبتهم- بكل هذه التوافه من الامور تركوا هذه الإستعدادات جانباً ... وكان شقاؤهم كبيراً لهذا السبب: «أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

فالمَعين الذى يحييهم ويروى ظمأهم موجود إلى جانبهم وهم على مقربة منه، إلّاأنّهم يتصارخون من الظمأ وأبواب السعادة مفتحة أمامهم لكنّهم لا يلتفتون إليها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۲

وفى الآية التالية إشارة إلى حال أهل الجنة وبيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبر والتوجه إلى أسماء اللَّه الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النار، فتقول: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا». والمراد من «أسماء اللَّه الحسنى» هى صفات اللَّه المختلفة التى هى حُسنى جميعاً فالمراد من دعاء اللَّه بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ وجريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلًا: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين، بل ينبغى أن نتمثّلَ هذه الصفات فى وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. وبتعبير أخرى: ينبغى أن نتّصف بصفاته ونتخلّق بأخلاقه.

من ذلك الرواية الواردة فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قول اللَّه عزّ وجلّ «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» قال: «نحن واللَّه الأسماء الحسنى». فهى إشارة إلى أنّ إشعاعاً من صفاته قد انعكس فينا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة ....

ثم تحذر الآية من هذا الأمر، وهو أن تُحرّف أسماؤه فتقول: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». والمقصود من الإلحاد فى أسماء اللَّه هو أن نحرِف ألفاظها أو مفاهيمها، بحيث نصفه بصفات لا تليق بساحته المقدسة، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «الأب والابن وروح القدس».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنة، إذ تقول الآية: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إنّ لهؤلاء منهجين ممتازين فأفكارهم وأهدافهم ودعواتهم وثقافاتهم حقّة وهى فى اتجاه الحق أيضاً كما أنّ أعمالهم وخططهم وحكوماتهم قائمة على أساس الحق والحقيقة.

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (۱۸۲) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۱۸۳) الإستدراج: تعقيباً على البحث السابق الذى عالجته الآيات المتقدمة- والذى يبين حال أهل النار- تبين هاتان الآيتان واحدةً من سنن اللَّه فى شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، وهى ما عبّر عنها القرآن «بعذاب الإستدراج».

والإستدراج جاء فى موطنين من القرآن: أحدهما فى الآيتين محل البحث، والآخر فى الآية (۴۴) من سورة القلم، وكلا الموطنين يتعلقان بمكذّبى آيات اللَّه ومنكريها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩٣

يقول سبحانه فى الآية الاولى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ». أى سنعذّبهم بالإستدراج شيئاً فشيئاً، ونطوى حياتهم.

و الآية الثانية تؤكّد الموضوع ذاته، وتشير بأنّ اللّه لا يتعجّل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب اللّه؛ فتقول الآية «وَأُمْلِى لَهُمْ».

لأنّ الإستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، واللّه قوى ولا يفلت من قبضته أحد «إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ».

فهذه الآية تنذر جميع المجرمين والمذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل اللّه لا يعنى صحة أعمالهم أو طهارتهم، ولا عجزاً وضعفاً من اللّه، وأن لا يحسبوا أنّ النعم التى غرقوا فيها هى دليل على قربهم من اللّه، فما أقرب من أن تكون هذه النعم والإنتصارات مقدمة لعقاب الإستدراج. فاللّه سبحانه يغشّيهم بالنعم ويمهلهم ويرفعهم عالياً، ثمّ يكبسهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، ويطوى بذلك وجودهم وتأريخ حياتهم كله.

فى الكافى: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» قال: «هو العبد يذنب الذنب فتجدّد له النعمة معه، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب».

أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَـذِيرٌ مُبِينٌ (١٨۴) أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨۵) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله صعد الصفا وكان يدعو قريشاً، فخذاً فخذاً، إلى توحيد اللّه، ويخوفهم عذاب اللّه، فقال المشركون: إنّ صاحبهم قد جُنّ، بات ليلًا يصوّت إلى الصباح، فأنزل اللّه هذه الآية.

التّفسير

التُهم والأباطيل: فى الآية الاولى من الآيات- محل البحث- يردّ اللّه سبحانه على كلام

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٩۴

المشركين الفارغ، بزعمهم أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد جُنّ، فيقول سبحانه: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ» «١». وهذا التعبير يشير إلى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يكن شخصاً مجهولًا بينهم، وتعبيرهم ب «الصاحب» يعنى المحب والمسامر والصديق وما إلى ذلك، وكان النبى معهم أكثر من أربعين عاماً يرون ذهابه وإيابه وتفكيره وتدبيره دائماً وآثار النبوغ كانت بادية عليه، فمثل هذا الإنسان الذى كان يُعدّ من أبرز الفضلاء والعقلاء قبل الدعوة إلى اللّه، كيف تلصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أما كان من الأفضل أن يتفكروا- بدلًا من إلصاق التهم به- فى احتمال أن يكون صادقاً فى دعواه ومرسل من قبل اللّه سبحانه؟! كما عقّب القرآن الكريم وبيّن ذلك بعد قوله أو لم يتفكروا؟ فقال: «إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وفى الآية التالية- استكمالًا للموضوع آنف الذكر- دعاهم القرآن إلى النظر فى عالم الملكوت عالم السماوات والأرض، إذ تقول الآية: «أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ». ليعلموا أنّ هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السماوات والأرض، بنظامه الدقيق المحيّر المذهل لم يخلق عبثاً، وإنّما هناك هدف وراء خلقه. ودعوة النبى صلى الله عليه و آله هى من أجل ذلك الهدف، وهو تكامل الإنسان وتربيته وارتقاؤه.

ثم تقول الآية معقبة لتنبّههم من نومة الغافلين: «وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ».

وأخيراً فإنّ الآية التالية، تختتم الكلام بالقول: «مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

فإنّ هذه التعابير تختص باولئك الذين يقفون بوجه الحقائق معاندين ألدّاء، حتى كأنّما على أبصارهم غشاوة وفى سمعهم صمم وعلى قلوبهم طبع، فلا يجدون إلّاأسدالًا من الظلمات تحجب طريقهم. وكل ذلك هو نتيجة أعمالهم، وهو المقصود بالإضلال الإلهى «مَن يُضْلِلِ اللَّهُ».

---

(۱) «الجنّة»: معناها الجنون، ومعناها فى الأصل: الحائل والمانع فكأنّما يُلقى على العقل حائل عند الجنون. مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۵

يَسْأَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّی لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَکَ كَأَنَّکَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۱۸۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: جاء قوم من اليهود، فقالوا: يا محمّد أخبرنا عن الساعة متى هى إن كنت نبياً؟ فنزلت الآية.

وقيل: قالت قريش يا محمّد! متى الساعة؟ فنزلت الآية.

التّفسير

مع أنّ هذه الآية ذات سبب خاص فى النزول- كما ذكروا- إلّاأنّها فى الوقت ذاته لها علاقة وثيقة بالآيات المتقدمة أيضاً، لأنّه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامة ولزوم الإستعداد لمثل ذلك اليوم فى الآيات السابقة. وبالطبع فإنّ موضوعاً كهذا يستدعى السؤال عن موعده وقيامه، ويستثير كثيراً من الناس أن يسألوه: أيّان يوم القيامة؟ لهذا فإنّ القرآن يقول: «يَسَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسهَا».

«الساعة»: تعنى زمان نهاية الدنيا، إلّاأنّها فى الغالب تأتى بمعنى القيامة فى القرآن الكريم؛ و «أيّان»: تساوى «متى» وهما للسّؤال عن الزمان؛ و «المرسى»: ثبات الشىء أو وقوعه، فبناءً على ذلك فإنّ «أيّان مرساها» تعنى: فى أىّ وقت تقع القيامة وتكون ثابتةً؟

ثم تضيف الآية مخاطبة النبى أن يرد عليهم بصراحة قائلة: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبّى لَا يُجَلّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ».

إلّا أنّ الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أوّلًا: «ثَقُلَتْ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

أيّة حادثة يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضطرب لهولها جميع الأجرام السماوية «قبيل القيامة» فتخمد الشمس ويُظلم القمر وتندثر النجوم، ويتكون من بقاياها عالم جديد بثوب آخر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۶

ثمّ إنّ قيام الساعة يكون على حين غرّة، وبدون مقدمات تدريجية، بل على شكل مفاجىء وانقلاب سريع. «لَاتَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً».

ثمّ تقول الآية مرّة اخرى: «يَسَلُونَکَ كَأَنَّکَ حَفِىٌّ عَنْهَا».

وتضيف الآية مخاطبة النبى الكريم: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

قُلْ لَا أَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ مَا مَسَّنِیَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۸۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ أهل مكة قالوا: يا محمّد! ألا يخبرك ربّك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فتشتريه فتربح فيه، وبالأرض التى تريد أن تجدب، فنرتحل منها إلى أرض قد أخصبت؟ فأنزل هذه الآية.

التّفسير

لا يعلم الغيب إلّااللّه: إنّ الكلام كان فى الآية السابقة على عدم علم أحد بقيام الساعة إلّا اللّه، والكلام فى هذه الآية على نفى علم الغيب عن العباد بصورة كلية. ففى الجملة الاولى من هذه الآية خطاب للنبى صلى الله عليه و آله يقول: «قُلْ لَّاأَمْلِکُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا

ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

إنّ مالك جميع القوى والقـدرات وذو الاختيار المسـتقل- وبالذات- فى عالم الوجود هو اللّه عزّ وجلّ فحسب، والآخرون حتى الأنبياء والملائكة يكتسبون منه القدرة ويستمدون منه القوة.

وبعـد بيان هـذا الموضوع تشـير الآيـة إلى مسألة مهمّة اخرى ردّاً على سؤال جماعة منهم فتقول: «وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ».

ثمّ تحكى الآية عن مقام النبى الواقعى ورسالته، فى جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٩٧

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَ يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) جحـدُ نعمـةٍ عظمى: فى هـذه الآيـات إشـارة إلى جانب آخر من حالات المشـركين واسـلوب تفكيرهم والردّ على تصوّراتهم الخاطئة. لمّا كانت الآية السابقة إشارة إلى توحيد أفعال اللّه، فالآيات محل البحث تعدّ مكملةً لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال اللّه أيضاً. تقول الآية الاولى من هذه الآيات: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» فجعل الحياة والسكن جنباً إلى جنبٍ «فَلَمَّا تَغَشهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ».

وبمرور الأيام والليالى ثقل الحمل «فَلَمَّا أَثْقَلَت» كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، ويتمنّى أن يهبه اللّه ولداً صالحاً، فلذلك «دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». وعنـدما اسـتجاب اللّه دعاءهما، ورزقهما الولد الصالح أشـركا باللّه «فَلَمَّا ءَاتهُمَا صلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وتعقيباً على هذا الأمر يردّ القرآن- باسـلوب بيّن متين- عقيدة المشـركين وأفكارهم مرة اخرى، فيقول: «أَيُشْرِكُونَ مَا لَايَخْلُقُ شَيًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وليس هذا فحسب، فهم ضعاف «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ».

والأوثـان والأصـنام فى حالـة لو ناديتموهـا لمـا اسـتجابت لكم «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ». فمن كان بهـذه المنزلـة وبهـذا المستوى أنّى له بهداية الآخرين!

ويحتمل بعض المفسـرين احتمالًا آخر فى تفسير الآية، أنّ المراد هو أنّكم لو طلبتم منهم الهداية فلن يتحقق دعاؤكم وطلبكم على كل حال «سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٩٨

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) هاتان الآيتان- محل البحث- تواصـلان الكلام على التوحيـد ومكافحـة الشـرك، وتبطلان منطق المشـركين بأربعـة أدلة، فتقول الآية الاولى من هاتين الآيتين: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ».

فبناءً على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشىء مثله تحكمها قوانين الطبيعية، وأن يمدّ يد الضراعة والحاجة إليه، وأن يجعل مقدّراته ومصيره تحت يده.

ثم تضيف الآية: أنّكم لو تزعمون بأنّ لهم عقلًا وشعوراً «فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

وهذا هو الدليل الثانى على إبطال منطق المشركين.

وفى البيان الثالث تبرهن الآية على أنّ الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتتساءل مستنكرةً: «أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا» «۱».

وهكذا فإنّ الأصنام من الضعة بمكان حتى أنّها بحاجة إلى من يدافع عنها ويحامى عنها، وأخيراً فإنّ الآية تبين ضمن تعبير هو فى حكم الدليل الرابع مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله قائلةً: «قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ». أى إذا كنت كاذباً، وأنّ الأصنام مقرّبات عنداللَّه، وقد تجرأتُ عليها فلِمَ لا تغضب علىّ؟ وليس لها ولا لكم ولمكائدكم أى تأثير علىّ.

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (۱۹۶) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (۱۹۷) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَ تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ (۱۹۸)

---

(۱) «يبطشون»: فعل مشتق من «البطش» على زنة «العرش» ومعناه الإستيلاء بالشدّة والصولة والقدرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۹

المعبودات التى لا قيمة لها: تعقيباً على الآية المتقدمة التى كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النبى): «ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ» متبهة إياهم أنّهم لا يستطيعون أن يصيبوا النبى بأدنى ضرر، فإنّ الآية الاولى- من الآيات- محل البحث- تذكر الدليل على ذلك فتقول: «إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ».

وليس وليى وحدى فحسب، بل هو ولىّ جميع الصالحين «وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ».

ثم يؤكد القرآن بالآية التالية على بطلان عبادة الأوثان مرّة اخرى فيقول: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ».

بل أبعد من ذلك «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَايَسْمَعُوا». وبالرغم من امتلاكهم العيون التى يخيل إلى الرائى أنّها تنظر: «وَتَرَيهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبْصِرُونَ».

ومضمون الآيتين الأخيرتين ورد فى الآيات السابقة أيضاً، وهذا التكرار إنّما هو لمزيد التأكيد على مكافحة الشرك وقلع جذوره التى نفذت فى أفكار المشركين وأرواحهم عن طريق التلقين والتقرير المتكرر.

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (۱۹۹) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۰۰) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (۲۰۱) وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (۲۰۲) وَ إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّى هذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۰۳) وساوس الشيطان: فى هذه الآيات يبين القرآن شروط التبليغ وقيادة الناس وإمامتهم باسلوب أخّاذ رائق وجيز، وهى فى الوقت ذاته تتناسب والآيات المتقدمة التى كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضاً. ففى الآية الاولى- من الآيات محل البحث- إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة والمبلغين، فتوجّه الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله فتقول فى البداية: «خُذِ الْعَفْوَ».

ثم تعقّب الآية بذكر الوظيفة الثانية للنبى صلى الله عليه و آله وتأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التى يرتضيها العقل ويدعو إليها اللَّه عزّ وجلّ قائلةً: «وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۰

مختصر الامثل ج ۲ ۲۳۹

أمّا الوظيفة الثالثه للنبى صلى الله عليه و آله فهى أن يتحمل الجاهلين، فتقول: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ».

فالقادة والمبلغون يواجهون فى مسيرهم أفراداً متعصبين جهلة يعانون من انحطاط فكرى وثقافى وغير متخلقين بالأخلاق الكريمة، فيرشقونهم بالتّهم، ويُسيؤون الظن بهم ويحاربونهم.

فطريق معالجة هذه المعضلة لا يكون بمواجهة المشركين بالمثل، بل الطريق السليم هو التحمل والجلد وعدم الإكثرات بمثل هذه الامور، والتجربة خير دليل على أنّ هذا الاسلوب هو الاسلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، وإطفاء النائرة، والقضاء على الحسد والتعصب، وما إلى ذلك.

وفى الآية التالية دستور آخر، وهو يمثل الوظيفة الرابعة التى ينبغى على القادة والمبلغين أن يتحملوها، وهى أن لا يدعوا سبيلًا للشيطان إليهم، سواء كان متمثلًا بالمال أم الجاه أم المقام وما إلى ذلك، وأن يردعوا الشياطين أو المتشيطنين ووساوسهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم. فالقرآن يقول: «وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وفى الآية التالية بيان للإنتصار على وساوس الشيطان بهذا النحو: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طِٓئِفٌ مِنَ الشَّيْطنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ». أى يتذكرون ما أنعم اللّه عليهم، ويفكرون فى سوء عاقبة الذنب وعذاب الاخرة فيتّضح لهم بذلك طريق الحق.

والطائف: هو الذى يطوف ويدور حول الشىء، فكأنّ وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وروحه كالطائف حول الشىء ليجد منفذاً إليه.

وأساساً فإنّ كل إنسان فى أية مرحلة من الإيمان، أو أىّ عمر كان، يُبتلى بوساوس الشياطين. وربّما أحس أحياناً أنّ فى داخله قوة مهيمنة تدفعه نحو الذنب وتدعوه إليه، ولا شك أنّ مثل هذه الحالة من الوساوس فى مرحلة الشباب أكثر منها فى أيّة مرحلة اخرى، ولا-سيما إذا كانت البيئة أو المحيط كما هو فى العصر الحاضر من التحلّل والحريّة، لا الحرية بمعناها الحقيقى، بل بما يذهب إليه الحمقى «من الإنسلاخ من كل قيد والتزام أخلاقى أو اجتماعى أو دينى» فتزداد الوساوس الشيطانية عندالشباب.

وطريق النجاة الوحيد من هذا التلوّث والتحلل فى مثل هذه الظروف، هو تقوية رصيد التقوى أولًا، كما أشارت إليه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا» ثم المراقبة والتوجه نحو النفس، والإلتجاء إلى اللّه وتذكر ألطافه ونعمه وعقابه الصارم للمذنب.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٠١

وملخص القول: أنّنا لاحظنا فى الآية السابقة كيف ينجو المتقون من نزغ الشيطان ووسوسته بذكر اللّه، إلّاأنّ الآثمين إخوة الشياطين يبتلون بمزيد الوساوس فلا ينسلخون عنها، كما تعبّر الآية التالية عن ذلك قائلة: «وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لَايُقْصِرُونَ».

«الإخوان»: كناية عن الشياطين، والضمير «هم» يعود على المشركين والآثمين.

وجملة «ثُمَّ لَايُقْصِرُونَ» تعنى أنّ الشياطين لا يألون جهداً فى إضلال المشركين والآثمين.

ثم تذكر الآية التالية حال جماعة من المشركين والمذنبين البعيدين عن المنطق، فتقول:

إنّهم يكذبونك- يا رسول اللّه- عندما تتلو عليهم آيات القرآن، ولكن عندما لا-تأتيهم بآية، أو يتأخر الوحى يتساءلون عن سبب ذلك: «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا» «١». ولكن قل لهم إنّنى لا-اعمل ولا أقول إلّابما يوحى اللّه إلىّ: «قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَىَّ مِن رَّبِّى هذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) وإذا قرىء القرآن فاستمعوا وانصتوا: لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببيان عظمة القرآن، وتنتهى بالآيات- محل البحث- التى تتكلم عن القرآن أيضاً. فى البداية تقول الآية: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

ويستفاد من ظاهر الآية أنّ هذا الحكم عام غير مختص بحال ما ولا وقت معين، أى ينبغى إن قرىء القرآن- حيثما كان وكيف كان- أن يستمع الآخرون وينصتوا احتراماً للقرآن، لأنّ القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل هو كتاب فهم وإدراك، ثم هو كتاب عمل أيضاً.

(۱) «الإجتباء»: مأخوذ من الجباية، وأصلها جمع الماء فى الحوض ونحوه، ثمّ توسعوا فى الاستعمال فأطلقوا على جمع الأشياء وانتخابها واختيار ما يراد منها اجتباءً. فجملة «لولا اجتبيتها» تعنى لولا اخترتها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۲

وهذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجة أنّ بعض الروايات عبّرت عنه بالوجوب.

والمورد الوحيد الذى يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجباً، هو فى صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت ويستمع لقراءة الإمام، حتى أنّ جمعاً من الفقهاء قالوا: إنّ هذه الآية تدل على سقوط الحمد والسورة من قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

وفى الآية التالية إكمالًا للأمر السابق يخاطب القرآن النبى الكريم- وهذا الحكم كلى وعام أيضاً وإن كان الخطاب موجهاً للنبى صلى الله عليه و آله كما هو الحال فى سائر آيات القرآن الاخرى وأحكامها- إذ يقول سبحانه فى كتابه: «وَاذْكُرْ رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً».

ثم يضيف قائلًا: «وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوّ وَالْأَصَالِ» (۱).

«وَلَا تَكُن مّنَ الْغَافِلِينَ».

فذكر اللَّه فى كل حال وفى كل وقت، صباحاً ومساءً، مدعاة لإيقاظ القلوب وجلائها من الدرن، وإبعاد الغفلة عن الإنسان. ومثله مثل مزنة الربيع، إذا نزلت أحيت القلوب بأزهار التوجه والإحساس بالمسؤولية والبصيرة، وكل عمل إيجابى بنّاء ....

ثم تختتم سورة الأعراف بهذه العبارة، وهى أنّكم لستم المكلفون فقط بذكر اللَّه بل من يذكر اللَّه من موقع الخشية والاستكانة هم الملائكة المقربون: «إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ».

«نهاية تفسير سورة الأعراف»

---

(۱) «الآصال»: جمع الأصيل، ومعناه قبيل المغرب أو عند الغروب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۳

۸. سورة الانفال

محتوى السورة: فى بداية سورة الأنفال إشارة إلى قسم مهم من المسائل المالية من جملتها الأنفال والغنائم التى يُعدّ كل منهما دعامة لبيت المال كما تضمنت هذه السورة مباحث اخرى منها:

صفات المؤمنين الصادقين وما يمتازون به، قصة معركة بدر، وهى أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وأعدائهم، وما تضمّنت من أحداث عجيبة تلهم العبر.

بعض أحكام الجهاد ووظائف المسلمين إزاء هجوم العدو المتواصل.

ماجرى للنبى صلى الله عليه و آله فى ليلته التاريخية «ليلة المبيت».

حال المشركين قبل الإسلام وخرافاتهم.

ضعف المسلمين وعجزهم بادىء الأمر ثم زيادة قوتهم ببركة الإسلام.

حكم الخمس وكيفية تقسيمه.

مواجهة المنافقين وطريقة التعرّف عليهم. وأخيراً نجد فى هذه السورة سلسلة مسائل اخرى أخلاقية واجتماعية بنّاءة.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الروايات الواردة فى شأن هذه السورة وفضيلتها، كالرواية الواردة- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام الصادق

عليه السلام قال: «من قرأ الأنفال وبراءة فى كل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۴

شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقّاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب». إنّ فضائل سور القرآن والثواب العظيم لا يتأتّى بمجرد قراءة الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفكر، والتفكر وسيلة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

يَسْأَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِکُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ النبى صلى الله عليه و آله قال يوم بدر: من جاء بكذا، فله كذا، ومن جاء بأسير، فله كذا، فتسارع الشُبّان وبقى الشيوخ تحت الرايات، فلما انقضى الحرب، طلب الشُبّان ما كان قد نفلهم النبى صلى الله عليه و آله به، فقال الشيوخ: كنا ردءاً لكم، ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إلينا، وجرى بين أبى اليسر بن عمرو الأنصارى أخى بنى سلمة، وبين سعد بن معاذ، كلام فنزع اللَّه تعالى الغنائم منهم، وجعلها لرسوله، يفعل بها ما يشاء، فقسمها بينهم بالسوية.

التّفسير

إنّ الآية- محل البحث- كما قرأنا فى سبب النزول، نزلت بعد معركة بدر وتتكلم عن غنائم الحرب وتبيّن حكماً إسلامياً واسعاً بشكل عام، فتخاطب النبى صلى الله عليه و آله بالقول:

«يَسَلُونَکَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ».

فبناءً على ذلك: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِکُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن کُنتُم مُّؤْمِنِينَ». أى: إنّ الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعة للَّهوالرسول دون قيد أو شرط وفى جميع مسائل الحياة لا فى غنائم الحرب وحدها.

ما هى الأنفال؟ إنّ مفهوم الأنفال لا يقتصر على غنائم الحرب فحسب، بل يشمل جميع الأموال التى ليس لها مالك خاص (كالآجام وبطون الأودية والموات) وهذه الأموال جميعها للَّه وللرسول ولمن يلى أمره ويخلفه، وبتعبير آخر: إنّ هذه الأموال للحكومة الإسلامية، وتصرف فى منافع المسلمين العامة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۵

كما قرأنا فى شأن النّزول آنفاً، أنّ مشاجرة وقعت بين بعض الأنصار فى شأن غنائم الحرب، وقطعاً لهذه المشاجرة فقد نفت الآية أن تكون الغنائم لغير اللَّه والرسول ثم أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

وأساساً فإنّ إصلاح ذات البين وإيجاد التفاهم وقلع عناصر الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كل ذلك بالمحبة، يعدّ من أهم الأغراض الإسلامية.

وقد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدّته من أفضل العبادات.

فى نهج البلاغة: يقول على عليه السلام فى آخر وصاياه- لما ضربه ابن ملجم بالسيف- لولديه:

«إنّى سمعت جدّكما صلى الله عليه و آله يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام».

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَکَّلُونَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِيمٌ (۴) خمس صفات خاصه بالمؤمنين: كان الكلام فى الآية السابقة عن تقوى اللَّه وطاعته وطاعة رسوله بعد المشاجرة اللفظية بين بعض المسلمين فى شأن الغنائم. وإكمالًا لهذا الموضوع يشير فى هذه الآيات إلى خمس صفات بارزة فى المؤمنين: ثلاث منها ذات جانب معنوى وروحانى وباطنى، واثنتين منها لها جانب عملى وخارجي ....

فالثلاث الاولى عبارة عن «الإحساس بالمسؤولية» و «الإيمان» و «التوكل»، والإثنتان الاخريان هما الإرتباط باللَّه، والإرتباط بخلق اللَّه سبحانه.

فتقول الآيات أوّلًا: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ».

«الوجل»: حالة الخوف التى تنتاب الإنسان، وهو ناشىءٌ عن أحد أمرين: فقد ينشأ عند إدراك المسؤولية.

وقد ينشأ عند إدراك عظمة مقام اللَّه، والتوجه إلى وجوده المطلق الذى لا نهاية له.

ثم تبين الآية الصفة الثانية للمؤمنين فتقول: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا».

والمؤمنون ليسوا كالموتى من الجمود وعدم التحرك، ففى كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد وتكون صفاتهم مشرقة جديدة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٦

والصفة الثالثة لهؤلاء المؤمنين هى أنّهم يتّكلون على اللَّه فقط «وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

فهم يعيشون سعة الافق وسلامة التفكير بحيث يرون ضعف جميع المخلوقات مهما كانت فى الظاهر قوية ومقتدرة ولذلك يرفضون الخضوع والاعتماد على أيّ موجود غير اللَّه تعالى، فمنه يقتبسون قوتهم ومنه يطلبون حاجاتهم.

ولا- ينبغى الوقوع فى المفهوم الخاطى للتوكل حيث تصور البعض أنّ التوكل يعنى عدم الأخذ بقانون العلية والابتعاد معن السعى والعمل، والصحيح أنّ مفهومه الحقيقى هو عدم التعلق والاعتماد بالقوى الظاهرية والّا فان الاستفادة من عالم الاسباب‌المسببات فى الطبيعة هو عين التوكل لأنّ كل تثير لهذه الاسباب فى الواقع الخارجى إنّما يحصل باذن اللَّه ومشيئته.

وبعد أن ذكرت الآيات الصفات الروحانية للمؤمنين الحقيقين تقول: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

التعبير ب «يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ» ليس إشارة الى ممارستهم الدائمة للصلاة فحسب، بل إنّهم يتحركون فى هذا الاتجاه اتقوية دعائهم الصلاة فى المجتمع وفى كل مكان.

وعبارة «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تتضمن معنى واسعاً يستوعب المواهب المادية والمعنوية كافة، فهم ينفقون من جميع مارزقهم اللَّه تعالى من المال والعلم والجاه والمكانة الاجتماعية وأمثال ذلك.

وتتحرك آخر آية من الآيات مورد البحث لبيان مقام هؤلاء ومكانتهم عند اللَّه تعالى وما ينتظرهم من الثواب العظيم، فتقول فى البداية: «أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا».

ثم تذكر الآية ثلاثة أنواع من الثواب لهؤلاء: «لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ».

وللمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من اللَّه «وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (٦) قرأنا فى الآية الاولى من هذه السورة أنّ بعض المسلمين من جديدى العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حدّ ما). ففى الآيتين محل البحث يقول اللَّه سبحانه لُاولئك: هذه ليست أوّل مرّة تكرهون شيئاً مع أنّه فيه صلاحكم كما كان

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٠٧

الأمر فى أساس غزوة بدر وكانوا غير راضين بادىء الأمر، إلّاأنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام والمسلمين. تقول الآية الاولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين فى شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكة وعدم رضى بعض المؤمنين بذلك: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ أمر الخروج كان طبقاً لوحى إلهى ودستور سماوى، وكانت نتيجته الوصول إلى الحق واستقرار المجتمع الإسلامى، إلّاأنّ هؤلاء الأفراد لا- يرون إلّا ظواهر الامور، ولهذا: «يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ

يَنظُرُونَ».

إلّا أنّ الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم فى حساباتهم، وأنّ خوفهم وقلقهم دونما أساس، وأنّ هذه المعركة (معركة بدر) حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج علام يجادلون فى الحق وتمتد ألسنتهم بالإعتراض؟

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) أوّل مواجهة مسلحة بين الإسلام والكفر ... لمّا كانت الآيات السابقة قد أشارت إلى معركة بدر، فإنّ الآيتين أعلاه وما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمة وحساسة فى تلك المعركة، ولإيضاح الآيتين محل البحث والآيات التالية، من المناسب أن نلقى الضوء على ما جرى فى هذه المعركة الحاسمة، لتتجلى لنا دقائق الامور ولطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة فى شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر- طبقاً لما يقوله المؤرخون والمحدثون والمفسرون- حين كان أبو سفيان- كبير مكة- عائداً بقافلة تجارية مهمة مؤلفة من أربعون راكباً من قريش، وتحوى على ثروة تجاربة تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النبى صلى الله عليه و آله أصحابه أن يتعبأوا ويتهيأوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التى تحمل جلّ رأس مال العدو معها، وبمصادرة أموال القافلة يتمّ توجيه ضربة اقتصادية نحو العدو وتعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٠٨

إنّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه وأصدقائه تصميم النبى على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان أرسل من يمضى إلى مكة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضى رسول أبى سفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره وبتر أذنيه والدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، وقد شقّ ثوبه- أو طمريه- وركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبة البعير ووجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكة أخذ يصرخ قائلًا: أيّها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم وأسرعوا وتعجلوا إليها.

ولما كان أكثر أهل مكة شركاء فى هذه القافلة فقد تعبئوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بحوالى ٩٥٠ مقاتلًا و ٧٠٠ بعير ومئة فرس، وكان أبو جهل يقود هذا الجيش.

وكان النبى صلى الله عليه و آله قد قارب بدراً فى نحوٍ من ثلاثمائة وثلاث عشر رجلًا كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «وبدر منطقة ما بين مكة والمدينة» وقد بلغه خبر تهيؤ أبى جهل ومن معه لمواجهته.

فتشاور النبى صلى الله عليه و آله مع أصحابه: هل يلحقون القافلة ويصادرون أموالها، أو أنّ عليهم أن يتهيأوا لمواجهة جيش العدو؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدوّنا، وكرهت طائفة اخرى ذلك، إلّاأنّ النبى بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أى قتال العدو».

ومن جهة اخرى فإنّ طائفة من المسلمين كانت فى قلق وإضطراب وكانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النبى وأصحاب أبى جهل! لكن النبى صلى الله عليه و آله طمأنهم بوعد اللَّه وقال: «إنّ اللَّه عزّ وجل وعدنى إحدى الطائفتين ولن يخلف اللَّه وعده، واللَّه لكأنّى أنظر مصرع أبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان». وأمر رسول اللَّه بالرحيل، وخرج إلى بدر وهو بئر.

وفى هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، واتّجه نحو مكة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، وأرسل رسولًا إلى قريش: إنّ اللَّه نجّى قافلتكم، ولا أظن أنّ مواجهة محمّد فى هذا الظرف مناسبة، لأنّ له أعداء يكفونكم أمره، إلّا أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبى سفيان وأقسم باللات والعزى أنّه سيواجه محمّداً، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۹

وأقبلت قريش، وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء، فأخذهم أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش. قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير.

فأقبلوا يضربونهم وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يصلّى فانفتل من صلاته وقال: «إن صدّقوكم ضربتموهم وإن كذّبوكم تركتموهم!» فأتوه بهم، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش. قال: «كم القوم؟!» قالوا: لا علم لنا بعددهم. قال: «كم ينحرون فى كل يوم من جزور؟» قالوا: تسعة إلى عشرة. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «القوم تسعمائة إلى ألف رجل». وأمر صلى الله عليه و آله بهم فحبسوا.

كان الجوّ مكفهراً بالرعب والوحشة، إذ كان جيش قريش معبّأ مدججاً بالسلاح، ولديه المؤونة والعُدّد، حتى النساء اللائى ينشدن الأشعار والمغنيات اللائى يثرن الحماسة، وكان جيش أبى جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، ولا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

المشكلة الاخرى التى كان أصحاب النبى يواجهونها، هى أنّ أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبى فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صُلبة صالحة للنزال، العجيب فى ذلك أنّ المطر كان فى جهة العدو شديداً بحيث أربكهم وأزعجهم.

والخبر الجديد الذى حصل عليه أصحاب النبى من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلًا حالة العدو أنّ جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية فى حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكأنّ اللَّه أنزل عليها جيشاً من الرعب والوحشة.

وعند الصباح اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوهم، ولكن النبى صلى الله عليه و آله- إتماماً للحجة ولئلا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية- أرسل إلى قريش ممثلًا عنه ليقول لهم: إنّ النبى لا يرغب فى قتالكم ولا يحبّ أن تكونوا أوّل جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الإقتراح ورغبوا فى الصلح، إلّاأنّ أبا جهل امتنع وأبى بشدّة.

وأخيراً اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك والكفر، ووقف حمزة عمّ النبى وعلى ابن عمّ النبى الذى كان أصغر المقاتلين سنّاً وجها لوجه مع صناديد قريش وقتلوا من بارزهم فإنهار ما تبقى من معنويات العدو، فأصدر أبو جهل أمراً عاماً بالحملة، وكان قد أمر بقتل أصحاب النبى من أهل المدينة «الأنصار» وأن يؤسر المهاجرون من أهل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۰

مكة. فقال النبى صلى الله عليه و آله لأصحابه: «غضّوا أبصاركم وغضوا على النواجذ ولا تستلوا سيفاً حتى آذن لكم». ثم رفع يده إلى السماء وقال: «يا ربّ إن تهلكك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد». ثم أصابه الغشى فسرى عنه وهو يسكب العرق عن وجهه ويقول: «هذا جبرئيل قد أتاكم فى ألف من الملائكة مردفين».

فهبت ريح عاصف على العدو، وكان المسلمون يحملون على عدوّهم والرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، وأثبت المسلمون جدارة فائقة وصمدوا للقتال حتى قتلوا من المشركين سبعين، وأبو جهل من القتلى، وأسروا سبعين، وانهزم الجمع وولّوا الدُبر، ولم يُقتل من المسلمين إلّانفر قليل، وكانت هذه المعركة أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وعدوّهم من قريش، وإنتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم.

التّفسير

فى الآية الاولى- من الآيتين محل البحث- إشارة إلى وعد اللَّه بالنصر فى معركة بدر إجمالًا، إذ تقول الآية: «وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ».

لكنكم لخوفكم من الخسائر واخطار وبلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها «وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ».

«شوكة»: ترمز إلى القدرة وتعنى الشدّة، وأصلها مأخوذ من الشوك، ثم استعملت هذه الكلمة «الشوكة» فى نصول الرماح، ثم اطلق هذا الاستعمال توسعاً على كل نوع من الأسلحة. فبناء على هذا فإنّ ذات الشوكة تعنى الجماعة المسلحة، وغير ذات الشوكة تعنى الجماعة غيرالمسلحة. أى إنّ فيكم من يرغب فى مواجهة العدو مواجهة غير المسلحة، وذلك بمصادرة أموال تجارته، وذلك ابتغاء الراحة أو حبّاً منه للمنافع المادية، فى حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أنّ الصلاح يكمن فى تحطيم قوى العدو العسكرية، لتكون الطريق لاحبةً لإنتصارات كبيرة فى المستقبل، ولهذا فإنّ الآية تعقّب بالقول: «وَيُرِيدُ اللَّهُ أن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ» «۱».

---

(۱) «الدابر»: بمعنى ذيل الشيء وعقبه، فبناءً على هذا يكون معنى «ويقطع دابر الكافرين» هو استئصال جذورهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۱

ولم يكن هذا درساً لمسلمى ذلك اليوم فحسب، بل ينبغى لمسلمى اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوى، فعليهم ألّا يغضوا أبصارهم عن المبادى الأساسية بسبب المشاكل والأتعاب ويستبدلوها بمناهج غير أساسية قليلة الأتعاب.

وفى آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (۹) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۱۰) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (۱۱) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (۱۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۱۳) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (۱۴) دروس مفيدة من ساحة المعركة: إنّ هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، والألطاف الإلهية الكثيرة التى شملت المسلمين لتثير فى نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر. وتشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: «وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ».

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين، استقبل القبلة وقال: «اللّهم أنجز لى ما وعدتنى، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض». فما زال يهتف ربّه مادّاً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه، فأنزل اللّه تعالى «وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» الآية.

وعند ذلك «فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلِكَةِ مُرْدِفِينَ».

«مردفين»: من «الإرداف» بمعنى اتخاذ محل خلف الشيء، فيكون مفهومها أنّ الملائكة كانت تتابع بعضها بعضاً فى النّزول لنصرة المسلمين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۲

ولئلا يعتقد بعض بأنّ النصر كان بسبب نصرة الملائكة فحسب، فإنّ الآية تقول: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

لأنّ اللّه عزيز ومقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، وحكيم لا يُنزل نصرته إلّا للأفراد الصالحين والمستحقين لذلك.

ثم تذكر الآية النعمة الثانية التى اكتنفت المؤمنين فتقول: «إِذْ يُغَشّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مّنْهُ».

«يغشى : من مادة «الغشيان» بمعنى تغطية الشيء وإحاطته. فكأنّ النوم كالغطاء الذى وُضع عليهم فغطّاهم.

«النعاس»: يطلق على بداية النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم.

والرحمة الثالثه التى وصلتكم هى: «وَيُنَزّلُ عَلَيْكُم مّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطنِ».

وهذا الرّجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزاً بدنياً كجنابة بعضهم، أو الأمرين معاً.

ثم إنّ اللّه تعالى أراد بـذلك تقويـة معنويات المسـلمين وكـذلك تثبيت الرمال المتحركـة تحت أقـدامهم بواسط المطر: «وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ».

ويمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقـدام هو رفع المعنويـات وزيـادة الثبـات والإسـتقامة ببركـة تلـك النعمـة، أو إشـارة إلى هـذين الأمرين.

والنعمـة الاـخرى التى أنعمهـا اللّه على المجاهـدين فى بـدر، هى الرعب الـذى أصاب به اللّه قلوب أعـدائهم، فزلزل معنوياتهم بشـدّة، فيقـول تعـالى: «إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا». «سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». وإنّه لمن العجب والغرابـة أن ينهـار جيش قريش القوى أمـام جيش المسـلمين القليـل، وأن تـذهب معنوياتهم- كما ينقل التاريـخ- بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، وحتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين.

ثم إنّ القرآن يـذكّر المسـلمين بالأـمر الـذى أصـدره النبى صـلى الله عليه و آله للمسـلمين بـأنّ عليهم اجتنـاب الضـرب غير المؤثر فى المشركين حال القتال لئلا تضيع قوتهم فيه، بل عليهم توجيه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢١٣

ضربات مؤثرة وقاطعة «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ».

«البنان»: جمع «البنانـة» بمعنى رؤوس أصابع الأيـدى أو الأرجل، أو الأصابع نفسـها، وفى هـذه الآيـة يمكن أن تكون كناية عن الأيدى والأرجل أو بالمعنى الأصلى نفسه.

وبعـد كل تلك الأحاديث، ولكيلا يقول شـخص بأنّ هـذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة والشـفقة وأخلاق الرجولة، فإنّ الآية تقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

«شاقوا»: من مادة «الشـقاق» وهى فى الأصل بمعنى الإنفطار والإنفصال، وبما أنّ المخالف أو العدو ويبتعد عن الآخرين فقد سمى عمله شقاقاً: «وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ثم يؤكّد هذا الموضوع ويقول: ذوقوا العذاب الدنيوى من القتل فى ميدان الحرب والأسـر والهزيمة السافرة، وعلاوة على ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضاً: «ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) هذه الآيات توجّه خطابها للمؤمنين وتأمرهم أمراً عاماً بالقتال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ».

فـالفرار من الحرب يعـدّ فى الإسـلام من كبائر الـذنوب، ولـذلك تـذكر الآيـة بعـدها جزاء من يفر من ميـدان الحرب مع الإشارة لمن يستثنون منهم فتقول: «وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ».

وكما نرى فقـد اسـتثنت الآيـة صورتين من مسألـة الفرار، ظاهرهما أنّهما من صور الفرار، غير أنّهما فى الحقيقة والواقع صورتان للقتال والجهاد.

الصورة الاولى: عُبّر عنها ب «مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ» و «متحرف» من مادة (التحرّف) أى

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢١۴

الإبتعاد جانباً من الوسط نحو الأطراف والجوانب، والمقصود بهذه الجملة هو أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالى إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعـداء: ثمّ يغافلونهم فى توجيه ضـربة قوية إليهم واسـتخدام فن الهجوم والإنسـحاب المتتابع وكما يقول العرب: (الحرب كرّ وفرّ). الصورة الثانيـة: أن يرى المقاتـل نفسه وحيـداً فى ساحـة القتـال، فينسـحب للإلتحـاق بإخوانه المقاتلين

وليهجم معهم من جديد على الأعداء.

وتختتم الآية محل البحث بالقول: إنّ جزاء من يفرّ مضافاً إلى استحقاقه لغضب اللَّه فإنّ مصيره إلى النار: «وَمَأْوَيهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

ومن ضمن الإمتيازات الكثيرة التى كانت عند الإمام على عليه السلام وربّما يشير إلى نفسه أحياناً ليكون نبراساً للآخرين قوله: «إنّى لم أفر من الزحف قطّ، ولم يبارزنى أحد إلّاسقيت الأرض من دمه» (١).

ولئلا يصاب المسلمون بالغرور فى انتصارهم، ولئلا يعتمدوا على قواهم الجسمية فحسب، وليذكروا اللَّه فى قلوبهم دائماً، وليتعلقوا به طلباً لألطافه، فإنّ الآية التالية تقول:

«فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمَى .

وتشير الآية فى ختامها إلى لطيفة مهمة اخرى، وهى أنّ ساحة بدر كانت ساحة امتحان واختبار، إذ تقول: «وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا».

لهذا فإنّ الآية تختتم بهذه الجملة: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». أى إنّ اللَّه سمعَ صوت استغاثة النبى والمؤمنين، واطلع على صدق نيّاتهم، فأنزل ألطافه عليهم جميعاً ونصرهم على عدوّهم، وأنّ اللَّه يعامل عباده بهذه المعاملة حتى فى المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم وإخلاصهم واستقامتهم.

وفى الآية التالية يقول سبحانه تعميماً لهذا الموضوع وأنّ مصير المؤمنين والكفار هو ما سمعتم، فيقول: «ذلِكُمْ». ثمّ يعقب القرآن مبيناً العلة: «وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ».

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

---

(١) تفسير نور الثقلين ٢/ ١٣٩.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢١٥

لقد جرى بحث كثير بين المفسرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنّهم المؤمنون، وأحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هى:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر ونزلت آيات توبخهم وتضع الغنائم تحت تصرف الرسول بشكل كامل فقام بتقسيمها بينهم بالتساوى، بغية تربيتهم وتعليمهم، ثم ذكّرهم بحوادث بدر وكيف نصرهم اللَّه على عدوّهم القوى.

وهذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين وتقول لهم: إنّكم إذا سألتم اللَّه الفتح والنصر فسوف يستجيب لكم وينصركم، وإذا تركتم الإعتراض والجدال عند النبى صلى الله عليه و آله فبذلك مصلحتكم، وإذا عدتم لنفس الاسلوب من الإعتراض فسنعود نحن أيضاً، ونترككم وحيدين فى قبضة الأعداء وحتى إذا كان عددكم كثيراً فبدون نصرة اللَّه لن تقدروا أن تعملوا أى شىء، وإنّ اللَّه مع المؤمنين المخلصين والطائعين لأوامره وأوامر نبيّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

الذين قالوا سمعنا وهم لا يَسمعون: تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله واسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين فى التنفيذ والطاعة، فتبدأ بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وتضيف لتؤكّد الأمر من جديد: «وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ».

ولما كان القول بلا ـ عمل، والإستماع بلا تأثر، أحد الأمراض التى تصاب بها المجتمعات، وأساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآيةُ الاخرى لتؤكّد على هذه المسألة باسلوب آخر، فقالت: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ».

ولما كان القرآن كتاب عمل فإنّه ينظر إلى النتائج دائماً.

وتقول الآية بعدها إنّ اللّه لايمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين فى طلبهم وعلى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۶

استعداد لتقبل الحق: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيرًا لَّأَسْمَعَهُمْ».

وفى تفسير مجمع البيان قيل معناه: لأسمعهم قول قصى بن كلاب فإنّهم قالوا: أحى لنا قصى، إنّ كلاب ليشهد بنبوتك. ويقول تعالى: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ».

فالذين سمعوا دعوة الحق كثيراً، وبلغت آذانهم آيات القرآن، وفهموا مضامينها العالية، لكنهم أنكروها بسبب عتوهم وعصبيّتهم.

كما أنّ هذه الآية تعد جواباً قاطعاً للقائلين بمدرسة الجبر، لأنّها تقرر بأنّ الخير يكمن فى الإنسان نفسه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۲۵) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۲۶) دعوة للحياة: تتابع هذه الآيات دعوة المسلمين المتقدمة للعلم والعمل والطاعة والتسليم لكنها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداءاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

فهذه الآية تقول بصراحة: إنّ دعوة الإسلام هى دعوة للعيش والحياة على جميع الأصعدة والناس فى الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والمادية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

ثم يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

إنّ اللّه عزّ وجلّ حاضر وناظر ومهيمن على كل المخلوقات. فإنّ الموت والحياة والعلم والقدرة والأمن والسكينة والتوفيق والسعادة، كلها بيديه وتحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمراً بدون توفيقه، وليس من اللائق التوجه لغيره وسؤال من سواه. لأنّه مالك كل شىء والمحيط بجميع وجود الإنسان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۷

ثم تشير الآية إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة اللّه ورسوله إلى الحياة فتقول: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً».

وكلمة «فتنة»: بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعية التى يصاب بها الجميع.

ومفهوم الآية هنا هو أنّ أفراد المجتمع مسؤولون عن أداء وظائفهم، وكذلك فهم مسؤولون عن حثّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضاً، لأنّ الاختلاف والتشتت فى قضايا المجتمع يؤدّى إلى إنهياره، ويتضرر بذلك الجميع.

وتُختتم الآية بلغة التهديد فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ويأخذ القرآن الكريم مرّة اخرى بأيدى المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا فى بداية الأمر ضعفاء وكيف صاروا، لعلّهم يدركون الدرس البليغ الذى علّمهم إيّاه فى الآيات السابقة فيقول: «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ».

وهذه عبارة تشير إلى الضعف وقلّة عدد المسلمين فى مكّة قبل الهجرة قبال المشركين الأقوياء. أو فى المدينة بعد الهجرة فى مقابل القوى الكبرى كالفرس والروم: «فَاوَيكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۷) وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر الأنصارى، وذلك أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات، وأريحاء من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلّاأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأنّ عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فأتاهم، قالوا: ما ترى يا أبا لبابة أتنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه: إنّه الذبح فلا تفعلوا. فأتاه جبرائيل عليه السلام فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فواللَّه ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت إنّى قد خنت اللَّه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٨

ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدّ نفسه على سارية من سوارى المسجد. وقال: واللَّه لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب اللَّه علىّ! فمكث سبعة أيّام، لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب اللَّه عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك. فقال:

لا واللَّه لا أحل نفسى حتى يكون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هو الذى يحلّنى. فجاءه فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالى.

فقال صلى الله عليه و آله: «يجزئك الثلث أن تصدّق به».

التّفسير

الخيانة وأساسها: يوجه اللَّه سبحانه فى الآية الاولى من الآيتين محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ».

إنّ الخيانة للَّهورسوله، هى وضع الأسرار العسكرية للمسلمين فى تصرف أعدائهم، أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم.

ثم تقول الآية: «وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ».

«الخيانة»: فى الأصل معناها: الإمتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، وهى ضد «الأمانة» والأمانة وإن كانت تطلق على الأمانة المالية غالباً، لكنها فى منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كافة.

ويقول القرآن فى آخر الآية: «وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ». أى إنّه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانة، ولكن الاقدام على الخيانة مع العلم.

و الآية بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات والمنافع العابرة، لئلا يلقى على عيونهم وآذاتهم غشاء فيرتكبون خيانة تعرّض المجتمع إلى الخطر فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ».

فإذا زلت لنا قدم يوماً، فيجب علينا الإسراع فى تصحيح المسير ك «أبى لبابة» وإذا كان المال هو السبب فى الإنحراف، فعلينا بذله وإنفاقه فى سبيل اللَّه.

وفى نهاية الآية بشارة كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصراً، فتقول: «وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

فمهما كان حبّ الأبناء كبيراً، ومهما كانت الأموال محبوبة وكثيرة، فإنّ جزاء اللَّه وثوابه أعلى وأعظم من كل ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٩

الإيمان ووضوح الرّؤية: تناولت الآيات السابقة أوامر حياتية تتضمّن السعادة المادية والمعنوية للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن

إلّافى ظلال التقوى لذلك بيّنت الآيهٔ أربعهٔ ثمار ونتائج للتقوى فقالت ابتداءاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكَمْ فُرْقَانًا».

إنّنا نرى على مدى التاريخ بعض النساء والرجال المتّقين يملكون وضوحاً من الرؤيهٔ لا يمكن بلوغه بوسائل العلم والمعرفهٔ أبداً، فهم يرون الأسباب الخفيّهٔ للكثير من الحوادث التى تعصف بالمجتمع، ويرون عناصر الشر وأعداء الحق وإن حجبتهم آلاف الستائر الخادعهٔ.

ومن جانب آخر أنّ إهدار القوى والطاقات فى الذنوب يتسبب فى بقاء الناس على مستوىً دانٍ من البصيرهٔ والمعرفهٔ ويعيشون التخلّف الثقافى والانحطاط فى التفكير حتى وإن كانوا متقدمين فى الصناعهٔ والحياهٔ المادیهٔ.

ثم يقول: إنّه إضافهٔ إلى معرفهٔ الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوى أن يغطى على ذنوبكم ويمحوا آثارها من وجودكم «وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّاتِكُمْ».

مضافاً إلى ذلك، فإنّه تعالى سيشملكم بمغفرته «وَيَغْفِرْ لَكُمْ».

وثمار كثيرهٔ اخرى تنتظركم لا يعلمها إلّااللّه: «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم». فهذه الآثار الأربعهٔ هى ثمرات فى شجرهٔ التقوى، ووجود روابط طبيعيهٔ بين التقوى وقسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبهٔ كل ذلك إلى اللّه تبارك وتعالى.

والفرق بين (تكفير السيئات) و (الغفران) هو أنّ (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسيهٔ والاجتماعيهٔ للذنوب والتى تزول بفعل التقوى، ولكن (الغفران) إشارهٔ إلى مسألهٔ العفو الإلهى والخلاص من الجزاء ....

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (۳۰)

سبب النّزول

ذكر المفسرون والمحدثون أنّ الآيهٔ- محل البحث- تشير إلى الحوادث التى أدّت إلى هجرهٔ الرسول صلى الله عليه و آله من مكهٔ إلى المدينهٔ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۰

فى تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إنّها نزلت فى قصهٔ دار الندوهٔ وذلك أنّ نفراً من قريش اجتمعوا فيها، وهى دار قصى بن كلاب، وتآمروا فى أمر النبى صلى الله عليه و آله، فقال عروهٔ بن هشام: نتربّص به ريب المنون، وقال أبو البخترى: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه، وقال أبو جهل: ما هذا برأى، ولكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسيافهم ضربهٔ رجل واحد فيرضى حينئذ بنو هاشم بالديهٔ، فصوّب إبليس هذا الرأى، وكان قد جاءهم فى صورهٔ شيخ كبير من أهل نجد، وخطّأ الأوّلين. فاتفقوا على هذا الرأى وأعدّو الرجال والسلاح وجاء جبرائيل عليه السلام فأخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله فخرج إلى الغار وأمر علياً فبات على فراشه، فلمّا أصبحوا وفتشوا عن الفراش، وجدوا عليّاً. وقد ردّ اللّه مكرهم فقالوا: أين محمّد؟ فقال: لا أدرى. فاقتصّوا أثره وأرسلوا فى طلبه، فلمّا بلغوا الجبل ومرّوا بالغار، رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينهٔ.

التّفسير

هذه الآيهٔ وخمس آيات تليها، نزلت فى مكهٔ لأنّها تشير إلى هجرهٔ النبى صلى الله عليه و آله فتقول فى بدايتها: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ».

ثم تضيف الآيهٔ قائلهٔ: «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمكِرِينَ».

إنّ المشركين قد بذلوا كل ما فى وسعهم وجهدهم من طاقاتٍ فكريهٔ وجسديهٔ للقضاء على نبى الخاتم صلى الله عليه و آله حتى أنّهم أعدّوا جائزهٔ لهذا الغرض وهى مئهٔ ناقهٔ، ولكن اللّه سبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الرياح بواسطهٔ نسيج العنكبوت!

ونظراً إلى أنّ هجرهٔ النبى صلى الله عليه و آله تمثل مرحلهٔ جديدهٔ فى التاريخ الإسلامى، بل التاريخ الإنسانى، فإنّنا نستنتج أنّ اللّه قد

غير مسيرة التاريخ البشرى بما نسجته العنكبوت من خيوط ....

وهـذا الأمر لا ينحصر بهجرة النبى صلى الله عليه و آله بل فى جميع تأريخ الأنبياء، فإنّ اللَّه سبحانه أذل أعداءهم ودمرهم وأباد قوى الضـلال بأسباب هيّنة كالريح- مثلًا- أو كثرة البعوض، أو الطير الصـغيرة التى تُسـمّى بالأبابيل، ليبين حالة الضعف البشرى والعجز إزاء قدرته اللامتناهية وليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان والعناد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۱

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۳۱) وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۳۲) وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۳۳) وَ مَا لَهُمْ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۳۴) وَ مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۵) ذُكر فى الآيـة السابقة مثل من منطق المشـركين على مسـتوى العمل والممارسـة، وفى هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكرى، ليتّضح أنّ هؤلاء لم يمتلكوا سـلامةً فى الفكر ولا صحة فى العمل، فجميع أساليبهم خاوية بغير أساس. تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث:

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

كـانوا يقولون مثـل هـذا الكلام عنـد ما يعجزون عن مواجهـة القرآن ومعارضـته، وكانوا يعرفون جيـداً أنّهم غير قادرين على معارضـة القرآن.

و الآيـة التالية تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

لقد كانوا يقولون ذلك لشدّة تعصـبهم وعنادهم، وكانوا يتصورون أنّ الدين الإسـلامى لا أساس له أبداً، وإلّا فإنّ أحداً يحتمل حقانية الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟

وفى ماتقدم من الآيات نلاحظ أنّ المشركين وجّهوا إلى النبى صلى الله عليه و آله اشكالين:

الأوّل منهما: واضح البطلان وهو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

والإشكال الثانى: لو كانت هذه الآيات نازلة من قبل اللَّه فأنزل علينا العقاب والبلاء، فيردّ عليهم القرآن فى الآية الثالثه، من الآيات محل البحث، بقوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۲

ثم تعقب الآيـة بالقول: «ومَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ». إنّ مفهوم الآية لا يختص بمعاصـرى النبى صـلى الله عليه و آله بل هو قانون عام يشـمل جميع الناس. لهـذا فقـد روى فى نهج البلاغة عن الإمام على عليه السـلام أنّه قال: «كان فى الأرض أمانان من عذاب اللَّه، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به». وقرأ هذه الآية.

و الآية التالية تقول: إنّ هؤلاء جديرون بعذاب اللَّه «وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

وهذا التعبير فى الآية يشـير إلى يوم كان المسلمون فى مكة، ولم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتمام الحرية والإطمئنان عند المسـجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء والتعذيب. أو أنّ هذا التعبير يشـير إلى منع المشركين المسلمين وصدهم إيّاهم بعد أدائهم مناسك الحج والعمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

والعجيب أنّ هؤلاـء المشـركين كـانوا يتصورون أنّ لهم حق التصـرف كيفَمـا شـاءوا فى المسـجد الحرام، وأنّهم أوليـاؤه. إلّاأنّ القرآن يضيف فى هذه الآية قائلًا: «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ». وبالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه ف «إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ومع أنّ هذا الحكم ورد فى شأن المسـجد الحرام، إلّاأنّه يشـمل جميع المراكز الدينية والمساجد فإنّ سدنتها ينبغى أن يكونوا من أطهر

الناس وأتقاهم وأورعهم وأكثرهم إهتماماً بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقاً للتعليم وبثّ الوعى والإيقاظ.

والأعجب فى هذا الشأن أنّ المشركين كانوا يدّعون أنّهم يصلّون ويعبدون اللّه بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحة كالصفير والتصدية عند البيت، ولهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: «ومَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً».

ونقرأ فى التاريخ أنّ طائفة من الأعراب فى زمان الجاهلية عندما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم ويصفرون ويصفقون ويسمّون أعمالهم هذه عبادة.

تعقب الآية على ما تقدم لتقول: إنّ أعمالكم- بل حتى صلاتكم- مدعاة للخجل والسفاهة ولذلك «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۲۳

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (۳۶) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۳۷)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم القمى: نزلت فى قريش لما وافاهم ضمضم وأخبرهم بخروج رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى طلب العير فأخرجوا أموالهم وحملوا وأنفقوا وخرجوا إلى محاربة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ببدر فقتلوا وصاروا إلى النار وكان ما أنفقوا حسرة عليهم.

التّفسير

مفهوم الآية مفهوم جامع يحمل فى معناه كل ما بذله أعداء الحق والعدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول فى مستهلها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ». إلّاأنّ هذا الإنفاق والبذل لن يحقق لهم نصراً «فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ».

ولا يبتلون بالحسرة والهزيمة فى الدنيا فحسب، بل هم كذلك فى الآخرة أيضاً «وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ».

وبعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإنّ الآية التى تليها تقول: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

هذه سنة إلهية دائمة أن يُعرف المخلص من غير المخلص، والطاهر من غير الطاهر، والمجاهد الصادق من الكاذب، والأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أى من ذلك مجهولًا أبداً، بل لابدّ فى النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض ويسفر الحق عن وجهه.

ثم تضيف الآية: «وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ».

فالخبيث من أيّة طائفة وفى أىّ شكل كان سيؤول فى النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية فى نهاية المطاف: «أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۲۴

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۳۸) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳۹) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۴۰) من المعلوم فى اسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة والإنذار، أى أنّه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب والعذاب، فإنّه يفتح لهم فى الوقت نفسه طريق العودة أمامهم. والآية الاولى:

من الآيات محل البحث تتبع هذا الاسلوب ذاته، فتأمر النبى صلى الله عليه و آله قائلةً: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ».

ويستفاد من الآية المباركة أنّ قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة.

وتضيف الآية قائلة: إنّهم إن لم يصححوا أسلوبهم «وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ». والمقصود من هذه السنّة هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، وما أصاب المشركين عندما واجهوا النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى معركة بدر.

ولما كانت الآية السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلى الحق، وإنّ هذه الدعوة قد تولّد هذه الفكرة لدى المسلمين وهى أنّه قد انتهت فترة الجهاد ولابدّ بعد الآن من اللين والتساهل، ترفعُ هذه الشبهة الآية التالية وتقول: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لم يجىء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمّد صلى الله عليه و آله ما بلغ الليل، حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض، كما قال اللّه تعالى: «يَعْبُدُونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا»».

وأخيراً فإنّ الآية فى نهايتها، وتزامناً مع الشدة فى العمل، تمدّ يد المحبة والرأفه إلى الأعداء مرّة اخرى فتقول: «فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». ولكن إذا تمادوا فى عنادهم وطغيانهم ولم يستسلموا للحق، فاعلموا أنّ النصر حليفكم والهزيمة من نصيب أعدائكم، لانّ اللّه مولاكم وهو خير ناصر ومعين: «وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٢٥

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِى الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۱) وجدنا فى بداية هذه السورة كيف أنّ بعض المسلمين تشاجروا فى شأن تقسيم الغنائم بعد غزوة بدر، وفى هذه الآية عود إلى مسألة الغنائم. يقول الحق سبحانه: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى [الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»- من ذرّية الرسول صلى الله عليه و آله أيضاً.

ويضيف مؤكّداً: «إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ أى يوم بدر- يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ».

وتشير الآية فى نهايتها إلى قدرة اللّه غير المحدودة، فتقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أى: بالرغم من قلتكم يوم بدر وكثرة عدوّكم فى الظاهر، لكن اللّه القادر خذلهم وأيدكم فانتصرتم عليهم.

إنّ الآية محل البحث جاءت فى سياق آيات الجهاد، إلّاأنّها تقول: «إنّ أية فائدة أو ربح تحصلون عليه- ومنه غنائم الحرب- فعليكم أن تعطوا خمسه».

ما هو المراد من سهم اللّه؟ إنّ ذكر سهم على أنّه سهم اللّه، للتأكيد على أهمية مسألة الخمس وإثباتها، ولتأكيد ولاية الرسول والقيادة الإسلامية وحاكمية النبى صلى الله عليه و آله أيضاً.

أى كما أنّ اللّه جعل سهماً باسمه وهو أحق بالتصرف فيه، فقد أعطى النبى والإمام حق الولاية والتصرف فيه كذلك، وإلّا أنّ سهم اللّه يُجعل تحت تصرف النبى أو الإمام يصرفه فى المكان المناسب، وليس للّه‌حاجة فى سهم معين.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٢۶

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (۴۲) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴۴) يعود القرآن فى هذه الآيات الكريمة- ولمناسبة الكلام فى الآيات السابقة عن يوم الفرقان يوم معركة بدر- ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على أهمية ذلك النصر العظيم.

فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى .

«العُدوة»: مأخوذة من «العدو» على زنة «السَّرْو» ومعناها فى الأصل التجاوز، ولكنها تطلق على أطراف كل شيء، وحواشيه، لأنّها تتجاوز الحد الوسط إلى إحدى الجوانب، وجاءت هذه الكلمة فى هذه الآية بهذا المعنى أى «الطرف، والجانب».

«الدنيا»: مأخوذة من «الدنّو» على وزن العلوّ وتعنى الأقرب، ويقابل هذا اللفظ الأقصى والقصوى.

وكان المسلمون فى الجانب الشمالى من ميدان الحرب الذى هو أقرب إلى جهة المدينة، وكان الأعداء فى الجانب الجنوبى وهو الأبعد.

ثم تعقّب الآية قائلة: «وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ عدد قوات المسلمين وإمكاناتهم كان أقلّ من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإنّ الآية الكريمة تقول: «وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ».

لأنّ الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهرى قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۷

ولكن اللَّه جعلكم إزاء أمر مقدر، وكما تقول الآية: «وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

وليعرف الحق من الباطل فى ظلال ذلك النصر غير المتوقع والمعجزة الباهرة و «لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ».

وتعقب الآية قائلةً: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ».

فقد سمع نداء استغاثاتكم، وكان مطلعاً على نياتكم، ولذلك أيّدكم بنصره على أعدائكم.

وكان النبى صلى الله عليه و آله قد رأى فى منامه من قبل أنّ قلة من المشركين تقاتل المسلمين، وكانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر وبشارة به، فقد رواه صلى الله عليه و آله للمسلمين فازدادت العزائم فى الزحف نحو معركة بدر.

و الآية الثانية من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، والنعمة التى أولاها سبحانه وتعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَيكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ». ولهبطت معنوياتكم، ولم يقف الامر عند هذا الحدّ، بل لأدّى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة «وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وِلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ» وانقذ الأمر بواسطة الرؤيا التى أظهرت الوجه الباطنى لجيش الأعداء، ولأنّ اللَّه يعرف باطنكم «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وتُذكّر الآية الاخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففى هذه المرحلة وفى ظل خطاب النبى المؤثر فيهم والبشائر الربانية، ورؤية حوادث حال التهيؤ للقتال- كنزول المطر لرفع العطش ولتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة- تجددت بذلك المعنويات وكبر الأمل بالنصر وقويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادى وكأنّه صغير ضعيف لا حول ولا قوة له، فتقول الآية المباركة: «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا».

أمّا العدو فإنّه لما كان يجهل معنويات المسلمين وظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلًا جدّاً، بل رآهم أقل مما هم عليه، إذ تقول الآية فى الصدد «وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ».

لهذا فإنّ الآية تعقب على ما سبق قائلة: «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنة اللَّه فحسب، بل إنّ إرادته نافذة فى كل شيء «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۸

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۴۶) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۴۷) فى الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هى:

۱- أنّها تقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا». أى إنّ إحدى علائم الإيمان هى ثبات القدم فى جميع الأحوال، وخاصه

فى مواجهة الأعداء.

٢- «وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». ولا ريب أنّ المراد من ذكر اللّه هنا ليس هو الذكر اللفظى فحسب، بل حضور القلب، فهذا التوجه إلى اللّه يقوّى من عزيمة الجنود المجاهدين، ويُشعر الجندى بأنّ سنداً قوياً لا تستطيع أية قدرة فى الوجود أن تتغلب عليه يدعمه فى ساحة القتال. وإذا قُتل فسينال السعادة الكبرى ويبلغ الشهادة العظمى.

٣- كما أنّ من أهم أسس المبارزة والمواجهة هو الإلتفات للقيادة وإطاعة أوامر القائد والآمر، الآمر الذى لولاه لما تحقق النصر فى معركة بدر، لذلك فإنّ الآية بعدها تقول:

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

٤- «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا» لأنّ النزاع والفرقة امام الأعداء يؤدّى إلى الضعف وخور العزيمة، ونتيجة هذا الضعف والفتور هى ذهاب هيبة المسلمين وقوتهم وعظمتهم «وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ».

٥- ثم تأمر الآية بالإستقامة بوجه العدو، وفى قبال الحوادث الصعبة، فتقول: «وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والفرق بين ثبات القدم فى الأمر الأوّل، والإستقامة والصبر فى الأمر الخامس، هو من جهة أنّ ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية «الجسمية» أمّا الإستقامة والصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان ومعنويان.

٦- وتدعو الآية الأخيرة من الآيات محل البحث المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجة البلهاء، ورفع الأصوات الفارغة، وتشير إلى قضية أبى سفيان وأسلوب تفكيره هو

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٢٩

وأصحابه، فتقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

فأهدافهم غير مقدسة، وكذلك أساليبهم فى الوصول إليها، وتختتم الآية بالقول: «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَ لَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) انّ أوّل آية من الآيات محل البحث تتكلم عن دفاع الشياطين عن المشركين، فتبدأ بالقول: «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطنُ أَعْمَالَهُمْ».

إنّ تزيين الشيطان للعمل يكون عن طريق تحريك الأهواء والشهوات والرذائل، فيتزين للإنسان عمله حتى ينظر إليه باعجاب.

ثم تقول الآية: «وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ».

ولن آلوَ جهداً فى الدفاع عنكم، كما يدافع الجار عن جاره ويظهر له وفاءه وإخلاصه، والازمكم ملازمة الظل للشاخص.

ثم تقول الآية: «فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكُمْ».

واستدل على نكوصه وتراجعه القهقهرى بدليلين هما:

أوّلًا قوله: «إِنّى أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ».

فإنّه يرى آثار النصر جيداً فى وجوه المسلمين الغاضبة ويشاهد عليها سمات اللطف

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٣٠

الإلهى والإمداد الغيبى وتأييد الملائكة لهم.

والثانى قوله: «إِنّى أَخَافُ اللَّهَ». فإنّ الجزاء الإلهى ليس أمراً يسيراً يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الأليم «وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسداً لهم؟ يعتقد بعض المفسرين أنّ الشيطان تجسد لهم فى صورة الإنسان، ففى رواية إنّ قريشاً عندما قررت التحرك والمسير نحو بدر، جاءهم إبليس فى صورة «سراقة بن مالك» الذى كان من رؤوس بنى كنانة وطمأنهم بأنّهم يوافقونهم على هذا الأمر، وأنّهم سينتصرون، انّه نقل ما يشبه هذه القصة فى هجرة النبى صلى الله عليه و آله ومجىء رجل كبير على هيئة شيخ نجدى إلى دار الندوة.

وتشير الآية بعدها إلى روحية جماعة ممن يميلون إلى الشرك فى ساحة بدر، فتقول: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هؤُلَاءِ دِينُهُمْ». حين تصوروا أنّهم سينتصرون مع قلة العدد والعدة، أو أنّهم سينالون الشهادة والحياة الابدية فى هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم وعدم معرفتهم بالإمداد الإلهى أنكروا تلك الحقائق البينة، لأنّه كما تقول الآية المباركة: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

المراد من «الْمُنَافِقُونَ» و «الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ» هما المنافقين فى المدينة إمّا أنّهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، أو أنّهم من الذين تظاهروا بالإيمان فى مكة لكنهم لم يهاجروا إلى المدينة وانضموا فى معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلما رأوا قلة المسلمين فى معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إنّ هؤلاء أصابهم الغرور فى دينهم الجديد وجاءوا إلى هذه الساحة.

وتجسد الآية بعدها كيفية موت الكفار ونهاية حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

ثم يقال لُاولئك: «ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ».

وتضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۱

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۵۲) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (۵۴) فى هذه الآيات إشارة إلى «سنة إلهية دائمة» تتعلق بالشعوب والامم والمجتمعات، فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بَايَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

فبناءً على هذا فإنّ قريشاً والمشركين وعبدة الأصنام فى مكة، الذين أنكروا آيات اللّه ووقفوا بوجه الحق وحاربوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما إقترفوه، بل أنّ ذلك قانون دائم، وسنّة إلهيّة تشمل من هم أقوى منهم- كآل فرعون- كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك.

ثم توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وبعبارة اخرى: إنّ الرحمة الربانية عامة تسع جميع الخلق، لكنها تبلغ الناس وتصل إليهم بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإذا استفادوا من تلك النعم فى السير نحو الكمال والإستمداد منها فى سبيل الحق تعالى والشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادةً صحيحة، فإنّ اللّه سبحانه سيثبت نعماءه ويزيدها، أمّا إذا استغلت تلك المواهب فى سبيل الطغيان والانحراف والعنصرية، وكفران النعمة والغرور والفساد، فإنّ اللّه سيسلبهم تلك النعم أو يُبدلها إلى بلاء ومصيبة، بناءً على ذلك فإنّ التغيير يكون من قِبلنا دائماً، وإلّا فإنّ النعماء الإلهية لا تزول ....

وتعقيباً على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة- كفرعون وأقوام آخرين- فيقول: «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

كَذَّبُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَلِمِينَ» ظلموا أنفسهم وظلموا سواهم أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٢

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (٥٨) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) فى هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة اخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمة للمسلمين فى حياة النبى صلى الله عليه و آله المليئة بالأحداث، إلّاأنّهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مُرّاً وكانت عاقبة أمرهم خُسراً، وهؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النبى صلى الله عليه و آله عدة مرات. وتبدأ الآيات فتعرّف هذه الطائفة بأنّها شر الأحياء الموجودة فى هذه الدنيا فتقول: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

وتقول الآية الاخرى: «الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلّ مَرَّةٍ».

والمفروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الاضرار بالمسلمين وإعانة الأعداء عليهم.

فلاهم يخافون اللَّه تعالى، ولا يحذرون من مخالفة أوامره، ولا يراعون القواعد والاصول الإنسانية: «وَهُمْ لَايَتَّقُونَ». و الآية بعدها توضح كيفية اسلوب مواجهة هؤلاء فتقول: «فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ». أى قاتلهم بشكل مدمّر بحيث أن الطوائف القابعة خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك ويتفرقوا عنهم.

«تثقفنهم»: مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ الشيء بدقة وسرعة، وهى إشارة إلى وجوب التنبه والإطلاع السريع والدقيق على قراراتهم، والاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

«شرّد»: مأخوذة من مادة «التشريد» وهى بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغى أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الاخرى من الأعداء وناقضى العهود، ولا يفكروا بالهجوم عليكم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٣٣

وهذا الأمر إنّما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء فى المستقبل أيضاً ويتجنّبوا الحرب مع المسلمين، وليتجنب نقض العهد- كذلك- الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلًا «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» ولا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يوجه تعالى الخطاب إلى ناقضى العهد، فيحذرهم من عاقبة ذلك فيقول: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَايُعْجِزُونَ».

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (۶٠) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۶٢) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶٣) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۶۴) تشير أوّل آية هنا- وتواصلًا مع الحديث فى الآيات المتقدمة عن الجهاد- إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به فى كل عصر ومصر، وهو لزوم الإستعداد العسكرى لمواجهة الأعداء، فتقول: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مّن قُوَّةٍ». أى لا تنتظروا حتى يهجم العدو فتستعدوا عندئذ لمواجهته، بل يجب أن تكون لديكم القدرة والإستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

وتضيف الآية قائلة: «وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ». «الرباط»: بمعنى شدّ الشيء، ويرد هذا الاستعمال كثيراً بمعنى ربط الحيوان فى مكان ما لرعايته والمحافظة عليه.

والتعبير فى الآية واسع إلى درجة أنّه ينطبق على كل عصر ومصر تماماً.

وكلمـة «قوّة» تشـمل كـل أنواع القوى والقـدرات التى يكون لها أثراً ما فى الإنتصار على الأعـداء، سواء من الناحيـة الماديـة أو الناحية المعنوية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۴

إنّ هـذا الشـعار الإسـلامى الكبير: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ» إذا أضـحى شـعاراً شاملًا فى كل مكان، ينادى به الصـغير والكبير، والعـالم وغير العـالم، والمؤلف والخطيب، والجنـدى والضابـط، والفلاـح والتـاجر، والتزموا به فى حيـاتهم وطبقوه، كـان كافيـاً لجبران التخلف والتأخر.

إنّ سيرة النبى صلى الله عليه و آله العملية وأئمة الإسلام تدل على أنّهم لم يدخروا وسعاً، واستغلوا كل فرصة لمواجهة العدو، كإعداد الجنود وتهيئة السلاح، وشد الأزر ورفع المعنويات، وبناء معسكرات التدريب، واختيار الزمان المناسب للهجوم، والعمل على استعمال مختلف الأساليب الحربية، ولم يتركوا أية صغيرة ولا كبيرة فى ذلك.

والمعروف أنّ النبى بلغه أن سلاحاً جديداً مؤثراً صنع فى اليمن أيام معركة حنين، فأرسل النبى جماعة إلى اليمن لشرائه فوراً.

الهـدف من تهيئـة السـلاح وزيادة التعبئـة العسـكرية: ثم ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقى والإنسانى من وراء هـذا الموضوع، فيقول: إنّ الهـدف منه ليس تزويد الناس فى العالم أو فى مجتمعكم بأنواع الأسـلحة المدمرة التى تهدم المدن وتحرق الاخضـر واليابس وليس الهدف منه استغلال أراضـى الآخرين وممتلكاتهم، وليس الهدف هو توسـعة الإستعباد والاستعمار فى العالم، بـل الهـدف من ذلـك هو «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». لأـنّ أكثر الأعـداء لا يسـتمعون لكلمـة الحق ولا يسـتجيبون لنـداء المنطق والمبادئ الإنسانية، ولا يفهمون غير منطق القوة.

ثم تضـيف الآية بأنّ المزيد من اسـتعداداتكم العسـكرية يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: «وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ».

تتضـمن الآيـة تعليماً لمسـلمى اليوم أيضاً، وهو أنّه لا ينبغى الإكتفاء بالإسـتعداد لأعـداء الإسـلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتبهو للأعداء الاحتماليين أو «بالقوة» وأن تتهيأوا حتى تكونوا فى أعلى حدّ من القوّة والقدرة.

وفى نهاية الآية إشارة إلى موضوع مهم آخر، وهو أنّ الإستعداد العسكرى وجمع الأسلحة والأجهزة الحربية ووسائل الدفاع المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى الدعم المالى اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعى لتهيئة ذلك المال، وأن ما يبذلونه فى هذا الأمر فهو عطاء فى سبيل اللَّه، ولن ينقص منه شيء أبداً «وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۵

إِلَيْكُمْ» فيرجع إليكم جميعه، بـل أكثر ممّـا أنفقتم «وَأَنتُمْ لَـاتُظْلَمُونَ»، وسـتنالون ثواب ذلك فى هـذه الـدنيا فى إنتصار الإسـلام وقوته وعظمته.

كما أنّ ثواباً أعظم ينتظركم فى العالم الآخر فى جوار رحمة اللَّه.

إنّ جملة «وأنتم لا تظلمون» معطوفة على جملة «ترهبون» أى أنّكم إذا ما أعددتم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، ولن يقدروا على ظلمكم وإيذائكم، وبناءً على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبداً.

مع أنّ الآية السابقة أوضـحت هدف الجهاد فى الإسلام بقدر كافٍ، فإنّ الآية التالية التى تتحدّث عن الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلى فتقول: «وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا».

ولمـا كان الناس يترددون أغلب الأحيان عنـدما يراد التوقيع على معاهـدة الصـلح، فإنّ الآيـة تأمر النبى بعـدم التردد فى الأمر إذا كانت الشروط عادلة ومنسجمة مع المنطق السليم والعقل، فتقول: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

ومع ذلك فهى تحـذر النبى صـلى الله عليه و آله والمسـلمين من احتمال الإحتيال والخـداع فى دعوة الأعـداء إلى الصـلح، فقـد تكون

دعوةً للتمويه والرّغبة فی توجيه ضربة مفاجئة، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلّاأنّ الآية تطمئن النبی صلی الله علیه و آله أن لا يخشى هذا الأمر أيضاً، لأنّ اللّه عزّ وجلّ سيكفيه أمرهم وسينصره فی جميع الأحوال، إذ تقول: «وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ».

وسيرتك أيّها النبی- السابقة- شاهدة على هذه الحقيقة، لأنّ اللّه «هُوَ الَّذِی أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ».

أضف إلى ذلك أنّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب ولم يدخروا وسعاً فی الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين، ولكن اللّه شرح صدورهم بأنوار الهداية «وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ».

وقد كانت الحرب لسنوات طويلة قائمة على قدم وساق بين طائفتی الأوس والخزرج بشكل لم يكن أی أحد يتصور أنّهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب والصفاء فی يوم ما، ولكن اللّه القادر المتعال فعل ذلك ببركة الإسلام وفی ظلال القرآن.

ثم تضيف الآية أنّ اتحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفة، لم يكن بوسائل مألوفة أو

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۳۶

مادية «لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِی الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ».

وتضيف الآية معقبة فی الختام: «إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فعزّته تقتضی عجز الاخرين من الوقوف فی مواجهته، وحكمته تقتضی أن تكون اموره جاريةً وفق حساب دقيق ونظام صحيح، ولهذا فإنّ الخطة الدقيقة وحّدت القلوب المتنافرة المتفرقة وجعلتها تنصاع للنبی صلی الله علیه و آله لينشروا أنوار الهداية فی كل أرجاء العالم.

وتخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النبی بالقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (۶۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (۶۶) فی هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية وأحكام الجهاد أيضاً. فالآية الاولى منهما تخاطب الرسول فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ».

هذه الآية توضح أهمية الإعلام والتبليغ وشحذ همم المقاتلين والجنود ومعنوياتهم باعتبار ذلك تعليماً إسلامياً مهماً.

وتعقب الآية بالتعليم الثانی فتقول: «إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا».

فينبغی للمسلمين أن لا- ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقداراً يُكافیء قوة العدو وأفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال والجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوّهم عشرة أضعافهم.

ثم تشير الآية إلى علة هذا الحكم فتقول: «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ» وهذا التعليل يبدو عجيباً لأوّل وهلة، إذ ما هی العلاقة بين المعرفة والفقاهة وبين النصر أو بين عدم المعرفة والهزيمة؟! لكن الواقع هو أنّ العلاقة بينهما قريبة ومتينة، لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذی سلكوه ويدركون الهدف من خلقهم وإيجادهم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۳۷

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات والصبر والإستقامة.

أمّا الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأیّ أمر يقاتلون؟

الأعمى ولعاداتهم الجاهلية ساروا وراء هذه الأفكار، وهكذا تبعث ظلمات الطريق وعدم معرفتهم الهدف ونتائج أعمالهم على إنهيار أعصابهم وتفتّ فی عضدهم وثباتهم، وتجعل منهم كائنات ضعيفة.

وبعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء وان كانوا عشرة اضعاف يخفف اللّه عن المؤمنين ويتنزل فی الحكم الذی يرهقهم فيقول: «الْنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا».

ثم يقول: «فَإِن يَكُن مّنكُم مّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ».

ولكن على كل حال ينبغى أن لا تنسوا تسديد اللّه «وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۷) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۶۸) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۹) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۰) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۷۱) بيّنت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمّة ومواجهة الأعداء، وفى هذه الآيات استكمال لما سبق فى عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، وأوّل موضوع مهم يثار فى هذا الشأن، هو ما قالته الآية الكريمة من أنّ كل نبى ليس له الحق فى أسر افراد العدو الّا بعد أن يثبّت اقدامه فى الارض ويكيل الضربات القاضية للأعداء: «مَا كَانَ لِنَبِيّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ».

«يثخن»: مأخوذ من «الثِخَن» على زنة «المحَن» ومعناه فى الأصل الضخامة والغلظة والثقل، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز والقوة والنصر والقدرة.

إنّ معنى الآية هو التفوق على العدو تماماً وإظهار القوة والقدرة وإحكام السيطرة على المنطقة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۸

ثم ألقت باللوم على اولئك الذين خالفوا هذا الأمر فتقول: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْأَخِرَةَ». فلا ينبغى أن نترك المنافع الطويلة الأمد والمستقبلية رهن الخطر من أجل أن نحصل على منافع مادية عابرة.

وتُختتم الآية بالقول أن التعليم آنف الذكر- فى الواقع- مزيج من العزة والنصر والحكمة والتدبير، لأنّه صادر من قبل اللّه تعالى «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

الآية التالية توجّه اللوم والتقريع ثانية لأولئك الذين يعرّضون المنفعة العامة والمصلحة الاجتماعية للخطر من أجل الحصول على المنافع المادية العابرة، فتقول الآية: «لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

إلّا أنّه- كما صرحت الآيات الكريمة فى القرآن- فإنّ سُنة اللّه اقتضت أن تُبين أحكامه ثم يجازى الذى يخالفون عن أمره.

وفى الآية التالية إشارة إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب، وهو حكم أخذ الفداء.

فى تفسير القمى: لما قتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول اللّه! قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وهم قومك واساراك هبهم لنا يا رسول اللّه وخذ منهم الفداء واطلقهم، فأنزل اللّه عليهم «مَا كَانَ لِنَبِيّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى الآيات، فأطلق لهم أن يأخذوا الفداء ويطلقوهم.

إنّ الآية محل البحث أجازت للمسلمين التصرف فى غنائم المعركة، والمبلغ الذى يأخذونه فداءً من الأسير، فقالت: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَللًا طَيِّبًا».

ويمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الاخرى غير الفداء.

ثم تأمرهم الآية بالتقوى فتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ». وهذا إشارة إلى أنّ جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغى أن يجعل هدف المجاهدين فى المعركة هو جمع الغنائم وأن يأسروا العدو حتى يأخذوا فداءه، وإذا كان فى القلوب مثل هذه النيّات السيئة فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، ويعدهم اللّه بالعفو عمّا مضى فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». والمسألة المهمة فى شأن أسرى الحرب هى موضوع إصلاحهم وتربيتهم وهدايتهم، ولهذا فإنّ الآية الرابعة من الآيات محل البحث تخاطب النبى أن يدعو الأسرى إلى الإيمان باللّه وإصلاح أنفسهم، ويرغبهم فى كل ذلك، فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِى أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۹

والمراد من كلمة «خيراً» فى الجملة آنفة الذكر «إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا» هو الإيمان وقبول الإسلام أمّا المراد من كلمة «خير» فى الجملة الاخرى «يؤتكم خيراً» فهو الثواب أو الأجر المادى والمعنوى.

ثم إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف اللَّه ويعفو عن سيئاتكم «وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وحيث إنّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسيء إلى الإسلام ويخون النبى وينتقم من المسلمين، فإنّ الآية التالية تحذّر النبى والمسلمين من خيانتهم فتقول: «وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ».

وأىّ خيانة أعظم من عدم الإستجابة لنداء الفطرة والعزوف عن نداء الحق والعقل، والشرك باللَّه وعليهم أن لا ينسوا نصرة اللَّه لك «فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ».

وإذا أرادوا الخيانة فى المستقبل فلن يُفلحوا، لأنّ اللَّه مطلع على نيّاتهم، وجميع تعاليم الإسلام فى شأن الأسرى وفق حكمته «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۷۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ (۷۳) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۷۴) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷۵) تبحث هذه الآيات التى تُختتم بها سورة الأنفال- وتُعدّ آخر فصل من فصولها- عن طوائف المهاجرين والأنصار والطوائف الاخرى من المسلمين وبيان قيمة هؤلاء جميعاً،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۰

مختصر الامثل ج۲ ۲۷۹

فتعطى كل طائفة قيمة، وتستكمل ما تناولته الآيات السابقة فى شأن الجهاد والمجاهدين.

وقد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، وواحدة من غير المسلمين، والطوائف الأربع هى:

۱- المهاجرون السابقون.

۲- الأنصار فى المدينة.

۳- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

۴- الذين آمنوا من بعدُ وهاجروا.

فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».

إنّ الآية وصفت الطائفة الاولى بأربع صفات هى: الإيمان، والهجرة والجهاد المالى والاقتصادى والصفة الرابعة جهادهم بأنفسهم ودمائهم وأرواحهم.

أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآية بصفتين هما: الإيواء، والنصرة.

ثم تشير الآية إلى الطائفة الثالثه فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مّن وَلَيَتِهِم مّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا».

ثم استثنت فى الجملة التى بعدها مسؤولية واحدة فحسب، وأثبتتها فى شأن هذه الطائفة، فقالت: «وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ... إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مّيثَاقٌ».

وحضّت الآيـة على رعايـة العهود والمواثيق والدقـة فى أداء هذه المسؤوليه، ومنبهة إلى علم اللّه بكل الأمور، فقالت: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فهو يرى جميع أعمالكم ويطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفـة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، وكذلك بالوهن والضعف وعدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف الكبيرة.

أمّا الآيـة الثانية فتشـير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسـلامى، أى مجتمع الكفر وأعداء الإسـلام، فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». أى إنّ علاقـاتهم منحصـرة فيما بينهم، ولا يحق لكم أن تتعاهـدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصـرة لأنفسـكم، أو تلجؤوهم وتؤوهم إليكم، أو تأووا وتلتجئوا إليهم.

ثم تنبّه الآية المسلمين وتحذرهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۱

إنّ المراد من «الفتنـة» هو الإختلاف والتفرق وتزلزل مبانى العقيـدة الإسـلامية على أثر وسوسـة الأعـداء، و «الفساد» يشـمل كل إخلال وتخريب للنظم الاجتماعية المختلفة وخاصة سفك الدماء البريئة والارهاب وأمثال ذلك.

أمّا فى الآيـة التاليـة فنجـد تأكيـداً على مقـام المهـاجرين والأنصـار مرّة اخرى، ومـا لهمـا مـن موقع وأثر فى تحقـق أهـداف المجتمع الإسـلامى، فتثنى عليهم الآيـة بقولها: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا». لأنّهم هبوا لنصـرة الإسـلام فى الأيام الصـعبة الشديدة وفى الغربة والمحنة وقد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصرة للّهولرسوله صلى الله عليه و آله «لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». فهم فائزون بثواب اللّه والنعمـة الاخروية، كما أنّهم يتمتعون فى هذه الدنيا بالعزّة ورفعة الرأس والكرامة.

أمّا الآيـة الأخيرة فتشـير إلى الطائفـة الرابعـة من المسـلمين، أى اولئك الـذين آمنوا وهاجروا من بعـد، فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنكُمْ». أى إنّ المجتمع الإسلامى ليس مجتمعاً منغلقاً ومحصوراً على نفسه، بل أبوابه مفتوحة لجميع المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين.

وتشـير الآية فى ختامها إلى ولاية الأرحام بعضـهم لبعض، وأولیتها فيما جعله اللّه فى عباده من أحكام، فتقول: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ».

إنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين والمسـلمين العامّة «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآية محل البحث فتؤكّد هذا الموضوع فى شـأن الأرحـام والأقـارب، فهم إضافـة إلى ولايـة الإيمان والهجرة يتمتعون بولايـة الأرحام أيضاً، ومن هنا فهم يرثون ويورّثون بعضـهم بعضاً، إلّاأنّه لا إرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقة قربى بينهم.

وفى آخر جملة من هذه الآية يقول اللّه سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

فمـا نزل فى هـذه السورة من أحكـام تتعلق بالأنفـال وغنـائم الحرب، وتعـاليم الجهـاد والصـلح، وأحكـام الأسـرى والحرب، وما يتعلق بـالهجرة وغيرهـا، كـل ذلـک كان وفق حساب دقيق يتلاءم وروح المجتمع الإنسانى، والعواطف البشـرية، والمصالـح العامـة فى جميع جوانبها المختلفة.

«نهاية تفسير سورة الأنفال»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۳

۹. سورة التوبة

ينبغى الإلتفات إلى الامور التالية قبل الشروع فى تفسير السورة:

١- أسماء هذه السورة: ذكر المفسرون لهذه السورة أسماءً عديدة تبلغ العشرة، غير أنّ المشهور منها هو ما يلى: سورة البراءة، وسورة التوبة، والسورة الفاضحة.

٢- متى نزلت هذه السورة؟ هذه السورة هى آخر سورة نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو من أواخر السور النازلة عليه فى المدينة.

والمعروف أنّ بداية نزول هذه السورة كانت فى السنة التاسعة للهجرة، وقسماً منها نزل قبل معركة تبوك، وقسماً منها نزل عند الإستعداد للمعركة أو «الغزوة»، وقسماً منها نزل بعد الرجوع من المعركة والفراغ منها.

والآيات الاولى- هذه- والتى تتعلق بمن بقى من المشركين بلّغها أميرالمؤمنين عليه السلام فى موسم الحج.

٣- محتوى السورة: يتعلق قسم من آيات هذه السورة بالبقية الباقية من عبدة الأوثان والمشركين، وقطع العلاقات معهم، وإلغاء المعاهدات التى كانت بينهم وبين المسلمين.

وقسماً مهماً منها تتحدّث عن المنافقين وعاقبتهم، وتحذر المسلمين منهم.

وبعض آيات هذه السورة تتحدّث عن الجهاد فى سبيل اللّه وأهميته، كما أنّ قسماً منه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢۴۴

يكمل البحوث السابقة التى تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود والنصارى» عن حقيقة التوحيد، وتتكلم عن انصراف علمائهم عن واجبهم فى التبليغ وقيادة المجتمع. وحيث سبّب انتشار الإسلام واتساع رقعة مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفة ينبغى توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة وتحريم تراكم الثروات واكتنازها، ووجوب طلب العلم أو التعلّم وتعليم الجهلة، وتناولت بحوثاً متنوعة اخرى كقصة هجرة النبى صلى الله عليه و آله، والأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، وأخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود والنصارى، وما إلى ذلك.

فى تفسير مجمع البيان عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ما نزل علىّ القرآن إلّاآية آية، وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة وقل هو اللّه أحد، فإنّهما نزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة، كل يقول يا محمّد استوص بنسبة اللّه خيراً».

۴- لِم لَم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟ يُجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بُدئت بالبراءة- من قبل اللّه- من المشركين، وإعلان الحرب عليهم، واتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، وبيان غضب اللّه عليهم، وكل ذلك لا يتناسب والبسملة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» الدالة على الصفاء والصدق والسلام والحب، والكاشفة عن صفة الرحمة واللطف الإلهى.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ (٢) إلغاء عهود المشركين: كانت فى المجتمع الإسلامى ومحيطه طوائف شتى، فطائفة منها مثلًا لم يكن لها أىّ عهد مع النبى صلى الله عليه و آله والنبى كذلك لم يكن له أىّ عهد معها.

وطوائف اخرى عاهدت النبى صلى الله عليه و آله فى الحديبية- وأمثالها- على ترك المخاصمة والمنازعة، وقد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، وبدون أى سبب يجيز النقض وذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام، أو حاولت اغتيال رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

الآية الاولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافة: «بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ».

يستفاد من الروايات أنّ علياً عليه السلام قد امر بإبلاغ أربع مواد إلى الناس فى ذلك اليوم وهى:

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢۴۵

١- إلغاء عهد المشركين.

٢- لا يحق للمشركين أن يحجّوا فى المواسم المقبلة.

۳- منع العراة والحفاة من الطواف الذى كان شائعاً ومألوفاً حتى ذلك الوقت.

۴- منع المشركين من دخول البيت الحرام.

ثم أمهلتهم مدّة أربعة أشهر ليفكروا فيها ويحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإمّا أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهيأوا للمواجهة والقتال، فقالت: «فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ».

وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۳) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴) نلحظ فى هاتين الآيتين البينتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التى كانت بين النبى صلى الله عليه و آله والمشركين، حتى أنّ تاريخ الإلغاء قد اعلن فى هذه الآية إذ نقول: «وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ».

إنّ اللّه سبحانه يريد فى هذا الإعلان العام فى مكّة المكرمة، وفى ذلك اليوم العظيم، أن يوصد كل ذريعة يتذرع بها المشركون والأعداء، ويقطع ألسنة المفسدين.

ثم يتوجه الخطاب فى الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيباً وترهيباً، لعلهم يهتدون، إذ تقول الآية: «فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ». أى إنّ الإستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم وفيها خير لكم ولمجتمعكم ودنياكم وآخرتكم، فلو تدبّرتم بجد وصدق لرأيتم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافى لكل جراحاتكم وليس فى الأمر منفعة للّهأو لرسوله.

ثم إنّ الآية تُحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: «وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِى اللَّهِ». فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

وأخيراً فإنّ الآية أنذرت المعاندين المتعصبين قائلة: «وَبَشّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۶

وكما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد- ورفض عهد المشركين- يختص باولئك الذين دلّت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم وبدت بوادره، لذلك فإنّ الآية استثنت قسماً منهم لوفائهم بالعهد، فقالت «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (۶) الشدة المقرونة بالرفق: نقرأ فى الآيتين أعلاه بيان وظيفة المسلمين بعد انتهاء مدّة إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» وقد أصدر القرآن أوامره الصارمة فى هذا الصدد فقال:

«فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ».

ثم يقول: «وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ».

وهذه الشدة متناغمة ومتوائمة مع منهج الإسلام وخطته فى إزالة الوثنية وقلعها من جذورها، لأنّ الوثنية ليست عقيدة صحيحة، ولا ديناً كى تُلحظ بعين الإحترام.

وهذه الشدة والقوة والصرامة لا تعنى سدّ الطريق- طريق الرجوع نحو التوبة- بوجههم، بل لهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سبيل الحق، ولذلك فإنّ الآية عقبت بالقول: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ».

ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». يتوب على عباده المنيبين إليه.

وتستكمل الآية التالية هذا الموضوع بأمر آخر، كيما يتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحيد والحق والعدالة،

وليس هو الاستثمار أو الاستعمار وإمتصاص المال، أو الإستيلاء على أراضى الآخرين، إذ تقول الآية: «وَإِن أَحَدٌ مّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلمَ اللَّهِ». أى عليك أن تعامل من يلجأ اليك من المشركين برفق ولطف، وامنحه المجال للتفكير حتى يتبين له محتوى دعوتك فى كمال الإرادة والحرية،

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٧

فإذا أشرقت أنوار الهداية فى قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثم تضيف الآية قائلة: «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» وأوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد فى طريقه.

وأخيراً فإنّ الآية تبين علة هذا الحكم، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْلَمُونَ».

فبناءً على ذلك لو فُتحت أبواب المعرفة بوجوهم، فإنّه يؤمّل خروجهم من الوثنية التى هى وليدة الجهل- وإلتحاقهم بركب التوحيد الذى هو وليد العلم والمعرفة.

كَيفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لَا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)

المعتدون الناقضون العهد: كما لاحظنا فى الآيات السابقة أنّ الإسلام ألغى جميع العهود التى كانت بينه وبين المشركين وعبدة الأوثان- إلّاجماعة خاصة- وأمهلهم مدّة أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه، والآيات محل البحث بيان لعلة إلغاء العهود من قِبل الإسلام، فتقول الآية الاولى من هذه الآيات مستفهمة استفهاماً إنكارياً: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ». أى: إنّهم لا ينبغى لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء بالعهد من قِبل النبى صلى الله عليه و آله ومن جانب واحد، فى وقت تصدر منهم المخالفات وعدم الوفاء بالعهد.

ثم استثنت الآية مباشرة اولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: «إِلَّا الَّذِينَ عهَدتُّم عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

وفى الآية التالية يثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة والتأكيد، ويستفهم منه استفهاماً إنكارياً أيضاً، إذ تقول الآية: «كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَايَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٤٨

وتضيف الآيه معقبة بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوّقة فقالت:

«يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ». وفى نهاية الآية إشارة إلى جذر هذا الموضوع وأساسه وهو فسقهم، فتقول: «وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ».

وفى الآية التالية بيان لبعض علائم فسقهم وعصيانهم، إذ أعربت الآية عن ذلك على النحو التالى «اشْتَرَوْا بَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ».

ثمّ تعقب الآية بالقول: «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فقد خسروا طريق السعادة وضيعوها، وحرموا الهداية، وهُم فى الوقت ذاته أوصدوا الطريق بوجه الآخرين، وأى عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره ووزر سواه!

أمّا فى آخر آية من الآيات محل البحث فهى تأكيد آخر على ما ورد فى الآيات المتقدمة، إذ تقول الآية: «لَايَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً».

وهذه الخصلة فيهم لم يُبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ».

فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَ لَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ

بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١۵) إنّ أحد أساليب الفصاحة والبلاغة أن يكرر المتحدّث المطلب المهم بتعابير مختلفة للتأكيد على أهميه، وليكون له أثر فى النفوس. ولما كانت مسألة تطهير المحيط الإسلامى من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢۴٩

الوثنية وعبادة الأصنام وإزالة آثارها، من المسائل ذات الأهمية القصوى، فإنّ القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديدة فى الآيات محل البحث، فتقول الآية الاولى: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدّين».

وتضيف معقبة: «وَنُفَصّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

ولكن لو استمر المشركون فى نقض العهود، فتقول الآية التالية: «وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَاأَيْمنَ لَهُمْ».

صحيح أنّهم عاهدوكم على عدم المخاصمة والمقاتلة، إلّاأنّ هذه المعاهدة- بنقضها مراراً، وكونها قابلة للنقض فى المستقبل- لا اعتبار لها أصلًا ولا قيمة لها.

وتعقّب الآية مضيفة: «لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ».

وفى الآية الاخرى خطاب للمسلمين لإثارة هممهم، وإبعاد روح الضعف والخوف والتردد عنهم فى هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: «أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ».

فعلام تقلقون وأنتم لم تبدأوهم بالقتال وإلغاء العهد من قبلكم «وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

وإذا كان بعضكم يتردد فى مقاتلتهم خشية منهم، فإنّ هذه الخشية لا محل لها «أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

وفى الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ».

وليس ذلك فحسب، بل، «وَيُخْزِهِمْ» «وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ».

وبهذا يشعر المؤمنون بالراحة والطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم والعذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، ويزيل اللَّه تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر «وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ».

أمّا الآية التالية فتضيف: إنّ فى إنتصار المؤمنين وهزيمة الكافرين سروراً للمؤمنين، وإنَّ اللَّه يسدّدهم «وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ».

وتُختتم الآية بالقول: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

العبارة الأخيرة تحمل البشرى بأنّ مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام ويشملهم توفيق

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢۵٠

اللَّه، لما لديهم من التهيؤ الروحى والقابلية.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١۶) فى هذه الآية ترغيب للمسلمين فى الجهاد عن طريق آخر، حيث تُحمّل الآية المسلمين مسؤولية ذات عبء كبير، وهى أنّه لا ينبغى أن تتصوروا أنّ كل شيء سيكون تامّاً بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النية وصدق القول والإيمان الواقعى فى قتالكم الأعداء قتالًا خالصاً من أى نوع من أنواع النفاق، فتقول الآية أوّلًا: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً».

«الوليجة»: مشتقة من «الولوج» ومعناه الدخول، وتطلق الوليجة على من يُعتمد عليه فى الأسرار ومعناها يُشبه معنى البطانة تقريباً.

إنّ الجملة المتقدمة تُنبه المسلمين إلى أنّ الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، ولا تتجلى شخصية الأشخاص بذلك، بل يعرف

الناس باختبارهم عن طريقين:

الأوّل: الجهاد فى سبيل اللَّه لغرض محو آثار الشرك والوثنية.

الثانى: ترك أيّة علاقة أو أىّ تعاون مع المنافقين والأعداء.

فالأوّل لدفع العدو الخارجى، والثانى يحصّن المجتمع من خطر العدو الداخلى.

وتُختتم الآية بما يدلّ على الإخطار والتأكيد: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فلا ينبغى أن يتصور أحدٌ أنّ اللَّه لا يعرف العلائق السرية بين بعض الأفراد وبين المنافقين، بل يعرف كل شىء جيداً وهو خبير بالأعمال كلها.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۱

من جملة المسائل التى يمكن أن تراود أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين والحكم بجهادهم، هو: لِم نُبْعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أنّ مساهمتهم فى هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية والمعنوية» إذ يستفاد من إعاناتهم المهمة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوى فى زيادة الحاج والطائفين حول الكعبة المشرفة وبيت اللَّه. فالآيتان محل البحث تردّان على مثل هذه الأفكار الواهية التى لا أساس لها، وتصّرح الآية الاولى منهما بالقول: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ».

ثم تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: «أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ».

ولذلك فهى لا تجديهم نفعاً: «وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ».

فاللَّه طاهر منزّه، وينبغى أن يكون بيته طاهراً منزهاً كذلك، فلا يصح أن تمسّه الأيدى الملوثة بالشرك. أمّا الآيةالتالية فتذكر شروط عمارة المسجدالحرام- إكمالًاللحديث آنفالذكر- فتبيّن خمسة شروط مهمة فى هذا الصدد، فتقول: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

وهذا النص إشارة إلى الشرطين الأوّل والثانى اللذين يمثلان الأساس العقائدى.

ثم تشير الآية إلى الشرطين الثالث والرابع فتقول: «وَأَقَامَ الصَّلَوةَ وَءَاتَى الزَّكَوةَ».

أى: إنّ الإيمان باللَّه واليوم الآخر لا يكفى أن يكون مجرّد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان باللَّه ينبغى أن تكون قوية محكمة، وأن يؤدّى صلاته باخلاص، كما ينبغى أن تكون علاقته بعباد اللَّه وخلقه قوية، فيؤدى الزكاة إليهم.

وتشير الآية إلى الشرط الخامس والأخير فتقول: «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ».

فقلبه ملىء بعشق اللَّه، ولا يحسّ إلّابالمسؤولية فى امتثال أمره ولايرى لأحد من عبيده أثراً فى مصيره ومصير مجتمعه وتقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر فى عمارة محل للعبادة.

ثم تضيف الآية معقبة بالقول: «فَعَسَى أُولئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ». فيبلغون أهدافهم ويسعون لعمارة المسجد.

أهمية بناء المساجد: وردت أحاديث كثيرة فى أهمية بناء المساجد. ففى تفسير المنار عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من بنى للَّهمسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى اللَّه له بيتاً فى الجنة».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۲

إلّا أنّ ما هو أكثر أهمية هذا اليوم هو عمارة المسجد المعنوية، فالمسجد ينبغى أن يكون مركزاً للشباب المؤمن، لا محلًا للعجزة والكسالى والمقعدين، فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعى الفعال، لا مجال العاطلين والبطّالين والمرضى.

أ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِی سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۹) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِی سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْفَائِزُونَ (۲۰) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (۲۱) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى عن ابن بريدة، قال: بينا شيبة والعباس يتفاخران، إذا مرّ بهما على بن أبى طالب عليه السلام فقال: «بماذا تتفاخران؟»

فقال العباس: لقد اوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد: سقاية الحاج.

وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام.

فقال على عليه السلام: «استحييت لكما، فقد اوتيت على صغرى ما لم تؤتيا!»

فقالا: وما اوتيت يا على؟

قال: «ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما باللّه ورسوله!»

فقام العباس مغضباً يجرّ ذيله حتى دخل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وقال: أما ترى إلى ما يستقبلنى به على؟

فقال: «أدعو لى عليّاً». فدعى له فقال: «ما حملك على ما استقبلت به عمّك؟» فقال: «يا رسول اللّه! صدمته بالحق، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض!»

فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: اتل عليهم:

«أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ» الآيات. فقال العباس: إنّا قد رضينا؛ ثلاث مرات.

التّفسير

مقياس الفخر والفضل: مع أنّ للآيات- محل البحث- شأناً فى نزولها، إلّاأنّها فى الوقت

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۳

ذاته تستكمل البحث الذى تناولته الآيات المتقدمة، ونظير ذلك كثير فى القرآن. فالآية الاولى من هذه الآيات تقول: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

ويحدثنا التاريخ أنّ منصب «سقاية الحاج» قبل الإسلام كان من أهم المناصب وكان يضاهى منصب سدانة الكعبة.

أمّا الآية التالية فتوضح ما أجملته الآية السابقة وتؤكّده بالقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

وأمّا الآية الثالثه- من الآيات محل البحث- فتقول: إنّ اللّه أنعم على المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين فى سبيله ثلاث مواهب هى:

۱- «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ».

۲- «وَرِضْوَانٍ».

۳- «وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».

وتعقب الآية الأخيرة لمزيد التوكيد بالقول: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِی سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِی الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (۲۴) كل شيء فداء للهدف: إنّ آخر وسوسة أو ذريعة يمكن أن يتذرع بها جماعة من المسلمين للامتناع عن جهاد المشركين (وفعلًا فقد تذرع بعضهم

وفقاً لما ورد فى قسم من التفاسير) بأنّ من بين المشركين وعبدة الأوثان أقارب لهم، فإذا كان القرار أن يجاهد الجميع المشركين فلابدّ أن يغمضوا أعينهم عن أرحامهم وأقاربهم وعشيرتهم الخ. هذا كله من جهة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٤

ثم ومن جهة اخرى كانت رؤوس الأموال والقدرة التجارية بيد المشركين تقريباً، ولهذا يسبب تردد المشركين إلى مكة إزدهار التجارة.

ومن جهة ثالثة كان للمسلمين فى مكة بيوت عامرة نسبياً، فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج ومناسكه بمكة. فالآيتان- محل البحث- ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص، وتردّان عليهم ببيان صريح، فتقول الآية الاولى منهما: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِن اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمنِ».

ثم تعقب- على وجه التأكيد- مضيفة: «وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وأيّ ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق والمشركين، ويظلم مجتمعه، ويظلم نبيّه أيضاً؟!

أمّا الآية التالية فهى تتناول هذا الموضوع بنحوٍ من التفصيل والتأكيد والتهديد والتقريع، فتخاطب النبى صلى الله عليه و آله ليعنّف اولئك الذين لا يرغبون فى جهاد المشركين لما ذكرناه آنفاً، فتقول: «قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

ولما كان ترجيح مثل هذه الامور على رضا اللَّه والجهاد فى سبيله، يعدّ نوعاً من العصيان والفسق البيّن، وإنّ من تشبث قلبه بالدنيا وزخرفها وزبرجها غير جدير بهداية اللَّه، فإنّ الآية تعقب فى الختام قائلة: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

ما قرأناه فى الآيتين- محل البحث- ليس مفهومه قطع علائق المحبة بين الأرحام، وإهمال رؤوس الأموال الاقتصادية، والإنسياق إلى تجاوز العواطف الإنسانية وإلغائها، بل المراد من ذلك أنّه ينبغى أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلى الأموال والأزواج والأولاد والدور والمقام الدنيوى، بحيث لا نطبّق فى تلك الحالة حكم اللَّه، أو لا نرغب فى الجهاد، ويحول عشقنا المادى دون تحقيق الهدف المقدس.

لهذا يلزم على الإنسان إذا لم يكن على مفترق الطرق أن يرعى الجانبين «العلاقة باللَّه والعلاقة بالرحم».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٥٥

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين فى قلوب اطفال المسلمين وشبابهم ونجعله شعاراً لنا، ونحيى فى نفوس المسلمين روح التضحية والجهاد، ليحافظوا على ثقافتهم وموروثهم المعرفى.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) الكثرة وحدها لا تجدى نفعاً: فى الآيات المتقدمة رأينا أنّ اللَّه سبحانه يدعوا المسلمين إلى التضحية والجهاد على جميع الصعد فى سبيل اللَّه وقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان، ويهدد بشدة من يتقاعس منهم عن الجهاد والتضحية بسبب التعلق بالأزواج والأولاد والأرحام والعشيرة والمال والثروة. أمّا الآيات محل البحث فتشير إلى مسألة مهمة، وهى أنّ على كل قائد أن ينّبه أتباعه فى اللحظات الحساسة بأنّه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف الايمان والذين يحجبهم التعلق بالمال والولد والأزواج وما إلى ذلك عن الجهاد فى سبيل اللَّه، فلا ينبغى أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، وعليهم أن يواصلوا طريقهم، لأنّ اللَّه لم يتخلّ عنهم يوم كانوا قلة، كما هو الحال فى معركة بدر، ولا يوم كانوا كثرة ملء العين (كما فى معركة حنين) وقد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئاً، لكن اللَّه سبحانه أنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا،

فاللّه فى الحالين ينصر المؤمنين ويرسل إليهم مدده ... لهذا فإنّ الآية الاولى من الآيات محل البحث تقول: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ».

ثم تضيف الآية معقبة: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيًا». وكان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثنى عشر ألفاً، وهذا الرقم لم يسبق له مثيل فى الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى إغتر بعض المسلمين وقالوا: «لن نُغلب اليوم».

إلّا أنّه قد فرّ كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدى عهد بالإسلام ولم يتوغل الإيمان فى قلوبهم فانكسر جيش المسلمين فى البداية وكاد العدو أن يغلبهم لولا أنّ اللّه أنزل بلطفه مدده وجنوده فنجّاهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۶

ويصوّر القرآن هذه الهزيمة بقوله: «وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ».

وفى هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا وهناك، ولم يبق مع النبى إلّا القلة، وكان النبى مضطرباً ومتألّماً جدّاً لهذه الحالة نزل التأييد الإلهى: «ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا».

ويَذكر القرآن النتيجة النهائية لمعركة حنين الحاسمة فيقول: «وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ». وكان هذا العذاب والجزاء أن قُتل بعض الكافرين، واسر بعضهم، وفرّ بعضهم إلى مناطق بعيدة عن متناول الجيش الاسلامى.

ومع هذا الحال فإنّ اللّه يفتح أبواب توبته للأسرى والفارين من الكفار الذين يرغبون فى قبول مبدأ الحق «الإسلام» لهذا فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وجملة «يتوب» التى وردت بصيغة الفعل المضارع، والتى تدل على الإستمرار، مفهومها أنّ أبواب التوبة والرجوع نحو اللّه مفتوحة دائماً بوجه التائبين.

غزوة حنين ذات العبرة: «حنين» منطقة قريبة من الطائف، وبما أنّ الغزوة وقعت هناك فقد سمّيت باسم المنطقة ذاتها، وقد عُبّر عنها فى القرآن ب «يوم حنين» ولها من الأسماء:

غزوة أوطاس، وغزوة هوازن أيضاً.

أمّا تسميتها بأوطاس، فلأنّ «أوطاس» أرض قريبة من مكان الغزوة، وأمّا تسميتها بهوازن، فلأنّ إحدى القبائل التى شاركت فى غزوة حنين تُدعى هوازن.

إنّ رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف واجتمعوا عنده فى اخريات شهر رمضان أو شوال فى السنة الثامنة للهجرة، وكانوا قد جاءوا بأموالهم وأبنائهم وأزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، وهكذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقد النبى صلى الله عليه و آله لواءه، وسلمه علياً عليه السلام.

وكان ألفا شخص قد أسلم فى فتح مكة، فأضيف عددهم إلى العشرة آلاف الذين ساهموا فى فتح مكة، وصاروا حوالى اثنى عشر ألفاً، وتحركوا نحو حنين.

فلما صلّى النبى صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفة من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۷

المقاتلين جديدى الإسلام (بمكة) من مقدمة الجيش، فكان أن ذُهل المسلمون واضطربوا وفرّ الكثير منهم.

فخلّى اللّه بين جيش المسلمين وجيش العدو، وترك الجيشين على حالهما، ولم يحم المسلمين لغرورهم- مؤقتاً- حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلّا أنّ علياً حامل لواء النبى بقى يقاتل فى عدة قليلة معه، فأمر النبى صلى الله عليه و آله عمّه العباس- وكان جهير الصوت- أن يصعد

على تل قريب وينادى: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرّون؟ هذا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

فلّما سمع المسلمون صوت العباس رجعوا وقالوا: لبيك لبيك، ولا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدو من كل جانب حملة شديدة، فقتل حوالى مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم.

ونقرأ فى نهاية هذه الحادثة التأريخية أنّ ممثلى هوازن جاءوا النبى وأعلنوا إسلامهم، وأبدى لهم النبى صلى الله عليه و آله صفحه وحبّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هـذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) لا يحق للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام: قلنا: إنّ واحداً من الامور الأربعة التى بلّغها الإمام على عليه السلام فى موسم الحج فى السنة التاسعة للهجرة، هو أنّه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشير إلى هذا الموضوع وحكمته، فتقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذَا».

ثم تعقب الآية على ذوى النظرة السطحية الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم وغدوا فقراء مغوزين فتقول: «وَإِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ».

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعة الإسلام فى عصر النبى صلى الله عليه و آله أخذ سيل الزائرين يتجه نحو بيت اللَّه فى مكة، وما زال هذا الأمر مستمراً حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكة فى أحسن الظروف فهى بين سلسلة جبال صخرية لا ماء فيها ولا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۸

زرع، لكنها مدينة عامرة، وقد صارت بإذن اللَّه مركزاً مهماً للبيع والشراء والتجارة.

ويضيف القرآن فى نهاية الآية قائلًا: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فكل ما يأمركم به اللَّه فهو وفق حكمته، وهو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، وهو خبير بذلك.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) مسؤوليتنا إزاء أهل الكتاب: كان الكلام فى الآيات السابقة عن وظيفة المسلمين إزاء المشركين، أمّا الآية محل البحث (وما يليها من الآى) فتبيّن تكليف المسلمين ووظيفتهم إزاء أهل الكتاب. وفى هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسلة من الأحكام تعدّ حدّاً وسطاً بين المسلمين والكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث إتّباعهم لدينهم السماوى لهم شبه بالمسلمين، إلّاأنّهم من جهة اخرى لهم شبه بالمشركين أيضاً.

ولهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطة تقضى بقلع جذور الشرك والوثنية من الكرة الأرضية، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب فى صورة ما لو احترم أهل الكتاب الإسلام، ولم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

والعلامة الاخرى لموافقتهم على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هى أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الاسلامية مبلغاً قليلًا من المال بحدود وشروط معينة سنتناولها فى البحوث المقبلة إن شاء اللَّه.

وفى غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، ويوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم فى جمل ثلاث فى الآية محل البحث، إذ تقول الآية أوّلًا: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب- كاليهود والنصارى- باللَّه وباليوم الآخر، مع أنّنا نراهم فى الظاهر يؤمنون باللَّه ويقرون بالمعاد أيضاً؟

والجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات والأوهام.

ثم تشير الآية إلى الصفة الثانية لأهل الكتاب، فتقول: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٥٩

وتذكر الآية الصفة الثالثه التى كانوا يتصفون بها فتقول: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقّ». أى إنّ أديانهم منحرفة عن مسيرها الأصيل، فنسوا كثيراً من الحقائق والتزموا بكثير من الخرافات مكانها.

وبعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، التى هى المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب، تقول الآية: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابِ».

ثم تبين الآية الفرق بين أهل الكتاب والمشركين فى مقاتلتهم، بالجملة التالية: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

«الصاغر»: مأخوذ من «الصِغَر» ومعناه الراضى بالذلة. والمراد من الآية أنّ الجزية ينبغى أن تُدفع فى حال من الخضوع للإسلام والقرآن.

ما هى الجزية؟ تُعدّ الجزية ضريبة مالية «إسلامية» وهى تتعلق بالأفراد لا بالأموال ولا بالأراضى. أو بتعبير آخر: هى ضريبة مالية سنوية على الرؤوس. أنّ فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هى الدفاع عن الوطن واستقلاله وأمنه، وهى وظيفة عامة على جميع الناس، فبناء على ذلك متى ما قام جماعة فعلًا بالمحافظة على الوطن ولم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون ويتّجرون- مثلًا- فإنّ على الجماعة الثانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

فبناء على ذلك أنّ الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسؤولية فى الحفاظ عليهم وعلى أموالهم.

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً وَاحِداً لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٦٠

شرك أهل الكتاب: كان الكلام فى الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين وإلغاء عهودهم وضرورة إزالة دينهم ومعتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب. وفى الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب والمشركين، ولا سيما اليهود والنصارى منهم، ليتضح أنّه لو كان بعض التشدد فى معاملتهم، فإنّما هو لانحرافهم عن التوحيد، وميلهم إلى نوع من الشرك فى العقيدة، ونوع من الشرك فى العبادة. فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ».

من هو عزير؟ «عزير» فى لغة العرب هو «عزرا» فى لغة اليهود، فإنّ عزيراً- أو عزرا- له مكانة خاصه فى تاريخ اليهود، حتى أنّ بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لُامّة اليهود وبانى مجدهم، وفى الواقع فإنّه خدمةً كبرى لدينهم، لأنّ بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميراً فى واقعته المشهورة، وجعل مُدُنَهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجىء بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالى قرن.

ولمّا فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا، وكان من أكابر اليهود، فاستشفعه فى اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم وكتب لهم التّوراة- ممّا بقى فى ذهنه من أسلافه اليهود وما كانوا قد حدّثوا به- من جديد. ولذلك فهم يحترمونه أيما احترام، ويعدّونه منقذهم ومحيى شريعتهم. وكان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم ب «ابن اللَّه».

وفى الآية التالية إشارة إلى شركهم العملى فى قبال الشرك الإعتقادى، أو بعبارة اخرى إشارة إلى شركهم فى العبادة، إذ تقول الآية: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ». «الأحبار» جمع حبر، ومعناه العالم، و «الرهبان» جمع راهب وتطلق

علی من ترک دنیاه وسکن الدیر وأکبّ علی العبادة.

وممّا لا شک فیه أنّ الیهود والنصاری لم یسجدوا لأحبارهم ورهبانهم، لکن لما کانوا منقادین لهم بالطاعة دون قید أو شرط، بحیث کانوا یعتقدون بوجوب تنفیذ حتی الأحکام المخالفة لحکم اللّه من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقلید الأعمی باتخاذ ربّ.

وفی ختام الآیة تأکید علی هذه المسألة، وهی أنّ جمیع هذه العبادات للبشر بدعة، وهی من العبادات الموضوعة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّاإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۱

إنّ القرآن المجید یعلّم أتباعه فی الآیة محل البحث درساً قیّماً جدّاً، ویبین واحداً من أبرز مفاهیم التوحید فیها، إذ یقول: لا یحق لأیّ مسلم طاعة إنسان آخر دون قید أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساو لعبادته، وجمیع الطاعات یجب أن تکون فی إطار طاعة اللّه، وإنّما یصح إتباع الإنسان نظیره متی کانت قوانینه غیر مخالفة لقوانین اللّه، أیّاً کان ذلک الإنسان وفی أیة مکانة أو منزلة.

وفی الآیة الثالثة من الآیات محل البحث تشبیه طریف لسعی الیهود والنصاری، أو سعی جمیع مخالفی الإسلام حتی المشرکین، وجدّهم واجتهادهم المستمر «العقیم» الذی لا یعود علیهم بالنفع أبداً، إذ تقول الآیة: «يُرِيدُونَ أَن يُطْفُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

ولا تعبیر أبلغ من تعبیر القرآن لتجسید هذه المحاولات الیائسة، وفی الواقع فإنّ محاولات مخلوق ضعیف إزاء قدرة اللّه التی لا نهایة لها، لا تکون أحسن حالًا ممّا ذکرته الآیة.

الآیة الأخیرة من الآیات محل البحث فی نهایة المطاف تزف البُشری للمسلمین باستیعاب الإسلام العالم بأسره، وتکمل ما أشارت إلیه- آنفاً- أنّ أعداء الإسلام لن یفلحوا فی محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّينِ كُلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ».

والمقصود من «الهدی» هو الدلائل الواضحة، والبراهین اللائحة الجلیة التی وُجدت فی الدین الإسلامی.

وأمّا المراد من «دین الحق» فهو هذا الدین الذی اصوله حقة وفروعه حقة أیضاً، وکل ما فیه من تاریخ وبراهین ونتائج حق، ولا شک أنّ الدین الذی محتواه حق، ودلائله وبراهینه حقة، وتأریخه حق جلی، لابدّ أن یظهر علی جمیع الأدیان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهولة الإرتباطات، فإنّ الواقع سیکشف وجهه ویطلعه من وراء سُدُل الإعلام المضللة، وستزول کل العقبات والموانع والسدود التی وضعت فی طریق انتشار الإسلام.

وهکذا فإنّ دین الحق سیستوعب کل مکان، ولا یحول بینه وبین تقدمه شیء أبداً، لأنّ الحرکات المضادة للإسلام حرکات مخالفة لسیر التاریخ وسنن الخلق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۲

القرآن وظهور المهدی: إنّ الآیة محل البحث عینها وبالالفاظ ذاتها، وردت فی سورة الصف، الآیة (۹) کما وردت فی الآیة (۲۸) من سورة الفتح باختلاف یسیر؛ والآیة تخبر عن حدث مهمّ کبیر استدعت أهمّیته هذه أن تتکرر الآیة فی القرآن، وهذا الحدث الذی أخبرت عنه الآیة هو استیعابُ الإسلام للعالم بأسره.

فمفهوم الآیة إنتصار الإسلام کلیاً- ومن جمیع الجهات- علی جمیع الأدیان، ومعنی هذا الکلام أنّ الإسلام سیُهیمن علی الکرة الأرضیة عامة، وسینتصر علی جمیع العالم.

ینقل الشیخ الصدوق رحمه الله فی کتابه إکمال الدین عن الإمام الصادق علیه السلام فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «واللّه ما نزل تأویلها بعدُ، ولا ینزل تأویلها حتی یخرج القائم، فإذا خرج القائم لم یبق کافر باللّه العظیم».

کما فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «إنّ ذلک یکون عند خروج المهدی من آل محمّد، فلا یبقی أحد

إلّاأقرّ بمحمّد».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم (۳۴) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (۳۵) كنز الأموال: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن أعمال اليهود والنصارى المشوبة بالشرك، إذ كانوا يعبدون الأحبار والرهبان من دون اللّه. الآية الاولى محل البحث تقول: إنّ اولئك مضافاً إلى كونهم غير جديرين بالالوهية فهم غير جديرين بقيادة الناس أيضاً، وخير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضة المضطربة. فالآية هنا تلتفت نحو المسلمين فتخاطبهم بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوّغ أو مجوز، فقد أشرنا سابقاً إلى ذلك فى آيات اخرى كما ورد فى التاريخ شيء منه أيضاً، وذلك:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۳

أوّلًا: إنّهم كتموا حقائق التعاليم التى جاء بها موسى عليه السلام فى توراته وعيسى عليه السلام فى إنجيله، لئلا يميل الناس إلى الدين الجديد، «الدين الإسلامى» فتنقطع هداياهم وتغدو منافعهم فى خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات (۴۱) و (۷۹) و (۱۷۴) من سورة البقرة.

والثانى: إنّهم بأخذهم «الرشوة» كانوا يقلبون الحق باطلًا والباطل حقاً، وكانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية (۴۱) من سورة المائدة.

ومن أساليبهم غير المشروعة فى أخذ المال هو ما يسمّى ب «صكوك الغفران وبيع الجنة» فكانوا يتسلمون أموالًا باهظة من الناس.

وأمّا صدّهم عن سبيل اللّه فهو واضح، لأنّهم كانوا يحرفون آيات اللّه، أو أنّهم كانوا يكتمونها رعاية لمنافعهم الخاصة.

وتعقيباً على موضوع حب اليهود والنصارى لدنياهم وأكل المال بالباطل، فإنّ القرآن يتحدث عن قانون كلى فى شأن أصحاب المال وذوى الثراء، الذين يكنزون أموالهم، فيقول:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرهُم بِعَذَابٍ أَلِيم».

فالآية محل البحث تحرم الكنز وجمع المال، والثروة، وتأمر المسلمين أن ينفقوا أموالهم فى سبيل اللّه وما فيه نفع عباد اللّه، وأن يتجنبوا كنزها ودفنها وإبعادها عن تحرك السوق، وإلّا فلينتظروا «العذاب الأليم».

وهذا العذاب الأليم ليس جزاءهم فى يوم القيامة فحسب، بل يشملهم فى الدنيا- لإرباكهم الحالة الاقتصادية ولإيجاد الطبقية بين الناس «الفقير والغنى» أيضاً.

متى يعدّ جمع الثروة كنزاً؟ وفق كثير من الروايات أنّه يجب على الإنسان دفع زكاته سنوياً لا- غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولًا بحكم الكنز وإن جمع المال؟

ففى تفسير المنار عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، ثم سألوا النبى صلى الله عليه و آله فقال: «إنّ اللّه لم يفرض الزكاة إلّاليطيب بها ما بقى من أموالكم، وإنّما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم».

إلّا أنّنا نقرأ روايات اخرى فى المصادر الإسلامية لا تنسجم ظاهراً- ولأوّل وهلة- والتفسير الآنف الذكر، ومنها ما ورد- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«ما زاد على أربعة آلاف «۱» فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدّ، وما دونها فهو نفقة».

(۱) المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنّها مخارج السنة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۴

ویمکن الإستنتاج من مجموع الأحادیث- آنفة الذکر- منضمةً إلیها الآیة محل البحث، أنّه فی الظروف الاعتیادیة المألوفة، حیث یری الناس آمنین، أو غیر محدق بهم الخطر، والمجتمع فی حال مستقر، فیکفی عندئذ دفع الزکاة وما تبقی لا یعد کنزاً.

وأمّا فی الحالات غیرالطبیعیة وغیر الاعتیادیة، وعندما یقتضی حفظ مصالح المجتمع الإسلامی ذلک، فإنّ الحکومة الإسلامیة، تحدّد لجمع المال مقداراً، کما مرّ فی حدیث الإمام علی علیه السلام أو تطالب الناس بالکنوز وما جمعوه من المال کلیاً.

جزاء من یکنز: فی الآیة التالیة إشارة إلی واحد ممّا یحیق بمثل هؤلاء ممّن یکنز المال، فی العالم الآخر، إذ تقول الآیة: «یَوْمَ یُحْمَی عَلَیْهَا فِی نَارِ جَهَنَّمَ فَتُکْوَی بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ».

ویخاطبهم ملائکة العذاب وهم فی هذه الحال: «هذَا مَا کَنَزْتُمْ لِأَنفُسِکُمْ فَذُوقُوا مَا کُنتُمْ تَکْنِزُونَ».

وهذه الآیة توکّد مرّة اخری هذه الحقیقة، وهی أنّ أعمال الإنسان لا تمضی سدی، بل تبقی وتتجسّد له یوم القیامة، وتکون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِی کِتَابِ اللَّهِ یَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِکَ الدِّینُ الْقَیِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنْفُسَکُمْ وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِکِینَ کَافَّةً کَمَا یُقَاتِلُونَکُمْ کَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ (۳۶) إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیَادَةٌ فِی الْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا یُحِلُّونَهُ عَاماً وَ یُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِیُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَیُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُیِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکَافِرِینَ (۳۷) وقف القتال الإجباری: لما کانت هذه السورة تتناول أبحاثاً مفصلةً حول قتال المشرکین، فالآیتان محل البحث تشیران إلی أحد مقررات الحرب والجهاد فی الإسلام، وهو إحترام الأشهر الحرم. فتقول الآیة الاولی: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِی کِتَابِ اللَّهِ یَوْمَ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرضَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۵

والتعبیر ب «کتاب اللَّه» إشارة إلی کتاب الخلق وعالم الوجود.

فمنذ ذلک الیوم الذی استقرت علیه المجموعة الشمسیة بنظامها الخاص حدثت السنین والأشهر، فالسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة کاملة والشهر دوران القمر حول الأرض دورة کاملة.

ثم تضیف الآیة- آنفة الذکر- معقبّة: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ».

ثم تضیف الآیة مؤکّدة: «ذلِکَ الدّینُ الْقَیّمُ».

ویستفاد من بعض الروایات أنّ تحریم القتال فی هذه الأشهر الحرم، کان مشرّعاً فی الدیانة الیهودیة والمسیحیة وسائر الشرائع السماویة، إضافة إلی شریعة إبراهیم الخلیل علیه السلام.

ثم تقول الآیة: «فَلَا تَظْلِمُوا فِیهِنَّ أَنفُسَکُمْ».

إلّا أنّه لما کان تحریم هذه الأشهر قد یتخذ ذریعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمین فیها، فقد عقبت الآیة بالقول: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِکِینَ کَافَّةً کَمَا یُقَاتِلُونَکُمْ کَافَّةً». فبالرغم من أنّ هؤلاء مشرکین، والشرک أساس التشتت والتفرقة، إلّاأنّهم یقاتلونکم فی صف واحد «کافة» فینبغی علیکم أن تقاتلوهم کافة، فذلک منکم أجدر لأنّکم موحدون فلابد من توحید کلمتکم أمام عدوکم ولتکونوا کالبنیان المرصوص.

وتختتم الآیة بالقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ».

وفی الآیة الثانیة- من الآیتین محل البحث- إشارة إلی إحدی السنن الخاطئة فی الجاهلیة، وهی سنة النسیء «تغییر الأشهر الحرم» إذ تقول الآیة: «إِنَّمَا النَّسِیءُ زِیَادَةٌ فِی الْکُفْرِ یُضَلُّ بِهِ الَّذِینَ کَفَرُوا» ففی أحد الاعوام یقرّرون حلیّة الشهر الحرام ویحرمون أحد الأشهر

الحلال للمحافظة على العدد أربعة «يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ». فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفة تحريم الأشهر، ويتلاعبون بحكم اللّه بحسب ما تمليه عليهم أهوائهم، والعجيب أنّهم يرضون عن عملهم، وفعلهم هذا كما تقول الآية: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ». فهم يغيرون الأشهر الحرم ويبدلونها، ويعدّون ذلك تدبيراً لحياتهم ومعاشهم، أو يتصورون أنّ طول فترة إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلابد من إثارة الحرب.

فاللّه سبحانه إذا علم أنّ فى عباده من ليس أهلًا للهداية والتوفيق، خلاه ونفسه: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۶

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (۳۸) إِنْ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قالوا لما رجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله من (الطائف)، أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك فى زمان إدراك الثمار، فأحبّوا المقام فى المسكن والمال، وشقّ عليهم الخروج إلى القتال، وكان صلى الله عليه و آله قلّما خرج فى غزوة إلّاكنّى عنها وورّى بغيرها إلّا (غزوة تبوك)، لبعد شقتها، وكثرة العدو، ليتأهب الناس، فأخبرهم بالذى يريد، فلما علم اللّه سبحانه تثاقل الناس، أنزل الآية.

التّفسير

كما أشرنا آنفاً فى شأن نزول الآيتين، فإنّهما نزلتا فى غزوة «تبوك».

وتبوك منطقة بين المدينة والشام، وتعدّ الآن من حدود الحجاز، وكانت آنئذ على مقربة من أرض الروم الشرقية المتسلطة على الشامات «۱».

وقد حدثت هذه الواقعة فى السنة التاسعة للهجرة، أى بعد سنة من فتح مكة تقريباً.

ففى الآية الاولى- من الآيتين محل البحث- يدعو القرآن المسلمين إلى الجهاد بلسان الترغيب تارة وبالعتاب تارة اخرى وبالتهديد ثالثة فهو يدعوهم ويهيؤهم إلى الجهاد، ويدخل إليهم من كل باب. إذ تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ».

ثمّ تقول الآية مخاطبة إيّاهم بلهجة الملامة: «أَرَضِيتُم بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ».

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخُسران، وكيف يعوّض متاعاً غالياً

---

(۱) الفاصلة بين تبوك والمدينة ۶۱۰ كم والفاصلة بينها وبين الشام ۶۹۲ كم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۷

لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً؟!

ثم تتجاوز الآية مرحلة الملامة والعتاب إلى لهجة أشدّ وأسلوب تهديدى جديد، فتقول:

«إِلَّا تَنفِرُوا يُعِذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

فإذا كنتم تتصورون أنّكم إذا توليتم وأعرضتم عن الذهاب إلى سوح الجهاد، فإنّ عجلة الإسلام ستتوقف وينطفىء نور الإسلام، فأنتم فى غاية الخطأ واللّه غنى عنكم «وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» قوماً أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصية فحسب، بل من حيث الإيمان والإرادة والشهامة والإستجابة والطاعة «وَلَا تَضُرُّوهُ شَيًا».

وهذه حقيقة وليست ضرباً من الخيال أو أمنية بعيدة المدى، فاللّه عزيز حكيم: «واللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۰) المدد الإلهی للرسول فی أشد اللحظات: کان الکلام فی الآیات المتقدمة عن موضوع الجهاد ومواجهة العدو، وکما أشرنا فقد جاء الکلام عن الجهاد مؤکّداً بعدّة طرق، من ضمنها أنّه لا ینبغی أن تتصوروا أنّکم إذا تقاعستم من الجهاد ونصرة النبی صلی الله علیه و آله فستذهب دعوته والإسلام أدراج الریاح. فالآیة محل البحث تعقّب علی ما سبق لتقول: «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ».

وکان ذلک عندما تآمر مشرکو مکة علی اغتیال النبی صلی الله علیه و آله وقتله، وقد مرّ بیان ذلک فی ذیل الآیة (۳۰) من سورة الأنفال بالتفصیل.

ولکن النبی صلی الله علیه و آله اطّلع- بأمر اللَّه- علی هذه المکیدة، فتهیأ للخروج من (مکة) والهجرة إلی (المدینة).

وقد سعی الأعداء سعیاً حثیثاً للعثور علی النبی، إلّاأنّهم عادوا آیسین، وبعد بضعة أیّام وصل صلی الله علیه و آله المدینة سالماً، وبدأت مرحلة جدیدة من تأریخ الإسلام هناک.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۸

فالآیة آنفة الذکر تشیر إلی أشدّ اللحظات حرجاً فی هذا السفر التاریخی، فتقول: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وبالطبع فإنّهم لم یریدوا إخراجه بل أرادوا قتله، لکن لما کانت نتیجة المؤامرة خروج النبی صلی الله علیه و آله من مکة فراراً منهم، فقد نسبت الآیة إخراجه إلیهم.

ثم تقول: کان ذلک فی حال هو «ثَانِيَ اثْنَيْنِ».

وهذا التعبیر إشارة إلی أنّه لم یکن معه فی هذا السفر الشاق إلّارجل واحد، وهو أبو بکر «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ». أی غار ثور، فاضطرب أبو بکر وحزن فأخذ النبی صلی الله علیه و آله یسرّی عنه، وکما تقول الآیة: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا».

ولعل هذه الجنود الغیبیة هی الملائکة التی حفظت النبی صلی الله علیه و آله فی سفره الشاق المخیف، أو الملائکة التی نصرته فی معرکتی بدر وحنین وأضرابهما.

«وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا».

وهی إشارة إلی أنّ مؤامراتهم قد باءت بالخیبة والفشل وحبطت أعمالهم وآراؤهم، وشعّ نور اللَّه فی کل مکان، وکان الإنتصار فی کل موطن حلیف محمّد صلی الله علیه و آله، ولم لا یکون الأمر کذلک «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فبعزته وقدرته نصر نبیه، وبحکمته أرشده سبل الخیر والتوفیق والنجاح.

انْفِرُوا خِفَافاً وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۱) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۴۲) الکسالی الطامعون: قلنا: إنّ معرکة تبوک کانت لها حالة استثنائیة، وکانت مقترنة بمقدمات معقّدة وغامضة تماماً، ومن هنا فإن عدداً من ضعاف الإیمان أو المنافقین أخذ «یتعلّل» فی الإعتذار عن المساهمة فی هذه المعرکة. وقد وردت فی الآیات المتقدمات ملامة للمؤمنین من قبل اللَّه سبحانه، وتعقیباً علی هذا الکلام یدعو المؤمنین جمیعاً مرّة اخری- دعوة عامة- نحو الجهاد ویعنف المتسامحین فیقول سبحانه: «انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۹

«الخفاف»: جمع الخفیف؛ «الثقال»: جمع الثقیل، ولهاتین الکلمتین مفهوم شامل یستوعب جمیع حالات الإنسان. أی انفروا فی أیّة حالة کنتم شباباً أم شیوخاً، تعولون أحداً أم لا تعولون، أغنیاءً أم فقراء، أصحابَ تجارة أو زراعة أم لستم من اولئک.

ثم تضيف الآية قائلة: «وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». أى جهاداً مطلقاً عاماً من جميع الجهات، لأنّهم كانوا يواجهون عدوّاً قويّاً مستكبراً.

ولئلا يتوهّم أحد أنّ هذه التضحية يريدها اللّه لنفسه ولا تنفع أصحابها، فإنّ الآية تضيف قائلة: «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». أى إن كنتم تعلمون بأنّ الجهاد مفتاح عزتكم ورفعتكم ومنعتكم.

وإن كنتم تعلمون بأنّ سبيل الوصول إلى مرضاة اللّه والسعادة الأبدية وأنواع النعم والمواهب الإلهية، كل ذلك إنّما هو فى هذه النهضة المقدسة العامة والتضحية المطلقة.

ثم يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالى الذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النبى مبيّناً واقعهم فيقول: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» (١).

والعجيب أنّهم لاـ يكتفون بالأعذار الواهية، بل «وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ». فعدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنّما هو لضعفنا وعدم اقتدارنا وابتلائنا! «يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

فهم قادرون على الذهاب إلى ساحات القتال، لكن حيث إنّ السفر ذو مشقة، ويواجهون صعوبةً وحرجاً، فإنّهم يتشبثون بالكذب والباطل. ولم يكن هذا الأمر منحصراً بغزوة تبوك وعصر النبى صلى الله عليه و آله فحسب، ففى كل مجتمع فئة من الكسالى والمنافقين والطامعين والانتهازيين الذين ينتظرون لحظات الإنتصار ليقحموا أنفسهم فى الصفوف الاولى، ويصرخوا بعالى الصوت أنّهم المجاهدون الأوائل والمخلصون البواسل، ليصادروا ثمرات جهود الآخرين فى إنتصارهم دون أن يبذلوا أيّ جهد!

غير أنّ هؤلاء «المجاهدين» المخلصين! كما يزعمون، حين يواجهون الشدائد والأزمات يلوذون بالفرار ويتشبثون بالأعذار الباطلة والحجج الواهية، كأن يقول أحدهم: إنّى

---

(١) «العَرَض»: ما يعرض ويزول عاجلًا ولا دوام له، ويطلق عادةً على مواهب الدنيا المادية؛ و «القاصد»: معناه السهل، لأنّه فى الأصل من قصد، والناس يسعون فى قصدهم إلى المسائل السهلة.

«الشقة»: تعنى الأرض الصخرية أو الطريق الطويل البعيد الذى يجلب على عابره المشقة والنصب.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٧٠

مريض، ويقول الآخر: إنّى مبتلىً بطفلى، ويقول الثالث: زوجى مُقرب وعلى وشك الولادة، ويقول الرابع: يا ليتنى كنت معكم لولا ضعف فى عينىّ لا أبصر بهما، ويقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر وأنا على أثركم، وهكذا .... إلّا أنّ على القادة والصفوة من الناس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، وإذا لم يكونوا أهلًا للإصلاح فينبغى إخراجهم وطردهم من صفوف المجاهدين.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) التعرّف على المنافقين: يستفاد من الآيات- محل البحث- أنّ جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النبى صلى الله عليه و آله وبعد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة- حتى أنّهم أقسموا على صدق مدعاهم- إستأذنوا النبى فى الانصراف عن المساهمة فى معركة تبوك، فأذن لهم النبى بالإنصراف. فاللّه سبحانه يعتب على النبى فى الآية الاولى من الآيات محل البحث فيقول:

«عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ».

وهناك كلام طويل بين المفسّرين فى المراد من عتاب اللّه نبيّه المشفوع بالعفو عنه، أهو دليل على أنّ إذن النبى صلى الله عليه و آله كان مخالفة، أم هو من باب ترك الاولى؟!

يُحتمل فى تفسير الآية هو أنّ العتاب أو الخطاب المذكور آنفاً إنّما هو على سبيل الكناية، ولم يكن فى الأمر حتى «ترك الاولى» بل

المراد بيان روح النفاق فى المنافقين ببيان لطيف وكناية فى المقام.

ويمكن أن يتّضح هذا الموضوع بذكر مثال، فلنفرض أنّ ظالماً يريد أن يلطم وجه ابنك، إلّا أنّ أحد أصدقائك يحول بينه وبين مراده فيمسك يده، فقد تكون راضياً عن سلوكه هذا، بل وتشعر بالسرور الباطنى، إلّاأنّك ولإثبات القبح الباطنى للطرف المقابل تقول لصديقك:

لم لا تركته يضربه على وجهه ويلطمه؟ وهدفك من هذا البيان إنّما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم ونفاقه، الذى ورد فى ثوب عتاب الصديق وملامته من قِبلك.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧١

ثم يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين والمنافقين، فيقول: «لَايَسْتَـْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـأخِرِ أن يُجَاهِـدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ».

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد ويدعوهم الإيمان باللَّه واليوم الآخر ومسؤولياتهم وإيمانهم بمحكمة القيامة، كل ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق ويوصد بوجوههم الأعذار والحجج الواهية: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ».

ثمّ يضيف القرآن: «إِنَّمَا يَسْتْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

ويعقّب مؤكّداً عدم إيمانهم بالقول: «وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ».

وهاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين والمنافقين فى صدر الإسلام ومعركة تبوك فحسب، بل يمكن فى عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدّعين الكاذبين بهاتين الصفتين. فالمؤمن شجاع ذو إرادة وتصميم وخطى واثقة، والمنافق جبان وخائف ومتردد وحائر ويبحث عن المعاذير دائماً.

وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۴۷) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (۴۸) عدم وجودهم أفضل: فى الآية الاولى- من الآيات أعلاه- بيان لعلامة اخرى من علائم كذبهم، وهى فى الحقيقة تكمل البحث الوارد فى الآيات المتقدمة آنفاً، إذ جاء فيها «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». فالآية محل البحث تقول: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» ولم ينتظروا الإذن لهم: «وَلكِن كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» «١».

هذا أمر تكوينى نهض من باطنهم المظلم، وإنّه مقتضى عقيدتهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة، ويستفاد من الآية محل البحث أنّ لكل عمل ونيّة اقتضاءً يُبتلى به الإنسان شاء أم

---

(١) «ثبّطهم»: مشتق من التثبيط ويعنى الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٢

أبى، وليس لكل أحد قابلية السير فى سبيل اللَّه وتحمّل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قِبَل اللَّه يوليه من يجد فيه طهارة النية والإستعداد والإخلاص. وفى الآية التالية إشارة إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ عدم مساهمة مثل هؤلاء الأفراد فى ساحة الجهاد ليس مدعاة للتأثر والأسف فحسب، بل لعله مدعاة للسرور، والآية تعطى درساً للمسلمين أن لا يكترثوا بكثرة المقاتلين أو قلّتهم وكميتهم وعددهم، بل عليهم أن يفكروا فى اختيار المخلصين المؤمنين وإن كانوا قلّة، فهذا درس لمسلمى الماضى والحاضر والمستقبل. وتقول الآية: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُم». أى إلى تبوك للقتال «مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا».

فبناءً على ذلك فإنّ حضورهم بتلك الروحية الفاسدة المقرونة بالتردد والنفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك والتردد وتثبيط العزائم بين جنود الإسلام.

وتضيف الآية قائلة: «وَلَأَوْضَعُوا خِلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ» (۱).

ثم تنذر المسلمين من المتأثرين بهم فى صفوف المسلمين: «وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ».

فبناءً على ذلك فإنّ وظيفة المسلمين الراسخين فى الإيمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لئلا يقعوا فريسة المنافقين الذئاب. والمراد من السمّاع فى الآية هو الجاسوس الذى يتجسّس بين المسلمين ويجمع الأخبار للمنافقين.

وتُختتم الآية بالقول: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إنذار للنبى صلى الله عليه و آله بأنّ هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأوّل مرّة إلى التخريب والتفرقة وبذر السموم، بل ينبغى أن تتذكر- يا رسول اللَّه- أنّ هؤلاء ارتكبوا من قبل مثل هذه الامور وهم يتربصون الفرص الآن لينالوا مُناهم «لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ».

وهذه الآية تشير إلى ما جرى فى معركة احد حيث رجع عبداللَّه بن أبى وأصحابه وانسحبوا وهم فى منتصف الطريق، أو أنّها تشير إلى مؤامرات المنافقين عامة التى كانوا يكيدونها للنبى صلى الله عليه و آله أو للمسلمين، ولم يغفل التاريخ أن يسجلها على صفحاته.

«وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ» وخطّطوا للإيقاع بالمسلمين، أو لمنعهم من الجهاد بين يديك، إلّا أنّ كل تلك المؤامرات لم تفلح، وإنما رَقَموا على الماء ورشقوا سهامهم على الحجر «حَتَّى جَاءَ

---

(۱) «أوضعوا»: من مادة الإيضاع ومعناه، الإسراع فى الحركة، ومعناه هنا الإسراع فى النفوذ بين صفوف المقاتلين، و «الفتنة»: هنا بمعنى التفرقة واختلاف الكلمة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۳

الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ». غير أنّ مشيئة العباد وإرادتهم لا أثر لها إزاء مشيئة اللَّه وإرادته، فقد شاء اللَّه أن ينصرك وأن يُبلغ رسالتك إلى أصقاع المعمورة، ويزيل العراقيل والموانع عن منهاجك، وقد فعل.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (۴۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما استنفر الناس إلى تبوك، قال: «إنفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر». فقام جد بن قيس، أخو بنى سلمة من بنى الخزرج، فقال يا رسول اللَّه! ائذن لى، ولا تفتنّى ببنات الأصفر، فإنّى أخاف أن افتتن بهنّ. فقال: «قد أذنت لك». فأنزل اللَّه تعالى «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي» الآية.

فلما نزلت هذه الآية قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لبنى سلمة: «من سيّدكم»؟ قالوا: جدّ بن قيس غير أنّه بخيل جبان! فقال صلى الله عليه و آله: «وأىّ داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور».

التّفسير

المنافقون المتذرّعون: يكشف شأن النزول المذكور أنّ الإنسان متى أراد أن يتنصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرّع بشتى الحيل. فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله ليردّ على مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلًا: «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي» بالنساء والفتيات الروميات الجميلات.

ولكن القرآن يقول مجيباً عليه وأمثاله: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». أى إنّ أمثال اولئك الذين تذرّعوا بحجّة الخوف من الذنب- هم الآن واقعون فيه فعلًا، وأن جهنم محيطة بهم، لأنّهم تركوا ما أمرهم اللَّه ورسوله به وراء ظهورهم وانصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۴

إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (۵۰) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إلَّا إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (۵۲) فى الآيات- آنفة الذكر- إشارة إلى إحدى صفات المنافقين وعلاماتهم وبهذا تتابع البحث الذى يتناول صفات المنافقين فى ذيل الآيات المتقدمة والآيات اللاحقة.

تقول الآيات أوّلًا: «إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ».

وهذه المساءة دليل على العداوة الباطنية وفقدان الإيمان.

ولكنهم على خلاف هذه الحال عند الشدة والخطب: «وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ».

هؤلاء المنافقون عُمى القلوب ينتهزون أيّة فرصة لصالحهم ومنافعهم، ويزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم وعقلهم، إذ لم نُساهم فى المعركة الفلانية ولم نقع فى أىّ مأزق! كما ابتلى به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل والتدبر، وبهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم وهم يكادون أن يطيروا فرحاً.

ولكنك- يا رسول اللَّه- عليك أن تردّ عليهم بجواب منطقى متين وذلك:

أوّلًا: «قُلْ لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَنَا». أجَلْ فلا يريد بنا إلّاالخير والصلاح: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». فهم يعشقون اللَّه فحسب، ومنه يطلبون المدد والعون، ويتوكلون عليه ويلتجئون إليه عند الخطوب.

ثانياً: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ». فإمّا أن نُبير الأعداء فى ساحة الحرب ونُبيدهم ونعود منتصرين، أو نُقتل فننهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبّب لنا ومصدر افتخارنا.

وهكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إمّا أن تصيبكم سهام البلايا والمصائب والعقوبات الإلهية سواء فى الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا:

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۷۵

«وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ». تربصوا غبطتنا وسعادتنا ونحن نتربص شقاءكم وسوء عاقبتكم.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (۵۳) وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إلَّا وَ هُمْ كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (۵۴) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (۵۵) تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين وعواقب أعمالهم ونتائجها، وتبيّن بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها ولا قيمة، ولا تعود عليهم بأىّ نفع.

ولمّا كان- من بين الأعمال الصالحة- الإنفاق فى سبيل اللَّه «الزكاة بمعناها الواسع» والصلاة «وهى العلاقة بين الخلق والخالق»- لهما موقع خاص، فقد اهتمّت الآيات بهذين القسمين اهتماماً خاصاً. تخاطب الآيات النبى الكريم فتقول: «قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ».

ثم تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: «إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ». فنيّاتكم غير خالصة، وأعمالكم غير طاهرة، وقلوبكم مظلمة، وإنّما يتقبل اللَّه العمل الطاهر من الورع التقى.

والمراد من «الفسق» هنا الكفر والنفاق، أو تلوّث الإنفاق بالرياء والتظاهر.

وفى الآية التالية يوضح القرآن مرّة اخرى السبب فى عدم قبول نفقاتهم فيقول: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

والقرآن يعوّل كثيراً على أنّ قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنّه لو قام الإنسان بعمل صالح وهو مؤمن، ثمّ كفر بعد

ذلک فإنّ الکفر یحبط عمله ولا یکون له أی أثر.

وبعد أن أشار القرآن إلی عدم قبول نفقاتهم، یشیر إلی حالهم فی العبادات فیقول: «وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى كما أنّهم «وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ».

وأنّ نفقاتهم لا تقبل لسببین:

الأوّل: هو أنّهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

والثانی: أنّهم إنّما ینفقون عن کره وإجبار.

کما أنّ صلواتهم لا تُقبل لسببین أیضاً:

الأوّل: لأنّهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ ...».

والثانی: أنّهم «لَايَأْتُونَ الصَّلَوةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى .

وفی آخر آیة من الآیات محل البحث یتوجه الخطاب نحو النبی قائلًا: «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوَلدُهُمْ».

فهی وإن کانت نعمةً بحسب الظاهر، إلّاأنّه: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيوةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

وفی الواقع فإنّهم یعذبون عن طریقین بسبب هذه الأموال والأولاد، أی القوة الاقتصادیة والإنسانیة:

فالأوّل: إنّ مثل هؤلاء الأبناء لا یکونون صالحین عادة، ومثل هذه الأموال لا برکة فیها، فیکونان مدعاة قلقهم وألَمِهم فی الحیاة الدنیا، إذ علیهم أن یسعوا لیل نهار من أجل أبنائهم الذین هم مدعاة أذاهم وقلقهم، وأن یجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التی اکتسبوها عن طریق الإثم والحرام.

والثانی: لما کانوا متعلقین بهذه الأموال والأولاد، ولا یؤمنون بالحیاة بعد الموت ولا بالدار الآخرة الواسعة ولا بنعیمها الخالد، فلیس من الهیّن أن یغمضوا عن هذه الأموال والذریة، وبالتالی یخرجون من هذه الدنیا- بحال مزریة وفی حال الکفر.

فالمال والبنون قد یکونان موهبة وسعادة ومدعاة للرفاه والهدوء والاطمئنان والدعة إذا کانا طاهرین طیبین وإلّا فهما مدعاة العذاب والشقاء والألم.

وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (۵۶) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (۵۷) علامة اخری للمنافقین: ترسم الآیتان أعلاه حالة اخری من أعمال المنافقین بجلاء، إذ تقول الآیة الاولی: «وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مّنكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ» ومن شدّة خوفهم وَفَرقِهم یخفون کفرهم ویظهرون الإیمان.

و الآیة التالیة تصوّر شدّة عداوة المنافقین للمؤمنین ونفورهم منهم، فی عبارة موجزة إلّا أنّها فی غایة المتانة والبلاغة، إذ تقول: «لَوْ يَجِدُونَ مَلْجًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ».

فهذه الآیة واحدة من أبلغ الآیات والتعابیر التی یسوقها القرآن فی وصف المنافقین، وبیان هلعهم وخوفهم وبغضهم إخوانهم المؤمنین، بحیث لو کان لهم سبیل للفرار من المؤمنین، ولو علی قمم الجبال أو تحت الأرض، لَولّوا إلیه وهم یجمحون، ولکن ما عسی أن یفعلوا مع الروابط التی تربطهم معکم من القبیلة والأموال والثروة، کل ذلک یضطرهم إلی البقاء علی رغم أنوفهم.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (۵۹)

سبب النّزول

فی تفسیر الدرّ المنثور عن أبی سعید الخدری قال: بینما النبی صلی الله علیه و آله یقسم قسماً- وقال ابن عباس: کانت غنائم هوازن

يوم حنين- إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول اللَّه. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل». فقال عمر: يا رسول اللَّه إئذن لى فأضرب عنقه! فقال النبى صلى الله عليه و آله: «دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء ...» فنزلت فيهم الآيتان.

التّفسير

الأنانيون السفهاء: فى الآية الاولى أعلاه إشارة إلى حالة اخرى من حالات المنافقين، وهى أنّهم لا يرضون أبداً بنصيبهم. فمتى مُلئت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) ومتى ما اعطوا حقهم وروعى العدل فى ايتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه. لذا فإنّ الآية تقول:

«وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ». لكنهم ينظرون إلى منافعهم الخاصة: «فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ».

فهؤلاء يرون أنّ النبى صلى الله عليه و آله غير منصف ولا عادل، ويتهمونه فى تقسيمه المال!

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۸

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰) موارد صرف الزكاة ودقائقها: فى تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما فى مكة، حيث كان هدف النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين فيها تعليم الأفراد وتربيتهم ونشر التعاليم الإسلامية. والثانية فى المدينة، حيث أقدم النبى صلى الله عليه و آله على تشكيل حكومة إسلامية أجرى من خلالها الأحكام والتعاليم الإسلامية.

ومما لا شك فيه أنّ أوّل وأهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هى إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تُؤمّن حاجات الدولة الاقتصادية، وهى حاجات طبيعية توجد فى كل دولة بدون استثناء، ومن هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة، وتشكل الزكاة أحد موارده، وعلى المشهور فإنّ هذا الحكم شُرّع فى السنة الثانية للهجرة النبوية.

إنّ الآية التى نبحثها قد بيّنت الموارد الحقيقية التى تصرف فيها الزكاة، وأنهت التوقعات غير المنطقية وحددت موارد صرف الزّكاة فى ثمانية أصناف:

۱- الفقراء.

۲- المساكين: وسيأتى البحث عن الفرق بين الفقير والمسكين.

۳- العاملين عليها: وهم الذين يسعون فى جباية الزكاة، وإدارة بيت المال.

۴- المؤلفة قلوبهم: وهم الذين لا يوجد لديهم الحافز والدافع المعنوى القوى من أجل النهوض بالأهداف الإسلامية وتحقيقها، ولكن ويمكن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، والاستفادة منهم فى الدفاع عن الإسلام وتحكيم دولته، وإعلاء كلمته.

وكما جاء فى المباحث الفقهية، فإنّ لهذه الآية، وكذلك للروايات الواردة فى هذا الموضوع مفهوماً واسعاً، ولهذا فإنّها تشمل كل من يمكن استمالته من أجل نفع وتحكيم الإسلام، ولا دليل على تخصيصها بالكفار.

۵- فى الرقاب: وهذا يعنى أن قسماً من الزكاة يخصّص لمحاربة العبودية والرق وإنهاء هذه الحالة غير الإنسانية.

۶- الغارمون: وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، ولم يكن هذا العجز نتيجة لتقصيرهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۹

۷- فى سبيل اللَّه: والمراد منه جميع السبل التى تؤدّى إلى تقوية ونشر الدين الإلهى، وهى أعم من مسألة الجهاد والتبليغ وأمثالها.

۸- ابن السبيل: وهم الذين تخلفوا فى الطريق لعلة ما، وليس معهم من الزاد والراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التى يقصدونها، حتى ولو لم يكونوا فقراء فى واقعهم، لكنهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو لأسباب أخر.

وفى خاتمة الآية نلاحظ التأكيد على صرفها فى الجهات السابقة، ولذلك قال سبحانه:

«فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ» ولا شك أنّ هذه الفريضة قد حُسبت بصورة دقيقة جدّاً، وبصورة تحفظ مصالح الفرد والمجتمع، لأنّ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

بحثان

١- الفرق بين الفقير والمسكين: إنّ «الفقير» هو الشخص الذى يعانى من حاجة مالية فى حياته ومعاشه مع أنّه يعمل ويكتسب، لكنه لا يسأل أحداً مطلقاً رغم حاجته لعفته وعزّة نفسه، أمّا «المسكين» فهو أشد حاجة من الفقير، وهو العاجز عن العمل، فهو مضطر لأنّ يستعطى الناس ويسألهم.

٢- دور الزكاة فى الإسلام: إذا علمنا أنّ الإسلام ظهر إلى الوجود كدين وقانون كامل وشامل عولجت فيه كل الحاجات المادية والمعنوية فى الحياة، وكذلك إذا علمنا أنّ تشكيل وتأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وإذا علمنا أنّ الإسلام يهتم اهتماماً خاصاً بنصرة المحرومين ومكافحة الطبقية فى المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال والزكاة التى تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا ـ شك أنّ فى كل مجتمع أفراداً عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، وأمثالهم، وهؤلاء يحتاجون حتماً إلى من يحميهم ويرعاهم ويقوم بشؤونهم، وكذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده وكيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود ونفقاتهم فإنّ الدولة هى التى تلتزم بتأمينها ودفعها إليهم.

وعلى هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة- التى تعتبر نوعاً من الضرائب على الإنتاج والأرباح وعلى الأموال الراكدة- اهتماماً خاصاً، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، وقد ذكرت- جنباً إلى جنب- مع الصلاة فى كثير من الموارد، بل إنّه اعتبرها شرطاً لقبول الصلاة.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٨٠

مختصر الامثل ج ٢ ٣٠٠

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

سبب النّزول

هذا حسن لا ـ قبيح: فى تفسير مجمع البيان قيل: نزلت فى جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت، وشأس بن قيس وجحش بن حمير ورفاعة بن عبد المنذر وغيرهم، قالوا ما لا ينبغى، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يبلغ محمّداً ما تقولون، فيوقع بنا. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنّ محمّداً اذُن سامعة، فأنزل اللّه الآية.

التّفسير

تتحدّث الآية- كما يفهم من مضمونها- عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه و آله بكلامهم ويقولون أنّه اذن ويصدّق كل ما يقال له سريعاً: «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ».

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة- والتى هى سمة إيجابية للنبى صلى الله عليه و آله والتى يجب توفرها فى أى قائد كامل- نقطة ضعف فى سيرته ومعاملته صلى الله عليه و آله.

من هنا نلاحظ أنّ القرآن قد ردّهم مباشرة، وأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول لهم بأنّه إذا كان يصغى لكلامكم، ويقبل أعذاركم، أو كما تظنون بأنّه اذُن، فإنّ ذلك فى مصلحتكم ولمنفعتكم «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ». فإنّه بذلك يحفظ ماء وجوهكم وشخصيتكم، ولا يجرح شعوركم وعواطفكم، وبذلك- أيضاً- يسعى لحفظ وحدتكم واتحادكم ومودتكم، ولو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحة، ويفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضرّكم ذلك وشق عليكم.

ومن أجل أن لا يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، ولا يجعلون هذه الصفة وسيلة لتأكيد كلامهم، أضاف اللّه تعالى أنّ النبى صلى الله عليه و آله يؤمن باللّه ويطيع أوامره، ويصغى إلى كلام المؤمنين المخلصين ويقبله ويرتب عليه الأثر، «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ».

وهذا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان له طريقان واسلوبان فى عمله:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۱

أحدهما: الحفاظ على الظاهر والحيلولة دون هتك الأستار وفضح أسرار الناس.

والثانى: فى مرحلة العمل، فقد كان صلى الله عليه و آله فى البداية يسمع من كل أحد، ولا ينكر على أحد ظاهراً، أمّا فى الواقع العملى فإنّه لا يعتنى ولا يقبل إلّاأوامر اللّه واقتراحات وكلام المؤمنين المخلصين، والقائد الواقعى يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلّا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنّه رحمة للمؤمنين: «وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ».

بقى هنا شىء واحد، وهو أنّ هؤلاء الذين يؤذون النبى صلى الله عليه و آله بكلامهم ويتتبعون أحواله لعلّهم يجدون عيباً يشهّرون به يجب أن لا- يتصوروا أنّهم سوف يبقون بدون جزاء وعقاب، ولهذا قال تعالى فى نهاية الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ (۶۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لمّا نزلت الآيات التى ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك ووبختهم قالوا المنافقين: لئن كان ما يقول محمّد حقّاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فقال: واللّه إنّ ما يقول محمّد حق، وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبى صلى الله عليه و آله فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أنّ عامراً كذّاب، فنزلت الآية.

التّفسير

المنافقون والتظاهر بالحق: إنّ إحدى علامات المنافقين وأعمالهم القبيحة والتى أشار إليها القرآن مراراً هى إنكارهم الأعمال القبيحة والمخالفة للدين والعرف، وهم إنّما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السىء وإخفاء الصورة الحقيقية لهم، ولما كان المجتمع يعرفهم ويعرف كذبهم فى هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة من أجل مخادعة الناس وإرضائهم.

وفى الآيات السابقة الذكر نرى أنّ القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهة، ويحذّر المسلمين من تصديق الأيمان الكاذبة من جهة اخرى. فى البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين وينبههم إلى أنّ هدف هؤلاء- من القَسَم هو إرضاؤكم «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۲

فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإنّ إرضاء اللّه ورسوله أهم من إرضاءالمؤمنين، غير أنا نرى أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا اللّه ورسوله، ولذا عقبت الآية فقالت: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

وفى الآية الثانية نرى أنّ القرآن يهدد المنافقين تهديداً شديداً، فقال: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا».

ومن أجل أن يؤكّد ذلك أضاف تعالى: «ذلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ».

«يحادد»: مأخوذ من «المحادّة» وأصلها «حدّ»، ومعناها نهاية الشىء وطرفه، ولما كان الأعداء والمخالفون يقفون فى‌الطرف الآخر المقابل، لذا فإنّ مادة «المحادّة» قد وردت بمعنى العداوة أيضاً.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا

نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى إثنى عشر رجلًا وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بذلك وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم.

وعمار كان يقود دابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: إضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاهم. فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم».

التّفسير

يستفاد من الآية الاولى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يكشف الستار عن أسرار المنافقين

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٨٣

أحياناً، وذلك لدفع خطرهم عن النبى صلى الله عليه و آله وفضحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، ويحذروهم وليعرف المنافقون موقع اقدامهم ويكفّوا عن تآمرهم، ويشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم وتكشف خبيئة أسرارهم فقال: «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ».

إلّا أنّ العجيب فى الأمر أنّ هؤلاء ولشدة حقدهم وعنادهم لم يكفّوا عن استهزائهم وسخريتهم، لذلك تضيف الآية: بأنّهم مهما سخروا من أعمال النبى صلى الله عليه و آله فإنّ اللَّه لهم بالمرصاد وسوف يظهر خبيث أسرارهم ويكشف عن دنىء نيّاتهم، فقال: «قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ».

أمّا الآية الثانية فإنّها أشارت إلى اسلوب آخر من أساليب المنافقين، وقالت: «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ» «١». أى إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينة قالوا: نحن نمزح وبذلك ضمنوا طريق العودة.

غير أنّ القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامة، وجابههم بجواب لا- مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يخاطبهم: «قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ».

أى إنّه يسألهم: هل يمكن المزاح والسخرية حتى باللَّه ورسوله وآيات القرآن؟

هل يمكن إخفاء قضية تنفير البعير وسقوط النبى صلى الله عليه و آله من تلك العقبة الخطيرة، والتى تعنى الموت، تحت عنوان ونقاب المزاح؟

ثم يأمر القرآن النبى صلى الله عليه و آله أن يقول للمنافقين بصراحة: «لَاتَعْتَذِرُوا» والسبب فى ذلك أنّكم «قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ».

فهذا التعبير يُشعر أنّ هذه الفئة لم تكن منذ البداية فى صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنّهم ضعيفو الإيمان، بعد هذه الحوادث الآنفة الذكر سلكوا طريق الكفر.

واختتمت الآية بهذه العبارة: «إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» فهى تبيّن أنّ طائفة قد استحقت العذاب نتيجة الذنوب والمعاصى، وهذا دليل على أنّ أفراد الطائفة الاخرى إنّما شملهم العفو الإلهى لأنّهم غسلوا ذنوبهم ومعاصيهم بماء التوبة من أعماق وجودهم.

---

(١) «خوض»: على وزن «حوض» وهو بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى مختلف الأعمال من باب الكناية، إلّاأنّها جاءت فى القرآن غالباً بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۴

الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰) البحث فى هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين وعلاماتهم وصفاتهم، فالآية الاولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلى، وهو أنّ روح النفاق يمكن أن تتجلّى بأشكال مختلفة وتبدو فى صور متفاوتة بحيث لا تلفت النظر فى أوّل الأمر، خصوصاً أنّ روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل والمرأة، لكن يجب أن لا يُخدع الناس بتغيير صور النفاق بين المنافقين، لذلك يقول اللَّه سبحانه: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ».

وبعد ذلك يشرع القرآن الكريم فى ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الاولى والثانية: إنّهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات ويرغبونهم فيها من جهة، ويُبعدونهم وينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من جهة اخرى «يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ». أى إنّهم يسلكون طريقاً ويتّبعون منهاجاً هو عكس طريق المؤمنين تماماً، فإنّ المؤمنين يسعون دائماً- عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر- إلى أن يصلحوا المجتمع وينقوه من الشوائب والفساد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية فى المجتمع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۵

واقتلاع جذور الخير والأعمال الصالحة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، ولا شك أنّ وجود مثل هذا المحيط الفاسد والبيئة الملوّثة ستساعدهم كثيراً فى تحقيق أهدافهم.

الثالثة: إنّ هؤلاء بخلاء لا يتمتعون بروح الخير للناس فلا ينفقون فى سبيل اللَّه، ولا يعينون محروماً، ولا يستفيد أقوامهم ومعارفهم من أموالهم، فعبّر عنهم القرآن: «وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ».

الرابعة: إنّ كل أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم يوضح أنّ هؤلاء قد نسوا اللَّه، والوضع الذى يعيشونه يبيّن أنّ اللَّه قد نسيهم فى المقابل، وبالتالى فإنّهم قد حُرموا من توفيق اللَّه وتسديده ومواهبه السنية، أى إنّه سبحانه قد عاملهم معاملة المنسيين، وآثار وعلامات هذا النسيان المتقابل واضحة فى كل مراحل حياتهم، وإلى هذا تشير الآية: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ».

الخامسة: إنّ المنافقين فاسقون وخارجون من دائرة طاعة أوامر اللَّه سبحانه وتعالى، وقالت الآية: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فى الآية التى تليها نلاحظ الوعيد الشديد والإنذار بالعذاب الأليم والجزاء الذى ينتظر هؤلاء حيث تقول: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» وأنّهم سيخلدون فى هذه النار المحرقة «خَالِدِينَ فِيهَا» وأنّ هذه المجازاة التى تشمل كل أنواع العذاب والعقوبات تكفى هؤلاء إذ «هِيَ حَسْبُهُمْ». وبعبارة اخرى: إنّ هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبة اخرى غير النار، حيث يوجد فى نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها والروحية.

وتضيف الآية فى خاتمتها أنّ اللَّه تعالى قد أبعد هؤلاء عن ساحة رحمته وجازاهم بالعذاب الأبدى «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ»، بل إنّ البعد عن اللَّه تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم وأشد عقوبة وآلمها.

تكرر التاريخ والإعتبار به: من أجل توعية هؤلاء المنافقين، وضعت الآية الآتية مرآة التاريخ أمامهم، ودعتهم إلى ملاحظة حياتهم وسلوكهم ومقارنتها بالمنافقين والعتاة المردة الذين تمردوا على أوامر اللَّه سبحانه وتعالى، وأعطتهم أوضح الدروس وأكثرها عبرة، فذكّرهم بأنّهم كالمنافقين الماضين ويتبعون نفس المسير وسيلقون نفس المصير: «كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» علماً أنّ هؤلاء «كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ

قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا».

وكما أنّ هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم فى هذه الحياة الدنيا، وصرفوا أعمارهم فى طريق قضاء

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۶

الشهوات والمعصية والفساد والإنحراف، فإنّكم قد تمتعتم بنصيبكم كهؤلاء: «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلقِهِمْ».

«الخلاق»: فى اللغة بمعنى النصيب والحصة. ثم تقول بعد ذلك: إنّكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتم وسلكتم مسلك الإستهزاء والسخرية، تماماً كهؤلاء: «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا» «۱».

ثم تبين الآية عاقبة أعمال المنافقين الماضين لتحذّر المنافقين المعاصرين للنبى صلى الله عليه و آله وكل منافقى العالم فى جملتين:

الاولى: إنّ كل أعمال المنافقين قد ذهبت أدراج الرياح، فى الدنيا والآخرة، ولم يحصلوا على أىّ نتيجة حسنة، فقالت: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا والْأَخِرَةِ».

الثانية: إنّ هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئة: «وَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

إنّ هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا ويحققوا بعض المكاسب والإمتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت ومحدود، فإنّنا إذا أمعنّا النظر فسنرى أنّ هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئاً، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وبعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين ويتوجه إلى النبى صلى الله عليه و آله ويتبع اسلول الإستفهام الإنكارى، فتقول الآية: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ» «۲».

إنّ هذه الحوادث المرعبة تهز وجدان وأحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس وشعور عند مطالعتها وتحقيقها.

ورغم طغيان هؤلاء وتمرّدهم فإنّ اللَّه الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته وعطفه لحظة، وقد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم وإنقاذهم من الضلالة إذ «أَتَتْهُمْ

---

(۱) إنّ جملة «كالذى خاضوا» فى الواقع بمعنى: كالذى خاضوا فيه. وبعبارة اخرى، فإنّها تشبيه لفعل منافقى اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملة السابقة استفادة هؤلاء من النعم والمواهب الإلهية فى طريق الشهوات كالسابقين منهم، وعلى هذا فإنّ هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل (الذى) بمعنى (الذين) أى المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

(۲) «المؤتفكات»: مأخوذة من مادة الإئتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وهى إشارة إلى مدن قوم لوط التى قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۷

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ» إلّاأنّ هؤلاء لم يصغوا إلى أيّة موعظة ولم يقبلوا نصيحة من أنبياء اللَّه وأوليائه، ولم يقيموا وزناً لجهاد ومتاعب هؤلاء الأبرار وتحملهم كل المصاعب فى سبيل هداية خلق اللَّه، وإذا كان العقاب قد نالهم فلا يعنى أن اللَّه عزّ وجلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجرموا فاستحقوا العذاب: «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۷۱) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۷۲) مرّ فى الآيات السابقة، ذكر خمس الصفات المشتركة بين المنافقين، الرجال منهم والنساء، وتذكر هذه الآيات صفات وعلامات المؤمنين والمؤمنات، وتتلخص فى خمس صفات أيضاً، وتشرع الآية بذكر صفات المؤمنين والمؤمنات، وتبدأ ببيان أنّ بعضهم لبعض ولى وصديق «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ».

وبعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

۱- ففى البداية تبيّن أنّ هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

۲- إنّهم ينهون الناس عن الرذائل والمنكرات «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ».

۳- إنّهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا اللّه، فإنّهم يقيمون الصلاة، ويذكرون اللّه فتحيا قلوبهم وتشرف عقولهم «وَيُقِيمُونَ الصَّلَوةَ».

۴- إنّهم- على عكس المنافقين والذين كانوا يبخلون بأموالهم- ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه وفى مساعدة عباد اللّه وبناء المجتمع وإصلاح شؤونه، ويؤدون زكاة أموالهم «وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ».

۵- إنّ المنافقين فسّاق ومتمردون، وخارجون من دائرة الطاعة لأوامر اللّه، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماماً، إذ «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

أمّا ختام الآية فإنّه يتحدث عن إمتيازات المؤمنين، والمكافأة والثواب الذى ينتظرهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۸

وأوّل ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهية التى تنتظرهم ف «أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ».

ولا شك أنّ وعد اللّه للمؤمنين قطعى ويقينى لأنّ اللّه قادر وحكيم، ولا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، وليس اللّه القادر بعاجز عن الوفاء بوعده حين وعد «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». الآية الثانية شرحت جانباً من هذه الرحمة الإلهية الواسعة التى تعم المؤمنين فى بُعديها المادى والمعنوى. فهى أوّلًا تقول: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنتِ جَنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ»، ومن خصائص هذه النعمة الكبيرة أنّها لا زوال لها ولا فناء، بل الخلود الأبدى، لذا فإن المؤمنين والمؤمنات سيكونون «خَالِدِينَ فِيهَا».

ومن المواهب الإلهية الاخرى التى سوف ينعمون بها هى المساكن الجميلة، والمنازل المرفهة التى أعدها اللّه لهم وسط الجنان «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ».

ويتّضح من الاحاديث أنّ جنات عدن حدائق خاصة فى الجنة سيستقر فيها النبى صلى الله عليه و آله وجماعة من خلّص أصحابه وأتباعه.

بعد ذلك تشير الآية إلى الجزاء المعنوى المعد لهؤلاء، وهو رضى اللّه تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، وهو أهم وأعظم جزاء، ويفوق كل النعم والعطايا الاخرى «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».

إنّ اللذة المعنوية والإحساس الروحى الذى يحس ويلتذ به الإنسان عند شعوره برضى اللّه سبحانه وتعالى عنه لا يمكن أن يصفه أى بشر.

وفى النهاية أشارت الآية إلى جميع هذه النعم المادية والمعنوية، وعبرت عنها بأنّ «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۷۳) جهاد الكفار والمنافقين: وأخيراً، صدر القرار الإلهى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى وجوب جهاد الكفار والمنافقين بكل قوة وحزم «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» ولا تأخذك بهم رأفة ورحمة، بل شدد «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ». وهذا العقاب هو العقاب الدنيوى، أمّا فى الآخرة فإنّ محلهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۹

إن طريقة جهاد الكفار واضحة ومعلومة، فإنّ جهادهم يعنى التوسل بكل الطرق والوسائل فى سبيل القضاء عليهم، وبالذات الجهاد المسلح والعمل العسكرى.

والمقصود من جهاد المنافقين هو الأشكال والطرق الاخرى للجهاد غير الجهاد الحربى والعسكرى، كالذم والتوبيخ والتهديد والفضيحة، وربّما تشير جملة «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» إلى هذا المعنى.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۷۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم، فقال الجلاس: واللّه لئن كان محمّد صادقاً فيما يقول، فنحن شرّ من الحمير! فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل واللّه! إنّ محمّداً لصادق وأنتم شر من الحمير! فلما انصرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول اللّه. فأمرهما رسول اللّه أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف باللّه ما قال، ثم قام عامر فحلف باللّه لقد قاله. ثم قال: اللهم أنزل علىّ نبيّك الصادق منا الصدق. فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله والمؤمنون: آمين.

فنزل جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ «فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ» فقام الجلاس، فقال: يا رسول اللّه أسمع اللّه قد عرض علىّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك، لقد قلته وأنا أستغفراللّه وأتوب إليه. فقبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله ذلك منه.

التّفسير

مؤامرة خطرة: إنّ هذه الآية تزيح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقين، وهو أنّ هؤلاء عندما رأوا أنّ أمرهم قد انكشف، انكروا ما نُسب إليهم بل أقسموا باليمين الكاذبة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۰

على مدّعاهم. فى البداية تذكر الآية أنّ هؤلاء المنافقين لا يرتدعون عن اليمين الكاذبة فى تأييد إنكارهم، ولدفع التهمة فإنّهم «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» فى الوقت الذى يعلمون أنّهم إرتكبوا ما نسب إليهم من الكفر «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» وعلى هذا فإنّهم قد إختاروا طريق الكفر بعد إعلانهم الإسلام «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلِمِهِمْ». ومن البديهى أنّ هؤلاء لم يكونوا مسلمين منذ البداية، بل إنّهم أظهروا الإسلام فقط، وعلى هذا فإنّهم بإظهارهم الكفر قد هتكوا ومزّقوا حتى هذا الحجاب المزيف الذى كانوا يتسترون به. وفوق كل ذلك فقد صمّموا على أمر خطير لم يوفقوا لتحقيقه «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» ويمكن أن يكون هذا إشارة إلى تلك المؤامرة لقتل النبى صلى الله عليه و آله فى ليلة العقبة، والتى مرّ ذكرها آنفاً، أو أنّه إشارة إلى كل أعمال المنافقين التى يسعون من خلالها إلى تحطيم المجتمع الإسلامى وبثّ بذور الفرقة والفساد والنفاق بين أوساطه، لكنّهم لن يصلوا إلى أهدافهم مطلقاً.

الجملة الاخرى تبين واقع المنافقين القبيح ونكرانهم للجميل فتقول الآية: إنّ هؤلاء لم يروا من النبى صلى الله عليه و آله أى خلاف أو أذى، ولم يتضرروا بأى شىء نتيجة للتشريع الإسلامى، بل على العكس، فإنّهم قد تمتعوا فى ظل حكم الإسلام بمختلف النعم المادية والمعنوية «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ» وهذه قمة اللؤم.

غير أنّ القرآن- كعادته- رغم هذه الأعمال لم يغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبة والرجوع إلى الحق على مصراعيه إن أرادوا ذلك، فقال: «فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ».

وهذه علامة واقعية الإسلام واهتمامه بمسألة التربية، ومعارضته لاستخدام الشدّة فى غير محلّها وهكذا فتح باب التوبة حتى بوجه المنافقين الذين طالما كادوا للإسلام وتآمروا على نبيّه وحاكوا الدسائس والتهم ضده، بل إنّه دعاهم إلى التوبة أيضاً.

وفى نفس الوقت ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء أنّ هذا التسامح الإسلامى صادر من منطق الضعف، حذّرهم بأنّهم إن استمروا فى

غيهم وتنكّروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشديد سينالهم فى الدّارين «وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ» وإذا كانوا يظنون أنّ أحداً يستطيع أن يمدّ لهم يد العون مقابل العذاب الإلهى فإنّهم فى خطأ كبير، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صباح المنذرين: «وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩١

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٧۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبى صلى الله عليه و آله أن ادع اللَّه أن يرزقنى مالًا. فقال «يا ثعلبة! قليل تؤدّى شكره، خير من كثير لا تطيقه، أما لك فى رسول اللَّه اسوة حسنة؟ والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة، لسارت». ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يرزقنى مالًا، والذى بعثك بالحق لئن رزقنى اللَّه مالًا، لأعطينّ كل ذى حق حقّه! فقال صلى الله عليه و آله: «اللهم ارزق ثعلبة مالًا».

قال: فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نموّاً حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلّااخت الجزية! فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!» وأنزل اللَّه الآيات.

التّفسير

المنافقون وقلّة الاستيعاب: هذه الآيات تشير إلى صفة اخرى من صفات المنافقين السيّئة، وهى أنّ هؤلاء إذا مسّهم البؤس والفقر والمسكنة عزفوا على وتر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أنّ هؤلاء يمكن أن يكونوا يوماً من جملة المنافقين، إلّاأنّ هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادى فإنّهم سينسون كل عهودهم ومواثيقهم مع اللَّه والناس، ويغرقون فى حبّ الدنيا. فالآية الاولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدوا اللَّه على البذل والعطاء لخدمة عباده إذا ما أعطاهم اللَّه المال الوفير: «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

إلّا أنّهم يؤكّدون هذه الكلمات والوعود مادامت أيديهم خالية من الأموال «فَلَمَّا ءَاتهُم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٩٢

مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ» غير أنّ عملهم هذا ومخالفتهم للعهود التى قطعوها على أنفسهم بذرت روح النفاق فى قلوبهم وسيبقى إلى يوم القيامة متمكناً منهم «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» وإنّما استحقوا هذه العاقبة السيئة غير المحمودة «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». وفى النهاية وبّخت الآية هؤلاء النفر ولامتهم على النوايا السيئة التى يضمرونها، وعلى انحرافهم عن الصراط المستقيم، واستفهمت بأنّهم: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلمُ الْغُيُوبِ».

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٨٠)

سبب النّزول

وردت عدّة روايات فى سبب نزول هذه الآيات فى كتب التفسير والحديث، يستفاد من مجموعها أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو- وربّما كان ذلك فى تبوك- وكان محتاجاً لمعونة الناس فى هذا الأمر، فلما أخبرهم

بذلک سارع الأغنیاء إلی بذل الکثیر من أموالهم، سواء کان هذا البذل من باب الزکاة أو الإنفاق، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبی صلی الله علیه و آله.

أمّا الفقراء، فقد عمدوا إلی مضاعفة عملهم، واستقاء الماء لیلًا، فحصلوا علی صاعین من التمر، وشارکوا بهذا الشیء الیسیر – الذی لا قیمة له ظاهراً – فی هذا المشروع الإسلامی الکبیر. غیر أنّ المنافقین الذین لا ـ همّ لهم إلّاتتبع ما یمکن التشهیر به بدلًا من التفکیر بالمساهمة الجدیة فإنّهم عابوا کلا الفریقین، أمّا الأغنیاء فاتهموهم بأنّهم إنّما ینفقون ریاءً وسمعة، وأمّا الفقراء الذین لا یستطیعون إلّاجهدهم، والذین قدموا الیسیر وهو عند اللّه کثیر، فإنّهم سخروا منهم بأنّ جیش الإسلام هل یحتاج إلی هذا المقدار الیسیر؟ فنزلت هذه الآیات، وهددتهم تهدیداً شدیداً وحذرتهم من عذاب اللّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۳

التّفسیر

خبث المنافقین: فی هذه الآیات إشارة إلی صفة اخری من الصفات العامة للمنافقین، وهی أنّهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف فی أعمال الآخرین واحتقار کل عمل مفید یخدم المجتمع ومحاولة إجهاضه بأسالیب شیطانیة خبیثة من أجل صرف الناس عن عمل الخیر. لکن القرآن المجید ذم هذه الطریقة غیر الإنسانیة التی یتبعها هؤلاء، وعرّفها للمسلمین لکی لا یقعوا فی حبائل مکر المنافقین ومن ناحیة اخری أراد أن یفهم المنافقون أنّ سهمهم لا یصیب الهدف فی المجتمع الإسلامی. ففی البدایة یقول: إنّ هؤلاء «الَّذِینَ یَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِینَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ فِی الصَّدَقَاتِ وَالَّذِینَ لَایَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَیَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ».

والمراد من جملة: «سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» أنّ اللّه سبحانه تعالی سیجازیهم علی ما عملوا من الأعمال السیئة، أو أنّه تعالی سیحقرهم کما حقروا عباده وسخروا منهم.

ونلاحظ فی الآیة التی تلیها تأکیداً أشد علی مجازاة هؤلاء المنافقین، وتذکر آخر تهدید بتوجیه الکلام وتحویله من الغیبة إلی الخطاب، والمخاطب هذه المرّة هو النبی صلی الله علیه و آله فقالت:

«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً فَلَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

وإنّما لن یغفر اللّه لهم لأنّهم قد أنکروا اللّه ورسالة رسوله، واختاروا طریق الکفر، وهذا الاختیار هو الذی أرداهم فی هاویة النفاق وعواقبه المشؤومة «ذلِکَ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». ومن الواضح أنّ هدایة اللّه تشمل السائرون فی طریق الحق وطلب الحقیقة، أمّا الفساق والمجرمون والمنافقون فإنّ الآیة تقول: «وَاللَّهُ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الْفَاسِقِینَ».

إنّ نوع العمل هو المهم لا مقداره، وهذه الحقیقة فی القرآن واضحة جلیة، فالإسلام لم یستند فی أیّ مورد إلی کثرة العمل ومقداره، بل هو یؤکّد دائماً – وفی کل الموارد – علی أنّ الأساس هو نوع العمل وکیفیته.

المهم أنّ کل فرد یجب أن یبذل ما یستطیع، ولا یلتفت إلی مقدار عطائه، فلیس المعیار کثرة العطاء وقلّته، بل الإحساس بالمسؤولیة والإخلاص فی العمل.

ومن هذه الواقعة تتّضح حقیقة اخری، وهی أنّ المسلمین فی المجتمع الإسلامی الواقعی السالم یجب أن یحسّوا جمیعاً بالمسؤولیة تجاه المشاکل التی تعترض المجتمع وتظهر فیه، ولا یجب أن ینتظروا الأغنیاء والمتمکنین یقوموا وحدهم بحل هذه المشاکل والمصاعب، بل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۴

علی الضعفاء أیضاً أن یساهموا بما یستطیعون، مهما صغر وقل ما یقدمونه، لأنّ الإسلام یتعلق بالجمیع لا بفئة منهم، وعلی هذا، فعلی الجمیع أن یسعوا فی حفظ الإسلام ولو ببذل النفوس والدماء ویعملوا بکل وجودهم من أجل حیاته وصیانته.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِی الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِیَ أَبَداً وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِیَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) يستمر الحديث فی هذه الآيات حول تعريف المنافقين وأساليب عملهم وسلوكهم وأفكارهم ليعرفهم المسلمون جيداً، ولا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم وخططهم الخبيثة وسمومهم. فی البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد فی تبوك، وتعذّروا بأعذار واهية كبيت العنكبوت، وفرحوا بالسلامة والجلوس فی البيت بدل المخاطرة بأنفسهم والاشتراك فی الحرب رغم أنّها مخالفة لأوامر اللَّه ورسوله: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلفَ رَسُولِ اللَّهِ». وبدل أن يضعوا كل وجودهم وإمكاناتهم فی سبيل اللَّه لينالوا افتخار الجهاد وعنوان المجاهدين، فإنّهم امتنعوا «وَكَرِهُوا أن يُجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ».

إلّا أنّ هؤلاء النفر لم يكتفوا بتخلفهم وتركهم لهذا الواجب المهم، بل إنّهم سعوا فی تخذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشّيطانية ومحاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة فی صدور المسلمين وتشبث المنافقون بكلّ عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى ولو كان العذر الحَرّ! «وَقَالُوا لَاتَنفِرُوا فِی الْحَرّ».

ثم تتغير وجهة الخطاب إلى النبی صلى الله عليه و آله فيأمره اللَّه سبحانه وتعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة واسلوب قاطع: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ». لكنّهم للأسف لضعف إيمانهم، وعدم الإدراك الكافی لا يعلمون أيّة نار تنتظرهم، فشرارة واحدة من تلك النار أشدّ حرارة من جميع نيران الدّنيا وأشدّ حرقة وألماً.

وتشير الآية الثانية إلى أنّ هؤلاء ظنوا بأنّهم قد حققوا نصراً بتخلفهم وتخذيلهم المسلمين وصرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، وضحكوا لذلك وقهقهوا بملء أفواههم، وهذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۵

هو حال المنافقين فی كل عصر وزمن، إلّاأنّ القرآن حذّرهم من مغبة أعمالهم فقال:

«فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا».

نعم، ليبكوا على مستقبلهم المظلم: ليبكوا على العذاب الأليم الذی ينتظرهم: ليبكوا على أنّهم أغلقوا كل أبواب العودة بوجوههم، وأخيراً ليبكوا على ما أنفقوا من قوتهم وقدراتهم وعمرهم الثمين، واشتروا به الخزی والفضيحة وسوء العاقبة وتعاسة الحظ.

وفی نهاية الآية يبين اللَّه تعالى أنّ هذه العاقبة التی تنتظرهم هی «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وفی آخر آية- من الآيات محل البحث- إشارة إلى طريقة اخرى دقيقة وخطرة من طرق المنافقين، وهی أنّهم حينما يرتكبون ما يخالف القانون الإسلامی، فإنّهم يُظهرون أعمالًا يحاولون بها جبران ما صدر منهم، ومحاولة تبرئة ساحتهم مما يستحقون من العقوبة، وبهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنّهم يخفون وجوههم الحقيقية، أو يسعون إلى ذلك. إنّ الآية الكريمة تقول: «فإن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِیَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِیَ عَدُوًّا». أی إنّ النبی صلى الله عليه و آله يجب أن يزرع اليأس فی نفوس هؤلاء، ويُعلمهم أن هذا التلون سوف لا ينطلی على أحد، ولن يُخدع بهم أحد.

جملة «طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ» توحی أنّ هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا ويطلبوا من النبی صلى الله عليه و آله السماح لهم فی الخروج إلى الجهاد.

ثم تبين الآية أنّ سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء وطلبهم ب «إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ».

وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِی الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٨٥) بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم فی ميدان القتال، وعلم الناس تخلفهم الصريح، وفشا سرّهم، أمر اللَّه سبحانه وتعالى نبيّه بأن يتبع أسلوباً أشدّ وأكثر صراحة ليقتلع وإلى

الأبد- جذور النفاق والأفكار الشيطانية، وليعلم المنافقون بأنّهم لا محل لهم فى المجتمع الإسلامى، وكخطوة عملية فى مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهى «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۶

إنّ هذا الأسلوب- فى الواقع- هو نوع من الكفاح السلبى الفاعل فى مواجهة المنافقين.

إنّ هذا البرنامج والأسلوب الدقيق كان قد أعد لمقابلة منافقى ذلك العصر، ويجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب. وفى آخر الآية يتّضح سبب هذا الأمر الإلهى ب «إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» ورغم ذلك فإنّهم لم يفكروا بالتوبة ولم يندموا على أفعالهم ليغسلوها بالتوبة، بل إنّهم بقوا على أفعالهم «وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ».

وهنا يمكن أن يسأل أحدكم: إنّ المنافقين إذا كانوا- حقيقة- بهذا البعد عن رحمة اللَّه، وعلى المسلمين أن لا يُظهروا أى ود أو محبّة تجاههم، فلماذا فضّلهم اللَّه تعالى ومنحهم كل هذه القوى الاقتصادية من الأموال والأولاد؟

فى الآية الاخرى يوجه اللَّه سبحانه وتعالى الخطاب إلى النبى: «وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَدُهُمْ». فإنّها ليست منحة ومحبّة من اللَّه تعالى لهؤلاء المنافقين، بل على العكس تماماً، فإنّ هذه الأموال والأولاد ليست لسعادتهم، بل «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

إنّ هذه الآية تشير إلى حقيقة وهى أنّ هذه الإمكانيات والقدرات الاقتصادية والقوى الإنسانية للأشخاص الفاسدين ليست غير نافعة لهم فحسب، بل هى- غالباً- سبب لإبتلائهم وتعاستهم، لأنّ أشخاصاً كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم فى مواردها الصحيحة ليستفيدوا منها الفائدة البناءة، ولا يتمتعون بأبناء صالحين كى يكونوا قرة عين لهم ومعتمدهم فى حياتهم. بل إنّ أموالهم تصرف غالباً فى طريق الشهوات والمعاصى ونشر الفساد وتحكيم أعمدة الظلم والطغيان، وهى السبب فى غفلتهم عن اللَّه سبحانه وتعالى، وكذلك أولادهم فى خدمة الظلمة والفاسدين، ومبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقية، وبذلك سيكونون سبباً فى تراكم البلايا والمصائب.

غاية الأمر إنّ الذين يظنون أنّ الأصل فى سعادة الإنسان هو الثروة والقوة البشرية فقط، أمّا كيفية صرف هذه الثروة والقوة فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحة حياتهم مفرحة ومبهجة ظاهراً، إلّاأنّنا لو اقتربنا منها واطلعنا على دقائقها، وعلمنا أنّ الأساس فى سعادة الإنسان هو كيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات والقدرات لعلمنا أنّ هؤلاء ليسوا سعداء مطلقاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۷

وَ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (۸۷) لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸۸) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۸۹) دناءة الهمّة:

الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول المنافقين، فالآية الاولى تتحدث عن حال المنافقين إذا ما دعا الرسول صلى الله عليه و آله الناس إلى الثبات على الإيمان والجهاد فى سبيل اللَّه، فإنّهم- أى المنافقون- رغم قدرتهم الجسمية والمالية سيطلبون العذر والسماح لهم بعدم المشاركة والبقاء مع ذوى الأعذار: «وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ».

وفى الآية التى تليها وبخ القرآن هؤلاء وذمّهم وقبّحهم بأنّهم «رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

والمقصود من «الخوالف» فى هذه الآية كل الذين عُذروا عن المشاركة فى الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مسنّين أو مرضى أو صبيان.

ثم أضافت الآية: بأنّ هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب والنفاق وصلوا إلى مرحلة «وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ».

ثم تحدثت الآية التى تليها فى الجانب المقابل عن صفات وروحيات الفئة التى تقابل المنافقين، وهم المؤمنون المخلصون، وعن

أعمالهم الحسنة، وبالتالى عاقبة أعمالهم المعاكسة تماماً لعاقبة اولئك، فهى تقول: «لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ» فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات والسعادة واللذائذ المادية والمعنوية فى الدنيا والآخرة «وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الخيرات»: تعبير جامع لكل توفيق وخير ونصر وموهبة، وهى تشمل المادية منها والمعنوية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۸

ويستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ «الإيمان» و «الجهاد» إذا اتحدا فى شخص، فسيصحبهما كل خير وبركة، ولا سبيل إلى الفلاح والإخلاص، أو إلى شىء من الخيرات والبركات المادية والمعنوية إلّافى ظل هذين العامَلَيْن.

وفى آخر آية من الآيات التى نبحثها إشارة إلى قسم من الجزاء الاخروى المعد لهؤلاء المؤمنين، فهى تبشرهم بأنّهم قد «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» وتوكّد لهم بأنّ هذه المواهب والنعم سوف لا تفنى ولا تنفد، بل سيبقون «خَالِدِينَ فِيهَا»، ثمّ تبيّن أنّ «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۹۰) فى هذه الآية- ولمناسبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقين الذين يتعذرون بكل عذر ويتمسكون بأتفه الحجج- إشارة إلى وضع وواقع مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد. ففى البداية تقول الآية أنّ هؤلاء الأعراب رغم أنّهم كانوا معذورين فى عدم الاشتراك فى الجهاد، فإنّهم حضروا بين يدى النبى صلى الله عليه و آله وطلبوا منه أن يأذن لهم فى الجهاد:

«وَجَاءَ الْمُعَذّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ». وفى مقابل ذلك فإنّ الفئة الاخرى التى كذبت على اللَّه ورسوله قد تخلف أفرادها دون أى عذر، «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وفى النهاية هددت الآية المجموعة الثانية تهديداً شديداً وأنذرتهم بأنّه «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيم».

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمَرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۱) وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَنْ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۹۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۹

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ الآية الاولى نزلت فى عبد اللَّه بن زائدة وهو ابن أم مكتوم، وكان ضرير البصر، جاء إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: يا نبى اللَّه إنّى شيخ ضرير، خفيف الحال، نحيف الجسم، وليس لى قائد فهل لى رخصة فى التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبى صلى الله عليه و آله، فأنزل اللَّه الآية.

والآية الثانية نزلت فى البكائين وهم سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا رسول اللَّه! احملنا فإنّه ليس لنا ما نخرج عليه. فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه».

التّفسير

هذه الآيات قسمت المسلمين فى مجال المشاركة فى الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، وأشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة وواقعاً، والخامسة هم المنافقون.

الآية الاولى تقول: إنّ الضعفاء، والعاجزين لكبر أو عمى أو نقص فى الأعضاء، والذين لا وسيلة لهم يتنقلون بها ويستفيدون منها فى المشاركة فى الجهاد، لا حرج عليهم إذا تخلفوا عن هذا الواجب الإسلامى المهم: «لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ

لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ».

هـذه الأقسام الثلاث تعـذر فی كل قانون إذا لم تشارك، والعقل والمنطق يمضـی هذا التسامح، ومن المسـلم أنّ القوانين الإسـلامية لا تنفصل عن المنطق والعقل فی أی مورد.

«الحرج»: فی الأصل تعنی مركز اجتماع الشـیء، ولما كان اجتماع الناس وكثرتهم فی مكان ومركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد اسـتعملت هـذه الكلمـة بمعنی الضـيق والإزعاج والمسؤوليـة والتكليف، ويكون معناها فی هـذه الآية هو المعنی الأخير، أی المسؤولية والتكليف.

ثم بيّنت الآية شـرطاً مهماً فی السـماح لهؤلاء بالإنصـراف، وهو إخلاصـهم وحبّهم للّه ورسوله، ورجاؤهم وعملهم كل خير لهذا الدين الحنيف، لـذا قالت: «إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ». أی إنّ هؤلاء قادرون علی استعمال سـلاح الكلمـة والسـلوك الإسـلامی الأمثل، وبهـذا يستطيعون ترغيب المجاهدين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۰

ويجب أن لا يقصروا فی هدم وتضعيف معنويات العدو، وتهيئة أرضية الهزيمة فی نفوس أفراده قدر المستطاع.

ثم تـذكر الآيـة الـدليل علی هـذا الموضوع، فتـذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الـذين لا يألون جهـداً فی عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو يُوبّخوا أو يُعاقبوا، إذ «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ».

بعـد ذلك اختتمت الآية بذكر صـفتين عظيمتين من صـفات اللّه عزّ وجل- وكل صـفاته عظيمـة- كدليل آخر علی جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت:

«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

«غفور»: مـأخوذة من مادة الغفران، أی الستر والإخفاء، أی إنّ اللّه سـبحانه وتعالی سـيلقی السـتار علی أعمال هؤلاء المعـذورين ويقبل أعـذارهم، وكون اللّه «رحيمـاً» يقتضـی أن لاـ يكلف أحـداً فوق طـاقته، بـل يعفيه من ذلك، وإذا اجبر هؤلاء علی الحضور فی ميـدان القتال، فإنّ ذلك لا يناسب غفران اللّه ورحمته، وهذا يعنی أنّ اللّه الغفور الرحيم سيعفی هؤلاء عن الحضور حتماً، ويعفو عنهم.

ثم تشير الآيـة إلی الفئة الرابعـة من المعفـو عنهم وهؤلاـء هم الـذين حضـروا- بشوق- عنـد النبی صـلی الله عليه و آله وطلبوا منه أن يحملهم علی الدواب للمشاركة فی الجهاد، فاعتذر النبی صلی الله عليه و آله بأنّه لا يملك ما يحملهم عليه، فخرجوا من عنده وعيونهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً علی ما فاتهم، وعلی أنّهم لا يملكون ما ينفقونه فی سبيل اللّه: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَاأَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ».

«تفيض»: من مـادة الفيضـان، أی الإنسـكاب والتساقـط بعـد الإمتلاـء، فإنّ الإنسان إذا أهمه أمر أو دهمته مصـيبة، فإذا لم تكن شديـدة اغرورقت عيناه بالدموع وامتلأت دون أن تجری، أمّا إذا وصلت إلی مرحلة يضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه.

أمّا آخر آيـة فتبين وضع الفئـة الخامسـة، وهم الـذين لم يعـذروا، ولن يُعـذروا عنـد اللّه تعـالی، فـإنّهم قـد توفرت فيهم كل الشـروط، ويملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتماً، لكنهم رغم ذلك يحاولون التملّص من أداء هذا الواجب الإلهی الخطير، فجاؤوا إلی النـبی صـلی الله عليه و آله يطلبـون الإذن فی الإنصـراف عن الحرب، فـبينت الآيـة أنّهم سـيؤاخذون بتهرّبهم ويعـاقبون عليه: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۱

مختصر الامثل ج ۲ ۳۳۹

وتضـيف الآيـة بـأنّ هؤلاـء يكفيهم عـاراً وخزيـاً أن يرضوا بالبقـاء مع العاجزين والمرضـی رغم سـلامتهم وقـدرتهم، ولم يهتموا بأنّهم سيحرمون من فخر الإشتراك فی الجهاد: «رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

وكفى به عقاباً أن يسلبهم اللّه القدرة على التفكر والإدراك نتيجة أعمالهم السيئة هذه، ولذلك أبغضهم اللّه «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

تتّضح من هذه الآيات المعنويات القوية العالية لجنود الإسلام، وكيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، وتتحرق عشقاً للجهاد والشهادة، وهذا الفخر والوسام مقدم على جميع الأوسمة والصفات الاخرى التى كانوا يمتلكونها، ومن هنا يتّضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام وتطوره وانتشاره فى ذلك اليوم، وتخلفنا فى الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۹۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (۹۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت الآيات فى جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلًا، ولما قدم النبى صلى الله عليه و آله المدينة راجعاً من تبوك قال:

«لا تجالسوهم، ولا تكلموهم».

التّفسير

تستمر هذه السلسلة من الآيات فى الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين. الآية الاولى تبين للمسلمين أنّ هؤلاء إذا علموا بقدومكم فسيأتون: «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيهِمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۲

ثم يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله- باعتباره قائد المسلمين- بأن يواجه المنافقين: «قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ» لأنّا على علم بأهدافكم الشيطانية وما تضمرون وما تعلنون، إذ:

«قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ». إلّاأنّه فى الوقت نفسه سيبقى باب التوبة والرجوع إلى الصواب مفتوحاً أمامكم «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ».

ثم قالت الآية: إنّ كل أعمالكم ونيّاتكم ستثبت اليوم فى كتبكم «ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفى الآية التالية إشارة اخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، وتنبيه للمسلمين على أنّ هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم وتصفحوا عنهم «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ».

إنّ هؤلاء يطرقون كل باب ليردوا منه، فتارةً يريدون إثبات براءتهم وعدم تقصيرهم بالإعتذار، وتارةً يعترفون بالتقصير ثمّ يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربّما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأى اسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم «فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ».

ولتأكيد المطلب وتوضيحه وبيان دليله عقّبت الآية بأنّ السبب فى الاعراض عن هؤلاء «إِنَّهُمْ رِجْسٌ»، ولأنّهم كذلك فإنّ مصيرهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ». إنّ كل العواقب السيئة التى سيلقونها إنّما يرونها «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فى الآية الأخيرة التى نبحثها هنا إشارة إلى يمين اخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين: «يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ».

الملفت للنظر هنا أنّ اللّه تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تُشم منه رائحة التهديد، إذ يقول عزّ وجل: «فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

لا شك أنّ هؤلاء من الناحية الدينية والأخلاقية لا يعيرون اهتماماً لرضى المسلمين، بل إنّ الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة

السلبية والغضب عليهم من أفكار وقلوب المسلمين، ليكونوا فى المستقبل فى مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۳

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفَاقاً وَ أَجْدَرُ أَنْ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۹۷) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۹۸) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۹) فى هذه الآيات الثلاث- استمراراً للبحث المتقدم حول منافقى المدينة- حديث وبحث حول وضع منافقى الأعراب- وهم سكان البوادى- وعلاماتهم وأفكارهم، وكذلك قد تحدثت حول المؤمنين الخلص منهم.

وربّما كان السبب فى تحذير المسلمين من هؤلاء، هو أن لا يتصور المسلمون أنّ المنافقين هم- فقط- هؤلاء المتواجدون فى المدينة، بل إنّ المنافقين من الأعراب أشدّ وأقسى فالآية الاولى تقول: إنّ الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم والتربية، وعدم سماعهم الآيات الربانية وكلام النبى صلى الله عليه و آله، أشدّ كفراً ونفاقاً من مشابهيهم فى المدينة: «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا» ولهذا البعد والجهل فمن الطبيعى، بل الأولى أن يجهلوا الحدود والأحكام الإلهية التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله: «وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ».

كلمة «الأعراب» من الكلمات التى تعطى معنى الجمع، وهذه الكلمة تطلق على سكان البادية فقط، ومختصة بهم، وإذا أرادوا اطلاقهم على شخص واحد فإنّهم يستعملون نفس هذه الكلمة ويلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابى.

«أجدر»: فهى مأخوذة من الجدار، ومن ثم اطلقت على كل شىء مرتفع ومناسب، ولهذا فإنّ «أجدر» تستعمل- عادةً- بمعنى الأنسب والأليق.

وتقول الآية أخيراً: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». أى: إنّه تعالى عندما يحكم على الأعراب بمثل هذا الحكم، فلأنّه يناسب الوضع الخاص لهم، لأنّ محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن ومن أجل أن لا يُتوهم بأنّ كل الأعراب أو سكان البوادى يتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآية التالية إلى مجموعتين من الأعراب. ففى البداية تتحدث عن أنّ قسماً من هؤلاء الأعراب- لنفاقهم أو ضعف إيمانهم- عندما ينفقون شيئاً فى سبيل اللَّه، فإنّهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۴

يعتبرون ذلك ضرراً وخسارة لحقت بهم، لا أنّه توفيق ونصر وتجارة رابحة: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا» «۱». ومن الصفات الاخرى لهؤلاء أنّهم دائماً ينتظرون أن تحيط بكم المصائب والنوائب والمشاكل، ويرميكم الدهر بسهمه: «وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ».

«الدوائر»: جمع دائرة، ومعناها معروف، ولكن العرب يقولون للحادثة الصعبة والأليمة التى تحل بالإنسان: دائرة، وجمعها «دوائر».

فى الواقع أنّ هؤلاء أفراد ضيقو النظر، وبخلاء وحسودون.

ثم تقول الآية- بعد ذلك- إنّ هؤلاء ينبغى أن لا يتربصوا بكم، وينتظروا حلول المصائب والدوائر بكم، لأنّها فى النهاية ستحل بهم فقط: «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ».

ثمّ تختم الآية الحديث بقولها: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، فهو تعالى يسمع كلامهم، ويعلم بنياتهم ومكنون ضمائرهم.

أمّا الآية الأخيرة فقد أشارت إلى الفئة الثانية من الأعراب، وهم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ». ولهذا السبب فإنّهم لا يعتبرون الإنفاق فى سبيل اللَّه خسارة أبداً، بل وسيلة للتقرب إلى اللَّه ودعاء الرسول صلى الله عليه و آله لإيمانهم بالجزاء الحسن والعطاء الجزيل الذى ينتظر المنفقين فى سبيل اللَّه: «وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ».

هنا يؤيّد اللَّه تعالى ويصدّق هذا النوع من التفكير، ويؤكّد على أنّ هذا الإنفاق يقرب هؤلاء من اللَّه قطعاً: «أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ» ولهذا

«سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» وإذا ما صدرت من هؤلاء هفوات وعثرات، فإنّ اللّه سيغفرها لهم لإيمانهم وأعمالهم الحسنة، ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۰۰)

---

(۱) «مغرم»: مأخوذة من مادة (غرم) على وزن (جرم)، وهي في الأصل بمعنى ملازمة الشيء، ولهذه المناسبة قيل للدائن والمدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، وأيضاً قيل: غرامة، لنفس هذه المناسبة لأنّها تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلّابأدائها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۵

هذه الآية تشير إلى مجموعات وفئات مختلفة من المسلمين المخلصين، وقسمتهم إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: السابقون في الإسلام والهجرة: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ».

الثاني: السابقون في نصرة وحماية النبي صلى الله عليه و آله وأصحابه المهاجرين: «وَالْأَنصَارَ».

الثالث: الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتبعوا خطواتهم ومناهجهم، وقبولهم الإسلام والهجرة، ونصرتهم للدين الإسلامي، فإنّهم إرتبطوا بهؤلاء السابقين: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ».

والملفت للنظر هنا فقد قالوا بالإجماع، إنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة زوجة النبي صلى الله عليه و آله الوفية المضحية، وأمّا من الرجال فكل علماء الشيعة ومفسريهم، وفريق كبير من أهل السنّة قالوا: إنّ علياً عليه السلام أوّل من أسلم ولبّى دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة قالت الآية: «رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

إنّ رضى اللّه سبحانه وتعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي عملوها، ورضاهم عن اللّه لما أعد لهم من الجزاء والعطايا المختلفة التي لا تدركها عقول البشر.

ومع أنّ الجملة السابقة قد تضمنت كل المواهب والنعم الإلهية، المادية منها والمعنوية، الجسمية والروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، وبيان التفصيل بعد الإجمال:

«وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ». ومن إمتيازات هذه النعمة أنّها خالدة، وسيبقى هؤلاء «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». وإذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية والمعنوية أيقنا أن «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». أيّ فوز أعلى وأكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه ومعبوده ومولاه قد رضي عنه، وقد وقّع على قبول أعماله؟

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (۱۰۱) مرّة اخرى يدير القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين وفئاتهم، فيقول: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ». أي يجب أن تأخذوا بنظر الاعتبار المنافقين المتواجدين في أطراف المدينة، وتحذروهم، وتراقبوا أعمالهم ونشاطاتهم الخطرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۶

ثمّ تضيف الآية بأنّ في المدينة نفسها قسماً من أهلها قد وصلوا في النفاق إلى أقصى درجاته، وثبتوا عليه، وأصبحوا ذوي خبرة في النفاق: «وَمِن أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ».

«مردوا»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى الطغيان والعصيان والتمرد المطلق، وهي في الأصل بمعنى التعري والتجرد.

إنّ هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق والحقيقة، وتسلطوا على أعمال النفاق إلى درجة أنّهم كانوا يستطيعون أن يظهروا في مصاف المؤمنين الحقيقيين، دون أن ينتبه أحد إلى حقيقتهم ومراوغتهم.

إنّ هذا التفاوت فى التعبير عن المنافقين الداخليين والخارجيين فى الآية يلاحظ جلياً، وربّما كان ذلك إشارة إلى أنّ المنافقين الداخليين أكثر تسلطاً على النفاق، وبالتالى فهم أشد خطراً، فعلى المسلمين أن يراقبوا هؤلاء بدقة، لكن يجب أن لا ـ يغفلوا عن المنافقين الخارجين، بل يراقبونهم أيضاً. لذلك تقول الآية مباشرة بعد ذلك: «لَاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» ومن الطبيعى أنّ هذا إشارة إلى العلم الطبيعى للنبى صلى الله عليه و آله ولكن هذا لا ينافى أن يقف كاملًا على أسرارهم عن طريق الوحى والتعليم الإلهى.

وفى النهاية تبين الآية صورة العذاب الذى سيصب هؤلاء: «سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ».

إنّ العذاب العظيم إشارة إلى عذاب يوم القيامة، وفى نوعية العذابين الآخرين وماهيتهما الذى يرجّحه النظر أنّ واحداً من هذين العذابين هو العقاب الاجتماعى لهؤلاء، والمتمثل فى فضيحتهم وهتك أسرارهم، والكشف عمّا فى ضمائرهم من خبيث النوايا.

والعذاب الثّانى هو ما أشارت إليه الآية (٥٠) من سورة الأنفال، حيث تقول هناك:

«وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال أبو حمزة الثمالى: بلغنا أنّهم ثلاثة نفراً من الأنصار: أبو لبابة بن

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٠٧

عبد المنذر، وثعلبة بن وديعة، وأوس بن حذام، تخلّفوا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند مخرجه إلى تبوك، فلما بلغهم ما أنزل اللَّه فيمن تخلف عن نبيّه، أيقنوا بالهلاك وأوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد، فلم يزالوا كذلك حتى قدم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فسأل عنهم، فذكر له أنّهم أقسموا أن لا يحلّون أنفسهم حتى يكون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يحلّهم وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «وأنا أقسم لا أكون من حلّهم إلّاأن اؤمر فيهم بأمر». فلما نزل «عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» عمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إليهم، فحلّهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلى رسول اللَّه، فقالوا: هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فخذها، وتصدّق بها عنّا. قال صلى الله عليه و آله: «ما امرت فيها». فنزل «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» الآيات.

التّفسير

بعد أن أشارت الآية السابقة إلى وضع المنافقين فى داخل المدينة وخارجها، أشارت هذه الآية هنا إلى وضع جمع من المسلمين العاصين الذين أقدموا على التوبة لجبران الأعمال السيئة التى صدرت منهم، ورجاء لمحوها: «وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» ويشملهم برحمته الواسعة ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُکُمْ بِمَا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) الزكاة مطهرة للفرد والمجتمع: فى الآية الاولى من هذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمة، وهى مسألة الزكاة، حيث تأمر النبى صلى الله عليه و آله بشكل عام أن: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً».

إنّ حكم «خذ» دليل واضح على أنّ رئيس الحكومة الإسلامية يستطيع أن يأخذ الزكاة من الناس، لا أنّه ينتظر الناس فإن شاؤوا أدّوا الزكاة، وإلّا فلا.

ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية للزكاة، حيث تقول: «تُطَهّرُهُمْ

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٠٨

وَتُزَكّيهِم بِهَا». فهى تطهرهم من الرذائل الأخلاقية، ومن حبّ الدنيا وعبادتها، ومن البخل وغيره من مساوىء الأخلاق، وتزرع مكانها خلال الحب والسخاء ورعاية حقوق الآخرين فى نفوسهم. وفوق كل ذلك فإنّ المفاسد الاجتماعية والانحطاط الخلقى والاجتماعى

المتولد من الفقر والتفاوت الطبقى والذى يؤدّى إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الامور ستقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهية وأدائها.
ثم تضيف الآية فى خطابها للنبى صلى الله عليه و آله بأنّك حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ». إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس وتقديرهم، حتى إذا كان مايؤدونه واجباً عليهم وحكماً شرعياً يقومون به، وترغيبهم بكل الطرق، وخاصة المعنوية والنفسية.

فى المجمع روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللّهمّ صلّ عليهم».

ثم تقول الآية: «إِنَّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ» لأنّ من بركات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهية عليهم، وتغمر قلوبهم ونفوسهم إلى درجة أنّهم كانوا يحسون بها.

وفى نهاية الآية نقرأ: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» وهذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث فى الآية، إذ إنّ اللّه سبحانه يسمع دعاء النبى صلى الله عليه و آله، ومطلع على نيات المؤدين للزكاة.

ولما كان بعض المذنبين- كالمتخلفين عن غزوة تبوك- يصرّون على النبى صلى الله عليه و آله فى قبول توبتهم، أشارت الآية الثانية من الآيات التى بين يدينا إلى أنّ قبول التوبة ليس مرتبطاً بالنبى صلى الله عليه و آله، بل باللّه الغفور الرحيم، لذا قالت: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ». ولا ينحصر الأمر بتوقف قبول التوبة على قبول اللّه لها، بل إنّه تعالى هو الذى يأخذ الزكاة والصدقات الاخرى التى يعطيها العباد تقرباً إليه، أو تكفيراً لذنوبهم: «وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ».

إنّ هذا التعبير من ألطف التعبيرات التى تجسّد عظمة هذا الحكم الإسلامى- أى الزكاة- فبالرغم من ترغيب كل المسلمين ودعوتهم إلى القيام بهذه الوظيفة الإلهية الكبيرة، فإنّها تحذرهم بشدّة وتأمرهم بأن يراعوا الآداب الإسلامية ويتقيّدوا باحترام من يؤدّونها إليه، لأنّ من يأخذها هو اللّه عزّ وجل.

فى المجمع عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ الصدقة تقع فى يد اللّه قبل أن تصل إلى يد السائل».

وفى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من شىء إلّاوكّل به ملك إلّاالصدقة فإنّها تقع فى يد اللّه».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٠٩

ثم قالت الآية فى النهاية من باب التأكيد: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وتؤكّد الآية التى تليها البحوث التى مرّت بصورة جديدة، وتأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يبلغ الناس: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ». فهى تشير إلى أن لا يتصور أحد أنّه إذا عمل عملًا، سواء فى خلوته أو بين الناس فإنّه سيخفى على علم اللّه سبحانه، بل إنّ الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين يعلمون به إضافةً إلى علم اللّه عزّ وجلّ.

إنّ هذا الإطلاع هو مقدمة للثواب أو العقاب الذى ينتظره فى العالم الآخر، لذا فإنّ الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة وتقول: «وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

مسألة عرض الأعمال: إنّ بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ونتيجة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمّة عليهم السلام عقيدة معروفة ومشهورة، وهى أنّ النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام يطلعون على أعمال كل الامّة، أى أنّ اللّه تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصه عليهم.

إنّ مسألة عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقدين بها، فإنّى إذا علمت أنّ اللّه الموجود فى كل مكان معى، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ نبيى وأئمتى عليهم السلام يطلعون على كل أعمالى، الحسنة والسيئة فى كل يوم، أو فى كل اسبوع، فلا شك أنّى سأكون أكثر مراقبة ورعاية لما يبدر منّى من أعمال، وأحاول تجنب السيئة منها ما أمكن.

وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية فى (ثلاثة من المتخلفين عن تبوك وهم:) هلال بن امية الواقفى، ومرارة بن ربيع، وكعب بن مالك، وهم من الأوس والخزرج وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه، وإنّما تخلف توانياً عن الإستعداد، حتى فاته المسير وانصرف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: واللَّه ما لى من عذر ولم يعتذر إليه بالكذب فقال صلى الله عليه و آله: «صدقت، فمر حتى يقضى اللَّه فيك». وجاء الآخران فقالا مثل ذلك وصدقا. فنهى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن مكالمتهم وأمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأقاموا على ذلك خمسين ليلة وبنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده. ثم نزلت التوبة عليهم بعد الخمسين فى الليل وهو قوله تعالى «وَعَلَى الثَّلَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» الآية (۱۱۸) من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۰

التّفسير

فى هذه الآية إشارة إلى مجموعة من المذنبين الذين لم تتّضح جيداً عاقبة أمرهم، فلا هم مستحقون حتماً للرحمة الإلهية، ولا من المغضوب عليهم حتماً، لذا فإنّ القرآن الكريم يقول فى حقّهم: «وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ».

وتضيف الآية- بعد ذلك- أنّ اللَّه سبحانه سوف لا يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقضى بعلمه وحكمته: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۱۰۷) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (۱۰۸) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰۹) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۱۰)

سبب النّزول

تتحدث الآيات أعلاه عن جماعة اخرى من المنافقين الذين أقدموا- من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة- على بناء مسجد فى المدينة، عرف فيما بعد ب (مسجد الضرار).

فى تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إنّ بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يأتيهم فأتاهم وصلّى فيه فحسدهم عن جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف، فقالوا: نبنى مسجداً فنصلّى فيه ولا نحضر جماعة محمّد. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء فلما فرغوا منه، أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول اللَّه! إنّا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّى فيه لنا وتدعو بالبركة. فقال: «إنّى على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء اللَّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۱

فصلّينا لكم فيه». فلما انصرف رسول اللَّه من تبوك، نزلت عليه الآية فى شأن المسجد.

وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النبى صلى الله عليه و آله بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياه، وأن يُجعل مكانه محلًا لرمى القاذورات والأوساخ.

التّفسير

معبد وثنى فى صورة مسجد: أشارت الآيات السابقة إلى وضع مجاميع مختلفة من المخالفين، وتُعرّف الآيات التى نبحثها مجموعة اخرى منهم، المجموعة التى دخلت حلبة الصراع بخطة دقيقة وذكية، إلّاأنّ اللطف الإلهى أدرك المسلمين، وبدد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم وإحباط خطتهم. فالآية الاولى تقول: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا» وأخفوا أهدافهم الشريرة تحت هذا الإسم المقدس، ثم لخصت أهدافهم فى أربعة أهداف:

۱- إنّ هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم «ضِرَارًا».

۲- تقوية اسس الكفر، ومحاولة إرجاع الناس إلى الحالة التى كانوا يعيشونها قبل الإسلام: «وَكُفْرًا».

۳- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأنّ اجتماع فئة من المسلمين فى هذا المسجد سيقلل من عظمة التجمع فى مسجد قبا الذى كان قريباً منه، أو مسجد النبى صلى الله عليه و آله الذى كان يبعد عنه «وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويظهر من هذه الجملة- وكذلك فهم بعض المفسرين- أنّ المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع فى مسجد على جماعة المسجد الآخر.

۴- والهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقر ومركز لإيواء المخالفين للدين وأصحاب السوابق السيئة، والإنطلاق من هذا المقر فى سبيل تنفيذ خططهم ومؤامراتهم: «وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ».

إلّا أنّ مما يثير العجب أنّ هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريرة والأهداف المشؤومة فى لباس جميل ومظهر خداع، وأنّهم لايريدون إلّاالخير: «وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى .

إلّا أنّ القرآن الكريم يبين أنّ اللّه تعالى الذى يعلم السرائر وما فى مكنون الضمائر، والذى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۲

تساوى لديه الظاهر والباطن، والغيب والشهادة يشهد على كذب هؤلاء: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». يؤكّد اللّه سبحانه وتعالى فى الآية التالية تأكيداً شديداً على مسألة حياتية مهمة، ويأمر نبيّه بصراحة أن «لَاتَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» بل «لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ» لا المسجد الذى أسس من أوّل يوم على الكفر والنفاق وتقويض أركان الدين.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافة إلى أنّ هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإنّ «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ».

إنّ للطهارة هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحى من آثار الشرك والذنوب، أو التطهير الجسمى من الأوساخ والنجاسات.

وفى الآية الثالثه من الآيات مقارنة بين فريقين وفئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، والمنافقين الذين بنوه على أساس الكفر والنفاق والتفرقة والفساد. فهى تقول أوّلًا: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ».

إنّ التشبيه الوارد أعلاه يعطى صورة فى منتهى الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقين وتزلزلها، وفى المقابل استحكام ودوام أعمال المؤمنين ونشاطاتهم وبرامجهم.

ومن هنا، فإنّ المنافقين يظلمون أنفسهم ويظلمون المجتمع أيضاً ولذلك فإنّ الآية اختتمت بقوله: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وفى آخر آية إشارة إلى إصرار المنافقين وعنادهم، فهى تعبّر عن تعصبهم وإصرارهم فى أعمالهم، وعنادهم فى نفاقهم، وحيرتهم فى ظلمة كفرهم، فهم فى شك من بنيانهم الذى بنوه، أو فى النتيجة المرجوة منه، وسيبقون فى هذه الحال حتى موتهم: «لَايَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ».

وتقول الآية أخيراً: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

فإنّه تعالى إنّما أمر نبيّه صلى الله عليه و آله بهدم هذا البناء الذى يحمل صفة الحق ظاهراً، حتى تتبيّن نيّات السوء التى انطوى عليها هؤلاء، وتنكشف حقائقهم وبواطنهم وهذا الحكم الإلهى هو عين الحكمة، وحسب صلاح المجتمع الإسلامى، وقد صدر على هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۳

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوْرَاةِ وَ

الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) لمّا كـان الكلام فى الآيات السابقـة عن المتخلفين عن الجهاد، فإنّ هاتين الآيتين قـد بيّنتا المقام الرفيع للمجاهـدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع. لقد عرّف اللَّه سبحانه وتعالى نفسه فى هذا المثال بأنّه مشترٍ، والمؤمنين بأنّهم بائعون، وقال: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ».

ولمّا كانت كل معاملة تتكون فى الحقيقة من خمسة أركان أساسية، فقد أشار اللَّه سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، والمؤمنين بائعين، وأموالهم وأنفسهم متاعاً وبضاعة، والجنة ثمناً لهـذه المعاملة، غاية ما فى الأمر أنّه بيّن طريقة تسليم البضاعة بتعبير لطيف، فقال: «يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ».

ثم يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، والذى يشكل الركن الخامس فيها، فقال:

«وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَيةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ».

ثم، ومن أجل التأكيد على هـذه المعاملـة، تضيف الآيـة: «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ». أى إنّ ثمن هذه المعاملة وإن كان مؤجلًا، إلّاأنّه مضمون، ولا وجود لأخطار النسيئة، لأنّ اللَّه تعالى لقدرته واستغنائه عن الجميع أوفى من الكل بعهده.

والأروع من كل شىء أنّه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، ويتمنى لهم أن تكون صفقة وفيرة الربح، تماماً كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عزّ وجل: «فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۴

كما هى طريقة القرآن المجيد، حيث إنّه يُجمِل الكلام فى آية، ثم يعمد إلى التفصيل فى الآية التى تليها، فقد بيّن سبحانه فى الآية الثانية حال البائعين للروح والمال لربّهم عزّ وجل، فذكر تسع صفات مميزة لهم: ١- فهم يغسلون قلوبهم وأرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: «التِّبُونَ».

٢- وهم يطهرون أنفسهم فى نفحات الدعاء والمناجاة مع ربّهم: «الْعبِدُونَ».

٣- وهم يحمدون ويشكرون كل نعم اللَّه المادية والمعنوية: «الْحمِدُونَ».

۴- وهم يتنقلون من مكان عبادة إلى آخر: «السِحُونَ».

وبهذا الترتيب فإنّ برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر فى العبادة، أو فى إطار محدود، بل إنّ كل مكان هو محل عبادة للّهوجهاد للنفس وتربية لها بالنسبة لهؤلاء، وكل مكان يوجد فيه درس وعبرة لهؤلاء فإنّهم سيقصدونه.

۵- وهم يركعون مقابل عظمة اللَّه: «الرَّاكِعُونَ».

۶- ويضعون جباههم على التراب أمام خالقهم ويسجدون له: «السَّاجِدُونَ».

٧- وهم يدعون الناس لعمل الخير: «الْأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

٨- ولم يقتنعوا بهذه الدعوة للخير، بل حاربوا كل منكر وفساد: «وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

٩- وبعد أدائهم وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقومون بأداء آخر وأهم واجب اجتماعى، أى حفظ الحدود الإلهية وإجراء قوانين اللَّه، وإقامة الحق والعدالة:

«وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ».

وبعد ذكر هـذه الصفات التسع فإنّ اللَّه يرغّب- مرّة اخرى- أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الـذين هم ثمرة منهـج الإيمان والعمل، ويقول للنبى صلى الله عليه و آله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَ مَا كَانَ

اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (۱۱۴)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۵

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ المسلمين قالوا للنبى صلى الله عليه و آله: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا فى الجاهلية؟ فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية وبيّن أنّه لا ينبغى لنبى، ولا مؤمن، أن يدعو لكافر، ويستغفر له.

التّفسير

نهت الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة وحادة، فهى تقول: «مَا كَانَ لِلنَّبِيّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ». ولكى تؤكّد ذلك قالت:

«وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى .

ثم أنّ القرآن الكريم بيّن سبب ودليل هذا الحكم فقال: «مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

فإنّ هذا العمل- أى الاستغفار للمشركين- عمل لا معنى له وفى غير محله، لأنّ المشرك لا يمكن العفو عنه بأى وجه، ولا سبيل لنجاة من سار فى طريق الشرك.

ولما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرأوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، ولذا فمن الممكن جدّاً أن يتبادر إلى اذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركاً؟ وإذا كان هذا العمل منهياً عنه فكيف يفعله هذا النبى الكبير؟

لهذا نرى أنّ الآية الثانية تتطرق لهذا السؤال وتجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».

وفى آخر الآية توضيح بأنّ إبراهيم كان إنساناً خاضعاً بين يدى اللّه عزّ وجلّ، وخائفاً من غضبه، وحليماً واسع الصدر، فقالت: «إِنَّ إِبْرهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».

ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء: إنّ هذه الآية ليست الوحيدة التى تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدّة آيات فى القرآن الكريم أنّ كل إرتباط وتضامن وعلاقة، العائلية منها وغيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، ويجب أن يحكم الانتماء إلى اللّه ومحاربة كل أشكال الشرك والوثنية، كل أشكاليات الترابط بين المسلمين، لأنّ هذا الإرتباط هو الأساس والحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعية، ولا تستطيع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۶

العلاقات والروابط السطحية والفوقية أن تنفيه.

إنّ هذا درس كبير للأمس واليوم، وكل الأعصار والقرون.

وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱۵) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۱۱۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول اللّه! إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض، ما منزلتهم؟ فنزل «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا» الآية.

التّفسير

إنّ الآية الاولى تشير إلى قانون كلّى وعام، يؤيده العقل أيضاً، وهو أنّ اللّه سبحانه وتعالى مادام لم يبيّن حكماً، ولم يصل شىء من الشرع حوله، فإنّه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحداً، وبتعبير آخر: فإنّ التكليف والمسؤولية تقع دائماً بعد بيان الأحكام، وهذا هو

الـذى يعبر عنه فى علم الاصول بقاعـدة (قبـح العقاب بلا بيان). ولـذلك فأوّل ما تطالعنا به الآيـة قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ».

وأخيراً تقول الآيـة: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ». أى إنّ علم اللّه يحتم ويؤكّد على أنّ اللّه سبحانه مادام لم يبين الحكم الشرعى لعباده، فإنّه سوف لايؤاخذهم أو يسألهم عنه.

وتستند الآيـة التاليـة على هـذه المسألـة وتؤكّد: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» وأنّ نظام الحياة والموت أيضاً بيد قدرته، فإنّه هو الذى «يُحْيِ وَيُمِيتُ» وعلى هذا: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ». وهو إشارة إلى أنّه لما كانت كل القدرات والحكومات فى عالم الوجود بيده، وخاضعة لأمره، فلا ينبغى لكم أن تتكلوا على غيره، وتلتجئوا إلى البعيدين عن اللّه وإلى أعدائه وتوادّوهم، وتوثّقوا علاقتكم بهم عن طريق الاستغفار وغيره.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۷

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيـان: نزلت الآيـة الاولى فى غزاة تبوك، وما لحق المسلمين فيها من العسرة، حتى همّ قوم بالرجوع، ثم تـداركهم لطف اللّه سبحانه.

وأمّا الآيـة الثانيـة: فإنّها نزلت فى شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن اميـة وذلك أنّهم تخلفوا عن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثم ندموا. فلما قدم النبى صـلى الله عليه و آله المدينة، جاؤوا إليه، واعتذروا، فلم يكلّمهم النبى صـلى الله عليه و آله وتقـدم إلى المسـلمين بـأن لا يكلّمهم أحـد منهم، فهجرهم الناس حتى الصبيان. فضاقت عليهم المدينـة، فخرجوا إلى رؤوس الجبـال، وكـان أهـاليهم يجيئون لهم بالطعـام، ولاـ يكلّمونهم، فقال بعضـهم لبعض: قـد هجرنا الناس ولا يكلّمنـا أحـد منهم، فهلا نتهاجر نحن أيضاً! فتفرقوا، ولم يتجمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسـين يوماً، يتضـرعون إلى اللّه تعالى، ويتوبون إليه فقبل اللّه تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية.

التّفسير

تتحـدّث هـذه الآيـات أيضـاً عن غزوة تبوك، فتشـير الآيـة الاـولى إلى رحمـة اللّه اللامتناهيـة الـتى شـملت النبى صـلى الله عليه و آله والمهاجرين والأنصار فى اللحظات الحساسة، وتقول:

«لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ».

ثم تُبين أنّ شـمول هذه الرحمة الإلهية لهم كان فى وقت اشـتدت فيه الحوادث والضـغوط والاضـطرابات إلى الحد الذى أوشـكت أن تزل فيه أقدام بعض المسلمين عن جادة الصواب، (وصمّموا على الرجوع من تبوك) فتقول: «مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۸

ثم تؤكّـد مرّة اخرى على أنّ اللّه سـبحانه قد تاب عليهم، فتقول: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». ولم تشـمل الرحمة الإلهية هذا القسم الكبير الـذى شارك فى الجهاد فقط، بل شـملت حتى الثلاثـة الـذين تخلفوا عن القتال ومشاركـة المجاهدين فى ساحة الجهاد: «وَعَلَى الثَّلَثَةِ الَّذِينَ خُلّفُوا».

إلّا أنّ اللطف الإلهى لم يشـمل هؤلاء المتخلفين بهذه السهولة، بل عندما عاش هؤلاء- وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية، الذين مرّ شـرح حالهم فى سبب النزول- مقاطعةً اجتماعية شديدة، وقاطعهم كل الناس بالصورة التى تصورها الآية، فتقول: «حَتَّى

إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ».

بل إنّ صدور هؤلاء امتلأت همّاً وغمّاً بحيث ظنوا أن لا مكان لهم فى الوجود، فكأنّه ضاق عليهم «وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ» فابتعد أحدهم عن الآخر وقطعوا العلاقة فيما بينهم.

عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجوههم فأيقنوا «وَظَنُّوا أَن لَّامَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» فأدركتهم رحمة اللّه مرّة اخرى، وسهلت ويسّرت عليهم أمر التوبة الحقيقية، والرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (۱۱۹) كونوا مع الصادقين: فى الآيات السابقة كان الحديث حول جماعة من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع اللّه ورسوله، أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى النقطة المقابلة لهؤلاء، فهى تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم وثبتوا عليه. فى البداية تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ». ولأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى المليء بالمنعطفات والاخطار بدون اشتباه وانحراف أضافت: «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ».

والصادقين هم الذين يؤدون تعهداتهم أمام الإيمان باللّه على أحسن وجه دون أى تردد أو تماهل ولا يخافون سيل المصاعب والعقبات، بل يُثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء والتضحية.

ولا شك أنّ لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض فى قمّتها، وهم الذين نسمّيهم بالمعصومين، والبعض فى درجات أقل وأدنى منها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۹

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۲۰) وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۱)

كان البحث فى الآيات السابقة حول توبيخ وملامة الممتنعين عن الاشتراك فى غزوة تبوك، وتبحث هاتان الآيتان البحث النهائى لهذا الموضوع كقانون كلّى. فالآية الاولى تقول:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ» لأنّه قائد الامّة، ورسول اللّه، ورمز بقاء وحياة الامّة الإسلامية.

من البديهى أنّ التأكيد على أهل المدينة وأطرافها إنّما هو لأنّ المدينة كانت مقرّ الإسلام يومئذ ومركزه المشع، وإلّا فإنّ هذا الحكم غير مختص بالمدينة وأطرافها، وغير مختص بالنّبى صلى الله عليه و آله فإنّ واجب كل المسلمين، وفى جميع العصور أن يحترموا ويكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، ويبذلون قصارى جهدهم فى سبيل الحفاظ عليهم، ولا يتركوهم يواجهون الصعاب والأخطار وحدهم، لأنّ الخطر الذى يحدق بهؤلاء يحدق بالامّة جميعاً.

ثمّ تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها فى طريق الجهاد، وتذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل والصعاب وثوابها، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لَايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صلِحٌ». ومن المحتم أنّهم سيقبضون جوائزهم من اللّه سبحانه، واحدة بواحدة، ف «إِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». وكذلك فإنّهم لا يبذلون شيئاً فى أمر الجهاد:

«وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» ولا يقطعون أرضاً فى ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلّاثبت كل ذلك فى كتبهم: «وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ» وإنّما يثبت ذلك «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۰

وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

(۱۲۲)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: کان رسول اللّٰه صلی الله علیه و آله إذا خرج غازیاً، لم یتخلف عنه إلّا المنافقون والمعذرون. فلما أنزل اللّٰه تعالی عیوب المنافقین، وبیّن نفاقهم فی غزاة تبوک، قال المؤمنون: واللّٰه لا نتخلف عن غزاة یغزوها رسول اللّٰه صلی الله علیه و آله ولا سریة أبداً! فلما أمر رسول اللّٰه صلی الله علیه و آله بالسرایا إلی الغزو، نفر المسلمون جمیعاً وترکوا رسول اللّٰه صلی الله علیه و آله وحده فأنزل اللّٰه سبحانه «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا» الآیة.

التّفسیر

محاربة الجهل وجهاد العدو: إنّ لهذه الآیة إرتباطاً بالآیات السابقة حول موضوع الجهاد، وتشیر إلی حقیقة حیاتیة بالنسبة للمسلمین، وهی: أنّ الجهاد وإن کان عظیم الأهمیة، والتخلف عنه ذنب وعار، إلّاأنّه فی غیر الحالات الضروریة لا لزوم لتوجه المؤمنین کافة إلی ساحات الجهاد، خاصة فی الموارد التی یبقی فیها النبی صلی الله علیه و آله فی المدینة، بل یبقی منهم جماعة لتعلم أحکام الدین ویتوجه الباقون إلی الجهاد: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ».

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد یقومون بتعلیمهم هذه الأحکام والمعارف الإسلامیة، ویحذرونهم من مخالفتها: «وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» والهدف من ذلک أن یحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر اللّٰه سبحانه بانذارهم «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

المسألة المهمة التی یمکن استخلاصها من الآیة، هی الأهمیة الخاصة التی أولاها الإسلام لمسألة التعلیم والتعلم، إلی الدرجة التی ألزم فیها المسلمین بأن لا یذهبوا جمیعاً إلی میدان الحرب، بل یجب أن یبقی قسم منهم لتعلم الأحکام والمعارف الإسلامیة.

إنّ هذا یعنی أنّ محاربة الجهل واجب کمحاربة الأعداء، ولا تقل أهمیة أحد الجهادین عن الآخر. بل إنّ المسلمین مالم ینتصروا فی محاربتهم للجهل واقتلاع جذوره من المجتمع فإنّهم سوف لا ینتصرون علی الأعداء (لأنّ الامة الجاهلة محکومة بالهزیمة دائماً).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۱

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۱۲۳) قتال الأقرب فالأقرب: أشارت الآیة فی سیاق أحکام الجهاد التی ذکرت لحد الآن فی هذه السورة- إلی أمرین آخرین فی هذا الموضوع الإسلامی المهم، فوجهت الخطاب أوّلًا إلی المؤمنین وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ».

إنّ هذه الآیة بالرغم من أنّها تتحدث عن العمل المسلح والبعد المکانی، إلّاأنّه لیس من المستبعد أنّ روح الآیة حاکمة فی الأعمال المنطقیة والفواصل المعنویة، أی إنّ المسلمین عندما یعزمون علی المجابهة المنطقیة والإعلامیة والتبلیغیة یجب أن یبدؤوا بمن یکون أقرب إلی المجتمع الإسلامی وأشدّ خطراً علیه، فمثلًا فی عصرنا الحاضر نری أنّ خطر الإلحاد والمادیة یهدد کل المجتمعات، فیجب تقدیم التصدّی لها علی مواجهة المذاهب الباطلة الاخری وهذا لا یعنی نسیان هؤلاء، بل یجب اعطاء الأهمیة القصوی للهجوم نحو الفئة الأخطر، وهکذا فی مواجهة الاستعمار الفکری والسیاسی والاقتصادی التی تحوز الدرجة الاولی من الأهمیة.

والأمر الثانی فیما یتعلق بالجهاد فی الآیة، هو اسلوب الحزم والشدّة، فهی تقول: إنّ العدو یجب أن یلمس فی المسلمین نوعاً من الخشونة والشدّة: «وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» وهی تشیر إلی أنّ الشجاعة والشهامة الداخلیة والإستعداد النفسی لمقابلة العدو ومحاربته لیست کافیة بمفردها، بل یجب اظهار هذا الحزم والصلابة للعدو لیعلم أنّکم علی درجة عالیة من المعنویات، وهذا بنفسه سیؤدّی إلی هزیمتهم وانهیار معنویاتهم.

وبعبارة اخری فإنّ امتلاک القدرة لیس کافیاً، بل یجب استعراض هذه القوة أمام العدو.

وفی النهایة تبشر الآیة المسلمین بالنصر من خلال هذه العبارة: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ». ویمکن أن یشیر هذا التعبیر- إضافةً لما قیل- إلی أنّ استعمال الشدّة والخشونة یجب أن یقترن بالتقوی، ولا یتعدی الحدود الإنسانیة فی أی حال.

وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۱۲۴) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ (۱۲۵)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۲

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب: تشير هاتان الآيتان إلى واحدة من علامات المؤمنين والمنافقين البارزة، تكملةً لما مرّ من البحوث حولهما. فتقول أوّلًا: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هـذِهِ إِيمنًا». وهم يريدون بكلامهم هذا أن يبينوا عدم تأثير سور القرآن فيهم، وعدم اعتنائهم بها، ويقولون: إنّ هذه الآيات لا تحتوى على الشيء المهم والمحتوى الغنى، بل هى كلمات عادية ومعروفة.

ولكن القرآن يجيبهم بلهجة قاطعة، ويقول ضمن تقسيم الناس إلى طائفتين: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

وهذا على خلاف المنافقين ومرضى القلوب من الجهل والحسد والعناد «وأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ».

وفى النهاية فإنّ هؤلاء بعنادهم يغادرون الدنيا على الكفر: «وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ».

إنّ القرآن الكريم يؤكّد من خلال هاتين الآيتين على حقيقة، وهى أنّ وجود البرامج والقوانين الحياتية لا تكفى بمفردها لسعادة فرد أو جماعة، بل يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار وجود الأرضية المهيئة والإستعداد للتلقى كشرط أساسى.

أَ وَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَ لَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (۱۲۷) يستمر الكلام فى هذه الآيات حول المنافقين، وهى توبّخهم وتذمهم فتقول: «أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ». والعجيب أنّهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لا يعتبرون «ثُمَّ لَايَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ».

يظهر من تعبير الآية أنّ هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذى يواجهه كل الناس فى حياتهم، بل انّ هذا الاختبارات التى ينبغى أن تكون سبباً فى توعية هذه المجموعة كإزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة وظهور باطنهم وحقيقتهم.

ثم تشير الآية إلى الموقف الإنكارى لهؤلاء فى مقابل الآيات الإلهية، فتقول: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۳

إنّ خوف هؤلاء وقلقهم ناشى من أنّ تلك السورة تتضمن فضيحة جديدة لهم، أو لأنّهم لا يفهمون منها شيئاً لعمى قلوبهم، والإنسان عدوّ ما يجهل.

وعلى كل حال، فإنّهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوا هذه الأنغام الإلهية، إلّا أنّهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، ولذلك كان أحدهم يهمس فى أذن صاحبه ويسأله: «هَلْ يَرَيكُم مِّنْ أَحَدٍ»؟ وإذا ما أطمأنوا إلى أنّ الناس منشغلون بسماع كلام النبى صلى الله عليه و آله وغير ملتفتين إليهم خرجوا: «ثُمَّ انصَرَفُوا».

وتطرّقت الآية فى الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: إنّ هؤلاء إنّما لا يريدون سماع كلمات اللَّه سبحانه ولا يرتاحون لذلك لأنّ قلوبهم قد حاقت بها الظلمات لعنادهم ومعاصيهم فصرفها اللَّه سبحانه عن الحق، وأصبحوا أعداءً للحق لأنّهم أناس جاهلون لا فكر لهم: «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ».

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (۱۲۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۱۲۹) آخر آيات القرآن المجيد: إنّ هذه الآيات برأى بعض المفسّرين، هى آخر الآيات التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله وبها تنتهى سورة التوبة، فهى فى الواقع إشارة إلى كل المسائل التى مرّت فى هذه السورة. ومن هنا فإنّ خطاب الآية الاولى موجّه للناس، فهى تقول: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ». خاصة وأنّه قد وردت لفظة «مّنْ أَنفُسِكُمْ» وهى تشير إلى شدة إرتباط النبى صلى الله عليه و آله بالناس، حتى كأنّ قطعة من روح الناس والمجتمع قد ظهرت بشكل النبى صلى الله

علیه و آله.

فبعد ذکر هذه الصفة «مِّنْ أَنفُسِكُمْ» أشارت الآیة إلی أربع صفات اخری من صفات النبی صلی الله علیه و آله السامیة، والتی لها الأثر العمیق فی إثارة عواطف الناس وجلب انتباههم وتحریک أحاسیسهم. ففی البدایة تقول: «عَزِیزٌ عَلَیْهِ مَا عَنِتُّمْ». أی أنّ الأمر لا ینتهی فی أنّه لا یفرح لأذاکم ومصاعبکم، بل إنّه لا یقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذی، فهو یتألم لألمکم.

ثم تضیف أنّه: «حَرِیصٌ عَلَیْکُمْ» ویتحمس لهدایتکم.

ثم تشیر إلی الصفتین الثالثة والرابعة وتقول: «بِالْمُؤْمِنِینَ رَءُوفٌ رَّحِیمٌ». وعلی هذا فإنّ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۴

کل الأوامر الصعبة التی یصدرها، (حتی المسیر عبر الصحاری المحرقة فی فصل الصیف المقرون بالجوع والعطش لمواجهة عدو قوی فی غزوة تبوک) فإنّ ذلک نوع من محبته ولطفه، لنجاتکم ولتخلیصکم من قبضة الظلم والاستبداد والمعاصی والتعاسة.

وفی الآیة التی تلیها، وهی آخر آیة فی هذه السورة، وصف للنبی صلی الله علیه و آله بأنّه شجاع وصلب فی طریق الحق، ولا ییأس بسبب عصیان الناس وتمردهم، بل یستمر فی دعوتهم إلی دین الحق: «فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِیَ اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ». فهو حصنه الوحید ... أجل لا حصن لی إلّا اللّه، فإلیه استندت و «عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ».

إنّ الذی بیده العرش والعالم العلوی وما وراء الطبیعة بکلّ عظمتها، وهی تحت حمایته ورعایته، کیف یترکنی وحیداً ولا یعیننی علی الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلیة مقاومة قدرته؟ أم یمکن تصور رحمة وعطف أشد من رحمته وعطفه؟

«نهایة تفسیر سورة التوبة»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۵

۱۰. سورة یونس

محتوی وفضیلة السورة: هذه السورة- علی قول بعض المفسّرین- نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود، وتؤکّد علی عدة مسائل أساسیة، وأهمها مسألة المبدأ والمعاد.

غایة ما فی الأمر أنّها تتحدث أوّلًا عن مسألة الوحی ومقام النبی صلی الله علیه و آله، ثمّ تتطرق إلی نماذج وعلامات الخلقة العظیمة التی تدل علی عظمة اللّه عزّ وجلّ، وبعد ذلک تدعو الناس إلی الإلتفات إلی عدم بقاء الحیاة المادیة فی هذه الدنیا، وحتمیة زوالها، ووجوب التوجه إلی الآخرة والتهیؤ لها عن طریق الإیمان والعمل الصالح.

وقد ذکرت السورة- کدلائل وشواهد علی هذه المسائل- أقساماً مختلفة من حیاة کبار الأنبیاء، ومن جملتهم نوح وموسی ویونس علیهم السلام ولهذا سمّیت بسورة یونس.

وأخیراً فإنّها تستغل کل فرصة للبشارة والإنذار، البشارة بالنعم الإلهیة التی لا- حدود لها للصالحین، والإنذار والإرعاب للطاغین والعاصین، لتکملة ما ورد فیها من بحوث.

فی کتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «من قرأ سورة یونس فی کل شهرین أو ثلاثة، لم یخف علیه أن یکون من الجاهلین، وکان یوم القیامة من المقربین». وذلک لأنّ آیات التحذیر والوعید وآیات التوعیة کثیرة فی هذه السورة.

ربّما لا نحتاج أن نذکّر بأنّ فضائل السور لا یمکن تحصیله بمجرد تلاوة الآیات من دون

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۶

إدراک معناها، ومن دون العمل بمحتواها، لأنّ التلاوة مقدمة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

الر تِلْکَ آیَاتُ الْکِتَابِ الْحَکِیمِ (۱) أَ کَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَیْنَا إِلَی رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِینَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ

عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢) رسالة النبى: فى هذه السورة نواجه- مرّة اخرى- الحروف المقطعة فى القرآن، والتى ذكرت بصورة «الر». بعد هذه الحروف تشير الآية أوّلًا إلى عظمة آيات القرآن وتقول:

«تِلْكَ ءَايتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ». إنّ التعبير ب «تلك» وهى إسم إشارة للبعيد، بدل (هذه) التى تشير للقريب، والذى جاء نظيره فى بداية سورة البقرة، يعتبر من التعبيرات الجميلة واللطيفة فى القرآن، وهو كناية عن عظمة ورفعة مفاهيم القرآن.

إنّ توصيف الكتاب السماوى- أى القرآن- بأنّه «حكيم» هو إشارة إلى أنّ آيات القرآن محكمة ومنظمة ودقيقة، بحيث لا يمكن أن يأتيها أو يخالطها أىّ شكل من أشكال الباطل والخرافة، فهى لا تقول إلّاالحق، ولا تدعو إلّاإلى طريق الحق.

أمّا الآية الثانية فإنّها تبيّن- ولمناسبة تلك الإشارة التى مرّت إلى القرآن والوحى الإلهى فى الآية السابقة- واحداً من إشكالات المشركين على النبى صلى الله عليه و آله وهو نفس الإشكال الذى جاء فى القرآن بصورة متكررة، وهذا التكرار يبيّن أنّ هذا الإشكال من إشكالات المشركين المتكررة، وهو: لماذا نزل الوحى الإلهى من اللَّه على إنسان مثلهم؟ ولماذا لم تتعهد الملائكة بمسؤولية هذه الرسالة الكبيرة؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ».

إنّ كلمة «منهم» تضمنت الجواب على سؤالهم، أى إنّ القائد والمرشد إذا كان من جنس أتباعه، ويعلم أمراضهم، ومطلع على احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثم تشير إلى محتوى الوحى الإلهى وتلخصه فى أمرين:

الأوّل: إنّ الوحى الذى أرسلناه، مهمته إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب الكفر

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٢٧

والمعاصى: «أَن أَنذِرِ النَّاسَ».

والثانى: هو «وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ».

إنّ «قدم الصدق» هذا إشارة إلى أنّ الإيمان له «سابقة فطرية» أو إشارة إلى مسألة المعاد ونعيم الآخرة، أو أنّ القدم بمعنى القدوة والزعيم والقائد، أى إنّنا أرسلنا للمؤمنين قائداً ومرشداً صادقاً.

وأن تكون البشارة بكل هذه الامور هى المرادة من التعبير أعلاه.

وتنهى الآية حديثها بذكر إتهام طالما كرّره المشركون واتهموا به النبى صلى الله عليه و آله فقالت: «قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ».

إنّ أمثال هذه التعبيرات التى كانت تصدر من ناحية الأعداء ضد النبى صلى الله عليه و آله دليل بنفسها على أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يقوم بأعمال خارقة للعادة، بحيث تجذب القلوب والأفكار نحوها، خاصه وأنّ التأكيد على السحر فى شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع وقوى على الجاذبية الخارقة الموجودة فى هذا الكتاب السماوى، ولأجل خداع الناس فإنّهم كانوا يجعلونه فى إطار السحر.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۴) معرفة اللَّه والمعاد: بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسألة الوحى والنبوة فى بداية هذه السورة، انتقل فى حديثه إلى أصلين أساسيين فى تعليمات وتشريعات جميع الأنبياء، ألا وهما المبدأ والمعاد، وبيّن هذين الأصلين ضمن عبارات قصيرة فى هاتين الآيتين.

فيقول أوّلًا: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». أى إنّ اللَّه سبحانه قد خلق السماء والأرض فى ستة مراحل.

ثم تضيف الآية: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۸

«العرش»: تأتى أحياناً بمعنى السقف، وأحياناً بمعنى الشىء الذى له سقف، وتارةً بمعنى الأسرّة المرتفعة، هذا هو المعنى الأصلى لها، أمّا معناها المجازى فهو القدرة. وبعد أن تبيّن أنّ الخالق والموجد هو اللَّه سبحانه، اتّضح أنّ الأصنام- هذه الموجودات الميتة والعاجزة- لا يمكن أن يكون لها أىّ تأثير فى مصير البشر، ولهذا قالت الآية فى الجملة التالية: «مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ».

وتتحدث الآية التالية- كما أشرنا- عن المعاد، وتبيّن فى جمل قصار أصل مسألة المعاد، والدليل عليها، والهدف منها. فتقول أوّلًا: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا». وبعد الإستناد إلى هذهالمسألة المهمة والتأكيد عليها تضيف: «وَعْدَ اللَّهُ حَقًّا». ثم تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: «إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ».

إنّ الآيات المرتبطة بالمعاد فى القرآن توضح أنّ العلة الأساسية فى تشكيك وتردد المشركين والمخالفين، هى أنّهم كانوا يشكّون فى إمكان حدوث مثل هذا الشىء، وكانوا يسألون بتعجب بأنّ هذه العظام النخرة التى تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة وترجع إلى حالتها الاولى؟ ولهذا نرى أنّ القرآن يقول: فإنّ من أوجد العالم فى البداية يستطيع أن يعيد ذلك الايجاد.

ثم تبيّن الهدف من المعاد بأنّه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على اللَّه سبحانه مهما صغرت: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصلِحتِ بِالْقِسْطِ». أمّا اولئك الذين اختاروا طريق الكفر والإنكار، ولم تكن لديهم أعمال صالحة- لأنّ الإعتقاد الصالح أساس العمل الصالح- فإنّ العذاب الأليم وأنواع العقوبات بانتظارهم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ».

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (۶) جانب من آيات عظمة اللَّه: لقد مرّت فى الآيات السابقة إشارة عابرة إلى مسألة المبدأ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۹

والمعاد، إلّاأنّ هذه الآيات وما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء. لقد أشارت الآية الاولى التى نبحثها إلى جوانب من آيات عظمة اللَّه سبحانه فى عالم الخلقة فقالت: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا».

إنّ الشمس التى تعم العالم بنورها لا- تعطى النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هى العامل الأساس فى نمو النباتات وتربية الحيوانات، وإذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوماً فإنّ السكون والظلمة والموت سيخيّم على كل شىء فى فاصلة زمنية قصيرة.

والقمر بنوره الجميل هو مصباح ليالينا المظلمة، ولا تقتصر مهمّته على هداية المسافرين ليلًا وإرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء والنشاط لكل سكان الأرض.

ثمّ أشارت الآية إلى فائدة اخرى لوجود القمر فقالت: «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ». بل إنّه تقويم طبيعى دقيق جدّاً يستطيع الجاهل والعالم قراءته، ويقرأ فيه تأريخ أعماله وامور حياته.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا الخلق والدوران ليس عملًا غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل «مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقّ».

وفى النهاية تؤكّد الآية: «يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» إلّاأنّ هؤلاء الغافلين وفاقدى البصيرة بالرغم من أنّهم يمرون كثيراً على هذه الآيات والدلائل، إلّاأنّهم لا يدركون أدنى شىء منها.

وتتطرق الآية الثانية إلى قسم آخر من العلامات والدلائل السماوية والأرضية الدالّة على وجوده سبحانه، فتقول: «إِنَّ فِى اخْتِلفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ». أى إنّ الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سمت أرواحهم وصفت

نتیجة لتقواهم وبعدهم عن المعاصی.

لقد عدت الآیات أعلاه اختلاف اللیل والنهار من آیات اللّه سبحانه، وذلک لأنّ نور الشمس إذا استمر فی إشعاعه علی الأرض، فإنّ من المسلّم أن درجة الحرارة سترتفع إلی الحد الذی تستحیل معه الحیاة علی وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۰

وکذلک اللیل إذا استمر فإنّ کل شیء سینجمد لشدّة البرودة.

إلّا أنّ اللّه سبحانه قد جعل هذین الکوکبین یتبع أحدهما الآخر لتهیئة أسباب الحیاة والمعیشة علی وجه الکرة الأرضیة.

إِنَّ الَّذِینَ لَا یَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا وَ الَّذِینَ هُمْ عَنْ آیَاتِنَا غَافِلُونَ (۷) أُولئِکَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا کَانُوا یَکْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ یَهْدِیهِمْ رَبُّهُمْ بِإِیمَانِهِمْ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ (۹) دَعْوَاهُمْ فِیهَا سُبْحَانَکَ اللَّهُمَّ وَ تَحِیَّتُهُمْ فِیهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۱۰) أهل الجنّة والنار: هذه الآیات تفصیل حول المعاد ومصیر الناس فی العالم الآخر. ففی البدایة یقول: «إِنَّ الَّذِینَ لَایَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَیَوةِ الدُّنْیَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا». فهم لا یعتقدون بالمعاد وتجاهلوا الآیات البینات فلم یتدبروا فیها کیما تستیقظ قلوبهم ویتحرک فیهم روح الاحساس بالمسؤولیة «وَالَّذِینَ هُمْ عَنْ ءَایَتِنَا غَافِلُونَ». فکلتا هاتین الطائفتین مصیرهم إلی النار: «أُولئِکَ مَأْوَیهُمُ النَّارُ بِمَا کَانُوا یَکْسِبُونَ».

إنّ النتیجة الطبیعیة والحتمیة لعدم الإیمان بالمعاد هی الإرتباط بهذه الحیاة المحدودة والعلائق المادیة، والاطمئنان بها والإعتماد علیها.

وکذلک فإنّ الغفلة عن الآیات الإلهیة هی أساس البعد عن اللّه سبحانه، والإبتعاد عن اللّه هو العلّة لعدم الإحساس بالمسؤولیة والتلوّث بالظلم والفساد والمعصیة، وعاقبة ذلک لا تکون إلّاالنار.

إنّ هاتین الآیتین تؤکّدان مرّة اخری هذه الحقیقة، وهی أنّ إصلاح مجتمع ما وإنقاذه من نار الظلم والفساد، یتطلب تقویة رُکنی الإیمان باللّه والمعاد اللذین هما شرطان ضروریان وأساسیان، فإنّ عدم الإیمان باللّه سبحانه سیقتلع الإحساس بالمسؤولیة من وجود الإنسان، والغفلة عن المعاد یذهب بالخوف من العقاب، وعلی هذا فإنّ هذین الأساسین العقائدیین هما أساس کل الإصلاحات الاجتماعیة.

ثم یشیر القرآن إلی وضع فئة اخری فی مقابل هذه الفئة، فیقول: «إِنَّ الَّذِینَ ءَامَنُوا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۱

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ یَهْدِیهِمْ رَبُّهُم بِإِیمَانِهِمْ». فإنّ نور الهدایة الإلهیة الذی ینبعث من نور إیمانهم یضیء کل آفاق حیاتهم، وقد اتّضحت لهم الحقائق باشراقات هذا النور بحیث لم تعد شراک المذاهب المادیة وزبارجها، ولا الوساوس الشیطانیة وبریق المطامع الدنیویة قادرة علی التعتیم علی افکارهم ودفعهم فی طریق الانحراف عن الصواب والحق.

إنّ وضع هؤلاء فی الحیاة الاخری أنّهم «تَجْرِی مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ».

إنّ هؤلاء یرفلون فی محیط مملوء بالصلح والصفاء وعشق اللّه وأنواع النعم، ففی کل وقت تنیر وجودهم نفحة ورشحة من ذات اللّه وصفاته، فإنّ «دَعْوَیهُمْ فِیهَا سُبْحَانَکَ اللَّهُمَّ».

وکلما التقی بعضهم بالآخر فإنّهم یتحدثون عن الصفاء والسلام «وَتَحِیَّتُهُمْ فِیهَا سَلمٌ».

وأخیراً فإنّهم کلما إلتذوا بنعم اللّه المختلفة شکروا ذلک «وَءَاخِرُ دَعْوَیهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِینَ».

وَ لَوْ یُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَیْرِ لَقُضِیَ إِلَیْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِینَ لَا یَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِی طُغْیَانِهِمْ یَعْمَهُونَ (۱۱) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا کَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ کَأَنْ لَمْ یَدْعُنَا إِلَی ضُرٍّ مَسَّهُ کَذلِکَ زُیِّنَ لِلْمُسْرِفِینَ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ (۱۲) الهمج الرّعاع: الکلام فی هذه الآیات یدور کذلک حول عقاب المسیئین، فتقول الآیة الاولی بأنّ اللّه سبحانه إذا جازی المسیئین علی أعمالهم بنفس العجلة التی یحب بها هؤلاء تحصیل النعم والخیر، فستنتهی أعمار الجمیع ولا یبقی لهم أثر: «وَلَوْ یُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ

الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ». إلّاأنّ لطف اللّه سبحانه لما كان شاملًا لجميع العباد، حتى المسيئين والكافرين والمشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم وجزائهم لعلهم يعون ويتوبون، ويرجعون عن الضلال إلى الحق والهدى.

وفى الختام تقول الآية: يكفى عقاباً لهؤلاء أن نتركهم وشأنهم ليبقوا فى حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، ولا هم يجدون سبيل النجاة من متاهاتهم: «فَنَذَرُ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

عند ذلك تشير الآية إلى وجود نور التوحيد فى فطرة الإنسان وأعماق روحه وتقول:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٢

«وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانِ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا».

نعم ... إنّ خاصية المشاكل والشدائد الخطيرة، أنّها تزيل الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، ويسطع عندها- ولو لمدّة قصيرة- نور التوحيد. ثم تقول الآية: إنّ هؤلاء الأفراد إلى درجة من الجهل وضيق الافق بحيث إنّهم يعرضون بمجرد كشف الضرّ عنهم، حتى كأنّهم لم يدعونا ولم نساعدهم: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذلِكَ زُيّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ اللّه سبحانه هو الذى يزين الأعمال، وذلك بجعل هذه الخاصية فى الأعمال القبيحة والمحرّمة، بحيث أن الإنسان كلما تلوّث بها أكثر، فإنّه سيتطبع عليها، وبمرور الزمن يزول قبحها تدريجياً، بل وتصل الحال إلى أن يراها حسنة وجميلة.

وأمّا لماذا سمّت الآية أمثال هؤلاء «مسرفين» فلأنّه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال فى وجوده، ألا وهو العمر والسلامة والشباب والقوى، ويصرفه فى طريق الفساد والمعصية أو فى طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفانى ولا يربح من ذلك شيئاً.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١۴) الإعتبار بالظالمين السابقين: تشير هذه الآيات أيضاً إلى معاقبة الأفراد الظالمين والمجرمين فى هذه الدنيا، وقد نبّهت المسلمين- بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم- إلى أنّهم إذا سلكوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير. فالآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا». ثمّ تضيف:

«كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ».

ثمّ تبيّن الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة وتقول: «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِفَ فِى الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ».

يستفاد من جملة: «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أنّ اللّه سبحانه يهلك فقط اولئك الذين لا أمل فى إيمانهم حتى فى المستقبل، وعلى هذا فإنّ الأقوام التى يمكن أن تؤمن فى المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٣

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١۵) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى خمسة نفر (من عبدة الأوثان)، قالوا للنبى صلى الله عليه و آله: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، أو بدّله تكلّم به من تلقاء نفسك.

التّفسير

كتعقيب للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن المبدأ والمعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع والمسائل المتعلقة به. فى البداية تشير إلى واحد من الإشتباهات الكبيرة لعباد الأصنام، وتقول: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرءَانٍ غَيْرِ

هذَا أَوْ بَدّلْهُ».

إنّ هؤلاء الجهلة العاجزين لم يرضوا بالنّبى صلى الله عليه و آله قائداً ومرشداً لهم، بل كانوا يدعون لاتباع خرافاتهم وأباطيلهم.

إنّ القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء إلى هـذا الإشـتباه الكبير، ويأمر النبى صـلى الله عليه و آله أن يقول لهم: «قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدّلَهُ مِن تِلْقَاىِ نَفْسِى». ثم يضـيف للتأكيـد: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ». ولست عاجزاً عن تغيير أو تبـديل هذا الوحى الإلهى- فحسب- بل: «إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

ثم تتطرق الآيـة التاليـة إلى دليـل هـذا الموضوع وتقول: قـل لهم بأنّى لست مختاراً فى هـذا الكتاب السـماوى: «قُلْ لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَيكُم بِهِ». والدليل على ذلك:

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٣٤

«فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ». لكنكم لم تسـمعوا منّى مثـل هـذا الكلام مطلقاً، ولو كانت هـذه الآيات من عنـدى لتحـدثت بها لكم خلال هـذه الأربعين سـنة، فهل لا تـدركون أمراً بهـذه الدرجـة من الوضوح: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ». وكذلك، ومن أجل التأكيد يضـيف: بأنّى أعلم أنّ أقبـح أنواع الظلم هو أن يفترى الإنسان على اللّه الكـذب: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». وعلى هذا فكيف يمكن أن أرتكب مثل هذا الذنب الكبير.

وكذلك فإنّ التكذيب بآيات اللّه سبحانه من أشدّ الكبائر وأعظمها: «أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

فإذا كنتم جاهلين بعظمة ما ترتكبونه من الاثم فى تكذيب وإنكار آيات الحق، فإنّى لست بجاهل بها، وعلى كل حال فإنّ عملكم هذا جرم كبير، و «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ».

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) آلهة بدون خاصـية: واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضاً، وذلك عن طريق نفى الوهية الأصنام، وذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة وإنتفاء قيمتها وأهميتها: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ».

ثمّ تتطرق إلى إدعاءات عبدة الأوثان الواهية، «وَيَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعؤُنَا عِندَ اللَّهِ».

أى إنّ هذه الأصنام والآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سبباً للضر والنفع رغم عجزها عن أى عمل بصورة مستقلة.

لقد كان الإعتقاد بشفاعة الأصنام أحد أسباب عبادتها.

إنّ القرآن يقول فى دفع هـذا الوهم: «قُلْ أَتُنَبُونَ اللَّهَ بِمَا لَايَعْلَمُ فِى السَّموَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ». وهو كنايـة عن أنّ اللّه سـبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنّه يعلم بوجودهم فى أىّ نقطة كانوا من السماء والأرض، لأنّ سعة علم اللّه لا تدع أصغر ذرة فى السماء والأرض إلّاوتحيط بها علماً.

وفى آخر الآية تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٣٥

وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) إنّ هذه الآيه- تتمة للبحث الـذى مرّ فى الآيـة السابقـة حول نفى الشـرك وعبـادة الأصـنام- تشـير إلى فطرة التوحيـد لكـل البشـر، وتقول: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً».

إنّ فطرة التوحيد هذه، والتى كانت سالمة فى البداية، إلّاأنّها قد اختلفت وتلوّثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضـيقة، والميول الشيطانية والضـعف، فانحرف جماعـة عن جادة التوحيد وتوجهوا إلى الشـرك، وقد انقسم المجتمع الإنسانى إلى قسـمين مختلفين: قسم موحّد، وقسم مشـرك: «فَاخْتَلَفُوا». بناءً على هـذا فإنّ الشـرك فى الواقع نوع من البدعة والانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام والخرافات التى لا أساس لها.

وقـد يطرح هنا هـذا السؤال، وهو: لماذا لا يرفع اللّه هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشـركين السـريع، ليرجع المجتمع الإنسانى جميعه موحّداً؟

ويجيب القرآن الكريم مباشـرة عن هذا السؤال بأنّ الحكمة الإلهية تقتضـى حرية البشر فى مسير الهداية، فهى رمز التكامل والرقى، ولو لم يكن أمره كذلك فإنّ اللّه سبحانه كان سيقضى بينهم فى اختلافاتهم: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) المعجزات المقترحة: مرّة اخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان والإسلام: «وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مّن رَّبّهِ».

إنّ هؤلاء كانوا يظنون أنّ الإعجاز أمر بيد النبى صـلى الله عليه و آله وهو يسـتطيع أن يقوم به فى أى وقت وبأية كيفية يريد، ولهذا فإنّ القرآن الكريم يأمر النبى صـلى الله عليه و آله مباشـرة: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ». وبناء على هـذا، فإنّ المعجزة ليست بيدى لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاءً لأهوائكم وحسب ميولكم ورغباتكم ثمّ لا تؤمنون بعد ذلك بأعذار واهية وحجج ضعيفة.

وفى النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: «فَانتَظِرُوا إِنّى مَعَكُم مّنَ الْمُنْتَظِرِينَ». فانتظروا العقاب الإلهى، وأنا أنتظر النصر!

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٣۶

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِی آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِی يُسَيِّرُكُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِی الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) يدور الكلام فى هذه الآيات- أيضاً- حول عقائد وأعمال المشـركين، ثم دعوتهم إلى التوحيد ونفى كل أنواع الشـرك. فالآية الاولى تشـير إلى بعض سـلوكيات المشـركين الحمقاء، وتقول: إنّنا عندما نبتلى الناس بالمشاكل والنكبات من أجل إيقاظهم وتنبيههم، ثم نرفع هذا البلاء عنهم ونذيقهم طعم الراحة والهدوء بعد تلك الضراء، فإنّهم بدلًا من أن ينتبهوا لهذه الآيات ويرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسـرونها بتفسـيرات غير صـحيحة، فمثلًا يفسرون الإبتلاءات والمشاكل بأنّها نتيجة غضب الأصنام، والنعم والطمأنينة بأنّها دليل على شفقتها، أو أنّهم يعدون كل هذه الامور صدفة محضة: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِى ءَايَاتِنَا».

إنّ كلمـة «مكر» فى الآيـة أعلاه، والـتى تعنى بشـكل عـام إعمـال الفكر، تشـير إلى التوجيهـات الخاطئـة وطرق التهرّب التى يفكر بها المشـركون عند مواجهة الآيات الإلهية، وظهور أنواع البلايا والنعم. إلّاأنّ اللّه سـبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبيّه، وأمره أن «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا».

و «المكر»: فى الأصـل هو كـل نوع من التخطيـط المقترن بالعمل المخفى، وعلى هـذا فإنّه يصـدق على اللّه سـبحانه كما يصـدق على العباد. ومصداق المكر الإلهى فى هذه الآية إشارة إلى نفس تلك العقوبات الإلهية التى يحلّ بعضها فى نهاية الخفاء وبدون أية مقدمة وبأسرع ما يكون، بل إنّه يعاقب ويعذب بعض المجرمين بأيديهم أحياناً. وبتعبير آخر فإنّ اللّه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٣٧

سبحانه فى أى وقت يريد إنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإنّ هذا العقاب سيتحقق مباشرة، فى حين أنّ الآخرين ليسوا كذلك.

ثم يهدد هؤلاء بأن لا تظنوا أنّ هذه المؤامرات والخطط ستُنسى، بل إنّ رسلنا- أى الملائكة- يكتبون كل هذه المخططات التى تهدف إلى إطفاء نور الحق: «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» ولذلك يجب أن تهيئوا أنفسكم للجواب والعقاب فى الحياة الاخرى

وتغوص الآيـة التاليـة فى أعماق فطرة البشـر، وتوضح لهؤلاء حقيقة التوحيد الفطرى، وكيف أنّ الإنسان عندما تلّم به المشاكل الكبيرة وفى أوقات الخطر، ينسـى كل شـىء إلّااللّه تبارك وتعالى ويتعلق به. تقول الآيـة: «هُوَ الَّذِى يُسَيّرُكُمْ فِى الْبَرّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ». فى هـذا الحال

بالضبط تذكروا اللّه ودعوه بكل إخلاص وبدون أية شائبة من الشرك، و «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ». فيرفعون أيديهم فى هذا الوقت للدعاء:

«لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». فلا نظلم احداً ولانشرك بعبادتك غيرك.

ورغم أنّ هذه اليقظة مؤقتة، وليس لها أثر تربوى فى الأفراد الملوّثين جدّاً، أنّها تقيم الحجّة عليهم، وستكون دليلًا على محكوميتهم.

أمّا الذين تلوثوا بالمعاصى قليلًا، فإنّهم سيتنبهون فى هذه الحوادث ويصلحون مسارهم.

ولكن ما أن أنجاهم اللّه وأوصلهم إلى شاطىء النجاة بدؤوا بالظلّم والجور: «فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ». لكن يجب أن تعلموا- أيّها الناس- إنّ نتيجة ظلمكم ستصيبكم أنتم «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم». وآخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلًا فى هذه الدنيا: «مَّتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ملاحظتان

١- لقد ذكرت «الرحمة» فى الآيات أعلاه مقابل «الضراء» ولم تذكر السراء، وهى إشارة إلى أنّ أى حسن ونعمة تصل إلى الإنسان فهى من اللّه سبحانه ورحمته اللامتناهية، فى حين أنّ السوء والنقمات إذا لم تكن للعبرة، فإنّها من آثار أعمال الإنسان نفسه.

٢- إنّ جملة «أُحِيطَ بِهِمْ» تعنى أنّ هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٣٨

جانب، إلّاأنّها هنا كناية عن الهلاك والفناء الحتمى لهؤلاء.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢۴) وَ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢۵) لوحة الحياة الدنيا: مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عدم استقرار ودوام الحياة الدنيا، ففى الآية الاولى من الآيات التى نبحثها تفصيل لهذه الحقيقة ضمن مثال لطيف وجميل لرفع حجب الغرور والغفلة من أمام نواظر الغافلين والطغاة «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنهُ مِنَ السَّمَاءِ».

إنّ قطرات المطر هذه تسقط على الأراضى التى لها قابلية الحياة. وبهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التى يستفيد من بعضها الإنسان، ومن بعضها الآخر الحيوانات «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعمُ».

إنّ هذه النباتات علاوة على أنّها تحتوى على الخواص الغذائية المهمة للكائنات الحيّة الاخرى، فإنّها تغطى سطح الأرض وتضفى عليها طابعاً من الجمال «حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ». فى هذه الأثناء حيث تتفتح الجنابذ وتورق أعالى الأشجار وتعطى ذلك المنظر الزاهى وتبتسم الأزهار وتتلألأ الأعشاب تحت أشعة الشمس، وتتمايل الأغصان طرباً مع النسيم، وتُظهر حبات الغذاء والأثمار أنفسها شيئاً فشيئاً وتجسم جانباً دائب الحركة من الحياة بكلّ معنى الكلمة، وتملأ القلوب بالأمل، والعيون بالسرور والفرح، بحيث «وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا». فى هذه الحال وبصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمّر، ونجعلها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً «أَتهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ».

إنّ جملة «لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ» تعنى أنّها لم تكن بالأمس هنا، وهذا كناية عن فناء الشىء بالكلية بصورة كأنّه لم يكن له وجود مطلقاً.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٣٩

وللتأكيد تقول الآية فى النهاية: «كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

إنّ الآية التالية أشارت بجملة قصيرة إلى الحياة المقابلة لهذه الحياة، وقالت: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلمِ».

فلا خبر هناك عن مطاحنات واعتداءات المتكالبين على الحياة المادية، ولا حرب ولا إراقة دماء ولا استعمار ولا استثمار.

ثم تضيف الآية: إنّ اللّه سبحانه يهدى من يشاء- إذا كان لائقاً لهذه الهداية- إلى صراطه المستقيم، ذلك الصراط التى ينتهى إلى دار

السلام ومركز الأمن والأمان «وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم».

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۶) وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۷) بيض الوجوه وسود الوجوه: مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عالم الآخرة ويوم القيامة، ولهذه المناسبة فإنّ هذه الآيات تبيّن مصير الصالحين وعاقبة المذنبين فتقول فى البداية: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ». والمقصود من الزيادة فى هذه الجملة، هو الثواب المضاعف الكثير، الذى يتضاعف أحياناً عشر مرات، واخرى آلاف المرات حسب نسبة الإخلاص والطهارة والتقوى وقيمة العمل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ». «يرهق»: مأخوذة من مادة «رهق» وهى بمعنى التغطية القهرية والجبرية، و «القتر»: بمعنى «الغبار» والدخان.

وفى النهاية تقول: «أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». التعبير بالأصحاب إشارة إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة ومحيط الجنة.

ثم يأتى الحديث فى الآية التالية عن أصحاب النار الذين يشكلون الطرف المقابل للمجموعة الاولى، فتقول: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا». وهنا لا يوجد كلام عن الزيادة، لأنّ الزيادة فى الثواب فضل ورحمة، أمّا فى العقاب فإنّ العدالة توجب أن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۰

مختصر الامثل ج۲ ۳۷۹

يكون بقدر الذنب ولا يزيد ذرة واحدة. إلّاأنّ هؤلاء عكس الفريق الأوّل مسودة وجوههم «وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ». وهذه هى خاصية وأثر العمل الذى ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج.

فقد يظن المسيئون أنّهم سوف يكون لهم طريق للهرب أو النجاة، أو أنّ الأصنام وأمثالها تستطيع أن تشفع لهم، إلّاأنّ الجملة التالية تقول بصراحة: «مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

إنّ وجوه هؤلاء مظلمة ومسودة إلى الحد الذى «كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (۲۹) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰) مشهد من قيامة عبدة الأوثان: تتابع هذه الآيات أيضاً البحوث السابقة حول المبدأ والمعاد ووضع المشركين، فتقول أوّلًا: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ».

ثم تضيف: أنّنا سوف نعزل هاتين الفئتين- أى العابدون والمعبودون- عن بعضهم البعض، ونسأل كلًا منهما على انفراد، تماماً كما هو المتداول فى كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأى دليل جعلتم هذه الأصنام شريكة للّهوعبدتموها؟ ونسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ «فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ».

فى هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعتهم أوهام هؤلاء: «وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ» فأنتم كنتم تعبدون أهواءكم وميولكم وأوهامكم.

ثمّ، ومن أجل التأكيد الأشد، يقولون: «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ».

والمراد من الأصنام والشركاء فى هذه الآية أنّها تشمل كل المعبودات، غاية ما فى الأمر أنّ المعبودات التى لها عقل وشعور تعيد الحقائق وتذكرها بلسانها، أمّا المعبودات التى لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۱

عقل لها ولا شعور فإنّ الكلام عن لسان حالها، وتتحدث عن طريق انعكاس آثار العمل.

ففى ذلك اليوم وذلك المكان وذلك الحال- كما يتحدث القرآن فى آخر آية من آيات البحث- فإنّ كل إنسان سيختبر كل أعماله التى عملها سابقاً ويرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء العابـدون والمعبودون المضـلون الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، وسواء المشـركون والمؤمنون من أىّ قوم ومن أىّ قبيل: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ». وفى ذلك اليوم سيرجع الجميع إلى اللّه مولاهم الحقيقى، ومحكمة المحشر تبيّن أن الحكم لايتم إلّا بأمره «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقّ».

وأخيراً فإنّ جميع هذه الأصـنام والمعبودات المختلقة التى جعلها هؤلاء شـريكة للّه كذباً سـتفنى وتمحى: «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فإنّ القيامة ساحة ظهور كل الأسرار الخفية للعباد، ولا تبقى أية حقيقة إلّاوتُظهر نفسها.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۳۱) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۳۳) الحديث فى هذه الآيات عن علامات ودلائل وجود اللّه سبحانه وأهليته للعبادة، وتعقب أبحاث الآيـات السابقـة حول هـذا الموضوع. ففى البدايـة تقول: قـل لهؤلاـء المشـركين وعبـدة الأوثـان الحائرين التائهين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء والأرض؟ «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

«الرزق»: يعنى العطـاء والبـذل المسـتمر، ولما كان الواهب لكل المواهب هو اللّه سـبحانه، فإنّ «الرازق» و «الرزّاق» بمعناهما الحقيقى لا يستعملان إلّافيه فقط، وإذا استعملت هذه الكلمة فى حق غيره فلا شك أنّها من باب المجاز.

والأرض وحدها هى التى تغذى جذور النباتات بواسطة موادها الغذائية، وربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية أوّلًا عن أرزاق السماء، ثم عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۲

ثـم تشير الآيـة إلى حـاستين من أهم حـواس الإنسـان، واللتـان لاـيمكن كسب العلم وتحصـيله بـدونهما، فقـالت: «أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ».

فـإنّ هـذه الآيـة أشـارت إلى النعم الماديـة أوّلًا، ثمّ إلى المواهب والأرزاق المعنويـة التى تصـبح النعم الماديـة بـدونها فاقـدة للهـدف والمحتوى.

ثم تطرقت الآيـة إلى ظاهرتى الموت والحياة اللتين هما أعجب ظواهر عالم الخلقة، فتقول: «وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَىّ».

وهذا هو نفس الموضوع الذى حيّر عقول علماء الطبيعة وعلماء الاحياء، وهو كيف أتى الموجود الحى إلى الوجود من موجود ميت؟ هـذه الآيـة تشـمل الموت والحياة المعنويين إضافـة إلى الموت والحياة الماديين، لأنّنا نرى أناساً عقلاء طاهرين ورعين مؤمنين يولدون أحياناً من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، ويلاحظ أيضاً عكس ذلك.

ثم تضيف الآيةُ: «وَمَن يُدَبّرُ الْأَمْرَ». والكلام فى الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثم عن حافظها وحارسها ومدبرها، وبعد أن يطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة الثلاثة يقول مباشرة بأنّ هؤلاء سيجيبون بسرعة: «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

يستفاد من هذه الجملة جيداً أنّه حتى مشركى وعبدة الأصنام فى الجاهلية كانوا يعلمون أنّ الخالق والرازق والمحيى ومدبر أمور عالم الوجود هو اللّه سبحانه.

وفى آخر الآية يأمر اللّه نبيّه: «فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

وبعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمة وتدبير اللّه فى السماء والأرض، وأيقظت وجدان وعقل المخالفين ودعتهم للحكم فى أمر الخـالق، واعترف هؤلاـء بـذلك، خـاطبتهم الآيـة التاليـة بلهجـة قاطعـة وقـالت: «فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ». لا الأصـنام، ولا سائر

الموجودات التى جعلتموها شريكة للبارى عزّ وجل، والتى تسجدون أمامها وتعظمونها.

ثم تنتهى إلى ذكر النتيجة: «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ». وأنّى تولوا وجوهكم عن عبادة اللّه وأنتم تعلمون ألّا خالق ولا معبود حقّاً سواه؟

إنّ هذه الآية تطرح طريقاً منطقياً واضحاً لمعرفة الباطل وتركه، وهو أن يخطو الإنسان أوّلًا فى سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان والعقل، فإذا عرف الحق فإنّ كل ما خالفه باطل وضلال، ويجب أن يضرب عرض الحائط.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۳

وتقول آخر آية فى بيان العلة فى عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر وظهور الحق:

«كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَايُؤْمِنُونَ». وفى الواقع فإنّ هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة لهؤلاء بحيث تُظلم قلوبهم وتلوث أرواحهم إلى درجة لا يرون معها الحق رغم وضوحه وتجلّيه، ويسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵) وَ مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (۳۶) واحدة من علامات الحق والباطل: تعقب هذه الآيات أيضاً الإستدلالات المرتبطة بالمبدأ والمعاد، وتأمر الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله أن «قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». ثمّ تضيف: «قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». ولماذا تصرفون وجوهكم عن الحق وتتجهون نحو الضلال؟

ثم تأمر الآية الاخرى النبى صلى الله عليه و آله مرّة اخرى: «قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقّ».

لأنّ المعبود يجب أن يكون هادياً ومرشداً لعباده، خاصة وأنّها هداية نحو الحق، فى حين أنّ آلهة المشركين، أعم من الجمادات أو الأحياء، غير قادرة أن تهدى أحداً إلى الحق بدون الهداية الالهية، لأنّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصمة والصيانة من الخطأ والاشتباه، وهذا لايمكن من دون هداية اللّه سبحانه وتسديده، ولذلك فإنّها تضيف مباشرة: «قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقّ». وإذا كان الحال كذلك «أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّايَهْدِى إِلَّا أَن يُهْدَى .

وتقول الآية فى النهاية بلهجة التوبيخ والتقريع والملامة: «فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

وفى آخر آية إشارة إلى المصدر الأساس والعامل الأصل لهذه الانحرافات وهو الأوهام والظنون «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيًا».

وفى النهاية تخاطب الآية- باسلوب التهديد- مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أى منطق سليم وتقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۴

إنّ الآيات أعلاه تبيّن أنّ من برامج اللّه الأصلية لعباده أن يهديهم إلى الحق، ويتمّ ذلك عن طريق منح العقل، وإعطاء الدروس المختلفة عن طريق الفطرة، وإرادة وإظهار آياته فى عالم الخلقة، وكذلك عن طريق إرسال الأنبياء والكتب السماوية.

وَ مَا كَانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۳۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۳۸) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۳۹) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (۴۰) عظمة دعوة القرآن وحقانيته: تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإنّ هؤلاء لم يجانبوا الصواب فى معرفة المبدأ وحسب، بل كانوا يفترون على نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بأنّه هو الذى اختلق القرآن ونسبه إلى اللّه، فالآية الاولى تقول:

«وَمَا كَانَ هذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ».

ثم تتطرق الآيـة إلى ذكر الـدليل على أصالـة القرآن وكونه وحياً سـماوياً: فتقول «وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ». أى إنّ كل البشارات والـدلالات الحقـة التى جاءت فى الكتب السـماوية السابقة تنطبق على القرآن ومن جاء به تماماً، وهذا بنفسه يثبت أنّه ليس افتراءً على اللَّه بل هو حق.

ثم تذكر الآية دليلًا آخر على أصالة هذا الوحى السماوى وهو: إنّ فى هذا القرآن شرح كتب الأنبياء السابقين الأصيلة، وبيان أحكامهم الأساسية وعقائدهم الأصولية، ولهذا فلاشك فى كونه من اللَّه تعالى، فتقول: «وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

وبتعبير آخر: لايوجـد فيه أى تضاد وتناقض مع برامـج وأهـداف الأنبياء السابقين، بل يلاحظ فيه تكامل تلك التعليمات والبرامج، وإذا كان هذا القرآن مختلقاً فلابد أن يخالفها ويناقضها.

وذكر فى الآيـة التاليـة دليل ثالث على أصالـة القرآن، وخاطبت الـذين يدعون أنّ النبى صـلى الله عليه و آله قد افترى هذا القرآن على اللَّه، بأنّكم إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسورة من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۵

مثله، واسـتعينوا فى ذلك بمن شـئتم غير اللَّه، ولكنكم لاتسـتطيعون فعل ذلك أبداً، وبهذا الدليل يثبت أنّ القرآن من وحى السماء «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

إنّ هذه الآيات من جملة الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بصـراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، وقد خاطبت كل العالمين- بدون استثناء- بأنّكم إن كنتم معتقدين بأنّ هذه الآيات ليست من اللَّه فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل.

وفى الآيـة التاليـة إشـارة إلى واحـدة من العلـل الأساسـية لمخالفـة المشـركين، فتقول: إنّ هؤلاء لم ينكروا القرآن بسـبب الإشـكالات والإيرادات، بل إنّ تكذيبهم وإنكارهم إنّما كان بسبب عدم اطلاعهم وعلمهم به: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ».

فى الحقيقـة لم يكن لهؤلاء أىّ دليـل على نفى المبـدأ والمعـاد، وكـان الجهـل والتخلف الناشـىء من الخرافات والتعود على مـذهب الأجداد هو السد الوحيد فى طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهة.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعة.

أو الجهل بالدروس والعبر التى هى الهدف النهائى من ذكر تاريخ الماضين.

إنّ مجموع هـذه الجهالات والضـلالات كانت تحملهم على الإنكار والتكـذيب، فى حين أنّ تأويل وتفسـير وتحقق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم يبيّن بعد «وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ».

«التأويـل»: فى أصل اللغـة بمعنى إرجاع الشـىء وعلى هـذا فإنّ كل عمل أو قول يصل إلى هـدفه النهائى نقول عنه: إنّ تأويله قـد حان وقته.

ثم يضـيف القرآن مبيناً أن هـذا المنهـج الزائف لاينحصـر بمشـركى عصـر الجاهليـة، بـل إنّ الأقوام السابقين كانوا مبتلين أيضاً بهـذه المسألة، فإنّهم كانوا يكذبون الحقائق وينكرونها دون السعى لمعرفة الواقع، أو إنتظار تحققه: «كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

فى حين أنّ العقل والمنطق يحكمان بأنّه لا ينبغى للانسان انكار ما يجهله مطلقاً، بل يبدأ بالبحث والتحقيق.

وفى النهاية وجهت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وقالت: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ». أى إنّ هؤلاء سيلاقون أيضاً نفس المصير.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۶

وأشـارت الآيـة الأـخيرة من آيـات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشـركين، فتقول: إنّ هؤلاء لايبقون جميعاً على هـذا الحال، بل إنّ

جماعة منهم لم تخمد فيهم روح البحث عن الحق وطلبه وسيؤمنون بالقرآن فى النهاية. فى حين أن الفئة الاخرى ستبقى فى عنادها وإصرارها وجهلها، وسوف لا تؤمن أبداً: «وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّايُؤْمِنُ بِهِ».

ومن الواضح أنّ أفراد الفئة الثّانية فاسدون ومفسدون، ولذلك قالت الآية فى النهاية:

«وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ». وهى إشارة إلى أنّ الذين لا- يذعنون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، ولهم دور مهم فى إفساده.

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِى عَمَلِى وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۴۱) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۴) تتابع هذه الآيات البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول إنكار وتكذيب المشركين، وإصرارهم على ذلك، فقد علّمت الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله طريقة جديدة فى المواجهة، فقالت: «وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ».

إنّ لإعلان الترفع وعدم الاهتمام هذا، والمقترن بالاعتماد والإيمان القاطع بالمذهب، أثراً نفسياً خاصاً، وبالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أى إجبار وإصرار على قبولهم الدعوة الإسلامية، بل إنّهم بعدم تسليمهم أمام الحق سيحرمون أنفسهم، ولا يضرون إلّاأنفسهم.

وتشير الآيتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء وعدم إذعانهم للحق، وتبيّن أنّ التعليمات الصحيحة، والآيات المعجزة التى تهزّ الوجدان والدلالات الاخرى الواضحة لا تكفى بمفردها لهداية الإنسان، بل إنّ إستعداد التقبل ولياقة قبول الحق لازمة أيضاً، كما أنّ البذر لوحده ليس كافياً لإنبات النبات والأوراد، بل إنّ الأرض بدورها يجب أن تكون مستعدة. ولهذا قالت الآية: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۷

وهناك فئة ثانية يشخصون بأبصارهم إليك، وينظرون إلى أعمالك المتضمنة أحقيتك وصدق قولك، إلّاأنّهم عمى لايبصرون: «وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَايُبْصِرُونَ».

ولكن إعلم وليعلم هؤلاء أنّ قصور الفكر هذا، وعدم البصيرة والعمى عن رؤية وجه الحق، والصمم عن سماع كلام اللّه ليس شيئاً ذاتياً لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، وإنّ اللّه تعالى قد ظلمهم، بل إنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئة وعدائهم وعصيانهم للحق، وعطلوا بذلك عين بصيرتهم وأذن أفئدتهم عن سماع الحق وإتّباعه، ف «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيًا وَلكِنَّ النَّاسُ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (۴۵) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۴۷) بعد بيان بعض صفات المشركين فى الآيات السابقة، أشير هنا إلى وضعهم المؤلم فى القيامة. تقول الآية: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ».

الاحساس بقلة مقدار الإقامة فى دار الدنيا وقصره، إمّا لأنّه بالنسبة للحياة الاخروية لا يبلغ سوى ساعة واحدة، أو لأنّ هذه الدنيا الفانية انقضت بسرعة بحيث كأنّها لم تكن أكثر من ساعة، أو لأنّهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفادة الصحيحة، فيتصورون أنّها لا تساوى أكثر من قيمة ساعة.

يستفاد من الآيتان (۵۵ و ۵۶) من سورة الروم، أنّ مجموعة من المجرمين يُقسمون فى القيامة أنّ فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلّاأنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، والآن قد قامت القيامة وأنتم لاتعلمون، ونحن نعلم أن البرزخ ليس متساوياً بالنسبة للجميع، وسنذكر تفصيل ذلك فى ذيل الآيات المناسبة.

ثم تضیف الآیة أنّه سیثبت لکل هؤلاء فی ذلک الیوم: «قَدْ خَسِرَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقَاءِ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۸

اللَّهِ». وأنفقوا کل ملکاتهم وطاقاتهم الحیویة دون جدوی «وَمَا کَانُوا مُهْتَدِینَ» بسبب هذا التکذیب والإنکار والإصرار علی الذنب، ولأنّ قلوبهم وأرواحهم کانت مظلمة. وتقول الآیة التالیة تهدیداً للکفّار، وتسلیة لخاطر النبی صلی الله علیه و آله: «وَإِمَّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِیدٌ عَلَی مَا یَفْعَلُونَ».

وتبیّن الآیة الأخیرة من الآیات مورد البحث قانوناً کلیاً فی شأن کل الأنبیاء، ومن جملتهم نبی الخاتم صلی الله علیه و آله، وکل الامم ومن جملتها الامة التی کانت تحیا فی عصر النبی صلی الله علیه و آله فتقول: «وَلِکُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ». فإذا جاء رسولها وبلغ رسالته، وآمن قسم منهم وکفر آخرون، فإنّ اللَّه سبحانه یقضی بینهم بعدله، ولا یظلم ربّک أحداً، فیبقی المؤمنون والصالحون یتمتعون بالحیاة، أمّا الکافرون فمصیرهم الفناء او الهزیمة: «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِیَ بَیْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَایُظْلَمُونَ».

وهذا ما حصل لنبی الخاتم صلی الله علیه و آله وامته المعاصرة له، وبناء علی هذا فإنّ القضاء والحکم الذی ورد فی هذه الآیة هو القضاء التکوینی فی هذه الدنیا.

وَ یَقُولُونَ مَتَی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صَادِقِینَ (۴۸) قُلْ لَا أَمْلِکُ لِنَفْسِی ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِکُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا یَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا یَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ أَتَاکُمْ عَذَابُهُ بَیَاتاً أَوْ نَهَاراً مَا ذَا یَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ کُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِیلَ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا کُنْتُمْ تَکْسِبُونَ (۵۲) العذاب الإلهی واختیارات الرسول: بعد التهدیدات التی ذکرت فی الآیات السابقة المتعلقة بعذاب وعقاب منکری الحق، فإنّ هذه الآیات تنقل أوّلًا استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهی وسخریتهم وانکارهم. فتقول: «وَیَقُولُونَ مَتَی هذَا الْوَعْدُ إِن کُنتُمْ صَادِقِینَ».

فإنّ هؤلاء أرادوا بهذه الکلمات أن یظهروا عدم اهتمامهم بتهدیدات النبی صلی الله علیه و آله.

وفی مقابل هذا السؤال، فإنّ اللَّه سبحانه أمر نبیّه صلی الله علیه و آله أن یجیبهم بعدّة طرق:

فیقول أوّلًا: «قُلْ لَّاأَمْلِکُ لِنَفْسِی ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ». فإنّی لست إلّارسوله ونبیّه، وإنّ تعیین موعد نزول العذاب بیده فقط.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۹

إنّ هذه الجملة إشارة إلی توحید الأفعال حیث یرتبط کل شیء فی هذا العالم باللَّه سبحانه، وکل الحرکات والأفعال معلولة لإرادته ومشیئته، فهو الذی ینصر المؤمنین بحکمته، وهو الذی یجازی المنحرفین بعدالته.

من البدیهی أنّ ذلک لا ینافی أنّ اللَّه قد أعطانا قوی وطاقات نملک بواسطتها جلب النفع ودفع الضرر، ونستطیع أن نختار ما یتعلق بمصیرنا.

ثم یتطرق القرآن إلی جواب آخر ویقول: «لِکُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا یَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا یَسْتَقْدِمُونَ».

إنّ القرآن الکریم یحذر المشرکین الذین کانوا یتعجلون العذاب الإلهی بأن لا یعجلوا، فعندما یحل موعدهم فإنّ هذا العذاب سوف لن یتأخر أو یتقدم لحظة.

وتطرح الآیة الاخری الجواب الثالث، فتقول: «قُلْ أَرَءَیْتُمْ إِنْ أَتکُمْ عَذَابُهُ بَیَاتًا أَوْ نَهَارًا».

فهل تستطیعون أن تدفعوا عن أنفسکم هذا العذاب المفاجیء غیر المرتقب؟ وإذا کان الحال کذلک ف «مَّاذَا یَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ».

وفی الآیة التالیة ورد جواب رابع لهؤلاء، فهی تقول: إذا کنتم تفکرون أن تؤمنوا حین نزول العذاب، وأنّ إیمانکم سیقبل منکم، فإنّ ظنّکم هذا باطل لا صحّة له: «أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ». لأنّ أبواب التوبة ستغلق بوجوهکم بعد نزول العذاب، ولیس للإیمان حینئذ أدنی أثر، بل یقال لکم: «ءَالئَنَ وَقَدْ کُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ».

هـذا بالنسبة لعقـاب هؤلاء الـدنيوى، وفى الآخرة: «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ». فإنّ أعمالكم هى التى أخذت بأطرافكم، وهى التى تتجسد أمامكم وتؤذيكم على الدوام.

وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَ رَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِى وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) لا معنى للشك فى العذاب الإلهى: كان البحث فى الآيات السابقة عن جزاء وعقاب

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٥٠

المجرمين فى هـذه الـدنيا والعـالم الآخر، وتكمـل هـذه الآيـات هـذا البحث أيضـاً. فالآيـة الاولى تقول: إنّ هؤلاء يسألونك بتعجب واستفهام عن حقيقة هذا الوعيد بالعذاب الإلهى فى هذا العالم والعالم الآخر: «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ». ويأمر اللَّه سبحانه نبيّه أن يجيبهم على هذا السؤال بما أوتى من التأكيد: «قُلْ إِى وَرَبّى إِنَّهُ لَحَقٌّ». وإذا ظننتم أنّكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهى فأنتم على خطأ كبير:

«وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ».

وتؤكّد الآية الاخرى على عظمة هذه العقوبة، وخاصة فى القيامة، فتقول: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ».

إنّ هؤلاء مستعدون لأن يـدفعوا أكبر رشوة يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضـة العـذاب الإلهى، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئاً، ولا ينقص من عـذابهم مقدار رأس ابرة، خاصة وأنّ لبعض هذه العقوبات صـبغة معنوية، وهى أنّهم: يرون العذاب والفضـيحة فى مقابل أتباعهم مما يوجب لهم اظهار النـدم مزيـداً من الخزى والعـذاب النفسى فلذلك يحاولون عدم ابراز الندم: «وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ».

ثم تؤكّد الآيـة على أنّه بالرغم من كل ذلك، فإنّ الحكم بين هؤلاء يجرى بالعـدل، ولا يظلم أحـد منهم: «وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

ثم، ومن أجـل أن لا يأخـذ الناس هـذه الوعود والتهديـدات الإلهيـة مأخـذ الهزل، ولكى لايظنوا أنّ اللَّه عاجز عن تنفيـذ هـذه الوعود، تضـيف الآيةَ: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ». لأنّ جهلهم قد حجب بصيرتهم وجعل عليها غشاوة فلم يعوا الحقيقة.

وتؤكّد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرّة اخرى، حيث تقول: «هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ».

وبنـاء على ذلـك فـإنّ له القـدرة على إماتـة العبـاد، كمـا أنّ له القـدرة على إحيـائهم لمحكمـة الآخرة، وفى النهايـة: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» وستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٥١

القرآن رحمـة إلهية كبرى: لقد جاءت فى بعض الآيات السابقة بحوث فى شأن القرآن عكست جوانب من مخالفات المشـركين. وفى هـذه الآيات تجـدد الكلام عن القرآن بهـذه المناسـبة أيضاً، ففى البدايـة تخاطب جميع البشـرية خطاباً عالمياً وشـمولياً وتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مّن رَّبّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

لقد بيّنت هذه الآية أربع صفات للقرآن وتشرح وتبيّن أربع مراحل من مراحل تربية وتكامل الإنسان فى ظل القرآن:

المرحلة الاولى: مرحلة الموعظة والنصيحة.

المرحلة الثانیة: مرحلة تطهیر روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقیة.

المرحلة الثالثه: مرحلة الهدایة التی تجری بعد مرحلة التطهیر.

المرحلة الرابعة: هی المرحلة التی یصل فیها الإنسان إلی أن یکون لائقاً لأن تشمله رحمة اللّه ونعمته.

وتقول الآیة الاخری من أجل تکمیل هذا البحث والتأکید علی هذه النعمة الإلهیة الکبری- أی القرآن المجید-: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِکَ فَلْیَفْرَحُوا» ولا- یفرحوا بمقدار الثروات، وعظم المراکز، وعزة القوم والقبیلة، لأنّ رأس المال الحقیقی والأساس للسعادة الحقیقیة هو هذا القرآن، فهو أفضل من کل ما جمعوه، ولا یمکن قیاسه بذلک المجموع، إذاً «هُوَ خَیْرٌ مِّمَّا یَجْمَعُونَ».

قُلْ أ رَأَیْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَکُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَ حَلَالًا قُلْ آللَّهُ أذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللَّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ مَا ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ یَوْمَ الْقِیَامَهِٔ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَا یَشْکُرُونَ (۶۰) وَ مَا تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا کُنَّا عَلَیْکُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ وَ مَا یَعْزُبُ عَنْ رَبِّکَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّهٍٔ فِی الْأَرْضِ وَ لَا فِی السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذلِکَ وَ لَا أَکْبَرَ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُبِینٍ (۶۱) هو الشاهد فی کل مکان: کان الحدیث فی الآیات السابقة عن القرآن، والموعظة الإلهیة والهدایة والرحمة فی هذا الکتاب السماوی، وتتحدث هذه الآیات عن قوانین المشرکین

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۲

المبتدعة والخرافیة وأحکامهم الکاذبة. الآیة الاولی وجهت الخطاب إلی النبی صلی الله علیه و آله وقالت:

«قُلْ أَرَءَیْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَکُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا». إذ أنّهم طبقاً لسننهم الخرافیة حرموا قسماً من الدواب وکذلک حرّموا جزءاً من محاصیلهم الزراعیة. ثم تقول: «قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَکُمْ أَمْ عَلَی اللَّهِ تَفْتَرُونَ».

الآن وقد أصبح من المسلم أنّ هؤلاء بهذه الأحکام الخرافیة المبتدعة، إضافةً إلی أنّهم حُرموا من النعم الإلهیة، فإنّهم قد افتروا علی الساحة الإلهیة المقدسة، ولذلک تضیف الآیة:

«وَمَا ظَنُّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ یَوْمَ الْقِیمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ» ولذلک فإنّه لسعة رحمته لا یعاقب هؤلاء فوراً علی أعمالهم القبیحة.

إلّا أنّ هؤلاء بدل أن یستغلوا هذه الفرصة الإلهیة ویشکروا اللّه علی ذلک وینیبوا إلیه، فإنّ أکثرهم غافلون: «وَلکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَایَشْکُرُونَ».

وحتی لا یتصور أحد أنّ هذه المهلة الإلهیة دلیل علی عدم إحاطة علم اللّه سبحانه بکل أعمال هؤلاء، فإنّ آخر آیة من آیات البحث تبیّن هذه الحقیقة بأبلغ عبارة وتوضح أنّ اللّه مطّلع علی کل ذرات الموجودات فی خفایا السماء والأرض، ومطّلع علی دقائق أعمال العباد، فتقول: «وَمَا تَکُونُ فِی شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا کُنَّا عَلَیْکُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِیضُونَ فِیهِ».

ثم تعقب الآیة علی مسألة اطلاع اللّه علی کل شیء بتأکید أکبر، فتقول: «وَمَا یَعْزُبُ عَن رَّبِّکَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَلَا فِی السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذلِکَ وَلَا أَکْبَرَ إِلَّا فِی کِتَابٍ مُّبِینٍ».

«یعزب»: مأخوذة من العزوب، وهو فی الأصل بمعنی الإبتعاد عن البیت والأهل فی سبیل إیجاد وتهیئة المراتع للأغنام والحیوانات، ثمّ استعملت بمعنی الغیبة والإختفاء بصورة مطلقة.

و «الذّرة»: بمعنی الجسم الصغیر جدّاً، ولذلک یقال للنمل الصغیر: ذرة، ولمزید التوضیح راجع تفسیر الآیة (۴۰) من سورة النساء.

«الکتاب المبین» إشارة إلی علم اللّه الواسع، والذی یعبر عنه أحیاناً باللوح المحفوظ، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع فی تفسیر الآیة (۵۹) من سورة الأنعام.

لقد بیّنت آخر هذه الآیات درساً کبیراً لکلّ المسلمین ... درس یستطیع أن یسلک بهم طریق الحق ویصرفهم عن الإنحرافات والطرق الملتویة ... درس فیه صلاح المجتمع مع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۳

التوجّه اليه، وهو: إنّنا يجب أن نعى هذه الحقيقة، وهى أنّ كل خطوة نخطوها، وكل كلام نقوله، وكل فكرة تخطر فى أذهاننا، ولأى جهة ننظر، وعلى أىّ حال نكون، فليس اللَّه سبحانه وحده يراقبنا ونحن على هذه الأحوال والأفعال، بل إنّ ملائكته تراقبنا أيضاً، وينظرون إلينا بكل دقّة وانتباه.

فى المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً».

فإذا كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مع كل ذلك الإخلاص والعبودية، ومع كل تلك الخدمة للخلق والعبادة للخالق خائفاً من عمله فى مقابل علم اللَّه، فإنّ حالنا وحال الآخرين معلوم.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۴) وَ لَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۵) طمأنينة الروح فى ظل الإيمان: لمّا شرحت الآيات السابقة بعضاً من حالات المشركين والأفراد غير المؤمنين، بيّنت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون فى الطرف المقابل لُاولئك تماماً، تقول الآية أوّلًا: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

إنّ المقصود من الغموم هى الغموم المادية والأخاويف الدنيوية، وإلّا فإنّ وجود أولياء اللَّه مملوء بالخوف والخشية ... الخوف من عدم أداء الواجبات والمسؤولية.

والأسف والحسرة على أن يكون قد فاتهم شىء من الموفقية، ولهذا الخوف والحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان ورقيّه، بعكس الخوف والحزن الدنيويين فهما أساس الإنحطاط والتسافل.

إنّ أولياء اللَّه هم الذين لا يوجد حاجب وحائل بينهم وبين اللَّه، فقد زالت الحجب عن قلوبهم ويتقلبون فى نور المعرفة والإيمان والعمل الخالص، ويرون اللَّه بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشك أى طريق إلى تلك القلوب الوالهة، وبالنظر لهذه المعرفة باللَّه الأزلى والقدرة اللامحدودة والكمال المطلق، فإنّ كل شىء سوى اللَّه حقير فى نظرهم ولا قيمة له، وفانٍ لا أهمية له.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۴

إنّ الآية الثانية وضحت المقصود من «أولياء اللَّه» فهى تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وتؤكّد الآية الثالثه على مسألة عدم وجود الخوف والغم والوحشة فى شخصية وقلوب أولياء الحق بهذه العبارة: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِى الْأَخِرَةِ».

ثم تضيف من أجل التأكيد أيضاً: «لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ». بل هى ثابتة حقّة، وأنّ اللَّه سبحانه سيفى بما وعد به أولياءه، و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وحولت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله الذى يمثل رأس سلسلة أولياء اللَّه وأحبائه مخاطبةً له بلحن المواساة وتسلية الخاطر: «وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا». ولا يمكن أن يقوم العدو بعمل مقابل إرادة الحق، فإنّه تعالى عالم بكل خططهم ودسائسهم. ف «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۷) جانب من آيات عظمته: تعود الآيات أعلاه مرّة اخرى إلى مسألة التوحيد والشرك والتى تعتبر واحدة من أهم مباحث الإسلام، وبحوث هذه السورة، وتجرّ المشركين إلى المحاكمة وتثبت عجزهم. فتقول أوّلًا: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ». وإذا كان الأشخاص ملكه ومنه، فمن الاولى أن تكون الأشياء الموجودة فى هذا العالم ملكه ومنه، وبناءً على هذه فإنّه مالك كل عالم الوجود.

ثمّ تضيف الآية: «وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ». إذ لا دليل ولا برهان لهم على كلامهم «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

وأساساً، فإنّ إتباع الظن والحدس الذى لا يستند إلى أساس ثابت يجرّ الإنسان فى النهاية إلى وادى الكذب عادة.

ثمّ ومن أجل إكمال هذا البحث، وتبيّن طرق معرفة اللَّه، والإبتعاد عن الشرك وعبادة

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٥٥

الأوثان، أشارت الآيـة الثانيـة إلى جانب من المواهب الإلهيـة التى أودعت فى نظام الخلقـة والدالـة على عظمـة وقـدرة وحكمة اللَّه عزّ وجل، فقالت: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».

نعم «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ». اولئك الذين يسمعون ويدركون، وبعد إدراك الحقيقة يتبعونها ويسيرون على نهجها.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهذَا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) تستمر هـذه الآيات- أيضاً- فى بحثها مع المشـركين، وتـذكر واحدة من أكاذيب واتهامات هؤلاء لساحة اللَّه المقدسة، فتقول أوّلًا: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا».

إنّ هـذا الكلام قاله المسيحيون فى حق المسيح عليه السلام ثمّ عبدة الأوثان فى عصـر الجاهلية فى حق الملائكة، حيث كانوا يظنون أنّها بنات اللَّه، وقاله اليهود فى شأن عزير. ويجيبهم القرآن بطريقين:

الأوّل: إنّ اللَّه سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص، وهو مستغن عن كل شىء: «سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِىُّ». وهذا إشارة إلى أنّ الحاجة إلى الولد، إمّا للحاجـة الجسـمية إلى قوته ومساعـدته، أو للحاجة الروحية والعاطفية، ولما كان اللَّه سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص وحاجة، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولداً.

«لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». ومع هذا الحال فأى معنى لأن يتخذ لنفسه ولداً ليطمئنه ويهدئه، أو يعينه ويساعده.

والجواب الثانى الـذى يـذكره القرآن لهؤلاء هو: إنّ من يـدعى شـيئاً يجب عليه أن يقيم دليلًا على مدعاه: «إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطنٍ بِهذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

وتعيـد الآيـة التاليـة عاقبة الإفتراء على اللَّه المشؤومة، فتوجه الخطاب إلى النبى صـلى الله عليه و آله وتقول: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٥٦

وعلى فرض أنّ هؤلاء يستطيعون بافتراءاتهم وأكاذيبهم أن ينالوا المال والمقام لعدّة أيام، فإنّ ذلك «مَتعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ». إنّ التعبير ب «نـذيقهم» يشـير إلى أنّ هـذا العـذاب الذى سـينال هؤلاء بدرجة من الشدّة بحيث كأنّهم يذوقونه بألسنتهم وأفواههم، وهذا التعبير أبلغ جداً من المشاهدة، بل وحتى من لمس العذاب.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَ تَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) جانب من جهاد نوح: الآيات أعلاه بدايـة لبيان قسم من تأريـخ الأنبياء، فيأمر اللَّه نبيّه أن يتابع حديثه السابق مع المشـركين بشـرح تاريـخ الماضـين ليكون عبرة لهم. فى البداية تطرقت إلى قصة نوح، فقالت: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بَايتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ». ولهذا فإنّى لا أخاف غيره.

ثم تضـيف: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ». أى ادعوا أصـنامكم أيضـاً لتعينكم فى المشورة، حتى لا- يبقى شـىء خافياً على أحـد ولا يتعرض منكم إلى الهم والغم أحد «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً». بل اتّخذوا قراركم فى شأنى بكل وضوح.

ثم يقول: «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ».

وإذا علمنا أنّ هذه الآیات نزلت فی مکة فی الوقت الذی کان یعیش فیه النبی صلی الله علیه و آله ظروفاً تشبه ظروف نوح، وکان المؤمنون قلّة، سیتّضح أنّ القرآن یرید أن یعطی للنبی- أیضاً- نفس هذا الدرس بأن لا یهتم بقدرة العدو، بل یسیر ویتقدم بکلّ حزم وجرأة وشجاعة، لأنّ اللَّه یسنده وینصره.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۷

وهذا درس کبیر لکل القادة الإسلامیین بأن لا یخافوا ولا ینهاروا أمام عظمة الأعداء وکثرتهم، بل إنّهم باتکالهم علی اللَّه کانوا یدعون هؤلاء إلی المیدان بکل حزم واقتدار ویستصغرون قوتهم، فکان هذا عاملًا مهماً فی تقویة معنویات الأتباع والمؤیدین، وتدمیر معنویات العدو وانهیارها.

وذکرت الآیة التالیة بیاناً آخر عن نوح من أجل إثبات أحقیّته، هناک حیث تقول:

«فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ»، فإنّی أعمل له، ولا أرید الأجر إلّا منه «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

إنّ مقولة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهیین بأن لا یتوقعوا أی جزاء مادی ومعنوی من الناس لقاء دعوتهم وتبلیغهم، لأنّ هذا التوقع یوجد نوعاً من التعلق النفسی الذی یؤدّی إلی عرقلة أسالیب الدعوة الصریحة والنشاطات الحرة.

وتبیّن الآیة الأخیرة عاقبة ومصیر أعداء نوح، وصدق توقعه وقوله السابق بهذه الصورة: «فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ». ولم ننقذهم وحسب، بل «وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايتِنَا».

وفی النهایة توجه الخطاب إلی النبی صلی الله علیه و آله وتقول: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ».

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (۷۴)

الرسل بعد نوح: بعد انتهاء البحث الإجمالی حول قصّة نوح، أشارت هذه الآیة إلی الأنبیاء الآخرین الذین جاؤوا بعد نوح وقبل موسی علیهما السلام لهدایة الناس کإبراهیم وهود وصالح ولوط ویوسف علیهم السلام فقالت: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ».

فقد کانوا مسلّحین کنوح بسلاح المنطق والإعجاز والبرامج البناءة، إلّاأنّ الذین سلکوا طریق العناد وکذّبوا الأنبیاء السابقین، کذّبوا هؤلاء الأنبیاء أیضاً ولم یؤمنوا بهم «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ». وکان ذلک نتیجة للعصیان والتمرّد وعداء الحق الذی أوصد تلک القلوب «كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۸

جانب من جهاد موسی وهارون: لقد جری ذکر قصص الأنبیاء والامم السابقة کنماذج حیّة، وبدأ الحدیث أوّلًا عن نوح علیه السلام ثمّ عن الأنبیاء بعد نوح، ووصل الدور فی هذه الآیات إلی موسی وهارون علیهما السلام ومواجهاتهم المستمرة مع فرعون وأتباعه، فتقول الآیة الاولی:

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ بَايَاتِنَا».

إلّا أنّ فرعون وأتباعه امتنعوا عن قبول دعوة موسی، وعن التسلیم فی مقابل الحق:

«فَاسْتَكْبَرُوا». ونظراً للتکبر والاستعلاء وعدم امتلاکهم لروح التواضع فإنّهم لم یلتفتوا إلی الحقائق الواضحة فی دعوة موسی، وأصرّوا واستمروا فی إجرامهم: «وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

وتتحدث الآیة التالیة عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسی وأخیه هارون، وأوّل تلک المراحل هی مرحلة الإنکار والتکذیب والإفتراء واتهامهما بسوء النیة، وابطال سنن الأجداد، والإخلال بالنظام الاجتماعی، کما یقول القرآن: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ».

إلّا أنّ موسی علیه السلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار وأوضح کذب هؤلاء وأبطل تهمتهم، ففی البدایة: «قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ

لِلْحَقّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذَا».

صحيح أنّ لكل من السحر والمعجزة نفوذاً وتأثيراً، وأنّ من الممكن أن يؤثر الحق والباطل على ادراكات الناس ونفسياتهم، إلّاأنّ السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماماً عن المعجزة التى هى حق، إذاً لايمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء ونفوذ السحرة، فإنّ أعمال السحرة تفتقد إلى الهدفية ومحدودة ولا قيمة لها، ومعجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية وتغييرية وتربوية واضحة، وتعرض بشكل واسع وغير محدود.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۹

إضافة إلى أنّه: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ». وهذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر.

إنّ السحرة لا يرون وجه الفلاح مطلقاً، ولا يعملون إلّامن أجل المال والثروة والمنصب والمنافع الشخصية، فى حين أنّ هدف الأنبياء هداية خلق اللّه وإصلاح المجتمع الإنسانى من جميع جوانبه المادية والمعنوية.

ثمّ يستمر فرعون وملئه فى رمى موسى عليه السلام بسيل الإتهامات الصريحة، حيث «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

الواقع، أنّهم قدموا صنم «سنة الآباء» وعظمتهم الخيالية والأسطورية حتى يوجهوا الرأى العام ضد موسى وهارون، بأنّهما يريدان أن يعبثا بمقدّسات مجتمعكم وبلادكم.

ثمّ استمروا فى هذا التشويه، وقالوا بأنّ دعوتكم إلى دين اللّه ما هى إلّاكذب محض، وكل هذه مصائد وخطط خيانية بهدف التسلط على الناس: «وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ».

إنّ هؤلاء لما كانوا يسعون دائماً من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أنّ الآخرين مثلهم، وهكذا كانوا يفسرون مساعى المصلحين والأنبياء.

«وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» لأنّا على علم بنواياكم وخططكم الهدامة.

وكانت هذه هى المرحلة الاولى من المواجهة السلبية مع موسى.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (۷۹) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۸۰) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (۸۱) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸۲) المرحلة الثّانية: فعندما لاحظ فرعون قسماً من معجزات موسى، كاليد البيضاء والحية العظيمة، ورأى أنّ ادّعاء موسى ليس واهياً بدون دليل وبرهان، وأنّ هذا الدليل سيؤثر فى جميع أنصاره أو الآخرين قليلًا أو كثيراً، فكّر بجواب عملى كما يقول القرآن: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلّ سحرٍ عَلِيمٍ».

«فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ». فإنّ هؤلاء قد عبؤوا كل ما يملكون من قدرة، وألقوا كل ما أتوا به معهم فى وسط الحلبة: «فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۰

بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ». فأنتم أفراد فاسدون ومفسدون لأنّكم تخدمون حكومة جبارة وظالمة وتعملون على تقوية دعائم هذه الحكومة الغاشمة الدكتاتورية وهذا بنفسه أقوى دليل على كونكم مفسدين، و «إِنَّ اللَّهَ لَايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ».

وفى الآية الأخيرة، إنّ موسى قال لهؤلاء: إنّ النصر والغلب لنا فى هذه المبارزة حتماً، لأنّ اللّه سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، ومعجزات أنبيائه القاهرة، ويفضح ويخزى المفسدين وأهل الباطل وإن كره المجرمون ذلك: «وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (۸۳) وَ قَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (۸۴) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۸۵) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (۸۶) المرحلة الثالثه: عكست هذه الآيات مرحلة اخرى من المواجهة الثورية بين موسى وفرعون،

ففی البدایة تبیّن وضع المؤمنین فتقول: «فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَی إِلَّا ذُرِّیَّةٌ مِّن قَوْمِهِ».

إنّ هـذه المجموعة الصـغیرة القلیلة، والتی کان الشـباب والأشـبال یشـکّلون أکثریتها بمقتضـی ظاهر کلمة ذریّة، کانت تواجه ضـغوطا شدیـدة من فرعون وأتباعه إلی درجة أنّهم خافوا أن یصل بهم الأمر إلی ترک دین موسـی نتیجة هذه الضـغوط الشدیدة: «عَلَی خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِیهِمْ أن یَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِی الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِینَ».

فقـد حـدّث موسـی هؤلاء بلسان المحبّـة والمودة من أجل تهدئة خواطرهم وتسـکین قلوبهم: «وَقَالَ مُوسَـی یَا قَوْمِ إِن کُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُوا إِن کُنتُم مُّسْلِمِینَ».

إنّ حقیقـة التوکل هی إلقاء العمل والتصـرف فی الامور علی کاهل الوکیل، ولیس معنی التوکل أن یترک الإنسان الجد والسـعی، بل معناه أن یبذل قصاری جهده، فإذا لم یسـتطع أن یحل المشـکلة فلا یدع للخوف طریقاً إلی نفسه، بل یصـمد أمامها بالتوکل والإعتماد علی لطف اللّه والاستعانة بذاته المقدسة وقدرته اللامتناهیة، ویستمر فی جهاده المتواصل.

إنّ هؤلاء المؤمنین المخلصین أجابوا دعوة موسی بالتوکل: «فَقَالُوا عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنَا». ثمّ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۱

رجوا من اللّه سـبحانه أن ینجیهم من شـر الأعداء ووساوسهم وضغوطهم ویؤمّنهم: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ». «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِکَ مِنَ الْقَوْمِ الْکَافِرِینَ».

وَ أَوْحَیْنَا إِلَی مُوسَـی وَ أَخِیهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِکُمَا بِمِصْـرَ بُیُوتاً وَ اجْعَلُوا بُیُوتَکُمْ قِبْلَةً وَ أَقِیمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ (۸۷) وَ قَالَ مُوسَی رَبَّنَا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَةً وَ أَمْوَالًا فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا رَبَّنَا لِیُضِـلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَی أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَی قُلُوبِهِمْ فَلَا یُؤْمِنُوا حَتَّی یَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِیمَ (۸۸) قَالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُمَا فَاسْتَقِیمَا وَ لَا تَتَّبِعَانِّ سَبِیلَ الَّذِینَ لَا یَعْلَمُونَ (۸۹) المرحلة الرابعة: مرحلة البناء من أجل الثورة: شـرحت هـذه الآیات مرحلة اخری من نهضة وثورة بنی إسـرائیل ضد الفراعنة. فتقول أوّلًا: «وَأَوْحَیْنَا إِلَی مُوسَـی وَأَخِیهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِکُمَا بِمِصْـرَ بُیُوتًا وَاجْعَلُوا بُیُوتَکُمْ قِبلَةً». فالأمر الإلهی یقرر اختیار البیوت لبنی اسـرائیل بمصـر وأن تکون هذه البیوت متقاربة ومتقابلة.

ثم تطرقت إلی مسألـة تربیـة النفس معنویاً وروحیاً، فقالت: «وَأَقِیمُوا الصَّلَوةَ». ومن أجل أن تطرد آثار الخوف والرعب من قلوب هؤلاء وتعید وتزید من قدرتهم المعنویة والثوریة قالت: «وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِینَ».

یسـتفاد من مجموع هـذه الآیـة أنّ بنی إسـرائیل کانوا فی تلک الفترة بصورة جماعة متشـتتة مهزومة ومتطفلة وملوّثة وخائفة، فلا مأوی لهم ولا اجتماع مرکزی.

لـذلک فإنّ موسـی وأخاه هارون قـد تلقوا مهمـة وضع برنامج فی عدّة نقاط من أجل تطهیر مجتمع بنی إسـرائیل، وخاصه فی الجانب الروحی:

۱- الإهتمام أوّلًا بمسألة بناء المساکن، وعزل مساکنهم عن الفراعنة.

۲- أن یبنوا بیوتهم متقاربة ویقابل بعضها الآخر.

۳- التوجه إلی العبادة، وخاصه الصلاة التی تحرر الإنسان من عبودیة العباد.

الملفت للنظر أنّ بنی إسـرائیل من أولاد یعقوب، وجماعة منهم من أولاد یوسف طبعاً، وقد حکم هو واخوته مصر سنین طویلة، وسعوا فی عمران هذا الوطن، إلّاأنّه نتیجة لترکهم طاعة اللّه والغفلة والخلافات الداخلیة وصلوا إلی مثل هذا الوضع المأساوی.

وَ جَاوَزْنَـا بِبَنِی إِسْـرَائِیلَ الْبَحْرَ فَـأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْیـاً وَ عَـدْواً حَـتَّی إِذَا أَدْرَکَهُ الْغَرَقُ قَـالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَـا إِلَهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِیلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَـیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۹۱) فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَةً وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آیَاتِنَا لَغَافِلُونَ (۹۲) وَ لَقَـدْ بَوَّأْنَا بَنِی إِسْـرَائِیلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّیِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّی جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

إِنَّ رَبَّکَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۹۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۲

ثم أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون وأزلامه، فتقول على لسان موسى: «وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّکَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِکَ».

إنّ اللام فى «ليضلوا» لام العاقبة، أى إنّ جماعة الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شاؤوا أم أبوا، وسوف لا تكون عاقبة أمرهم شيئاً غير هذا، لأنّ دعوة الأنبياء والأطروحات الإلهية توقظ الناس وتوحدّهم وبذلك لا يبقى مجال لتسلط الظالمين وكيد المعتدين وستضيق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بدّاً من معارضة الانبياء. ثم يطلب موسى عليه السلام من اللَّه طلباً فيقول: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ».

«الطمس»: فى اللغة بمعنى المحو وسلب خواص الشيء، واللطيف فى الأمر أنّ ماورد فى بعض الروايات من أنّ أموال الفراعنة قد أصبحت خزفاً وحجراً بعد هذه اللعنة، ربّما كان كناية عن أنّ التدهور الاقتصادى قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمة ثرواتهم تماماً وأصبحت كالخزف لا قيمة لها!

ثم اضافت: «وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ». أى: أسلبهم قدرة التفكير والتدبر أيضاً لأنّهم بفقدانهم هاتين الدعامتين (المال والفكر) سيكونون على حافة الزوال والفناء، وسينفتح أمامنا طريق الثورة، وتوجيه الضربه النهائية لهؤلاء.

اللّهم إن كنت قد طلبت ذلك منك فى حق الفراعنة فليس ذلك نابعاً من روح الإنتقام والحقد بل لأنّ هؤلاء قد فقدوا أرضية الإيمان أبداً: «فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

ثم خاطب اللَّه سبحانه وتعالى موسى وأخاه بأنّه: الآن وقد أصبحتما مستعدين لتربية وبناء قوم بنى إسرائيل «قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا» فى سبيل اللَّه ولا تخافا سيل المشاكل، وكونا حازمين فى أعمالكما ولا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرّا فى برنامجكما الثورى «وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۳

الفصل الأخير من المجابهة مع الظالمين: هذه الآيات جسّدت آخر مرحلة من المواجهة بين بنى إسرائيل والفراعنة وبيّنت مصير هؤلاء فى عبارات قصيرة، فتقول أوّلًا:

إنّنا جاوزنا ببنى إسرائيل البحر- وهو نهر النيل العظيم أطلق عليه اسم البحر لعظمته- أثناء مواجهتهم للفراعنة، وعندما كانوا تحت ضغط ومطاردة هؤلاء: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ». إلّاأنّ فرعون وجنوده طاردوا هؤلاء من أجل القضاء على بنى إسرائيل:

«فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا». «البغى»: يعنى الظلم، «والعدو»: بمعنى التعدى، أى إنّ هؤلاء إنّما طاردوهم وتعقبوهم لغرض الظلم والتعدى عليهم، أى على بنى إسرائيل.

جملة «فأتبعهم» توحى بأنّ فرعون وجنوده قد تتبعوا بنى إسرائيل طوعاً.

فإنّ هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الغرق، وأصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج وتلهو به، فعنذاك زالت حجب الغرور والجهل من أمام عينه، وسطع نور التوحيد الفطرى وصدع بالإيمان: «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا الَّذِى ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَاءِيلَ». فلست مؤمناً بقلبى فقط، بل إنّى من المسلمين عملياً: «وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

ولمّا تحققت تنبؤات موسى عليه السلام الواحدة تلو الاخرى وأدرك فرعون صدق هذا النبى الكبير أكثر فأكثر وشاهد قدرته وقوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه ربّ بنى إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة ولذلك يقول: آمنت أنّه لا إله إلّاالذى آمنت به بنو إسرائيل!

إلّا أنّ من البديهى أنّ مثل هذا الإيمان الذى يتجلّى عند نزول البلاء ونشوب أظفار الموت، إيمان اضطرارى يتشبث به كل جان

ومجرم ومذنب وليست له أيّة قيمة، أو يكون دليلًا على حسن نيّته أو صدق قوله، ولهذا فإنّ اللَّه سبحانه خاطبه فقال: «ءَالنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

لكن «فَالْيَوْمَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً». آية للحكام المستكبرين ولكلّ الظالمين والمفسدين، وآية للفئات المستضعفة. والمراد من البدن هنا، جسد فرعون الذى فارقته الروح، لأنّ عظمة فرعون فى أفكار الناس فى ذلك المحيط بلغت حدّاً بحيث إنّ الكثير لولا- ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، وكان من الممكن أن تنسج الأساطير والخرافات الكاذبة حول نجاة وحياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى اللَّه سبحانه جسده خارج الماء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٤

ويقول فى نهاية الآية: إنّه وبالرغم من كل هذه الآيات والدلالات على قدرة اللَّه، ومع كل الدروس والعبر التى ملأت تاريخ البشر فإنّ الكثير معرضون عنها «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ». وتبيّن آخر آية من هذه الآيات النصر النهائى لبنى إسرائيل، والرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ».

إنّ التعبير ب «مُبَوَّأَ صِدْقٍ» يمكن أن يكون إشارة إلى أرض مصر، أم أراضى الشام وفلسطين.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ». إلّاأنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ». وبعد مشاهدة كل تلك المعجزات التى جاء بها موسى، وأدلة صدق دعوته، إلّا «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». وإذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غداً.

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩۴) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩۵) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩۶) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) لا- تدع للشك طريقاً إلى نفسك: لمّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضى الأنبياء والامم السابقة، وكان من الممكن أن يشكك بعض المشركين ومنكرى دعوة النبى صلى الله عليه و آله فى صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد والعلم بصحة هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك، لأنّ كثيراً من هذه المسائل قد ورد فى كتب هؤلاء. إلّاأنّه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النبى صلى الله عليه و آله فقال: «فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ». ليثبت عن هذا الطريق بأنّه: «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

ثم تضيف الآية التالية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» من بعد ما اتّضحت لك آيات اللَّه وصدق هذه الدعوة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٥

إنّ الآية السابقة تقول بأنّك إن كنت فى شك فاسأل اولئك المطلعين العالمين، وتقول هذه الآية بأنّك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، وإلّا فإنّ مخالفة الحق لا عاقبة لها إلّاالخسران.

ثم أنّها تخبر النبى صلى الله عليه و آله بأنّ من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنّهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، وتوغّلوا فى طريق الباطل إلى الحدّ الذى فقدوا معه الضمير الإنسانى الحى تماماً، وتحولوا إلى موجودات لايمكن اختراقها، غاية ما فى الأمر أنّ القرآن الكريم يبيّن هذا الموضوع بهذا التعبير: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ».

وحتى إذا جاءتهم كل الآيات والدلالات فإنّهم لا يؤمنون: «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» ولا أثر لإيمانهم فى ذلك الوقت.

فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) الامّة التى آمنت فى الوقت المناسب: تحدثت الآيات السابقة عن فرعون خاصة، والأقوام السابقة بصورة عامّة، وهى أنّ هؤلاء امتنعوا

من الإيمان باللّه في وقت الإختيار والسلامة، إلّاأنّهم لما أشرفوا على الموت والعذاب الإلهى أظهروا الإيمان الذى لم يكن نافعاً لهم آنذاك. وتطرح الآية التى نبحثها هذه المسألة كقانون عام، فتقول: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا». ثمّ استثنت قوم يونس فقالت: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ». أى إلى آخر عمرهم.

قصة إيمان قوم يونس: كانت قصّة هؤلاء على ما جاء فى التواريخ، أنّه عندما يئس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى فى العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، فى حين أنّ عالماً كان معهم أيضاً اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، وأن يستمر فى إرشاده أكثر من قبل ولا ييأس.

يونس عليه السلام اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاغتنم هؤلاء الفرصة وعملوا بنصيحة العالم وخرجوا معه خارج المدينة للتضرع والدعاء، وأظهروا الإيمان والتوبة.

إنّ هذه التوبة والإيمان والرجوع إلى اللّه، الذى تمّ فى الوقت المناسب وعن وعى مقترن

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٦

بالإخلاص قد أثر أثره، وارتفعت علامات العذاب وعادت المياه إلى مجاريها، ولمّا رجع يونس إلى قومه بعد احداث ووقائع كثيرة وقعت له قبلوه بأرواحهم وقلوبهم. ثم إنّ القصة أعلاه تبيّن بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعى الرشيد الحريص فى القوم أو الامّة، فى حين أن العابد الذى لا يمتلك الوعى الكافى يعتمد على الخشونة أكثر، وهكذا يفهم من هذه الرواية منطق الإسلام فى المقارنة بين العبادة الجاهلة، والعلم الممتزج بالاحساس بالمسؤولية.

وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) لا خير فى الإيمان الإجبارى: لقد طالعنا فى الآيات السابقة أنّ الإيمان الاضطرارى لا يجدى نفعاً أبداً، ولهذا فإنّ الآية الاولى من هذه الآيات تقول: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَ مَن فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا». وبناء على هذا فلا يعتصر قلبك ألماً لعدم إيمان جماعة من هؤلاء، فإنّ من مستلزمات أصل حرية الإرادة والاختيار أن يؤمن جماعة ويكفر آخرون، وإذا كان الأمر كذلك «أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ».

إنّ هذه الآية تنفى بصراحة مرّة اخرى التهمة الباطلة التى قالها ويقولها أعداء الإسلام بصورة مكررة، حيث يقولون: إنّ الإسلام دين السيف، وقد فرض بالقوة والإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآية- ككثير من آيات القرآن الاخرى- بأنّ الإيمان الإجبارى لا قيمة له، والدين والإيمان شيء ينبع عادة من أعماق الروح، لا من الخارج وبواسطة السيف، خاصه وأنّها حذرت النبى صلى الله عليه و آله من إكراه وإجبار الناس على الإيمان والإسلام.

الآية التالية قد ذكرت هذه الحقيقة أيضاً، وهى أنّ البشر وإن كانوا أحراراً فى اختيارهم، إلّا أنّه «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» ولهذا فإنّ هؤلاء قد ساروا فى طريق الجهل وعدم التعقل، ولم يكونوا مستعدين للاستفادة من رأس مال فكرهم وعقلهم، وسوف لا يوفقون للإيمان وهم على هذا الحال، إذ «وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٧

قُلِ انْظُرُوا مَا ذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) الموعظة والنصيحة: كان الكلام فى الآيات السابقة عن أنّ الإيمان يجب أن يكون اختيارياً لا بالجبر والاكراه، ولهذا فإن الآية الاولى هنا ترشد الناس إلى الإيمان الاختيارى، وتخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

إنّ هذه الجملة تنفى بوضوح مسألة الجبر وسلب حرية الإرادة، فهى تقول: إنّ الإيمان هو نتيجة التدبر فى عالم الخلقة، أى إنّ هذا الأمر فى اختياركم.

ثم تضيف أنّه رغم كل هذه الآيات والعلامات الدالة على الحق، فلا داعى للعجب من عدم إيمان البعض، لأنّ الآيات والدلالات والإنذارات تنفع الذين لهم الإستعداد لتقبل الحق، أمّا هؤلاء فإنّه «وَمَا تُغْنِى الْأَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَايُؤْمِنُونَ» «۱».

ثم تقول- بنبرة التهديد المتلبسة بلباس السؤال والإستفهام-: هل ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون إلّاأن يروا مصيراً كمصير الأقوام الطغاة والمتمردين السابقين الذين عمهم العقاب الإلهى، مصير كمصير الفراعنة والنماردة وشدّاد وأعوانهم وأنصارهم؟! «فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ».

وتحذرهم الآية أخيراً فتقول: يا أيّها النبى «قُلْ فَانتَظِرُوا إِنّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ».

فأنتم بانتظار هزيمة دعوة الحق، ونحن بانتظار المصير المشؤوم الذى ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

ومن أجل أن لايتوهم متوهم أنّ اللّه سبحانه يصيب بعذابه الصالح والطالح، تضيف الآية: إنّنا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب على الأمم السابقة، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحين: «ثُمَّ نُنَجّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا».

---

(۱) «نذر»: جمع نذير، أى المنذر، وهو كنايه عن الأنبياء والقادة الإلهيين أو هى جمع إنذار، بمعنى تحذير وتهديد الغافلين والمجرمين الذى هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۸

ثم تقول فى النهاية: إنّ هذا ليس مختصاً بالامم السالفة والرسل والمؤمنين الماضين، بل «كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ».

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۵) وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۶) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۰۷) الحزم فى التعامل مع المشركين: هذه الآيات والآيات التى تليها، هى آخر آيات هذه السورة، وتتحدث جميعاً حول مسألة التوحيد ومحاربة الشرك والدعوة إلى الحق، وهى فهرست أو خلاصة لبحوث التوحيد وتأكيد على محاربة ومجابهة عبادة الأصنام التى بيّنت مراراً فى هذه السورة.

إنّ سياق الآية يوحى بأنّ المشركين كانوا يتوهمون أحياناً أن من الممكن أن يلين النبى ويتسامح فى عقيدته فى شأن الأصنام ويعترف ويقرّ لهم عبادة الأصنام ولو جزئياً إلى جانب الإعتقاد باللّه بنحو من الانحاء. إلّاأنّ القرآن ينسف هذا التوهم الواهى بصورة قاطعة وحاسمة ويقطع عليهم احلامهم هذه إلى الأبد، فلا معنى لأىنوع من المساومة واللين فى مقابل الأصنام، ولا معبود إلّااللّه، لاتزيد كلمة ولا تنقص اخرى. ففى البداية يأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يخاطب جميع الناس: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكّ مِّن دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ» ولا تكتفى الآية بنفى آلهة اولئك، بل تثبت كل العبادة للّهسبحانه زيادة فى التأكيد فتقول: «وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفكُمْ». ومن أجل تأكيد أكبر تضيف: أنّ هذه ليست إرادتى فقط، بل «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وبعد أن بيّنت الآية العقيدة الحقة فى نفى الشرك وعبادة الأوثان بكل صراحة وقوة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة، ودليل من العقل:

«وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفًا» وهنا أيضاً لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفى الطرف

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۹

المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

«الحنيف»: تعنى الشخص الذى يميل ويتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب والاستقامة.

وبعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطرى، تشير إلى دليل عقلى واضح، فتقول:

«وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنْفَعُکَ وَلَا يَضُرُّکَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّکَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ». إذ تکون قد ظلمت نفسک ومجتمعک الذی تعیش فیه.

وهنا أیضاً لم تکتف الآیة بجانب النفی، بل إنّها تؤکّد إضافةً إلی النفی علی جانب الإثبات فتقول: «وَإِن يَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرّ فَلَا کَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ»، وکذلک «وَإِن يُرِدْکَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ» لأنّ عفوه ورحمته وسعت کل شیء «وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَکُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْکُمْ بِوَکِيلٍ (۱۰۸) وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْکَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْکُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاکِمِينَ (۱۰۹) الکلمة الأخیرة: هاتین الآیتین تضمّنت إحداهما موعظة ونصیحة لعامة الناس، واختصت الثانیة بالنبی صلی الله علیه و آله وقد کملتا الأوامر والتعلیمات التی بیّنها اللَّه سبحانه علی مدی هذه السورة ومواضعها المختلفة. وبذلک تنتهی سورة یونس. فتقول أوّلًا، وکقانون عام:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَکُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّکُمْ». هذه التعلیمات وهذا الکتاب السماوی، وهذا الدین وهذا النبی کلها حق، والأدلّة علی کونها حقّاً واضحة، وبملاحظة هذه الحقیقة: «فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْکُم بِوَکِيلٍ». أی إنّی لست مأموراً بإجبارکم علی قبول الحق، لأنّ الإجبار علی قبول الإیمان لا معنی له، ولا أستطیع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا أن أدفع عنکم العذاب الإلهی، بل إنّ واجبی ومسؤولیتی هی الدعوة والإبلاغ والإرشاد والهدایة والقیادة.

ثم تبیّن وظیفة وواجب النبی صلی الله علیه و آله فی جملتین: الاولی «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْکَ». فإنّ اللَّه قد حدّد مسیرک من خلال الوحی، ولا یجوز لک أن تنحرف عنه قید أنملة.

والثانیة: إنّه ستعترضک فی هذا الطریق مشاکل مضنیة ومصاعب جمة، فلا تدع للخوف

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۰

من سیل المشاکل إلی نفسک طریقاً، بل «وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْکُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاکِمِينَ».

فإنّ أمره حق، وحکمه عدل، ووعده متحقق لا محالة.

«نهایة تفسیر سورة یونس»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۱

۱۱. سورة هود

محتوی السورة: إنّ هذه السورة بأکملها نزلت بمکة ... وطبقاً لما ورد فی «تاریخ القرآن» أنّها السورة التاسعة والأربعون فی ترتیب السور النازلة علی المرسل صلی الله علیه و آله.

ونزلت فی السنوات الأخیرة التی قضاها النبی صلی الله علیه و آله بمکة، أی بعد وفاة عمّه أبی طالب علیه السلام وزوجته خدیجة علیها السلام ... وبطبیعة الحال فإنّ هذه السورة جاءت فی فترة من أشد الفترات صعوبة فی حیاة النبی صلی الله علیه و آله ولذلک یلاحظ فی بدایة السورة تعابیر فیها جانب من التسلیة للنبی صلی الله علیه و آله وللمؤمنین.

ویُشکل القسم المهم والعمدة من آیات هذه السورة قصص الأنبیاء الماضین وخاصة قصة نوح النبی علیه السلام الذی انتصر بالفئة القلیلة التی معه علی الأعداء الکثیرین.

إنّ سرد هذه القصص فیه تسلیة لخاطر النبی صلی الله علیه و آله والمؤمنین معه وهم أمام الکم الهائل من الأعداء، کما أنّ فیه درساً لمخالفیهم من الاعداء.

إنّ آیات هذه السورة- کسائر السور المکیة- تتناول أصول المعارف الإسلامیة ولا سیما المواجهة مع الشرک وعبادة الأصنام، ومسألة

المعاد والعالم بعد الموت، وصدق دعوة النبی.

فی هـذه السورة- إضافة إلی قصّة نوح النبی- إشارة إلی قصـص الأنبیاء هود وصالح وإبراهیم ولوط وموسـی علیهم السـلام ومواقفهم الشجاعة بوجه الشرک والکفر والانحراف والظلم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۲

شیبتنی سورة هود: إنّ آیـات هـذه السورة تقرر أن علی المسـلمین أن لا یترکوا السوح والمیادین- فی الحرب والسـلم- لکثرة الأعـداء ومواجهاتهم الحادة، بل علیهم أن یواصلوا مسیرتهم ویستقیموا أکثر فأکثر ویوماً بعد یوم.

وعلی هذا فإنّنا نقرأ فی الدرّ المنثور عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «شیّبتنی هود وأخواتها».

إنّ هـذه السورة فیها آیات مؤثرة اخری تتعلق بیوم القیامـة والمحاسبـة فی محکمة العدل الإلهی، وآیات تتعلق بما ناله الأقوام السابقون من جزاء، ومـا جـاء مع بعضـها من أوامر فی الوقوف بوجه الفسـاد بحیث یحمـل جمیعهـا طـابع المسؤولیـة ... فلا عجب إذاً أن یشیـب الإنسان عندما یفکر فی مثل هذه المسؤولیات ...

مسألـة دقیقـة اخری ینبغی الإلتفات إلیها فی هـذا المجال، وهی أنّ کثیراً من هـذه الآیات تؤکّـد ما ورد فی السورة السابقـة- أی سورة یونس.

التـأثیر المعنوی لهـذه السورة: فی تفسیر البرهـان عن النبی صـلی الله علیه و آله أنّه قال: «من قرأ هـذه السورة اعطی من الأجر والثواب بعدد من صدّق هوداً والأنبیاء علیهم السلام ومن کذّب بهم وکان یوم القیامة فی درجة الشهداء وحوسب حساباً یسیراً».

ومن الوضوح بمکـان أنّ مجرد التلاوة لا یعطی هـذا الأثر، وإنّما یکون هـذا الأثر إذا کانت تلاوة هـذه السورة مقرونـة بالتفکر والعمل بعدها. وهذا هو الذی یقرّب الإنسان إلی المؤمنین السالفین ویبعده عن الذین أنکروا علی الأنبیاء وجحدوا دعواتهم.

الر کِتَابٌ أُحْکِمَتْ آیَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ (۱) أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ (۲) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُمَتِّعْکُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَی أَجَلٍ مُسَمًّی وَ یُؤْتِ کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّی أَخَافُ عَلَیْکُمْ عَذَابَ یَوْمٍ کَبِیرٍ (۳) إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ وَ هُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴) الاـصول الأربعـة فی دعوة الأنبیـاء: تبـدأ هـذه السورة ببیان أهمیـة الکتاب العزیز المنزل من السـماء، لیلتفت الناس إلی محتویاته أکثر ویتفکروا فیه بنظرة أدق. وذکر الحروف المقطعـة «الر»- نفسه- دلیل علی أهمیة هذا الکتاب السماوی العزیز الذی یتشکل من حروف

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۳

بسیطة معروفـة للجمیع مثـل الألـف واللام والراء مع ما فیه من عظمـة وإعجاز بالغین، ثم یبیّن بعـد هـذه الحروف المقطعـة واحـدة من خصائص القرآن الکریم فی جملتین.

أوّلًا: إنّ جمیع آیاته متقنـة ومحکمة «کِتَابٌ أُحْکِمَتْ ءَایَاتُهُ». و ثانیاً: إنّ تفصـیل حاجات الإنسان فی حیاته الفردیة والاجتماعیة- مادیة کانت أو معنویة- مبیّن فیها أیضاً «ثُمَّ فُصّلَتْ».

هـذا الکتـاب العظیم مع هـذه الخصـیصة، من أین انزل، وکیـف؟! انزل من عنـد ربّ حکیم وخـبیر «مِن لَّدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ». فبمقتضـی حکمته احکمت آیات القرآن، وبمقتضی أنّه خبیر مطلع بیّن آیات القرآن فی مجالات مختلفة طبقاً لحاجات الإنسان.

إنّ کـل واحـدة من صـفات القرآن التی جـاءت فی هـذه الآیـة تسترفـد من واحـدة من صـفات اللَّه ... فاسـتحکام القرآن من حکمته، وشرحه وتفصیله من خبرته.

إنّ القرآن مجموعـة واحـدة مترابطـة کالبنیـان المرصوص الثـابت، کما تـدل علی أنّه نازل من إله فرد، ولهـذا فلا یوجـد أی تضاد فی آیاته، ولا یُری بینها أی اختلاف.

وفی الآیة التالیة یبیّن أهم مایحتویه القرآن وما هو أساسه وهو التوحید والوقوف بوجه الشرک «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ».

والثانى من محتويات الدعوة السماوية: «إِنَّنِى لَكَم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ». نذير لكم من الظلم والفساد والشرك والكفر، واحذركم من عنادكم وعقاب اللّه لكم!

وثالث ما فى منهج دعوتى إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم وتطهروا أنفسكم من الأدران: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ».

ورابعها هو أن تعودوا إلى اللّه بالتوبة، وأن تتصفوا- بعد غسل الذنوب والتطهر فى ظل الاستغفار- بصفات اللّه، فإنّ العودة إليه تعالى لا تعنى إلّاالإقتباس من صفاته «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ».

ثم تبيّن الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو التالى «يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى». فاذا عملنا بهذه الاصول فإنّ اللّه سبحانه يهبنا حياة سعيدة إلى نهاية العمر، وفوق كل ذلك فإنّ كُلًا يُعطى بمقدار عمله ولا يهمل التفاوت والتفاضل بين الناس فى كيفية العمل بهذه الأصول ... «وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ». وأمّا فى صورة المخالفة والعناد فتقول الآية: «وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ». حين تمثلون للوقوف فى محكمة العدل الإلهى.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۴

واعلموا أنّ «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ» كائنا من كنتم، وفى أى محل ومقام أنتم، وهذه الجملة تشير إلى الأصل الخامس من الأصول التفصيلية للقرآن وهى مسألة «المعاد والبعث» ولكن لا تتصوروا أنّه لا يستطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعد الموت ويكسوها ثوباً جديداً من الحياة ... «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۵) هذه الآية تشير- على العموم- إلى أحد الأساليب الحمقاء التى كان يتبعها أعداء الإسلام والنبى صلى الله عليه و آله وذلك بالاستفادة من طريقة النفاق والإبتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم وماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعوا قول الحق. لذلك فإنّ الآية تقول: «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ».

«يثنون»: مشيرة إلى كل عمل خفى- ظاهرى وباطنىّ- قام به أعداء النبى صلى الله عليه و آله. لذلك فإنّ القرآن يعقّب مباشرة: أن أحذروهم، فإنّهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإنّ اللّه يعلم ما يخفون وما يعلنون ... «أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (۶) جميع الأحياء ضيوف مأدبته: الآية السابقة أشارت إلى سعة علم اللّه وإحاطته بالسر وما يخفون وما يعلنون، والآية محل البحث تُعدّ دليلًا على تلك الآية المتقدمة، فإنّها تتحدث عن الرازق لجميع الموجودات ولايمكن يتمّ ذلك إلّابالإحاطة الكاملة بجميع العالم وما فيه.

تقول الآية «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا».

ويعلم تقلّبها وتنقلها من مكان لآخر، وحيثما كانت فإنّ الرزق يصل إليها منه.

وهذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة فى كتاب مبين ولوح محفوظ فى علم اللّه «كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۵

ملاحظات

۱- بالرغم من أنّ كلمة «دابّة» مشتقة من مادة «دبيب» التى تعنى السير ببطء وبخطى قصيرة، ولكنها من الناحية اللغوية تشمل كل حيوان يتحرك فى سيره ببطء أو بسرعة.

۲- «الرزق»: هو العطاء المستمر، ومن هنا كان عطاء اللّه المستمر للموجودات رزقاً.

۳- «المستقر»: تعنى المقر، لأنّ جذر هذه الكلمة فى اللغة مأخوذ من «قرّ» على وزن «حرّ» وتعنى كلمة القرّ البرد الشديد الذى يجعل الإنسان والموجودات الاخرى يركنون إلى بيوتهم، ومن هنا جاءت بمعنى التوقف والسكون أيضاً.

و «المستودع» و «الوديعة»: من مادة واحدة، وهاتان الكلمتان في الأصل تعنيان «اطلاق الشيء وتركه».

۴- «الكتاب المبين»: معناه المكتوب الواضح البيّن، ويشير إلى علم اللَّه الواسع، وقد يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ أيضاً.

تقسيم الأرزاق والسعي من أجل الحياة: طريقة إيصال الرزق من اللَّه تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومحيرة حقّاً. من الجنين الذي يعيش في بطن امّه ولا يعلم أحد من أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفة التي تعيش في طيّات الأرض، وفي الأشجار وعلى قمم الجبال أو في أعماق البحر، وفي الأصداف ... جميع هذه الموجودات يتكفل اللَّه برزقها ولا تخفى على علمه، وكما يقول القرآن: «عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا».

الطريف في الآيات آنفة الذكر أنّها تعّبر عن الموجودات التي تطلب الرزق ب «الدابّة» وفيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و «الحركة». ونعلم أنّه حيثما تكن حركة فلابد لها من طاقة، أي ما يكون منشأً للحركة.

وفي جواب السؤال هل أنّ رزق كل أحد مقدر ومعين من أوّل عمره إلى آخره، وهل أنّه يصل إليه شاء أم أبى

نقول: إنّ رزق كل أحد مقدّر وثابت، إلّاأنّه مشروط بالسعي والجد، وإذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط.

المسألة المهمّة في هذا المجال أنّ الآيات والرّوايات المتعلقة بتقدير الرزق- في الواقع- بمثابة الكابح للاشخاص الحريصين وعبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب، ويرتكبون أنواع الظلم والجنايات، ويتصورون أنّهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمّنوا حياتهم!

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۶

إنّ آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألّا يمدّوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، بل يكفي أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، واللَّه سبحانه يضمن لهم الرزق. وبالطبع أنّ بعض الأرزاق مثل نور الشمس والمطر والعقل والفكر والاستعداد تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع.

ولكن هذه المواهب إذا لم نحافظ عليها بالجد والسعي بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنّها ستبقى بلا أثر!

إنّ النقطة الأساسية هنا أنّ جميع التعاليم الإسلامية تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحي الحياة المادية والمعنوية، وأنّ الفرار من العمل- بزعم أنّ الرزق مقسوم وأنّه آت لا محالة- غير صحيح ...

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) الهدف من الخلق: في هذه الآية بُحثت ثلاث نقاط أساسية:

المطلب الأوّل: يبحث عن خلق عالم الوجود- وخصوصاً بداية الخلق- الذي يدل على قدرة اللَّه وعظمته سبحانه «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ».

إنّ المقصود من كلمة «اليوم» هو الزمان، سواء كان قصيراً أو مديداً جدّاً بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلًا، وقد نبّهنا على هذا المعنى في ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف بشرح واف في هذا المجال، فلا حاجة للتكرار والإعادة.

ثم يضيف سبحانه أنّ عرشه كان على الماء «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

«العرش»: في الأصل يعني السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرّة العالية كأسرّة الملوك والسلاطين الماضين، ويطلق أيضاً على خشب بعض الأشجار، وغير ذلك.

ولكن هذه الكلمة استعملت بمعنى القدرة أيضاً ويقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدرة كما يقال «ثُلّ عرش فلان» كنايةً عن ذهاب قدرته. كما ينبغي الإلتفات إلى هذه الدقيقة، وهي أنّ العرش يطلق أحياناً على عالم الوجود، لأنّ عرش قدرة اللَّه يستوعب جميع هذا العالم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۷

إنّه في بداية الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغاية، بحيث كانت على صورة مواد ذائبة أو مائعة».

وبعدئذ حدثت اهتزازات شديدة وانفجارات عظيمة فى هذه المواد المتراكمة الذائبة، وأخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، وأخذ هذا الوجود المترابط بالإنفصال، ثم تشكلت بعد ذلك الكواكب السيارة والمنظومات الشمسية والأجرام السماوية.

فعلى هذا نقول: إنّ عالم الوجود ومرتكزات قدرة اللّه كانت مستقرة بادىء الأمر على المواد المتراكمة الذائبة.

والمطلب الثانى: الـذى تشير إليه الآيـة آنفـة الذكر هو الهدف من خلق الكون، والقسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الـذى يمثل ذروة الخلائق ... هذا الإنسان الذى كتب عليه أن يسير فى طريق التعليم والتربية ويشقّ طريق التكامل نحو اللّه تعالى. يقول اللّه سبحانه: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا». أى ليختبركم ويمتحنكم أيّكم الأفضل والأحسن عملًا بهذه الدار الدنيا.

«ليبلوكم»: كلمة مشتقة من مادة «البلاء» و «الإبتلاء» ومعناها الاختبار والامتحان.

والمطلب الثالث: الذى تشير إليه الآية آنفة الذكر- هو مسألة المعاد الذى لا ينفصل ولا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، وفيها بيان الهدف من الخلق وهو تكامل الإنسان وتكامل الإنسان يعنى التهيؤ إلى الحياة فى عالم أوسع وأكمل، ولذلك يقول سبحانه: «وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

وكلمـة «هـذا» التى وردت- فى الآيـة آنفة الذكر- على لسان الكفار، إشارة إلى كلام النبى صلى الله عليه و آله فى شأن المعاد ... أى إنّ ما تـدّعيه أيها النبى فى شأن المعاد سحر مكشوف وواضح، فعلى هـذا تكون كلمـة السـحر هنا بمعنى الكلام العارى عن الحقيقة، والقول الذى لا أساس له.

وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٧٨

استيعـاب المؤمنين وعـدم استيعـاب غيرهم: فى هـذه الآيـات- وبمناسبـة البحث السابق عن غير المؤمنين- بيان لزوايا الحالات النفسـية ونقاط الضعف فى أخلاق هؤلاء الأفراد والتى تجر الإنسان إلى هاوية الظلام والفساد.

وأوّل صـفة تـذكر لهؤلاـء هى السـخرية من الحقـائق وعـدم الإكتراث بها وبالمسائل المصـيرية، فهؤلاء بسـبب جهلهم وعـدم معرفتهم وغرورهم حين يسـمعون تهديـد الانبياء فى مؤاخـذة المسـيئين ومعاقبتهم، ثم تمرّ عليهم عـدة أيام يؤخر اللّه تعالى بلطفه فيها العـذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاء مبطّن: ما السبب فى تأخر العذاب الإلهى، وأين عقاب اللّه:

«وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ».

فهذه عادة الجاهلين والمغترين، فكلما وجدوا شيئاً لا ينسجم مع ميولهم وطباعهم عدّوه سخرية.

لكن القرآن يحـذرهم وينـذرهم بصـراحة فى ردّه على كلاـمهم، ويـبيّن لهم أن لاـ دافع لعـذاب اللّه إذا جاءهم «أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» وأنّ الذين يسخرون منه واقع بهم ومدمّرهم «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ومن نقاط الضـعف عنـد هؤلاء قلـة الصبر بوجه المشاكل والصـعاب وانحسار البركات الإلهيـة. حيث نجـد فى الآيـة التاليـة قوله تعالى عنهم: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَوسٌ كَفُورٌ».

والمراد من «الإنسان» فى مثل هذه الآيات هو الأفراد الذين لم يتلقوا تربية سليمة والمنحرفون عن جادة الحق.

ونقطة الضـعف الثالثه عند هؤلاء أنّهم حين يتنعمون بنعمة ويشـعرون بالترف والرفاه يبلغ بهم الفرح والتكبر والغرور درجة ينسون معها كل شـىء، ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: «وَلَئِنْ أَذَقْنهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيَاتِ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ». ثمّ يسـتثنى اللّه سـبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد والمصاعب بصبر، ولا يتركون الأعمال الصالحة على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور والتكبر وضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء لا يَغترّون عند وفور النعمة فينسون اللَّه، ولا ييأسون عند الشدائد والمصائب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۹

فيكفرون باللَّه، بل إنّ أرواحهم الكبيرة وافكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النعم والبلايا فى أنفسهم دون الغفلة عن ذكر اللَّه وأداء مسؤولياتهم ولذلك فإنّ لهؤلاء ثواباً ومغفرة من اللَّه «أُولئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

الامة المعدودة وأصحاب المهدى عليه السلام: فى روايات عديدة وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الامة المعدودة تعنى النفر القليل، وفيها إشارة إلى أصحاب المهدى عليه السلام وأنصاره.

ولكن أنّ ظاهر الآية من الامة المعدودة هو الزمان المعدود والمعين، وقد وردت رواية عن الإمام على عليه السلام فى تفسير الامة المعدودة تشير إلى ما بيناه، وهو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الروايات الآنفة تشير إلى المعنى الثانى من الآية، وهو ما اصطلح عليه ب «بطن الآية».

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحى إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۳) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۴)

سبب النّزول

وردت فى شأن نزول الآيات المتقدمة روايتان، ويحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعاً. الاولى: فى تفسير مجمع البيان روى عن ابن عباس: إنّ رؤساء مكة من قريش، أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! إن كنت رسولًا فحوّل لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة. فأنزل اللَّه تعالى «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» الآية. والثانية: روى العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «إنّى سألت ربّى أن يوالى بينى وبينك ففعل، وسألت ربّى أن يؤاخى بينى وبينك ففعل، وسألت ربّى أن يجعلك وصيى ففعل». فقال رجلان من قريش: واللَّه لصاع من تمر فى شنّ بال أحبّ إلينا مما سأل محمّد ربّه، فهلا سأله مُلكاً يعضده على عدوه، أو كنزاً يستعين به على فاقته. فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۰

مختصر الامثل ج۲ ۴۱۹

التّفسير

القرآن المعجزة الخالدة: يبدو من هذه الآيات أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يوكل إبلاغ الآيات- نظراً للجاجة الأعداء ومخالفتهم- لآخر فرصة، لذا فإنّ اللَّه سبحانه ينهى نبيّه فى أوّل آية نبحثها عن ذلك بقوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ». لئلا يطلبوا منك معاجز مقترحة كنزول كنز من السماء، أو مجىء الملائكة لتصديقه «أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ».

إنّ هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النبى ويتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة والعناد والتحجج الواهى، فلذلك تأتى الآية معقبة: «إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ». سواءً قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، وسخروا منك أم لم يسخروا، فاللَّه هو الحافظ والناظر على كل شىء «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». أى لا تكترث بكفرهم وإيمانهم فإنّ ذلك لا يعنيك، وإنّما وظيفتك أن تبلغهم، واللَّه سبحانه هو الذى يعرف كيف يحاسبهم، وكيف يعاملهم.

وبما أنّ الذين يتذرعون بالحجج ويشكلون على النبى كانوا أساساً منكرين لوحى اللَّه، ويقولون: إنّ هذه الآية ليست نازلة من قبل اللَّه، وإنّ هذا الكلام افتراه محمّد- وحاشاه من ذلك- على اللَّه كذباً، لذلك تأتى الآية التالية لتبيّن بصراحة تامة: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

فقل لهم يا رسول اللَّه- إن كانوا صادقين فى دعواهم أنّ ما تقوله ليس من اللَّه وأنّه من صنع الإنسان- فليأتوا بعشر سور مثل هذا

الكلام مفتريات، وليدعوا- سوى اللَّه- ما شاؤوا «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».
أمّا إذا لم يستجيبوا لدعوتك ولا للمسلمين، ولم يلبوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتريات كسور القرآن، فاعلموا أنّ ذلك الضعف وعدم القدرة دليل على أنّ هذه الآيات نزلت من خزانة علم اللَّه، ولو كانت من صنع بشر، فهم بشر أيضاً ... فلماذا لا يقدرون على ذلك: «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ». واعلموا أيضاً أنّه لا معبود سوى اللَّه، ونزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقة «وَأَن لَّاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». فهل يسلم المخالفون مع هذه الحالة «فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ». أى بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، وظهر عجزكم وعدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك فى أنّ هذه الآيات منزلة من قبل اللَّه، ومع هذه المعجزة البينة ما زلتم منكرين، أم أنّكم تسلمون وتقرّون حقاً؟

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۱

إنّ الآيات- المذكورة- تؤكّد إعجاز القرآن مرّة اخرى وتقول: ليس هذا كلاماً عادياً، بل هو وحى السماء الذى ينزل بعلم اللَّه اللامحدود وقدرته الواسعة، وعلى هذا فإنّه يتحدى جميع البشر أن يواجهوه بمثله.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (۱۵) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۶) الآيات أعلاه أكملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين والمنكرين، ولكن جماعة منهم امتنعوا عن القبول- لحفظ منافعهم الشخصية- بالرغم من وضوح الحق، فالآيات هذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: «مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا» من رزق مادى وشهرة وتلذذ بالنعم «نُوَفِّ إِلَيْهِمْ» نتيجة «أَعْمَالَهُمْ فِيهَا» فى هذه الدنيا «وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ». أى لا ينقص من حقهم شيء فى الدنيا.

«البخس»: فى اللغة نقصان الحق، وجملة «وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ» إشارة إلى أنّهم سينالون نتيجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم.
هذه الآية سنة إلهية دائمة، وهى أنّ الأعمال «الإيجابية» والمؤثرة لاتضيع نتائجها، مع فارق وهو أنّه إذا كان الهدف الأصلى منها هو الوصول إلى الحياة المادية فى هذه الدنيا فإنّ ثمراتها فى الدنيا فحسب، وأمّا إذا كان الهدف هو «اللَّه» وكسب رضاه فإنّ تأثيرها ونتائجها ستكون فى الدنيا وفى الآخرة أيضاً حيث تكون النتائج كثيرة الثمار.
وهذا من قبيل مانراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربى فتح أسراراً كثيرة من العلم بسعيه المتواصل والمنسّق، وأصبح متسلطاً على قوى الطبيعة وحصل على مواهب كثيرة لتصديه الدائب لمشاكل الحياة الدنيوية بصبر واستقامة وجد، فلا كلام فى نيل العالم الغربى جزاء أعماله وتحقيقه انتصارات مشرقة، ولكن لأنّ هدفه الحياة المادية فحسب، فإنّ أعماله لا تثمر غير توفر الإمكانات المادية.
فلذلك يقول سبحانه عنهم فى الآية التالية: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» ليزول كل أثر اخروى لما عملوا فى هذه الدنيا ولا ينالون عليه أى ثواب «وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا» وكل ما كان لغير اللَّه فسيزول أثره «وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۲

فى الدرّ المنثور- فى تفسير هذه الآيات- عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إذا كان يوم القيامة صارت امتى ثلاث فرق: فرقة يعبدون اللَّه خالصاً، وفرقة يعبدون اللَّه رياءً، وفرقة يعبدون اللَّه يصيبون به دنيا. فيقول للذى كان يعبد اللَّه للدنيا: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا. فيقول:
لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، انطلقوا به إلى النار.
ويقول للذى يعبد اللَّه رياءً: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء. فيقول: إنّما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لا يصعد إلىّ منها شيء ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النار.
ويقول للذى كان يعبد اللَّه خالصاً: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: بعزّتك وجلالك لأنت أعلم به منّى، كنت أعبدك

لوجهك ولدارك، قال: صدق عبدى، انطلقوا به إلى الجنهٔ».

أ فَمَنْ كانَ عَلَى بَیِّنَهٍٔ مِنْ رَبِّهِ وَ یَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ کِتابُ مُوسی إِماماً وَ رَحْمَهًٔ أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَکُ فِی مِرْیَهٍٔ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ (١٧) هناک أقوال کثیرهٔ- فى تفسیر الآیهٔ أعلاه- ولکن تفسیر منها أشد وضوحاً. فى بدایهٔ الآیهٔ یقول الحق سبحانه: «أَفَمَن کَانَ عَلَی بَیِّنَهٍٔ مِّن رَّبِّهِ وَیَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ». أى من اللّه تعالى: «وَمِن قَبْلِهِ کِتَابُ مُوسَی إِمَامًا وَرَحْمَهًٔ». أى التوراهٔ التى تؤیّد صدقه وعظمته، مثل هذا الشخص هل یستوى ومن لا یتمتع بهذه الخصال والدلائل البینهٔ؟

هذا الشخص هو النبى صلى الله علیه و آله ودلیله الواضح هو القرآن المجید، والشاهد المصدق بنبوته کل مؤمن حق أمثال على علیه السلام ومن قَبلُ وردت صفاته وعلائمه فى التوراهٔ، فعلى هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثهٔ حقهٔ واضحهٔ.

الأوّل: القرآن الکریم الذى هو بیّنهٔ ودلیل واضح فى یده.

الثانى: الکتب السماویهٔ التى سبقت نبوّته وأشارت إلى صفاته بدقّهٔ، وأتباع هذه الکتب السماویهٔ فى عصر النبى کانوا یعرفونه حقّاً، ولهذا السبب کانوا ینتظرونه.

والثالث: أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحّون الذین کانوا یبیّنون دعوته ویتحدثون عنه.

ومع وجود هذه الدلائل الحیّهٔ، هل یمکن أن یقاس مع غیره من المدّعین، أم هل ینبغى التردد فى صدق دعوته؟!

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۳

ثم یشیر بعد هذا الکلام إلى طلاب الحقّ والباحثین عن الحقیقهٔ، یدعوهم إلى الإیمان دعوهٔ ضمنیهٔ فیقول: «أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ». أى النبى الذى لدیه هذه الدلائل الواضحهٔ.

ثم یعقب بعد ذلک ببیان عاقبهٔ المنکرین ومصیرهم بقوله تعالى: «وَمَن یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

وفى ختام الآیهٔ- کما هى الحال فى کثیر من آیات القرآن- یوجه الخطاب إلى النبى صلى الله علیه و آله ویبیّن درساً عاماً لجمیع الناس، ویقول: بعد هذا کله من وجود الشاهد والبیّنهٔ والمصدق بدعوتک، فلا تتردد فى الطریق ذاته «فَلَا تَکُ فِی مِرْیَهٍٔ مِّنْهُ». لأنّه من قبل اللّه سبحانه «إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّکَ». ولکن کثیراً من الناس ونتیجهً لجهلهم وأنانیتهم لا یؤمنون «وَلکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَایُؤْمِنُونَ».

وعلى هذا فالآیهٔ تشیر إلى امتیازات الإسلام والمسلمین الصادقین واستنادهم إلى الدلائل المحکمهٔ فى اختیار مذهبهم هذا ... وفى قبال ذلک تذکر ما یصیر إلیه المنکرون والمستکبرون من مآل مشؤوم أیضاً ...

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أُولئِکَ یُعْرَضُونَ عَلی رَبِّهِمْ وَ یَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِینَ کَذَبُوا عَلی رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَهُٔ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ (١٨) الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِٔ هُمْ کافِرُونَ (١٩) أُولئِکَ لَمْ یَکُونُوا مُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ وَ ما کانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِیاءَ یُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما کانُوا یَسْتَطِیعُونَ السَّمْعَ وَ ما کانُوا یُبْصِرُونَ (٢٠) أُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَهِٔ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) أخسر الناس أعمالًا: بعد الآیهٔ المتقدمهٔ التى کانت تتحدث عن القرآن ورسالهٔ النبى محمّد صلى الله علیه و آله تأتى آیات اخر تشرح عاقبهٔ المنکرین وعلاماتهم ومآل أعمالهم. ففى أوّل آیهٔ من هذه الآیات یقول سبحانه: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَی عَلَی اللَّهِ کَذِبًا». ویعنى أنّ تکذیب دعوهٔ النبى الصادق فى الواقع هو تکذیب لکلام اللّه وافتراء علیه بالکذب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۴

ثم یبیّن ما ینتظرهم من مستقبل مشؤوم یوم القیامهٔ حین یُعرضون على محکمهٔ العدل الإلهى «أُولئِکَ یُعْرَضُونَ عَلَی رَبِّهِمْ». حینئذ یشهد «الأشهاد» على أعمالهم وأنّ هؤلاء هم الذین کذبوا على اللّه العظیم الرحیم وولى النعمهٔ .... «وَیَقُولُ الْأَشْهَادُ هؤُلَاءِ الَّذِینَ کَذَبُوا عَلَی رَبِّهِمْ» ثم ینادون بصوت عال «أَلَا لَعْنَهُٔ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ». و الآیهٔ التى بعدها تبیّن صفات الظالمین فى ثلاث جمل:

الاولى تقول: إنّهم يمنعون الناس بمختلف الأساليب عن سبيل اللّه «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» فمرّة عن طريق إلقاء الشُّبهة، ومرّة بالتهديد، وأحياناً عن طريق الإغراء والطمع، وجميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، وهو الصدّ عن سبيل اللّه.

الثانية تقول: إنّهم يسعون فى أن يُظهروا سبيل اللّه وطريقه المستقيم عوجاً «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا». أى بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التّفسير بالرأى وإخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصورة الحقيقية للصراط المستقيم. ولا يستطيع الناس وطلاب الحق السير فى هذا الطريق.

والثالثه تقول: إنّهم لا يؤمنون بيوم النشور والقيامة «وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

وعدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات.

فى الآية التالية يبيّن أنّ هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب اللّه فى الأرض ولا أن يخرجوا من سلطانه «أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ» كما أنّهم لا يجدون وليّاً وحامياً لهم غير اللّه «وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

وأخيراً يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة: «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ».

لماذا؟! لأنّهم كانوا ضالين ومخطئين ومنحرفين، وفى الوقت ذاته كانوا يجرّون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ» «١».

وفى ختام الآية يبيّن اللّه سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ».

---

(١) سورة العنكبوت/ ١٣.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٥

فهم بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين وسيلتى السمع والبصر لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل وأضلّوا سواهم أيضاً ...

وبديهى أنّ عدم استطاعة دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديدة وعدائهم للحق والحقيقة، وهذا لا يسلب عنهم المسؤولية.

و الآية التى بعدها تبيّن فى جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدهم فى طريق الباطل، فتقول:

«أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ». وهذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنسانى ...

ثم تضيف الآية: أنّهم اتخذوا آلهة ومعبودين مصطنعين «مزيفين» ولكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة والمزيفة أخيراً ... «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وفى نهاية الآية بيان الحكم النهائى لمآلهم وعاقبتهم بهذا التعبير: «لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْأَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ».

والسبب واضح؛ لأنّهم حُرموا من نعمة السمع الحاد والبصر النافذ، وخَسِروا كل إنسانيتهم ووجودهم، ومع هذه الحال فقد حملوا أثقالَ مسؤوليتهم وأثقال الآخرين مع أثقالهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) تعقيباً على الآيات المتقدمة التى أوضحت حال منكرى الوحى، تأتى الآيتان هنا لتوضحا من فى قبالهم، وهم المؤمنون حقّاً. فالآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ». أى: استسلموا وانقادوا خاضعين لأمر اللّه ووعده الحق، «أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفى الآية الاخرى بيان لحالة هذين الفريقين فى مثال حىّ وواضح ... حال الأعمى والأصم، وحال السميع والبصير، فتقول الآية: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا». ثمّ تعقّب الآية: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

حال منكرى الوحى، فبسبب لجاجتهم وعدائهم للحق ووقوعهم أسرى بمخالب

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٦

التعصب والأنانية وعبادة الذات، فقدوا بصرهم وسمعهم للحقيقة البيّنة، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، وتأثير الإيمان، والتلذذ بعبادة اللَّه، وعظمة التسليم لأمره. هؤلاء الأفراد يعيشون أبداً عمياناً صمّاً فى ظلام مطبق وسكوت مميت ... فى حين أنّ المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، ويسمعون كل صوت بآذان سميعة، وبالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعادة».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَ مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَ مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ آتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) قصّة نوح المثيرة مع قومه: تقدم أنّ هذه السورة تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين وتاريخهم، فى البداية تذكر قصّة نوح عليه السلام وهو أحد الأنبياء أولى العزم، وضمن (٢۶) آية تُرسم النقاط الأساسية لتاريخه المثير ... والآيات المتقدمة تبيّن بداية هذه الدعوة العظيمة فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وفى الآية الاخرى يُلخّص محتوى رسالته فى جملة واحدة ويقول: رسالتى هى «أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ». ثم يعقب دون فاصلة بالإنذار والتحذير مرّة اخرى: «إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ».

إنّ مسألة التوحيد والعبودية للَّهالواحد الأحد هى أساس دعوة الأنبياء جميعاً، فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدون ولا يعبدون إلّااللَّه، ولا- ينقادون للأوثان الوهمية الخارجية منها والداخلية من قبيل الأنانية والهوى والشهوات والمقام والجاه والنساء والبنين فلا يبقى أثر للسلبيات والخبائث فى المجتمع البشرى.

فلننظر الآن أوّل ردّ فعل من قبل الطواغيت واتّباع الهوى والمترفين وامثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان وماذا كان؟!

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٨٧

فقد أجاب اولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأوّل: إنّ الأشراف والمترفين من قوم نوح عليه السلام قالوا له أنت مثلنا ولا فرق بيننا وبينك:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا». زعماً منهم أنّ الرسالة الإلهية ينبغى أن تحملها الملائكة إلى البشر لا أنّ البشر يحملها إلى البشر! وظنّاً منهم أنّ مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

والإشكال الثانى: إنّهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك ومن حولك إلّاحفنةً من الأراذل وغير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة: «وَمَا نَرَيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ».

الإشكال الثالث: الذى أوردوه على نوح عليه السلام أنّهم قالوا: بالاضافة إلى أنّك إنسان ولست ملكاً، وأنّ الذين آمنوا بك والتفوا حولك هم من الأراذل، فإنّنا لا نرى لكم علينا فضلًا «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ».

والآيات التى تعقبها تبيّن ردّ نوح عليه السلام وإجاباته المنطقية على هؤلاء حيث تقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتِنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ».

وفى ختام الآية يقول النبى نوح عليه السلام لهم: هل أستطيع أن ألزمكم الإستجابة لدعوتى وأنتم غير مستعدّين لها وكارهون لها: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ».

وَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَ لكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَ يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ما أنا بطارد الذين آمنوا: هذه الآيات تتابع ما ردّ به نوح عليه السلام على قومه المنكرين.

فالآية الاولى التى تحمل واحداً من دلائل نبوّة نوح، ومن أجل أن تنير القلوب المظلمة من قومه تقول على لسان نوح: «وَيَا قَوْمِ

لَاأَسَلُکَمْ عَلَیْهِ مَالًا». فأنا لا أطلب لقاء دعوتی مالًا أو ثروة منکم، وإنّما جزائی وثوابی علی اللّه سبحانه الذی بعثنی بالنبوة وأمرنی بدعوة خلقه إلیه: «إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلَی اللَّهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۸

وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَی أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَیَقُولُنَّ مَا یَحْبِسُهُ أَلَا یَوْمَ یَأْتِیهِمْ لَیْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا کَانُوا بِهِ یَسْتَهْزِءُونَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَیَئُوسٌ کَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَیَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّیِّئَاتُ عَنِّی إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلَّا الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ کَبِیرٌ (۱۱) وهذا معیار ومیزان لمعرفة القادة الصادقین من غیرهم الذین یتحیّنون الفرص ویهدفون إلی تأمین المنافع المادیة فی کل خطوة یخطونها سواء کان بشکل مباشر أو غیر مباشر.

ویعقب نوح علیه السلام بعد ذلک فی ردّه علی مقولة طرد المؤمنین به من الفقراء والشباب فیقول بصورة قاطعة: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِینَ ءَامَنُوا». لأنّهم سیلاقون ربّهم ویخاصموننی فی الدار الآخرة «إِنَّهُمْ مُّلقُوا رَبّهِمْ».

ثم تُختتم الآیة ببیان نوح لقومه بأنّکم جاهلون «وَلکِنّی أَرَیکُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ». وأیّ جهل وعدم معرفة أعظم من أن تضیعوا مقیاس الفضیلة وتبحثون عنها فی الثروة والمال الکثیر والجاه والمقام الظاهری.

ثمّ أنتم تتصورون- بجهلکم- أن یکون النبی من الملائکة، فی حین ینبغی أن یکون قائد الناس من جنسهم لیحسّ بحاجاتهم ویعرف مشاکلهم وآلامهم.

وفی الآیة التی بعدها یقول لهم موضحاً: إنّنی لو طردت من حولی فمن ینصرنی من عدل اللّه یوم القیامة وحتی فی هذه الدنیا «وَیَا قَوْمِ مَن یَنصُرُنِی مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ».

فطرد المؤمنین الصالحین لیس بالأمر الهیّن، إذ سیکونون خصومی یوم القیامة بطردی لهم، ولا أحد هناک یستطیع أن یدافع عنّی ویخلصنی من عدل اللّه، ولربّما أصابتنی عقوبة اللّه فی هذه الدنیا، أم أنّکم لا تفکرون فی أنّ ما أقوله هو الحقیقة عینها «أَفَلَا تَذَکَّرُونَ».

وآخر ما یجیب به نوح قومه ویردّ علی إشکالاتهم الواهیة ... إنّکم إذا کنتم تتصورون أن لی امتیازاً آخر غیر الإعجاز الذی لدیّ عن طریق الوحی فذلک خطأ، وأقول لکم بصراحة: «وَلَا أَقُولُ لَکُمْ عِندِی خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أستطیع أن أحقق کل شیءٍ أریده وکل عمل أطلبه، حیث تحکی الآیة عن لسانه «وَلَا أَقُولُ لَکُمْ عِندِی خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أقول لکم إنّنی مطلع علی الغیب «وَلَا أَعْلَمُ الْغَیْبَ». ولا أدعی أنّنی غیرکم کأن أکون من الملائکة مثلًا «وَلَا أَقُولُ إِنّی مَلَکٌ» فهذه الادّعاءات الفارغة والکاذبة یتذرع بها المدّعون الکذبة، وهیهات أن یتذرع بها الأنبیاء الصادقون.

وفی ذیل الآیة یکرر التأکید علی المؤمنین المستضعفین بالقول: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِینَ تَزْدَرِی أَعْیُنُکُمْ لَن یُؤْتِیَهُمُ اللَّهُ خَیْرًا»، بل علی العکس تماماً، فخیر هذه الدنیا وخیر الآخرة لهم وإن کانوا حُفاة لخلوّ أیدیهم من المال والثروة فأنتم الذین تحسبون الخیر منحصراً فی المال والمقام والسن، تجهلون الحقیقة ومعناها تماماً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۹

وعلی فرض صحة مدّعاکم أراذل و «أوباش» ف «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِی أَنفُسِهِمْ».

أنا الذی لا أری منهم شیئاً سوی الصدق والإیمان یجب علیّ قبولهم، لأنّی مأمور بالظاهر، والعارف بأسرار العباد هو اللّه سبحانه، فإن عملت غیر عملی هذا کنت آثماً «إِنّی إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِینَ».

قَالُوا یَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَکْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۳۲) قَالَ إِنَّمَا یَأْتِیکُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۳۳) وَ لَا یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَکُمْ إِنْ کَانَ اللَّهُ یُرِیدُ أَنْ یُغْوِیَکُمْ هُوَ رَبُّکُمْ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ یَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَیْتُهُ فَعَلَیَّ إِجْرَامِی وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (۳۵) کفانا الکلام فأین ما تعدنا به؟ الآیة الاولی من الآیات اعلاه تتحدث عن قوم نوح علیه السلام أنّهم: «قَالُوا یَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَکْثَرْتَ جِدَالَنَا». فأین ما تعدنا به من عذاب اللّه «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن کُنتَ مِنَ الصَّادِقِینَ».

فاختيـار هـذه الطريقـة إزاء كـل ذلك اللطف وتلك المحبـة من قبل أنبياء اللَّه ونصائحهم التى تجرى كالماء الزلال على القلوب، إنّما تحكى عن مدى اللجاجة والتعصب الأعمى لدى تلك الأقوام.

لقـد أجاب نوح عليه السـلام على هذه اللجاجة والحماقة وعدم الإعتناء بقوله: «قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ». فذلك خارج من يدى على كـل حال وليس باختيارى، إنّما أنا رسوله ومطيع لأمره، فلا تطلبوا منّى العـذاب والعقاب! ولكن حين يحل عـذابه فاعلموا أنّكم لا تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى مأمن آخر «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ».

ثم يضـيف: وإذا كان اللَّه يريد أن يضلّكم ويغويكم- لما أنتم عليه من الذنوب والتلوّث الفكرى والجسدى- فلا فائدة من نصحى لكم إذاً «وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ» فهو وليكم وأنتم فى قبضته «هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

سؤال: هل يمكن أن يريد اللَّه الغواية والضلال لعباده؟

الجواب: قد تصدر من الإنسان- أحياناً- سلسلة من الأعمال التى تكون نتيجتها الغواية والانحراف الدائمى وعدم العودة إلى الحق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۰

وفى آخر الآيـة- محل البحث- ورد كلام بمثابـة الجملة المعترضة ليؤكّد المواضـيع التى بحثت قصة نوح فى الآيات السابقة واللاحقة، فتبيّن الآية أنّ الأعداء يقولون: إنّ هذا الموضوع صاغه «محمّد» من قبل نفسه ونسبه إلى اللَّه «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

ففى جواب ذلك قل يا رسول اللَّه: إن كان ذلك من عندى ونسـبته إلى اللَّه فذنبه علىّ «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى» ولكنى برىء من ذنوبكم «وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ».

«الإجرام»: مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» وكما أشرنا إلى ذلك- سابقاً- فإنّ معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثم اطلقت على كـل مـا يحـدث من عمـل سىء، وتطلق على من يحث الآـخر على الـذنب أنّه أجرم، وحيث إنّ الإنسان له إرتباط فى ذاته وفطرته مع العفاف والنقاء، فإنّ الإقدام على الذنوب يفصل هذا الإرتباط الإلهى منه.

وَ أُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُـوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْـخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْـخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَـذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَـذَابٌ مُقِيمٌ (۳۹) إنّ قصة نوح عليه السـلام الواردة فى آيات هذه السـورة، بُيّنت بعـدّة عبـارات وجمـل، كـل جملـة مرتبطـة بالاـخرى، وكـل منهـا يمثـل سلسـلة من مواجهـة نوح عليه السـلام فى قبـال المستكبرين، ففى الآيات السابقة بيان لمرحلة دعوة نوح عليه السلام المستمرة والتى كانت فى غاية الجدية، وبالاستعانة بجميع الوسائل المتاحـة، وفى الآيات محل البحث إشارة إلى المرحلة الثالثه من هذه المواجهة، وهى مرحلة انتهاء دورة التبليغ والتهيؤ للتصـفية الإلهية.

ففى الآية الاولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنّك لن تجد من يستجيب لدعوتك ويؤمن باللَّه غير هؤلاء: «وَأُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ».

وهى إشارة إلى أنّ الصـفوف قد أمتازت بشكل تام، والدعوة للإيمان والإصلاح غير مجدية، فلابدّ إذاً من الإستعداد للتصفية والتحول النهائى.

وفى نهاية الآية تسلية لقلب نوح عليه السلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۱

هذه الأعمال «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». ونسـتفيد من هذه الآيـة- ضـمناً- أنّ اللَّه يطلع نبيّه نوحاً على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغى.

وعلى كـل حـال لابـدّ من إنزال العقـاب بهؤلاـء العصـاة اللجوجين ليطهر العـالم من التلوّث بوجودهم، وليكون المؤمنون فى منأى عن مخالبهم.

وجاء الأمر لنوح أن «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا».

وفى نهاية الآية ينذر اللَّه نوحاً أن لا يشفع فى قومه الظالمين، لأنّهم محكوم عليهم بالعذاب وإن الغرق قد كتب عليهم حتماً «وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ».

هذه الجملة تبيّن بوضوح أنّ الشفاعة لا تتيسر لكلّ شخص، بل للشفاعة شروطها فإذا لم تتوفر فى أحد الأشخاص فلا يحق للنبى أن يشفع له ويطلب من اللَّه العفو لأجله.

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد- ولو لحظة واحدة- فى دعوة النبى نوح عليه السلام ويحتملوا على الأقل أنّ هذا الإصرار وهذه الدعوات المكررة كلها من «وحى اللَّه» فتكون مسألة العذاب والطوفان حتمية! إلّاأنّهم واصلوا استهزاءهم وسخريتهم مرّة اخرى وهى عادة الأفراد المستكبرين والمغرورين «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ولكن نوحاً كان يواصل عمله بجدية فائقة وأناة واستقامة منقطعة النظير لأنّها وليدة الإيمان، وكان لا يكترث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم وعميت قلوبهم، وإنّما يواصل عمله ليكمله بسرعة. ويوماً بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل ويتهيأ لذلك اليوم العظيم، وكان نوح عليه السلام أحياناً يرفع رأسه ويقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة «قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ذلك اليوم الذى يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ماتصنعون، ولا ملجأ لكم، وتصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة .. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين ومن غفلتكم وجهلكم وعدم معرفتكم ويضحكون عليكم.

«فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

سفينة نوح: لا شكّ أنّ سفينة نوح لم تكن سفينة عاديّة ولم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته، إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، وتحمل متاعاً وطعاماً كثيراً يكفى للمدة التى يعيشها المؤمنون

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٩٢

والحيوانات فى السفينة حال الطوفان، ومثل هذه السفينة بهذا الحجم وقدرة الاستيعاب لم يسبق لها مثيل فى ذلك الزمان، فهذه السفينة ستجرى فى بحر بسعة العالم، وينبغى أن تمرّ سالمةً عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها. لذلك تقول بعض روايات المفسرين: إنّ طول السفينة كان ألفاً ومئتى ذراع، وعرضها كان ستمائة ذراع (كل ذراع يعادل نصف متر تقريباً).

ونقرأ فى بعض الروايات أنّ النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عامّاً بالعقم وعدم الإنجاب، وكان ذلك مقدمة لعذابهم وعقابهم.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (۴۰) وَ قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَ هِيَ تَجْرِى بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (۴۲) قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳) شروع الطوفان: رأينا فى الآيات المتقدمة كيف صنع نوح عليه السلام وجماعته المؤمنون سفينة النجاة بصدق. وواجهوا جميع المشاكل واستهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، وهيأوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذى طهّر سطح الأرض من لوث المستكبرين الكفرة. والآيات- محل البحث- تتعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهاية؟ وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبيّنه بهذا التعبير: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ».

ولعل قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. وهى فوران التنور بالماء فى بيوتهم ولكن غضّوا أجفانهم وصمّوا آذانهم كعادتهم عند ظهور مثل العلائم الكبيرة حتى أنّهم لم يسمحوا لأنفسهم بالتفكير فى هذا الأمر وأن إنذارات نوح حقيقية.

فى هذه الحالة بلغ الأمر الإلهى نوحاً «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَن ءَامَنَ».

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ «وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۳

هـذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح وابنه كنعان وقد قطعا علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما وتآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق فى ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

وتشير الآية من جهة اخرى إلى أنّ ثمرة جهاد نوح عليه السلام بعد هذه السنين الطوال والسعى الحثيث المتواصل فى التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل.

جمع نوح عليه السلام ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعة، وحين أزف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب اللّه أمرهم أن يركبوا فى السفينة «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسهَا».

لماذا؟ لكى يعلمهم أنّه ينبغى أن تكونوا فى جميع الحالات فى ذكر اللّه تعالى وتستمدوا العون من اسمه وذكره «إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم واختياركم لتنجيكم من الغرق وبمقتضى عفوه وغفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهى فتلبّدت السماء بالغيوم كأنّها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد وومضات البرق فى السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة ومرعبة جدّاً».

شرع المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر.

وهكذا إتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا واد ولا تلعة ولا نجد إلّا استوعبه الماء وصار بحراً محيطاً خضمّاً ... أمّا الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينة نوح ومن معه تمضى فى هذا البحر «وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ». فإنّ مصيرك إلى الفناء إذا لم تركب معنا.

ولكن- للأسف- كان أثر المحيط السىء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرق عليه.

لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، وظنّاً منه أن ينجو من غضب اللّه أجاب والده نوحاً و «قَالَ سَاوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ». ولكن نوحاً لم ييأس مرّة اخرى فنصحه أن يترك غروره ويركب معه و «قَالَ لَاعَاصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ». ولا ينجو من هذا الغرق إلّا من شمله لطف اللّه «إِلَّا مَن رَّحِمَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۴

وفى هذه الحالة التى كان ينادى نوح إبنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ».

بحوث

۱- دروس تربوية من طوفان نوح: إنّ هدف القرآن الأصلى من ذكر قصص الماضين بيان دروس وعبر ومسائل تربوية، وفى هذا القسم من قصة نوح مسائل مهمة جدّاً نشير إلى قسم منها:

تطهير وجه الأرض: صحيح أنّ اللّه رحيم ودود، ولكن لا ينبغى أن ننسى أنّه حكيم أيضاً، فبمقتضى حكمته أنّه عندما لا تؤثر دعوة الناصحين والمربّين الإلهيين فى قوم فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك فى الحياة وسينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية وتحت وطأة التنظيم الحياتى.

وهذا الأمر غير منحصر فى قوم نوح ولا- بزمان معين، إنّما هو سنة اللّه فى خلقه وعباده فى جميع العصور والأزمان حتى فى عصرنا الحاضر، وأى إشكال فى أن تكون كل من الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية صورة من صور «تطهير الأرض».

۲- لِمَ كان العقاب أو الطوفان؟ صحيح أنّ قوماً أو امة كانوا فاسدين وينبغى زوالهم ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق فى الآيات المتقدمة نستفيد أنّ هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب اللَّه دائماً وأبداً «فتدبر جيداً».

كان فرعون يرى قدرته وعظمته تتجلى فى «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن الطريف أنّ هلاك فرعون ونهايته كان فى النيل.

وكان قوم نوح أهل زراعة و «أنعام» وكانوا يجدون كل خيراتهم فى «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً ...

ومن هنا يتّضح جلياً أنّ حساب اللَّه فى غاية الدقة، ولو لاحظنا الطغاة العتاة فى عصرنا وفى الحرب العالمية الاولى والثانية كيف ابيدوا بأسلحتهم الحديثة والمتطورة لاتضح المعنى أكثر.

فلا ينبغى أن نعجب أنّ هذه الصناعات المتقدمة التى اعتمدوا عليها فى استعمار الشعوب واستثمار خيراتهم واستضعافهم ... أدت إلى زوالهم.

۳- المرتكزات الجوفاء: من الطبيعى أنّ كل أحد يعتمد فى التغلّب على الصعاب ومواجهة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۵

المشاكل فى حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة والمال، وجماعة على المقام والمنصب، وجماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، وآخرون إلى أفكارهم .. ولكن- كما تخبرنا الآيات المتقدمة ويرينا التاريخ- لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى مقاومة أمام أمر اللَّه وقدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة.

فابن نوح لغروره وغفلته كان غارقاً فى مثل هذا الوهم، وظن أنّ الجبل سيعصمه من طوفان غضب اللَّه ويحميه ولكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنّه وأنهت حياته.

۴- سفينة النجاة: وردت روايات كثيرة عن النبى صلى الله عليه و آله تعبر عن أهل بيته- وهم الأئمة الطاهرون وحملة الإسلام- بأنّهم «سفينة النجاة». أى أنّه حين يطغى الطوفان الفكرى والعقائدى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإنّ طريق النجاة الوحيد هو الإلتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمَاءُ وَ قُضِىَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴) نهاية الحادث: كان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينة بيد اللَّه سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة فى كل صوب، وفى روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذى الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب حتى عاشر محرّم) وطافت السفينة نقاطاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء فى بعض الرّوايات أنّها سارت على أرض مكّة وحول الكعبة.

وأخيراً صدر الأمر الإلهى بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والآية- محل البحث- تبيّن هذا الأمر وجزئياته ونتيجته فى عبارات وجيزة جدّاً، وفى الوقت ذاته بليغة وأخّاذة، وقد جاءت الآية فى جمل ست:

۱- «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ» صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

۲- «وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي» وصدر الأمر للسماء أن لا تمطرى.

۳- «وَغِيْضَ الْمَاءُ» ونزل الماء فى جوف الأرض.

۴- «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» انتهى حكم اللَّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۶

۵- «وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ» واستقرت السفينة على طرف جبل الجودى.

۶- «وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» عندئذ لُعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من رحمة اللَّه.

طائفة من علماء العرب: إنّ هذه الآية تعدّ أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته جميعاً فى غاية البلاغة والفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أنّنا نقرأ فى تفسير مجمع البيان أنّ كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البر،

ولحوم الضأن، وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم. فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين. وتركو ما أخذوا فيه، وافترقوا. وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (۴۵) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۴۶) قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ إِنْ تَغْفِرْ لِى وَ تَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۴۷) حادثة ابن نوح المؤلمة: قرأنا فى الآيات المتقدمة أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحة والده وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق فى أمواج الطوفان. وهذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم آخر من هذه القصة، وهو أنّه حين رأى نوح إبنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوّة وتذكّر وعد اللّه فى نجاة أهله فالتفت إلى ساحة اللّه منادياً «فَقَالَ رَبّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ».

وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (۴۰) من هذه السورة، ولكنه سمع الجواب مباشرة ... جواب يهزّ هزّاً كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة ... حقيقة أنّ الرّباط الدينى أسمى من رباط النسب والقرابة «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صلِحٍ».

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. «فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّى أَعِظُكَ أن تَكونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة اللّه لم يكن صحيحاً، ولا ينبغى أن يتصور نجاة

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۹۷

ولده مما وعد اللّه به فى نجاة أهله، لذلك توجه إلى اللّه معتذراً مستغفراً و «قَالَ رَبّ إِنّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

فى العيون عن الرضا عليه السلام: «كيف يقرأون هذه الآية؟» قيل: من الناس من يقرأ: أنّه عمل غير صالح ومنهم من يقرأ: أنّه عمل غير صالح فمن قرأ أنّه عمل غير صالح نفاه عن أبيه، فقال عليه السلام: «كلّا لقد كان إبنه، ولكن لمّا عصى اللّه نفاه عن أبيه، كذا من كان منّا لم يطع اللّه فليس منّا».

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۴۸) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (۴۹) هبوط نوح بسلام: هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التى تتحدث عمّا جاء فى نوح وقصته المليئة بالدروس والعبر فى سورة هود، وفيهما إشارة إلى هبوط نوح عليه السلام من سفينته وعودة الحياة والعيش الطبيعى على الأرض. يقول القرآن فى الآية الاولى من هاتين الآيتين: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ».

لا شك أنّ الطوفان كان قد دمّر كل آثار الحياة ... فالأراضى العامرة والمراتع الخُضر والغابات النضرة كلها ابيدت، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح وأصحابه بالنسبة للمعاش والغذاء، لكن اللّه سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة إزاء البركات الإلهية والسلامة وأنّ كل ذلك سيكون مهيّأً وموفّراً لهم فلا ينبغى الحزن على شيء ...

ثم يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنّه ستعقب الامم التى معك امم من نسلها، ولكن هذه الامم ستغتر وتغفل عن نعم اللّه فتنال جزاءها من اللّه «وَأُمَمٌ سَنُمَتّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وفى آخر آية تختم بها قصة نوح- فى هذه السورة- إشارة كلية عامة إلى ما حدث فى عهد نوح فتقول: «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذَا».

فالخطاب هنا للنبى محمّد صلى الله عليه و آله يؤكّد عليه أن يصبر ويستقيم كما صبر واستقام نوح عليه السلام

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۹۸

عندما واجه المشاكل، وهكذا تكون عاقبة الصبر النصر «فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ».

يستفاد من هذه الآية أنّ الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم اللّه وبالمقدار الذى كان يريده اللّه لهم، لا أنّهم يعلمون الغيب من أنفسهم.

والآن نودع قصّة نوح بكلّ ما تحمل من عبر وأعاجيب، ونتوجه إلى نبى عظيم آخر وهو هود الذى سُمّيت هذه السورة باسمه.

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) فى الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السلام وأمّا الآن فالحديث عن هود عليه السلام. يقول سبحانه فى الآية الاولى من هذه القصة: «وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا». ونلاحظ فى الآية أنّها وصفت هوداً بكونه «أخاهم».

وهذا التعبير جار فى لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد ...

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبيّاً، وهذه الحالة هى صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة والقيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطلق أنّهم إخوة لهم ....

معاملة خالية من أيّة شائبة وأىّ امتياز أو استعلاء.

كان أوّل دعوة هود- كما هو الحال فى دعوة الأنبياء جميعاً- توحيد اللّه ونفى الشرك عنه «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ».

فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشر، ولا يصدر منها أى عمل، وأى افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التى لا قيمة لها إطلاقاً.

ثم يضيف هود قائلًا لقومه: لا تتصوروا أنّ دعوتى لكم من أجل المادة، فأنا لا اريد منكم أىّ أجر «يَا قَوْمِ لَاأَسَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا». فأجرى وحده على من فطرنى ووهبنى

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٩٩

الروح وأنا مدين له بكل شىء، فهو الخالق والرازق «إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى».

وأساساً فإنّى فى كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنّما أفعل ذلك طاعةً لأمره، ولذلك ينبغى طلب الأجر منه وحده لا منكم، وإضافة إلى ذلك فهل لديكم شىء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ثم شرع هود ببيان الأجر المادى للإيمان لغرض التشويق والاستفادة من جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق فى قومه الظالين، فبيّن أن هذا الأجر المادى مشروط بالايمان فيقول: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ». فإذا فعلتم ذلك فإنّه «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» «١». لئلا تصاب مزارعكم بقلة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإنّ اللّه بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرعاكم «وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ».

فلا تتصوروا أنّ الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، فعلى هذا إيّاكم والإبتعاد عن طريق الحق «وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ».

التوحيد أساس دعوة الأنبياء: يبين تاريخ الأنبياء أنّهم بدأوا دعوتهم جميعاً من التوحيد ونفى الشرك ونفى عبادة الأصنام أيّاً كانت، والواقع فإنّ أىّ إصلاح فى المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأنّ وحدة المجتمع والتعاون والإيثار كلها امور تسترفد من منبع واحد وهو توحيد المعبود.

وأمّا الشرك فهو أساس كل فرقة وتعارض وتضاد وأنانية ... وما إلى ذلك ... وإرتباط هذه المفاهيم بالشرك وعبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على أحد!

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ

إِنِّی أَشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِیَتِهَا إِنَّ رَبِّی عَلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفُ رَبِّی قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لَا تَضُرُّونَهُ شَیْئاً إِنَّ رَبِّی عَلَی کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ (۵۷)

---

(۱) «المدرار»: مشتق من «درّ» وهو انصباب حلیب الأثداء، ثمّ استعمل فی انصباب المطر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۰

قوّة المنطق: والآن لننظر ماذا کان ردّ فعل القوم المعاندین والمغرورین- قوم عاد- مقابل نصائح أخیهم هود وتوجیهاته إلیهم: «قَالُوا یَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَیِّنَةٍ». أی لم تأتنا بدلیل مقنع لنا «وَمَا نَحْنُ بِتَارِکِی ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِکَ» الذی تدعونا به إلی عبادة اللّه وترک الأوثان «وَمَا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ».

وأضافوا إلی هذه الجمل الثلاث غیر المنطقیة، أنّک یا هود مجنون و «إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَیکَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ». ولا شک أنّ هوداً- کأی نبی من الأنبیاء- أدّی دوره ووظیفته وأظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدلیل علی حقانیته، ولکنهم لغرورهم- مثل سائر الأقوام- أنکروا معاجزه وعدّوها سحراً.

إنّ علی هود أن یردّ علی هؤلاء الضالین اللجوجین رداً مقروناً بالمنطق، من منطلق القوة أیضاً ... یقول القرآن فی جواب هود لهم: «قَالَ إِنّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنّی بَرِیءٌ مِّمَّا تُشْرِکُونَ».

یشیر بذلک إلی أنّ الأصنام إذا کانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاکی وموتی لمحاربتی لها علناً فعلام تسکت هذه الأصنام؟ وماذا تنتظر بی؟

ثم یضیف أنّه لیست الأصنام وحدها لا تقدر علی شیء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون علی شیء، فإذا کنتم قادرین «مِن دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعًا ثُمَّ لَاتُنظِرُونَ».

فأنا لا تردعنی کثرتکم ولا أعدها شیئاً، ولا أکترث بقوتکم وقدرتکم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمی ولدیکم مختلف القدرات، إلّاأننی واثق بقدرة فوق کل القدرات، «إِنّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبّی وَرَبّکُم».

فلو فکرتم جیداً لکان هذا وحده معجزاً حیث ینهض إنسان مفرد وحید بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة فی مجتمع قوی ومتعصب، لکنّه فی الوقت ذاته لا یشعر فی نفسه بالخوف منهم، ولا یستطیع الأعداء أن یقفوا بوجهها! ثمّ یضیف: لستم وحدکم فی قبضة اللّه، فإنّه «مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِیَتِهَا»، فما لم یأذن به اللّه، لا یستطیع أحد أن یفعل شیئاً.

ولکن إعلموا أیضاً أنّ ربّی القدیر لیس کالأشخاص المقتدرین الذین یستخدمون قدرتهم للهوی واللعب والأنانیة وفی غیر طریق الحق، بل هو اللّه الذی لا یفعل إلّاالحکمة والعدل «إِنَّ رَبّی عَلَی صِرَاطٍ مُّسْتَقِیمٍ».

ثم إنّ هوداً قال لقومه فی آخر کلامه معهم کما تحکیه الآیة: «فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُکُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۱

إشارة إلی أن لا یتصوروا أنّ هوداً سیتراجع إن لم یستجیبوا لدعوته، فإنّه أدّی واجبه ووظیفته، وأداء الواجب انتصار بحد ذاته حتی لو لم تقبل دعوته.

وکما هدّد القوم هوداً، فإنّه هددهم بأشدّ من تهدیدهم، وقال: إن لم تستجیبوا لدعوتی فإنّ اللّه سیبیدکم فی القریب العاجل «وَیَسْتَخْلِفُ رَبّی قَوْمًا غَیْرَکُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَیًا».

هذه سنّة اللّه فی خلقه وقانونه العام، إنّه متی کان قوم غیر لائقین لاستجابة الدعوة والهدایة والنعم الاخری التی أنعمها علیهم فإنّه سیبعدهم ویستخلف قوماً لائقین بمکانهم «إِنَّ رَبّی عَلَی کُلّ شَیْءٍ حَفِیظٌ». فلا تفوته الفرصة، ولا یهمل أنبیاءه ومحبیه، ولا یعزب عنه

مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شيء وقادر على كل شيء.

وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

اللعن الأبدى على القوم الظالمين: فى آخر الآيات التى تتحدث عن قصة قوم عاد ونبيّهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا». وتؤكّد أيضاً نجاة المؤمنين «وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ».

وفى قوله تعالى: «نَجَّيْنَا» وتكرار هذه الكلمة فى الآية مرّتين أقوال مختلفة للمفسرين، ف «نجّينا» الأولى تعنى خلاصهم من عذاب الدنيا و «نجّينا» الثانية تعنى نجاتهم فى المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، وينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضاً.

ويشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، وهى أنّ الكلام لمّا كان على رحمة اللّه فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة «نجّينا» لتفصل بين الرحمة والعذاب دون أن ينقص شيء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغى الإلتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضاً، وهى أنّ آيات القرآن وصفت العذاب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۲

بالغليظ فى أربعة موارد «۱». وبملاحظة تلك الآية بدقّة نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الآخرة، وخصوصاً الآيات التى جاءت فى سورة ابراهيم وذكر فيها العذاب الغليظ، فإنّها تصف بصراحة حال أهل جهنم وأهوالها، وهكذا يكون، وذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديداً فإنّه أخفّ من عذاب الآخرة!

وهناك تناسب ينبغى ملاحظته أيضاً، وهو أنّ قوم عاد- كما سيأتى بيان حالهم إن شاء اللّه- ورد ذكرهم فى سورة القمر، والحاقة، وكانوا قوماً ذوى أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ فى تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا يَنسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلًا: «هذا البناء عادى» لذلك كان عذابهم مناسباً لهم لا فى العالم الآخر بل فى هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً، كما مرّ فى تفسير السور الآنفة الذكر.

ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عادٍ فى ثلاثة مواضيع:

الأوّل: بإنكارهم لآيات اللّه وعنادهم أيضاً لم يتركوا دليلًا واضحاً وسنداً بيّناً على صدق نبوّة نبيّهم إلّاجحدوه «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ».

والثانى: إنّهم من الناحية العملية لم يتّبعوا أنبياء اللّه «وَعَصَوْا رُسُلَهُ».

والثالث من الذنوب: إنّهم تركوا طاعة اللّه ومالوا لكل جبار عنيد «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ». فأى ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، ومخالفة الأنبياء، والخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و «الجبار»: يطلق على من يُجبر سواه على إتباعه ويريد أن يغطى نقصه بادعاء العظمة والتكبر الظاهرى.

و «العنيد»: هو من يخالف الحق والحقيقة أكثر مما ينبغى، ولا يرضخ للحق أبداً.

---

(۱) وهى فى السور التالية: ۱- ابراهيم/ ۷؛ ۲- لقمان/ ۳۴؛ ۳- فصّلت/ ۵۰؛ ۴- هود/ ۵۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۳

هاتان الصفتان تتجليان فى الطواغيت والمستكبرين فى كل عصر وزمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبداً ويعمدون إلى من يخالفهم بانزال أشد انواع العقاب به بلا رحمة.

وفى الآية الأخيرة التى تنتهى بها قصة «هود» وقومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة و الباطلة حيث تقول الآية: «وَأُتْبِعُوا فِى هٰذِهِ

الدُّنْيَالَعْنَةً» و بعدالموت لايبقى إلّاخزيهم والصيت السيء «وَيَوْمَ الْقِيمَةِ» يقال لهم: «أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ».

وكان يكفى تعريف هـذه الجماعة بلفظ «عاد» ولكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضاً لتؤكّد عليهم أوّلًا، ولتشير إلى أنّهم القوم الذين آذوا نبيّهم الناصح لهم ثانياً، ولذلك فقد أبعدهم اللَّه عن رحمته.

وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (۶۱) قصة ثمود: انتهت قصة عاد، قوم هود، بجميع دروسها بشكل مضغوط، وجاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا فى وادى القرى بين المدينة والشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

ونرى هنـا أيضـاً أنّ القرآن حين يتحـدث عن نبيّهم «صالـح» يـذكره على أنّه أخوهم، وأىّ تعبير أروع وأجمل منه حيث بيّنا قسـماً من محتواه فى الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب ودود مشفق ليس له هدف إلّاالخير لجماعته «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا».

ونجد أيضاً أنّ منهج الأنبياء جميعاً يبدأ بمنهج التوحيد ونفى أى نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان التى هى أساس جميع المتاعب «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ولكى يحرك إحساسـهم بمعرفـة الحـق أشـار إلى عـدد من نعم اللَّه المهمـة الـتى اسـتوعبت جميـع وجـودهم فقـال: «هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ».

ثمّ يُذكّر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم اخرى موجودة فى الأرض حيث قال: «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا».

الطريف هنا أنّ القرآن لم يقل: إنّ اللَّه عمر الأرض وجعلها تحت تصرفكم، وإنّما قال:

وفوّض إليكم إعمـار الأرض «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» وهى إشارة إلى أنّ الوسائل معـدّة فيها لكل شـيء وعليكم إعمارها بالعمل والسـعى المتواصل والسيطرة على مصادر الخيرات فيها.

وبدون ذلك لا حظّ لكم فى الحياة الكريمة.

فإذا كان الأمر كذلك: «فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ» لدعواتكم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۴

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هـذَا أَ تَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۶۲) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (۶۳) وَ يَا قَوْمِ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (۶۴) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (۶۵) والآن لنلاحظ ما الذى كان جواب المخالفين لنبىّ اللَّه «صالح عليه السلام» إزاء منطقه الحى الداعى إلى الحق.

لقـد اسـتفادوا من عامل نفسـى للتأثير على النبى «صالـح» أو على الأقل للمحاولـة فى عـدم تأثير كلامه على المسـتمعين له من جمهور الناس، وبالتعبير العامّى الـدارج: أرادوا أن يضـعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: «يَا صلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذَا». وكنّا نتوجه إليك لحـل مشاكلنـا ونستشـيرك فى امورنا ونعتقـد بعقلك وذكائك ودرايتك، ولم نشك فى إشـفاقك واهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الريـاح، حيث خالفت ما كان يعبـد آباؤنا من الأوثان وهو منهـج اسـلافنا ومفخرة قومنا، فأبـديت عـدم احترامك للأوثان وللكبار وسخرت من عقولنا «أَتَنْهَنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». والحقيقة أنّنا نشكّ فى دعوتك للواحد الأحد «وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».

لكن هـذا النبى الكبير لم ييـأس من هـدايتهم ولم تؤثر كلماتهم المخادعـة فى روحه الكبيرة فأجابهم قائلًا: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَبِّى وَءَاتِنِى مِنْهُ رَحْمَةً». أفأسكت عن دعوتى ولا أبلغ رسالة اللَّه ولا أواجه المنحرفين «فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ».

ولكن اعلموا أنّ كلامكم هـذا واحتجـاجكم بمنهـج السـلف والآبـاء لاـ يزيـدنى إلّاإيماناً بضـلالتكم وخسـرانكم: «فَمَا تَزِيـدُونَنِى غَيْرَ

تَخْسِيرٍ».

وبعد هذا كلّه ومن أجل البرهان على صدق دعوته، وبيان المعاجز الإلهية التى دونها

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٠۵

قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التى هى آية من آيات اللّه وقال: «وَيَا قَوْمِ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ».

«الناقة»: فى اللغة هى انثى الجمل، وقد اضيفت إلى لفظ الجلالة «اللّه» وهذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الإلتفات إلى ما عبّر عنها فى الآية المتقدمة بأنّها «آية» وعلامة إلهيّة ودليل على الحقانيّة، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة.

إنّ القرآن ذكر قصة ناقة صالح بشكل مجمل غير أنّنا نقرأ فى روايات كثيرة، أنّ هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، ولها خصائص اخرى ليس هنا مجال سردها.

وعلى كل حال، فمع جميع ما أكّده نبيّهم العظيم «صالح» فى شأن الناقة، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها، لأنّ وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النبى صالح عليه السلام، لذلك فإنّ جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجدون فى دعوة صالح خطراً على مصالحهم، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقويض والانهيار، فتآمروا للقضاء على الناقة وهيأوا جماعة لهذا الغرض، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض «فَعَقَرُوهَا».

«عقروها»: مشتقة من مادة «العُقر» على وزن «الظلم» ومعناه: أصل الشيء وأساسه وجذره، لأنّ نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل.

العلاقة الدينية: إنّ الإسلام يعدّ الرضا الباطنى فى أمر ما والإرتباط معه إرتباطاً عاطفياً بمنزلة الاشتراك فيه. يقول الإمام على عليه السلام فى الخطبة (٢٠١) فى نهج البلاغة: «وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا».

وهناك روايات متعددة فى المضمون ذاته نقلت عن نبى الخاتم وأهل بيته الكرام، وهى تكشف غاية الإهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية والمناهج الفكرية المشتركة بجلاء.

وفى نهاية الآية نقرأ أنّ النبى «صالحاً» بعد أن رأى تمرّد قومه وعقرهم الناقة أنذرهم «فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ». فهو وعد اللّه الذى لا يتغير وما أنا من الكاذبين.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٠۶

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸) نهاية ثمود؛ قوم صالح: فى هذه الآيات يتبيّن كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم: «تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ» فتقول الآيات: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا» لا من العذاب الجسمانى والمادى فحسب، بل «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» «١». لأنّ اللّه قوى وقادر على كل شىء، وله السلطة على كل أمر، ولا يصعب عليه أىّ شىء ولا قدرة فوق قدرته «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ».

وعلى هذا فإنّ نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبتلى بعذاب اللّه ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة اللّه تعالى.

إنّ رحمة اللّه تستوجب ألّا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين، وألّا يؤاخذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح «كَأَنَّ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ» عن لطف اللّه ورحمته.

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳)

---

(١) «الخزى»: فى اللغة الإنكسار الذى يصيب الإنسان سواءً من نفسه أو من سواه ويشمل كل أنواع الذل أيضاً.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۰۷

جانب من حياة محطّم الأصنام: والآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «إبراهيم عليه السلام» هذا البطل العظيم الذى حطم الأصنام، وما جرى له مع قومه، وهنا تذكر الآيات قسماً من حياته المرتبطة بقصة «قوم لوط» وعقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام والعصيان، فتقول فى البداية: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرهِيمَ بِالْبُشْرَى .

وهؤلاء الرسل هم الملائكة الذين امروا بتدمير مدن قوم لوط، ولكنهم قبل ذلك جاؤوا إلى إبراهيم ليسلموه بلاغاً يتضمّن بشرى سارة.

أمّا عن ماهية هذه البشرى فهناك احتمالان، ولا مانع من الجمع بينهما.

الإحتمال الأوّل: البشرى بتولّد إسماعيل وإسحاق ويعدّ بشارة عظمى.

والإحتمال الثانى: إنّ إبراهيم كان مستاءً مما وجده فى قوم لوط من الفساد والعصيان، فحين أخبروه بأنّهم امروا بهلاكهم سُرّ، وكان هذا الخبر بشرى له.

فحين جاءوا إبراهيم «قَالُوا سَلمًا» فأجابهم أيضاً و «قَالَ سَلمٌ» ورحّب بهم «فَمَا لَبِثَ أن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ». «العجل»: فى اللغة ولد البقر؛ و «الحنيذ»: معناه المشوى.

ويستفاد من هذه الجملة أنّ من آداب الضيافة أن يعجّل للضيف بالطعام، خاصة إذا كان الضيف مسافراً، فإنّه غالباً ما يكون متعباً وجائعاً وبحاجة إلى طعام، فينبغى أن يقدم له الطعام عاجلًا ليخلد إلى الراحة.

ولكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيذ لهم، فقد رآهم لا يمدّون أيديهم إلى الطعام، وهذا العمل كان مريباً له وجديداً عليه، فأحسّ بالإستيحاش واستغرب ذلك منهم «فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً».

ومن السنن والعادات القديمة التى لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم التزام بالتقاليد الطيبة للاسلاف، هى أنّ الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (وبما اصطلح عليه:

تناول من ملحه وخبزه) فهو لا يكنّ له قصد سوء، وعلى هذا فإنّ من له قصد سوء مع أحد- واقعاً- يحاول ألّا يأكل من طعامه «وخبزه وملحه» ومن هذا المنطلق شك إبراهيم فى نيّاتهم، وأساء الظن بهم، واحتمل أنّهم يريدون به سوءاً.

أمّا الرسل فإنّهم لمّا اطلعوا على ما فى نفس إبراهيم، بادروا لرفع ما وقع فى نفسه و «قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۰۸

وفى هذه الحال كانت امرأته «سارة» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية: «وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ».

هذا الضحك من سارة يحتمل أن يكون لأنّها كانت مستاءةً من قوم لوط وفجائعهم، واطّلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سبباً لسرورها وضحكها.

ثم تضيف الآية أنّ إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: «فَبَشَّرْنَهَا بِإِسْحقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحقَ يَعْقُوبَ».

الواقع أنّ الملائكة بشّروها بالولد وبالحفيد، فالأوّل إسحاق والثّانى يعقوب، وكلاهما من أنبياء اللَّه.

ومع التفات «سارة» امرأة إبراهيم إلى كبر سنّها وسنّ زوجها فإنّها كانت آيسة من الولد بشدّة، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا

الأمر و «قَالَتْ یَا وَیْلَتَی ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذَا بَعْلِی شَیْخًا إِنَّ هذَا لَشَیْءٌ عَجِیبٌ».

إنّ رسل اللّه ازالوا التعجب عنها فوراً وذكّروها بنعم اللّه «الخارقة للعادة» عليها وعلى اسرتها ونجاتهم من الحوادث الجمّة، فالتفتوا إليها و «قَالُوا أَتَعْجَبِینَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَکَاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْلَ الْبَیْتِ». ذلک الربّ الـذى نجّى إبراهيم من مخالب نمرود الظالم، ولم يصبه سوء وهم فى قلب النار.

وهـذه الرحمـة الإلهيـة لم تكن خاصة بذلك اليوم فحسب، بل هى مستمرة فى أهل هذا البيت، وأى بركة أعظم من وجود رسول اللّه محمّد صلی الله علیه و آله والأئمة الطاهرين عليهم السلام فى هذه الاسرة وفى هذا البيت بالذات.

وقالت ملائكة اللّه لمزيد التأكيد على بشارتهم وكلامهم فى شأن اللّه: «إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ».

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِیمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَی یُجَادِلُنَا فِی قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْرَاهِیمَ لَحَلِیمٌ أَوَّاهٌ مُنِیبٌ (۷۵) یَا إِبْرَاهِیمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِیهِمْ عَذَابٌ غَیْرُ مَرْدُودٍ (۷۶) رأينا فى الآيات السابقة أنّ إبراهيم عرف فوراً أنّ أضيافه الجدد لم يكونوا أفراداً خطرين أو يخشى منهم، ولمّا ذهب الهلع والخوف عن إبراهيم من اولئك الأضياف، ومن ناحية اخرى فقد بشروه بالوليد السعيد، شرع فوراً بالتفكير فى قوم لوط الذين ارسل إليهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۹

هؤلاء الرُسل «الملائكة» فأخذ يجادلهم ويتحدث معهم فى أمرهم «فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرِهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ» «۱».

وهنا يمكن أن ينقدح هذا السؤال، وهو: لِمَ تباحث إبراهيم عليه السلام مع رسل اللّه وجادلهم فى قوم آثمين ظالمين- كقوم لوط- وقد امروا بتدميرهم، فى حين أنّ هذا العمل لا يتناسب مع نبىّ، خاصة إذا كان إبراهيم عليه السلام فى عظمته وشأنه؟

لهذا فإنّ القرآن يعقّب مباشرة فى الآية عن شفقة إبراهيم وتوكله على اللّه فيقول: «إِنَّ إِبْرهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ» «۲».

هذه الاصاف الثلاث المجملة جواب على السؤال المشار إليه آنفاً. وتوضيح ذلك: إنّ هذه الصفات المذكورة لإبراهيم تشير إلى أنّ مجادلته كانت ممدوحة، وذلك لأنّ إبراهيم لم يتّضح له أنّ أمر العذاب صادر من قبل اللّه بصورة قطعية، ويحتمل أنّهم سيرتدون عن غيهم ويتّعظون، ومن هنا فما زال هناك مجال للشفاعة لهم ....

وتقول الآية التالية: إنّ الرسل قالوا لإبراهيم- مباشرةً- أن أعرض عن اقتراحك لأنّ أمر ربّك قد تحقق والعذاب نازل لا محالة. «يَا إِبْرهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ».

والتعبير ب «ربّك» لا يدل على أنّ هذا العذاب خال من الطابع الانتقامى فحسب، بل يدل أيضاً على أنّه علامة لتربية العباد وإصلاح المجتمع الإنسانى.

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِیءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قَالَ هذَا یَوْمٌ عَصِیبٌ (۷۷) وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ یُهْرَعُونَ إِلَیْهِ وَ مِنْ قَبْلُ کَانُوا یَعْمَلُونَ السَّیِّئَاتِ قَالَ یَا قَوْمِ هؤُلَاءِ بَنَاتِی هُنَّ أَطْهَرُ لَکُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِی ضَیْفِی أَ لَیْسَ مِنْکُمْ رَجُلٌ رَشِیدٌ (۷۸) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِی بَنَاتِکَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّکَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِیدُ (۷۹) قَالَ لَوْ أَنَّ لِی بِکُمْ قُوَّةً أَوْ آوِی إِلَی رُکْنٍ شَدِیدٍ (۸۰)

---

(۱) «روع»: على وزن «نوع» معناها «الخوف و الوحشة» و كلمة «روع» على وزن «نوح» معناها «الروح» أو قسم منها الذى هو محل الخوف و مركزه، لمزيد الإيضاح تراجع المعاجم اللغوية.

(۲) «الحليم»: مشتق من «الحلم» و هو: الأناة والصبر فى سبيل الوصل إلى هدف مقدس، والأواه فى الأصل: كثير التحسر والآه سواء من الخوف من المسؤولية التى يحملها أو من المصائب، والمنيب من الإنابة أى الرجوع.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۰

قوم لوط وحياة الخزى: مرّت فى آيات من سورة الأعراف إشارة إلى شىء من مصير قوم لوط، وفسّرنا ذلك فى محلّه، وهنا يتناول القرآن الكريم– وبمناسبة ما ذكره من قصص الأنبياء وأقوامهم وبما ورد فى الآيات المتقدمة عن قصة لوط وقومه– قسماً آخر من حياة هؤلاء القوم المنحرفين الضالين ليتابع بيان الهدف الأصلى ألا وهو سعادة المجتمع الإنسانى ونجاته بأسره. يبيّن القرآن الكريم فى هذا الصدد أوّلًا ... أنّه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهمّ من كل جانب «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

وقد ورد فى الروايات الإسلامية أنّ لوطاً كان فى مزرعَته حيث فوجىء بعدد من الشباب الوسيمين الصِباح الوجوه قادمون نحوه وراغبون فى النزول عنده ولرغبته باستضافتهم من جهة، ولعلمه بالواقع المرير الذى سيشهده فى مدينته الملوّثة بالانحراف الجنسى من جهة اخرى، كل ذلك أوجب له الهم ...

ومرّت هذه المسائل على شكل أفكار وصور مرهقة فى فكره، وتحدث مع نفسه «وَقَالَ هذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ»، لاحتمال الفضيحة والتورط فى مشاكل عويصة.

«سيىء»: مشتقة من ساء، ومعناها عدم الإرتياح وسوء الحال؛ و «الذرع»: تعنى «القلب» على قول؛ وكلمة «عصيب»: مشتقة من «العصب» ومعناه ربط الشىء بالآخر وشده شدّاً محكماً، وبما انّ الحوادث الصعبة تشدّ الإنسان وكأنّها تسلبه راحته فيظل مبلبل الأفكار سُميت «عصيبة» وتطلق العرب على الأيام شديدة الحر أنّها عصيبة أيضاً.

وورد فى بعض الروايات أنّ لوطاً أخّر ضيوفه كثيراً حتى حلول الليل، فلعله يستطيع أن يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، ويقوم بواجب الضيافة دون أن يُساء إلى أضيافه، ولكن ما عسى أن يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، وكانت امرأة لوط امرأة كافرة وتساعد قومه الظالمين، وقد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف إلى بيتها، فصعدت إلى أعلى السطح وصفقت بيديها أوّلًا، ثم بإشعال النار وتصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت فى «الشِباك».

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» «١». وكانت حياة هؤلاء

(١) «يُهرعون»: مشتقّة من الإهراع ومعناها السياقة الشديدة، فكأنّما تسوق غريزة هؤلاء إيّاهم بشدّة إلى أضيافه.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤١١

القوم مسودّة وملطخة بالعار «وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيَاتِ» فكان من حق لوط أن يضيق ذرعاً ويصرخ ممّا يرى من شدّة استيائه و «قَالَ يَا قَوْمِ هؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» فأنا مستعد أنّ أزوجهن إياكم «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» يصدكم عن هذه الأعمال المخزية وينصحكم بالإقلاع عنها.

تعبير لوط «أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» فى آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف عن هذه الحقيقة، وهى أنّ وجود رجل– ولو رجل واحد رشيد– بين قوم ما وقبيلة ما يكفى لردعهم من أعمالهم المخزية، أى لو كان فيكم رجل عاقل ذو لبّ ورشد لما قصدتم بيتى ابتغاء الإعتداء على ضيفى!

ولكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطاً بكل وقاحة وعدم حياء و «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ».

وهنا وجد لوط– هذا النبى العظيم– نفسه محاصراً فى هذه الحادثة المريرة فنادى و «قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قَوَّةً» أو سند من العشيرة والأتباع والمعاهدين الأقوياء حتى اتغلّب عليكم «أَوْ ءَاوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ».

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) عاقبة الجماعة الظالمة: وأخيراً حين شاهد الملائكة (رسل اللّه) الأضياف، ما عليه لوط من

عذاب النفس کشفوا «ستاراً» عن أسرار عملهم و «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبّکَ لَن يَصِلُوا إِلَيْکَ».

نقرأ فی الآیة (۳۷) من سورة القمر: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ». ونقرأ فی بعض الروایات- أیضاً- أنّ أحد الملائکة غشّی وجوههم بحفنة من التراب فعموا جمیعاً.

إنّ اطلاع لوط علیه السلام علی حال أضیافه ومأموریتهم، دنا زمن السرور والنجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفین المتوحشین.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۲

ثم أمر الأضیاف لوطاً- مباشرة- أن یرحل هو وأهله من هذه البلدة وقالوا: «فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ».

ولکن کونوا علی حذر «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنکُمْ أَحَدٌ» إلی الوراء «إِلَّا امْرَأَتَکَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ» لتخلّفها عن أمر اللّه وعصیانها مع العُصاة الظَلَمة.

وخلاصة الأمر فإنّ آخر ما قاله رسل اللّه- أی الملائکة- للوط علیه السلام: إنّ العذاب سینزل قومه صباحاً. ومع أوّل شعاع للشمس سیحین غروب حیاة هؤلاء: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ».

ونقرأ فی بعض الرّوایات أنّ الملائکة حین وعدوا لوطاً بنزول العذاب صباحاً، سأل لوط الملائکة لشدة ما لقیه من قومه مما ساءه، وجرح قلبه وملأه همّاً وغمّاً أن یعجلوا علیهم بالعذاب فی الحال فإنّ الأفضل الإسراع، ولکن الملائکة طمأنوه بقولهم: «أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ».

وأخیراً دنت لحظة العذاب وتصرّمت ساعات انتظار لوط النبی علیه السلام وکما یقول القرآن الکریم: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجّيلٍ مَّنضُودٍ».

وکلمة «سجّیل»: فارسیة الأصل، وهی مرکبة من «سنگ» ومعناها الحجارة و «گِل» ومعناها الطین، فعلی هذا هی شیء لاصلباً کالحجارة ولا رخواً کالزهرة، وإنّما هی برزخ «وسط» بینهما. و «المنضود»: من مادة «نضد» ومعناه کون الشیء مصفوفاً وموضوعاً بشکل متتابع ومتراکم، أی إنّ هذا المطر کان متتابعاً سریعاً إلی درجة حتی کأنّ هذه الأحجار تتراکب بعضها فوق بعض فتکون «منضودة».

ولکن هذه الأحجار لیست أحجاراً عادیة، بل هی أحجار فیها علامات عند اللّه «مُسَوَّمَةً عِندَ رَبّکَ».

ولا تتصوروا أنّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل «وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصیر امتهم کما استهزؤوا بالإیمان والأخلاق الإنسانیة، وکلّما نصحهم نبیّهم باخلاص وحرقة قلب لم یسمعوا له وسخروا منه.

تحریم الانحراف الجنسی: یُعدّ المیل الجنسی إلی المماثل «سواء وقع ذلک بین الرجال أو بین النساء» من الذنوب الکبیرة فی الإسلام، وقد جعل الإسلام لکل من الحالتین حداً شرعیاً.

والرّوایات التی تذم المیل الجنسی إلی المماثل والمنقولة عن قادة الإسلام کثیرة ومذهلة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۳

والمطالع لهذه الروایات یحسّ أنّ قبح هذا الذنب لیس له مثیل بین الذنوب.

نقرأ مثلًا من هذه الروایات روایة عن الإمام الصادق علیه السلام أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال: «من جامع غلاماً جاء یوم القیامة جنباً لا ینقّیه ماء الدنیا، وغضب اللّه علیه ولعنه وأعدّ له جهنم وساءت مصیراً. ثمّ قال: إنّ الذّکر یرکب الذّکر فیهتزّ العرش لذلک» «۱».

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶) مدین بلدة شعیب: مع انتهاء قصة قوم لوط تصل النوبة إلی قوم شعیب وأهل مدین، اولئک الذین حادوا عن طریق التوحید وهاموا علی وجوههم فی شرکهم وعبادة الأصنام، ولم یعبدوا الأصنام

فحسب، بل الدرهم والدينار والثروة والمال، ومن أجل ذلك فإنّهم لوّثوا تجارتهم الرابحة وكسبهم الوفير بالغش والبخس والفساد. فى بداية القصة تقول الآية: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا». وكلمة «أخاهم» تستعمل فى مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبّة من قِبَل الأنبياء لقومهم.

و «مدين»: اسم لمدينة شعيب وقبيلته، وتقع المدينة شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء إسماعيل، وكانوا يتاجرون مع أهل مصر ولبنان وفلسطين.

هذا النبى وهذا الأخ الودود المشفق على قومه- كأى نبى فى اسلوبه وطريقته فى بداية الدعوة- دعاهم أوّلًا إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد» وقال: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ثم أشار إلى أحد المفاسد الاقتصادية التى هى من افرازات عبادة الأصنام والشرك، وكانت رائجة عند أهل مدين يومئذ جدّاً، وقال: «وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ». أى حال البيع والشراء.

---

(١) وسائل الشيعة ١۴/ ٢۴٩.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴١۴

ويشير هذا النبى العظيم بعد هذا الأمر إلى علتين: العلة الاولى: هى قوله «إِنِّى أَرَيكُم بِخَيْرٍ».

يقول أوّلًا: إنّ قبول نصحى يكون سبباً لتفتح أبواب الخير عليكم وتقديم التجارة وهبوط سطح القيمة واستقرار المجتمع.

ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه الجملة «إِنِّى أَرَيكُم بِخَيْرٍ» أنّ شعيباً يقول لهم: إنّى أراكم منعمين وفى خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة لعبادة الأصنام وإضاعة حقوق الناس والكفر بدلًا من الشكر على نعم اللَّه سبحانه.

وثانياً: «وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» بسبب إصراركم على الشرك والتطفيف فى الوزن وكفران النعمة ... الخ.

وكلمة «محيط»: جاءت صفة ليوم، أى يوم شامل ذو إحاطة، وشمول اليوم يعنى شمول العذاب والعقاب فى ذلك اليوم، وهذا التعبير فيه إشارة إلى عذاب الآخرة كما يشير إلى عقاب الدنيا الشامل.

و الآية الاخرى تؤكّد على نظامهم الاقتصادى، فإذا كان شعيب قد نهى قومه عن قلة البيع والبخس فى المكيال، فهنا يدعوهم إلى إيفاء الحقوق والعدل والقسط حيث يقول: «وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ».

ويجب أن يحكم هذا الأصل «وهو اقامة القسط والعدل، وإعطاء كل ذى حق حقه» على مجتمعكم بأسره.

ثم يخطو خطوة أوسع ويقول: «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ».

و «البخس»: معناه فى اللغة التقليل، وجاء هنا بمعنى الظلم أيضاً.

ونجد فى نهاية الآية أنّ شعيباً يخطو خطوةً اخرى أوسع ويقول لقومه: «وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

فالفساد يقع عن طريق البيع ويقع عن طريق غصب حقوق الناس والإعتداء على حقوق الآخرين، والفساد أيضاً يقع فى الإخلال بالموازين والمقاييس الاجتماعية، ويقع أيضاً ببخس الناس أشياءهم وأموالهم، وأخيراً يقع الفساد على الحيثيات بالإعتداء على حرمتها وعلى النواميس وأرواح الناس.

إنّ الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعية بجلاء، وهى أنّه بعد الإعتقاد بالتوحيد والنظر الفكرى الصحيح، يُنظر إلى الاقتصاد السليم بأهمية خاصة، كما تدلّان على أنّ

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴١۵

الإخلال بالنظام الاقتصادى سيكون أساساً للفساد الوسيع فى المجتمع.

ثم يخبرهم أنّ زيادة الثروة- التى تصل إلى أيديكم عن طريق الظلم واستثمار الآخرين- ليست هى السبب فى غناكم، بل ما يغنيكم

هو «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

التعبير ب «بقيت اللّه» إمّا لأنّ الربح الحلال القليل المترشح عن أمر اللّه فهو «بقيت اللّه» وإمّا لأنّ الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم اللّه وبقاء البركات ... وإمّا لأنّه يشير إلى الجزاء والثواب المعنوى الذى يبقى إلى الأبد.

وقد قلنا مراراً إنّ آيات القرآن بالرغم من نزولها فى موارد خاصة، إلّاأنّها تحمل مفاهيم جامعة وكلية، بحيث يمكن أن يكون لها مصداق فى العصور والقرون التالية وتنطبق على مجال أوسع أيضاً.

صحيح أنّ المخاطبين فى الآية المتقدمة هم قوم شعيب، والمراد من (بقيت اللّه) هو الربح ورأس المال الحلال أو الثواب الإلهى، إلّاأنّ كل موجود نافع باق من قبل اللّه للبشرية، ويكون أساس سعادتها وخيرها يعدّ (بقيت اللّه) أيضاً.

ومن هنا فإنّ «المهدى الموعود عليه السلام» آخر إمام وأعظم قائد ثورى بعد النبى صلى الله عليه و آله من أجلى مصاديق (بقيت اللّه) وهو أجدر من غيره بهذا اللقب، خاصة أنّه الوحيد الذى بقى بعد الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

وفى نهاية الآية- محل البحث- نقرأ على لسان شعيب: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ». إذ وظيفته هى البلاغ وليس مسؤولًا على «إجبار» أحد أبداً.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۶

المنطق الواهى: والآن فَلنَر ما كان ردّ القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السماوى «شعيب». فبما إنّهم كانوا يتصورون أنّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، ودلالة على أصالة ثقافتهم، وكانوا لا يرفعون اليد عن الغش فى المعاملة وتحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالوا: «يَا شُعَيْبُ أَصَلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». ونترك حريتنا فى التصرف بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها «أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشؤُا». إنّ هذا بعيد منك «إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ».

لقد كان قوم شعيب واقعين فى مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون أنّه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قِبَل مالكيها، فى حين يجب أن تكون الامور المالية تحت ضوابط صحيحة ومحسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، وإلّا فستجرّ الحرية المطلقة المجتمع نحو الانحراف والفساد.

وعلى كل حال هؤلاء الأغنياء فلعلهم كانوا يتصورون متساءلين: إنّ هذه الأذكار والأدعية ما عسى أن تؤثر فى هذه الامور؟ على حين لو كان اولئك يفكرون جيداً لأدركوا هذا الأمر الواقعى وهو أنّ الصلاة توقظ فى الإنسان الإحساس بالمسؤولية والتقوى ومخافة اللّه ومعرفة الحقوق، وتذكره باللّه وبمحكمة عدل اللّه، ولذلك فهى تخلّصه من الشرك وعبادة الأصنام والتقليد الأعمى للسلف الجاهل وبخس الناس أشياءهم، وعن أنواع الغش والخداع ... الخ.

ولكن شعيباً ردّ على من اتّهمه بالسفه وقلة العقل بكلام متين و «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا».

ثمّ يضيف هذا النبى العظيم قائلًا: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهكُمْ عَنْهُ». فلا تتصوروا أنّنى أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا أفعل ذلك كله، كلا فإنّنى لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً.

ويستفاد من هذه الجملة أنّهم كانوا يتهمون شعيباً بأنّه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفى هذا الموضوع صراحةً ويقول تعقيباً على ما سبق «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلحَ مَا اسْتَطَعْتُ».

وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلائق والروابط الاجتماعية وأنظمتها «وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۱۷

بِاللَّهِ» للوصول إلى هذا الهدف.

وعلى هذا فإنّنى، ولأجل أداء رسالتى والوصول إلى هذا الهدف الكبير «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وأسعى للإستعانة به على حل المشاكل، وأتوكل عليه فى تحمّل الشدائد فى هذا الطريق، وأعوذ إليه أيضاً.

ثم ينبههم إلى مسألة أخلاقية، وهى أنّه كثيراً ما يحدث للإنسان أنّه لا يعرف مصالحه وينسى مصيره، وذلك بسبب بغضه وعدائه بالنسبة لشخص آخر أو التعصب الأعمى واللجاجة فى شىء ما، فيقول لهم «وَيَا قَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى» فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و «أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صلِحٍ» وما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطرهم اللَّه بحجارة من سجيل منضود وقلب مدنهم فجعل عاليها سافلها «وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ».

و «مدين»: التى كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، لأنّ الموطنين كلاهما كانا من مناطق «الشامات» وأمّا من الناحية العملية فالفرق كبير بين الانحراف الجنسى الذى كان عليه قوم لوط والانحراف الاقتصادى الذى كان عليه قوم شعيب، لكن كليهما يتشابهان فى توليد الفساد فى المجتمع والإخلال بالنظام الاجتماعى وإماتة الفضائل الخُلقية وإشاعة الانحراف.

ثم يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما ما كان يؤكّد عليه جميع الأنبياء المتقدمين.

الأوّل: قوله: «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ». أى لتطهروا من الذنوب وتجتنبوا الشرك وعبادة الأوثان والخيانة فى المعاملات. والثانى: قوله: «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» أى ارجعوا إليه.

والواقع أنّ الاستغفار توقف فى مسير الذنب وغسل النفس، والتوبة عودة إلى اللَّه الكمال المطلق.

واعلموا أنّه مهما يكن الذنب عظيماً والوزر ثقيلًا فإنّ طريق العودة إليه تعالى مفتوح وذلك لأنّ «رَبِّى رَّحِيمٌ وَدُودٌ».

«الودود»: صيغة مبالغة مشتقة من الود ومعناه المحبة، وذكر هذه الكلمة بعد كلمة «رحيم» إشارة إلى أنّ اللَّه يلتفت بحكم رحمته إلى المذنبين التائبين، بل هو إضافة إلى ذلك يحبّهم كثيراً لأنّ رحمته ومحبّته هما الدافع لقبول الاستغفار وتوبة العباد.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۱۸

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) التهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه: إنّ شعيباً هذا النبى العظيم- الذى لُقّب بخطيب الأنبياء «١» لخطبه المعروفة والواضحة، والتى كانت أفضل شاهد أمين للحياة المادية والمعنوية لهذه الجماعة- واصل محاججته لقومه بالصبر والأناة والقلب المحترق، ولكن تعالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم الضالون؟!

لقد أجابوه بأربع جمل كلها تحكى عن جهلهم ولجاجتهم:

فأوّلها: أنّهم قالوا: «يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ».

والثانية: قولهم «وَإِنَّا لَنَرَيكَ فِينَا ضَعِيفًا».

والثالثة: هى أنّه لا تظنّ أنّنا نتردد فى القضاء عليك بأبشع صورة خوفاً منك ومن بأسك، ولكن احترامنا لعشيرتك هو الذى يمنعنا من ذلك «وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنكَ».

«الرهط»: تطلق فى لغة العرب على الجماعة التى مجموع أنصارها ثلاثة إلى سبعة، أو عشرة، أو على قول- وهو الحد الأكثر- تطلق على أربعين نفراً.

وهم يشيرون بذلك إلى أنّ قبيلتك تتمتع بالقوة الكافية مقابل قوتنا، ولكن تمنعنا أمور اخرى.

وقولهم الأخير: «وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» فمهما كانت منزلتك فى عشيرتك، ومهما كنت كبيراً فى قبيلتك إلّاأنّه لا منزلة لك عندنا لسلوكك المخالف والمرفوض.

ولكن شعيباً دون أن يتأثر بكلماتهم الرخيصة واتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب وبيانه الشائق متعجباً وقال: «يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ» أفتذرونى من أجل

(۱) بحار الأنوار ۱۲/ ۳۸۷.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۹

رهطى وقبيلتى التى لا تتجاوز عدّة أنفار ولا تصغون لكلامى فى اللَّه؟ وهل يمكن أن نقارن عدة أفراد بعظمة اللَّه سبحانه ... وأنتم لم تهابوه وتوقّروه «وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا».

وفى الختام يقول لهم: لا تظنوا أنّ اللَّه غافل عنكم أو أنّه لا يرى أعمالكم ولا يسمع كلامكم، بل «إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

فحيث أنّ المشركين من قوم شعيب هددوهُ فى آخر كلامهم بالرجم، وأبرزوا قوتهم أمامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على النحو التالى: «وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ» «۱».

وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵) عاقبة المفسدين فى مدين: قرأنا فى قصص الأقوام السابقين مراراً، أنّ الأنبياء كانوا فى المرحلة الاولى يدعونهم إلى اللَّه، وفى المرحلة التى بعدها حيث لم ينفع النصح للجماعة ينذرها نبيّها ويخوّفها من عذاب اللَّه، وفى المرحلة الثالثه، تبدأ مرحلة التصفية وينزل العقاب. وفى شأن قوم شعيب- أى أهل مدين- وصل الأمر إلى المرحلة النهائية أيضاً، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ». «الصيحة»: معناها فى اللغة كل صوت عظيم، والقرآن الكريم يحكى عن هلاك أقوام متعددين بالصيحة السماوية، هذه الصيحة يحتمل أن تكون صاعقة من السماء أو ما شابهها.

ثم يعقّب القرآن فيقول: «فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». أى: أجساداً هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر ...

وهكذا طُوى سجلّ وطومار حياتهم «كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا». وانطفأ بريق كل شيء، فلا ثروة ولا قصور ولا ظلم ولا زينة كل ذلك تلاشى وانعدم.

وكما كانت نهاية عاد وثمود- وقد حكى عنهما القرآن- فهو يقول عن نهاية مدين أيضاً

(۱) «الرقيب»: معناه الحافظ والمراقب وهو مشتق فى الأصل من الرقبة وإنّما سُمّى بذلك لأنّه يكون حافظاً على رقبة شخص ما «كناية عن أنّه مراقب على روحه» أو يحرك الرقبة ليؤدّى دور الرقابة والحفظ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۰

مختصر الامثل ج ۲ ۴۴۹

«أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ». والمقصود من كلمة «مدين» أهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة اللَّه وكانوا من الهالكين.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (۹۹) البطل المبارز لفرعون: بعد انتهاء

قصّة شعيب وأهل مدين، يُشير القرآن الكريم إلى زاوية من قصة موسى ومواجهته لفرعون وهذه القصة هى القصة السابعة من قصص الأنبياء فى هذه السورة. تحدث القرآن الكريم عن قصة موسى عليه السلام وفرعون وبنى اسرائيل أكثر من مائة مرّة. وخصوصية قصة موسى عليه السلام بالنسبة لقصص الأنبياء- كشعيب وصالح وهود ولوط عليهم السلام التى قرأناها فى ما سبق- هى أنّ اولئك الأنبياء عليهم السلام واجهوا الأقوام الضالين، لكن موسى عليه السلام واجه إضافة إلى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبد هو فرعون الجبار. ولكن ينبغى الإلتفات إلى أنّنا نقرأ فى هذا القسم من قصة موسى زاوية صغيرة فحسب ولكنها فى الوقت ذاته تحمل رسالة كبيرة للناس جميعاً. يقول القرآن الكريم أوّلًا:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَآيَاتِنَا وَسُلْطنٍ مُّبِينٍ».

«السلطان»: بمعنى التسلط، يستعمل تارةً فى السلطة الظاهرية، وأحياناً فى السلطة المنطقية، السلطة التى تحاصر المخالف فى طريق مسدود بحيث لا يجد طريقاً للفرار.

ويبدو فى الآية المتقدمة أنّ «السلطان» استعمل فى المعنى الثانى، والمراد ب «الآيات» هى معاجز موسى الجليلة.

إنّ موسى ارسل بتلك المعجزات القاصمة وذلك المنطق القوى «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

«الملأ»: تُطلق على الذين يملأ مظهرهم العيون بالرغم من خلوّ المحتوى الداخلى، وفى منطق القرآن تطلق هذه الكلمة غالباً على الوجوه والأشراف والأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين وبالقوى الظالمة ... إلّاأنّ جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنّهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة ... لمنطقه الحق ومعجزاته

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۱

«فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ». ولكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس إلى الحياة السعيدة أوضمان نجاتهم وتكاملهم: «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ». ويوم الحشر حين يأتى الناس عرصات القيامة فإنّ زعماؤهم وقادتهم فى الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يُرى فرعون هناك: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ» وبدلًا من أن ينقذهم ويخلصهم من حرارة المحشر وعطشه يوصلهم إلى جهنم «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ». فبدلًا من أن يسكن عطش أتباعه هناك يحرق وجودهم وبدلًا من الإرواء يزيدهم ظمأ إلى ظمأ.

ثم يقول القرآن: «وَأُتْبِعُوا فِى هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيمَةِ». فأسماؤهم الذليلة تثبت على صفحات التاريخ أبداً على أنّهم قوم ضالون وجبابرة، فقد خسروا الدنيا والآخرة وساءت النار لهم عطاء وجزاءً «بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ».

«الرفد»: فى الأصل معناه الإعانة على القيام بعمل معين، ثمّ أطلقت هذه الكلمة على العطاء لأنّه إعانة من قِبَل المُعطى إلى المُطعى له.

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (۱۰۰) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) وَ مَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (۱۰۴) فى آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقوام السابقين ولمحات من تاريخ أنبيائهم، وهنا إشارة إلى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مرّ من الحوادث والأنباء حيث يقول: «ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ».

«قائم»: تشير إلى المدن والعمارات التى لا تزال باقية من الأقوام السابقين.

«حصيد»: معناها اللغوى قطع النباتات بالمنجل، وفى هذه الكلمة إشارة إلى بعض

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۲

الأراضى البائرة، كأرض قوم نوح وأرض قوم لوط، حيث إنّ واحدة منهما دمرها الغرق والثانية امطرت بالحجارة. «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ» حيث ركنوا ولجأوا إلى الأصنام والآلهة «المزعومة» «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا

جَاءَ أَمْرُ رَبِّکَ» بل زادوهم ضرراً وخسراناً «وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ» «۱».

«وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّکَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ» فلا يدعها على حالها و «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ».

هذا قانون إلهى عام ومنهج دائم، فما من قوم أو امة من الناس يتجاوزون حدود اللّه ويمدون أيديهم للظلم ولا يكترثون لنصائح أنبيائهم ومواعظهم، إلّاأخذهم اللّه أخذاً شديداً واعتصرتهم قبضة العذاب.

وبالطبع فإنّ الظلم بمعناه الواسع يشمل جميع الذنوب، ووصِفت القرية أو المدينةُ بأنّها «ظالمة» مع أنّ الوصف ينبغى أن يكون لساكنيها، فكأنّما هناك مسألة دقيقة وهى أنّ أهل هذه المدينة انغمسوا فى الظلم إلى درجة حتى كأنّ المدينة أصبحت مغموسة فى الظلم أيضاً.

وبما إنّ هذا قانون كلى فإنّ القرآن يقول مباشرة: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْأَخِرَةِ». لأنّ الدنيا لا تعدّ شيئاً إزاء الآخرة، وجميع ما فى الدنيا حقير حتى ثوابها وعقابها، والعالم الآخر أوسع- من جميع النواحى- من هذه الدنيا، فالمؤمنون بيوم القيامة ينظرون بعين العبرة لدى مشاهدة هذه المُثُل والنماذج فى الدنيا، ويواصلون طريقهم.

وفى ختام الآية إشارة إلى وصفين من أوصاف يوم القيامة حيث يقول القرآن: «ذلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ».

هى إشارة إلى أنّ القوانين والسنن الإلهية كما هى عامّة فى هذا العالم، فإنّ اجتماع الناس فى تلك المحكمة الإلهية أيضاً عام.

وبما أنّ البعض قد يتوهم أنّ الحديث عن ذلك اليوم لم يحن أجله فهو نسيئة وغير معلوم وقت حلوله، لهذا فإنّ القرآن يقول مباشرة: «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجلٍ مَّعْدُودٍ».

وذلك أيضاً لمصلحة واضحة جليّة ليرى الناس ميادين الاختبار والتعلم، وليتجلى آخر منهج للأنبياء.

---

(۱) «التتبيب»: مشتق من مادة «تبّ» ومعناه الاستمرار فى الضرر، وقد يأتى بمعنى الهلاك أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۳

والتعبير بكلمة «معدود» إشارة إلى قرب يوم القيامة، لأنّ كل شيء يقع تحت العدّ والحساب فهو محدود وقريب.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (۱۰۵) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (۱۰۶) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (۱۰۷) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (۱۰۸) السعادة والشقاوة: أشير فى الآيات المتقدمة إلى مسألة القيامة واجتماع الناس كلهم فى تلك المحكمة العظيمة ... وهذه الآيات- محل البحث- بيّنت زاوية من عواقب الناس ومصيرهم فى ذلك اليوم، إذ تقول الآيات أوّلًا: «يَوْمَ يَأْتِ لَاتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ».

إنّ الناس يقطعون فى ذلك اليوم مراحل مختلفة ... وكل مرحلة لها خصوصياتها، ففى قسم من المراحل لا يُسألون أبداً حتى أنّ أفواههم يُختم عليها فلا- يتكلمون، وإنّما تنطق أعضاء أجسادهم التى حفظت آثار أعمالها بلغة من دون لسان، وفى المراحل الاخرى يرفع الختم أو القفل عن أفواههم ويتكلمون بإذن اللّه فيعترفون بأخطائهم وذنوبهم ويلوم المخطئون بعضهم بعضاً، بل يحاولون أن يُلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

ويشار فى نهاية الآية إلى تقسيم الناس جميعاً إلى طائفتين: طائفة محظوظة، واخرى بائسة تعيسة «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ». وليس هذا الشقاء وتلك السعادة سوى نتيجة الأعمال والأقوال والنيّات التى سلفت من الإنسان فى الدنيا.

ثم تشرح الآيات حالات السعداء والأشقياء حيث تقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ». وتضيف حاكية عن حالهم أيضاً: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

الطريف أنّ لفظ «شقوا» في الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبنى للمعلوم، ولفظ «سعدوا» ورد بصيغة المبنى للمجهول، ولعل فى هذا الاختلاف فى التعبير إشارة لطيفة إلى هذه المسألة الدقيقة، وهى أنّ الإنسان يطوى طريق الشقاء بخطاه، ولكن لابد لطىّ طريق السعادة من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۴

الإمداد والعون الإلهى، وإلّا فإنّه لا يوفّق فى مسيره، ولا شك أنّ هذا الإمداد والعون يشمل اولئك الذين يخطون خطواتهم الاولى بإرادتهم واختيارهم فحسب وكانت فيهم اللياقة والجدارة لهذا الإمداد. (فلاحظوا بدقة).

بحثان

۱- مسألة الخلود فى القرآن: معنى «الخلود» لغة البقاء الطويل، كما جاء بمعنى الأبد أيضاً، فكلمة «الخلود» لا تعنى الأبد وحده لأنّه تشمل كل بقاء طويل. ولكن ذُكرت فى كثير من آيات القرآن مع قيود يفهم منها معنى الأبد، فمثلًا فى الآية (۱۰۰) من سورة التوبة، والآية (۱۱) من سورة الطلاق، والآية (۹) من سورة التغابن، حين تذكر هذه الآيات أهل الجنّة تأتى بالتعبير عنهم «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» ومفهومها أبدية الجنة لهؤلاء، ونقرأ فى آيات القرآن الاخرى وصف أهل النار كالآية (۱۶۹) من سورة النساء، والآية (۲۳) من سورة الجن هذا التعبير أيضاً «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» وهو دليل على عذابهم الأبدى.

وتعبيرات اخرى مثل الآية (۳) من سورة الكهف «مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا» والآية (۱۰۸) من سورة الكهف أيضاً: «لَايَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا» وأمثالها تدل بصورة قطعية على أنّ طائفة من أهل الجنة وطائفة من أهل النار سيبقون فى العذاب أو النعمة.

فالآيات- محل البحث- أيضاً تبيّن الدوام.

۲- أسباب السعادة والشقاء: السعادة ضالة كل الناس، وهى توفّر أسباب تكامل الفرد فى المجتمع، والنقطة المقابلة لها هى الشقاء وهو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح والتقدم والتكامل. ولكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ أساس السعادة أو الشقاء هو إرادة الإنسان نفسه، فهو يستطيع أن يوفر الوسائل لترشيد نفسه وحتى مجتمعه، وهو الذى يستطيع أن يواجه عوامل الشقاء ويهزمها أو يستسلم لها.

وليس الشقاء أو السعادة فى منطق الوحى ومدرسة الأنبياء شيئاً من ذات الإنسان وحتى النواقص فى المحيط والعائلة والوراثة كل ذلك قابل للتغيير بتصميم الإنسان وإرادته إلّا أن ننكر أصل الإرادة فى الإنسان وحريته، ونعدّه محكوماً بالظروف الجبرية، وكل من سعادته أو شقائه ذاتى أو هو نتيجة جبرية لمحيطه، وما إلى ذلك.

وهذا الرأى مرفوض فى نظر الأنبياء وفى نظر المذهب العقلى أيضاً.

الطريف أنّنا نجد فى الرّوايات المنقولة عن النبى صلى الله عليه و آله وأهل البيت عليهم السلام إشارات إلى مسائل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۵

مختلفة على أنّها أسباب السعادة، أو أسباب الشقاء ... بحيث يتعرف الإنسان خلال مطالعتها على طريقة التفكير الإسلامى فى هذه المسألة المهمّة، وسيقفُ على الواقعيات العينية وأسباب السعادة الحقيقية.

فى كتاب الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «حقيقة السعادة أن يختم للرجل عمله بالسعادة، وحقيقة الشقاوة أن يختم للمرء عمله بالشقاوة».

ويقول نبى الخاتم صلى الله عليه و آله أيضاً: «أربع من السعادة وأربع من الشقاوة، فالأربع التى من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب البهىّ. والأربع التى من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء» «۱».

وإذا لاحظنا أسباب السعادة والشقاوة فى الأحاديث المتقدمة وحقيقتهما وأثرهما البالغ فى حياة البشر، وقارنّاهما مع الأسباب والمسائل الخرافية التى يعتقد بها جمع كثير- حتى فى عصرنا- لوصلنا إلى هذا الواقع الذى يؤكّد أنّ التعاليم الإسلامية منطقية ومدروسة إلى

أقصى حد.

فَلَا تَکُ فِی مِرْیَۀٍ مِمَّا یَعْبُدُ هؤُلَاءِ مَا یَعْبُدُونَ إِلَّا کَمَا یَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِیبَهُمْ غَیْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَیْنَا مُوسَی الْکِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ وَ لَوْ لَا کَلِمَۀٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ کُلًّا لَمَّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ کَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَکَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۱۱۲) الاستقامهٔ والثبات: هذه الآیات بمثابهٔ تسلیهٔ لخاطر النبی صلی الله علیه و آله کما أنّها نازلهٔ لبیان وظیفته ومسؤولیته، وفی الواقع إنّ من أهم النتائج التی یُتوصل إلیها من القصص السابقهٔ للُامم الماضیهٔ هی أن لا یکترث النبی ومن معه من أتباعه المؤمنون حقاً من کثرهٔ الأعداء، ولا یخافوا منهم، ولا یشکّوا أو یتردّدوا فی هزیمهٔ عبدهٔ الأصنام والظالمین الذی یقفون بوجوههم، وأن یواصلوا طریقهم ویعتمدوا علی اللَّه واثقین به. لذلک یقول القرآن الکریم فی

---

(۱) بحار الأنوار ۷۳/ ۱۵۴/ ۳۴.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۶

هذا الصدد: «فَلَا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِّمَّا یَعْبُدُ هؤُلَاءِ مَا یَعْبُدُونَ إِلَّا کَمَا یَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ» «۱».

ویقول بعدها مباشرة: «وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِیبَهُمْ غَیْرَ مَنقُوصٍ». إنّ هذه الآیهٔ تجسّم هذه الحقیقهٔ، وهی أنّ ما قرأناه من قصص الامم السابقهٔ لم یکن أسطورهٔ، کما أنّها لا تختص بالماضین، فهی سنّهٔ أبدیهٔ وخالدهٔ وهی لجمیع الناس ماضیاً وحاضراً ومستقبلًا.

ویسلّی القرآن قلب النبی صلی الله علیه و آله مرّهٔ اخری، فیحدّثه عن موسی وقومه قائلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَیْنَا مُوسَی الْکِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ».

ویقول إذا ما رأیت أنّ اللَّه لا یعجل العذاب علی قومک، فلأنّ مصلحهٔ الهدایهٔ والتعلیم والتربیهٔ لقومک توجب ذلک وإلّا فإنّ القرار الالهی المسبق یقتضی التعجیل بعملیهٔ التحکیم والقضاء وبالتالی إنزال العقاب «وَلَوْلَا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِّنْهُ مُرِیبٍ».

«مریب»: مشتقهٔ من «الریب» ومعناه الشک المقترن بسوء الظن والنظرهٔ السیئهٔ والقرائن المخالفهٔ، وعلی هذا فیکون مفهوم هذه الکلمهٔ أنّ عبدهٔ الأصنام ما کانوا یترددون فی مسألهٔ حقیقهٔ القرآن أو نزول العذاب علی المفسدین فحسب، بل کانوا یدّعون بأنّ لدیهم قرائن تخالف ذلک أیضاً.

ویضیف القرآن لمزید التأکید: «وَإِنَّ کُلًّا لَّمَّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمَالَهُمْ». وهذا الأمر لیس فیه صعوبهٔ علی اللَّه ولا حرج إذ: «إِنَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ».

الطریف أنّ القرآن یقول: «لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمَالَهُمْ» لیشیر مرّهٔ اخری إلی مسألهٔ تجسم الأعمال وأنّ الجزاء والثواب هما فی الحقیقهٔ أعمال الإنسان نفسه التی تتخذ شکلًا آخر وتصل إلیه ثانیهٔ.

وبعد ذکر قصص الأنبیاء والأمم السابقهٔ ورمز نجاحهم ونصرهم، وبعد تسلیهٔ قلب النبی صلی الله علیه و آله وتقویهٔ إرادته، یبیّن القرآن- عن هذا الطریق- أهمّ دُستور امر به النبی صلی الله علیه و آله وهو «فَاسْتَقِمْ کَمَا أُمِرْتَ».

«استقم» فی طریق الإرشاد والتبلیغ وأداء الوظائف الإلهیهٔ ونشر التعلیمات القرآنیهٔ.

ولکن هذه الإستقامهٔ لیست لینال فلان أو فلان مستقبلًا زاهراً، بل هی لمجرد طاعهٔ اللَّه

---

(۱) «المِریهٔ»: معناها التردد فی التصمیم علی أمر ما ....

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۷

واتّباع أمره. کما أنّ هذه الإستقامه لیست علیک وحدک، فعلیک أن تستقیم أنت «وَمَن تَابَ مَعَکَ» استقامهٔ خالیهٔ من کل زیادهٔ

ونقصان وإفراط أو تفريط «وَلَا تَطْغَوْا» إذ «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ولا تخفى عليه حركة ولا قول ولا أى خطة اخرى ... الخ.

المسؤولية الكبيرة: فى تفسير الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ الصحابة قالوا يا رسول اللّه لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: «أجل، شيبتنى هود وأخواتها».

وفى رواية اخرى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نزلت هذه الآية قال: «شمّروا شمّروا فما رُئى ضاحكاً».

والدليل واضح، لأنّ أربعة أوامر مهمة موجودة فى هذه الآية يلقى كل واحد منها عبئاً ثقيلًا على الكتف.

واليوم مسؤوليتنا المهمة- نحن المسلمين أيضاً، وبالخصوص قادة الإسلام- تتلخص فى هذه الكلمات الأربعة. وهى: الاستقامة، والإخلاص، وقيادة المؤمنين، وعدم الطغيان والتجاوز. ودون ربط هذه الامور بعضها إلى بعض فإنّ النصر على الأعداء الذين أحاطونا من كل جانب من الداخل والخارج، واستفادوا من جميع الأساليب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ... هذا النصر لايكون سوى أوهام فى مخيلة المسلمين.

وَ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣) الركون إلى الظالمين: إنّ هذه الآية تبيّن واحداً من أقوى وأهم الاسس والبرامج الاجتماعية والسياسية والعسكرية والعقائدية، فتخاطب عامة المسلمين ليؤدوا وظيفتهم القطعية فتقول: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» «١». والسبب واضح «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» ومعلوم عندئذ حالكم «ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ».

فى أى الامور لا ينبغى الركون إلى الظالمين؟ بديهى أنّه فى الدرجة الاولى لا يصح الإشتراك معهم فى الظلم أو طلب الإعانة منهم، وبالدرجة الثانية الاعتماد عليهم فيما يكون فيه ضعف المجتمع الإسلامى وسلب استقلاله واعتماده على نفسه وتبديله إلى مجتمع تابع

---

(١) «الركون»: مشتق من مادة «رُكن» ومعناه العمود الضخم من الحجر أو الجدار الذى يربط البناء أو الأشياءالاخرى بعضها إلى بعض، ثمّ اطلق هذا اللفظ على الإعتماد أو الاستناد إلى الشىء.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٢٨

وضعيف لا يستحق الحياة، لأنّ هذا الركون ليس فيه نتيجة سوى الهزيمة والتبعية للمجتمع الإسلامى. وأمّا ما نلاحظه أحياناً من مسائل التبادل التجارى والروابط العلمية بين المسلمين والمجتمعات غير الإسلامية على أساس حفظ منافع المسلمين واستقلال المجتمعات الإسلامية وثباتها، فهذا ليس داخلًا فى مفهوم الركون إلى الظالمين ولم يكن شيئاً ممنوعاً من وجهة نظر الإسلام، وفى عصر النبى نفسه صلى الله عليه و آله والأعصار التى تلته كانت هذه الامور موجودة وطبيعية أيضاً.

وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١۴) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١۵) الصلاة والصبر: هذه الآيات تشير إلى أمرين من أهمّ الأوامر الإسلامية، وهما فى الواقع روح الإيمان وقاعدة الإسلام، فيأتى الأمر أوّلًا بالصلاة: «وَأَقِمِ الصَّلَوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ».

وظاهر التعبير من «طَرَفَيِ النَّهَارِ» هو بيان صلاة الصبح وصلاة المغرب اللتين يقعان طرفى النهار؛ و «الزلف»: جمع «زلفة» التى تعنى القرب، ويشار بها إلى أوّل الليل القريب من النهار فتنطبق على صلاة العشاء.

ولأهمية الصلوات اليومية- خاصة- وجميع العبادات والطاعات والحسنات- عموماً- فإنّ القرآن يشير بهذا التعبير: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ».

والآية آنفة الذكر كسائر آيات القرآن تبيّن تأثير الأعمال الصالحة فى محو أثر الأعمال السيئة.

العمل الصالح الصادر من الهدف الإلهى يهب روح الإنسان لطافةً بامكانها أن تغسل آثار الذنوب وأن تبدّل ظلمات نفسه إلى أنوار.

الأهمية القصوى للصلاة: تلاحظ فى الرّوايات المتعددة المنقولة عن النبى صلى الله عليه و آله والأئمة الطاهرين عليهم السلام تعبيرات

تكشف عن الأهمية الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام. فى تفسير مجمع البيان عن على بن أبى طالب عليه السلام أنّه قال: «كنّا مع رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى المسجد، ننتظر الصلاة فقام رجل فقال: يا رسول اللّه إنّى أصبت ذنباً. فأعرض عنه، فلمّا قضى النبى صلى الله عليه و آله الصلاة قام الرجل فأعاد القول، فقال النبى صلى الله عليه و آله: أليس قد صلّيت معنا هذه الصلاة، وأحسنت لها الطهور؟ قال بلى. قال: فإنّها كفارة ذنبك».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۹

متى ما أدّيت الصلاة بشرائطها فإنّها تنقل الإنسان إلى عالم من المعنوية والروحانية بحيث توثق علائقه الإيمانية باللّه، وتغسل عن قلبه وروحه الأدران وآثار الذنوب.

الصلاة تجير الإنسان من الذنب، وتجلو صدأ القلوب.

الصلاة تجذّر الملكات السامية للإنسان فى أعماق الروح البشرية، والصلاة تقوى الإرادة وتطهر القلب والروح، وبهذا الترتيب فإن الصلاة الواعية الفاعلة هى مذهب تربوى عظيم.

وتعقيباً على تأثير الصلاة فى بناء شخصية الإنسان وبيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتى الأمر بالصبر فى الآية الاخرى بعدها: «وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». ومعنى ذلك أنّ العمل الصالح لا يتيسر دون صبر ومقاومة.

إنّ «الصبر» فى هذه الآية يشمل كل أنواع الصبر أمام المشاكل والمخالفات والأذى والطغيان والمصائب المختلفة، فالصمود أمام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر.

«الصبر» أصل كلى وأساس إسلامى، يأتى أحياناً فى القرآن مقروناً بالصلاة، ولعل ذلك آت من أنّ الصلاة تبعث فى الإنسان الحركة، والأمر بالصبر يوجد المقاومة، وهذان الأمران، أى «الحركة والمقاومة» حين يكونان جنباً إلى جنب يثمران كل اشكال النجاح والموفقية.

فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (۱۱۷) عامل الإنحراف والفساد فى المجتمعات: من أجل إكمال البحوث السابقة ذكر فى هاتين الآيتين أصل أساسى اجتماعى يضمن نجاة المجتمعات من الفساد، وهو أنّه مادام هناك فى كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين والملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد والانحراف، ويأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً ودينياً، فإنّ هذا المجتمع سيكون مصوناً من الزيغ والانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق أهله وحماته، وبقى المجتمع دون مدافع أمام عوامل الفساد، فإنّ انتشار الفساد ومن ورائه الهلاك أمر حتمى.

الآية الاولى أشارت إلى القرون والأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد أنواع البلاء قائلة:

«فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۰

إنّ أثر «أُولُوا بَقِيَّةٍ» فى بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: إنّ المجتمع من دون «اولى بقية» يُسلب حق الحياة، ومن هنا فقد وردت الإشارة إليهم فى الآية المتقدمة.

ثم تستثنى جماعة فتقول: «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ».

هذه الجماعة القليلة وإن كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولكنها كحال لوط عليه السلام واسرته الصغيرة، ونوح والمعدودين ممّن آمن به، وصالح وجماعة من أتباعه، فإنّهم كانوا قلّة لم توفق للإصلاح العام والكلى فى المجتمع. إنّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم وتنعمهم، وكما تقول الآية: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ». يعنى

متى كـان المجتمع ظالمـاً ولكنه مقبل على اصلاح نفسه، فهـذا المجتمع يبقى، ولكن إذا كـان المجتمع ظالمـاً ولم يُقبل على نفسه فيصلحها أو يطهرها فإنّ مصيره إلى الفناء والهلاك.

فهـذا التنعم والتلذذ غير المقيد وغير المشروط أساس الانحرافات فى المجتمعات المرفهة، لأنّ سكرها من شهواتها يصدها عن إعطاء القيم الإنسانية الأصيلة حقها ودرك الواقعيات الاجتماعية، ويغرقها فى العصيان والآثام.

وللتأكيد على هـذه الحقيقـة، تأتى الآية الثانية لتقول: إنّ هذا الذى ترون من إهلاك اللّه للُامم، إنّما كان لعدم وجود المصلحين فيهم «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ».

وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) فى الآيـة الاولى محل البحث إشارة إلى واحـدة من سنن الخلق والوجود والتى تمثّل اللبنات التحتية لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان ... وهى مسألة الاختلاف والتفاوت فى بناء الإنسان روحاً وفكراً وجسماً وذوقاً وعشقاً، ومسألة حريـة الإرادة والاختيار. تقول الآيـة: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ». لئلا يتصور أحد من الناس أنّ تأكيد اللّه وإصراره على طاعة أمره دليل على عدم قدرته على أن يجعلهم فى سير واحد ومنهج واحد.

لكن مثل هذا الإيمان لا تكون فيه فائدة ولا فى مثل هذا الاتحاد ... فالإيمان القسرى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۱

الذى ينبع من هدف غير إرادى لا يكون علامة على شخصية الفرد ولا وسيلة للتكامل، ولا يوجب الثواب.

إلّا أنّ قيمـة الإنسـان وامتيـازه وأهم مـا يتفـاوت فيه عن سائر الموجودات هى هـذه الموهبـة، وهى حريـة الإرادة والاختيار، وكـذلك امتلاك الأذواق والأطباع والأفكار المتفاوتة التى يصنع كل واحد منها قسماً من المجتمع ويؤمّن بُعداً من أبعاده.

ومن طرف آخر فإنّ الاختلاف فى انتخاب العقيدة والمذهب أمر طبيعى.

ولهـذا يقول القرآن الكريم فى الآيـة الاخرى: «إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ». ولكن هـذه الرحمـة الإلهيـة ليست خاصه بجماعـة معينـة، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» أن يستفيدوا منها «وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ».

الأشخاص الذين يريدون أن يستظلوا برحمة اللّه فإنّ الطريق مفتوح لهم ... الرحمة التى أفاضها اللّه لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل وهداية الأنبياء.

ومتى ما استفادوا من هـذه الرحمـة والموهبـة، فإنّ أبواب الجنـة والسعادة الدائمة تفتح بوجوههم، وإلّا فلا: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

إنّ هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد وهو الخروج من دائرة رحمة اللّه، والتقهقر عن هداية الرسل والادلّاء من قِبَله، وبهذا الترتيب.

وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَ جَاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) أربع معطيات لقصص الماضين: بانتهاء هذه الآيات تنتهى سورة هود، وفى هذه الآيات استنتاج كلى لمجموع بحوث هذه السورة، وبما أنّ القسم الأهم من هذه السورة يتناول القصص التى تحمل العبر من سيرة الأنبياء والامم السابقـة، فإنّ هـذه القصص تعطى نتائج قيّمة ملخّصة فى أربعة مواضيع. تقول هذه الآيات أوّلًا: «وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ». وكلمة «كُلًّا» إشارة إلى تنوع هذه القصص.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۲

ثم تشير الآية إلى النتيجة الكبرى الثانية فتقول الآيات: «وَجَآءَكَ فِى هذِهِ الْحَقُّ».

أمّا ثالث الآثار ورابعها اللذان يستلفتان النظر هما: «وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ هذه الآية تؤكّد مرّة اخرى أنّه لا ينبغى أن نعدّ قصص القرآن ملهاة أو يستفاد منها لإشغال السامعين، بل هى مجموعة من أحسن الدروس الحياتية فى جميع المجالات، وطريق رحب لجميع الناس فى الحاضر والمستقبل. ثم تخاطب الآيات النبى صلى الله عليه و آله وهو يواجه أعداءه الذين يؤذونه ويظهرون اللجاجة والعناد إن واصل الطريق: «وَقُل لِّلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ».

فستعلمون من الذى سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظاراً غير مُجد، ونحن ننتظر العذاب من اللَّه عليكم، وهو ما ستذقونه من قِبَلنا أو من قِبَل اللَّه مباشرةً.

و آخر آية من هذه السورة تتحدث عن التوحيد كما تحدثت الآيات الاولى من هذه السورة عن التوحيد أيضاً.

هذه الآية تشير إلى ثلاث شعب من التوحيد: توحيد علم اللَّه أوّلًا، فغيب السماوات والأرض خاص باللَّه وهو المطلع عليها جميعاً «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». أمّا سواه فعلمه محدود، وفى الوقت ذاته فإنّ هذا العلم ناشىء من التعليم الإلهى، فعلى هذا فإنّ العلم غير المحدود، والعلم الذاتى بالنسبة لجميع ما فى السماوات والأرض مخصوص بذات اللَّه المقدسة.

ومن جهة ثانية فإنّ أزمّة جميع الأفعال مرهونة بقدرته «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ». وهذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثم تستنتج الآية أنّه إذا علمت أنّ الإحاطة والعلم غير المحدود والقدرة التى لا تنتهى ...

جميعها مخصوص بذات اللَّه المقدّسة «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» وهذه مرحلة توحيد العبادة.

فينبغى اجتناب العصيان والعناد والطغيان «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

بحثان

۱- علم الغيب خاص باللَّه: إنّ الإطلاع على الأسرار الخفية أو الأسرار الماضية والآتية كله خاص باللَّه ... والآيات المختلفة من القرآن تؤكّد هذه الحقيقة وتؤيدها أيضاً.

وإذا وجدنا فى قسم من آيات القرآن بيان أنّ الأنبياء قد يعلمون بعض الامور الغيبية،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۳

أو قرأنا فى بعض الآيات أو الروايات الكثيرة أنّ النبى صلى الله عليه و آله والإمام عليّاً والأئمة المعصومين عليهم السلام قد يخبرون عمّا يجرى فى المستقبل من حوادث ويبيّنون أسراراً خفية منها، فينبغى أن نعرف أنّ كل ذلك بتعليم اللَّه سبحانه. فهو سبحانه حيث يجد المصلحة يطلع عباده وأولياءه على قسم من أسرار الغيب، ولكن هذا العلم لا هو علم ذاتى ولا غير محدود، بل هو من تعليم اللَّه وهو محدود بمقدار ما يريده اللَّه.

وليس الإطلاع على علم الغيب من قبل اللَّه خاصاً بالأنبياء أو الأئمة فقد يطلع اللَّه غير النبى والأئمة على غيبه أيضاً ... فنحن نقرأ فى قصة ام موسى فى الآية (۷) من سورة القصص أنّ اللَّه قال لها: «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وقد يطلع اللَّه لضرورة الحياة- أحياناً- الطيور والحيوانات على الأسرار الخفية وحتى على المستقبل البعيد نسبياً مما يصعب علينا تصوره وبهذا الترتيب قد تكون بعض المسائل التى نحسبها غيباً، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطيور أو الحيوانات لا تعد من الغيب.

۲- العبادة للَّهوحده: فى الآية المتقدمة دليل لطيف على أنّ العبادة للَّهوحده، وهو أنّه لو كانت العبادة من أجل العظمة وصفات الجمال، والجلال فهذه الصفات قبل كل شىء موجودة فى اللَّه، وأمّا الآخرون فلا شىء بالنسبة إليه، وأكبر دليل على عظمة اللَّه علمه الواسع غير المحدود وقدرته اللامتناهية، وقد أشارت الآية الآنفة إلى أنّهما مختصان باللَّه.

وإذا كانت العبادة لأجل الإلتجاء- فى حل المشاكل- إلى المعبود ... فإنّ مثل هذا العمل جدير بمن هو عليم بجميع حاجات العباد وأسرارهم الخفية. وما يغيب عليهم، وهو قادر على إجابة دعوتهم، وبالنتيجة فإنّ توحيد الصفات يكون سبباً لتوحيد العبادة (لاحظوا بدقة).

«نهاية تفسير سورة هود»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۵

۱۲. سورة يوسف

بداية سورة يوسف: قبل الدخول فى تفسير آيات هذه السورة ينبغى ذكر عدّة أمور:

۱- جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التى تقع فى نهاية السورة تبيّن قصة نبى اللّه يوسف عليه السلام. القصة الطريفة والجميلة والتى تحمل بين طيّاتها العِبَر، ولذلك سمّيت هذه السورة باسم «يوسف» وبهذه المناسبة- أيضاً- ورد ذكر يوسف- من مجموع (۲۷) مرة فى القرآن- (۲۵) مرّة فى هذه السورة ومرة واحدة فى سورة غافر الآية (۳۴) ومرة اخرى فى سورة الأنعام الآية (۸۴).

ومحتوى هذه السورة- على خلاف سور القرآن الاخرى- مرتبط بعضه ببعض ويبيّن جوانب مختلفة من قصة واحدة وردت فى أكثر من عشرة فصول، مع بيان أخاذ موجز، عميق، وطريف ومثير.

وبالرغم من أنّ القصّاصين غير الهادفين، أو من لهم اغراض رخيصة سعوا إلى أن يحوّلوا هذه القصة المهذبة إلى قصة عشق يحرك أهل الهوى والشهوة! وأن يمسخوا الوجه الواقعى ليوسف عليه السلام بحيث بلغت الحال أن يصوروا «فيلماً سينمائياً» وينشروه بصورة مبتذلة ... إلّا أنّ القرآن- وكل ما فيه أسوة وعبرة- عكس فى ثنايا هذه القصة أسمى دروس العفة وضبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أنّ إنساناً قرأها عدة مرات فإنّه يتأثر- بدون اختيار- بأسلوبها الجذاب فى كل مرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۶

ولذا فقد عبّر القرآن عنها ب «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» وجعل فيها العبر للمعتبرين «أُولِى الْأَلْبابِ».

۲- التدقيق فى آيات هذه السورة يكشف هذه الحقيقة للإنسان، وهى أنّ القرآن معجز فى جميع أبعاده، لأنّ الأبطال الذين يقدمهم فى قصصه أبطال حقيقيّون لا خياليّون، وكل واحد فى نفسه منهم منعدم النظير:

فإبراهيم عليه السلام: البطل الذى حطّم الأصنام بروحه العالية التى لا تقبل المساومة مع الطغاة.

وموسى عليه السلام: البطل المربّى لقومه اللجوجين، والذى وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغى.

ويوسف عليه السلام: بطل الورع والتقوى والطهارة ... أمام امرأة محتالة جميلة عاشقة.

بعد هذا كلّه تتجلّى القدرة البيانية للوحى القرآنى بصورةٍ تحيّر الإنسان، لأنّ هذه القصّة- كما نعرف- تنتهى فى بعض مواردها إلى مسائل العشق ودون أن يمسخها القرآن أو يتجاوزها يتعرض إلى الأحداث فى مسرحها بدقة بحيث لا يحس السامع شىء غير مطلوب فيها، ويذكر القضايا بأجمعها فى المتن، ولكن تحفّها أشعة قوية من التقوى والطهارة.

۳- قصة يوسف قبل الإسلام وبعده: لا شك أنّ قصة يوسف كانت مشهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسلام، لأنّها مذكورة فى (۱۴) فصلًا من (سفر التكوين) فى التوراة بين (الفصل ۳۷- ۵۰) ذكراً مفصلًا.

وبطبيعة الحال فإنّ المطالعة الدقيقة فى هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الاختلاف بين ما جاء فى التوراة وما جاء فى القرآن.

وبالمقارنة بين نصّ التوراة ونصّ القرآن نجد أنّ نصّ القصة فى القرآن فى غاية الصدق وتخلو من أى خرافة.

وما يقوله القرآن للنبى صلى الله عليه و آله: «وَإِن كُنتَ مِن قَبلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» يشير إلى قصة يوسف التى عبّر عنها بأحسن القصص، حيث لم يكن النبى مطّلعاً على حقيقتها الخالصة.

وعلى كل حال فإنّ هذه القصة- بعد الإسلام- تناقلتها أقلام مؤرخى الشرق والغرب ...

وأحياناً مع أغصان وأوراق إضافية.

۴- لِمَ ذكرت قصة يوسف فى مكان واحد بخلاف قصص سائر الأنبياء؟ إنّ من خصائص قصة يوسف البارزة أنّ هذه القصة ذكرت

فی مکان واحد من القرآن، علی خلاف قصص الأنبیاء التی ذکرت علی شکل فصول مستقلة فی سور متعددة من القرآن.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۷

والحکمـة فی ذلک تعود إلی أنّ تفکیک فصول هـذه القصـة مع ملاحظة وضـعها الخاص یفقدها ترابطها وانسـجامها، فلهذا ینبغی أن تذکر کاملة فی مکان واحد للحصول علی النتیجة المتوخاة.

والخصـیصة الاـخری من خصـائص هـذه السورة هی أنّ قصـص الأنبیـاء التی وردت فی السور الاـخری من القرآن تبیّن عـادة مواجهة الأنبیاء لقومهم المعاندین والطغاة.

أمّا فی قصـة یوسف فلا کلام عن هـذا الموضوع، بل أکثر ما فیها بیان حیاة یوسف نفسه ونجاته من المزالق الخطیرة التی تنتهی أخیراً إلی استلامه سدّة الحکم، وهی فی حدّ ذاتها «أنموذج» خاص.

۵- فضیلة تلاوة سورة یوسف: فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال:

«من قرأ سورة یوسف فی کل یوم أو فی کل لیلة، بعثه اللَّه یوم القیامة وجماله مثل جمال یوسف، ولا یصیبه فزع یوم القیامة، وکان من خیار عباد اللَّه الصالحین».

إنّ الروایـات التی وردت فی فضائـل سور القرآن- کمـا قلنـا مراراً- لیس معناهـا القراءة السـطحیة دون تفکر وعمـل، بـل تلاوة تکون مقدمة للتفکر ....

الر تِلْـکَ آیَاتُ الْکِتَابِ الْمُبِینِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْنَـاهُ قُرْآناً عَرَبِیّاً لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۲) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَیْکَ أَحْسَنَ الْقَصَـصِ بِمَا أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ هـذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ کُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِینَ (۳) أحسن القصـص بین یـدیک: تبـدأ هـذه السورة بالحروف المقطعة «الر» وهی دلالة علی عظمة القرآن، وإنّ ترکیب هذه الآیات ذات المحتوی العمیق متکوّن من أبسط الأجزاء، وهی حروف الهجاء «ألف- باء ... الخ».

وربّما کان لهـذا السبب أن تأتی الإشارة- بعـد هـذه الحروف المقطعة مباشـرةً- إلی بیان عظمة القرآن فی هذه السورة، فتقول: «تِلْکَ ءَایَاتُ الْکِتَابِ الْمُبِینِ».

ثم یأتی البیان عن الهدف من نزول الآیات فیقول: «إِنَّا أَنزَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِیًّا لَّعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ». فالهدف إذن لیس القراءة أو التلاوة أو التیمّن أو التبرک بتلاوة هـذه الآیـات فحسب، بل الهـدف الأساسـی هو الإدراک ... الإدراک القوی الـذی یـدعو الإنسان إلی العمل بجمیع وجوده.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۸

فالتعبیر بکون القرآن عربیاً- الذی تکرر فی عشرة موارد من القرآن- جواب لأولئک الذین یتهمون النبی صلی الله علیه و آله بأنّه تعلم القرآن من أعجمی، وأنّ محتوی القرآن مستورد ولیس وحیاً إلهیاً.

وهـذه التعبیرات المتتابعـة تحتم ضـمناً وظیفةً مفروضة علی جمیع المسـلمین، وهی أن یسـعوا جمیعاً إلی معرفة اللغة العربیة وأن تکون اللغة الثانیة إلی جانب لغتهم، لأنّها لغة الوحی ومفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثم یقول سبحانه: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَیْکَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ هذَا الْقُرْءَانَ وَإِن کُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِینَ».

یعتقد بعض المفسرین أنّ «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» إشارة إلی مجموع القرآن.

إنّ اللَّه سـبحانه عبّر ب «أَحْسَنَ الْقَصَـصِ» عن مجموع هذا القرآن الذی جاء فی أجمل البیان والشرح، وأفصح الألفاظ وأبلغها، مقرونةً بأسمی المعانی وأدقّها، بحیث یبدو ظاهره عذباً جمیلًا، ومن حیث الباطن فمحتواها عظیم.

ولکن إرتبـاط الآیـات المقبلـة التی تبیّن قصـة یوسف علیه السـلام مع هـذه الآیـة- محـل البحث- بشـکل یشـدّ ذهن الإنسان إلی هـذا المعنی، وهو أنّ اللَّه عبر عن قصـة یوسف ب «أَحْسَنَ الْقَصَـصِ» وقلنا مراراً أنّه لا مانع من أن تکون مثل هذه الآیات للمعنیین جمیعاً ... فالقرآن هو أحسن القصص بصورة عامة، وقصة یوسف هی أحسن القصص بصورة خاصة.

أثر القصة فى حياة الناس: مع ملاحظة أنّ القسم المهم من القرآن قد جاء على صورة تأريخ للُامم السابقة وقصص الماضين، فقد يتساءل البعض: لِم يحمل هذا الكتاب التربوى كل هذا «التاريخ» والقصص؟!

وتتضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

۱- إنّ التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، وما رسمه الإنسان فى ذهنه من الأفكار والتصورات يجده بصورة عينية على صفحات التاريخ.

۲- ثم بعد هذا فإنّ للتاريخ والقصة جاذبية خاصة، والإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة فى جميع أدوار حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

والعلة فى ذلك قد تكون أنّ الإنسان حسى بالطبع قبل أن يكون عقلياً ويتخبط فى المسائل المادية قبل أن يتعمق فى المسائل الفكرية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۹

وكلما ابتعد الانسان عن ميدان الحسّ، باتجاه المسائل العقلية كانت هذه المسائل أثقل على الذهن وأبطأ هضماً.

ومن هنا نلاحظ أنّه لأجل بيان الاستدلال العقلى يستمدّ المفكرون فى المسائل الاجتماعية والحياتية المختلفة من الأمثلة الحسية، وأحياناً يكون للمثال المناسب والمؤثر فى الاستدلال قيمة مضاعفة، ولذلك فإنّ العلماء الناجحين هم اولئك الذين لهم هيمنة على انتخاب أحسن الأمثلة.

۳- القصة والتاريخ مفهومان عند كل أحد، وعلى هذا فإنّ الكتاب الشامل الذى يريد أن يستفيد منه البدوى الامّى والمتوحش ... إلى الفيلسوف والمفكر الكبير، يجب أن يكون معتمداً على التاريخ والقصص والأمثلة.

ومجموعة هذه الجهات تبيّن أنّ القرآن خطا أحسن الخطوات فى بيان التواريخ والقصص فى سبيل التعليم والتربية.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ (۴) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶) بارقة الأمل وبداية المشاكل: بدأ القرآن بذكر قصة يوسف من رؤياه العجيبة ذات المعنى الكبير، لأنّ هذه الرؤيا فى الواقع تعدّ أوّل فصل من فصول حياة يوسف المتلاطمة.

جاء يوسف فى أحد الأيام صباحاً إلى أبيه وهو فى غاية الشوق ليحدثه عن رؤياه، وليكشف ستاراً عن حادثة جديدة لم تكن ذات أهمية فى الظاهر، ولكنها كانت إرهاصاً لبداية فصل جديد من حياته: «إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ».

يقول ابن عباس: إنّ يوسف رأى رؤياه ليلة الجمعة التى صادفت ليلة القدر (ليلة تعيين الأقدار والآجال).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۰

والمقصود من السجود هنا هو الخضوع والتواضع، وإلّا فإنّ السجود المعروف عند الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب والشمس والقمر. إنّ هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النبى غارقاً فى التفكير ... فالقمر والشمس والكواكب، وأى الكواكب! إنّها أحد عشر يسجدون جميعاً لولدى يوسف، كم هى رؤيا ذات مغزى! لا شك أنّ الشمس والقمر «أنا وامه أو خالته» والكواكب الأحد عشر إخوته، هكذا يرتفع قدر ولدى حتى تسجد له الشمس والقمر وكواكب السماء.

إنّ ولدى «يوسف» عزيز عند اللَّه إذا رأى هذه الرؤيا المثيرة! لذلك توجه إلى يوسف بلهجة يشوبها الإضطراب والخوف المقرون «بالفرحة» و «قَالَ يَا بُنَيَّ لَاتَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا» وأنا أعرف «إِنَّ الشَّيْطَنَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» وهو منتظر الفرصة ليوسوس لهم ويثير نار الفتنة والحسد وليجعل الإخوة يقتتلون فيما بينهم.

ولکن هـذه الرؤیا لم تکن دلیلًا علی عظمـة یوسف فی المسـتقبل من الوجهـة الظاهریـة والمادیة فحسب، بل تدل علی مقام النبوة التی سیصل إلیها یوسف فی المستقبل.

ولـذلک فقـد أضاف یعقوب- لولـده یوسف- قائلًا: «وَکَذلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَیُعَلِّمُکَ مِن تَأْوِیلِ الْأَحَادِیثِ وَیُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَعَلَی ءَالِ یَعْقُوبَ کَمَا أَتَمَّهَا عَلَی أَبَوَیْکَ مِن قَبْلُ إِبْرهِیمَ وَإِسْحقَ» «١».

أجل فإنّ اللَّه علی کل شیء قدیر و «إِنَّ رَبَّکَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ».

الرؤیا والحُلم: إنّ الرؤیا والأحلام علی أقسام:

١- الرؤیا المرتبطة بماضی الحیاة حیث تشکل الرغبات والأمنیات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

٢- الرؤیا غیر المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التی تنشأ من التوهم والخیال وإن کان من المحتمل أن یکون لها دافع نفسی.

٣- الرؤیا المرتبطة بالمستقبل والتی تخبر عنه.

---

(١) «التأویـل»: فی الأصـل إرجاع الشـیء، وکـل عمـل أو کل حـدیث یصل إلی الهـدف النهائی یطلق علیه «تأویل» وتحقق الرؤیا فی الخـارج مصـداق للتأویـل ... و «الأحـادیث»: جمع الحـدیث، وهو نقـل مـا یجری، والحـدیث هنـا کنایـة عن الرؤیـا لأنّ الإنسان ینقلها للمعبرین.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۴١

ونقرأ فی الحـدیث عن النبی الأـکرم صـلی الله علیه و آله عن الرؤیا قوله: «الرؤیا ثلاثـة: بُشـری من اللَّه، وتحزین من الشـیطان، والـذی یحدّث به الإنسان نفسه فیراه فی منامه» «١».

وواضـح أنّ أحلامـ الشـیطان لیست شـیئاً حتی یکون لهـا تعبیر، ولکن ما یکون من اللَّه فی الرؤیا فهی تحمل بشارة حتماً ... ویجب أن تکون رؤیا تکشف الستار عن المستقبل المشرق.

من الـدروس التی نستلهمها من هذا القسم من الآیات أن نحفظ الأسـرار، وینبغی أن یُطبق هذا الدرس أحیاناً حتی أمام الإخوة، فدائماً تقع فی حیاة الإنسان أسـرار لو أذیعت وفشت بات مسـتقبله أو مسـتقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة علی حفظ هذه الأسـرار دلیل علی سعة الروح وتملک الإرادة.

وورد حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام یقول: «سرّک من دمک فلا یجرینّ من غیر أوداجک» «٢».

لَقَدْ کَانَ فِی یُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آیَاتٌ لِلسَّائِلِینَ (٧) إِذْ قَالُوا لَیُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَی أَبِینَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِی ضَلَالٍ مُبِینٍ (٨) اقْتُلُوا یُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً یَخْلُ لَکُمْ وَجْهُ أَبِیکُمْ وَ تَکُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِینَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا یُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِی غَیَابَةِ الْجُبِّ یَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّیَّارَةِ إِنْ کُنْتُمْ فَاعِلِینَ (١٠) المؤامرة: من هنا تبـدأ قصـة مواجهـة إخوة یوسف واشـتباکهم معه: ففی الآیة الاولی- من الآیات محل البحث- إشارة إلی الـدروس التربویة الکثیرة التی توحیها القصة، إذ تقول الآیة: «لَّقَدْ کَانَ فِی یُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَایَاتٌ لِّلسَّائِلِینَ».

وأیّ درس أعظم من أن یجتمع عدّة أفراد لإهلاک فرد ضـعیف ووحید- فی الظاهر- وبخطط أعدّها الحسدُ، ویبذلون أقصی جهودهم لهذا الأمر، ولکن نفس هذا العمل- ودون شـعور وإرادة منهم- بات سـبباً فی تربّعه علی سریر الملک وصیرورته آمراً علی البلد الکبیر «مصر» ثم یأتی إخوته فی النهایة لیطأطئوا برؤوسهم إعظاماً له، وهذا یدلّ علی أنّ اللَّه إذا

---

(١) بحار الأنوار ۵٨/ ١٩١.

(٢) بحار الأنوار ٧٢/ ٧١.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۲

أراد أمراً فهو قـادر على أن يجريه حتى على أيـدى من يخـالفون ذلـك الأمر، ليتجلى أنّ الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيـداً فى هـذا العـالم، فلو سـعى جميع أفراد هـذا العالَم إلى إزهاق روحه واللَّه لا يريـد ذلك، فإنّهم لا يسـتطيعون أن يسـلبوا منه شـعرة واحـدة. كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، واثنان منهم: يوسف وبنيامين وهما من ام واحدة اسمها راحيل، وكان يعقوب يولى هذين الولدين محبة خاصة، لا سيما يوسف. لأنّهما أوّلًا: أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان إلى العناية والرعاية والمحبة.

وثانياً: لأنّ امّهما ارتحلت من الـدنيا- طبقاً لبعض الروايات- وبعد هذا كله كانت بوادر النبوغ والذكاء الحادّ ترتسم على يوسف، وهذه الامور أدّت إلى أن يولى يعقوب ابنه هذا عناية أكثر.

إلّا أنّ الإخوة الحساد- دون أن يلتفتوا إلى هـذه الجهـات- تـألّموا مـن حبّ أبيهم ليوسـف وأخيه، وخـاصه بعـد اختلافهم فى الام والمنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم وتدارسوا الأمر وصمموا على المؤامرة «إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ».

وحكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: «إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

وبالطبع فإنّ اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لأنّ الآيات الآتية تكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، وإنّما استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

ثمّ أدّى بهم الحسد إلى أن يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا وقدموا مقترحين وقالوا:

«اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا- أرسلوه إلى منطقة بعيدة- يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ».

ومن الحق أن تشـعروا بالـذنب والخجل فى وجدانكم لأنّكم تقدمون على هذه الجناية فى حق أخيكم الصـغير، ولكن يمكن أن تتوبوا وتغسلوا الذنب «وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ».

إنّ هـذه الجملـة تـدلّ على إحساسـهم بالـذنب من هـذا العمل، وكانوا يخافون اللَّه فى أعماق قلوبهم، ولذلك قالوا: نتوب ونكون من بعده قوماً صالحين.

ولكن المسألـة المهمّة هنا هى أنّ الحديث عن التوبة قبل الجريمة- فى الواقع- هو لأجل خداع «الوجدان» وإغرائه وفتح الباب للدخول إلى الذنب، فلا يعدّ دليلًا على الندم أبداً.

ولكن كان من بين الاخوة من هو أكثر ذكاءً وأرق عاطفة ووجداناً، لأنّه لم يرض بقتل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۳

يوسف أو إرساله إلى البقاع البعيـدة التى يُخشـى عليه من الهلاك فيها ... فاقترح عليهم اقتراحاً ثالثاً، وهو أن يلقى فى البئر (بشـكل لا يصـيبه مكروه) لتمرّ قافلـة فتأخـذه معهـا، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث تقول الآيـة فى هـذا الصـدد: «قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ». «الجبّ»: معناه «البئر» التى لم تنضّـد بالطابوق والصـخور، ولعلّ أغلب آبار الصحراء على هذه الشاكلة.

يستفاد من جملـة «إِن كُنتُمْ فَـاعِلِينَ» أنّ القائـل لم يكن يرغب- أساسـاً- حتى بهـذا الاقتراح ولعلّه كان لا يوافقهم على إيـذاء يوسـف أصلًا.

أثر الحسـد المـدمّر فى حياة الناس: الـدرس الآخر الـذى نتعلّمه من هـذه القصـة، وهو أنّ الحسد يمكن أن يدفع الإنسان حتى إلى قتل أخيه، أو ايجاد المشاكل له، فنار الحسد إذا لم يمكن إخمادها فإنّها ستحرق صاحبها بالإضافة إلى إحراق الآخرين بها.

ولهذا نجد فى الأحاديث الإسلامية تعابير مؤثرة تدعو إلى مكافحة هذه الرذيلة، وعلى سبيل المثال نورد منها ما يلى:

۱- فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال اللَّه عزّ وجلّ لموسى بن عمران عليه السلام:

يابن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلى ولا تمدّن عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك فإنّ الحاسد ساخط لنعمى صادّ لقسمى الذى قسمت بين عبادى، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّى».

٢- وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر». كما نقرأ له حديثاً يقول: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط».

كما نستنتج درساً آخر من هذا المقطع فى القصة، وهو أنّ الوالدين ينبغى أن يلاحظا أبناءها الآخرين عند إبراز عنايتهما ومحبتهما لواحد منهم، لأنّ إبراز العلاقة لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدةً فى نفوس الآخرين، إلى درجة أنّها تجرّهم إلى كل عمل مخرّب، حيث يجدون شخصياتهم منهزمة ولابدّ من تحطيم شخصية أخيهم للتعويض عن هذه الهزيمة، فيكون الإقدام على هذا العمل دون لحاظ الرحمية ووشائج القربى.

وإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بعمل معاكس، فإنّه يظل يلوم نفسه ويحرضها حتى يبتلى بالمرض النفسى.

وفى هذا الصدد نقرأ فى الروايات الإسلامية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال يوماً: «واللّه إنّى

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۴۴

لُاصانع بعض ولدى، وأجلسته على فخذى، وأفكر له فى الملح، وأكثر له الشّكر، وإنّ الحق لغيره من ولدى، ولكن مخافة عليه منه ومن غيره، لئلا يصنعوا به ما فعلوا بيوسف إخوته، وما أنزل اللّه سورة يوسف إلّاأمثالًا لكيلا يحسد بعضنا بعضاً كما حسد يوسف إخوته، وبغوا عليه، فجعلها حجة ورحمة على من تولّانا، ودان بحبّنا وحجّة على أعدائنا ومن نصب لنا الحرب» (١).

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَکَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ (١۴) المؤامرة المشؤومة: بعد أن صوّب إخوة يوسف إقتراح أخيهم فى عدم قتل يوسف، وإلقائه فى الجبّ، أخذوا يفكرون فى كيفية فصل يوسف عن أبيه، لذلك أقدموا على تخطيط آخر، فجاؤوا إلى أبيهم بلسان ليّن يدعو إلى الترحم، وفى شكل يتظاهرون به أنّهم مخلصون له وحدثوا أباهم و «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَکَ لَاتَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ».

تعال يا أبانا وارفع اليد عن اتهامنا، فإنّه أخونا وما يزال صبياً وبحاجة إلى اللهو واللعب، وليس من الصحيح حبسه عندك فى البيت، فخلّ سبيله «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» (٢).

وإذا كنت تخشى عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ولكن يعقوب- دون أن يتهم إخوة يوسف بسوء القصد- أظهر تردّده فى إرسال يوسف لأمرين: الأوّل: أنّه سيبتعد عنه فيحزن عليه، والثانى: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و «قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ».

وبديهى أنّ الإخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الأوّل الذى أشار إليه أبوهم يعقوب، لأنّ الحزن والإغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئاً عادياً حتى يعوّض عنه، وربّما كان هذا التعبير مثيراً لنار الحسد فى إخوة يوسف أكثر.

---

(١) وسائل الشيعة ١٣/ ٣۴۴/ ٢۴۵١۶.

(٢) «يرتع»: من مادة «رتع» على وزن «قطع» ومعناه فى الأصل رعى الأغنام والأنعام بصورة عامّة للنباتات وشبعها منها، ولكن قد يطلق هذا اللفظ (رتع، يرتع) ويراد به تنزّه الإنسان وكثرة الأكل والشرب أيضاً.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۴۵

ومن جهة اخرى فإنّ هذا الموضوع الذى أشار إليه يعقوب، وهو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن ردّه، وهو لا يحتاج إلى بيان، لأنّ

الولد لابدّ له من الإبتعاد عن أبيه من أجل أن ينمو ويرشد.

لذلك فإنّهم لم يجيبوه عن الشقّ الأوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثانى لأنّه كان مهماً وأساسياً بالنسبة لهم إذ «قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ». أى:

أترانا موتى فلا ندافع عن أخينا، بل نتفرج على الذئب كيف يأكله.

وعلى كل حال فقد استطاع إخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، وبتحريك أحاسيس يوسف النقية وترغيبه إلى التنزه خارج المدينة، استطاعوا أن يأخذوا يوسف معهم وأن يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

ومن الطريف أنّه كما أنّ إخوة يوسف استغلّوا علاقة الإنسان- ولا سيما الشاب- بالتنزّه واللعب من أجل الوصول إلى هدفهم الغادر ... ففى حياتنا المعاصرة- أيضاً- نجد أعداء الحق والعدالة يستغلّون مسألة الرياضة واللعب فى سبيل تلويث أفكار الشباب، فينبغى أن نحذر المستكبرين «الذئاب» الذين يخططون لاضلال الشباب وحرفهم عن رسالتهم تحت اسم الرياضة والمسابقات المحلّية والعالمية.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١۵) وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١۶) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨) الكذب المفضوح: وأخيراً إنتصر إخوة يوسف وأقنعوا أباهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئنى البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم وإزاحة أخاهم الذى يقف عائقاً فى طريقهم ... وكان قلقهم الوحيد أن يندم أبوهم ويسحب كلامه ووعده بإرسال يوسف معهم. فجاؤوا صباحاً إلى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، وكرر توصياته فى شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم وأبدوا احترامهم الفائق ومحبتهم العميقة، وتحركوا إلى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۶

خارج المدينة.

يقال: إنّ أباهم ودعهم إلى بوابة المدينة ثم أخذ منهم يوسف وضمّه إلى صدره ودمعت عيناه، ثم أودع يوسف عندهم وفارقهم، ولكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، وكان إخوة يوسف لا- يقصرون عن مدارة أخيهم يوسف وإظهار عنايتهم به ومحبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، ولكن ما أن غاب عنهم أبوهم واطمأنوا إلى أنّه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم وصبوا «جام غضبهم» وحقدهم وحسدهم المتراكم لعدّة سنوات على رأس يوسف، فالتفّوا حوله يضربونه بأيديهم ويلتجىء من واحد لآخر ويستجير بهم فلا يجيره أحد منهم.

نقرأ فى رواية أنّ يوسف كان يبكى تحت وابل اللكمات والضربات القاسية، ولكن حين أرادوا أن يلقوه فى الجبّ شرع بالضحك فجأة ... فتعجب إخوته كثيراً وحسبوا أنّ أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحاً ... ولكنه رفع الستار عن ضحكه وعلّمهم درساً كبيراً إذ قال: لا أنسى أننى نظرت- أيّها الإخوة- إلى عضلات أيديكم القوية وقواكم الجسدية الخارقة، فسررت وقلت فى نفسى: ما عسى أن يخشى ويخاف من الحوادث والملمّات من كان عنده مثل هؤلاء الإخوة، فاعتمدت عليكم وربطت قلبى بقواكم، والآن وقد أصبحت أسيراً بين أيديكم وأستجير بكم من واحد للآخر فلا اجار، وقد سلطكم اللّه علىّ لأتعلم هذا الدرس، وهو ألّا أعتمد وأتوكّل على أحد سواه ... حتى ولو كانوا إخوتى.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ».

ثم تبيّن الآية أنّ اللّه أوحى إلى يوسف وهدأ روعه وألهمه ألّا يحزن فالعاقبة له، إذ تقول:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

وهذا الوحى الإلهى لم يكن وحى النبوة، بقرينة الآية (٢٢) من السورة ذاتها، بل كان إلهاماً لقلب يوسف ليعلم أنّه ليس وحيداً، بل له

حافظ ورقيب، وهذا الوحى بثّ فى قلب يوسف نور الأمل وأزال عن روحه ظلمات اليأس والحيرة.

لقد نفّذ إخوة يوسف خطتهم كما أردوا، ولكن ينبغى أن يفكروا عند العودة كيف كى يصدّق أبوهم أنّ يوسف إنتهى بصورة طبيعية. وكانت الفكرة التى أوصلتهم إلى هذا الهدف هى ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه- ظاهراً-

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۷

عن هذا الطريق مدّعين بأنّ الذئب قد أكل يوسف وجاؤوا إليه بدلائل مزيّفة!

يقول القرآن الكريم: «وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» بكاءً كاذباً، وهذا يدلّ على أنّ البكاء الكاذب ممكن ... ولا يمكن أن يُخدع العاقل ببكاء العين وحدها.

أمّا الأب الذى كان ينتظر مجيىء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتزّ وارتجف حين رأى الجمع وليس بينهم يوسف، وسأل عنه مستفسراً ... فأجابوه و «قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا» لصغر سنه ولأنّه لا يعرف التسابق، وانشغلنا عنه «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ».

ومن أجل أن يبرهنوا على صحة كلامهم فقد «وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ». إذ لطخوا الثوب بدم الغزال أو الخروف أو التيس .... ولكن حيث إنّ الكاذب لا يمتلك حافظة قوية، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة ... وهى- على الأقل- أن يخرقوا قميص يوسف الملطخ بالدم ليدل على هجوم الذئب ... فقد قدّموا القميص سالماً غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عيناه على القميص حتى فهم كل شيء و «قَالَ بَلْ سَوَّلَت لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا».

فى تفسير القرطبى عن ابن عباس: إنّهم أخذوا ظبياً فذبحوه فطلخوا بدمه القميص ولما جاؤوا به جعل يقلّبه فيقول: «ما أرى أثر ناب ولا ظفر إنّ هذا السبع رحيم». وفى رواية أنّه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: «تاللّه ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل إبنى ولم يمزّق عليه قميصه». وجاء أنّه بكى وصاح وخرّ مغشيّاً عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ونادوه فلم يجب ووضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من ديّان يوم الدين، ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا فلم يفق إلّابيرد السحر.

وبالرغم من احتراق قلبه ولهيب روحه لم يجر على لسانه ما يدل على عدم الشكر أو اليأس أو الفزع أو الجزع، بل قال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ». ثم قال: «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» وأسأله أن يبدل مرارة الصبر فى فمى إلى «حلاوة» ويرزقنى القوة والقدرة على التحمل أكثر أمام هذا الطوفان العظيم، لئلا أفقد زمامى ويجرى على لسانى كلام غير لائق.

ملاحظتان

۱- حول الترك الأولى: فى تفسير البرهان عن الثمالى قال: صلّيت مع علىّ بن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۸

الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة فلمّا فرغ من صلاته وسُبحته نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاةً له تسمّى سكينة فقال لها: «لا يعبُر على بابى سائلٌ إلّاأطعَمتُموه فإنّ اليوم يوم الجمعة». قلت له: ليس كل من يسأل مستحِقّاً؟ فقال: «يا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقّاً فلا نُطعمه ونردّه فينزل بنا- أهل البيت- ما نزل بيعقوب وآله. أطعِموهم أطعموهم. إنّ يعقوب كان يَذبح كل يوم كبشاً فيتصدّق منه ويأكل هو وعياله منه، وإنّ سائلًا مؤمناً صوّاماً محقّاً له عند اللّه منزلة، وكان مجتازاً غريباً اعترّ على باب يعقوب عشيّة جمعة عند أوان إفطاره يهتِف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم. يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعونه، قد جهلوا حقّه ولم يصدقوا قوله، فلمّا أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى اللّه عزّ وجلّ وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً للّه تعالى، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً وأصبحوا وعندهم فضل من طعامهم».

قال: «فأوحى اللّه عزّ وجلّ إلى يعقوب فى صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت- يا يعقوب- عبدى ذلّة استجررت بها غضبى، واستوجبت بها

أدبى، ونزول عقوبتى وبلواى عليك وعلى ولدك. يا يعقوب، إنّ أحبّ أنبيائى إلىّ وأكرمهم علىّ من رحم مساكين عبادى وقرّبهم اليه وأطعمهم، وكان لهم مأوىً وملجأ. يا يعقوب، أما رحمت ذميال عبدى المجتهد فى عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس، لمّا اعترّ ببابك عند أوان افطاره وهتف بكم: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع. فلم تطعموه شيئاً، فاسترجع واستعبر وشكا ما به إلىّ وبات طاوياً حامداً لى وأصبح لى صائماً، وأنت- يا يعقوب- ووُلدك شِباعٌ، وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم.

أوما علمت- يا يعقوب- أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائى أسرع منها إلى أعدائى؟»

فقلت لعلىّ بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك، متى رأى يوسف الرؤيا؟ فقال: «فى تلك الليلة التى بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً ...».

يستفاد من هذا الحديث أنّ زلّة بسيطة أو بعبارة أدق: «ترك الأولى» وهو لا يعدّ خطيئة أو إثماً، لأنّ يعقوب لم يتّضح له حال السائل ... هذا الترك من قبل الأنبياء والأولياء يكون سبباً لأن يبتليهم اللّه بلاءً شديداً ... وما ذلك إلّالمقامهم الكبير الذى يوجب عليهم أن يراقبوا كل حركاتهم وسكناتهم، لأنّ «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

۲- دعاء يوسف البليغ الجذّاب: فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: لما طرح إخوة يوسف فى الجبّ أتاه جبرئيل عليه السلام فدخل عليه فقال: يا غلام ما تصنع ههنا؟ فقال: إنّ إخوتى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۹

ألقونى فى الجبّ. قال: فتحبّ أن تخرج منه؟ قال: ذاك إلى اللّه عزّ وجلّ، إن شاء أخرجنى.

قال: فقال له: إنّ اللّه ادعنى بهذا الدعاء حتى أخرجك من الجبّ فقال له: وما الدعاء؟ فقال:

قل: «اللّهم إنّى أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلّاأنت المنّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أن تصلى على محمّد وآل محمّد وأن تجعل لى ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً».

وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (۲۰) نحو أرض مصر: قضى يوسف فى ظلمة الجب الموحشة والوحدة القاتلة ساعات مرّةً، ولكنه بإيمانه باللّه وسكينته المنبثقة عن الإيمان شع فى قلبه نور الأمل، وألهمه اللّه تعالى القوة والقدرة على تحمل الوحدة الموحشة، وأن ينجح فى هذا الإمتحان.

ولكن ... اللّه أعلم كم يوماً قضى يوسف فى هذه الحالة؟

قال بعض المفسرين: قضى ثلاثة أيام، وقال آخرون: يومين.

وعلى كل حال تبلج النور «وَجاءَتْ سَيَّارَةٌ».

وانتخبت منزلها على مقربة من الجبّ، وطبيعى أنّ أوّل ما تفكر القافلة فيه- فى منزلها الجديد- هو تأمين الماء وسد حاجتها منه «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ».

فانتبه يوسف إلى صوت وحركة من أعلى البئر، ثم رأى الحبل والدلو يسرعان إلى النزول، فانتهز الفرصة وانتفع من هذا العطاء الإلهى وتعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء أن الدلو قد ثقُل أكثر مما ينبغى، فلما سحبه بقوة إلى الأعلى فوجىء نظره بغلام كأنّه فلقة قمر، فصرخ وقال: «يَا بُشْرَى هذَا غُلمٌ».

وشيئاً فشيئاً سرى خبر يوسف بين جماعة من أهل القافلة، ولكن من أجل أن لا يذاع هذا الخبر وينتشر، ولكى يمكن بيع هذا الغلام الجميل فى مصر، أخفوه «وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً» «۱».

وقالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الجبّ أودعوه عندنا لنبيعه فى مصر.

وتقول الآية فى نهايتها: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ». والذين شروا يوسف بثمن بخس،

(۱) «البضاعـة»: فى الأصـل من مادة «بضع» على وزن «نـذر» ومعناها: القطعـة من اللحم، ثمّ توسـعوا فى المعنىوأطلقوا هـذا اللفظ على القطعة المهمّة من المال. (راجع المفردات للراغب).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج۲ ۴۹۹

هو من كان فى القافلة.

وباعوا يوسف بثمن قليل، أو كما عبّر عنه القرآن: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ». ولكن هذا أمر مألوف فإنّ السُراق أو اولئك الذين تأتيهم بضاعة مهمة دون أى تعب ونصب يبيعونها سريعاً لئلا يطلع الآخرون.

ومن الطبيعى أنّهم لا يستطيعون بهذه الفورية أن يبيعوه بسعر غال.

«البخس»: فى الأصل معناه تقليل قيمة الشىء ظلماً.

وتقول الآية فى نهايتها: «وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ».

وهذا البيع البخس إمّا لأنّ أهل القافلة اشتروا يوسف بثمن بخس، أو إنّهم كانوا يخافون أن يفتضح سرّهم ويجدون من يدّعيه.

وَ قَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۲۱) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۲۲) فى قصر عزيز مصر: انتهت حكايـة يوسف مع إخوته الـذين ألقوه فى غيابة الجبّ وبيناها تفصيلًا، بدأ فصل جديد من حياة هذا الغلام الحـدث فى مصـر ... فقـد جىء بيوسف إلى مصـر وعرض للبيع، ولما كان تحفة نفيسة فقد صار من نصـيب «عزيز مصـر» الذى كان وزيراً لفرعون أو رئيساً لوزرائه. يقول القرآن الكريم فى شأن يوسف: «وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَيْهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَيهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» (۱). فلا ينبغى أن تنظرى إليه كما ينظرإلى العبيد.

يستفاد من سياق الآيـة أنّ عزيز مصـر لم يرزق ولداً وكان فى غاية الشوق للولد، وحين وقعت عيناه على هذا الصبى الجميل والسـعيد تعلّق قلبه به ليكون مكان ولده.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ».

(۱) «المثوى»: من مادة (ثوى) ومعناه المقام، ولكن معناه هنا الموقعية والمنزلة والمقام كذلك.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۱

هـذا «التمكين» فى الأرض إمّا أن يكون لمجيىء يوسف إلى مصـر، وخاصه أن خطواته فى محيط مصـر مقدمـة لما سـيكون عليه من الإقتدار والمكانة القصوى، وإمّا أنّه لا قياس، بين هذه الحياة فى مصر «العزيز».

ويضيف القرآن أيضاً: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ».

والمراد من «تأويل الأحاديث»- كما أشرنا سابقاً- هو علم تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا حيث كان يوسف قادراً على أن يطلع على بعض أسرار المستقبل من خلاله.

ثم يختتم القرآن هذه الآية بالقول: «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

لقد واجه يوسف فى هذا المحيط الجديد، الذى يعدّ واحداً من المراكز السياسـية المهمة فى مصـر مسائل مسـتحدثة ... فمن جهة كان يرى قصور الطغـاة المدهشـة وثرواتهم ومن جهـة اخرى كـانت تتجسـد فى ذهنه صورة أسواق النخاسـين وبيع المماليك والعبيـد ومن

خلال الموازنة بین هاتین الصورتین کان یفکر فی کیفیة القضاء علی هموم المستضعفین من الناس لو أصبح مقتدراً علی ذلک.

فاشتغل بتهذیب نفسه وبنائها، یقول القرآن الکریم فی هذا الصدد: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَیْنهُ حُکْمًا وَعِلْمًا وَکَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ».

«أشدّ»: من مادة «شدّ» وهی هنا إشارة إلی الإستحکام الجسمانی والروحانی.

والمراد من «الحکم» و «العلم» الواردین فی الآیة المتقدمة التی تقول: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَیْنهُ حُکْمًا وَعِلْمًا» إمّا أن یکون مقام النبوة، وإمّا أن یکون المراد من الحکم العقل والفهم والقدرة علی القضاء الصحیح الخالی من اتباع الهوی والإشتباه، والمراد من العلم الإطلاع الذی لا یقترن معه الجهل، ومهما کان فإنّ الحکم والعلم موهبتان نادرتان وهبهما اللّه لیوسف لتقواه وصبره وتوکله علیه.

فإنّه لیس مستبعداً أن یهب اللّه سبحانه لعباده المخلصین المنتصرین فی میادین «جهاد النفس للهوی والشهوات» مواهب من المعارف والعلوم التی لا تقاس بأیّ معیار مادی.

وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَیْتَ لَکَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوَایَ إِنَّهُ لَا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَی بُرْهَانَ رَبِّهِ کَذلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِینَ (۲۴)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۲

العشق الملتهب: لم یأسر جمال یوسف الملکوتی عزیز مصر فحسب، بل أسر قلب امرأة العزیز کذلک وأصبح متیماً بجماله. وامتدّت مخالب العشق إلی أعماق قلبها، وبمرور الزمن کان هذا العشق یتجذّر یوماً بعد یوم ویزداد إشتعالًا ... لکنّ یوسف هذا الشاب الطاهر التقی، لم یفکّر بغیر اللّه، ولم یتعلق قلبه بغیر عشق اللّه سبحانه.

وهناک امور اخری زادت من عشق امرأة العزیز لیوسف ... فمن جهة لم تُرزق الولد، ومن جهة اخری إنغمارها فی حیاة مترفة مفعمة بالبذخ ... ومن جهة ثالثة عدم إبتلائها بأیّ نوع من البلاء کما هی حال المتنعمین، وعدم الرقابة الشدیدة علی هذا القصر من قبل العزیز من جهة رابعة ... کل ذلک ترک امرأة العزیز- الفارغة من الإیمان والتقوی- تهوی فی وساوسها الشیطانیة إلی الحضیض، بحیث أفضت لیوسف أخیراً عمّا فی قلبها وراودته عن نفسه.

واتّبعت جمیع الأسالیب والطرق للوصول إلی هدفها، وسعت لکی تلقی فی قلبه أثراً من هواها وترغیبها وطلبها، کما یقول عن ذلک القرآن الکریم: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِی هُوَ فِی بَیْتِهَا عَن نَّفْسِهِ». وجملة «راودته»: مأخوذة من مادّة «المراودة» وأصلها البحث عن المرتع والمرعی، ثم توسّعوا فی هذا اللفظ فاطلق علی کل ما یُطلب بالمداراة والملاءمة.

وهذا التعبیر یشیر إلی أنّ امرأة العزیز طلبت من یوسف أن ینال منها بطریق المسالمة والمساومة وبدون أی تهدید، وأبدت محبتها القصوی له بمنتهی اللین.

وأخیراً فکّرت فی أن تخلو به وتوفّر له جمیع ما یثیر غریزته، من ثیاب فضفاضة، وعطور عبقة شذیة، وتجمیلات مرغبة، حتی تستولی علی یوسف وتأسره.

یقول القرآن الکریم: «وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَیْتَ لَکَ».

«غلّقت»: تدل علی المبالغة وأنّها أحکمت غلق الأبواب.

وفی هذه الحال، حین رأی یوسف أنّ هذه الامور تجری نحو الإثم، ولم یر طریقاً لخلاصه منها، توجّه یوسف إلی زلیخا و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ». وبهذا الکلام رفض یوسف طلب امرأة العزیز غیر المشروع. وبهذه الجملة إعترف یوسف بوحدانیة اللّه تعالی من الناحیة النظریة، وکذلک من الناحیة العملیة أیضاً، ثم أضاف: «إِنَّهُ رَبِّی أَحْسَنَ مَثْوَایَ» ... ألیس التجاوز ظلماً وخیانة واضحة «إِنَّهُ لَایُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وهنا یبلغ أمر یوسف وامرأة العزیز إلی أدقّ مرحلة وأخطرها، حیث یعبّر القرآن عنه تعبیراً ذا مغزی کبیر «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهنَ رَبِّهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۳

إنّ امرأة العزيز كانت تريد أن تقضى وطراً مع يوسف، وبذلت وسعها فى ذلك، وكاد يوسف يستجيب لرغبتها بطبيعة كونه بشراً شابّاً لم يتزوج ويرى نفسه إزاء المثيرات الجنسية وجهاً لوجه ... لولا أن رأى برهان اللّه ... أى روح الإيمان والتقوى وتربية النفس، أضف إلى كل ذلك مقام العصمة الذى كان حائلًا دون هذا العمل.

الطريف أنّ هذا التفسير نقل عن الإمام الرضا عليه السلام فى عيون الأخبار للصدوق رحمه الله باسناده إلى على بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرّضا عليه السلام فقال له المأمون:

يابن رسول اللّه أليس من قولك: أنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى». قال المأمون: فما معنى قول اللّه عزّ وجلّ إلى أن قال: فأخبرنى عن قول اللّه تعالى «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ». فقال الرّضا عليه السلام: «لقد همّت به، ولولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها كما همّت به، لكنّه كان معصوماً والمعصوم لا يهُمّ بذنب ولا يأتيه». فقال المأمون: للّهدرُّك يا أبا الحسن.

والآن لنتوجّه إلى تفسير بقية الآية إذ يقول القرآن المجيد: «كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». وهى إشارة إلى أنّ هذا الإمداد الغيبى والإعانة المعنوية لإنقاذ يوسف من السوء والفحشاء من قبل اللّه لم يكن إعتباطاً، فقد كان عبداً عارفاً مؤمناً ورعاً ذا عمل صالح طهّر قلبه من الشرك وظلماته.

وبيان هذا الأمر يدل على أنّ مثل هذه الإمدادات الغيبية، فى لحظات الشدة والأزمة التى تدرك الأنبياء- كيوسف مثلًا- غير مخصوصة بهم، فإنّ كل من كان فى زمرة عباد اللّه الصالحين المخلصين فهو جدير بهذه المواهب أيضاً.

العفة والمتانة فى البيان: من عجائب القرآن وواحدة من أدلّة الإعجاز، أنّه لا يوجد فى تعبيره ركّة وإبتذال وعدم العفة وما إلى ذلك، كما أنّه لا يتناسب مع اسلوب الفرد العادى الامّى الذى تربّى فى محيط الجاهليّة، مع أنّ حديث كل أحد يتناسب مع محيطه وأفكاره.

وبين جميع قصص القرآن وأحداثه التى ينقلها توجد قصة غرام وعشق واقعية، وهى قصة (يوسف وامرأة عزيز مصر).

قصة تتحدّث عن عشق امرأة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب.

ولكن القرآن يمزج فى رسم هذه الميادين الحسّاسة من هذه القصة- باسلوب معجب- الدقة فى البيان مع المتانة والعفة، دون أن يغض الطرف عن ذكر الوقائع، أو أن يظهر العجز، وقد استعمل جميع الاصول الأخلاقية والامور الخاصة بالعفة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۵۴

وَ اسْتَبَقَا الْبَابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢۶) وَ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) فضيحة امرأة العزيز: المقاومة الشديدة التى أبداها يوسف جعلت امرأة العزيز آيسة منه تقريباً ... ولكن يوسف الذى إنتصر فى هذا الدور على تلك المرأة المعاندة أحسّ أنّ بقاءه فى بيتها- فى هذا المزلق الخطر- غير صالح، وينبغى أن يبتعد عنه، ولذلك أسرع نحو باب القصر ليفتحه ويخرج، ولم تقف امرأة العزيز مكتوفة الأيدى، بل أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، وسحبت قميصه من خلفه فقدّته «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ». «الإستباق»: فى اللغة هو المسابقة بين شخصين أو أكثر.

و «قدّ»: بمعنى مَزّق طولًا، كما أنّ «قطّ» بمعنى مَزّق عرضاً.

فقد أوصل يوسف نفسه نحو الباب وفتحه فرأيا «يوسف وامرأة العزيز» عزيز مصر خلف الباب فجأةً. يقول القرآن الكريم: «وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ».

والتعبير عن الزوج ب «السيد» كان طبقاً للعرف السائد فى مصر، حيث كانت تخاطب المرأة زوجها بالسيد.

فى هذه اللحظة التى رأت امرأة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، وشعلة الإنتقام تتأجّج فى داخلها من جهة اخرى، كان أوّل

شیء توجّهت إلیه أن تخاطب زوجها متظاهرهٔ بمظهر الحق متهمهٔ یوسف إذ «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ولکن یوسف أدرک أنّ السکوت هنا غیر جائز ... فأماط اللثام عن عشق امرأهٔ العزیز «قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۵

وطبیعی أنّ مثل هـذا الحادث من العسیر تصدیقه فی البدایهٔ، أی إنّ شاباً یافعاً غیر متزوج لا یُعدّ آثماً، ولکن امرأهٔ متزوجهٔ ذات مکانهٔ اجتماعیهٔ- ظاهراً- آثمهٔ! فلذلک کانت أصابع الإتهام تشیر إلی یوسف أکثر من امرأهٔ العزیز.

ولکن حیث إنّ اللّه حامی الصالحین والمخلصین فلا یرضی أن یحترق هذا الشاب المجاهد بشعلهٔ الإتهام، لذلک یقول القرآن فی هذا الصـدد: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

أمّا عزیز مصـر فقد قبل هذا الحکم الدقیق، وتحیّر فی قمیص یوسف ذاهلًا: «فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ».

فی هـذه الحـال، ولخوف عزیز مصـر من إنتشـار خبر هـذا الحـادث المؤسف علی الملأ، فتسـقط منزلته وکرامته فی مصـر رأی أنّ من الصلاح کتمان القضیهٔ، فالتفت إلی یوسف وقال:

«يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا». أی: اکتم هـذا الأـمر ولاـ تخبر به أحـداً ... ثم التفت إلی امرأته وقـال: «وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ».

الشاهد الذی ختم «ملفّ یوسف وامرأهٔ العزیز» بسرعهٔ، هو أحد أقارب امرأهٔ العزیز، وکلمهٔ «من أهلها» دلیل علی ذلک. وعلی القاعدهٔ فهو رجل حکیم وعارف ذکی ویقال: إنّ هذا الرجل کان من مشاوری عزیز مصر وکان معه.

حمایـهٔ اللّه فی الأزمات: الـدرس الکبیر الآخر الـذی نتعلّمه من قصهٔ یوسف، هو حمایهٔ اللّه ورعایته للإنسان الأکیدهٔ فی أشدّ الحالات، وبمقتضـی قوله: «يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِب». فمن جهـهٔ کان یوسف لا یُصـدّق أبـداً أنّ نافـذهٔ من الأمل ستفتح له، ویکون قدّ القمیص سنداً للطهارهٔ والبراءهٔ، ذلک القمیص الذی یصنع الحوادث، فیوماً یفضح إخوهٔ یوسف لأنّهم جاؤوا أباهم وهو غیر ممزّق، ویوماً یفضح امرأهٔ العزیز لأنّه قدّ من دُبر، ویوماً آخر یهب البصـر والنور لیعقوب، وریحه المعروف یسافر مع نسـیم الصـباح من مصر إلی أرض کنعان ویبشّر العجوز «الکنعانی» بقدوم موکب البشیر.

إنّ للّهألطافاً خفیهٔ لا یسبر غورها أحد، وحین یهبّ نسـیم هذه الألطاف تتغیر الأسـباب والمسـببات بشکل لا یمکن حتی لأذکی الأفراد أن یتنبّأ عنها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۶

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (۳۰) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَراً إِنْ هذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (۳۱) قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ (۳۲) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِنْ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۳۳) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۳۴) مؤامرهٔ اخری: بالرغم من أنّ عشق امرأهٔ العزیز- المـذکور آنفاً- کان مسألـهٔ خصوصـیهٔ بحیث أکّد حتی العزیز علی کتمانها، ولکن حیث إنّ هذه الأسـرار لا تبقی خافیهٔ، ولا سیّما فی قصور الملوک وأصحاب المال والقوّهٔ- التی فی حیطانها آذان صاغیهٔ- فسوف تتسرّب إلی خارج القصر کما یقول القرآن فی هذا الشأن: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا». ثم لُمْنَها وعَنّفنها بهذه الجملهٔ: «إِنَّا لَنَرَيهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وواضح أنّ المتحدث بمثل هذا الكلام كنّ نساء أشراف مصر.

لم يكن فساد هؤلاء النسوة بأقلّ من امرأة العزيز ولكن أيديهن لم تصل إلى يوسف، فكنّ يرين امرأة العزيز بسبب هذا العشق فى ضلال مبين.

«الشغف»: من مادة «الشغاف» ومعناه أعلى القلب أو الغشاء الرقيق المحيط بالقلب، وشغفها حبّاً معناه أنّها تعلّقت به إلى درجة بحيث نفذ حبّه إلى قلبها واستقر فى أعماقه.

أمّا امرأة العزيز فقد وصلها ما دار بين النسوة من إفتضاحها «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا».

هذا العمل دليل على أنّ امرأة العزيز لم تكن تكترث بزوجها، ولم تأخذ الدرس من فضيحتها، ثم أمرت يوسف أن يتخطّى فى المجلس «وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ».

نساء مصر- وطبقاً لبعض الروايات التى تقول: كن عشراً ... أو أكثر- فوجئن بظهور

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۵۷

يوسف كأنّه البدر أو الشمس الطالعة، فتحيّرن من جماله «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ» وفقدن أنفسهن «وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» مكان الفاكهة، وحين وجدن الحياء والعفة تشرقان من عينيه وقد احمر وجهه خجلًا صحن جميعاً و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَرًا إِن هذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ».

وفى هذه الحال التى كانت الدماء تسيل من أيدى النسوة وقد لاحظن ملامح يوسف كلها وصرن أمامه «كالخُشُب المسنّدة» كشفن عن أنّهن لسن بأقل من امرأة العزيز عشقاً ليوسف، فاستغلّت امرأة العزيز هذه الفرصة ف «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ».

وهكذا أحسّت امرأة العزيز بالغرور لأنّها وُفّقت فى ما ألقته من فكرة وأعطت لنفسها العذر، وإعترفت بكل صراحة بكل ما فعلت وقالت: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ».

وبدلًا من أن تظهر الندم على كلامها أو تتحفّظ على الأقل أمام ضيوفها، أردفت القول بكل جدّ يحكى عن إرادتها القطعية: «وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ» ... ولا أكتفى بسجنه، بل «وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ».

ينقل البعض روايات عجيبة مؤدّاها أنّ بعضاً من نسوة مصر أعطين الحق لامرأة العزيز ودرن حول يوسف ليرغبنه بأن يستسلم لحبّها وكل واحدة تكلّمت بكلام.

فقالت واحدة: أيّها الشاب ما هذا الصبر والدلال، ولِم لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، ألا ترى هذا الجمال الآسر؟ أليس عندك قلب؟! ألست شابّاً؟ ألا تستلذ بالعشق.

وقالت الثانية: إذا كنت لا- ترغب فى جمالها المثير ولا تحتاج إلى مقامها ومالها، ولكن ألا تعرف أنّها ستنتقم لنفسها بما اوتيت من وسائل الإنتقام الخطرة.

تهديد امرأة العزيز من جانبها بالسجن من جهة، ووساوس النسوة من جهة اخرى، أوقعا يوسف فى أزمة شديدة، وأحاط به طوفان المشاكل، ولكن حيث إنّ يوسف كان قد صنع نفسه، فقد صمّم بعزم وشجاعة والتفت نحو السماء ليناجى ربّه وهو فى هذه الشدة «قَالَ رَبِّ السّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ».

وحيث كان يدرى أن لا مهرب له إلّاإلى اللّه فى جميع الأحوال ولا سيما فى الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند اللّه بهذا الكلام «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ».

وحيث إنّ وعد اللّه حقّ، وأنّه يُعين المجاهد (لنفسه أو لعدوّه) فإنّه لم يترك يوسف سُدىً وتلقفته رحمته ولطفه كما يقول القرآن الكريم: «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۵۸

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». فهو يسمع نجوى عبيده، وهو مطلع على أسرارهم، ويعرف طريق الحلّ لهم.

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) السجن بسبب البراءة: انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف فى قصر العزيز فى تلك الغوغاء والهياج، فإنّ الخوف من فضيحة جنسية فى اسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم. فكان الرأى بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أوّلًا، وليشيع بين الناس أنّ المذنب الأصلى هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ».

أجل ... فى المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب، ... بل إنّ الأفراد النجباء كيوسف ينبغى أن يقبعوا فى زاوية النسيان ...

ولكن إلى متى؟ هل تستمر هذه الحالة؟ ... قطعاً لا ....

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان «وَدَخَلَ مَعَهُ السّجْنَ فَتَيَانِ».

وحيث إنّ الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادى، فإنّه يأنس لأحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث ويتوقّع ما سيكون، حتى أنّ الرؤيا وتعبيرها عنده يكون مطلباً مهماً.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۵۹

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إنّ أحدهما كان ساقياً فى بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشاية الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، وتحدّث كل منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيباً.

«قَالَ أَحَدُهُمَا إِنّى أَرَينِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْأَخَرُ إِنّى أَرَينِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ». ثم أضافا: «نَبّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

فقد إغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا- وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم- وبحجة التعبير كان يبيّن حقائق مهمة تفتح لهم السُبل ولجميع الناس أيضاً.

فى البداية، ومن أجل أن يستلفت إهتمامهما وإعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذى كان مثار إهتمامهما وتوجّههما «قَالَ لَايَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا».

ثم إنّ يوسف أضاف إلى كلامه مقروناً بالإيمان باللّه والتوحيد الجارى بجميع أبعاده فى أعماق وجوده، ليبيّن بوضوح أن لا شىء يتحقق إلّابإرادة اللّه قائلًا: «ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى» ولئلا يتصور أنّ اللّه يمنح مثل هذه الامور دون حساب، قال: «إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

والمقصود بهذه الملة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام من كنعان.

وينبغى لى أن أترك مثل هذه العقائد لأنّها على خلاف الفطرة الإنسانية النقية، ثم إنّى تربّيت فى اسرة الوحى والنبوة «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِى إِبْرهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يضيف على نحو التأكيد: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ». لأنّ اسرتنا اسرة التوحيد ... اسرة إبراهيم محطّم الأصنام «ذلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ». وهى الموهبة العامة التى تشمل جميع عباد اللّه المودعة فى أرواحهم المسمّاة بالفطرة حيث يتكاملون

بقيادة الأنبياء «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكَرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۰

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (۳۹) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۴۰) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (۴۱) وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲) السجن أو مركز التربية: حين هيّأ يوسف فى البحث السابق قلوب السجينين لقبول حقيقة التوحيد، توجّه إليهما وقال: «يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

فكأنّ يوسف يريد أن يفهم السجينين أنّه لِم تريان الحرية فى النوم ولا تريانها فى اليقظة؟

فلِم لا تجتمعون تحت رايـة التوحيد، وتعتصموا بحبل الواحد القهار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين والجبابرة الذين يسوقونكم إلى السجن أبرياء دون ذنب؟!

ثم يضيف قائلًا: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطنٍ» بل هى صنع عقولكم العاجزة وأفكاركم المنحرفة ... «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» فلا ينبغى أن تطأطئوا رؤوسكم لسواه من الطغاة والفراعنة، ثمّ أضاف زيادة فى التأكيد قائلًا: «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ».

أى إنّ التوحيد فى جميع أبعاده- فى العبادة، فى الحكومة، فى المجتمع، فى المسائل الثقافية، وفى كل شىء- هو الدين الإلهى المستقيم والثابت. «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» ولذلك خضعوا لحكومة غير (اللَّه) فذاقوا الشقاء والسجون فى هذا السبيل.

ثم التفت إليهما وقال: «يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَمَّا أَحَدُ كُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْأَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ».

ثم أضاف مؤكداً: «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ». وهو إشارة إلى أنّ هذا التعبير ليس

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۱

تعبيراً ساذجاً، بل هو من أنباء الغيب التى تعلّمها من اللَّه، فلا مجال للترديد والكلام بعد هذا.

وحين أحسّ يوسف أنّ السجينين سينفصلان عنه عاجلًا، ومن أجل أن يجد يوماً يُطلق فيه ويُبرأ من هذه التهمة، أوصى أحد السجينين الذى كان يعلم أنّه سيطلق أن يذكره عند الملك «وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبّكَ» لكن هذا الغلام «الناسى» مثله مثل الأفراد قليلى الإستيعاب، ما إن يبلغوا نعمةً ما حتى ينسوا صاحبها، وهكذا نسى يوسف تماماً، ولكن القرآن عبّر عن ذلك بقوله: «فَأَنسهُ الشَّيْطنُ ذِكْرَ رَبّهِ» وهكذا أصبح يوسف منسيّاً «فَلَبِثَ فِى السّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ».

أمّا عدد السنوات التى قضاها يوسف فى السجن، فهناك أقوال بين المفسرين، والمشهور أنّها سبع سنوات، إلّاأنّ بعضهم قال: إنّ يوسف بقى فى السجن إثنتى عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبى سجنه، وسبع بعدها، وكانت سنوات ملأى بالتعب والنَصب إلّاأنّها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمة بالبركة والخير.

وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (۴۳) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (۴۴) وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (۴۷) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹) رؤيا ملك مصر وما جرى له: بقى يوسف سنين فى السجن المظلم كأى إنسان منسيّ، ولم يكن لديه من عمل إلّابناء شخصيته، وإرشاد السجناء وعيادة مرضاهم وتسلية الموجَعين

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۲

منهم، حتى غيّرت (حظّه وطالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر ... ولم تغيّر هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ امّة مصر وما حولها.

لقد رأى ملك مصر الذى يقال أنّ اسمه هو «الوليد بن الريان» وكان «عزيز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا ومن حوله فقصّ عليهم رؤياه «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنّى أَرَى سَبْعَ بِقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِستٍ». ثم إلتفت إليهم طالباً منهم تعبير رؤياه فقال: «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ». ولكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و «قَالُوا أَضْغثُ أَحْلم وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلم بِعَالِمِينَ».

«الأضغاث»: جمع «ضِغْث» ومعناه المجموعة من الحطب أو العشب اليابس أو الأخضر أو شيء آخر؛ و «الأحلام»: جمع «حُلُم» معناه الطيف والرؤيا، فيكون معنى «أَضْغَاثُ أَحْلم» هو الأطياف المختلطة، فكأنّها متشكلة من مجموعة مختلفة ومتفاوتة من الأشياء.

وهنا تذكّر ساقى الملك ما حدث له ولصاحبه فى السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشّره يوسف «وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ».

وهكذا حرّك كلام الساقى المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقى إلى السجن ليرى صديقه القديم ... ذلك الصديق الذى لم يف بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف أنّ شخصية يوسف الكريمة تمنعه من فتح «باب العتاب» فالتفت إليه وقال: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بِقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ».

إنّ يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبّر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغى عمله فى المستقبل و «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ».

ثم أنّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا أمطار ولا زراعة كافية، فعليكم بالاستفادة مما جمعتم فى سنيّ الرخاء «ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ».

ولكن عليكم أن تحذروا من إستهلاك الطعام «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ» وإذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذ لا خطر يهدّدكم لأنه «ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۳

و «يُغَاثُ النَّاسُ». أى يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» المحاصيل لإستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها ... الخ.

كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً. فى الحقيقة لم يكن يوسف مفسّراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدّم مقترحاً من عدّة مواد لخمسة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدى الطغاة من جهة اخرى.

وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۵۱) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ (۵۲) وَ مَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳) تبرئة يوسف من كل إتهام: لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقاً ومدروساً ومنطقياً، لقد فهم الملك إجمالًا أنّ يوسف لم يكن رجلًا يستحق السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادى، دخل السجن نتيجة حادث خفى، لذلك تشوّق لرؤيته، ولكن لا ينبغى للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يُؤتى به إليه كما

يقول القرآن: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ» لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك و «قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ». إذن ... فيوسف لم يرغب أن يكون كأىّ مجرم، أو على الأقل كأىّ متهم يعيش مشمولًا ب «عفو الملك» ... لقد كان يرغب أوّلًا أن تثبت براءته وطهارة ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يُثبت ضمناً تلوّث النظام الحكومى وما يجرى فى قصر وزيره.

ثم يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر ولا جهازه الحكومى وبأى سبب وصلت السجن، فاللَّه مطلع على ذلك «إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۴

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرّة ثانية إلى الملك، وأخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه وعلوّ همّته، لذا عظم يوسف فى نفس الملك وبادر مسرعاً إلى إحضار النسوة اللاتى شاركن فى الحادثة، والتفت إليهن و «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ». يجب أن تقلن الحق ... هل إرتكب يوسف خطيئة أو ذنباً؟

فتيقّظ فجأةً الوجدان النائم فى نفوسهن، وأجبنه جميعاً بكلام واحد، متفق على طهارته و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ».

أمّا امرأة العزيز التى كانت حاضرة أيضاً، أحسّت بأنّ الوقت قد حان لأن تنزّه يوسف وأن تعوّض عن تبكيت وجدانها وحيائها وذنبها بشهادتها القاطعة فى حقه، وخاصه أنّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن فى شخصيتها وكان كلامه عامّاً ومغلقاً تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنّما حدث إنفجار فى داخلها فجأةً وصرخت و «قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ثم واصلت امرأة العزيز كلامها «ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» لأنّى عرفت بعد هذه المدة الطويلة وما عندى من التجارب «أَنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ».

وتواصل امرأة العزيز القول: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى» وبحفظه وإعانته نبقى مصونين، وأنا أرجو أن يغفر لى ربّى هذا الذنب «إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فامرأة العزيز التى تدعى «زليخا» أو «راعيل» وإن ابتُليت فى عملها بأشدّ الهزائم، لكن هذه الهزيمة فى مسير الذنب كانت سبباً لأن تنتبه ويتيقّظ وجدانها النائم، وأن تندم على ما فات من عملها ... والتفتت إلى ساحة اللَّه.

السعداء هم اولئك الذين يصنعون من الهزائم إنتصاراً، ومن سوء الحظّ حظّاً حسناً، ومن أخطائهم طريقاً صحيحاً للحياة.

وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴) قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۵

يوسف أميناً على خزائن مصر: رأينا أنّ يوسف- هذا النبى العظيم- ثبتت براءته أخيراً للجميع، وحتى الأعداء شهدوا بطهارته ونزاهته، وظهر لهم أنّ الذنب الوحيد الذى أودع من أجله السجن لم يكن غير التقوى والأمانة التى كان يتحلّى بهما.

إضافةً إلى هذا فقد ثبت لهم أنّ هذا السجين منهل العلم والمعرفة والنباهة وطاقة فذّة وعالية فى الإدارة.

ثم يستمر القرآن بذكر القصة فيقول: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى» وهكذا أمر الملك باحضاره لكى يجعله مستشاره الخاص ونائبه فى المهمّات فيستفيد من علمه ومعرفته وخبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثم أرسل الملك مندوباً لزيارته فى السجن، فدخل عليه وأبلغه تحيات الملك وعواطفه القلبية تجاهه ثم قال له: إنّه قد لبّى طلبك فى البحث والتحقيق عن نساء مصر وإتهامهن إيّاك، قم لنذهب إلى الملك.

فدخل يوسف على الملك وتكلّم معه فعندما سمع من يوسف الأجوبة التى تحكى عن علمه وفراسته وذكائه الحادّ، إزداد حبّاً له وقال: إنّ لك اليوم عندنا منزلة رفيعة وسلطات واسعة وإنّك فى موضع ثقتنا وإعتمادنا «فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» فلابدّ أن تتصدّى للمناصب الهامّة فى هذا البلد، وتهتمّ بإصلاح الامور الفاسدة.

فاختار يوسف منصب الأمانة على خزائن مصر، وقال إجعلنى مشرفاً على خزائن هذا البلد فإنّى حفيظ عليم وعلى معرفة تامّة بأسرار المهنة وخصائصها «قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ».

كان يوسف يعلم أنّ جانباً كبيراً من الاضطراب الحاصل فى ذلك المجتمع الكبير المليء بالظلم والجور يكمن فى القضايا الاقتصادية، والآن وبعد أن عجزت أجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل واضطرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له أن يسيطر على اقتصاد مصر حتى يتمكن من مساعدة المستضعفين وأن يخفّف عنهم- قدر ما يستطيع- الآلام والمصاعب ويستردّ حقوقهم من الظالمين.

وهنا نقطة اخرى يجب التنبيه عليها وهى إنّنا نلاحظ أنّ يوسف عليه السلام يخاطب الملك ويقول له: «إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ» وهذه إشارة إلى أهمية عنصر الإدارة إلى جانب عنصر الأمانة وأنّ توفّر عنصر الأمانة والتقوى فقط فى شخص لا يؤهّله لأن يتصدّى لأحد

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۶

المناصب الاجتماعية الحساسة، بل لابد من إجتماع ذلك العامل مع العلم والتخصص والقدرة على الإدارة. ثم يقول اللّه سبحانه وتعالى مُنهياً بذلك قصة يوسف عليه السلام: «وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ».

نعم إنّ اللّه سبحانه وتعالى ينزل رحمته وبركاته ونعمه المادية والمعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلًا لذلك «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ».

وأنّه سبحانه وتعالى لا ينسى أن يجازى المحسنين، وإنّه مهما طالت المدّة فإنّه يجازيهم بجزائه الأوفى «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

ولكن لا- يقتصر سبحانه وتعالى على مجازاة المحسنين فى الدنيا، بل يجازى المتقين والمحسنين بأحسن من ذلك فى الآخرة وهو الجزاء الأوفى «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وَ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۸) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۵۹) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى وَ لَا تَقْرَبُونِ (۶۰) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ (۶۱) وَ قَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۶۲) إقتراح جديد من يوسف لُاخوته:

وكما كان متوقّعاً، فقد تحسّنت الزراعة فى مصر خلال سبع سنوات متتالية وذلك على أثر توالى الأمطار ووفرة ماء النيل وكثرته، ويوسف قد أجبر أبناء الشعب على أن يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الإنتاج الزراعى، وهكذا امتلأت المخازن بالمنتوجات الزراعية والإستهلاكية ومرّت سبع سنوات من الرخاء والوفرة، وبدأ القحط والجفاف يُظهر وجهه الكريه، ومنعت السماء قطرها، فلم تينع ثمرة، ولم تحمل نخلة.

وهكذا أصاب عامّة الشعب الضيق وقلّت منتوجاتهم الزراعية، لكنّهم كانوا على علم بخزائن الدولة وإمتلائها بالمواد الغذائية، وساعدهم يوسف حيث استطاع- بخطّة محكمة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۷

ومنظمة مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجات المتزايدة، فى السنين القادمة- أن يرفع الضيق عن الشعب بأن باع لهم المنتوجات الزراعية مراعياً فى ذلك العدالة بينهم.

وهذا القحط والجفاف لم يكن مقتصراً على مصر وحدها، بل شمل البلدان المحطية بها أيضاً، ومنهم شعب فلسطين وأرض كنعان المتاخمة لمصر والواقعة على حدودها فى الشمال الشرقى، وكانت عائلة يوسف تسكن هناك وقد تأثّرت بالجفاف، واشتدّ بهم الضيق، بحيث اضطرّ يعقوب أن يرسل جميع أولاده- ما عدا بنيامين الذى أبقاه عنده بعد غياب يوسف- إلى مصر، حيث سافروا مع قافلة

كانت تسير إلى مصر ووصلوا إليها- كما قيل- بعد ١٨ يوماً.

وتذكر المصادر التاريخية أنّ الأجانب عند دخولهم إلى الأراضي المصرية كانوا ملزمين بتسجيل أسمائهم في قوائم معينة لكي تعرض على يوسف، ومن هنا فحينما عرض الموظفون تقريراً على يوسف عن القافلة الفلسطينية وطلبهم للحصول على المؤن والحبوب رأى يوسف أسماء اخوته بينهم وعرفهم وأمر بإحضارهم إليه، دون أن يتعرف أحد على حقيقتهم وأنّهم اخوته ....

يقول القرآن الكريم: «وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ». وكان طبيعياً أن لا يتعرف إخوة يوسف عليه لأنّه في جانب كان قد مضى على فراقهم إياه منذ أن أودعوه الجبّ وخرج منه ودخل إلى مصر ما يقرب من أربعين سنة، ومن جهة اخرى كان لا يخطر ببالهم أنّ أخوهم صار عزيزاً لمصر، وحتى لو رأوا الشبه بين العزيز وبين أخيهم لحملوه على الصدفة.

كما أنّ احتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدة كان ضعيفاً عندهم، وعلى أية حال فإنّ إخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب.

أمّا يوسف فإنّه قد رحّب بإخوته ولاطفهم وفتح باب الحديث معهم، قالوا: نحن عشرة إخوة من أولاد يعقوب، ويعقوب هو ابن إبراهيم الخليل نبي اللّه العظيم، وأبونا أيضاً من أنبياء اللّه العظام، وقد كبر سنّه وألمّ به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغم والحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع إخوته وكان يحبّه كثيراً، فخرج معنا يوماً للنزهة والتفرج والصيد وغفلنا عنه فأكله الذئب، ومنذ ذلك اليوم وأبونا يبكي لفراقه.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤٦٨

نقل بعض المفسرين أنّه كان من عادة يوسف أن لا يعطى ولا يبيع لكل شخص إلّاحمل بعير واحد، وبما أنّ إخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ١٠ أحمال من الحبوب، فقالوا: إنّ لنا أباً شيخاً كبيراً عاجزاً عن السفر وأخاً صغيراً يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز أن يدفع إليهم حصّتهما، فأمر يوسف أن يضاف إلى حصصهم حملان آخران، ثمّ توجّه إليهم مخاطباً إيّاهم وقال: فأتوا بأخيكم الصغير في سفركم القادم لتثبتوا صدقكم، وتدفعوا التّهمة عن أنفسكم. وهنا يقول القرآن الكريم: إنّه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم وأرادوا الرحيل عن مصر «وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ». لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطّن لهم، وهو إنّني سوف أمنع عنكم المؤن والحبوب إذا لم تأتوني بأخيكم: «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ»، وكان يوسف يحاول بشتّى الطرق، تارة بالتهديد، واخرى بالتحبب، أن يلتقي بأخيه بنيامين ويبقيه عنده، وظهر من سياق الآيات، أمران: أنّ الحبوب كانت تباع وتشترى في مصر بالكيل لا بالوزن، واتّضح أيضاً أنّ يوسف كان يستقبل الضيوف- ومنهم اخوته- الذين كانوا يفدون إلى مصر بحفاوة بالغة ويستظيفهم بأحسن وجه.

وأجاب إخوة يوسف على طلب أخيهم: «قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ».

ويستفاد من قوله «إِنَّا لَفَاعِلُونَ» وإجابتهم الصريحة لعزيز مصر، أنّهم كانوا مطمئنين إلى قدرتهم على التأثير على أبيهم وأخذ الموافقة منه، وكيف لا يكونون مطمئنين بقدرتهم على ذلك وهم الذين استطاعوا بإصرارهم وإلحاحهم أن يفرّقوا بين يوسف وأبيه؟!

وأخيراً أمر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التي اشتروا بها الحبوب في رحالهم- جلباً لعواطفهم- «وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته؟ بالنسبة للآيات السابقة فإنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو إنّه لماذا لم يعرّف يوسف نفسه لإخوته، حتى يقفوا على حقيقة حاله ويرجعوا إلى أبيهم ويخبرونه عن مصير يوسف، وبذلك تنتهي آلامه لأجل فراق يوسف؟

حاول جمع من المفسرين- كالعلّامة الطبرسي في مجمع البيان والعلّامة الطباطبائي في تفسير الميزان والقرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن- الإجابة على هذا السؤال، وذكروا له عدّة أجوبة، ولعل أحسنها وأقربها هو أنّ يوسف لم يكن مجازاً من قبل اللّه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۶۹

سبحانه وتعالى فى إخبار أبيه، لأنّ قصة يوسف مع غض النظر عن خصائصه الذاتية كانت ساحة لاختبار يعقوب وحقلًا لإمتحانه، فلابدّ من أن يؤدّى يعقوب إمتحانه ويجتاز فترة الاختبار قبل أن يسمح ليوسف بإخباره، وإضافة إلى هذا فإنّ إسراع يوسف فى إخبار إخوته قد يؤدّى إلى عواقب غير محمودة، مثلًا قد يستولى عليهم الخوف والهلع من إنتقام يوسف منهم لما إرتكبوه سابقاً فى حقه فلا يرجعوا إليه.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۶٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۶۴) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانَا وَ نَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (۶۵) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (۶۶) موافقة يعقوب: رجع اخوة يوسف إلى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنّهم كانوا يفكّرون بمصيرهم فى المستقبل وأنّه لو رفض الأب ولم يوافق على سفر أخيهم الصغير (بنيامين) فإنّ عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما إنّه لا يعطيهم حصّتهم من الحبوب والمؤن. ومن هنا يقول القرآن: «فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» ولا سبيل لنا للحصول عليه إلّاأن ترسل معنا أخانا «فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ» وكن على يقين من أنّنا سوف نحافظ عليه ونمنعه من الآخرين «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ثم أضاف: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ثم إنّ الاخوة حينما عادوا من مصر «وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ» فشاهدوا أنّ هذا الأمر هو برهان قاطع على صحّة طلبهم، فجاؤوا إلى أبيهم و «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إِلَيْنَا».

فيا أبانا ليس هناك مجال للتأخير- ابعث معنا أخانا لكى نسافر ونشترى الطعام «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» وسوف نكون جادّين فى حفظ أخينا «وَنَحْفَظُ أَخَانَا»، وهكذا نتمكن من أن نشترى كيل بعير من الحبوب «وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» وإنّنا على يقين فى أنّ سماحة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴٧٠

العزيز وكرمه سوف يسهّلان حصوله «ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ». وفى كل الأحوال رفض يعقوب إرسال إبنه بنيامين معهم، ولكنّه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوى بحيث اضطر إلى التنازل على مطلبهم ولم يَر بدّاً من القبول، ولكنّه وافق بشرط: «قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أن يُحَاطَ بِكُمْ».

والمقصود من قوله «مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ» هو العهد واليمين المتضمن لإسم اللّه سبحانه وتعالى.

فقد وافق اخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، وحينما أعطوه العهد والمواثيق المغلّظة قال يعقوب: «فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وَ قَالَ يَا بَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۶٧) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۶٨) وأخيراً توجّه إخوة يوسف صوب مصر للمرّة الثانية بعد إذن أبيهم وموافقته على إصطحاب أخيهم الصغير معهم، وحينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصياً إيّاهم بقوله:

«وَقَالَ يَا بَنِىَّ لَاتَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ».

ثم أضاف: إنّه ليس فى مقدورى أن أمنع ما قد قدّر لكم فى علم اللّه سبحانه وتعالى «وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ».

ثم قال أخيراً: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

لا شك فى أنّ عاصمة مصر كانت تمتلك أبواباً متعددة، ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ سبب هذه النصيحة هو أنّ إخوة يوسف

كانوا يتمتعون بقسط وافر من الجمال وبأجسام قوية رشيقة، وكان الأب الحنون فى قلق شديد من الفات نظر الناس إلى هذه المجموعة المكوّنة فيصيبهم الحسد من تلك العيون الفاحصة.

وهناك سبب آخر وهو أنّ دخول هذه المجموعة إلى مصر بوجوههم المشرقة وأجسامهم الرشيقة القويمة قد يثير الحسد والبغضاء فى بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۱

واصل الاخوة سيرهم نحو مصر، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة وشاسعة بين كنعان ومصر دخلوا الأراضى المصرية، وعند ذاك «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ». فهم برغم تفرّقهم إلى جماعات صغيرة- طبقاً لما وصّاهم به أبوهم- فإنّ الفائدة والثمرة الوحيدة التى ترتّبت على تلك النصيحة ليس «إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضهَا». وهذه إشارة إلى أنّ أثرها لم يكن سوى الهدوء والطمأنينة التى إستولت على قلب الأب الحنون الذى بعد عنه أولاده، وبقى ذهنه وفكره مشغولًا بهم وبسلامتهم وخائفاً عليهم من كيد الحاسدين وشرور الطامعين، فما كان يتسلّى به فى تلك الأيّام لم يكن سوى يقينه القلبى بأنّ أولاده سوف يعملون بنصيحته.

ثمّ يستمرّ القرآن فى مدح يعقوب ووصفه بقوله: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». وهذه إشارة إلى أنّ كثيراً من الناس يتيهون فى الأسباب وينسون قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، إلّاأنّ يعقوب كان عالماً بأنّه بدون إرادة اللَّه سبحانه وتعالى لا يحدث شيء، فكان يتوكّل فى الدرجة الاولى على اللَّه سبحانه وتعالى ويعتمد عليه، ثم يبحث عن عالم الأسباب.

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۶۹) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (۷۰) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَا ذَا تَفْقِدُونَ (۷۱) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (۷۲) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (۷۳) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (۷۴) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۷۵) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (۷۶)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۲

يوسف يخطّط للإحتفاظ بأخيه: وأخيراً دخل الاخوة على يوسف وأعلموه بأنّهم قد نفّذوا طلبته واصطحبوا معهم أخاهم الصغير برغم إمتناع الأب فى البداية، ولكنّهم أصرّوا عليه وإنتزعوا منه الموافقة لكى يثبتوا لك إنّهم قد وفوا بالعهد، أمّا يوسف فإنّه قد إستقبلهم بحفاوة وكرم بالغين ودعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر أن يجلس كل إثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا وجلس كل واحد منهم بجنب أخيه على الطعام، وبقى بنيامين وحيداً فتألّم من وحدته وبكى وقال: لو كان أخى يوسف حيّاً لعطف علىّ ولأجلسنى إلى جنبه على المائدة لأنّنا إخوة من أب واحد وامّ واحدة، قال يوسف مخاطباً إيّاهم: إنّ أخاكم بقى وحيداً وإنّنى سأجلسه بجنبى على المائدة ونأكل سويّة من الطعام، ثم بعد ذلك أمر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها ويناموا، ومرّة اخرى بقى بنيامين وحيداً، فاستدعاه يوسف إلى غرفته وبسط له الفراش إلى جنبه، لكنّه لاحظ فى تقاسيم وجهه الحزن والألم وسمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوهاً، عند ذاك نفذ صبر يوسف وكشف عن حقيقة نفسه، والقرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله: «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتِئسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«تبتئس»: مأخوذ من مادّة «البؤس» وهو أصل بمعنى الضرر والشدّة، لكن فى الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغمّ على نفسك ولا تكن حزيناً من معاملتهم لك، والمراد بقوله «يعملون» هو معاملة الاخوة السيئة لأخيهم بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده وطرده من بينهم كما فعلوا بيوسف.

وتقول بعض الروايات: إنّه عند ذاك إقترح يوسف على أخيه بنيامين وقال له: هل تودّ أن تبقى عندى ولا تعود معهم؟

قال بنيامين: نعم، ولكن إخوتى لا يوافقون على ذلك.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّى سوف أضع خطّة محكمة بحيث يضطرّون لتركك عندى والرجوع دونك.

وبدأ يوسف بتنفيذ الخطّة، وأمر بأن يعطى لكلّ واحد منهم حصّة من الطعام والحبوب ثم عند ذاك «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ».

لا شك فى أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامة، ولعله لم يطلع على هذه الخطة سوى موظف واحد وعند ذاك إفتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكى الخاص،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۳

وبحث عنه الموظفون والعمّال كثيراً لكن دون جدوى وحينئذ «أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ».

وحينما سمع إخوة يوسف هذا النداء إرتعدت فرائصهم وإستولى عليهم الخوف، حيث لم يخطر ببالهم أن يتهموا بالسرقة بعد الحفاوة التى قوبلوا بها من جانب يوسف، فتوجّهوا إلى الموظفين والعمال وقالوا لهم: ماذا فقدتم؟ «قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ».

قالوا: قد فقدنا صواع الملك ونظنّ إنّه عندكم «قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ» وبما أنّ الصواع ثمين ومورد علاقة الملك فإنّ لمن يعثر عليه جائزة، وهى حمل بعير من الطعام «وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ». ثم أضاف المؤذن والمسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: إنّنى شخصياً أضمن هذه الجائزة «وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ».

فاشتدّ إضطراب الاخوة لسماعهم هذه الامور وزادت مخاوفهم، وتوجّهوا إلى الموظف مخاطبين إياه «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ».

إلّا أنّ الموظفين توجّهوا إليهم و «قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ».

أجاب الاخوة: إنّ عقاب من وجد الصواع فى رحله هو أن يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع «قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ». وإنّ هذا العقاب هو جزاء السارق «كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ». وحينئذ أمر يوسف الموظفين والعمال بأن تنزل رحالهم من على ظهور الجمال ويفتح متاعهم وأن يبحثوا فيها واحداً بعد واحد ودون استثناء، وتجنّباً عن إنكشاف الخطة أمر يوسف بأن يبدأوا البحث والتفتيش فى أمتعة الاخوة أوّلًا قبل أمتعة أخيه بنيامين، لكنهم وجدوه أخيراً فى أمتعة بنيامين «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ».

بعد أن عثر على الصاع فى متاع بنيامين، إستولى الإرتباك والدهشة على الاخوة، وصعقتهم هذه الواقعة ورأوا أنفسهم فى حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح وسرق صواع الملك، وهذا يعود عليهم بالخزى والعار، ومن جهة اخرى إنّ هذا العمل سوف يفقدهم اعتبارهم ونفوذهم عند الملك خصوصاً مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وإضافةً إلى كل هذا، كيف يجيبون على استفسارات أبيهم؟ وكيف يقنعونه بذنب ابنه وعدم تقصيرهم فى ذلك؟

ثم يستمرّ القرآن الكريم ويبين كيف استطاع يوسف أن يأخذ أخاه بالخطة التى رسمها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۴

اللَّه له دون أن يثير فى اخوته أى نوع من المقاومة والرفض «كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ». والأمر المهم فى هذه القضية هو أنّه لو أراد يوسف أن يعاقب أخاه بنيامين،- وطبقاً للقانون المصرى- لكان عليه أن يضرب أخاه ويودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات وأهداف يوسف للإحتفاظ بأخيه، ومن هنا وقبل القبض على بنيامين، سأل إخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأنّ السنة المتّبعة عندهم فى معاقبة السارق أن يعمل السارق عند المعتدى عليه كالعبد.

لا ريب إنّ للعقوبة والجزاء طرقاً عديدة منها أن يعاقب المعتدى على طبق ما يعاقب به فى قومه، وهكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، وتوضيحاً لهذه الحالة وأنّ يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقاً للدستور المصرى يقول القرآن الكريم: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ

الْمَلِکِ». لکن اللّه سبحانه وتعالی یستثنی بقوله: «إِلَّا أن یَشَاءَ اللَّهُ». وهو إشارهٔ إلی أنّ ما فعله یوسف بأخیه لم یکن إلّابأمر منه سبحانه وتعالی وطبقاً لإرادته فی الإحتفاظ ببنیامین، واستمراراً لإمتحان یعقوب وأولاده.

وأخیراً یضیف القرآن الکریم ویقول: إنّ اللّه سبحانه یرفع درجات من استطاع أن یفوز فی الامتحان ویخرج مرفوع الرأس کما حدث لیوسف «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ» ولکن فی کل الأحوال فإنّ اللّه تعالی علیم یهدی الإنسان إلی سواء السبیل وهو الذی أوقع هذه الخطهٔ فی قلب یوسف وألهمه إیّاها «وَفَوْقَ کُلِّ ذی عِلْمٍ عَلِیمٌ».

قَالُوا إِنْ یَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا یُوسُفُ فِی نَفْسِهِ وَ لَمْ یُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَکَاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (۷۷) قَالُوا یَا أَیُّهَا الْعَزِیزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَیْخاً کَبِیراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَکَانَهُ إِنَّا نَرَاکَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ (۷۸) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ (۷۹) موقف إخوهٔ یوسف: وأخیراً إقتنع اخوهٔ یوسف بأنّ أخاهم (بنیامین) قد إرتکب فعلًا شنیعاً وقبیحاً وإنّه قد شوّه سمعتهم وخذلهم عند عزیز مصر، فأرادوا أن یبرّأوا أنفسهم ویعیدوا ماء وجههم «قَالُوا إِن یَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ». أی إنّه لو قام بالسرقهٔ فهذا لیس بأمر عجیب منه فإنّ أخاه یوسف وهو أخوه لأبویه قد إرتکب مثل هذا العمل القبیح،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۵

ونحن نختلف عنهما فی النسب.

وحینما سمع یوسف کلامهم تأثر بشدهٔ لکنه کتم ما فی نفسه: «فَأَسَرَّهَا یُوسُفُ فِی نَفْسِهِ وَلَمْ یُبْدِهَا لَهُمْ» لأنّه کان عالماً بأنّهم قد افتروا علیه واتّهموه کذباً، إلّاأنّه لم یرد علیهم وقال لهم باختصار وإقتضاب: «قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّکَانًا». أی: إنّکم أحقر وأشرّ مکاناً ممّن تتّهمونه وتنسبون إلیه السرقهٔ، أو أنتم أحقر الناس عندی.

ثم أضاف یوسف: إنّ اللّه سبحانه وتعالی أعلم بما تنسبون «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ».

وعندما لاحظ الإخوهٔ أنفسهم محاصرین بین أمرین، فمن جهةٍ- وطبقاً للسنّهٔ والدستور المتعیّن عندهم- لابدّ وأن یبقی أخوهم الصغیر بنیامین عند عزیز مصر ویقوم بخدمته کسائر عبیده، ومن جهةٍ اخری فإنّهم قد أعطوا لأبیهم المواثیق والأیمان المغلّظهٔ علی أن یحافظوا علی أخیهم بنیامین ویعودوا به سالماً إلیه، حینما وقعوا فی هذه الحالهٔ توجّهوا إلی یوسف الذی کان مجهول الهویهٔ عندهم، مخاطبین إیّاه «قَالُوا یَا أَیُّهَا الْعَزِیزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَیْخًا کَبِیرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَکَانَهُ» لکی نرجعه إلی أبیه ونکون قد وفینا بالوعد الذی قطعناه له، فإنّه شیخ کبیر ولا طاقهٔ له بفراق ولده العزیز، فنرجو منک أن تترحّم علینا وعلی أبیه ف «إِنَّا نَرَیکَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ».

أمّا یوسف فإنّه قد واجه هذا الطلب بالإنکار الشدید و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» فإنّ العدل والإنصاف یقتضی أن یکون المعاقب هو السارق، ولیس بریئاً رضی بأن یتحمل أوزار عمل غیره، ولو فعلنا لأمسینا من الظالمین «إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ».

والطریف أنّ یوسف لم ینسب لأخیه السرقهٔ وإنّما عبّر عنه ب «مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» وهذا برهان علی السلوک الحسن والسیرهٔ المستقیمهٔ التی کان ینتهجها یوسف فی حیاته.

فَلَمَّا اسْتَیْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِیّاً قَالَ کَبِیرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاکُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَیْکُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِی یُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّی یَأْذَنَ لِی أَبِی أَوْ یَحْکُمَ اللَّهُ لِی وَ هُوَ خَیْرُ الْحَاکِمِینَ (۸۰) ارْجِعُوا إِلَی أَبِیکُمْ فَقُولُوا یَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَکَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَ مَا کُنَّا لِلْغَیْبِ حَافِظِینَ (۸۱) وَ اسْأَلِ الْقَرْیَةَ الَّتِی کُنَّا فِیهَا وَ الْعِیرَ الَّتِی أَقْبَلْنَا فِیهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۸۲)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۶

رجوع الاخوهٔ إلی أبیهم خائبین: حاول الاخوهٔ أن یستنقذوا أخاهم بنیامین بشتّی الطرق، إلّاأنّهم فشلوا فی ذلک، ورأوا أنّ جمیع سبل النجاهٔ قد سدّت فی وجوههم، إستولی علیهم الیأس وصمّموا علی الرجوع والعودهٔ إلی کنعان لکی یخبروا أباهم، یقول القرآن واصفاً إیّاهم «فَلَمَّا اسْتَیْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِیًّا». أی: إنّهم بعد أن یئسوا من عزیز مصر أو من إنقاذ أخیهم، إبتعدوا عن الآخرین واجتمعوا فی جانب وبدأوا بالتشاور والنجوی فیما بینهم.

قوله تعالى «خلصوا»: بمعنى الخلوص، وهو كناية عن الإبتعاد عن الآخرين والاجتماع فى جلسة خاصه، أمّا قوله تعالى «نجيّاً»: فهو من مادّة «المناجاة» وأصله من «نجوة» بمعنى الربوة والأرض المرتفعة، فباعتبار أنّ الربوات منعزلة عن أراضيها المجاورة، سمّيت الجلسات الخاصة البعيدة عن عيون الغرباء والحديث فى السر قياساً عليها ب «النجوى».

وفى ذلك الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلًا: «قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ» بأن تردّوا إليه بنيامين سالماً، فالآن بماذا تجيبونه؟ وقد سوّدنا صفحتنا فى المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف «وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ» فالآن والحالة هكذا، فإنّنى لا اغادر أرض مصر وسوف أعتصم فيها «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». والظاهر أنّ قصده بحكم اللّه، إمّا الموت الذى هو حكم إلهى، أى لا أبرح من هذه الأرض حتى أموت فيها، وإمّا أن يفتح اللّه سبحانه وتعالى له سبيلًا للنجاة، أو عذراً مقبولًا عند أبيه.

ثم أمرهم الأخ الأكبر أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى عليهم «ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ». وهذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملك، ثمّ عثر عليه عند أخينا، وظهر للجميع إنّه قد سرقها «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا» ولكن نحن لا نعلم إلّاما شهدناه بأعيننا وهذا غاية معرفتنا «وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ».

ثم أرادوا أن يزيلوا الشك والريبة عن قلب أبيهم فقالوا يمكنك أن تتحقق وتسأل من المدينة التى كنا فيها «وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» «۱». ومن القافلة التى سافرنا معها إلى مصر

(۱) «القرية»: يشمل جميع الأرياف والمدن والقرى الصغيرة منها والكبيرة. والمقصود منها فى الآية هى مصر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۷

ورجعنا معها، حيث إنّ فيها اناساً يعرفونك وتعرفهم، وبمقدورك أن تسألهم عن حقيقة الحال وواقعها «وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا» «۱». وفى كل الأحوال كن على ثقة بأنّنا صادقون ولم نقص عليك سوى الحقيقة والواقع «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

يستفاد من مجموع هذه الكلمات والحوار الذى دار بين الأولاد والأب أنّ قضية سرقة بنيامين كانت قد شاعت فى مصر، وأنّ جميع الناس علموا بأنّ أحد أفراد العير والقافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفى الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها والقبض على سارقها.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (۸۵) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۸۶) يعقوب والألطاف الإلهية: وأخيراً غادروا مصر متّجهين إلى كنعان فى حين تخلف أخواهم الكبير والصغير، ووصلوا إلى بيتهم منهوكى القوى وذهبوا لمقابلة أبيهم، وحينما رأى الأب الحزن والألم مستولياً على وجوههم (خلافاً للسفرة السابقة والتى كانوا فيها فى غاية الفرح) علم أنّهم يحملون إليه أخباراً محزنة وخاصه حينما إفتقد بينهم بنيامين وأخاه الأكبر، وحينما أخبروه عن الواقعة بالتفصيل، إستولى عليه الغضب وقال مخاطباً إيّاهم بنفس العبارة التى خاطبهم بها حينما أرادوا أن يشرحوا له خديعتهم مع يوسف «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا». أى: إنّ أهواءكم الشيطانية هى التى إستولت عليكم وزيّنت لكم الأمر بهذه الصورة التى أنتم تصفونه.

لكن بعد هذا العتاب الملىء بالحزن والأسى رجع يعقوب إلى قرارة نفسه وقال: «فَصَبْرٌ

(۱) «عير»: تعنى الجماعة التى تصحب معها الإبل والدواب المحمّلة بالغذاء، أى يطلق على المجموع «عير» فعلى هذا يكون السؤال منهم ممكناً لأنّ الكلمة تشمل الأشخاص أيضاً ولا حاجة للتقدير.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۸

جَمِيلٌ». أى: أنّنى سوف أمسك بزمام نفسى، ولا أسمح لها بأن تطغى علىّ بل أصبر صبراً جميلًا على أمل بأنّ اللّه سبحانه وتعالى سوف يعيد لى أولادى (يوسف وبنيامين وأخوهم الأكبر) «عَسَى اللَّهُ أن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا». فإنّه هو العالم بواقع الامور والخبير بحوادث العالم ما مضى منها وما سوف يأتى، ولا يفعل إلّاعن حكمة وتدبير «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». ثم بعد هذه المحاورات بين يعقوب وأولاده، إستولى عليه الحزن والألم، وحينما رأى مكان بنيامين خالياً عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، وتذكّر تلك الأيام الجميلة التى كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والذكاء العالى فيشمّ رائحته الطيّبة ويستعيد نشاطه، أمّا اليوم فلم يبق منه أثر ولا عن حياته خبر، كما أنّ خليفته (بنيامين) أيضاً قد ابتلى مثل يوسف بحادث مؤلم وذهب إلى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكّر يعقوب هذه الامور إبتعد عن أولاده واستعبر ليوسف «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ». واشتدّ حزن يعقوب وبكاؤه على المصائب المتكرّرة وفقد أعزّ أولاده «وابيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ». لكن يعقوب كان مسيطراً على حزنه ويخفّف من آلامه ويكظم غيظه ولا يتفوّه بما لا يرضى به اللّه سبحان وتعالى «فَهُوَ كَظِيمٌ».

أمّا الإخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم مما أحدثوه ليوسف، وفى قضية بنيامين شاهدوا أنفسهم فى وضع صعب وامتحان جديد، ومن جهة ثالثة كان يصعب عليهم أن يشاهدوا أباهم يتجرّع غصص المرارة والألم ويواصل بكاءه الليل بالنهار، فلذلك توجّهوا إلى أبيهم وخاطبوه معاتبين: «قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» «۱». أى: إنّك تردّد ذكر يوسف وتتأسّف عليه حتى وتقع على فراش المرض وتشرف على الهلاك وتموت.

لكن شيخ كنعان هذا النبى العظيم صاحب الضمير اليقظ ردّ عليهم بقوله: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ» «۲». لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد وتنكثون العهد لأنّنى «وَأَعْلَمُ مِنَ

---

(۱) «حرض»: بمعنى الشىء الفاسد والمؤلم، والمقصود منه هنا هو المريض الذى ضعف جسمه وصار مشرفاًعلى الموت.

(۲) «بثّ»: بمعنى التفرقة والشىء الذى لا يمكن اخفاؤه، والمقصود منه هنا هو الألم والحزن الظاهر الذى لايخفى على أحد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۹

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» فهو اللطيف الكريم الذى لا أطلب سواه.

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (۸۷) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ (۸۸) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (۸۹) قَالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذَا أَخِى قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۹۰) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ إِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (۹۱) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۹۲) اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (۹۳) اليأس علامة الكفر: كان القحط والغلاء وشحّة الطعام يشتدّ يوماً بعد آخر فى مصر وما حولها ومنها كنعان، ومرّة اخرى أمر يعقوب أولاده بأن يتّجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنّه هذه المرّة طلب منهم بالدرجة الاولى أن يبحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين، حيث قال لهم: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ».

لكن بما أنّ أولاد يعقوب كانوا مطمئنين إلى هلاك يوسف وعدم بقاءه، تعجّبوا من توصية أبيهم وتأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس والقنوط ووصّاهم بالإعتماد على اللّه سبحانه والإتكال عليه بقوله: «وَلَا تَايَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ». فإنّه القادر على حلّ الصعاب و «إِنَّهُ لَايَايَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ».

«تحسّس»: أصله من «حس» بمعنى البحث عن الشىء المفقود بأحد الحواس، والفرق بينه وبين «تجسّس» أنّ التحسّس هو البحث عن الخير، والتجسّس هو البحث عن الشر.

قوله تعالى «روح» بمعنى الرحمة والراحة والفرج والخلاص من الشدة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۰

وأخيراً جمع الاخوة متاعهم وتوجّهوا صوب مصر، وهذه هى المرة الثالثة التى يدخلون فيها أرض مصر، هذه الأرض التى سبّبت لهم المشاكل وجرّت عليهم الويلات. لكن فى هذه السفرة- خلافاً للسفرتين السابقتين- كانوا يشعرون بشىء من الخجل يعذّب ضمائرهم فإنّ سمعتهم عند أهل مصر أو العزيز ملوثة للوصمة التى لصقت بهم فى المرة السابقة، ولعلّهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. إلّا أنّ الذى كان يبعث فى نفوسهم الأمل ويعطيهم القدرة على تحمل الصعاب هو وصية أبيهم «لَا تَايَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ».

وأخيراً استطاعوا أن يقابلوا يوسف، فخاطبوه- وهم فى غاية الشدّة والألم- بقولهم:

«فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ». أى: إنّ القحط والغلاء والشدّة قد ألمّت بنا وبعائلتنا ولم نحمل معنا من كنعان إلّامتاعاً رخيصاً «وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ» (۱).

لا قيمة لها ولكن- فى كل الأحوال- نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك ونأمل فى معروفك «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» بمنّك الكريم وصدقاتك الوافرة «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» ولا تطلب منّا الأجر، بل اطلبه من اللَّه سبحانه وتعالى حيث: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ».

والطريف أنّ إخوة يوسف لم ينفذوا وصيّة أبيهم فى البحث عن إخوتهم أوّلًا، بل حاولوا الحصول على الطعام، ولأجل ذلك قابلوا العزيز وطلبوا منه المؤن والحبوب، ولعل السبب فى ذلك ضعف أملهم فى العثور على يوسف، أو لعلّهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم أمام العزيز والمصريين وكأنّهم اناس جاؤوا لشراء الطعام والحبوب فقط، ثمّ يطرحون مشكلتهم أمام العزيز ويطلبون منه المساعدة، فعند ذاك يكون وقع الطلب أقوى واحتمال تنفيذه أكثر.

ونقرأ فى روايات وردت فى هذا المقام، أنّ الإخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم إلى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب فى تلك الرسالة عزيز مصر وأكبر عدالته وصلاحه وشكره على ما بذله له ولعائلته من الطعام والحبوب، ثم عرّف نفسه والأنبياء من أهل بيته وأخبره برزاياه وما تحمله من المصائب والمصاعب من فقده أعزّ أولاده وأحبّهم إلى نفسه يوسف وأخيه بنيامين، وما أصابهم من القحط والغلاء، وفى ختام الرسالة طلب من العزيز أن يمنّ عليه ويطلق سراح ولده بنيامين، وذكّره أنّ بنيامين سليل بيت النبوة والرسالة وأنّه

---

(۱) «البضاعة»: أصلها «البضع» على وزن جزء، وهى بمعنى القطعة من اللحم المقطوعة من الجسم، كما يطلق على جزء من المال الذى يقتطع منه ثمناً لشىء. «مزجاة»: من «الإزجاء» بمعنى الدفع، وبما أنّ الشىء التافه والقليل الثمن يدفعه الآخذ عن نفسه، اطلق عليه (مزجاة).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۱

لا يتلوّث بالسرقة وغيرها من الدناءات والمعاصى.

وحينما قدّم الأولاد رسالة أبيهم إلى العزيز شاهدوا أنّه فضّ الرسالة بإحترام وقبلها ووضعها على عينيه وبدأ يبكى بحيث أنّ الدموع بلّت ثيابه.

وفى تلك اللحظة، وبعد أن مضت أيّام الامتحان الصعب وكان قد إشتدت محنة الفراق على يوسف وظهرت عليه آثار الكآبة والهمّ، أراد أن يعرّف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله:

«هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ اذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ».

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه ومع أخيه ختم إستفساره بإبتسامة عريضة ليدفع عن أذهانهم احتمال أنّه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة ولاحظوا وتذكّروا الشبه بينه وبين أسنان أخيهم يوسف.

أمّا هم، فإنّهم حينما لاحظوا هذه الامور مجتمعة، وشاهدوا أنّ العزيز يتحدّث معهم ويستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التى لم يكن يعلمها أحد غيرهم إلّايوسف.

ومن جهة اخرى أدهشهم يوسف وما أصابه من الوجد والهياج حينما إستلم كتاب يعقوب، وأحسّوا بعلاقة وثيقة بينه وبين صاحب الرسالة.

وثالثاً: كلّما أمعنوا النظر فى وجه العزيز ودقّقوا فى ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه وبين أخيهم يوسف ... لكنهم فى نفس الوقت لم يدر بخلدهم ولم يتصوروا أنّه يمكن أن يكون أخوهم يوسف قد إرتقى منصب الوزارة وصار عزيزاً لمصر، أين يوسف وأين الوزارة والعزّة؟! لكنهم تجرّأوا أخيراً وسألوه مستفسرين منه «قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ».

كانت اللحظات تمرّ بسرعة لكن يوسف لم يدع اخوته يطول بهم الإنتظار ورفع الحجاب بينه وبينهم وأظهر لهم حقيقة نفسه و «قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهـذَا أَخِى». لكن لكى يشكر اللَّه سبحانه وتعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب والنعم، ولكى يعلّم إخوته درساً آخر من دروس المعرفة قال: إنّه «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

هـذه اللحظات الحساسة كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالـذنب والجريمة التى اقترفوها فى حقه، فترقّبوا إجابة يوسف وأنّه هل يغفر لهم إساءتهم إليه ويعفو

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۲

عن جريمتهم أم لا؟ فابتدأوا مستفسرين بقولهم: «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا» «۱». أى:

إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد فضّلك علينا بالعلم والحلم والحكومة «وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ». أمّا يوسف الذى كانت نفسه تأبى أن يرى إخوته فى حال الخجل والندامة- خاصه فى هذه اللحظات الحساسة وبعد إنتصاره عليهم، فخاطبهم بقوله: «قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» «۲». أى:

إنّ العتاب والعقاب مرفوع عنكم اليوم، اطمئنوا وكونوا مرتاحى الضمير ولا تجعلوا للآلام والمصائب السابقة منفذاً إلى نفوسكم، ثم لكى يبيّن لهم أنّه ليس وحده الذى أسقط حقّه وعفا عنهم، بل إنّ اللَّه سبحانه وتعالى أيضاً عفا عنهم حينما أظهروا الندامة والخجل قال لهم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». أى: إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد قبل توبتكم وعفا عنكم لأنّه أرحم الراحمين.

وهـذا دليل على علو قدر يوسف وغاية فضله حيث إنّه لم يعف عن سيّئات إخوته فحسب، بل طمأنهم على أنّ اللَّه سبحانه وتعالى رحيم غفور وأنّه تعالى سوف يعفو عن سيئاتهم، وإستدلّ لهم على ذلك بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين.

وهنا تذكّر الإخوة مصيبة اخرى قد ألمّت بعائلتهم والشاهد الحى على ما إقترفوه فى حقّ أخيهم، ألا وهو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصره حزناً وفراقاً على يوسف، أمّا يوسف فإنّه قد وجد لهذه المشكلة حلًّا حيث خاطبهم بقوله: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا». ثمّ طلب منهم أن يجمعوا العائلة ويأتوا بهم جميعاً «وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ».

ورد فى بعض الروايات أنّ يوسف قال: إنّ الذى يحمل قميصى المشافى إلى أبى لابدّ وأن يكون هو نفسه الذى حمل قميصى الملطّخ بالدماء إليه، فأعطى ل (يهودا) قميصه بعد أن اعترف له أنّه هو الذى حمل قميصه الملطّخ بالدماء إلى أبيه وأخبره بأنّ الذئب قد أكل يوسف.

إنّ الآيات السابقة تعلّمنا درساً من دروس الأخلاق الإسلامية، وهو أنّه بعد الإنتصار

---

(۱) «آثرك»: أصله من «الإيثار» وفى الأصل بمعنى البحث عن أثر الشيء، وبما أنّه يقال للفضل والخير: أثر، فقد استعملت هذه الكلمة

للدلالة على الفضيلة والعلو.

(۲) «تثريب»: أصله من مادّة «ثرب ٩ وهو شحمة رقيقة تغطّى المعدة والأمعاء، والتثريب بمعنى رفع هذاالغطاء، ثمّ بمعنى العتاب والملامة فكأنّ المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۳

وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (۹۴) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيم (۹۵) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۹۶) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (۹۷) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۹۸) على العدو وكسر شوكته لابدّ أن لا ننسى العفو والرحمة، وأن لا نعامله بقساوة.

كما أنّنا نرى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حينما فتح مكّة وأذلّ المشركين وهزمهم وكسر أصنامهم وداس شوكتهم وكبرياءهم، جاء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى جوار الكعبة وأخذ بحلقة بابها وكان المشركون قد إلتجؤوا إليها، قال: «وأنا أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم».

أى: إنّ اليوم ليس يوم ملامة وإنتقام وإظهار الحقد والضغينة «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وأخيراً شملتهم رعاية اللَّه ولطفه: أمّا أولاد يعقوب فإنّهم بعد أن واجهوا يوسف وجرى لهم ما جرى حملوا معهم قميص يوسف فرحين ومستبشرين وتوجّهوا مع القوافل القادمة من مصر، لكن- مقارناً مع حركة القافلة من مصر- حدث فى بيت يعقوب حادث غريب بحيث أذهل الجميع وصار مثاراً للعجب والحيرة، حيث نشط يعقوب وتحرّك من مكانه وتحدّث كالمطمئن والواثق بكلامه قال: لو لم تتحدّثوا عنّى بسوء ولم تنسبوا كلامى إلى السفاهة والجهل والكذب لقلت لكم: «إِنّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ». فإنّى أحسّ بأنّ أيّام المحنة والآلام سوف تنصرم فى القريب العاجل، وأنّه قد حان وقت النصر واللقاء مع الحبيب، وأرى أنّ آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء والمصيبة ولبسوا لباس الفرح والسرور لكن لا- تصدّقون كلامى «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنّى لَاَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أن تُفَنِّدُونِ».

أمّا الذين كانوا مع يعقوب- وهم عادةً أحفاده وأزواج أولاده وغيرهم من الأهل والعشيرة- فقد إستولى عليهم العجب وخاطبوه بوقاحة مستنكرين: «قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلِلكَ الْقَدِيم». أليس هذا برهاناً واضحاً على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على موت يوسف لكنّك لا زلت تزعم أنّه حى، وأخيراً تقول: إنّك تشمّ رائحته من مصر؟! أين مصر وأين الشام وكنعان؟! وهذا دليل على بعدك عن عالم الواقع وإنغماسك فى الأوهام

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۴

والخيالات لكنّك قد ضللت منذ مدّة طويلة، ألم تقل لأولادك قبل فترة اذهبوا إلى مصر وتحسّسوا عن أحوال يوسف!

يظهر من هذه الآية الشريفة أنّ المقصود ب (الضلال) ليس الانحراف فى العقيدة، بل الانحراف فى تشخيص حقيقة حال يوسف والقضايا المتعلّقة به. وبعد عدّة أيام من الإنتظار- والتى لا يعلم إلّااللَّه كيف قضاها يعقوب- إرتفع صوت المنادى معلناً عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن فى هذه المرّة- وخلافاً للمرّات السابقة- دخل أولاد يعقوب إلى المدينة فرحين مستبشرين، وتوجّهوا مسرعين إلى بيت أبيهم، وقد سبقهم ال (بشير) الذى بشّر يعقوب بحياة يوسف وألقى قميص يوسف على وجهه.

أمّا يعقوب الذى أضعفت المصائب بصره ولم يكن قادراً على رؤية القميص فبمجرد أن أحسّ بالرائحة المنبعثة من القميص، وأحسّ يعقوب بتغيّر حالته، وفجأةً رأى النور فى عينيه وأحسّ بأنّهما قد فتحتا ومرّة اخرى رأى جمال العالم، والقرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله: «فَلَمَّا أن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا».

هذه الحالة التى حصلت ليعقوب أسالت دموع الفرح من عيون الإخوة والأهل، وعند ذاك خاطبهم بقوله: «أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون إلى أنفسهم ويتساءلون عنها ويفكّرون فى ماضيهم الأسود المليء بالأخطاء والذنوب، وما اعتورهم من الحسد وغيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الإنسانية، لكن ما أجمل التوبة والعودة إلى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التى سار فيها ... وما أحلى تلك اللحظات التى يحاول المذنب أن يطلب العفو ممّن جنى عليه، ليطهّر به نفسه ويبعدها عن جادة الخطأ والانحراف، وهذا ما قام به الإخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبّلونها ويطلبون منه العفو والاستغفار «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ».

أمّا يعقوب هذا الرجل العظيم الذى كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون أن يلومهم على تلك الأفعال التى اقترفوها فى حقّه وحقّ أخيهم ... أجابهم بقوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّى» وأملى معقود بأن يغفر اللَّه سبحانه وتعالى ذنوبكم «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٥

بحوث

١- الوعد بالاستغفار: نقرأ فى الآيات- محل البحث- أنّ يوسف عليه السلام قال لإخوته عندما أظهروا له ندامتهم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» إلّاأنّ يعقوب عليه السلام قال لهم عندما اعترفوا عنده بالذنب وأظهروا الندامة: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ» وكان هدفه- كما تقول الرّوايات- أن يؤخّر إستجابة طلبهم الاستغفار إلى السحر (من ليلة الجمعة) الذى هو خير وقت لإستجابة الدعاء وقبول التوبة.

٢- التوسل جائز: يستفاد من الآيات- آنفة الذكر- أنّ طلب الاستغفار من الآخرين غير مناف للتوحيد، بل هو سبيل إلى الوصول إلى لطف اللَّه سبحانه، وإلّا فكيف كان يمكن ليعقوب أن يستجيب لطلب أبنائه فى أن يستغفر لهم وأن يجيبهم بالإيجاب على توسلهم به.

٣- نهاية الليلة السوداء: إنّ الدرس الكبير الذى نستلهمه من الآيات المتقدمة هو أنّه مهما كانت المشاكل والحوادث صعبة وعسيرة، ومهما كانت الأسباب والعلل الظاهرية غير تامة ومحدودة، ومهما كان النصر أو الفرج بطيئاً (أو غير متحقق فعلًا) فإنّ أيّاً من اولئك لا يمنع من الرجاء والأمل بلطف اللَّه، فاللَّه الذى أعاد البصر برائحة القميص ونقل رائحة ذلك القميص من مسافة بعيدة، وردّ العزيز المفتقد بعد سنين طويلة، قادر على أن يضمّد القلوب المجروحة من الفراق، وأن يشفى آلام النفوس.

أجل إنّنا نجد الدرس التوحيدى الكبير ينطوى فى هذا القصص والتاريخ، وهو أنّه لا شيء على اللَّه بعزيز ولا عسير، بل يهون كل شيء بأمره وإرادته: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقّاً وَ قَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَ بَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٤٨٦

عاقبة أمر يوسف وأبيه وإخوته: مع وصول القافلة التى تحمل أعظم بشارة من مصر إلى كنعان ينبغى على أهل هذا البيت- وفقاً لوصية يوسف- أن يتحرّكوا ويتّجهوا نحو مصر، وتهيأت مقدمات السفر من جميع النواحى، وركب يعقوب راحلته وشفتاه رطبتان بذكر اللَّه وتمجيده.

وهذا السفر كان خالياً من أيّة شائبة من شوائب الهمّ والغم. وحتى لو كان السفر بنفسه متعباً، فهذا التعب لم يكن شيئاً ذا بال قِبال ما يهدفون إليه فى مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالى والأيّام ببطء، إلّاأنّ القرآن الكريم- كعادته دائماً- حذف هذه المقدمات التى يمكن أن تدرك بأدنى تفكر

وتأمل، فقال فى هذا الشأن: «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ».

«آوى»: تعنى فى الأصل إنضمام شيء إلى شيء آخر، وضمّ يوسف أبويه إليه كناية عن إحتضانهما ومعانقتهما.

وأخيراً تحقّقت أحلى سويعات الحياة ليعقوب، وفى هذا اللقاء والوصال الذى تم بين يعقوب ويوسف بعد سنين من الفراق، مرّت على يعقوب ويوسف لحظات لا يعلم إلّااللّه عواطفها فى تلك اللحظات الحلوة، وأيّة دموع إنسكبت من عينيهما من الفرح.

وعندها التفت يوسف إلى إخوته وأبويه «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ» لأنّ مصر أصبحت تحت حكم يوسف فى أمن وأمان واطمئنان.

ويُستشفّ من هذه الجملة أنّ يوسف كان قد خرج إلى خارج بوّابة المدينة لإستقبال والديه وإخوته، ولعل التعبير ب «دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ» يحتمل أن يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» وأن تُهيأ مقدّمات الإستقبال لأبويه وإخوته.

فلمّا دخلوا القصر أكرمهم يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ».

وكانت هذه العظمة من النعمة الإلهية واللطف والموهبة التى منّ اللّه بها على يوسف قد أدهشت إخوة يوسف وأبويه فذهلوا جميعاً «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا».

وعندها إلتفت يوسف عليه السلام إلى أبيه «وَقَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ».

ألم يقل أنّى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين؟!

فانظر يا أبت كما كنت تتوقّع من عاقبة أمرى «قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا* وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۷

الطريف هنا أنّ يوسف تكلّم هنا عن سجنه فى مصر من بين جميع مشاكله ولم يتكلّم على الجبّ مراعاةً لإخوته.

ثم أضاف يوسف قائلًا: «وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى».

وأخيراً يقول يوسف: إنّ جميع هذه المواهب هى من قِبَل اللّه، ولِمَ لا تكون كذلك ف «إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ».

فيتولّى امور عباده بالتيسير والتدبير ... وهو يعلم من هو المحتاج ومن هو الجدير بالإستجابة «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

ثمّ يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقى وولى النعمة الدائمة فيقول شاكراً راجياً: «رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ».

وهذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من أثر عظيم فى تغيير حياتى وحياة جماعة آخرين من عبادك، وما أعظم بركة العلم!

فأنت ياربّ: «فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ولذلك فقد خضعت وإستسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

ربّاه: «أَنتَ وَلِيّ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ».

أى: إنّنى لا ـ أطلب دوام الملك وبقاء الحكم والحياة المادية منك يا ربّ، لأنّ هذه الامور جميعها فانية وليس فيها سوى البريق الجذاب. بل أطلب منك يا ربّ أن تكون عاقبة أمرى على خير، وأن أقضى حياتى وأموت مؤمناً فى سبيلك مسلّماً لإرادتك، وأن أكون فى صفوف الصالحين، فهذه الامور هى المهمة لدى فحسب.

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (۱۰۲) وَ مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (۱۰۴) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (۱۰۵) وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (۱۰۶) أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۰۷)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۸

الأدعياء مشركون غالباً: بعد ما انتهت قصة يوسف عليه السلام بكل دروسها التربوية ونتائجها الغزيرة والقيّمة والخالية من جزاف القول والخرافات التاريخية ... إنتقل الكلام إلى النبى صلى الله عليه و آله حيث يقول القرآن الكريم: «ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ». فالوحى الإلهى فقط هو الذى جاءك بهذه الأخبار.

وكان لزاماً على الناس أن يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلائم الوحى وسماعهم لهذه النصائح الإلهية، وأن يتراجعوا عن طريق الغىّ، ولكن يا أيها النبى: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ».

إنّ الوصف ب (الحرص) هنا دليل على شوق ولهفة النبى صلى الله عليه و آله لأن يؤمن الناس.

وهذه الآية بالإضافة إلى ما ذكرنا هى تسليةً لقلب النبى صلى الله عليه و آله حتى لا ييأس أبداً من إصرارهم على الكفر والذنوب، كما نقرأ فى الآية (۶) من سورة الكهف: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثُ أَسَفًا». وقوله تعالى: «وَمَا تَسَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».

فهؤلاء فى الواقع ليس لهم أى عذر أو مبرّر لعدم قبول الدعوة بالإضافة إلى ما اتّضح من علامات الحق أنّك لم تسألهم أجراً حتى يكون مبرّراً لمخالفتك: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

وهذه الدعوة عامة للجميع، ومائدة واسعة للعام والخاص وكل البشرية.

«وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ». فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كل يوم.

إنّ أسرار هذا النظام العجيب وهذا الشروق والغروب وحياة النباتات والحشرات والإنسان، وهدير المياه، وحركة النسيم، وكل هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث إن لم يتدبّر أحد فيه وفى خالقه سيكون كالخشبة المسنّدة.

ولهذا فلا تعجب لعدم إيمانهم بالآيات المنزلة عليك، لأنّهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كل مكان «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ».

قد يتصور هؤلاء أنّهم من المؤمنين المخلصين ولكن غالباً ما توجد جذور الشرك فى أفكارهم وأقوالهم وضمائرهم.

فالمؤمن المخلص هو الذى لا يعتقد بأىّ معبود سوى اللّه، فتكون أقواله وأعماله وكل أفعاله خاضعة له. ولا يعترف بغير قانون اللّه.

وفى آخر آية يحذّر القرآن الكريم اولئك الذين لم يؤمنوا بعد ويمرّوا على الآيات الواضحة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۹

مرّ الكرام ويشركون فى أعمالهم حيث يقول: «أَفَأَمِنُوا أن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

«الساعة»: القيامة، وقد وردت بهذا المعنى فى كثير من الآيات.

أصدق الدروس والعبر: فى الآية الاولى من هذه المجموعة يتلقّى النبى صلى الله عليه و آله الأوامر لتحديد الطريق والمنهج الذى يتّبعه، فيقول القرآن الكريم: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللَّهِ».

ثم يضيف: «عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى».

وهذه الجملة توضّح أنّ كل فرد مسلم مقتدٍ بالرسول صلى الله عليه و آله له نفس الدور فى الدعوة إلى الحق، ولابدّ من دعوة الآخرين إلى اللّه، من خلال، الأقوال والأفعال وكذلك تؤكّد هذه الجملة على أنّ القائد يجب أن تكون له بصيرة ومعرفة كافية، وإلّا فإنّ دعوته ليست إلى الحق، وللتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم: «وَسُبْحنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

إنّ وقوع هذه الآية بعد الآيات المتعلقة بيوسف تشير إلى أنّ طريقة ومنهج النبى لا يختلفان عن طريقة ومنهج يوسف النبى، فهو كان يدعو إلى «اللّه الواحد القهار» حتى فى زوايا السجن، أمّا غيره فكان يدعو إلى أسماء انتقلت إليه بسبب التقليد من جاهل إلى جاهل آخر، أمّا سيرة الأنبياء والرسل كلها واحدة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۰

وبما أنّ الأقوام الضالـة والجاهلـة كانت دائماً تثير هـذا الإعتراض على الأنبياء وهو أنّكم بشـر؟! ولماذا لا تُكلّف الملائكـة لهـذا الأمر؟ وبمـا أنّ النّاس فى الجاهلية كانوا يثيرون نفس الإعتراض بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه و آله ودعوته العامـة، فإنّ القرآن الكريم يجيب مرّة ثانية على هذا الإعتراض فيقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى . هؤلاء الرسل هم كباقى الناس يعيشون فى المـدن والقرى، ويتجوّلون بين النـاس ويشـعرون بآلامـهم وإحتياجاتهم ومشاكلهم. فالوصف هنا ب «مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى تشـير إلى أنّ أنبياء اللّه لم ينهضوا من بين سـكنة الصـحراء لأنّ سـكّان الباديـة يتّصـفون بالجهل وعدم المعرفة وقلوبهم قاسـية ويمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة ومتطلباتها.

ولكن الرسول من أهل مكة التى تعتبر مدينة كبيرة نسبيّاً.

ثم يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء أن يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التى هى الدعوة إلى اللّه فإنّ عليهم أن يسـيروا ليروا آثار السابقين: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

إنّ السـير والتجوال فى الأرض لمشاهـدة آثار الماضـين وخراب دورهم ومـدنهم بسـبب العـذاب الإلهى، أفضل درس لهم، درس حى وملموس للجميع، «وَلَدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ». لماذا؟ لأنّ الـدنيا دار مليئة بالمصائب والآلام وغير باقية، أمّا الآخرة فدار خالدة وخالية من الآلام والعذاب.

«حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ».

تشير هـذه الآيـة إلى أدقّ وأصـعب لحظـة فى حياة الأنبياء فتقول: إنّ الأنبياء يواجهون دائماً مقاومـة عنيفـة من قبل أقوامهم وطواغيت زمـانهم حتى يصـل الحـال بالأنبيـاء إلى اليـأس إلى حـدّ يظنّون أنّ أتباعهم المؤمنين القليلين قـد كـذبوا عليهم وتركوهم وحـدهم فى مسيرتهم فى الدعوة إلى الحقّ، وفى هذه الأثناء حيث إنقطع أملهم فى كل شـىء أتاهم نصـرنا، وفى نهايتها تشير إلى عاقبة المجرمين «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».

فهذه سنّة اللّه فى الذين أصرّوا على أعمالهم وأغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم وبعد إتمام الحجة عليهم ينالهم العذاب الإلهى فلا تستطيع أى قوة أن تردّه.

و آخر آية من هذه السورة ذات محتوى شامل وجامع لكل الأبحاث التى ذكرناها فى هذه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۱

السورة، وهى: «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَابِ».

فهى مرآة يستطيعون من خلالها أن يروا عوامل النصـر والهزيمـة، الهناء والحرمان، السعادة والشـقاء، العزّ والذلة، والخلاصة كل ما له قيمة فى حياة الإنسان وما ليس له قيمة.

وهى مرآة لكل تجارب المجتمعات السابقـة والرجال العظام، ومرآة نشاهـد فيها ذلك العمر القصـير للإنسان كيف يطول بمقـدار عمر كل البشـر. ولكن اولى الألباب وذوى البصائر فقط باسـتطاعتهم أن يشاهدوا العبر فى صفحة المرآة العجيبة هذه: «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ».

فهـذه الآيات التى أنزلناها عليك والتى أزاحت السـتار عن التاريـخ الصـحيح للُامم السابقة ليست من العلم البشـرى الذى يمكن معرفته عن العلماء، بل إنّ الكتب السـماوية السابقـة تشـهد على ذلك وتصـدّقه وتؤيّده وبالإضافـة إلى ذلك ففى هذه الآيات كل ما يحتاجه الإنسان فى تأمين سعادته وتكامله: «وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ».

ولهذا السبب فهى «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

«نهاية تفسير سورة يوسف»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۳

١٣. سورة الرعد

محتوى السورة: كما قلنا سابقاً، بما أنّ السور المكيـة كان نزولها فى بدايـة دعوة النبى صـلى الله عليه و آله وأثناء محاربته للمشـركين، فإنّها غالباً ما كانت تتحـدّث عن المسائل العقائديـة وخصوصاً الدعوة إلى التوحيد والمعاد ومحاربة الشـرك، فى الوقت الذى نرى فيه أنّ السور المدنيـة نزلت بعـد إنتشـار الإسـلام وقيـام الحكومـة الإسـلامية، فقـد تنـاولت الأحكام والمسائل المتعلقـة بالنظام الاجتماعى واحتياجات المجتمع.

فهـذه السورة (سورة الرعـد) التى هى من السور المكيـة لها نفس الخصائص السابقـة، فبعد ما تشـير إلى أحقّية القرآن وعظمته، تتطرّق إلى آيات التوحيد وأسرار الكون التى هى من دلائل ذات اللّه المقدسة.

ثم تتطرّق إلى المعـاد وبعث الإنسـان من جديـد ومحكمـة العـدل الإلـهى، وهـذه المجموعـة من اصول المبـدأ والمعـاد تبيّن مسؤولية ووظائف الناس.

ثم لمعرفة الحق من الباطل، الأمثال الحيّة والقابلة للإدراك.

ومن هنا فالحصـيلة النهائيـة للإيمان بالتوحيـد والمعاد هى تلك التطبيقات العملية والحيّة لها، فالقرآن فى هذه السورة يدعو الناس إلى الوفاء بالعهد وصلة الأرحام والصبر والاستقامة والإنفاق فى السر والعلانية والنهى عن الإنتقام، ويوضّح لهم أنّ الدنيا فانية،

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٩۴

والطمأنينة والراحة لا تحصلان إلّافى ظل الإيمان باللّه.

وفى النهايـة يأخـذ بأيـدى الناس ويغور بهم فى أعماق التاريـخ، ويريهم العواقب السـيئة للـذين طغوا وعصوا وأبعـدوا الناس عن الحق، ويختم السورة بتهديد الكفار.

إذن فالسورة تبتدىء بالعقائد والإيمان وتنتهى بالبرامج التربوية للإنسان.

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَ فِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴) آيـات اللّه فى السـماء والأرض وعالم النبات: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعـة فى بدايـة هـذه السورة، تنفرد عن غيرها من السور ب «المر». فمن المحتمل أنّ هـذا التركيب فى بداية سورة الرعد يشـير إلى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التى تبتدىء ب «الم» و «الر».

فالآية الاولى من هذه السورة تتحدّث عن عظمة القرآن «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ». ولا يوجد أى شـك أو ترديـد فى هـذه الآيات، لأنّها تبيّن عين الحقيقـة للكون ونظامه المرتبط بالإنسان، فهو حقّ لا يشوبه باطل، ولهـذا السبب فإنّ علائم الحق واضحة فيه لا تحتاج إلى براهين «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ».

ثـم تتطرّق السـورة إلى شـرح القسـم المهـم من أدلـة التوحيـد وآيـات اللّه فى الكـون، وتتجـوّل بالإنسـان فى عرض السـماوات وتريه الكواكب العظيمـة وأسـرار هـذا النظام وحركته، حتى يؤمن بالقـدرة المطلقـة والحكمـة اللامتناهيـة «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٩۵

إنّ هـذه الآيـة تكشف عن حقيقـة علميـة لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لأنّه فى ذاك الوقت كانت نظرية «بطليموس» فى

الهيئة تتحكّم فى المحافل العلمية فى العالم وعلى أفكار الناس وطبقاً لهذه النظرية فإنّ السماوات عبارة عن أجرام متداخلة تشبه قشور البصل وإنّها لم تكن معلقة وبدون عمد بل كل واحدة منها تستند إلى الاخرى.

ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريباً توصل علم الإنسان إلى أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أنّ الأجرام السماوية لها مقرّ ومدار ثابت، ولا تستند إلى شىء، فالشىء الوحيد الذى يجعلها مستقرة وثابتة فى مكانها هو تعادل قوة التجاذب والتنافر، فالاولى تربط الأجرام فيما بينها، والاخرى لها علاقة بحركتها.

هذا التعادل للقوّتين الذى يشكّل أعمدة غير مرئية يحفظ الأجرام السماوية ويجعلها مستقرة فى مكانها.

«ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ». فى خصوص معنى العرش والإستواء عليه هناك شرح وافٍ عنه فى ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف.

وبعد أن بيّن خلق السماوات وهيمنة الخالق عليها، تحدّث عن تسخير الشمس والقمر «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ».

ولكن هذا النظام المادى ليس أبدياً، بل «كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم يضيف بعد ذلك: إنّ هذه الحركات والتغيّرات فى الأحوال ليست بدون حساب وكتاب، وبدون فائدة ونتيجة، بل «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ».

وتعقيباً للآيات السابقة التى نقلت الإنسان إلى السماء تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد إلى كتاب الكون أى الأرض والجبال والأنهار وأنواع الثمار وشروق الشمس وغروبها. قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ» وبسطها بالشكل الذى تتهيّأ فيه لحياة الإنسان ونمو النباتات والحيوانات.

ثم يشير القرآن الكريم إلى ظهور الجبال «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ». فهى تلك الجبال التى عبّرت عنها فى آيات اخرى ب (الأوتاد) ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّها متشابكة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقى وتغطّى سطح الأرض، فهى تبطل الضغوط الداخلية فى الأسفل والضغط الخارجى المتمثّل بجاذبية القمر والمدّ والجزر، وكذلك تقضى على الاضطرابات والزلازل، وتجعل الأرض مستقرّة وساكنة وصالحة لحياة الإنسان.

ثم تضيف الآية بعد ذلك الأنهار: «وَأَنْهَارًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۶

رائع جدّاً نظام سقى الأرض بواسطة الجبال، وعلاقة الأنهار بالجبال، لأنّ كثيراً من الجبال تختزن المياه بشكل ثلوج على قممها وفى شقوق الوديان، ثم تذوب تدريجياً، وطبقاً لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة بدون أن تحتاج إلى قوّة اخرى لمساعدتها. ثم يذكر القرآن بعد ذلك النباتات والأشجار التى تتكوّن من الأرض والمياه وأشعة الشمس، والتى هى أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: «وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ».

والآية تشير هنا إلى أنّ الفاكهة كائنات حيّة فيها الذكر والانثى، وبواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السويدى «لينه» المختص بعلم النبات هو الذى توصّل إلى هذه الحقيقة فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى وهى أنّ التزويج فى عالم النباتات يعتبر قانوناً عاماً فالقرآن الكريم قبل ألف واربعمائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة وهذه واحدة من معاجز القرآن العلمية التى تبيّن عظمة هذا الكتاب السماوى الكبير.

وبما أنّ حياة الإنسان وكل الكائنات- وخصوصاً النباتات- لا يمكن لها الإستمرار إلّا بوجود نظام دقيق لليل والنهار، فإنّ القرآن يشير إلى ذلك فى القسم الآخر من الآية «يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ». ولولا ظلمة الليل وهدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر كل النباتات، ولم تبق فاكهةً ولا أى كائن حى على وجه الأرض.

وتبيّن الآية فى النهاية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وفى الآية الأخيرة من هذه المجموعة يشير القرآن الكريم إلى عدّة نقاط حول علم الأرض وعلم النبات، والتى تعبّر عن النظام الدقيق

للخلقة، يقول أوّلًا: «وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ».

قوله تعالى: «وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ» «۱».

«صنوان»: جمع «صنو» تعنى الأغصان المختلفة الخارجة من أصل الشجرة.

وهـذه قـد تشير إلى قابليـة الأشـجار للتركيب. ففى بعض الأحيان يتمّ تركيب عـدة أغصان مختلفـة على ساق واحـدة، وبعـد نمو هـذه التراكيب تعطى كل واحدة منها نوعاً خاصاً

(۱) «أعناب»: جمع عنب؛ و «النخيل»: جمع نخلـة، ويحتمل أنّهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب والتمر والتى قد تصل إلى مئات الأنواع فى العالم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۷

من الثمر، فالتربة واحدة والساق والجذر واحد ولكن الثمر مختلف.

والأعجب من ذلك أنّها تسقى بماء واحد «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ».

أليست هـذه الأسـرار تـدلّ على وجود من يقود هذا النظام بالعلم والحكمة؟! وهنا فى آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُرَاباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (۶) تعجب الكفـار من المعـاد: بعـد ما انتهينا من البحث السابق عن عظمـة اللّه ودلائله، تتطرّق الآية الاولى من هـذه المجموعـة إلى مسألة المعاد التى لها علاقة خاصه بمسألة المبدأ، ويؤكّد القرآن الكريم هذا المعنى حيث يقول: «وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ». أى: إذا أردت أن تتعجب من قولهم هذا فتعجب لقولهم فى المعاد.

ثم يبيّن حالهم الحاضر ومصيرهم فى ثلاث جمل:

يقول أوّلًا: «أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ»؛ لأنّهم لو كانوا يعتقدون بربوبية اللّه لما كانوا يتردّدون فى قدرة اللّه على بعث الإنسان من جديد، وعلى هذا فسوء ظنهم بالمعاد هو نتيجة لسوء ظنهم بالتوحيد وربوبية اللّه.

والأمر الآخر أنّه بكفرهم وعدم إيمانهم وخروجهم من ساحة التوحيد قيّدوا أنفسهم بالأغلال، أغلال عبادة الأصنام والأهواء والمادة والجهل والخرافة، وجعلوها فى أعناقهم «وَأُولئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ».

ومثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النار «وَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفى الآيـة الثانيـة يشير إلى دعوى اخرى للمشـركين حيث يقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» بـدلًا من طلب الرحمـة ببركة وجودك بينهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۸

وهل يعتقدون بكذب العقوبات الإلهية؟ «وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَتُ» «۱».

ثم تضيف الآية: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ».

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (۷) ذريعة اخرى: بعد ما أشـرنا فى الآيات السابقة إلى مسألـة «التوحيـد» و «المعاد» تتطرّق هـذه الآية إلى واحدة من إعتراضات المشـركين المعاندين حول مسألة النبوة: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ».

ومن الواضح أنّ إحدى وظائف النبى صلى الله عليه و آله إظهار معاجزه لكى يدل على صدقه وصلته بالوحى الإلهى.

إنّ أعـداء الأنبیاء لم یکن لـدیهم حُسن نیّة أو اتّباع للحق عنـد طلبهم المعجزة، بل لعنادهم وعدم تسـلیمهم للأمر الواقع ولذلک کانوا یقترحون بین فترة واخری معاجز عجیبة وغریبة. وهذه ما یسمّی ب «المعجزات الأخلاقیة».

ولکن الأنبیاء کانوا یقولون لهم الحقیقة وهی أنّ المعاجز بید اللَّه، ورسالتنا هدایة الناس.

ولذلک نقرأ فی تکملة الآیة قوله تعالی: «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِکُلّ قَوْمٍ هَادٍ».

فمعنی الآیة: إنّ الکفار نسوا أنّ هدف الأنبیاء الإنذار والدعوة إلی اللَّه، واعتقدوا أنّ وظیفتهم القیام بالمعاجز.

وجه التفـاوت بین «الإنـذار» و «الهدایـة» هـو إنّ الإنـذار للـذین أضـلّوا الطریق ودعوتهم تکون إلی الصـراط المسـتقیم، ولکن الهـدایة والإستقامة للذین آمنوا.

هناک روایات عدیدة تؤکّد ما قلناه سابقاً، ففی تفسیر جامع البیان عن ابن عباس قال:

لمّا نزلت «إِنَّمَا أَنتَ مُنـذِرٌ وَلِکُلّ قَوْمٍ هَادٍ» وضع صـلی الله علیه و آله یـده علی صدره فقال: «أنا المنذر ولکل قوم هاد». وأومأ بیده إلی منکب علیّ فقال: «أنت الهادی یا علیّ بک یهتدی المهتدون بعدی».

اللَّهُ یَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثَی وَ مَا تَغِیضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (۸) عَالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْکَبِیرُ الْمُتَعَالِ (۹) سَوَاءٌ مِنْکُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّیْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ (۱۰)

---

(۱) «المثلات»: جمع «مثلة» بفتح المیم وضمّ الثاء ومعناها العقوبات النازلة علی الامم الماضیة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۹

علم اللَّه المطلق: نقرأ فی هذه الآیات قسـماً من صفات الخالق، والتی تکمل بحث التوحید والمعاد، فالحدیث عن علمه الواسع ومعرفته بکـل شـیء. تقول الآیـة أوّلًا: «اللَّهُ یَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ کُلُّ أُنثَی فی رحمها، سواء من انثی الإنسان أو الحیوان، بل بکل خصائصه والطاقة الکامنة فیه؛ «وَمَا تَغِیضُ الْأَرْحَامُ». أی: تنقص قبل موعدها المقرر «وَمَا تَزْدَادُ» (۱). أی: یعلم بما تزید عن موعدها المقرّر.

«وَکُلُّ شَیْءٍ عِنـدَهُ بِمِقْدَارٍ». ولکی لا یتصور أحد أنّ هذه الزیادة والنقصان بدون دلیل، کما أنّ للجنین ودم الرحم مقدار أیضاً، فالآیة التی بعـدها تؤکّد ما قلناه فی الآیة السابقة حیث تقول: «عَالِمُ الْغَیْبِ وَالشَّهَادَةِ» فعلمه بالغیب والشـهادة لهذا السبب «الْکَبِیرُ الْمُتَعَالِ» فهو یحیط بکل شیء، ولا یخفی عنه شیء.

ولتکمیـل هـذا البحث وتأکیـد علمه المطلق یضـیف القرآن الکریم: «سَوَاءٌ مّنکُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّیْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ».

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ یَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا یُغَیِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (۱۱) المعقّبات الغیبیة: علمنا فی الآیات السابقة أنّ اللَّه بما أنّه عالم الغیب والشهادة فإنّه یعلم أسرار الناس وخفایاهم، وتضیف هذه الآیة أنّه مع حفظ وحراسة اللَّه لعباده فإنّ «لَهُ مُعَقّبَاتٌ مّن بَیْنِ یَدَیْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ یَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

فی تفسـیر البرهان عن الإمام الباقر علیه السـلام فی تفسیر هذه الآیة یقول: «بأمر اللَّه من أن یقع فی رکی، أو یقع علیه حائط أو یصـیبه شیء، حتی إذا جاء القدر خلّوا بینه وبینه یدفعونه إلی المقادیر، وهما ملکان یحفظانه باللیل وملکان بالنهار یتعاقبانه».

ولکی لا یتصور أحد أنّ هذا الحفظ بدون شروط وینغمس فی المزلّات، أو یرتکب الذنوب الموجبة للعقاب، ومع کل ذلک ینتظر من اللَّه أو الملائکة أن یحفظوه، یعلّل القرآن ذلک بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَایُغَیّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّی یُغَیّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ».

وکی لا یتبادر إلی الأذهان أنّه مع وجود الملائکة الحافظة فأیّ معنی للعذاب أو الجزاء؟

---

(۱) «تغیض»: أصلها الغیض بمعنی إبتلاع السائل وهبوط مستوی الماء. وتأتی بمعنی النقصان والفساد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۰

مختصر الامثل ج۲ ۵۳۹

هنا تضیف الآیة: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ». ولهذا السبب فإنّه حین صدور العذاب الإلهی علی قوم أو امة، فسوف ینتهی دور المعقّبات ویترکون الإنسان عرضةً للحوادث. «المعقّبات»: جمع «معقبة» وهی بدورها جمع «معقّب» ومعناه المجموعة التی تعمل بشکل متناوب ومستمر.

التغییر یبدأ من النفس (قانون عام): تبیّن الجملة «إِنَّ اللَّهَ لَایُغَیِّرُ مَا بِقَوْمٍ» والتی جاءت فی موردین متفاوتین فی القرآن الکریم، أنّها قانون عام، وقانون حاسم ومنذر.

إنّ هذا الأصل القرآنی الذی یبیّن واحداً من أهمّ المسائل الاجتماعیة فی الإسلام، یؤکّد لنا أن أی تغییر خارجی للُامم مرتبط بالتغییر الداخلی لها، وأی نجاح أو فشل یصیب الامة ناشیء من هذا الأمر، والذین یبحثون عن العوامل الخارجیة لتبریر أعمالهم وتصرفاتهم ویعتبرون القوی المستعمرة والمتسلطة هی السبب فی شقائهم یقعون فی خطأ کبیر، لأنّ هذه القوی الجهنمیة لا تستطیع أن تفعل شیئاً إذا لم تکن لدیها قدرة ومرکز فی داخل المجتمع.

یقول هذا الأصل القرآنی: إنّنا یجب أن نثور من الداخل کی نُنهی حالة الشقاء والحرمان، ثورة فکریة وثقافیة، ثورة إیمانیة وأخلاقیة، وأثناء وقوعنا فی مخالب الشقاء یجب أن نبحث فوراً عن نقاط الضعف فینا، ونطهّر أنفسنا منها بالتوبة والرجوع إلی اللّه، ونبدأ حیاة جدیدة مفعمة بالنور والحرکة، کی نستطیع فی ظلها أن نبدّل الهزیمة إلی نصر.

هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (۱۲) وَ یُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَائِکَةُ مِنْ خِیفَتِهِ وَ یُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَیُصِیبُ بِهَا مَنْ یَشَاءُ وَ هُمْ یُجَادِلُونَ فِی اللَّهِ وَ هُوَ شَدِیدُ الْمِحَالِ (۱۳) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا یَسْتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیْءٍ إِلَّا کَبَاسِطِ کَفَّیْهِ إِلَی الْمَاءِ لِیَبْلُغَ فَاهُ وَ مَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَ مَا دُعَاءُ الْکَافِرِینَ إِلَّا فِی ضَلَالٍ (۱۴) وَ لِلَّهِ یَسْجُدُ مَنْ فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ کَرْهاً وَ ظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ (۱۵) قسم آخر من دلائل عظمة اللّه: یتطرّق القرآن الکریم مرّة ثانیة إلی آیات التوحید وعلائم العظمة وأسرار الخلقة، فتشیر أوّلًا إلی البرق: «هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۱

وَطَمَعًا». فالبرق بشعاعه یبهر العیون من جانب، ومن جانب آخر فإنّه یسبّب هطول الأمطار ویروی ظمأ الصحراء ویسقی المزروعات فیطمع فیه الناس، وبین هذا الخوف والرجاء تمرّ علیهم لحظات حساسة

ثم تضیف الآیة: «وَیُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» القادرة علی إرواء ظمأ الأراضی الزراعیة.

الآیة الاخری تشیر إلی صوت الرعد الذی یتزامن مع البرق «وَیُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ».

نعم، فهذا الصوت المدوّی فی عالم الطبیعة یُضرب به المثل، فهو مع البرق فی خدمة هدف واحد، ویقومان بعملیة التسبیح، وبعبارة اخری فالرعد لسان حال البرق یحکی عن عظمة الخالق وعن نظام التکوین.

ولیس الرعد وسائر أجزاء العالم تسبّح بحمده تعالی، بل حتی الملائکة «وَالْمَلَئِکَةُ مِنْ خِیفَتِهِ». فهم یخافون من تقصیرهم فی تنفیذ الأوامر الملقاة علی عاتقهم، وبالتالی فهم یخشون العقاب الإلهی، ونحن نعلم أنّ الخوف یُصیب اولئک الذین یحسّون بمسؤولیاتهم ووظائفهم ... خوف بنّاء یحثّ الشخص علی السعی والحرکة.

وللتوضیح أکثر فی مجال البرق والرعد تشیر الآیة إلی الصاعقة: «وَیُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَیُصِیبُ بِهَا مَن یَشَاءُ». ومع کل ذلک- وبمشاهدة آیات العظمة الإلهیة فی عالم التکوین من السماء والأرض والنباتات والأشجار والبرق والرعد وأمثالها، وفی قدرة الإنسان الحقیرة تجاه هذه الحوادث، حتی فی مقابل واحدة منها مثل شرارة البرق- نری أنّ هناک جماعة جاهلة تجادل فی اللّه «وَهُمْ یُجَادِلُونَ فِی اللَّهِ وَهُوَ شَدِیدُ الْمِحَالِ».

«المحال»: فى الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السرّى وغير الظاهر، فالذى له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالية، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته.

الآية الأخيرة تشير إلى مطلبين:

الأوّل: قوله تعالى: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ». فهو يستجيب لدعواتنا، وهو عالم بدعاء العباد وقادر على قضاء حوائجهم، ولهذا السبب يكون دعاؤنا إيّاه وطلبنا منه حقاً، وليس باطلًا.

ولكن دعاء الأصنام باطل «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ».

ولتصوير هذا الموضوع يضرب لنا القرآن الكريم مثالًا حيّاً ورائعاً يقول: «إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ». فهل يستطيع أحد أن يجلس على بئر ويطلب الماء بإشارة يدٍ ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر إلّامن إنسان مجنون.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠٢

وللتأكيد على هذا الحديث يأتى فى نهاية الآية قوله تعالى: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَلٍ». وأىّ ضلال أكبر من أن يسعى الإنسان ويجتهد فى السبيل الضالّ ... ولكنّه لا يصل إلى مقاصده. الآية الأخيرة من هذه المجموعة، ولكى تُبرهن كيف أنّ المشركين ضلّوا الطريق تقول:

«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَلُهُم بِالْغُدُوّ وَالْأَصَالِ».

السجدة فى هذه الموارد تعنى الخضوع والتسليم، وهناك نوعان من السجود، سجود تكوينى وهو أنّ الكل خاضعون ومسلّمون للقوانين الطبيعية مثل الحياة والممات والمرض و ...، والبعض منهم له سجود تشريعى بالإضافة إلى السجود التكوينى، فهم بميلهم وإرادتهم يسجدون للّه.

عبارة «طَوْعًا وَكَرْهًا» يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ المؤمنين خاضعون للّهبميلهم وإرادتهم، وأمّا غير المؤمنين فهم خاضعون كذلك للقوانين الطبيعية التى تسير بأمر اللّه إن شاؤوا وإن أبوا.

«الظّلال»: جمع «ظِل» واستعمال هذه الكلمة فى الآية يشير إلى أنّ المقصود فى السجود ليس فقط السجود التشريعى، فظِلال الكائنات ليست خاضعة لارادتهم واختيارهم، بل هو تسليم لقانون الضوء، وعلى هذا يكون سجودهم تكوينى، يعنى التسليم للقوانين الطبيعية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١۶)

لماذا عبادة الأصنام؟ كان البيان فى الآيات السابقة عن معرفة اللّه وإثبات وجوده، وهذه الآية تبحث عن ضلال المشركين والوثنيين وتتناوله من عدّة جهات، حيث تخاطب- أوّلًا- النبى صلى الله عليه و آله حيث تقول: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثمّ تأمر النبى أن يجيب على السؤال قبل أن ينتظر جوابهم: «قُلِ اللَّهُ». ثم إنّه يلومهم ويوبّخهم بهذه الجملة: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَايَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا».

ثم يذكر مثالين واضحين وصريحين يحدّد فيها وضع الأفراد الموحدين والمشركين،

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠٣

فيقول أوّلًا: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ». فكما لا يستوى الأعمى والبصير لا يستوى المؤمن والكافر، ولا يصحّ قياس الأصنام على الخالق جلّ وعلا.

ويقول ثانياً: «أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». كيف يمكن أن نجعل الأصنام التى هى الظلمات المحضة إلى جنب اللّه الذى هو النور المطلق؟

ثم يُدلِل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ». والحال ليس

كذلك، فإنّ المشركين أنفسهم لا يعتقدون بها، فهم يعلمون أنّ اللَّه خالق كل شيء، وعالم الوجود مرتبط به، ولذلك تقول الآية: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

يستفاد من الآية أعلاه أنّ الخلقة أمر مستمر ودائمى، وإنّه تعالى يفيض بالوجود عليهم بإستمرار وكل شىء يأخذ وجوده من ذاته المقدسة، وعلى هذا فنظام الخلقة وتدبير العالم كلها بيد اللَّه.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) وصف دقيق لمنظر الحق والباطل: يستند القرآن الكريم- الذى يعتبر كتاب هداية وتربية- فى طريقته إلى الوقائع العينية لتقريب المفاهيم الصعبة إلى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسية الرائعة من حياة الناس، وهنا- أيضاً- لأجل أن يُجسّم حقائق الآيات السابقة التى كانت تدور حول التوحيد والشرك، الإيمان والكفر، الحق والباطل، يضرب مثلًا واضحاً جدّاً لذلك ..

يقول أوّلًا: «أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». الماء عماد الحياة وأصل النمو والحركة، «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدْرِهَا» تتقارب السواقى الصغيرة فيما بينها، وتتكوّن الأنهار وتتّصل مع بعضها البعض، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمة والوديان وتجرف كل ما يقف أمامها، وفى هذه الأثناء يظهر الزّبد وهو ما يرى على وجه الماء كرغوة الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: «فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا».

وليس ظهور الزبد منحصراً بهطول الأمطار، بل «وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠۴

حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مّثْلُهُ». أى: الفلزات المذابة بالنار لصناعة أدوات الزينة منها أو صناعة الوسائل اللازمة فى الحياة. بعد بيان هذا المثال بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط فى الماء بل حتى للفلزات وللمتاع، يستنتج القرآن الكريم: «كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ».

ثمّ يتطرّق إلى شرحه فيقول: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ».

وفى آخر الآية- للمزيد من التأكيد فى مطالعة هذه الأمثال- يقول تعالى: «كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ».

المثال يعمّم المفاهيم: كثير من البحوث العلمية بشكلها الأصلى يفهمها الخواص فقط، ولا يستفيد منها عامة الناس، ولكن عندما يصحبها المثال تكون قابلة للفهم، ويستفيد منها الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية، ولهذا فالمثال وسيلة لتعميم الفكر والثقافة.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) الذين استجابوا لدعوة الحق: بعد ما كشفت الآيات السابقة عن وجهى الحق والباطل من خلال مثال واضح وبليغ، أشارت هذه الآية إلى مصير الذين إستجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا لهذه الدعوة واتّجهوا صوب الباطل. تقول أوّلًا: «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى .

«الحسنى»: فى معناها الواسع تشمل كل خير وسعادة.

ثم تضيف الآية: «وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ».

لا توجد صيغة أوضح من هذه الآية فى بيان شدّة عذابهم وعقابهم، يمتلك الإنسان كل ما فى الأرض وضعفه أيضاً ويفتدى به للنجاة ولا يحصل النجاة. تشير هذه الجملة فى الواقع إلى آخر امنية والتى لا يمكن أن يتصور أكثر منها، وهى أن يمتلك الإنسان كل ما فى الأرض، ولكن شدّة العذاب للظالمين ومخالفى الحق تصل بهم إلى درجة أن يفتدوا بكل هذه الامنية

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠٥

أو بأكثر منها لنجاتهم.

وعلى أثر هذا الشقاء (عدم قبول ما فى الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم إلى شقاء آخر «أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ». يعنى

أنّ هؤلاء الأفراد يحاسبون حساباً دقيقاً، وأثناء حسابهم يُوبّخون ويُلامون ومن ثم يستقصى منهم.

وفى نهاية الآية إشارة إلى الجزاء الثّالث أو النتيجة النهائية لجزائهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

«المهاد»: جمع «مهد»، بمعنى التهيؤ، ويستفاد منها معنى السرير الذى يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهيّأ للاستراحة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة للإشارة إلى أنّ هؤلاء الطغاة بدلًا من أن يستريحوا فى مهادهم يجب أن يحرقوا بلهيب النار.

أ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ الْحَقُّ کَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَکَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِکَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلَائِکَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ کُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْکُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢۴) الأبواب الثمانية للجنة وصفات اولى الألباب: تتحدّث هذه الآيات عن سيرة اولى الألباب وصفاتهم الحسنة، وفيها تكميل للبحث السابق. فى الآية الاولى من هذه المجموعة إستفهام إنكارى: «أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْکَ مِن رَّبّکَ الْحَقُّ کَمَنْ هُوَ أَعْمَى .

وهذه إشارة لطيفة إلى أنّه من المحال أن لا يعلم أحد بهذه الحقيقة إلّاأن يكون أعمى القلب، ولذلك يجىء فى نهاية الآية قوله تعالى: «إِنَّمَا يَتَذَکَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

«الألباب»: جمع «لبّ» بمعنى جوهر الشىء، ويقابل اولى الألباب اولوا الجهل والعمى.

إنّ هذه الآية تحثّ الناس على طلب العلم ومحاربة الجهل، لأنّها تعدّ الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى، ثمّ بيّن سيرة اولى الألباب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، وأوّل ما أشار القرآن إليه وفاؤهم بالعهد وعدم نقضهم له «الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۵٠۶

إنّ «عهد اللَّه» له معنى واسع، ويشمل العهود الفطرية التى عاهدوا بها ربّهم كالفطرة على التوحيد وحبّ الحقّ والعدالة، والمواثيق العقلية التى يدركها الإنسان من خلال التفكير والتعقّل لعالم الوجود، والمبدأ والمعاد، وتشمل كذلك العهود الشرعية، وهى ما عاهدوا الرسول صلى الله عليه و آله عليه من الطاعة للأوامر الإلهية وترك المعاصى والذنوب. الصفة الثانية من صفات اولى الألباب هى: «وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ».

فالإنسان له صلات وروابط كثيرة، صلته مع ربّه، ومع الأنبياء والقادة، وروابطه مع الأصدقاء والجيران والأقرباء ومع كل الناس، والآية تأمر أن تُحترم هذه الصلات.

والإنسان ليس منزوياً أو منفكّاً من عالم الوجود، بل تحكم كل وجوده الصلات والروابط.

الصفة الثالثه والرابعة من سيرة اولى الألباب هى قوله تعالى: «وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ».

الصفة الخامسة من صفات اولى الألباب الإستقامة فى مقابل جميع المشاكل التى يواجهها الإنسان فى مسيرة الطاعة وترك المعصية، وجهاد الأعداء ومحاربة الظلم والفساد، والصبر فى مرضاة الخالق، ولذلك يقول تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبّهِمْ» «١».

فإنّ هذه الجملة تبيّن أنّ كل صبر وعمل خير تكون له قيمة عندما يصبح لوجه اللَّه، وأى عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء والغرور لا قيمة له مطلقاً.

الصفة السادسة من صفاتهم هى: «وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ».

إنّ الإنسان يجدّد عهده وصلته باللَّه سبحانه وتعالى صباحاً ومساءاً، ويتفكّر بعظمة الخالق ويدعوه، ويُطهّر نفسه من الذنوب، ويرتبط بالحق المطلق.

ثم يبيّن الصفة السابعة لدعاة الحق حيث يقول تعالى: «وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً».

فالصلاة تُحكم الصلة بين العبد وربّه والزكاة بين العباد.

والجملة «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تشمل كل العطايا من الأموال والعلوم والقوة والجاه، والإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الأبعاد.

---

(١) ليس الصبر على الطاعة والمعصية والمصيبة فقط بل الصبر على النعم كذلك حتى لا يصيب الإنسان الغرور.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠٧

والعبارة «سِرًّا وَعَلَانِيَةً» إشارة اخرى إلى هذه الحقيقة وهى أنّ إنفاقهم يتمّ بشكل مدروس، فتارةً يكون سرّاً ويترتّب عليه أثر كبير، وذلك فى الحالات التى تصون الطرف المنفق من الرياء، ومرّةً يكون الإنفاق العلنى أكثر تأثيراً وذلك فى الحالات التى تدعو الآخرين لكى يتأسّوا بهذا العمل الخيّر ويقتدوا به، فيكون سبباً لكثير من أعمال الخير.

الصفة الثامنة والأخيرة هى قوله تعالى: «وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ».

ومعنى هذه العبارة أنّهم لم يكتفوا بالتوبة والاستغفار فقط عند إرتكابهم الذنوب، بل يدفعونها كذلك بالحسنات على مقدار تلك الذنوب، حتى يطهّروا أنفسهم والمجتمع بماء الحسنات.

ويحتمل فى تفسير الآية أنّهم لا- يقابلون السيء بالسيء، بل يسعون من خلال إحسانهم للمسيئين أن يجعلوهم يعيدون النظر فى مواقفهم.

وبعد ما ذكر القرآن الكريم الصفات الثمانية لُاولى الألباب، أشار فى نهاية الآية إلى عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: «أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ».

الآية الاخرى توضّح هذه العاقبة «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ».

والشيء الذى يكمل هذه النعم الكبيرة واللامتناهية «وَالْمَلِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مّن كُلّ بَابٍ سَلَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ».

فهذه السلامة جاءت بعد ما صبرتم على الشدائد وتحمّلتم المسؤوليات الجسام والمصائب، ولكم هنا كامل الطمأنينة والأمان، فلا حرب ولا نزاع، وكل شيء يبتسم لكم، والراحة الخالية من المتاعب- هنا- معدّة لكم.

يستفاد من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أنّ للجنة عدّة أبواب، ولكن هذا التعدد للأبواب بسبب الأعمال المختلفة للأفراد.

ومن الظريف أنّ القرآن الكريم- فى الآية (٤٤) من سورة الحجر- يذكر لجهنم سبعة أبواب «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ». وهذه إشارة إلى أنّ طرق الوصول إلى السعادة وجنّة الخلد أكثر من طرق الوصول إلى الشقاء والجحيم، ورحمة اللَّه سبقت غضبه.

وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) للمفسدين الذين فقدوا حظّهم من العلم والمعرفة حيث يقول جلّ وعلا: «وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» «١».

فى الحقيقة يتلخص فساد عقيدتهم فى الجمل الثلاث الآتية:

١- نقض العهود الإلهية: وتشمل المواثيق الفطرية والعقلية والتشريعية.

٢- قطع الصلات: وتشمل الصلة مع اللَّه والرسل والناس ومع أنفسهم.

٣- الإفساد فى الأرض: وهو نتيجة حتمية لنقض العهود وقطع الصلات.

قوله تعالى: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ». وهذه إشارة لُاولئك الذين يسعون للحصول على دخل أكثر فهم يفسدون فى الأرض وينقضون عهد اللَّه ويقطعون ما أمر اللَّه به أن يوصل لكى يزيدوا من دخلهم المادى، وهم غافلون عن هذه الحقيقة وهى أنّ الرزق- فى زيادته ونقصه- بيد اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: «وَفَرِحُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ».

ألا بذكر اللَّه تطمئنّ القلوب: فى سورة الرعد بحوث كثيرة حول التوحيد والمعاد والنبوة، فالآية الاولى من هذه المجموعة تبحث مرّةً اخرى فى دعوة الرسول صلى الله عليه و آله وتبيّن واحداً من أعذار المشركين المعاندين حيث يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مّن رَّبّهِ».

إنّ هؤلاء يتوقّعون من النبى أن يجلس فى زاوية الدار ويُظهر لكل واحد منهم المعجزة التى يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها.

ويجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ».

وهذه إشارة إلى أنّ العيب ليس من ناحية الإعجاز، لأنّ الأنبياء قد أظهروا كثيراً من

(١) «اللعن»: بمعنى الطرد مع الغضب، واللعن فى الآخرة تشير إلى العقوبة وفى الدنيا الإبتعاد من رحمة اللَّه.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠٩

المعاجز، ولكن النقص من داخل أنفسهم. وهو العناد والتعصب والجهل والذنوب التى تصدّ عن الإيمان.

تُشير الآية الثانية بشكل رائع إلى تفسير «مَنْ أَنَابَ» حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ». ثم يذكر القاعدة العامة والأصل الثابت حيث يقول تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِنُّ الْقُلُوبُ».

وتبحث الآية الأخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَابٍ».

ما هو ذكر اللَّه، وكيف يتمّ؟ إنّ الذكر نوعين «ذكر القلب» و «ذكر اللسان» وكل واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وعلى أيّة حال ليس المقصود من الذكر- فى الآية أعلاه- هو ذكره باللسان فقط فنقوم بتسبيحه و تهليله و تكبيره، بل المقصود هو التوجه القلبى له و إ دراك علمه و بأنّه الحاضر و الناظر، وهذا التوجّه هو مبدأ الحركة والعمل والجهاد والسعى نحو الخير، وهو سدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذى له كل هذه الآثار والبركات كما أشارت إليه عدة من الروايات.

فمن وصايا النبى صلى الله عليه و آله للإمام على عليه السلام يقول له: «يا على، ثلاث لا تطيقها هذه الامّة:

المواساة للأخ فى ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر اللَّه على كل حال، وليس هو سبحان اللَّه والحمد للَّهولا إله إلّااللَّه واللَّه أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف اللَّه عزّ وجلّ عنده وتركه» (١).

كَذلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)

(١) بحار الأنوار ٧۴/ ۴۵.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥١٠

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه و آله:

«اسجدوا للرحمن». قالوا: وما الرحمن؟

وفى سبب نزول الآية الثانية: إنّها نزلت فى نفر من مشركى مكة، منهم أبو جهل بن هشام، وعبد اللَّه بن أمية المخزومى جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبى صلى الله عليه و آله فأتاهم، فقال له عبد اللَّه بن أمية: إن سرك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا، حتى تنفسخ فإنّها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت أهون على ربّك من

داود حيث سخر له الجبال تسبح معه أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضى عليها مسيرتنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا فقد كان سليمان سخرت له الريح فكما زعمت لنا فلست أهون على ربّک من سليمان. وأحى لنا جدک قصياً، أو من شئت من موتانا لنسأله: أحق ما تقول أم باطل؟ فإنّ عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ولست بأهون على اللّه منه فأنزل اللّه سبحانه «وَلَوْ أَنَّ قُرءَانًا» الآية.

التّفسير

لا أمل فى إيمان أهل العناد: تبحث هذه الآيات مرّةً ثانية مسألة النبوّة، والآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين فى النبوّة وجواب القرآن عليهم فتقول الآية: كما أنّنا أرسلنا رسلًا إلى الأقوام السالفة لهدايتهم: «كَذلِکَ أَرْسَلْنَاکَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ». والهدف من ذلک «لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْکَ». فى الوقت الذى «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ». يكفرون باللّه الذى عمّت رحمته كل مكان، وشمل فيضه المؤمن والكافر.

ثم قل لهم: إنّ الرحمن الذى عمّ فضله هو ربّى «قُلْ هُوَ رَبّى لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ».

ثم يجيب اولئک الذين يتشبّثون دائماً بالحجج الواهية فيقول: لو أنّ الجبال تحرّكت من مكانها بواسطة القرآن: «وَلَوْ أَنَّ قُرءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى . فمع ذلک لا يؤمنون به.

ولكن كل هذه الأفعال بيد اللّه ويفعل ما يريد متى يشاء «بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا».

ولكنكم لا تطلبون الحق، وإذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التى صدرت من

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥١١

الرسول صلى الله عليه و آله كاف لإيمانكم.

ثم يضيف القرآن الكريم: «أَفَلَمْ يَايَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا». ولكنّه لا يفعل ذلک أبداً، لأنّ هذا الإيمان الإجبارى لا قيمة له وهو فاقد للمعنى والتكامل الذى يحتاجه الإنسان فى حياته.

ثم تضيف الآية: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ». وهذه مصائب تنزل عليهم بشكل إبتلاءات مختلفة أو على شكل هجوم المسلمين عليهم. وهذه المصائب إن لم تنزل فى دارهم فهى «أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ» لكى يعتبروا بها ويرجعوا إلى اللّه جلّ وعلا.

وهذا الإنذار مستمر «حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ».

وهذا الوعد الأخير قد يشير إلى الموت، أو إلى يوم القيامة، أو على قول البعض إلى فتح مكة التى سحقت آخر معقل للعدو.

وعلى أيّة حال فالوعد الإلهى أكيد: «إِنَّ اللَّهَ لَايُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول له: لست الوحيد من بين الأنبياء تعرّض لطلب المعاجز الإقتراحية والإستهزاء من الكفار، بل «وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِکَ». ولكن لم نعاقب هؤلاء الكفّار فوراً، بل «فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» لكى يستيقظوا ويعودوا إلى طريق الحق، أو نلقى عليهم الحجة الكافية على الأقل، لأنّ هؤلاء إذا كانوا مذنبين فإنّ لطف اللّه وكرمه وحكمته لا تتأثّر بأفعال هؤلاء.

وعلى أيّة حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» وهذا المصير ينتظر قومک المعاندين أيضاً.

أ فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) كيف تجعلون الأصنام شركاء مع اللّه؟! نعود مرّةً اخرى فى هذه الآيات إلى البحث حول

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥١٢

التوحيد والشرک، وهى تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ». ولإتمام

البحث السابق، ومقدمة للبحث الآتى. يقول تعالى: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ».

ثم يجيبهم بلا فاصلة وبعدّة طرق:

يقول أوّلًا: «قُلْ سَمُّوهُمْ». فكيف تجعلون هذه الموجودات التى لا تستحق حتى الأسماء والتى لا قيمة ولا أثر لها، فى عداد الخالق القادر المتعال؟

ويقول ثانياً: «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَايَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ».

ثالثاً: حتى أنتم لا تؤمنون بذلك فى قرارة أنفسكم، بل «أم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ». ولهذا السبب نرى المشركين عندما تضيق بهم المشاكل الحياتية يلوذون باللَّه، لأنّهم يعلمون فى قلوبهم أنّ الأصنام لا يمكن أن تعمل لهم شيئاً.

رابعاً: إنّ المشركين ليس لهم إدراك صحيح، وبما أنّهم تابعين لأهوائهم وتقليدهم الأعمى، فإنّهم غير قادرين على أن يقضوا بالحقّ وبشكل صحيح، ولهذا السبب ضلّوا الطريق، يقول تعالى: «بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

الإضلال الإلهى إنعكاس لما يقوم به الإنسان من الأعمال السيّئة التى تجرّه إلى الضياع، وبما أنّ هذه الخاصية قد جعلها اللَّه سبحانه وتعالى لمثل هذه الأعمال فلذلك نسب هذا العمل إليه.

ويشير القرآن الكريم فى الآية الأخيرة من هذه المجموعة إلى العقاب الأليم الذى يشملهم فى الدنيا والآخرة، الشقاء والهزيمة والحرمان وغيرها، حيث تقول: «لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَشَقُّ». لأنّها دائمة ومستمرة، جسدية وروحية، وفيها أنواع الآلام.

وإذا إعتقدوا بأنّ لهم طريقاً للفرار أو سبيلًا للدفاع فى مقابل ذلك، فإنّهم فى إشتباهٍ كبير، لأنّ «وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ».

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) بالنظر إلى تناوب آيات هذه السورة فى بيان التوحيد والمعاد وسائر المعارف الإسلامية

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥١٣

الاخرى، تحدّثت هذه الآية مرّةً اخرى حول المعاد وخصوصاً نِعَم الجنة وعذاب الجحيم.

يقول تعالى: «مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ».

قد يكون التعبير ب «مثل» إشارة إلى هذه النكتة، وهى أنّ الجنّة وسائر النعم الاخروية غير قابلة للوصف بالنسبة إلى الساكنين فى هذا العالم المحدود الذى هو فى مقابل عالم بعد الموت يعتبر صغيراً جدّاً، ولذلك نستطيع أن نضرب لهم مثلًا أو صورة عن ذلك.

الوصف الثانى للجنة هو «أُكُلُهَا دَائِمٌ» فهى ليست كفاكهة الدنيا فصلية وتظهر فى وقت معين من السنة، بل فى بعض الأحيان وبسبب الآفات الزراعية تنقطع تماماً.

وكذلك «وَظِلُّهَا» كبقية النعم الاخرى خالدة ودائمة، ومن هذا يتّضح أن ليس فى الجنة فصل لتساقط الأوراق، ونعلم من ذلك- أيضاً- أنّ شعاع الشمس موجود فى الجنة، وإلّا كان التعبير بالظل هناك بدون شعاع الشمس ليس له أى مفهوم.

وبعد بيان هذه الصفات الثلاث قال تعالى فى آخر الآية: «تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ».

لقد بيّن وفصّل فى هذه العبارة نعم الجنة، ولكن بالنسبة إلى أصحاب النار ذكر جملة قصيرة وبعنف حيث ذكر أنّ عاقبة أمرهم إلى النار.

وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَ إِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) المؤمنون والأحزاب: أشارت هذه الآية إلى ردّ الفعل المتفاوت للناس فى مقابل نزول الآيات القرآنية، فالأفراد الذين يبحثون عن الحقيقة يفرحون بما انزل على الرسول، بينما المعاندون يخالفون ذلك. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا

أَنزِلَ إِلَيْكَ».

أى: أنّ الطالبون للحق من اليهود والنصارى وأمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرسول صلى الله عليه و آله لأنّهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما فى أيديهم من العلامات، ومن جهة اخرى كان سبباً لحريتهم ونجاتهم من شرّ الخرافات ومن علماء اليهود والمسيحية الذين كانوا يستعبدونهم، وكانوا محرومين من حرية الفكر والتكامل الإنسانى.

ثم تضيف الآية: «وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ». المقصود من هذه المجموعة هى نفس جماعة اليهود والنصارى الذين غلبهم التعصّب الطائفى وأمثاله، ولذلك لم يعبّر القرآن الكريم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۴

عنهم بأهل الكتاب، لأنّهم لم يتّبعوا كتبهم السماوية، بل كانوا أحزاباً وكتلًا تابعين لخطّهم الحزبى. أو أنّ كلمة «الأحزاب» إشارة إلى المشركين، لأنّ سورة الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، وهؤلاء ليس لهم دين ولا مذهب بل كانوا على شكل أحزاب وكتل متفرقة اتّحدوا فى مخالفتهم للقرآن والإسلام. ونقل العلامة الطبرسى عن ابن عباس، أنّ هذه الآية إشارة إلى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف اللَّه بالرحمن، وأهل الكتاب- خصوصاً اليهود- يفرحون بهذا الوصف «الرحمان» فى الآيات القرآنية، ومشركى مكة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به.

وفى آخر الآية يأمر اللَّه النبى صلى الله عليه و آله: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ». وتلك دعوة للموحدين الصادقين والمؤمنين الرساليين أن يسلّموا أمام الأوامر الإلهية.

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا وَاقٍ (۳۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ مَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (۳۸) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (۳۹) وَ إِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ (۴۰) الحوادث الثابتة والمتغيرة: تتابع هذه الآيات المسائل المتعلقة بالنبوّة، ففى الآية الاولى يقول تعالى: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا».

«العربى»: كما يقول الراغب فى مفرداته «الفصيح البيّن من الكلام» وعلى هذا فوصف القرآن بالعربى لأنّ أحكامه واضحة وبيّنة.

ثم يخاطب القرآن النبى صلى الله عليه و آله بلحن التهديد وبشكل قاطع حيث يقول: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىّ وَلَا وَاقٍ». وبما أنّ احتمال الانحراف غير موجود إطلاقاً فى شخصية الرسول صلى الله عليه و آله لما يتميّز به من مقام العصمة والمعرفة، فهذا التعبير- أوّلًا:- يُوضّح أنّ اللَّه سبحانه وتعالى ليس له إرتباط خاص مع أى أحد حتى لو كان نبيّاً، فمقام الأنبياء الشامخ إنّما هو بسبب عبوديتهم وتسليمهم وإستقامتهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۵

وثانياً: تأكيد وإنذار للآخرين، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله إذا لم يكن مصوناً من العقوبات الإلهية فى حالة انحرافه عن مسيرة الحق وإتّجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرين؟

الآية الاخرى جواب لما كان يستشكله أعداء الرسول صلى الله عليه و آله. ومن جملة هذه الإشكالات:

أوّلًا: كان البعض يقول: هل من الممكن أن يكون الرسول من جنس البشر، يتزوج وتكون له ذرية؟ فالآية تجيبهم وتقول ليس هذا بالأمر الغريب: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرّيَّةً».

ثانياً: كان ينتظر هؤلاء من الرسول أن يجيبهم على كل معجزة يقترحونها عليه بما تقتضيه أهواؤهم، سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء أنّ «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثالثاً: لماذا جاء نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وغيّر أحكام التوراة والإنجيل؟ وتجيب الجملة الأخيرة من الآية فتقول: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» كيما تبلغ البشرية المرحلة النهائية من الرشد والتكامل فليس من العجيب أن ينزّل يوماً التوراة، ويوماً آخر الإنجيل، ثم القرآن،

لأنّ البشرية فى تحوّلها وتكاملها بحاجة إلى البرامج المتغيرة والمتفاوتة.
الآية الاخرى بمنزلة التأكيد والاستدلال لما ورد فى ذيل الآية السابقة، وهو أنّ لكل حدث وحكم زمن معين كما يقال: إنّ الامور مرهونة بأوقاتها، وإذا رأيت أنّ بعض الكتب السماوية تأخذ مكان البعض الآخر فذلك بسبب «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» فيحذف بعض الامور بمقتضى حكمته وإرادته ويثبت اموراً اخرى، ولكن الكتاب الأصل عنده.
وفى النهاية وللتأكيد أكثر بالنسبة للعقوبات التى كان يوعدهم النبى صلى الله عليه و آله بها وكانوا ينتظرونها حتى أنّهم يقولون: لماذا لا تصبح هذه الوعود عملية؟ يقول تعالى: «وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُم (من إنتصارك عليهم وهزيمتهم وتحرير أتباعك وأسر أتباعهم فى حياتك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ».
إنّ جملة «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ» تبيّن قانوناً عامّاً وشاملًا وقد اشير إليه فى مختلف المصادر الإسلامية، وهو أنّ تحقّق وصيرورة الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الاولى المرحلة القطعيّة أو الثابتة، ولا سبيل للتغيير فيها (والتى أشارت إليها الآية أعلاه بام الكتاب) والاخرى المرحلة المتغيرة أو بعبارة اخرى «المشروطة» والتى يجد التغيير سبيلًا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۶

إليها، وقد عبّر عنها بالمحو والإثبات، وأحياناً يقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و «لوح المحو والإثبات» كأنّ ما كُتب فى اللوح الأوّل محفوظ لا يتغيّر، أمّا الثانى فمن الممكن محو ما كتب فيه وتغييره. فى تفسير العياشى عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من الامور امور محتومة كائنة لا محالة، ومن الامور امور موقوفة عند اللّه يقدّم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، لم يطلع على ذلك أحداً يعنى الموقوفة فأمّا ما جاءت به الرسل فهى كائنة لا يكذب نفسه ولا نبيّه ولا ملائكته».
أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۴۱) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (۴۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (۴۳) البشرية فانية ووجه اللّه باق: بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث مع منكرى رسالة النبى صلى الله عليه و آله فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث. يقول تعالى أوّلًا: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». من الواضح أنّ المقصود من «الأرض» هنا هم أهل الأرض، يعنى أنّ هؤلاء لا ينظرون إلى هذا الواقع من أنّ الأقوام والحضارات والحكومات فى حال الزوال والإبادة، وإنذار لكل الناس، الصالح منهم والطالح، حتى العلماء الذين يشكّلون أركان المجتمع البشرى يكون موت أحدهم أحياناً نقصاناً للدنيا.
ثم يضيف: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَامُعَقّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». ولذلك فإنّ قانون الفناء مكتوب على جبين كل الأفراد والامم من جهة، ومن جهة اخرى لا يستطيع أحد أن يغيّر هذا الحكم ولا الأحكام الاخرى، ومن جهة ثالثة أنّ حساب العباد سريع جدّاً، وبهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعاً.
ثم يستمر البحث فى الآية الثانية ويقول: ليست هذه الفئة فقط نهضت بمكرها ومحاربتها لك، بل «وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ». لكن خططهم كُشفت، واجهضت مؤامرتهم بأمر من اللّه، لأنّه أعلم الموجودات بهذه المسائل «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا» ذاك هو العالم بكل شىء

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۷

و «يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ». ثم يحذرهم بصيغة التهديد من عاقبة عملهم ويقول:
«وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ».
الآية الأخيرة من هذا البحث (كما بدأت هذه السورة بكتاب اللّه والقرآن) تُنهى سورة الرعد فى التأكيد أكثر على معجزة القرآن. يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا».
فهم يصطنعون كل يوم عذراً، ويطلبون فى كل وقت المعاجز، ثم آخر الأمر يقولون: لست بنبى! قل فى جوابهم: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنـدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». فاللّه سـبحانه وتعالى يعلم بأنّى رسوله، وكذلك هؤلاء لهم المعرفهٔ الكافيهٔ بأنّ القرآن هو كتاب سماوى، وهذا تأكيد جديد على إعجاز القرآن بمختلف جوانبه.

«نهايهٔ تفسير سورهٔ الرعد»

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥١٩

١۴. سورهٔ ابراهيم

هذه السورهٔ مكيهٔ بإستثناء الآيات (٢٨) و (٢٩) طبقاً لما قاله كثير من المفسرين أنّها نزلت بالمدينهٔ فى قتلى المشركين فى بدر.

محتوى السورهٔ: المعلوم من اسم السورهٔ أنّ قسـماً منهـا نازل بشأن بطل التوحيـد ومحطّم الأصـنام سـيّدنا إبراهيم عليه السـلام (قسم من أدعيته).

والقسم الآخر من هذه السورهٔ يشير إلى تاريخ الأنبياء السابقين أمثال نوح وموسى، وقوم عاد وثمود، وما تحتوى من دروس وعبر فيها.

وتكمل هذه المجموعهٔ من البحوث فى السورهٔ آيات الموعظهٔ والنصيحهٔ والبشارهٔ والإنذار.

إنّ قسماً كبيراً منها أيضاً يبحث مواضيع «المبدأ» و «المعاد».

وخلاصهٔ هذه السورهٔ أنّها تبيّن عقائد ونصائح ومواعظ سيرهٔ الأقوام الماضيهٔ، والهدف من رسالهٔ الأنبياء ونزول الكتب السماويهٔ.

فضـيلهٔ تلاوهٔ السورهٔ: فى تفسـير مجمع البيان: قال رسول اللّه صـلى الله عليه و آله: «من قرأ سورهٔ إبراهيم والحجر اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٢٠

وكما أسلفنا مراراً فإنّ ما ورد من الثواب حول قراءهٔ السور القرآنيهٔ يلازمه التفكر ومن ثم العمل.

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيـدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الـدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُـدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) الخروج من الظلمات إلى النور: شـرعت هـذه السورهٔ- كبعض السور القرآنيهٔ الاخرى- بالحروف المقطعهٔ، والنقطهٔ التى يجب ملاحظتها هنا أنّ من بين ٢٩ مورداً لسور القرآن التى ابتدأت بالحروف المقطعهٔ هناك ٢۴ مورد ذكر بعدها مباشرهً القرآن الكريم، والتى تُبيّن أنّ هناك علاقهٔ بين الاثنين، أى بين الحروف المقطعهٔ والقرآن، ولعل هذه العلاقهٔ هى نفسـها التى ذكرناها فى بدايـهٔ سورهٔ البقرهٔ، فـاللّه سـبحانه وتعـالى يريـد أن يوضّـح من خلاـل هـذا البيان أنّ هـذا الكتاب السـماوى العظيم المتعهـد لقيادهٔ الإنسانيهٔ يتكوّن من مواد بسيطهٔ تسمّى بحروف الألفباء، وهذه تشير إلى أهميهٔ هذا الإعجاز، حيث يوجد أصدق بيان من أبسط بيان.

وعلى أيّهٔ حال فبعد ذكر الحروف «الر» يقول تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إنّ جميع الأهـداف التربويـهٔ والإنسانيهٔ، المعنويهٔ والماديهٔ من نزول القرآن قد جُمعت فى هذه الجملهٔ (الخروج من الظلمات إلى النور) أى الخروج من ظلاـم الجهـل إلى نور المعرفـهٔ، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، من ظلم الظالمين إلى نور العدالـهٔ، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الذنوب إلى الطهارهٔ والتقوى، ومن التفرقهٔ والنفاق إلى نور الوحدهٔ.

ومن الطريف أنّ «الظلمـات» هنـا جاءت بصـيغهٔ الجمع و «النور» بصـيغهٔ المفرد، وهـذه إشارهٔ إلى أنّ كل الحسـنات والطيبات والإيمان والتقوى لها حالهٔ واحدهٔ فى ظلّ التوحيد

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٢١

ونوره فهى مترابطهٔ ومتحدهٔ فيما بينها فتصنع مجتمعاً واحداً متحداً وطاهراً من كل جههٔ. بينما الظلمات تعنى التشتت وتفرقهٔ الصفوف.

ومن هنا لما كان مصـدر كل الخير هى الـذات الإلهيـهٔ المقدسهٔ، والشـرط الأساس لدرك التوحيد هو الإلتفات إلى هذه الحقيقهٔ، فإنّه

يضيف بلا فاصلة: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ».

ولكى يبيّن أكثر ما هو النور يقول تعالى: «إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». فعزّته دالة على قدرته، لأنّه لا يستطيع أحد أن يغلبه، والحميد دالة على نعمه ومواهبه غير المتناهية، لأنّ الحمد والثناء دائماً تكون فى مقابل النعم والمواهب.

الآية الثانية ولكى تعرّف اللَّه بصفاته، تبيّن درساً من دروس التوحيد حيث تقول:

«اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». فله كل شىء، لأنّه خالق جميع الموجودات ولهذا السبب هو القادر والعزيز وواهب النعم والحميد.

ثم يتطرّق فى نهاية الآية إلى مسألة المعاد (بعد أن ذكر المبدأ) فتقول الآية: «وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ».

ثم يُعرّف القرآن الكريم الكفار فى الآية الاخرى، ويذكر لهم ثلاث صفات كيما نستطيع أن نعرفهم من أوّل وهلة، يقول تعالى أوّلًا: «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ». فهم يضحّون بالإيمان والحق والعدالة والشرف التى هى من خصائص محبّى الآخرة، من أجل منافعهم الشخصية وشهواتهم.

ثم يبيّن تعالى أنّ هؤلاء غير قانعين بهذا المقدار من الضلال، بل يسعون فى أن يضلّوا الآخرين «وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ». فهم- فى الواقع- يزيّنون الهوى، ويدعون الناس إلى الذنوب، ويخوّفونهم من الصدق والإخلاص.

ولا يقتصر عملهم على ذلك فحسب، بل «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا». ثم يحاولون أن يصبغوا الآخرين بصبغتهم، ويسعون فى أن يحرفوا السبيل للوصول إلى هدفهم من خلال نشر الخرافات وإبتداع السنن الخبيثة «أُولَئِكَ فِى ضَلَلٍ بَعِيدٍ».

وهذا الضلال قد أوجد بُعد المسافة بينهم وبين الحق فكان من العسير جدّاً عودتهم إلى طريق الحق، ولكن ذلك كان نتيجة لأعمالهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٢

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۴) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۵) وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِى ذلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (۷) كان الحديث فى الآيات السابقة عن القرآن الكريم وآثاره الروحية، وتتابع الآية الاولى من هذه المجموعة نفس الموضوع، لكن فى بُعد خاص وهو أنّ دعوة الأنبياء وكتبهم السماوية نزلت بلسان أقوامهم الذين بُعِثوا إليهم. يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ». لأنّ الأنبياء يرتبطون فى الدرجة الاولى مع قومهم، وأوّل نور الوحى يشعّ من بينهم، وأوّل الصحابة والأنصار يُنتخبون منهم، لذلك فإنّ الرسول يجب أن يحدّثهم بلغتهم وبلسانهم «لِيُبَيِّنَ لَهُمْ».

إنّ دعوة الأنبياء كانت توضّح لهم من خلال التبيين والتعليم والتربية وبلسانهم الرائج لا من خلال أثر مرموز وغير معروف فى قلوب.

ثم يضيف القرآن الكريم بعد أن بيّن لهم الدعوة الإلهية: «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ». فليست الهداية والضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ والتبيين، اللَّه سبحانه وتعالى هو الموجّه والهادى الحقيقى لعباده.

ولكى لا- يتصور أحد أنّ هذا القول بمعنى الجبر وسلب الحرّيات، فيضيف القرآن مباشرة: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وبمقتضى عزته وقدرته فإنّه قادر على كل شىء، ولكن بمقتضى حكمته لا يهدى ولا يضلّ أحداً بدون سبب ودليل، بل الخطوة الاولى تبدأ من قبل العباد وبكامل الحرية فى السير إلى اللَّه، ثم يشعّ نور الهداية وفيض الحق فى قلوبهم، كما فى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٢٣

الآية (۶۹) من سورة العنكبوت: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا».

وعلى هذا النحو فإنّ محور الهداية والضلال فى أيدى الناس أنفسهم.

تشير الآية الاخرى إلى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء فى مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» «۱».

وكما قرأنا فى الآية الاولى من هذه السورة فإنّ خلاصة دعوة رسول الخاتم صلى الله عليه و آله هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فهذه دعوة كل الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر.

ثم يشير القرآن الكريم إلى واحدة من أكبر مسؤوليات موسى عليه السلام حيث يقول تعالى:

«وَذَكِّرْهُم بِأَيمِ اللَّهِ». وهى جميع الأيام العظيمة فى تاريخ الإنسانية. فكل يوم يُفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس وعبرة، أو ظهور نبى فيه، أو سقوط جبار وفرعون- أو كل طاغ- ومحوه من الوجود. خلاصة القول: كل يوم يُعمل فيه بالحق والعدالة ويتلاشى فيه الظلم وتنطفى فيه بدعة، هو من أيّام اللَّه.

الروايات الواردة من أهل البيت عليهم السلام تشير أنّهم فسّروا «أيّام اللَّه» بأيام مختلفة، ففى تفسير نور الثقلين عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أيّام اللَّه، يوم يقوم القائم ويوم الكرّة «۲» ويوم القيامة».

وفى آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

«صبّار» و «شكور»: صيغة مبالغة فأحدهما تشير إلى شدة الصبر، والاخرى إلى زيادة الشكر، وتعنى أنّ المؤمنين كما لا يستسلمون للحوادث والمشاكل التى تصيبهم فى حياتهم، كذلك لا يغترّون ولا يغفلون فى أيّام النصر والنعم.

تشير الآية الاخرى إلى أحد هذه الأيام التى كانت ساطعة ومثمرة فى تاريخ بنى إسرائيل، وذكرها تذكرة للمسلمين حيث يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ». هؤلاء الفراعنة الذين كانوا «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ

---

(۱) المعجزات التى ظهرت من موسى بن عمران أشارت إليها الآية أعلاه بلفظ الآيات، وهى ۹ معاجز مهمّة طبقاً للآية (۱۰۱) من سورة الإسراء، والتى سوف تأتى إن شاء اللَّه فى تفسير تلك الآية.

(۲) يوم الكرّة/ أى يوم الرجعة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۴

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ».

وكان على طول التاريخ طريقة كل المستعمرين حيث كانوا يبيدون قسماً من القوى الفاعلة والمقاومة، ويضعفون قسماً آخر منها ويستخدمونها فى منافعهم الخاصة. أىّ يوم أكثر بركة من ذلك اليوم حيث أزال اللَّه عنكم فيه شرّ المتكبرين والمستعمرين، الذين كانوا يرتكبون أفظع الجرائم بحقكم، وأى جريمة أعظم من ذبح أبنائكم كالحيوانات (إنتبه إلى أنّ القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) وأهمّ من ذلك فإنّ نواميسكم كانت خدماً فى أيدى الطامعين.

وليس هذا المورد خاص ببنى إسرائيل، بل فى جميع الامم والأقوام. فإنّ يوم الوصول إلى الاستقلال والحرية وقطع أيدى الطواغيت يوم من أيام اللَّه الذى يجب أن نتذكّره دوماً حتى لا نعود إلى ما كنّا عليه فى الأيّام الماضية.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ». يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى لبنى إسرائيل، ويمكن أن تكون جملة مستقلّة وخطاباً للمسلمين، ولكن على أيّة حال فالنتيجة واحدة، لأنّ وروده فى القرآن الكريم من أجل أن يكون درساً بنّاءاً لنا.

الشكر سبب لزيادة النعم والكفر سبب للفناء: مما لا شك فيه أنّ اللَّه سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى شكرنا فى مقابل نعمه علينا، وإذا أمرنا بالشكر فذاك لنستوجب نعمة اخرى وهى واحدة من المبادىء السامية فى التربية.

إنّ حقيقة الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان (الحمد للَّه) أو الشكر اللفظى، بل هناك ثلاث مراحل للشكر:

الاولى: يجب أن نعلم من هو الواهب للنعم؟ هذا العلم والإيمان الركن الأوّل للشكر.

والثانية: الشكر باللسان.

والثالثه: وهى الأهمّ الشكر العملى، أى أن نعلم الهدف من منحنا للنعمة، وفى أى مورد نصرفها، وإلّا كفرنا بها.

وهنا يتّضح هذه العلاقة بين الشكر وزيادة النعمة، لأنّ الناس لو صرفوا النعم الإلهية فى هدفها الحقيقى، فسوف يثبتون عملياً إستحقاقهم لها وتكون سبباً فى زيادة الفيوضات الإلهية عليهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۵

وَ قَالَ مُوسَى إنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (۸) أ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۹) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (۱۰) الآيـة الاولى من هذه المجموعة تؤيّد وتُكمل البحث السابق فى الشكر والكفران، وذلك ضمن الكلام الذى نقل عن لسان موسى عليه السلام: «وَقَالَ مُوسَى إن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ».

إنّ الشكر والإيمان باللَّه سبب فى زيادة النعم والتكامل الإنسانى، وإلّا فاللَّه عزّ وجل ليس بحاجة إلى أىّ شىء، ولو كفرت جميع الكائنات ولم تحمده لا تَمسُّ كبرياءه بأدنى ضرر، لأنّه حميد فى ذاته.

ثم يشرح مصير الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدّة آيات، الفئات التى كفرت بأنعم اللَّه وخالفت الدعوة الإلهية، وهى تأكيد للآية السابقة. يقول تعالى: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ».

يمكن أن تكون هذه الجملة تعقيباً على كلام موسى، أو بيان مستقل يخاطب به المسلمين، لكن النتيجة غير متفاوتة كثيراً.

ثم يضيف تعالى: «قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ» فهؤلاء لم يطّلع على أخبارهم إلّااللَّه «لَايَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ».

ولكى يوضّح القرآن الكريم مصيرهم يقول: «جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ». أى: وضعوا أيديهم على أفواههم من التعجب والإنكار «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۶

أُرْسِلْتُم بِهِ». لماذا؟ بسبب: «وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».

وبما أنّ الآية السابقة بيّنت قول المشركين والكفار فى عدم إيمانهم بسبب شكهم وترديدهم، فالآية بعدها تنفى هذا الشك من خلال دليل واضح وعبارة قصيرة حيث يقول تعالى: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». «فاطر»: من «فَطَر» وهى فى الأصل بمعنى «شقّ» وهنا كناية عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشياء على أساس نظام دقيق ثم يحفظها ويحميها، كأنّ ظلمة العدم شقّت بنور الوجود.

ولعل «فاطر» تشير إلى تشقّق المادة الأوّلية للعالم، كما نقرأ فى العلوم الحديثة إنّ مجموع مادة العالم كانت واحدة مترابطة ثم إنشقّت إلى كُراة مختلفة.

فالقرآن الكريم هنا- كما فى أغلب الموارد الاخرى- يستند لإثبات وجود الخالق وصفاته إلى نظام الوجود وخلق السماوات والأرض.

ثم يجيب القرآن الكريم على ثانى إعتراض للمخالفين، وهو إعتراضهم على مسألة الرسالة (لأنّ شكّهم كان فى اللَّه وفى دعوة الرسول) ويقول إنّ من المسلم أنّ اللَّه القادر والحكيم لا يترك عباده بدون قائد، بل إنّه بإرسال الرسل: «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ».

وزيادة على ذلك فإنّه: «وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى». كيما تسلكوا سبيل التكامل وتستفيدوا من موهبة الحياة بأقصى ما يمكنكم.

إنّ غاية دعوة الأنبياء أمران: أحدهما غفران الذنوب، والثانى إستمرار الحياة إلى الوقت المعلوم، والإثنان علة ومعلول، فالمجتمع الذى يستمر فى وجوده هو المجتمع النقى من الظلم والذنوب.

ومع كل ذلك لم يقبل الكفار المعاندون دعوة الحق المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، ومن خلال بيانهم المشوب بالعناد وعدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: «قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا». علاوة على ذلك: «تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». وأكثر من ذلك: «فَأْتُونَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۷

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ مَا لَنَا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) التوكل على اللَّه وحده: نقرأ فى هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، وإعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

يعنى لو إفترضنا أنّ اللَّه تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهى لا تمتلك شيئاً لذاتها، فكل المواهب ومن جملتها موهبة الرسالة والقيادة هى من عند اللَّه، فالذى يستطيع أن يهب الملائكة هذا المقام قادر أن يعطيها للإنسان.

ثم يجيب على السؤال الثالث دون أن يجيب على الثانى، وكأنّ الإعتراض الثانى الذى هو الإستنان بسنّة الأجداد ليس له أى أهمية وفارغ من المحتوى بحيث إنّ أىّ إنسان عاقل- بأقل تأمل- يفهم جوابه، بالإضافة إلى أنّ القرآن الكريم قد أجاب عنه فى آيات اخر.

وجواب السؤال الثالث هو أنّ عملنا ليس الإتيان بالمعاجز، فنحن لا نجلس فى مكان ونلبّى لكم المعاجز الإقتراحية وكل ما سوّلت لكم أنفسكم، بل «وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ومع ذلك فإنّ كل نبى كان يظهر لقومه المعاجز بمقدار كاف بدون أن يطلبها الناس منه، وذلك لكى يثبت الأنبياء أحقّيتهم ولتكون المعاجز سنداً لصدقهم.

ولكى يردّ الرسل على تهديداتهم المختلفة يقولون: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وبعد ذلك إستدل الأنبياء على مسألة التوكل حيث قالوا: «وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَينَا سُبُلَنَا».

ثم أضافوا: إنّ ملاذنا هو اللَّه، ملاذ لا يُقهر وهو فوق كل شيء: «وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا». وأخيراً أنهوا كلامهم بهذه الجملة: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

المقصود من التوكل أن لا يحسّ الإنسان بالضعف فى مقابل المشكلات العظيمة، بل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۸

بتوكله على قدرة اللَّه المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومنتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكل عامل من عوامل القوة واستمداد الطاقة وسبب فى زيادة المقاومة والثبات.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَ خَافَ وَعِيدِ (١۴) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١۵) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١۶) يَتَجَرَّعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) خطط الجبارين المعاندين ومصيرهم: عندما يعلم الظالمون بضعف منطقهم وعقيدتهم، يتركون الاستدلال، ويلجأون إلى القوة والعنف، ونقرأ هنا أنّ الأقوام الكافرة العنيدة عندما سمعوا منطق الأنبياء المتين والواضح قالوا لرسلهم: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا».

وکأنّ هؤلاء القوم یعتبرون جمیع ما فی الأرض ملکهم، حتی أنّهم لم یمنحوا لرسلهم حقوق المواطنۀ، ولذلک یقولون «أرضنا»، وفی الحقیقۀ فإنّ اللّه سبحانه وتعالی خلق الأرض وکل مواهبها للصالحین، وهؤلاء الجبابرۀ فی الواقع لیس لهم أي حق فیها.

ثم یضیف القرآن الکریم لتسلیۀ قلوب الأنبیاء: «فَأَوْحَی إِلَیْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِکَنَّ الظَّالِمِینَ».

فلا تخافوا من وعیدهم، ولا تُظهروا الضعف فی إرادتکم.

وبما أنّ الظالمین کانوا یهدّدون الأنبیاء بالتبعید عن أرضهم، فإنّ اللّه فی مقابل ذلک کان یعد الأنبیاء «وَلَنُسْکِنَنَّکُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ».

ولکن هذا النصر والتوفیق لا یناله إلّا «ذلِکَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِی وَخَافَ وَعِیدِ».

وحین إنقطعت الأسباب بالأنبیاء من کل جانب، وأدّوا جمیع وظائفهم فی قومهم، فآمن منهم من آمن، وبقی علی الکفر من بقی، وبلغ ظلم الظالمین مداه، فی هذه الأثناء طلبوا النصر من اللّه تعالی: «وَاسْتَفْتَحُوا ...». وقد استجاب اللّه عزّ وجلّ دعاء المجاهدین المخلصین «وَخَابَ کُلُّ جَبَّارٍ عَنِیدٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۹

«خاب»: من الخیبۀ بمعنی فقدان المطلوب.

و «جبّار»: بمعنی المتکبّر هنا، وتطلق هذه الکلمۀ أحیاناً علی اللّه جلّ وعلا فتعطی معنیً آخر، وهو (جبر وإصلاح من هو بحاجۀ إلی الإصلاح) أو بمعنی (المتسلط علی کل شیء).

و «العنید»: فی الأصل من «العَنَد» علی وزن «رَنَد» بمعنی الإتّجاه، وجاءت هنا بمعنی الانحراف عن طریق الحق.

ومن الطریف أنّ «جبار» تشیر إلی صفۀ نفسانیۀ بمعنی روح العصیان، و «عنید» تشیر إلی آثار تلک الصفۀ فی أفعال الإنسان حیث تصرفه عن طریق الحق.

ثم یُبیّن نتیجۀ عمل الجبارین فی الآخرۀ ضمن آیتین فی خمسۀ مواضع:

۱- إنّ مثل هذا الشخص: «مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ». مع أنّ کلمۀ «وراء» بمعنی «الخلف» فی مقابل أمام، إلّاأنّها فی هذه الموارد تعنی نتیجۀ وعاقبۀ العمل.

۲- أمّا فی جهنم فإنّه: «وَیُسْقَی مِن مَّاءٍ صَدِیدٍ». «الصدید»: القیح المتجمع بین اللحم والجلد، وهو بیان للماء المتعفن الکریه الذی یسقونه.

۳- فهذا المجرم المذنب عندما یری نفسه فی مقابل هذا الشراب «یَتَجَرَّعُهُ وَلَا یَکَادُ یُسِیغُهُ». «یسیغه»: من إساغۀ، وهی وضع الشراب فی الحلق.

۴- ووسائل التعذیب کثیرۀ بحیث «وَیَأْتِیهِ الْمَوْتُ مِن کُلِّ مَکَانٍ وَمَا هُوَ بِمَیِّتٍ». حتی یذوق وبال عمله وسیّئاته.

۵- وقد یتصور أن لیس هناک عقاباً أکثر من ذلک، ولکن «وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِیظٌ».

وبهذا الترتیب فإنّ کل ما یخطر فی ذهن الإنسان وما لا یخطر من شدۀ العقاب هو فی إنتظار هؤلاء الظالمین والجبارین والمذنبین لأنّه النتیجۀ الطبیعیۀ لعمل الإنسان، بل تجسیم أفعالهم فی الآخرۀ، فکل عمل یجسّم بشکل مناسب.

مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ کَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّیحُ فِی یَوْمٍ عَاصِفٍ لَا یَقْدِرُونَ مِمَّا کَسَبُوا عَلَی شَیْءٍ ذلِکَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِیدُ (۱۸)

رمادٌ إشتدّت به الریح: ضربت هذه الآیۀ مثالاً واضحاً وبلیغاً لأعمال الکفار، وبذلک تکمل بحث الآیات السابقۀ فی مجال عاقبۀ أمرهم.

یقول تعالی: «مَّثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ کَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّیحُ فِی یَوْمٍ عَاصِفٍ». فیتناثر الرماد فی الریح العاصف بحیث لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۰

یستطیع أحد جمعه، کذلک منکرو الحق لیست باستطاعتهم أن یجمعوا ما کسبوا «لَّایَقْدِرُونَ مِمَّا کَسَبُوا عَلَی شَیْءٍ ذلِکَ هُوَ الضَّللُ الْبَعِیدُ».

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمـاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكَمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيـدٍ (۱۹) وَ مَـا ذلِکَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۲۰) الخلق على أساس الحق: بعـد ما بحثنا عن الباطل وأنّه كالرماد المتناثر إذا إشتدّت به الريـح، نبحث فى هـذه الآيةَ عن الحقّ وإسـتقراره، يقول اللَّه تعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه و آله باعتباره الاسوة لكل دعاة الحق: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ».

«الحق»: كما يقول الراغب فى مفرداته «المطابقة والتنسيق» وله استعمالات اخرى: فتارةً يستعمل الحق فى العمل الصادر وفقاً للحكمة والنظام كما فى الآية (۵) من سورة يونس:

«هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلَّا بِالْحَقّ».

وتارةً يطلق على الشـخص الذى قام بهذا العمل المحكم، كما- فى الآية (۳۲) من سورة يونس- نطلقها على اللَّه عزّ وجلّ: «فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ».

وتـارةً اخرى يطلق على الإعتقاد الـذى يطابق الواقع كما فى الآيـة (۲۱۳) من سورة البقرة: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَـا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقّ».

ومرّةً يقال للقول والعمل الذى يتحقق فى الوقت المناسب كما فى الآية (۱۳) من سورة السجدة: «حَقَّ الْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ».

فمقابل «الحق» الباطل والضـلال واللعب وأمثالهما؛ لكنّ الآية التى نحن بصددها تشـير إلى المعنى الأوّل، وهو إنشاء عالم الخلق. حيث توضّـح أنّ الغرض من خلق السـماء والأرض هو الحكمـة والنظـام والحساب، فاللَّه تعالى ليس محتاجاً فى خلقها ولا ناقصاً لكى يسدّ نقصه بها، بل هو الغنى عن كل شىء، وهذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات وتكاملها.

ثم يضيف: إنّ الدليل فى عدم الحاجة إليكم ولا إلى إيمانكم هو: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ».

وهذا العمل ليس صعباً عند اللَّه «وَمَا ذلِکَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ».

والشاهد على هذا القول فى الآيات (۱۳۱- ۱۳۳) من سورة النساء: «وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۱

لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيـدًا ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بَاخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذلِکَ قَدِيرًا».

وهذا التفسير بخصوص الآية أعلاه منقول عن ابن عباس.

وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعـاً فَقَـالَ الضُّعَفَـاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعـاً فَهَـلْ أَنْتُمْ مُغْنُـونَ عَنَّا مِنْ عَـذَابِ اللَّهِ مِنْ شَـىْءٍ قَـالُوا لَـوْ هَـدَانَا اللَّهُ لَهَـدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أ جَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (۲۱) وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَـدَكُمْ وَعْـدَ الْحَقِّ وَ وَعَـدْتُكُمْ فَـأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَـا كَـانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُـلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْـتَجَبْتُمْ لِى فَلَـا تَلُومُونِى وَ لُومُوا أَنْفُسَـكُمْ مَـا أَنَـا بِمُصْـرِخِكُمْ وَ مَـا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَـلَامٌ (۲۳) المحادثة الصـريحة بين الشيطان وأتباعه: أشارت الآيات السابقة إلى العقاب الشديد للمخالفين والمعاندين والكافرين، وهذه الآيات تكمل ذاك البحث. يقول تعالى أوّلًا:

«وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا».

وفى هذه الأثناء يقول الضعفاء الذين تاهوا فى وادى الضلالة للمستكبرين الذين كانوا سبب ضلالهم «فَقَالَ الضُّعَفؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ» فيجيبونهم بدون توقّف «قَالُوا لَوْ هَدَينَا اللَّهُ لَهَدَيْنكُمْ».

ولكن للأسف فالمسألة منتهية «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ».

ولكـن يجـب أن يعلم المسـتكبرون أنّهم يتحمّلـون مسؤوليـة ذنـوب أتبـاعهم شـاؤوا أم أبـوا، طبقـاً لصـريح القرآن والرّوايـات، لأنّهم المؤسسون للانحراف والضلال دون أن ينقص أى شىء من عذاب أتباعهم.

«المحيص»: من «المحص» بمعنى التخلّص من العيوب أو الألم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۲

ثم يشير القرآن الكريم إلى موقف آخر من مواقف القيامة والعقاب النفسى للجبارين والمذنبين وأتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: «وَقَالَ الشَّيْطَنُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ». وبهذا الترتيب فالشيطان وجميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون ويوبّخون تابعيهم البؤساء. ثم يضيف: «وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى». ويستمرّ فى القول «فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم». أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!

وعلى كل حال فلا أنا أستطيع إنقاذكم من العذاب ولا أنتم تستطيعون إنقاذى: «مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ». والآن اعلّمكم بأنّى أتبرّأ من شرككم وإطاعتكم لى «إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» فقد فهمت الآن أنّ الشرك فى الطاعة أدّى إلى شقائى وشقائكم، وهذه التعاسة ليس لها طريق للنجاة، واعلموا «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ونستفيد بشكل أكيد من هذه الآية أنّ وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره وحرية إرادته، بل هى مجرد دعوة ليس أكثر، فالناس هم الذين يلبّون دعوته بإرادتهم.

وبعد بيان حال الجبارين والظالمين ومصيرهم المؤلم، تتطرّق الآية الأخيرة من هذا البحث إلى حال المؤمنين وعاقبتهم، حيث يقول تعالى: «وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الآية.

«التحية»: فى الأصل «الحياة» وتستعمل لسلامة وحياة الأفراد، وتطلق لكل تحيّة وسلام ودعاء فى بداية اللقاء.

ف «سلام» يشمل كل سلامة من أى نوع من أنواع العذاب الروحى والجسمى.

أ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ (۲۴) تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۵) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (۲۶) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِى الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (۲۷) الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة: هنا مشهد آخر فى تجسيم الحق والباطل، الكفر

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۳

والإيمان، الطيّب والخبيث ضمن مثال واحد جميل وعميق المعنى ... يُكمل البحوث السابقة فى هذا الباب. يقول تعالى أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ». ثمّ يشير إلى خصائص هذه الشجرة الطيبة فى جميع أبعادها ضمن عبارات قصيرة.

«الكلمة»: فى معناها الواسع تشمل جميع الموجودات.

«الطيب»: كل طاهر ونظيف، فالنتيجة من هذا المثال أنّه يشمل كل سنّة ودستور وبرنامج وطريقة، وكل عمل، وكل إنسان ... والخلاصة: كل موجود طاهر ونظيف وذى بركة، وجميعها كشجرة طيبة فيها الخصائص التالية:

۱- كائن يمتلك الحركة والنمو، وليس جامداً ولا خاملًا.

۲- هذه الشجرة طيّبة، من كل جهة ... ثمارها، أزهارها، ونسيمها جميعها طيب وطاهر.

۳- لهذه الشجرة نظام دقيق، لها جذور وأغصان، وكل واحد له وظيفته الخاصة.

۴- أصلها ثابت محكم بشكل لا يمكن أن يقلعها الطوفان ولا العواصف، «أَصْلُهَا ثَابِتٌ».

۵- إنّ أغصان هذه الشجرة الطيبة ليست فى محيط ضيّق ولا ردىء، بل مقرّها فى عنان السماء، وهذه الأغصان والفروع تشقّ الهواء وتصعد فيه عالياً «وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ».

ومن الواضح أنّ الأغصان كلّما كانت عالية وسامقة تكون بعيدة عن التلوّث والغبار وتصبح ثمارها نظيفة.

۶- هذه الشجرة كثيرة الثمر لا كالأشجار الذابلة العديمة الثمر، ولذلك فهى كثيرة العطاء «تُؤْتِى أُكُلَهَا».

۷- وثمارها ليست فصلية، بل فى كل فصل وزمان، فإذا أردنا أن نمدّ يدنا إلى أغصانها فى أى وقت لم نرجع خائبين «كُلَّ حِينٍ».

٨- إنّ إنتاجها من الثمار يكون وفق قوانين الخلقة والسنن الإلهية وليس بدون حساب «بِإِذْنِ رَبِّهَا».

والآن يجب أن نفتّش، أين نجد هذه الخصائص والبركات؟

نجدها بالتأكيد فى كلمة التوحيد ومحتواها، وفى الإنسان الموحد ذى المعرفة.

الرجال العظام من المؤمنين هم كلمة اللَّه الطيّبة، وحياتهم أصل البركة، دعوتهم توجب الحركة، آثارهم وكلماتهم وأقوالهم وكتبهم وتلاميذهم وتاريخهم ... وحتى قبورهم جميعها ملهمة وحيّة ومربية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٤

نعم «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وبما أنّ أحد أفضل الطرق لتوضيح المسائل هو الاستفادة من طريق المقابلة والمقايسة، فقد جعلت النقطة المقابلة للشجرة الطيبة، الشجرة الخبيثة «وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ».

والكلمة «الخبيثة» هى كلمة الكفر والشرك، وهى القول السيء والرديء، وهى البرنامج الضال والمنحرف، والناس الخبثاء، والخلاصة: هى كل خبيث ونجس.

ومن الطريف أنّ القرآن الكريم فصّل الحديث فى وصف الشجرة الطيّبة بينما إكتفى فى وصف الشجرة الخبيثة بجملة قصيرة واحدة «اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ».

وهذا نوع من لطافة البيان أن يتابع الإنسان جميع خصوصيات ذكر «المحبوب» بينما يمرّ بسرعة فى جملة واحدة بذكر «المبغوض».

وبما أنّ الآيات السابقة جسّدت حال الإيمان والكفر، الطيب والخبيث من خلال مثالين صريحين، فإنّ الآية الأخيرة تبحث نتيجة عملهم ومصيرهم النهائى، يقول تعالى: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الحَيَوةِ الدُّنْيَا وفِى الْأَخِرَةِ». لأنّ إيمانهم لم يكن إيماناً سطحياً وشخصيتهم لم تكن كاذبة ومتلوّنة.

فهنا يثبّتون بالإيمان ويبرؤون من الذنوب، وهناك يُخلدون فى النعيم المقيم.

ثم يشير إلى النقطة المقابلة لهم: «وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ».

قلنا مراراً: إنّ الهداية والضلال التى تنسب إلى اللَّه عزّ وجلّ لا تتحققان إلّاأن يرفع الإنسان القدم الأوّل لها، فاللَّه عزّ وجلّ عندما يسلب المواهب والنعم من العبد أو يمنحها له يكون ذلك بسبب إستحقاقه أو عدم إستحقاقه.

أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَ بِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) نهاية كفران النعم: الخطاب فى هذه الآيات موجّه للرسول صلى الله عليه و آله وهو فى الحقيقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبيثة». يقول تعالى أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٥

كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ». هؤلاء هم جذور الشجرة الخبيثة وقادة الكفر والإنحراف.

مع أنّ بعض المفسرين الكبار عند متابعتهم للروايات الإسلامية فسّروا- أحياناً- هذه النعمة بوجود النبى صلى الله عليه و آله وأحياناً اخرى بالأئمة عليهم السلام وفسّروا الكافرين بهذه النعمة ب «بنى اميّة» و «بنى المغيرة» مرّةً، ومرّةً اخرى جميع الكفار الذين عاصروا عهد النبى صلى الله عليه و آله، ولكن من المسلم به أنّ للآية مفهوماً أوسع من هذا، وليس مختصاً بمجموعة معينة، بل تشمل جميع الأفراد الذين يكفرون بالنعم الإلهية.

ثم إنّ القرآن الكريم يُفسّر دار البوار بقوله تعالى: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ» «١».

ثم يشير فى الآية الاخرى إلى واحدة من أسوأ أنواع كفران النعم «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ». لكى يستفيدوا عدّة أيام من حياتهم المادية ومن رئاستهم وحكومتهم فى ظل الشرك والكفر لإضلال الناس عن طريق الحق.

أيّها النبى: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ». فحياتكم هذه شقاء ورئاستكم فاسدة.

«أنداد»: جمع «ندّ» بمعنى «المثل» ولكن الراغب فى مفرداته والزبيدى فى تاج العروس قالا: إنّ «الندّ» يقال للشيء الذى يشابه الشيء الآخر جوهرياً، و «المثل»: يطلق على كل شيء شبيه لشيء، ولذلك فالندّ له معنى أعمق وأدقّ من المثل.

وطبقاً لهذا المعنى نستفيد من الآية أعلاه أنّ أئمة الكفر كانوا يسعون لأن يجعلوا للّهشركاء ويشبهوهم فى جوهر ذاتهم باللّه عزّ وجلّ، لكى يضلوا الناس عن عبادة اللّه ويحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَ لَا خِلَالٌ (۳۱) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (۳۲) وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ (۳۳) وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴)

---

(۱) «يصلون»: من «الصلى» بمعنى الإشتعال والإحتراق بالنار.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۶

عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن: تعقيباً للآيات السابقة فى الحديث عن برنامج المشركين والذين كفروا بأنعم اللّه وكون مصيرهم إلى دار البوار، تتحدّث هذه الآيات عن برنامج عباد اللّه المخلصين والنعم النازلة عليهم. يقول تعالى: «قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً». قبل أن يأتى ذلك اليوم الذى لا يستطيع فيه الإنسان من التخلّص من العذاب بشراء السعادة والنعيم الخالد، ولا تنفع الصداقة حينئذ «مِّن قَبْلِ أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّابَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِللٌ».

ثم تتطرّق الآية إلى معرفة اللّه عن طريق نعمه، معرفة تؤدّى إلى إحياء ذكره فى القلوب، وتحثّ الإنسان على تعظيمه فى مقابل لطفه وقدرته، لأنّ من الامور الفطرية أن يشعر الإنسان فى قلبه بالحب والودّ لمن أعانه وأحسن إليه.

ويبيّن هذا الموضوع من خلال عدّة آيات «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ».

ثم أنّه «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» سواء من جهة موادها الأوّلية المتوفرة فى الطبيعة، أو من جهة القوة المحرّكة لها وهى الرياح التى تهب على البحار والمحيطات بصورة منتظمة لتسيير هذه السفن فتنقل الإنسان وما يحتاج إليه من منطقة إلى اخرى بيسر وسهولة: «لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» كى تسقوا من مائها زروعكم، وتشربوا أنتم وأنعامكم، وفى كثير من الأحيان تكون طريقاً للسفن والقوارب، وتستفيدون منها فى صيد الأسماك.

وليست موجودات الأرض- فقط- مسخّرةً لكم، بل «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ دَائِبَيْنِ».

وليست مخلوقات العالم بذاتها فقط، بل حتى الحالات العرضية لها هى فى خدمتكم:

«وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ* وَءَاتكُم مِّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» من احتياجاتكم البدنيّة والاجتماعية وجميع وسائل السعادة والرفاه «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا» لأنّ النعم المادية والمعنوية للخالق شملت جميع وجودكم وهى غير قابلة للإحصاء، وعلاوةً على ذلك فإنّ ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه كقطرة فى مقابل البحر.

وعلى الرغم من كل هذه الألطاف والنعم ف «إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع أن يجعل الدنيا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۷

حديقة غنّاء ولنفّذ مشروع المدينة الفاضلة.

إنّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحيث سخّر اللّه له جميع ما فى الوجود، إمّا أن يكون زمام امورها بيده أو تتحرّك

ضمن منافعه، وعلی أیّة حال فهذه العظمة جعلته من أشرف الموجودات.

إنّ القرآن الکریم ینادیه: أیّها الإنسان، کل شیء بالقدر الکافی تحت تصرفک، بشرط أن وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی وَ مَنْ عَصَانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۳۶) رَبَّنَا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِیُقِیمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ (۳۷) رَبَّنَا إِنَّکَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِی وَ مَا نُعْلِنُ وَ مَا یَخْفَی عَلَی اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ فِی الْأَرْضِ وَ لَا فِی السَّمَاءِ (۳۸) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمَاعِیلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّی لَسَمِیعُ الدُّعَاءِ (۳۹) رَبِّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوَالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسَابُ (۴۱) لا تکون ظلوماً کفاراً، علیک أن تقنع بحقک ولا تتجاوز علی حقوق الآخرین.

دعاء إبراهیم علیه السلام: لمّا کان الحدیث فی الآیات السابقة عن المؤمنین الصادقین والشاکرین لأنعم اللَّه، عقّبت هذه الآیات فی بحث بعض أدعیة وطلبات العبد المجاهد والشاکر للَّه إبراهیم علیه السلام لیکون هذا البحث تکملة للبحث السابق ونموذجاً حیّاً للذین یریدون أن یستفیدوا من النعم الإلهیة أفضل إستفادة. یقول تعالی: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِیمُ رَبّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِی وَبَنِیَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ».

لأنّه علیه السلام کان یعلم حجم البلاء الکبیر الکامن فی عبادة الأصنام، ویعلم کثرة الذین ذهبوا ضحیّةً فی هذا الطریق: «رَبّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیرًا مِنَ النَّاسِ». فأیّ ضلال أکبر من هذا الضلال الذی یفقد الإنسان فیه حتی عقله وحکمته.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۸

إلهی إنّنی أدعو إلی توحیدک، وأدعو الجمیع إلی عبادتک «فَمَن تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنّی وَمَن عَصَانِی فَإِنَّکَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ». إنّ إبراهیم علیه السلام أراد بهذه العبارة أن یقول للَّه‌تعالی: إنّه حتی لو انحرف أبنائی عن مسیرة التوحید واتّجهوا إلی عبادة الأصنام فإنّهم لیسوا منّی، ولو کان غیرهم فی مسیرة التوحید فهم أبنائی وإخوانی.

ثم یستمر بدعائه ومناجاته: «رَبَّنَا إِنّی أَسْکَنتُ مِن ذُرّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِندَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِیُقِیمُوا الصَّلَوةَ».

وکان ذلک عندما رزقه اللَّه إسماعیل من جاریته «هاجر» فأثار ذلک حسد زوجته الاولی «سارة» ولم تستطع تحمل وجود هاجر وإبنها، فطلبت من إبراهیم أن یذهب بهما إلی مکان آخر، فإستجاب لها إبراهیم طبقاً للأوامر الإلهیة، وجاء بإسماعیل وامّه إلی صحراء مکة القاحلة، ثم ودّعهم وذهب.

ثم یتابع إبراهیم علیه السلام دعاءه: إلهی، إنّ أهلی قد سکنوا فی هذه الصحراء المحرقة إحتراماً لبیتک المحرّم: «فَاجْعَلْ أَفِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ».

ومن هنا لمّا کان الإنسان الموحّد والعارف یعلم بمحدودیة علمه فی مقابل علم اللَّه، وأنّه لا یعلم مصلحته إلّااللَّه تعالی، فما أکثر ما یطلب شیئاً من اللَّه ولیس فیه صلاحه، أو لا یطلبه وفیه صلاحه، وأحیاناً لا یستطیع أن یقوله بلسانه فیضمره فی أعماق قلبه، ولذلک یعقّب علی ما مضی من دعائه ویقول: «رَبَّنَا إِنَّکَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِی وَمَا نُعْلِنُ وَمَا یَخْفَی عَلَی اللَّهِ مِن شَیْءٍ فِی الْأَرْضِ وَلَا فِی السَّمَاءِ».

فإن کنت مغتمّاً لفراق إبنی وزوجتی فأنت تعلم بذلک ... وتری دموع عینی المنهملة.

وعندما فارقت زوجتی وقالت لی: «إلی من تکلنی» فأنت أدری بها وبمستقبلها ومستقبل هذه الأرض.

ثم یشیر القرآن إلی شکر إبراهیم علیه السلام لنعمه تعالی والتی هی من أهمّ ما إمتاز به علیه السلام شکره علی منحه ولدین بارّین إسماعیل وإسحاق وذلک فی سنّ الشیخوخة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی وَهَبَ لِی عَلَی الْکِبَرِ إِسْمعِیلَ وَإِسْحقَ». نعم «إِنَّ رَبّی لَسَمِیعُ الدُّعَاءِ».

ثم یستمرّ بدعاءه ومناجاته أیضاً فیقول: «رَبّ اجْعَلْنِی مُقِیمَ الصَّلَوةِ وَمِن ذُرِّیَّتِی رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۹

ثم يختم دعاءه هنا فيقول: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ».

وبهـذا الترتيب فإنّ دعواته تبـدأ بالأمن وتنتهى بالعفو والغفران، ومن الطريف أنّه لم يطلبها لنفسه فقط، بل للآخرين كذلك، لأنّ عباد الرحمن ليسوا أنانيين. وَ لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (۴۲) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (۴۳) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (۴۴) وَ سَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (۴۵) اليوم الـذى تشخص فيه الأبصار: كان الحديث فى الآيات السابقة عن يوم الحساب، وبهذه المناسبة تجسّم هـذه الآيات حال الظالمين والمتجبرين فى ذلك اليوم، ثم تبيّن المسائل المتعلقة بالمعاد وتكمل الحديث السابق حول التوحيد وتبدأ فى تهديد الظالمين: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».

وهـذا فى‌الواقع جواب لُاولئك الـذين يقولون: إذا كان لهـذا العالم إله عادل فلماذا يترك الظالمين وحالهم؟ هل هو غافل عنهم أم لا يستطيع أن يمنعهم وهو يعلم بظلمهم؟

فيجيب القرآن الكريم على ذلـك بـأنّ اللّه ليس غافلًا عنهم أبـداً، لأنّ عـدم عقابهم مباشـرةً هو أنّ هـذا العالم محلّ الامتحان والاختبار وتربيـة النـاس، وهـذا لاـ يتمّ إلّافى ظـل الحريـة، وسوف يـأتى يوم حسـابهم «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رَءُوسِهِمْ لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِدَتُهُمْ هَوَاءٌ».

«تشخص»: من مادة «الشخوص» بمعنى توقف العين عن الحركـة والنظر إلى نقطـة بدهشـة؛ و «مهطعين»: من مادة «إهطاع» بمعنى رفع الرقبة؛ و «مقنعى»: من مادة «الإقناع» بمعنى رفع الرأس عالياً.

إنّ بيان هـذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعين، مقنعى رؤوسهم، لا يرتـدّ إليهم طرفهم، أفئـدتهم هواء، صورة بليغة لهول وشدّة ذلك اليوم على الظالمين الذين كانوا يستهزئون بكل شىء، وأصبحوا فى هذا اليوم لا يستطيعون حتى تحريك أجفان أعينهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۰

مختصر الامثل ج۳ ۶۳

فهؤلاـء كانوا يعتقـدون بكمال عقولهم ويعـدّون الآخرين من الحمقى، فأصـبحوا اليوم مدهوشـين لدرجـة أنّ نظرهم نظر المجانين، بل الأموات ... نظر جاف عديم الروح وملىء بالرعب والفزع .... نعم، عندما يريد القرآن الكريم أن يصوّر منظراً أو يجسّم موقفاً يستخدم أقصر العبارات فى أكمل بيان كما فى الآية أعلاه.

ولكى لا يعتقد أحد أنّ هذه المجازات تتعلق بمجموعة معينة، يقول تعالى لنبيه الكريم:

«وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ تَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ» حتى نستفيد من هذه الفرصة ثم «نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ» ولكن هيهات إنّ ذلك محال «أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمُ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ». فكـلّ هـذه الـدروس لم تؤثّر بكم وأدمتم ظلمكم وجوركم، والآن وبعـد أن وقعتم فى يد العدالة تطلبون تمديد المدّة؟ لقد إنتهى كل شىء.

وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (۴۶) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (۴۷) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (۴۸) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (۴۹) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (۵۰) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۵۱) هذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (۵۲) لا فائدة من مكرهم: أشارت الآيات السابقة إلى نوع من عقاب الظالمين، وفى هـذه الآيات أيضاً أشارت- أوّلًا- إلى جزء من أفعالهم، ومن ثم إلى قسم آخر من جزائهم الشديـد وعقابهم الأليم. تقول الآيـة الاولى: «وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ».

لقـد عملوا کل ما بوسـعهم من أجل طمس حقائق الإسـلام، بـدءً من الترغیب والتهدیـد وحتی الأذی ومحاولات القتل والإغتیال وبثّ الشائعات، ومع کل ذلک فإنّ اللَّه مطلع علی

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۱

جمیع مؤامراتهم وقـد أحصـی أعمالهم: «وَعِنـدَ اللَّهِ مَکْرُهُمْ». فلا تقلق فإنّهم لا یسـتطیعون بمکرهم هذا أن یصـیبوک بسوء حتی «وَإِن کَانَ مَکْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ».

«المکر»: بمعنی الإحتیال، فمرّةً یلازمه الفساد ومرّةً اخری لا یلازمه، والمراد بکون مکرهم عند اللَّه إحاطته تعالی به بعلمه وقدرته.

ثم یتوعّـد اللَّه الظالمین والمسیئین مرّة اخری من خلال مخاطبـة النبی صـلی الله علیه و آله: «فَلَا تَحْسَـبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُـلَهُ» لأنّ الإخلاف یصدر من الذی لیست له قدرة واستطاعة، ولکن:

«إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ ذُو انتِقَام».

وهذه الآیة مکمّلة للآیة التی قبلها «وَلَا تَحْسَـبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا یَعْمَلُ الظَّالِمُونَ». وتعنی أنّ المهلة التی أعطیت للظالمین لیست بسبب أنّ اللَّه غافل عنهم وعن أعمالهم ولا مخلف لوعده، بل سینتقم منهم فی الیوم المعلوم.

ثم یضـیف تعـالی: «یَوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَالسَّموَاتُ». وسوف یتجـدّد کل شـیء بعـد الـدمار، ویبعث الإنسان فی خلق جـدید وعـالم جدیـد یختلف فی کـل شـیء عن هـذا العـالم، فی سـعته، فی نعیمه وعقـابه وسـیظهر الإنسان بکل وجوده للّه‌تعالی: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

معنی بروز النـاس للّه‌تعـالی، إنکشـاف بواطن وظواهر جمیع النـاس فی یوم المحشـر، فـالظهور بالقیـاس إلی علمنـا ولیس إلی علم اللَّه المطلق.

ووصفه بالقهّار دلیل علی تسلطه علی کل الأشیاء وسیطرته علی ظاهرها وباطنها.

وتصوّر الآیة التالیة کیفیة بروزهم إلی اللَّه فتقول: «وَتَرَی الْمُجْرِمِینَ یَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفَادِ».

«الأصفاد»: جمع «صفد» بمعنی الغلّ؛ و «مقرنین»: من مادة «القرن والإقتران» بمعنی الأشخاص المتقاربین مع بعضهم البعض.

إنّ هذا الغِل هو عبارة عن تجسـید للروابط العملیة والفکریة بین المجرمین فی هذه الدنیا، حیث کان یساعد بعضـهم البعض علی الظلم والفساد، وتتجسّد هذه العلاقة فی الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فیما بینهم.

ثم یتطرّق القرآن الکریم إلی لباسهم والذی هو أحد أفراد المجازاة الشدیدة: «سَرَابِیلُهُم مّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَی وُجُوهَهُمُ النَّارُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۲

«سـرابیل»: جمع «سـربال» علی وزن «مثقال» بمعنی القمیص من أی قماش کان. و «قطران»: بفتح القاف وسـکون الطاء أو بکسر القاف وسـکون الطاء، وهی مادةً تؤخـذ من شـجرة الأبهل ثم تُغلی فتثخن وتُطلی بها الإبل عنـد إصابتها بمرض الجرب، فهی مادة سوداء نتنة وقابلة للإشتغال.

وعلی هـذا أنّهم یلبسون ثیاباً من مـادة سوداء ونتنـة وقابلـة للإشـتعال، حیث تمثّـل أسوأ الألبسـة لمـا کانوا یعملونه فی هـذه الـدنیا من إرتکـاب الـذنوب والفواحش. وسوادهـا یشـیر إلی أنّ الـذنوب تؤدّی إلی أن یکون الإنسـان مسودّ الوجه أمـام ربّه، وتعفّنها یشـیر إلی تلوّث المجتمع بهم ومساعدتهم علی إشعال نار الفساد، وکأنّ القطران تجسید لأعمالهم فی الدنیا.

کـل ذلـک لأجـل «لِیَجْزِیَ اللَّهُ کُـلَّ نَفْسٍ مَا کَسَـبَتْ». ومن الطریف أنّه لم یقل أنّ الجزاء بما کسـبت أنفسـهم، بل یقول: «ما کسـبت» لیکون تجسیداً حیّاً لأعمالهم، وهذه الآیة بهذا التعبیر الخاص دلیل آخر علی تجسّم الأعمال.

وفی الختام یقول تعالی: «إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ». وهذا واضح تماماً لأنّ کل إنسان حسابه معه.

وورد فی الخبر: «إنّ اللَّه تعـالی یحـاسب الخلائق کلهم فی مقـدار لمـح البصـر». ولا ریب أنّ اللَّه تعالی لا یحتاج إلی وقت لمحاسـبة

الأفراد، وما جاء فى الرواية أعلاه إشارة إلى أقصر الفترات.

وبما أنّ آيات هذه السورة- وكذلك جميع الآيات- لها جانب الدعوة إلى التوحيد وإبلاغ الأحكام الإلهية إلى الناس وإنذارهم، يقول تعالى فى آخر آية من هذه السورة: «هذَا بَلَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَبِ».

بداية وختام سورة إبراهيم: وكما رأينا فإنّ سورة إبراهيم ابتدأت فى بيان دور القرآن الكريم فى إخراج الناس من الظّلمات إلى نور العلم والتوحيد، وانتهت فى بيان دور القرآن فى إنذار الناس وتعليمهم التوحيد.

إنّ هذه البداية والنهاية تبيّن هذه الحقيقة، وهو أنّ كل ما نحتاجه موجود فى هذا القرآن، حيث يقول الإمام على عليه السلام: «هو ربيع القلوب وينابيع العلم» ... «فاستشفوه من أدوائكم»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٣

وهذا البيان دليل على خلاف ما يراه بعض المسلمين من أنّ القرآن الكريم كتاب مقدس يقتصر وجوده فى ترتّب الثواب لقارئه. بل هو كتاب شامل لجميع مراحل الحياة الإنسانية.

كتاب رشد وهداية ودستور للعمل، فهو يذكّر العالِم ويستلهم منه عموم الناس.

إنّ هجران القرآن الكريم وإتّخاذ المبادىء المنحرفة الشرقية منها والغربية، أحد العوامل المهمة فى تأخّر المسلمين.

«نهاية تفسير سورة إبراهيم»

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٥

١٥. سورة الحجر

محتوى السورة: المشهور عند جلّ المفسرين أنّ سورة الحجر مكية، وهى السورة الثانية والخمسون من السور التى نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى مكة المكرمة.

ويمكننا تلخيص ما حوته السورة فى سبع نقاط:

١- الآيات المتعلقة بمبدأ عالم الوجود، والإيمان به من خلال التدبّر فى أسرار الإيجاد.

٢- الآيات المتعلقة بالمعاد وعقاب الفجرة الفسقة.

٣- أهمية القرآن باعتباره كتاباً سماوياً.

٤- محاولة إيقاظ وتنبيه البشر من خلال طرح قصّة خلق آدم، وتمرّد إبليس، وتبيان عاقبة التمرد.

٥- زيادة فى محاولة الإيقاظ والتنبيه من خلال عرض القصص القرآنى لما جرى لأقوام لوط وصالح وشعيب عليهم السلام.

٦- إنذار وبشارة، مواعظ لطيفة وتهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغّبات المشوّقة.

٧- مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله لتقوية صبره وثباته قبال ما يحاك من دسائس.

وقد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التى ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، وهى السورة الوحيدة فى القرآن التى ذكرتهم بهذه التسمية.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٤٦

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (۴) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (۵) سورة اخرى تفتتح بالحروف المقطعة «الر» لتبيّن من جديد أنّ مفردات كتاب نور السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هى إلّاعين تلك الأبجدية التى تلوك ألفاظها ألسن كل البشر، صغيرهم وكبيرهم، بين مختلف اللغات، ومع ذلك فلا يستطيع أى مخلوق الوصول لبناء وتركيب كلام القرآن، وهو

ذروة التحدى الربانى المعجز، وعليه فقد جاءت «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ» مباشرة، لأنّه يظهر الحقائق ويبيّن الحق من الباطل.

ثم يحذّر الذين يصرّون على الفساد ومخالفة آيات اللّه الجليّة، ويخبر بأنّهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر وتعصب أعمى وعناد. ويقول:

«رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ».

فالمراد بكلمة «يودّ» التمنى وذكر كلمة «لو» للدلالة على تمنّيهم الإسلام فى وقت لا يمكنهم فيه العودة إلى ما كانوا ينكرون، وهذه إشارة إلى أنّ تمنيهم سيكون فى العالم الآخر وبعد معاينة نتائج الاعمال.

يمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين فى كلا ـ العالمين (الدنيا والآخرة)، واعتبار عدم استطاعتهم العودة إلى الإسلام فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة لجهات مختلفة.

ثم يأتى نداء السماء بلهجة لاذعة، يا محمّد: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ». فهم كالأنعام التى لا تعرف سوى الحقل والعلف، ولا تفهم سوى اللذات المادية، وكل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف وتفهم.

إنّهم لا يدركون فقه الحقائق، لأنّ حجب الغرور والغفلة والأمانى الزائفة ختمت على قلوبهم.

و لكن، عندما يصفع الأجل وجوههم وترتفع تلك الحجب عن أعينهم، وحينما يجدون

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۴۷

أنفسهم أمام الموت أو فى عرصة يوم القيامة، هنالك سيدركون عظمة حجم غفلتهم ومدى خسرانهم، وكيف أنّهم قد ضيّعوا أغلى ما كانوا يملكون.

الآية التالية توضّح محدودية اللذائذ الدنيوية لكى لا يظن أحد إنّها خالدة فتقول: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ».

ثم يقول تعالى: «مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ».

فقد سرت سنّة البارى جلّ شأنه بأن يعطى المدّة الكافية لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارة، وبفيوضات الرخاء تارة اخرى، فمن لا تنفعه البشارة يأتيه الإنذار وهكذا، كل ذلك إتماماً للحجة عليهم.

وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (۸) طلب نزول الملائكة: تبتدىء الآيات بتبيان موقف العداء الأعمى والتعصب الأصم للقرآن الحكيم والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله من قبل الكفار، فتقول: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ».

ومن خلال كلامهم يظهر بجلاء مدى وقاحتهم وسوء الأدب الذى امتازوا به حين مخاطبتهم للنبى صلى الله عليه و آله.

الملفت فى التهم الموجهة إلى أنبياء اللّه تعالى أنّها تحمل بين طيّاتها تضاداً واضحاً يُلمس بأدنى تدبّر، ففى الوقت الذى يرمون النبى بالجنون يعودون ويقولون عنه: إنّه لساحر، فمع أنّ الساحر لابدّ له من الذكاء والنباهة، فهل يعقل أن يكون الساحر، مجنوناً؟!

إنّهم لم يكتفوا بنسبة الجنون إلى النبى صلى الله عليه و آله بل تحججوا قائلين: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

فيجيبهم البارى جلّ شأنه: «مَا نُنَزِّلُ الْمَلِكَةَ إِلَّا بِالْحَقّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ».

وبعبارة اخرى: فالإعجاز ليس أمراً ترفيهياً يناغى تصوّرات الأخرين بقدر ما هو حجّة إلهية لإثبات الحق وإماطة الباطل.

وقد أشبعت هذه الحقيقة بصورة وافية لمن يرى النور نوراً والظلام ظلاماً من خلال ما أوصله نبى الخاتم صلى الله عليه و آله عن طريق القرآن والمعاجز الاخرى.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۴۸

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۹) حفظ القرآن من التحريف: بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار واستهزاءهم بالنبى صلى الله عليه و آله والقرآن، تأتى هذه الآية المباركة لتواسى قلب النبى صلى الله عليه و آله من جهة ولتطمئن قلوب المؤمنين

المخلصين من جهة اخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا وهى حفظ القرآن من التلاعب والتحريف: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ». فبناء هذا القرآن مستحكم وشمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، ومصباح هديه أبدىّ الإنارة، ولو اتحد أعتى جبابرة التاريخ وطغاته وحكّامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء، ومزوّدين بأقوى الجيوش عدّة وعتاداً، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبّار سبحانه تعهد بحفظه وصيانته.

وقد اختلف المفسرون فى دلالة (حفظ القرآن) فى هذه الآية المباركة، والصحيح، وفقاً لظاهر الآية المذكورة، أنّ اللَّه تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحى: من التحريف، من التلف والضياع، ومن سفسطات الأعداء المزاجية ووساوسهم الشيطانية.

المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين، أنّ القرآن لم يتعرض لأىّنوع من التحريف، وأنّ الذى بين أيدينا هو عين القرآن الذى نزل على صدر الحبيب محمّد النبى صلى الله عليه و آله. فلا زيادة أو نقصان، حتى بكلمة واحدة، أو بحرف واحد.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (۱۰) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۱۱) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۱۲) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵) العناد والتعصب: تواسى الآيات قلب النبى صلى الله عليه و آله وقلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب فى طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة والمتعصبة. فتقول أوّلًا: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ».

ولكنّهم من العناد والتعصب لدرجة: «وَمَا يَأْتِيهِم مّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ذلك الاستهزاء وتلك السخرية لاعتبارات عدّة:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۹

- مرة، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النبى كى لا يؤثّر فى أوساط الفئة الواعية.
- واخرى، يحاولون بالإستهزاء تغطية ضعفهم وعجزهم أمام المنطق القوى والحجج الدامغة لرسل اللَّه عزّ وجلّ.
- واخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح فى المتاهات كى لا يصحوا على حين غرّة فيعتنق الحق وينهض بأعباء مسؤوليته.
- وأخيراً، فقبولهم لدعوة الأنبياء عليهم السلام- حسب تصورهم- يستلزم تقويضاً لكل شهواتهم الدنيوية، وتحميلهم وظائف جديدة لا يطيقونها، فليجؤون للإستهزاء لتبرير إعراضهم وانكارهم وإراحة ضمائرهم.

ثم يقول جلّ وعلا: «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ». أى: نوصل الآيات القرآنية إلى أعماق وجدانهم وعقولهم.

ومع وضوح البلاغ والتأكيد وبيان المنطق الربانى وإظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزئين «لَايُؤْمِنُونَ بِهِ» وهو ليس بجديد «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ».

ويصل أمر الغارقين فى شهواتهم والمصرّين فى عنادهم على الباطل إلى أنّهم لا يؤمنون حتى «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ». ومع ذلك «لَقَالُوا إِنَّمَا سُكّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ».

عجباً، أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد والتعصب.

إنّ الذنوب والجهل ومعاداة الحق تؤثّر على الروح الطاهرة والفطرة السليمة، فتحجبهما عن رؤية وجه الحقيقة الناصع، وتمنعهما من إدراك الحقائق، وإذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب وإزالة الموانع، فإنّ صورة الحق ستتلوّث فى نظره فينكر كل ما هو معقول ومحسوس معاً، ومن الممكن تطهير الفطرة فى المراحل الاولى، ولكن إذا رسخت فى قلبه هذه الحالة وتجذّرت وأمست «ملكة» وصفة أخلاقية، فلا يمكن ازالتها بسهولة، وعندها سوف لا تترك أقوى الأدلة العقلية ولا أوضح الأدلة الحسية أىّ تأثير فى قلبه.

وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (۱۶) وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (۱۷) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ

(۱۸) تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات لتعميق معرفة وتوحيد اللَّه، وبسياقها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۰

جاءت تكملةً لبحثى القرآن والنبوة المذكورين فى الآيات السابقة. قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» ويعنى «الظهور» ولهذا يطلق على البيت الذى يبنى فى سور المدينة أو على سور الحصن الذى يعتصم به المقاتلون، وذلك لما له من بروز وارتفاع خاص.

ويقال كذلك (تبرجت) للمرأة التى تظهر زينتها.

والبروج السماوية: هى منازل الشمس والقمر. وبعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس والقمر بإمعان فسنراها فى كل فصل من فصول السنة ولفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إنّ الشمس فى برج الحمل «۱»- مثلًا- أو الثور أو الميزان أو العقرب أو القوس.

ويعتبر وجود الأبراج السماوية، وكذلك النظام الدقيق فى حركة منازل الشمس والقمر ضمن هذه البروج (وهو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)، من الأدلة الواضحة على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا.

ثم يضيف: «وَزَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ».

ويضيف فى الآية التالية: «وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ».

إنّ المقصود من السماء هو سماء الحق والحقيقة، وأنّ الشياطين ذوى الوساوس يحاولون أن يجدوا سبيلًا لاختراق السماء واستراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، ولكن النجوم والشهب (وهم القادة الربانيون من الأنبياء والأئمة والعلماء) يبعدونهم ويطردونهم بالعلم والتقوى.

وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (۱۹) وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (۲۰) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۱) وإتماماً لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، ومظاهر عظمة البارى على وجه البسيطة، ويبدأ بنفس الأرض «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا».

---

(۱) «الحمل»: مجموع منظومات شمسية تظهر فى السماء على هيئة الحمل تقريباً. وكذلك الثور والميزان وغيرها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۱

«المد»: فى الأصل بمعنى التوسعة والبسط، ومن المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء.

ثم يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّة كآية من آيات التوحيد: «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ».

عبّر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، ولعلّ المراد ب «إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد).

ومن بديع خلق الجبال إضافةً إلى كونها أوتاداً لتثبيت الأرض وحفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلى، فإنّها تقف كالدرع الحصين فى مواجهة قوّة العواصف، بل وتعمل على تنظيم حركة الهواء وتعيين اتجاهه، ومع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج وعيون.

ثم ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياة البشرية والحيوانية، ألا وهو النبات:

«وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ».

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، وكل تحمل خواصاً معينة ولها من الآثار ما يميّزها عن غيرها، وهى باب لمعرفة البارىء المصوّر جلّ شأنه، وكل ورقة منها كتاب ينطق بمعرفة الخالق.

وبما أنّ وسائل وعوامل حياة الإنسان غير منحصرة بالنبات والمعادن فقط، ففى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب

بقوله: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحيّة حتى الخارجة عن مسؤوليتكم «وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ».

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش»: جمع «معيشة» وهى الوسائل والمستلزمات التى تتطلبها حياة الإنسان، والتى يحصل عليها بالسعى تارة، وتأتيه بنفسها تارة اخرى.

أمّا آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحوى جواباً لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، وهو: لماذا لم تهيّأ النعم والأرزاق بما لا يحتاج إلى سعى وكدح؟! فتنطق الحكمة الإلهية جواباً: «وَإِن مّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُوم». فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاد ما نملك، وإنّما منبع ومخزن وأصل كل شىء تحت أيدينا، وليس من الصعب علينا خلق أىّ شىء وبأىّ وقت يكون، ولكن الحكمة إقتضت أن يكون كل شيء فى هذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۲

الوجود خاضعاً لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنّما تنزل إليكم بقدر. ونقرأ فى الآية (۲۷) من سورة الشورى: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلكِن يُنَزّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ».

إنّ السعى والكدح فى صراع الحياة يضفى على حركة الإنسان، الحيوية والنشاط، وهو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة ومشروعة لتشغيل العقول وتحريك الأبدان، فإنّه يطرد الكسل ويمنع العجز ويحيى القلب للتحرك والتفاعل مع الآخرين. وإذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الربانى، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟

والفقر والغنى من البلاء الذى يدخل ضمن مخطط التمحيص والإمتحان، فكما أنّ الفقر والعوز قد يجرّان الإنسان نحو هاوية السقوط فى مهالك الانحراف، فكذلك الغنى فى كثير من حالاته يكون منشأً للفساد والطغيان.

وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (۲۲) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (۲۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۲۵) دور الرياح والأمطار: بعد أن عرض القرآن الكريم فى الآيات السابقة قسماً من أسرار الخليقة والنعم الإلهية كخلق الأرض والجبال والنباتات وما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير فى أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح وما لها من آثار فى عملية نزول المطر، فيقول: «وَأَرْسَلْنَا الرّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ».

«لواقح»: جمع «لاقح» .. وهى تشير هنا إلى دور الرياح فى تجميع قطع السحاب مع بعضها لتهيئة عملية سقوط الأمطار.

ويمكن حمل «مَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ» على أنّها إشارة لخزن ماء المطر فى السحب قبل نزوله، أى: إنّكم لا تستطيعون استملاك السحب التى هى المصدر الأصلى للأمطار.

ويمكن حملها على أنّها إشارة إلى جمع وخزن الأمطار بعد نزولها، أى إنّكم لا تقدرون

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۳

على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعد نزوله، وأنّ اللَّه عزّ وجلّ هو الذى يحفظها ويخزنها على قمم الجبال بهيئة ثلوج، أو ينزلها فى أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيوناً وآباراً.

ثم ينتقل من مظاهر توحيد اللَّه إلى المعاد ومقدماته: «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ». فيذكر مسألة الحياة والموت التى تعتبر من أهمّ المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكمّلات موضوع التوحيد، بالإضافة إلى أنّ وجود الحياة والموت بحد ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عمّا هو بأيديها، وأنّ الوارث الحقيقى لكل شىء هو اللَّه تعالى.

ثم يضيف: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِرِينَ». أى: نحن على علم بهم وبما يعملون، وإنّ أمر محاسبتهم وجزائهم فى المعاد علينا سهل يسير.

ولهذا نرى الآية التى تليها: «وَإِنَّ رَبَّکَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَکِيمٌ عَلِيمٌ». مرتبطة تماماً مع ما قبلها ومتمّمة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت ... فحكمة البارى أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكل شيء.

فلو أنّ الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة وينتهى كل شيء بالموت لكانت عملية الخلق عبثاً، وهذا غير معقول، لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمة الإلهية اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة إستعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق». وأمّا كونه سبحانه عليماً فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة فى قلب هذا العالم الطبيعى من جهة، وكذلك فى اعماق وجود الانسان من جهة اخرى، ولا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

وكونه سبحانه الحكيم العليم فى هذا المورد دليل قوى وعميق الغور على مسألة الحشر والمعاد.

إنّ كلمة «المستقدمين» و «المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين والمتأخرين من حيث الزمان، وكذلك من حيث أعمال الخير والجهاد وحتى الحضور فى الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة وما شابهها.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۵۵۴

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢۶) وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُوم (٢٧) وَ إِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَکَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّکَ رَجِيمٌ (٣۴) وَ إِنَّ عَلَيْکَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣۵) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣۶) قَالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوم (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۴٠) قَالَ هذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (۴١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغَاوِينَ (۴٢) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴) خلق الإنسان: بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات اللّه فى الآيات السابقة، تأتى هذه الآيات لتبيّن أنّ الهدف الأساسى من إيجاد كل الخليقة إنّما هو خلق الإنسان، وتتطرق الآيات إلى جزئيات عديدة فى شأن الخلق، زاخرةً بالمعانى. يقول تعالى فى البداية: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصلٍ مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ». «الصلصال»: هو التراب اليابس الذى لو اصطدم به شيء أحدث صوتاً ... و «الحمأ المسنون»: هو طين متعفن.

«وَالْجَانَّ خَلَقْنَهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُوم». «السّموم» لغة: الهواء الخارق، وسمى بالسموم لأنّه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان.

ثم يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرّة اخرى فيتعرض إلى كلام اللّه تعالى مع الملائكة قبل خلق الإنسان: «وَإِذْ قَالَ رَبُّکَ لِلْمَلَكَةِ إِنّى خلِقٌ بَشَرًا مّن صَلْصلٍ مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى». وهى روح شريفة طاهرة جليلة: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۵۵۵

وبعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم والروح المناسبين «فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ».

ولم يعص هذا الأمر إلّا إبليس: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ».

وهنا سأل اللّه إبليس: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَکَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ».

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقاً فى بحر الغرور المظلم، وتائهاً فى حبّ النفس المقتم، وبعد أن غطّى حجاب الخسران عقله ... أجاب بوقاحة: «قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ».

ونتيجة للغرور وحبّ النفس، فقد جهل أسرار الخليقة، وكنتيجة طبيعية لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون فى درجة الملائكة وبين صفوفهم، فجاء الأمر الإلهى مقرعاً: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّکَ رَجِيمٌ». أى: اخرج من الجنة، أو من السماوات أو اخرج من بين صفوف الملائكة.

واعلم يا إبليس بأنّ غرورك أصبح سبباً لكفرك، وكفرك قد أوجب طردك الأبدى «وَإِنَّ عَلَيْکَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدّينِ». أى: إلى يوم القيامة.

وهنا ... حينما وجد إبليس نفسه مطروداً من الساحة الإلهية، ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد والضغينة فى قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم عليه السلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقيقى يرجع إلى إبليس نفسه وليس لآدم دخل فى ذلك، إلّاأنّ غروره وحبّه لنفسه وعناده المستحكم لم يعطياه الفرصة لدرك حقيقة شقاءه، ولهذا «قَالَ رَبّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، ليركّز عناده وعداءه!

وقبل اللَّه تعالى طلبه: «قَالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنظَرِينَ».

ولكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد، بل «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ». وهو: نهاية هذا العالم وانتهاء التكليف، لأنّ بعد ذلك (كما يفهم من ظاهر الآيات القرآنية) تحلّ نهاية حياة جميع الكائنات، ولا يبقى حىّ إلّاالذات الإلهية المقدسة، ومن هذا نفهم حصول الموافقة على بعض طلب إبليس.

وهنا أظهر إبليس نيّته الباطنية: «قَالَ رَبّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى». وكان هذا الإنسان سبباً لشقائى «لَأُزَيّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ» نعمها المادية «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» بإلهائهم بتلك النعم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۶

إلّا أنّه يعلم جيّداً بأنّ وساوسه سوف لن تؤثّر فى قلوب عباد اللَّه المخلصين، وأنّهم متحصنون من الوقوع فى شباكه، لأنّ قوة الإيمان ودرجة الإخلاص عندهم بمكان يكفى لدرء الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم ... ولهذا نراه قد استثنى فى طلبه «إِلَّا عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». «المخلصين»: جمع مخلَص (بفتح اللام) المؤمن الذى وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان والعمل بعد تعلّم وتربية ومجاهدة مع النفس، فيكون ممتنعاً من نفوذ وساوس الشيطان وأىّ وسواس آخر.

ثم قال تعالى تحقيراً للشيطان وتقوية لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: «قَالَ هذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغَاوِينَ». يعنى: يا إبليس ليس لك القدرة على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلّا المنحرفين عن الصراط المستقيم والمستجيبين لدواعى رغباتهم وميولهم.

ثم يهدد اللَّه بشدة أتباع الشيطان: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ» وأن ليس هناك وسيلة للفرار، والكل سيحاسب فى مكان واحد. «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لّكُلّ بَابٍ مّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ». هى أبواب للذنوب التى يدخلون جهنم بسببها، وكل يحاسب بذنبه ... كما هو الحال فى أبواب الجنة التى هى عبارة عن طاعات وأعمال صالحة ومجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۴۵) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (۴۶) وَ نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (۴۷) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (۴۸) نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۴۹) وَ أَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (۵۰) نِعم الجنة الثمان: رأينا فى الآيات السابقة كيف وصف اللَّه تعالى عاقبة أمر الشيطان وأنصاره وأتباعه، وأنّ جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم. وجرياً على أسلوب القرآن فى التربية والتعليم جاءت هذه الآيات المباركات (ومن باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنة وأهلها وما ترفل به من نعم مادية ومعنوية، جسدية وروحية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۷

وقد عرضت الآيات ثمانية نعم كبيرة (مادية ومعنوية) بما يساوى عدد أبواب الجنة.

۱- أشارت فى البدء إلى نعمة جسمانية مهمة: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ». ويلاحظ أنّ هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساساً لها، وهى الخوف من اللَّه والورع والالتزام، فهى إذن ... جامعة لكافّة صفات الكمال الإنسانى.

إنّ ذكر الجنات والعيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوّع رياض الجنة وكثرة عيونها، والتى لكل منها لذّة مميزة وطعم خاص.

۲ و ۳- ثم تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمتين أخريتين (السلامة) و (الأمن) ..

السلامة من أىّ أذىً وألم، والأمن من كل خطر، فتقول- على لسان الملائكة مرحّبة بهم-:

«ادْخُلُوهَا بِسَلمٍ ءَامِنِينَ».

وفى الآية التالية بيان لثلاث نعم معنوية اخرى:

۴- «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ». أى: الحسد والحقد والعداوة والخيانة.

۵- «إِخوانًا» تربطهم أقوى صلات المحبة.

۶- «عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ».

إنّ جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التى يُعانى منها عالمنا الدنيوى، فلا طبقية ولا ترجيح بدون مرجّح والكلّ إخوان، يجلسون متقابلين فى صف واحد ومستوى واحد.

۷- ثم تأتى الإشارة إلى النعمة المادية والمعنوية السابعة: «لَايَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ» إنّه ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب ونصب قبله وبعده، ولا يدع الإنسان يجد طعم الراحة والاستقرار.

۸- ولا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نِعم «وَمَا هُم مّنْهَا بِمُخْرَجِينَ».

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التى ينالها المتقون فى الجنة بذلك الرونق المؤثّر الذى يوقع المذنبين والعاصين فى بحار لجّية من الغمّ والحسرة ويجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح اللَّه الرحمن الرحيم أبواب الجنة لهم ولكن بشرط، فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبة والعطف والرحمة وعلى لسان نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله: «نَبِّئْ عِبَادِى أَنّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وكما هو معهود من الأسلوب القرآنى، تأتى العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب والعذاب الإلهى لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهية، ولتوجد التعادل بين مسألتى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۸

الخوف والرجاء، الذى يعتبر رمز التكامل والتربية فيقول وبدون فاصلة: «وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ».

وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (۵۳) قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (۵۵) قَالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (۵۶) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۵۸) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۹) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (۶۰) الضيوف الغرباء: تتحدث هذه الآيات المباركات وما بعدها عن الجنبة التربوية فى تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، وتطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد اللَّه المخلصين من طرف وأتباع الشيطان من طرف آخر).

ومن لطيف البيان القرآنى شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم. فتقول أوّلًا:

«وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرهِيمَ».

وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم عليه السلام بوجوه خالية من الإبتسامة، فابتدأوه بالسلام «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلمًا».

فقام إبراهيم عليه السلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهيّأ لهم طعاماً ووضعه أمامهم، إلّاأنّهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبّر عمّا جال فى خاطره «قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ». وكان مصدر خوف إبراهيم عليه السلام مما كان عليه متعارفاً فى مسألة ردّ الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نيّة سوء أو علامة عداء.

ولكن الملائكة لم يتركوا ابراهيم فى هذا الحال حتى: «قَالُوا لَاتَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَمٍ عَلِيمٍ». والغلام العليم: هو (إسحاق)، حيث نقرأ فى سورة هود الآية (۷۱) أنّ امرأة إبراهيم كانت واقفة بقربه عندما بشّرته الملائكة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۹

كان إبراهيم يعلم جيّداً أنّه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (ومع أنّ كل شيء مقدور للّهعزّ وجل)، ولهذا أجابهم بصيغة التعجب: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ». هل البشارة منكم أم من اللّه عزّ وجل وبأمره، أجيبونى كى أزداد اطمئناناً؟

وعلى أية حال ... لم يدع الملائكة مجالًا لشك وتعجب إبراهيم حيث «قَالُوا بَشَّرْنكَ بِالْحَقِّ». فهى بشارة من اللّه وبأمره، فهى حق مسلّم به.

وتأكيداً للأمر ودفعاً لأىاحتمال من غلبة اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: «فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ».

لكن إبراهيم عليه السلام طمأنهم بعدم دخول اليأس إلى قلبه، لأنّه مطمئن من أنّ أمر القدرة الإلهية نافذ فى جميع أرجاء الكون حتى مع خرق النواميس الطبيعية وبدون الخلل فى الموازنة، «قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ».

إنّ الضالين هم الذين لا ـ يعرفون اللّه وقدرته المطلقة، اللّه الذى خلق الانسان بنباءه العجيب المحيّر من ذرّة تراب ومن نطفة حقيرة ليخرجه ولداً سويّاً، اللّه الذى حوّل نخلة يابسة إلى حاملة للثمر بإذنه، اللّه الذى جعل النار برداً وسلاماً .. هل من شك بأنّه سبحانه قادر على كل شىء، بل وهل يصح ممن آمن به وعرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته؟!

وراود إبراهيم عليه السلام- بعد سماعه البشارة- أنّ الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، وما البشارة إلّامهمة عرضية ضمن مهمتهم الرئيسية، ولهذا «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ».

ومع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السلام المرهف وأنّه دقيق فى كل شىء ولا يقنع بالعموميات، فبيّنوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله «إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ».

إنّ ظاهر تعبير «آل لوط» وما ورد من تأكيد بكلمة «أجمعين» سيشمل امرأة لوط الضّالة التى وقفت فى صف المشركين، ولعلّ إبراهيم كان مطلعاً على ذلك، ولذا أضافوا قائلين: «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۰

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (۶۱) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۶۲) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵) وَ قَضَيْنَا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (۶۶) وَ جَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قَالَ إِنَّ هؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ (۶۹) قَالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (۷۰) قَالَ هؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (۷۱) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (۷۵) وَ إِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (۷۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) عاقبة مذنبى قوم لوط: طالعتنا الآيات السابقة بقصة اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء وبين إبراهيم عليه السلام وهذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصة فتبتدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السلام. فنقرأ أوّلًا: «فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ».

فالتفت إليهم لوط «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ».

یقول المفسرون: قال لهم ذلک لما کانوا علیه من جمال الصورۀ ریعان الشباب، وهو یعلم ما کان متفشیاً بین قومه من الانحراف الجنسی .. فمن جهۀ، هم ضیوفه ومقدمهم مبارک ولابد من إکرامهم واحترامهم، ولکن المحیط الذی یعیشه لوط علیه السلام مریض وملوّث.

ولکن الملائکۀ لم یترکوه وهذه الهواجس طویلًا حتی سارعوا إلی القول: «قَالُوا بَلْ جِئْنَاکَ بِمَا کَانُوا فِیهِ یَمْتَرُونَ». أی: إنّنا جئنا بالعذاب الذی واعدتهم به کثیراً، وذلک لأنّهم لم یعتنوا ولم یصدّقوا بما ذکرته لهم.

ثم أکّدوا له قائلین: «وَأَتَیْنَاکَ بِالْحَقّ». أی: العذاب الحتمی والجزاء الحاسم لقومک الضالین.

ثم أضافوا لزیادۀ التأکید: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

فهؤلاء القوم قد قطعوا کل جسور العودۀ ولم یبق فی شأنهم محلّاً للشفاعۀ والمناقشۀ، کی

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۱

لا یفکّر لوط فی التشفّع لهم ولیعلم أنّهم لا یستحقونها أبداً.

ثم قالت الملائکۀ للوط: أخرج وأهلک من المدینۀ لیلًا حین ینام القوم أو ینشغلوا بشرابهم وشهواتهم، لأجل نجاۀ الثلّۀ المؤمنۀ من قومه (وهم أهله ما عدا زوجته).

«فَأَسْرِ بِأَهْلِکَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّیْلِ» وکن خلفهم کی لا یتخلف أحد منهم ولتکون محافظاً ورقیباً لهم «وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ» وعلی أن یکون نظرکم إلی الأمام «وَلَا یَلْتَفِتْ مِنکُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ». أی: إلی أرض الشام، أو أیّ مکان آخر یکون فیه الناس مطهرین من هذه الآثام.

ثم ینتقل مجری الحدیث حین یقول تعالی: «وَقَضَیْنَا إِلَیْهِ ذلِکَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِینَ». أی: سوف لا یبقی منهم أحد عند الصباح.

ومن الملفت للنظر، أنّ القرآن قد ترک القصۀ عند هذا الحد وعاد إلی بدایتها لیعرض ما ترک القول فیه- لسبب سنشیر إلیه فیما بعد- فیقول: «وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِینَةِ یَسْتَبْشِرُونَ». أی:

إنّهم قد ظنوا بحصول لقمۀ جدیدۀ سائغۀ عن طریق ضیوف لوط.

وحینما سمع لوط أصواتهم وضجیجهم أغتمّ غمّاً شدیداً لأجل ضیوفه، لأنّه ما کان یدری أنّهم ملائکۀ العذاب إلی ذلک الوقت ولهذا: «قَالَ إِنَّ هؤُلَاءِ ضَیْفِی فَلَا تَفْضَحُونِ».

أی: إن کنتم لا تؤمنون باللّه ولا تصدّقون بالنبی ولا تعتقدون بثواب وعقاب، فراعوا حق الضیافۀ التی هی من السنن المتعارف علیها عند کل المجتمعات سواء کانت مؤمنۀ أم کافرۀ، أیّ بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانیۀ، فإن لم یکن لکم دین فکونوا أحراراً فی دنیاکم!

ثم أضاف قائلًا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ» أمام ضیفی.

ولکنهم من الوقاحۀ والإصرار علی الانحراف بحیث صاروا لا یشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا یحاججون لوطاً ویحاسبونه، وکأنّه إرتکب جرماً فی استضافته لهؤلاء القوم «قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَکَ عَنِ الْعلَمِینَ»، باستضافتهم! فلماذا خالفت أمرنا؟!

وکان قوم لوط من البخل بحیث إنّهم لا یحبّون الضیافۀ، وکانت مدینتهم علی طریق القوافل، ویبررون فعلهم القبیح ببعض الواردین لدفع الضیوف ولأجل أن لا ینزل عندهم أحد من القوافل المارّۀ، وتعارفوا علی ذلک حتی أصبح عندهم عادۀ.

وکما یبدو أنّ لوطاً کان حینما یسمع بأحد الغرباء یدخل المدینۀ یسرع لاستضافته خوفاً

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۲

علیه من عمل قومه الخبیث، ولما علم أهل المدینۀ بذلک جاؤوا إلیه غاضبین ونهوه عن أن یستضیف أحداً مستقبلًا. وعلیه، فکلمۀ

«العالمين» فى الآية أعلاه- كما يبدو- إشارة إلى عابرى السبيل، ومن هم ليسوا من أهل تلك المدينة.

وعنـدما رآهم لوط على تلـك الحال من الوقاحـة والجسارة، أتاهم من طريق آخر لعلهم يسـتفيقون من غفلتهم وسـكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلماذا تسلكون سبيل الانحراف ولا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج): «قَالَ هؤُلَاءِ بَنَاتِى إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ».

مما لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لـذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره، ولكن لوطاً الذى كان يهدف إلى إلقاء الحجة عليهم أراد أن يقول لهم: إنّنى مسـتعد إلى هـذه الدرجـة للتضـحية من أجل الضـيف، وكذلك لأجل إنقاذكم من الفساد ونجاتهم من الإنحراف.

لكن الويـل، كل الويل من سـكرات الشـهوة، الانحراف والغرور والعناد .. التى مسـحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانيـة وأفرغتهم من العواطف البشـرية، والتى بها يحسّون بالخجل والحياء أمام منطق لوط عليه السلام أو أن يتركوا بيت لوط وينسحبوا عن موقفهم، ولكن أنّى لهم ذلك، والأكثرية بسبب عدم تأثّرهم بحديث لوط استمروا فى غيّهم وأرادوا أن يمدّوا أيديهم إلى الضيوف.

وهنا يخاطب اللَّه تعالى نبيّه قائلًا: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ».

وبعـد ذلك يبلغ كلام اللَّه تعالى عن هؤلاء القوم الـذروة حينما يبيّن عاقبتهم السيئة فى آيتين قصـيرتين وبشـكل قاطع مليء بالدروس والعبر بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ».

أى صوت شديد عند شروق الشمس.

ويمكن حمل «الصيحة» على أنّها صاعقة عظيمة أو صوت زلزلة رهيب.

ولم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضاً «فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا».

وزيد فى التنكيل بهم «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجّيلٍ».

ثم إنّ نزول هـذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصـيحة الرهيبه، قلب المدينة، المطر الحجرى)- رغم أنّ كل واحدة منهنّ كانت تكفى لقطع دابر القوم- كان لمضاعفة عذابهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٦٣

لشدة فسادهم وجسارتهم وإصرارهم على إدامة التلوّث بتلك القبائح الشنيعة، وكى يكون عبرة لمن يعتبر.

وهنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائـج الأخلاقيـة والتربويـة فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّـمِينَ». العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراستهم وذكائهم ونظرهم الثاقب ويحملون من كل إشارة حقيقة ومن كل تنبيه درساً.

ولا تتصوروا أنّ آثارهم ذهبت تماماً، بل هى باقية على طريق القوافل والمارّة «وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ».

ثم تدعو الآية المؤمنين إلى التفكر ملياً فى هذه القصة واستخلاص العبر منها: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ».

وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) خاتمـة أصـحاب الأيكـة وأصـحاب الحجر: يشـير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى قصّتين من قصـص الامم السالفة، وهمـا (أصـحاب الأيكـة) و (أصـحاب الحجر) ليكمـل البحث الـذى عرضه فى الآيـات السابقـة حول قوم لوط. يقول أوّلـاً: «وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ». «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» وعاقبناهم على ظلمهم واستبدادهم ..

وجعلنـا أرضـهم وأرض قوم لوط- المتقدمـة قصّ تهم- على طريقكم «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ». فانظروا إليها وإلى عاقبـة أمرهم، واعتبروا يا اولى الألباب.

«الأيكـة»: هى الأشـجار المتشابكـة مع بعضـها، و «أصـحاب الأيكـة»: هم قوم «شـعيب» الذين عاشوا فى بلدة مليئة بالماء والأشـجار بين

الحجاز والشام وكانت حياتهم مرفّهة ثريّة فاصيبوا بالغرور والغفلة، فأدّى ذلك إلى الإحتكار والفساد فى الأرض.

وقد دعاهم شعيب عليه السلام إلى التوحيد ونهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على الحال التى هم عليها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۴

ومن خلال ما بيّنته الآيات فى سورة هود، فإنّهم لم ينصاعوا للحق ولم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب اللَّه المهلك. وورد ذكرهم مفصّلًا فى الآيات (۱۷۶) حتى (۱۹۰) من سورة الشعراء.

أمّا «أصحاب الحجر» فهم قومٌ عُصاة عاشوا مرفّهين فى بلدة تدعى «الحجر» وقد بعث اللَّه إليهم نبيّه صالح عليه السلام لهدايتهم.

ويقول القرآن عنهم: «وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ».

هذه البلدة كانت على طريق القوافل بين المدينة والشام فى منزل يسمّى (وادى القرى فى جنوب (تيماء) ولا أثر لها اليوم تقريباً.

ومن الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء فى خبر أصحاب الحجر (وكذلك قوم نوح وقوم شعيب وقوم لوط فى الآيات ۱۰۵ و ۱۲۳ و ۱۶۰ من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام اخر كذّبت الأنبياء عليهم السلام والواضح من خلال ظاهر القصص أنّ لكل قوم كان نبى واحد لا أكثر.

ولعل مجىء هذا التعبير (المرسلين) فى هذه الآية، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد وهدف واحد، وبينهم درجة من الصلة بحيث إنّ تكذيب أىّ منهم هو تكذيب للجميع.

ويستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: «وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ». وموقف الإعراض المشار إليه- كما يبدو- هو عدم إستعدادهم لسماع الآيات والتفكّر بها.

وتشير الآية إلى أنّهم كانوا من الجدّ والدقّة فى امور معاشهم وحياتهم الدنيوية حتى أنّهم «وَكَانُوايَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ».

وهو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبليّة، بالإضافة إلى ما توصّلوا إليه من مدنية متقدمة، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول والعواصف والزلازل.

والعجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز وتحصين مستلزمات حياته الفانية، ولا يعير أىّ اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المآل لأن لا يكلّف نفسه بسماع آيات اللَّه والتفكر بها.

وأىّ عاقبة ينتظرون بعد عنادهم وكفرهم غير أن يطبّق عليهم القانون الإلهى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۵

الموعودين به (البقاء للإصلاح) وعدم إعطاء حق إدامة الحياة لأقوام فاسدين ومفسدين ..

فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، ولهذا يقول القرآن: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ».

وكانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمّر نزل على دورهم.

فالعذاب الإلهى لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، ولا البيوت المحصنة، ولا الأبدان القوية أو الأموال الوافرة، ولهذا يأتى فى نهاية قصّتهم «فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (۸۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۶) وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (۸۷) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (۸۸) وَ قُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (۸۹) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (۹۰) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (۹۱) يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة- كقوم لوط وقوم شعيب وصالح- إلى مسألة التوحيد والمعاد، لأنّ سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدة صحيحة، ولعدم إرتباطه بمسألة المبدأ والمعاد، فيشير إليهما معاً فى آية واحدة: «وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

إِلَّا بِالْحَقِّ». فنظامها محسوب ومحکم وهو حق، وکذا هدف خلقها حق.

فیکون هذا النظام البدیع والخلق الدقیق المنظّم دلیلًا واضحاً علی الخالق العالم القادر جلّ وعلا، وهو حق أیضاً، بل هو حقیقۀ الحق، وکل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، وکل شیء لا یرتبط به سبحانه فهو باطل ... هذا ما یخصّ التوحید أمّا المعاد فیقول: «وَإِنَّ السَّاعَۀَ لَأَتِیَۀٌ». وإن تأخّرت فإنّها آتیۀ بالنتیجۀ.

إنّ هذا العالم إنّما یکون حقاً عندما یکون لهذه الأیام الدنیویۀ الملیئۀ بالآلام والمتاعب هدف عال یبرر خلق هذا الوجود الکبیر- فلیس الغرض من هذه الدنیا أن یعیش فیها الانسان هذه الحیاۀ وتنتهی- ولهذا فمسألۀ خلق السماوات والأرض وما بینهما إنّما هو من موقع الحق ویدل علی وجود یوم القیامۀ والحساب، وإلّا لکان الخلق عبثاً ولیس حقاً، فتأمل.

وبعد ذلک یأمر اللَّه تعالی نبیّه الکریم صلی الله علیه و آله أن یقابل عناد قومه وجهلهم وتعصّبهم

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۶۶

وعداءهم بالمحبۀ والعفو وغضّ النظر عن الذنوب، والصفح عنهم بالصفح الجمیل، أی غیر مصحوب بملامۀ «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِیلَ».

لأنّک تملک الدلیل الواضح علی ما أمرت بالدعوۀ إلیه، فلا تحتاج وإیاهم إلی الخشونۀ. بالإضافۀ إلی أنّ الخشونۀ مع الجهلۀ غالباً ما تؤدّی بهم إلی الردّ بالمثل، بل وبأشد من ذلک.

«الصفح»: هو وجه کل شیء، کوجه الصورۀ، ولهذا فقد جاءت کلمۀ «فاصفح» بمعنی أدر وجهک وغضّ النظر عنهم.

وبما أنّ إدارۀ الوجه وصرفه عن الشیء قد تعطی معنی عدم الإهتمام والنفرۀ وما شابه ذلک وکذلک معنی العفو والصفح، فقد ذکرت الآیۀ المتقدمۀ کلمۀ «الجمیل» بعد «الصفح» لکی تحدد المعنی الثانی.

الآیۀ التالیۀ بمنزلۀ الدلیل علی وجوب العفو والصفح الجمیل، حیث تقول: «إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْخَلّقُ الْعَلِیمُ».

ثم یواسی اللَّه تعالی نبیه الکریم صلی الله علیه و آله أن لا تقلق من وحشیۀ الأعداء وکثرتهم وما یملکون من إمکانات مادیۀ واسعۀ، لأنّ اللَّه أعطاک ما لا یقف أمامه شیء: «وَلَقَدْ ءَاتَیْنَاکَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِی وَالْقُرْءَانَ الْعَظِیمَ».

اعتبر أکثر المفسرین أنّ «سبعاً من المثانی» کنایۀ عن سورۀ الحمد، والروایات کذلک تشیر لهذا المعنی. والداعی لذلک کونها تتألف من سبع آیات، لأهمیتها وعظمۀ محتواها فقد نزلت مرّتین علی النبی محمّد صلی الله علیه و آله.

إنّ اللَّه تعالی قد صرّح لنبیه الکریم صلی الله علیه و آله بأنّک قد ملکت سنداً عظیماً (القرآن)، ولا تستطیع أی قوۀ فی عالم الوجود أن تصرعه.

وبالذات سورۀ الفاتحۀ منه التی لها من المحتوی والأثر بحیث لو إرتبط العبد بربّه ولو للحظۀ واحدۀ لحلّقت روحه لساحۀ قدس الرب، وهی تعیش حال التعظیم والتسلیم والمناجاۀ والدعاء.

وبعد هذه الهبۀ العظیمۀ یأمر اللَّه تعالی نبیه الکریم صلی الله علیه و آله بأربعۀ أوامر فیقول له أوّلًا: «لَا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلَی مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ». فمتاع الحیاۀ الدنیا لیست دائمۀ ولا خالیۀ من التبعات، والحفاظ علیها أمر صعب فی أحسن الحالات.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۶۷

ثم یقول فی الأمر الثانی: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَیْهِمْ» لما عندهم من أموال ونعم مادیۀ.

فی تفسیر القمّی عن الإمام الصادق علیه السلام: «لمّا نزلت هذه الآیۀ لا تمدّنّ عینیک؛ قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله من لم یتعزّ بعزاء اللَّه تقطّعت نفسه علی الدنیا حسرات، ومن رمی بنظره إلی ما فی ید غیره کثر همّه ولم یشف غیظه ومن لم یعلم أنّ اللَّه علیه نعمۀ إلّافی مطعم أو ملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه ومن أصبح علی الدنیا حزیناً أصبح علی اللَّه ساخطاً ومن شکا مصیبۀ نزلت به فإنّما یشکو ربّه ومن دخل النار من هذه الأمّۀ ممن قرأ القرآن فهو ممن یتّخذ آیات اللَّه هزواً ومن أتی ذا میسرۀ فیخشع له طلب ما فی یدیه ذهب ثلثا دینه».

فالأمر الأوّل یتعلّق بعدم الإهتمام والتوجه نحو النعم المادیة، والأمر الثانی یتعلق بعدم التأثر لفقدانها.

والأمر الثالث: جاء بخصوص ضرورة اللین والتواضع مع المؤمنین حیث یقول:

«وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِلْمُؤْمِنِینَ».

إنّ هذا التعبیر، کنایة جمیلة عن التواضع والمحبة والملاطفة، فالطیور حینما ترید إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها، فتجسّم بذلک أعلی صور العاطفة والحنان وتحفظهم من الحوادث والأعداء، وتحمیهم من التشتت.

ونصل إلی الأمر الرابع: «وَقُلْ» لهؤلاء الکفرة المنعّمین بکل حزم «إِنّی أَنَا النَّذِیرُ الْمُبِینُ». قل: أنذرکم من أمر اللّه بنزول عذابه علیکم «کَمَا أَنزَلْنَا عَلَی الْمُقْتَسِمِینَ الَّذِینَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِینَ». أی: الذین قسّموا الآیات القرآنیة أصنافاً، فما کان ینفعهم أخذوه، وما لا ینسجم ومشتهیاتهم ترکوه.

والمؤمن الخالص لا یجرؤ علی تجزئة أو تقسیم أو تبعیض الأحکام الإلهیة.

فَوَ رَبِّکَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۹۲) عَمَّا کَانُوا یَعْمَلُونَ (۹۳) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ (۹۴) إِنَّا کَفَیْنَاکَ الْمُسْتَهْزِءِینَ (۹۵) الَّذِینَ یَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۹۶) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِمَا یَقُولُونَ (۹۷) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ کُنْ مِنَ السَّاجِدِینَ (۹۸) وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ (۹۹) إصدع بما تؤمر: یبیّن القرآن فی أواخر سورة الحجر مصیر المقتسمین الذین ذُکروا فی

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۶۸

الآیات السابقة فیقول: «فَوَ رَبّکَ لَنَسلَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ عَمَّا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

إنّ عالم السر والعلن ومن لا یخفی علیه ذرة ما فی السماوات والأرضین لا یسأل لکشف أمر خفی علیه (سبحانه وتعالی عن ذلک) وإنّما السؤال لتفهیم المسؤول قبح فعله، فالسؤال قسم من العقاب الروحی.

ثم یأمر اللّه تعالی نبیه صلی الله علیه و آله بقوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ». أی: لا تخف من ضوضاء المشرکین والمجرمین، ولا تضعف أو تترد أو تسکت، بل أدعهم إلی رسالتک جهاراً.

«وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ» ولا تعتن بهم.

«فاصدع»: من مادة «صدع» وهی لغة بمعنی «الشق» بشکل مطلق، أو شق الأجسام المحکمة بما یکشف عمّا فی داخلها، ویقال أیضاً لألم الرأس الشدید (صداع) وکأنّه من شدّته یرید أن یشق الرأس. وهی هنا ... بمعنی: الإظهار والإعلان والإفشاء.

فالإعراض عن المشرکین هنا بمعنی الإهمال، أو ترک مجاهدتهم وحربهم، لأنّ المسلمین فی ذلک الوقت لم تصل قدرتهم- بعد- لمستوی المواجهة مع الأعداء وحربهم.

ثم یطمئن اللّه تعالی نبیه صلی الله علیه و آله تقویة لقلبه: «إِنَّا کَفَیْنَاکَ الْمُسْتَهْزِءِینَ».

ثم یصف المستهزئین: «الَّذِینَ یَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ».

کأنّ القرآن یرید أن یقول: إنّ أفکار وأعمال هؤلاء بنفسها عبث، سخف، حیث یعبدون ما ینحتونه بأیدیهم من حجر وخشب، ودفعهم جهلهم لأن یجعلوا مع اللّه- ما صنعوه بأیدیهم- آلهة! ومع ذلک ... یستهزؤون بک.

ولمزید من التأکید علی اطمئنان قلب النبی صلی الله علیه و آله یضیف تعالی قائلًا: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ یَضِیقُ صَدْرُکَ بِمَا یَقُولُونَ».

فروحک اللطیفة وقلبک الطیّب الرقیق لا یتحملان تلک الأقوال السیئة وأحادیث الکفر والشرک، ولذلک یضیق صدرک.

ولکن لا تحزن من قبح أقوالهم «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبّکَ وَکُن مّنَ السَّاجِدِینَ». لأنّ تسبیح اللّه یذهب أثر أقوالهم القبیحة من قلوب أحبّاء اللّه.

ولهذا نقرأ فی روایة نقلًا عن ابن عباس أنّه قال: کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله إذا أحزنه أمر فزع إلی الصلاة.

ثم یعطی اللّه نبیه صلی الله علیه و آله آخر أمر فی هذا الشأن: «وَاعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ».

إنّ العبادة مدرسة عالیة للتربیة، لأنّها توقظ عقل الإنسان، وتوجّه فکره نحو المطلق،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۹

وتغسل غبار الذنوب والغفلة من قلبه وروحه، وتنمّی فیه الصفات الإنسانیة الرفیعة، وتقوّی إیمانه وتجعله أکثر وعیاً واکبر مسؤولیة.

فلا یمکن للإنسان الواقعی أن یستغنی عن هذه المدرسة الراقیة، أمّا الذین یعتقدون بأنّ الإنسان قد یصل إلی درجة معینة لا یحتاج عندها إلی العبادة، فاولئک إمّا أنّهم یعتبرون عملیة تکامل الإنسان محدودة وتنتهی بحد معین، أو أنّهم لم یدرکوا معنی العبادة حقاً.

«نهایة تفسیر سورة الحجر»

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لَم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام– بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.